بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية

وزارة التعليم العالي

جامعة أم القرى

كلية اللغة العربية

نموذج رقم : (٨)

إجازةُ أُطروحةٍ علميّةٍ في صيغتها النّهائيّةِ بعدَ إجراء التّعديلات :

الاسمُ الرُّباعيُّ : محمد عبد الرحمن حسين العبدلي الرّقم الجامعيّ : (٤٢١٩٨٤٠١٥)

كلّيّة : اللغة العربيّة قسم : الدّراسات العليا العربيّة فرع : الأدب

الأُطروحةُ مقدّمةٌ لنيلِ درجة : الماجستير في تخصُّص : الأدب

عنوانُ الأُطروحةِ :(الجانب الخلقي في المعلقات العشر

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، والصّلاةُ والسّلامُ على أشرفِ الأنبياءِ والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين ؛ وبعد :

فبعد إجراء التّصويبات المطلوبة التي أوصتْ بها اللجنةُ التي ناقشتْ هذه الأطروحةَ بتاريخ : ٢٨/٧/١٤٢٣ هـ ؛ توصي اللجنةُ بإجازتها في صيغتها النّهائيّة المرفقة

والله الموفّق ،،،،

أعضاء اللجنة :

المشرف : د. حسن علي الله المناقش الأوّل : د. محمود حسن زيني المناقش الثّاني : د. محمد عبد الله الزايدي

التوقيع : التوقيع : التوقيع :

يعتمد : رئيس قسم الدّراسات العليا العربيّة

أ.د : سليمان بن إبراهيم العايد

التّوقيع :

جامعة أم القرى

كلية اللغة العربية

مكة المكرمة





الجانب الخلقي في المعلقات العشر

"القيم والقضايا الأخلاقية وأثرها في التشكيل"

بحث مقدم من الطالب

محمد بن عبد الله بن حسين الغامدي

لنيل درجة الماجستير في الأدب العربي

الرقم الجامعي

٤١٩٨٤٠١٥

إشراف الأستاذ الدكتور

مصطفى بن عبد الواحد بن إبراهيم

١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص الرسالة

هذه الرسالة تتناول بالدراسة والتحليل القيم والقضايا الخلقية وأثرها في تشكيل القصيدة العربية القديمة ممثلة في نصوص المعلقات العشر .

وقد رأيت أن أبدأ الرسالة هذه بدراسة لمفهوم الأخلاق ومدى العلاقة بينها وبين الأدب فتبين لي أن الأدب شعره ونثره ما هو إلا وعاء آمن وأداة صالحة حفظت لنا مظاهر وصور الأخلاق حية لم تمت إلى أن يشاء الله .

ثم كانت البداية بالاستئناس ببعض ما ورد في دواوين الشعراء العشرة من مظاهر خلقية تعززت بها الدراسة الموضوعية والتطبيقية للجانب الخلقي في المعلقات العشر لنخرج من ذلك بمفهوم واضح للالتزام الأدبي عند الشاعر الجاهلي اتخذ مناحٍ ثلاثة :

١-المنحى الخلقي .　　٢-المنحى القبلي .　　٣-المنحى الاختلاقي .

شكلتها بواعث الأخلاق المتمثلة في :

١-الفطرة .

٢-البيئة .

٣-الضمير الحي .

٤-المحافظة على المفاخر واتقاء الذم بسوالب الفضائل

٥-الحرص على نيل السؤدد .

وقد تتبعت الجانب الخلقي في نصوص المعلقات العشر فوجدته بمظاهره وصوره المتعددة التي ترجع في الأصل إلى أمهات الفضائل الإنسانية الأربع (العقل – الشجاعة – العدل – العفة) يمثل المنهل الذي كان الشعراء الجاهليون منه ينهلون وعنه يصدرون مما يؤكد أن وحدة التصور لدى الشعراء الجاهليين مرده إلى الوحدة في التصور الخلقي ليس غير .

وقد أثبتت الدراسة الموضوعية في هذه الرسالة أيضًا من خلال القيام بوضع استبانة توضح فضائل ورذائل الشعراء العشرة في معلقاتهم أن مظاهر الفضيلة عند كل شاعر هي الأغلب مما يؤكد أن الأصل في الإنسان حب الفضيلة ومكارم الأخلاق . وأن تورط شعراء المعلقات في الوقوع في بعض مظاهر الرذائل مرده إلى :

١-الترف الداعي إلى الفسق والرذيلة . ٢-الخواء الروحي . ٣-المرحلة العمرية . ٤-العنصرية والظلم .

أما الدراسة الفنية لهذا الموضوع فقد تناولت عناصر الصورة الأدبية والبحث في مصادر الصورة الفنية لأصول الأخلاق في نصوص المعلقات والمتمثلة في : (١-المصدر الطبيعي . ٢-المصدر الحيواني . ٣-المصدر البشري) استمد شاعر المعلقة منها صوره بأنماطها الأربعة : (التشبيه ، المجاز ، الكناية ، الرمزية) ليتشكل من خلالها أنواع البناء الفني : (التتابعي – الممتد – التقابلي) وقد أثبتت هذه الدراسة الفنية صدق القول بالوحدة الموضوعية للقصيدة الجاهلية وأبطلت مقولة إن القصيدة العربية تعتمد على وحدة البيت .

الباحث

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله العلي الأعظم ، الذي علّم بالقلم ، علّم الإنسان ما لم يعلم ، خلق ابن آدم على الفطرة وكرمه بالعقل والإدراك وأعلى قدره ، وجعل للفضيلة في نفسه مكانًا مهما ضيّقت عليها الرذائلُ الخناق ، ثم الصلاة والسلام على من أرسله الله إلى الثقلين ليتمم مكارم الأخلاق .

ثم أما بعد :

فقد كتب الله لي وشرّفني بالالتحاق بالدراسات العليا في هذه الجامعة العريقة –جامعة أم القرى – فعقدت العزم على أن أبحث فيما يخدم لغتنا العربية – لغة القرآن وكنز البيان – فوقع اختياري بتوفيق من الله ثم ميل في نفسي وتوجيهات سديدة من أستاذي وشيخي القدير الأستاذ الدكتور مصطفى عبد الواحد على اختيار موضوع رسالتي هذه (الجانب الخلقي في المعلقات العشر. القيم والقضايا الأخلاقية وأثرها في التشكيل)

إن البحث في الجانب الخلقي في شعرنا العربي لم ينل ما يستحقه من اهتمام الباحثين والأدباء والنقاد رغم أن بواكير الدراسات الأدبية الحديثة اتخذت من الأخلاق موضوعًا رئيسًا فقد وضع أحمد أمين مؤلفًا أسماه (كتاب الأخلاق) ونال الدكتور زكي مبارك درجة الدكتوراه في الأدب في أطروحته التي حملت عنوان (الأخلاق عند الغزالي) ويعتبر ابن مسكويه أكبر باحث عربي في الأخلاق وله كتاب بعنوان (تهذيب الأخلاق) ولابن أبي الدنيا كتاب (مكارم الأخلاق) كما تعرض للجانب الخلقي في الأدب العربي كثير من الأدباء والنقاد العرب قديمًا وحديثًا ضمن مؤلفاتهم كابن طباطبا في (عيار الشعر) وقدامة في (نقد الشعر) وابن شرف القيرواني في (مسائل الانتقاد) وابن رشيق في (العمدة في محاسن الشعر وآدابه) وفي العصر الحديث نجد كتب النقد والأدب تشير إلى الأخلاق ومدى التعبير عنها في الأدب حتى أن منهم من نجده يضع الأخلاق أُسًّا من الأسس الجمالية في النقد العربي كما نرى ذلك عند الدكتور/عز الدين إسماعيل في كتابه (الأسس الجمالية في النقد العربي) إلا أن جميع أولئك – حسب علمي – لم يتطرقوا إلى أثر الأخلاق في تكوين الاتجاه أو الأثر التشكيلي للنص الأدبي .

إن الباحثين قلما تناولوا العلاقة بين الأخلاق والأدب – خاصة الشعر الجاهلي – رغم أن الشعراء الجاهليين " ضمنت أشعارها من التشبيهات ما أدركه من ذلك عيانها وحسها إلى ما في طبائعها وأنفسها من محمود الأخلاق ومذمومها في رخائها وشدتها ورضاها وغضبها وفرحها

وغمها وأمنها وخوفها، وصحتها وسقمها ، والحالات المتصرفة في خَلْقها وخُلُقها من الطفولة إلى حال الهرم " [١].

كما أن هناك – وللأسف الشديد – من يهمل الحديث في الجانب الخلقي عند الجاهليين على وجه الخصوص .

ظنًا منه أن ذلك المجتمع كان مجتمعًا غارقًا في الأخلاق الذميمة ومنسلخًا من الأخلاق الحميدة مما يقوي قول أعدائنا بأن العرب أمة همجية غير منظمة منذ وجودها إلى يومنا هذا بل ربما امتدَّ ذلك الحكم الجائر والظالم منهم إلى المساس بأخلاقيات عصر صدر الإسلام . ونحن لا ننكر أن العرب كانوا في ضلالة عمياء وجهالة جهلاء إلى أن جاء الإسلام فأخرجهم من ظلمات الجهل إلى نور الإيمان لكننا نقول :إن الفضيلة والخلق الكريم لابد أن يكون له وجود عند كل أمة وفي كل زمان ومكان مهما عظم الطغيان والشر فلا بد أن يكون للفضيلة مكان والعرب كانوا من بين الأمم التي تتمتع بالاعتصام بالقيم والمثل العليا وهي إضافة إلى كونها فطرة جبلوا عليها أو اضطرهم معيشتهم إلى التحلي بها فهي من بقايا تعاليم الخليل عليه السلام جد الحجازيين بل أن هناك "من جعل العرب كلها من إسماعيل " [٢] لكنه " لما كانت كل فضيلة وسطًا بين رذيلتين فإنهم أمعنوا وتغالوا في كل فضيلة حتى بلغوا طرفها الأعلى فذموا البخل باعتباره الطرف الأدنى للكرم وجاوزوا حد الكرم وبلغوا حد التبذير وذموا الجبن وتعدوا حد الشجاعة فبلغوا حد التهور "[٣] فبعث الله محمدًا عليه الصلاة والسلام ليتمم مكارم الأخلاق ويهذبها فما إن دخل العرب في الإسلام وتهذبت أخلاقهم حتى زادهم الله عزًّا وفتحوا مشارق الأرض ومغاربها .
وقد خرجت الرسالة بذلك كما يلي :

* تمهيد للدراسة بدأت فيه بالحديث عن مفهوم الأخلاق لغة واصطلاحًا كما تبدى عند العرب الأوائل وكما استقر عليه رأي الباحثين المعاصرين وختمته بتساؤلات البحث الرئيسة التي بلغت عشرة تساؤلات كبيرة تفرع منها عدد من التساؤلات الفرعية أثناء العمل البحثي في هذه الرسالة .

* الفصل الأول وقد احتوى البحث في الأخلاق والأدب من حيث :

أ – تعريفهما ومدى العلاقة بينهما .

١– ابن طباطبا – عيار الشعر – ص : ١٥ .
٢– أنظر تفصيل القضية في كتاب قطوف الإيمان من زهر الأفنان شرح حذيفة بن الونان . ص : ١٠٠.
٣– د . مصطفى حميدة – الإسلام دين العقل والفطرة – ص : ٢٧.

ب- نظرية الالتزام في الأدب .ومناحي الالتزام عند الأديب العربي في العصر الجاهلي

ج - أثر البيئة في أخلاق الجاهليين .

د - حياة الجاهليين وبواعث الأخلاق عندهم .

هـ - أخلاق العرب في الجاهلية كما تظهر في أشعارهم .-دواوين شعراء المعلقات نموذجًا .

أما الفصل الثاني : فقد احتوى البحث في :

١- توطئة تتناول الشعر العربي الجاهلي كما يجب أن نفهمه بعيدًا عن إسقاطات المذاهب الأدبية الغربية وخاصة الرمزية وكيف يجب علينا أن نعود إلى كتب التراث لنستنبط منها مفهوم الرمز عند العرب فيما وصلوا إليه في بحوثهم واجتهاداتهم وما يتوجب علينا نحن إزاء ذلك كله من إضافات بنّاءة .

٢- دراسة تطبيقية لمظاهر وصور الأخلاق في نصوص المعلقات العشر ثبت من خلالها أن تصور شعراء المعلقات العشر اتحد في ظل الأخلاق لا في ظل الدين والطقوس العبادية كما يزعم بعض الباحثين إذ أي دين كان يجمع العرب قبل الإسلام ؟!

٣- ظهر لي من خلال تلك الدراسة التطبيقية أيضًا أن الأخلاق نشاط إنساني له مجالاته عند شعراء المعلقات العشر وأن تلك المجالات يمكن حصرها في :

١- البيئة الطبيعية وظواهرها . ٢- الإنسان . ٣- الحيوان .

٤- المجتمع . ٥- الزمن . وعلى ذلك فإن :

أمهات الفضائل الإنسانية النفسية المتعارف عليها عند جميع البشر و المتمثلة في : (العقل ، الشجاعة ، العدل ، العفة) تمثل الإطار الخلقي في المعلقات العشر من خلال تلك المجالات الخمسة ، وأن المظاهر الجسمية أو العرضية التي يذكرها الشاعر ما هي إلا متممات للفضائل النفسية ، وقد وجدت أن كل معلقة تنطوي أبياتها على أهداف ومظاهر وصور خلقية متنوعة لكنها لم تخرج عن الانتماء إلى واحدة من الفضائل الأربع السالفة الذكر مما يؤكد أن وحدة التصور لدى أولئك الشعراء مردها إلى وحدة التصور الخلقي ليس غير وأن المعنى الظاهر للقصيدة والذي لا يمكن مصادرته بالطبع يحمل وراءه معاني خفية يقصدها الشاعر ويرمز إليها لا يعرفها إلا الراسخون في الأدب والشعر ، ومن خفي عليه شيء منها فإنه لا يعدم الاستمتاع بالمعنى الظاهر وصوره . إلا أن الشعر العربي ما وجد أصلا إلا لحصول الالتذاذ بتخييل الفضائل كما ذكر ابن رشد وغيره . وقد

قمـــت بوضع استبانة لمظاهر الفضائل والرذائل لكل شاعر من الشعراء العشرة فثبت لي أن مظاهر الفضـــيلة عـــند كل شاعر منهم هي الأغلب مما يؤكد أن الأصل في الإنسان حب الفضيلة ومكارم الأخلاق وأنه مهما خنقت رذائل الشاعر فضائله فإن جذوة الفضيلة باقية ومتأصلة فيه .وإن تورطه في بعض رذائل الأخلاق له أسبابه التي أجملناها عند شعراء المعلقات في :

١- الترف الداعي إلى الفسق والرذيلة . ٣ - المرحلة العمريـــة .

٢- الخواء الروحـــــــي . ٤ - العنصرية والظلم .

أما الفصل الثالث : فقد ضمنته البحث في عناصر الصورة الأدبية الفنية تعريفها وعناصرها تبع ذلك دراســـة تطبيقـــية فنـــية لنصوص المعلقات وما اشتملت عليه من تلك العناصر الفنية ويتخلل تلك الدراســـة الـــرد على آراء بعض الباحثين ، ثم بحثت في مصادر الصورة الفنية للأخلاق عند شعراء المعلقـــات فـــوجدتها لا تخرج عن ثلاثة مصادر: الطبيعي والحيواني والبشري – استمد منها الشاعر الجاهلي صوره الفنية بأنماطها الأربعة (التشبيه ، المجاز ، الكناية ، الرمزية)وأخيرا وجهت وجهي إلى أمـــر مهم هو البناء الفني لصورة الأخلاق في المعلقات العشر فوجدت أن ذلك البناء يتمثل في ثلاثة أنواع هي :

١- البناء التتابعي . ٢ - البناء الممتد . ٣ - البناء التقابلي .

وقـــد ثـــبت لي من خلال أنواع البناء الفني السابقة صدق القول بالوحدة الموضوعية النفسية للقصيدة الجاهلية مما يبطل مقولة : (إن القصيدة العربية القديمة تعتمد على وحدة البيت)

أما لماذا كانت المعلقات العشر هي المعنية بالبحث فمرد ذلك إلى الأسباب التالية :

١- إن المعلقـــات العشـــر مـــن أوثق ما وصلنا من النصوص الجاهلية وإنها " الناطقة بمجد العرب ومحامـــدهم وشـــاهد صدق على أخلاقهم وطباعهم وعاداتهم ولون تفكيرهم " كما أن طولها وتـــنوع موضـــوعاتها ذات الخـــيط النفسي الواحد يجعل منها بيئة خصبة لمثل هذا النوع من الدراسة .

٢- إن المعلقات تعتبر من أشهر الأعمال الشعرية والأدبية الموثقة لتلك الحقبة من الزمان .

٣- إنها النموذج الحي للصورة الكاملة والنهائية للقصيدة الجاهلية وما تحمله من وحدة في التصوير وما تعج به من المظاهر الأخلاقية .

٤- وجـــدت المعلقـــات العشـــر حقـــلاً صالحًا للدراسة الدقيقة والصادقة والبعيدة عن التخبط والعشوائية أو اختيار نصوص قد تكون موضع شبهة في صحة سندها ومتنها .

هـــذا وقد كان الطريق أمامي شائكا نظرًا لما حظيت به نصوص المعلقات من دراسات كثيرة عدا الجانب الخلقي الذي لم يجد من الدارسين والباحثين الاهتمام الكبير–فيما أعلم – و لذا أهيب بطلـــبة العلـــم وزملائي من طلاب الدراسات العليا أن يتجهوا إلى البحث في هذا الكنز العظيم في النصـــوص العـــربية الأخـــرى في أدبنا القديم – على وجه الخصوص –والتي تزخر بمظاهر وصور الفضـــائل والأخـــلاق . هـــذا وإنني لأكرر شكري وتقديري للمشرف على هذه الرسالة الأستاذ الدكـــتور / مصطفى عبد الواحد الذي كان لي عونًا بعد الله تعالى بالرأي والمشورة وتبادل وجهات النظـــر والمســـاعدة بالإرشـــاد إلى المصـــادر والمراجع المعينة التي ربت على مائتين وأربعين مصدرًا ومرجعًـــا ، كما أني لم أُعدم النصيحة والمشورة والمساعدة من إخوان لي من أساتذة وطلاب علم لم يـــبخلوا علـــيّ بما يستطيعون ، وإن أنس لا أنس أسرتي الممثلة في والدي ووالدتي وإخوتي وزوجتي وأبنائـــي الذين كانوا يحرصون كل الحرص على مساعدتي لتخرج هذه الرسالة إلى حيز الوجود ، ولا يفوتني أن أشكر الأستاذين الكريمين :

ســـعادة أ.د / محمـــود حسن زيني وسعادة الدكتور حمد الزايدي لما أولياه من اهتمام وجهد بقـــراءة هـــذه الرســـالة وتقويمها لتظهر بتوفيق الله في أقوم صورة ، وأحسن هيئة ، وأدق معلومة. فللجميع شكري وتقديري ، والحمد لله أولاً وآخـــــرًا .

الباحث

محمد بن عبد الله بن حسين الغامدي

تمهيد

تمهيد :

مفهوم الأخلاق لغة واصطلاحًا كما تبدى لدى العرب وكما استقر عليه رأي الباحثين المعاصرين في المصادر المعتمدة :

جاء في اللسان (الخُلق) بضم اللام وسكونها بمعنى الطبيعة التي يخلق بها الإنسان . وهو الدين والطبع والسجية . والجمع أخلاق[١] والأخلاق جمع خُلُق أو خُلْق ، أي : الدين والعادة والطبع والسجية . ويشتبك معنى خُلُق أو خُلْق مع الخَلْق أي : التقدير والصنع والإنشاء من حيث إن صاحب الخُلُق أو السجية قُدِّر عليهما ، أي : فُطِر أو جُبِل أو طُبِع أو خُلِق عليهما [٢].

وفي قوله تعالى :" وإنك لعلى خلق عظيم "[٣] أراد على عادة عظيمة ، وقد فسرت عائشة رضي الله عنها هذه العادة فقالت :"كان خلقه القرآن " إذ ظل متمسكًا به وبآدابه وأوامره ونواهيه وما يشتمل عليه من المكارم والمحاسن والألطاف[٤] .

وقد حرص الرسول الكريم على الترغيب بمكارم الأخلاق والنهي عن كل ما يشينها فقال :" كرم المرء دينه ومروءته عقله ، وحسبه خُلُقُه"[٥].

والخُلُق :"مجموعة العادات والعواطف والمثل التي تميز الفرد وتجعل أفعاله ثابتة نسبيًا ويمكن توقع صدورها عنه"[٦] و " أما الخلق العظيم الذي وصف الله به محمدًا – ﷺ – فهو الدين الجامع لما أمر الله به مطلقًا "[٧] والخُلُق هو " حال للنفس به يفعل الإنسان أفعاله بلا روية ولا اختيار . والخلق قد يكون في بعض الناس غريزة وطبعًا، وفي بعض الناس لا يكون إلا بالرياضة والاجتهاد "[٨] وذهب علي ابن أحمد الجرجاني في (التعريفات) إلى أن "الخلق هيئة راسخة للنفس تصدر عنها

(١) ابن منظور – لسان العرب – مادة : خلق .
(٢) الفراهيدي – العين : ١٥١/٤، ابن فارس : مقاييس اللغة – ٢١٣/٢.
(٣) سورة القلم : آية/٤.
(٤) ابن منظور – لسان العرب – ١٩٤/٤.
(٥) أخرجه مالك في " الموطأ " – ص : ٢٧٦ ، وأحمد في " مسنده " ٣٦٥/٢ .
(٦) مجدي وهبة – معجم مصطلحات الأدب – ص : ٦٥ .
(٧) ابن تيمية – مجموع الفتاوى – ج: ١٠ – ص : ٦٥٨ .
(٨) يحيى بن عدي – تهذيب الأخلاق – ص : ٤٧.

الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية لأن من يصـــدر منه بذل المال على الندور ، لا يعتبر السخاء من أخلاقه ، وكذلك مـــن تكلف السكوت عند الغضب بجهد ، لا يقال : إن الحِلْـم من أخلاقه . والخلق ليس رهن بالفعل فقط فــرب شخص سخي لكنه لا يستطيع أن يقدم شيئًا لقلة ماله " [(١)].

ويعرف علماء النفس الأخلاق بأنها :" الفلسفة العملية التي تبحث فيمـــا ينبغي أن يكون عليهِ الســـلوك الإنساني . وعليه فإنها تنقسم إلى :

أخـــلاق عملـــية : تـــبحث في الجـــوانب الخلقية للفرد والجماعة في حياتهم المهنيـــة والسياسية.

وأخـــلاق نظـــرية : تبحث في نظرية السلوك . وبالجملة فإن الأخلاق في النظرية الغربية مـــا هي إلا ظواهر اجتماعية تملى على الأفراد دون أن يكون لهم دخل في بنائها على أنها نتاج بيئتها وبنت عصرها.

بيـــنما يـــراها فـــريق مـــن علماء التربية المسلمين بأنسها : ميثاق كامل يشمل كل أعمال الإنسان، وأنها القيم العليا التي يتقيد بها الإنسان في تصرفاته والتي يسعى لإقامة الحياة البشرية على أساسها ، والتي لا يكون إنســـانًا إلا بها وبقدر ما يفقد منها يفقـــد من إنسانيته وما بعث النـــبي – ﷺ – إلا لـيـــتمم مكـــارم الأخـــلاق.. وبظهور المدارس والاتجاهات الفلسفية اختلف مفهوم الأخلاق فمثلاً :

- ترى المدارس المثالية أن الأخلاق : وضع القوانين التي ينبغي أن يسير بمقتضاها السلوك الإنساني بمـــا يحقـــق ذاتـــية الإنسان بما هو إنسان وبالتالي فإنها غاية لا وسيلة . متبعة في ذلك فلسفة سقراط وأفلاطـــون من فلاسفة اليونان .
- بيـــنما يـــرى دعـــاة الفلســـفة الوضـــعية أن الأخلاق : علم وضعي تجريبي يبحث الواقـــع المحســـــــوس الـــذي يعيشـــه الإنسان من عادات وتقاليد وشرائع ، ولذلك فإن الأخلاق عندهم نسبية وليست مطلقة وتخضـــع لظروف المجتمع وأحواله .

---

(١) علي بن أحمد الجرجاني – التعريفات – ص : ١٠٦.

- في الوقت الذي تنفي فيه النظرية المادية صلة الأخلاق بالدين بزعم أنها عبارة عن استجابة النفس للبيئة مثلها مثل السياسة والقوانين تخضع للظروف والأحوال الاقتصادية والسياسية لكل مجتمع ، وقد رتبوا على ذلك إقصاء الدين والاكتفاء برقابة الضمير الإنساني ، ومع زحف العلمانية على الحياة الأوربية أُزيحت الأخلاق عن شتى مجالات الحياة وما بقي منها فهو نفعي بحت ، أما في المجتمع الإسلامي فإن القيم الأخلاقية ثابتة لأنها جزء من الإسلام سواء أكان المجتمع رعويًا أو زراعيًا أو صناعيًا "[١] وعندما كان العرب في جاهليتهم مختلفين في ديانتهم ما بين وثنية ويهودية ومسيحية حدث خلل في أخلاق بعضهم إلى الدرجة التي نرى فيها الإنسان الجاهلي مذبذبًا بين أخلاق حميدة حينًا وبين أخلاق ذميمة مرة أخرى مع العلم أن أصول الأخلاق الإنسانية لم تتغير عندهم البتة ولكن تأرجحت أخلاقهم ما بين اعتدال وإفراط أو تفريط .وبعد تعريف مفهوم الخلق عند مختلف الأمم والمجتمعات نود أن نخرج أخيرًا بما استقر عليه رأي الباحثين في تعريف الأخلاق وهو أنها " تبحث فيما ينبغي أن يحوزه الإنسان من قيم الخير وأفعاله وما أن يجتنبه من مساوئ الشر و أوضاره ، وتهدف إلى تحديد الغاية النهائية للحياة وتقدم المعيار الذي نعود إليه للحكم على الأفعال. وهي تنقسم إلى قسمين[٢]:

١- الأخلاق العملية : وتبحث فيما ينبغي أن يكون عليه الإنسان من صفات خلال حياته اليومية مثل: العفة والشجاعة والكرم والصدق .

٢- الأخلاق النظرية : وتبحث في المبادئ الكلية الناظمة لسلوك الإنسان في كل زمان ومكان مثل: حقيقة الخير المطلق ، وفكرة الفضيلة .

وعلى هذا التقسيم يتبين لنا أن الأخلاق تتدخل في كل نشاط إنساني بل قل : إن كل نشاط إنساني يبلغ غايته من السمو والنجاح باعتماده على الأخلاق . "ومن هنا تكون العلاقة القوية بين الشعر والأخلاق فكلاهما له تأثير على تقويم النفس وكلاهما يحاول أن يسمو بالفعل الإنساني إلى درجة المثالية "[٣].

---

(١) د. مانع بن حماد الجهني – الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة – ص : ٩٥٨.

(٢) د. غسان إسماعيل عبد الخالق – الأخلاق في النقد العربي – ص : ١٨-١٩.

(٣) د. محمد مريسي الحارثي – الاتجاه الأخلاقي في النقد العربي حتى نهاية القرن السابع الهجري – ص : ٨.

ومهمة الشعر الأخلاقية كبيرة جدًّا ولذلك نرى أفلاطون في الجمهورية"رتب أجناس الشعر على حسب دلالتها الأخلاقية المباشرة فيفضل – نسبيًا – الشعر الغنائي لأنه يشيد مباشرة بأمجاد الأبطال "[١] وقد ربط كثير من النقاد الشعر بغايات أخلاقية فهذا ابن رشد يقول:"ليس يقصد من صناعة الشعر أي لذة اتفقت لكن إنما يقصد بها حصول الالتذاذ بتخييل الفضائل "[٢].

ونحن نعلم أن الشعر يمثل فنًا أدبيًا رئيسًا في أدبنا العربي – وبالذات الشعر الغنائي – مما يطرح علينا كثيرًا من التساؤلات التي منها :

١- الشعر من فنون الأدب . فما مدى العلاقة بين الأخلاق والأدب ؟

٢- الشعر الجاهلي شعر غنائي يفيض بمظاهر الأخلاق المختلفة . فما مصادر تلك الأخلاق في الشعر الجاهلي ؟ وبالذات شعراء المعلقات العشر – موضوع دراستنا هذه .

٣- ما هي نظرية الالتزام في الشعر ؟ وما مدى التزام شعراء المعلقات العشر بالخلق المثالي ؟ وكيف تشكلت صورة الالتزام عند الشاعر الجاهلي ؟

٤- هل للبيئة أثر في أخلاق الجاهليين ؟ وما بواعث الأخلاق عندهم ؟

٥- لِمَ كانت المعلقات العشر هي موضوع هذا البحث ؟ وهل تفي بالغرض ؟

٦- هل في الشعر العربي الجاهلي رمزية ؟ وكيف يجب أن نفهمها بعيدًا عن إسقاطات الرمزية الغربية ؟

٧- يلاحظ وحدة في التصور في الشعر الجاهلي عامة والمعلقات العشر على وجه الخصوص فما الذي أوجد تلك الوحدة ؟

٨- ما الإطار الخلقي لكل معلقة من المعلقات العشر ؟ وعلى أي أساس يتم تشكيل ذلك الإطار؟

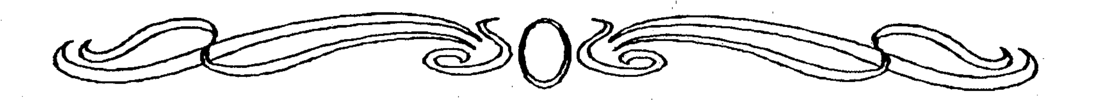
٩- هل لتلك القيم والقضايا الأخلاقية أثر في تشكيل قصائد المعلقات العشر ؟وماذا نقصد بالتشكيل هنا ؟

١٠- هل أسهمت القيم والقضايا الأخلاقية في بناء قصائد المعلقات ؟ وكيف ؟

---

(١) د. محمد غنيمي هلال – النقد الأدبي الحديث – ص : ٣٣.

(٢) ابن رشد – تلخيص كتاب أرسطو طاليس — ص : ١٠٥.



الفصل الأول

الأخلاق والأدب :

أ - تعريفهما ومدى العلاقة بينهما .

ب - نظرية الالتزام .

ج - أثر البيئة في أخلاق الجاهليين

د - حياة الجاهليين وبواعث الأخلاق عندهم .

هـ - أخلاق العرب في الجاهلية كما تظهر في أشعارهم (شعراء المعلقات نموذجاً)



الأخلاق والأدب :

أ – تعريفهما ومدى العلاقة بينهما :

سـبق حديثنا عن تعريف الخلق في تمهيدنا لهذه الدراسة وحتى يمكن لنا دراسة مدى العلاقة بين الأخلاق والأدب فلا بد لنا أولاً أن نقف على مفهوم الأدب .

فما مفهوم الأدب ؟

دلـت كلمة الأدب في العصر الجاهلي على الدعاء للمأدبة ، ثم حملت بعد ذلك معنى نفسياً خلقـياً شـأنها شـأن الكلمات الأخرى التي يبدأ معناها حسياً ثم يُنتقل بها من معناها الحسي إلى معنـاها النفسي الخلقي.ونستشهد على معناها الحسي المادي بقول طرفة :

نحن في المشتاة ندعو الجفلى ... لا ترى الآدب فينا ينتقر

يقـول الدكـتور / أحمـد محمد الحوفي :"ثم توسعوا في معناها فاشتقوا منها _أي كلمـة (أدب)– الأدب بمعنى الأخلاق الكريمة والسجايا النبيلة ؛ لأنه يأدب الناس إلى المحامد وينهاهم عن المقابح . وبين المعنيين – الحسـي والخلقي – صلة وثيقة لأن العرب يحيون في بادية مقفرة شحيحة بالـزاد فـتمدحوا بالقِرى ، وبـالغوا في الحفاوة بالضيف حتى تخرق فيها بعضهم فكان من الطبيعي أن ينتقلوا من معنى الأدب الحسـي المـادي إلى ذلك المعنى النفسي الخُلُقي "[١] و" إن المحن تقوي الفضيلة وتزيدها فإن امرأ الخير لا يكون بائساً البتة. بشاشةُ الحكيم وثباتُهُ خُلُقه "[٢].

وقول د/ شوقي ضيف : " و ربما أُستخدمت الكلمة في العصر الجاهلي بهذا المعنى الخـلقي غـير أنه لم تصلنا نصوص تؤيد هذا الظن . وذهب "نالينو " إلى أنها أُستخدمت في الجاهلية بمعـنى السنة وسيرة الآباء مفترضاً أنها مقلوب(دأب) فقد جمع العرب (دأباً) على آداب كما جعلوا بئراً علـى آبـار ورأياً على آراء ، ثم عـادوا فتوهموا أن آداباً جمع أدب فدارت في لسانهم كما دارت كلمـة دأب بمعـنى السنة والسيرة ، ودلـوا بها على محاسن الأخلاق والشيم . وهو فرض بعيد وأقـرب أن تكـون الكلمة انتقلت من معنى حسي وهو الدعوة إلى الطعام إلى معنى ذهني وهو الدعـوة إلى المحامد والمكارم ، شأنها في ذلك شأن بقية الكلمات المعنوية التي تستخدم أولاً في معنى حسـي حـقيقـي ثم تخرج منه إلى معنى ذهني مجازي "[٣] ولست مع د/ شوقي ضـيف في اعتباره

---

(١) د.أحمد محمد الحوفي . الحياة العربية من الشعر الجاهلي . – ص : ٨ .

(٢) أرسطو طاليس . علم الأخلاق . ترجمة : أحمد لطفي السيد –ج ١ /٢٠٩.

(٣) د. شوقي ضيف – العصر الجاهلي – ص : ٨ .

استخدام كلمة أدب في العصر الجاهلي بمعناها الخلقي ظناً ، وذلك أن هناك نصوصاً تؤيد أن الكلمة اُستخدمت في العصر الجاهلي بهذا المعنى الخلقي .

ومن تلك النصوص :

١- قول بلعاء بن قيس الكناني [١] :

أصبحت آتي الذي آتي وأتركه — وبات أكثر رأي الناس مرتابا

وإن أمت والفتى رهن بمصرعه — فقد قضيت من الآداب آرابا

ورد في المعجم الوسيط :مرتاب : مشكوك فيه . الآداب : محاسن الأخلاق والشيم . آرابا: الدهاء والفطنة والبصر بالأمور . وبهذا يكون المعنى : أصبحت آتي الأمر أو الرأي الذي آتيه متى ما أردت وأتركه متى أردت وبات أكثر رأي الناس مشكوك فيه وإن أمت والفتى مرهن بموته أمت وقد قضيت من محاسن الأخلاق والشيم أبلغ ما يصله إنسان بدهائه وفطنته وبصره بالأمور .

٢ – وقد وظف بعض شعراء المعلقات ضمن دواوينهم الشعرية هذا المعنى الخلقي لكلمة (أدب) مما يرفع عن كواهلنا ذلك الظن الذي ذكره د. شوقي ضيف سابقاً . فهذا طرفة بن العبد يوصي أباً بتأديب وليده ومعرفة من يجالسه فيقول[٢] :

أدِّب وليدك وانظر من يجالسه — ما دمت تملكه أو من يماشيهِ

أدّب : روّضه على محاسن الأخلاق . يماشيه : يمشي معه .

أي : روّض ابنك على محاسن الأخلاق في صغره واحرص على معرفة من يجالسه ويماشيه .

٣ – وهذا الأعشى يستعمل لفظة (أدب) للدلالة على الذي يتأدب به الأديب من الناس حيث يقول في سياق مدحه شريح بن حصن بن عمران بن السموءل بن عادياء فيقول[٣] :

جروا على أدب مني بلا نزق — ولا إذا شمرت حرب بأغمارِ

---

(١) الآمدي – المؤتلف والمختلف – ص : ١٠٦.

(٢) د. ندى الشايع – معجم لغة دواوين شعراء المعلقات العشر تأصيلاً ودلالة وصرفًا – ص : ٩٢.

(٣) ديوان الأعشى . ط : صادر . ص : ٧٠

أدب : شيمة وحسن أخلاق . الترق : الخفة والطيش . شمــرت : اشــتدت أغمار . الواحــد غمــر : الذي لم يجرب الأمور، الجاهل.

٤ – ومــنها قول عتبة بن ربيعة لابنته هند يصف لها خاطبها أبا سفيان ولم يذكــر اسمه :"يؤدب أهلــه ولا يؤدبــونه " فردت عليه قائلة : إني لأخلاق هذا لوامقة ، وإني لــه لموافقة ، وإني لآخذه بأدب البعل مع لزوم قُبَّتِي ، وقلة تَلَفُّتي "[١].

وامقة : أي مُحِبَّة . البعل : الزوج . قبتي : القبة : خيمة صغيرة أعلاها مستدير[٢] ، تلفتي : إعراضي.

وإذا مــا تتبعنا مفهوم الأدب في الإسلام وجدنا أن كلمة أدب تعني الخلق الحسن، يقول النبي – ﷺ – : " أدبــني ربي فأحسن تأديبي "[٣] [قال ابن تيمية: (معناه صحيح ولكــن لا يعرف له إسناد ثابت] وفي العصر الأموي أصبحت تعني : التعليم والتثقيف ، وكانت هناك طبقة من العلماء تــؤدب أبــنــاء الخلفــاء وهذا المدلول العام نجده عند ابن سلام في طبقات فحول الشعــراء والجــاحظ في البيان والتبيين والصولي في كتابه أخبار البحتري وعندما خُصصت العلوم وأصبــح كل علم منها مستقلاً ضاق معنى كلمة أدب ليعــني صناعة الأدب وحده حتى وجد نتيجــة ذلك كتــباً أدبية نقدية كما يتضح ذلك جلياً في كتاب(أدب الكاتب) لابن قتيبة وكتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري .

وخــير محاولة لتحديد معنى الأدب ما قام به ابن خلدون في مقدمته إذ يقول : "هذا العــلم لا موضــوع لــه .. وإنمــا المقصــود مــنه عند أهل اللسان ثمرته وهي الإجادة في فني المنظوم والمنثور"[٤].

وأرى أن الإجادة في فني المنظوم والمنثور تكمن في مدى تمكن الأديب من الأســاليب العربية الــتي يــتخذ منها مطية صالحة وقادرة على الوفاء بالقصد الذي وضعت من أجله وهو حصــول

(١) أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي . الأمالي – المجلد الثاني . ص : ١٠٤ .
(٢) المعجم الوسيط – ج ١ – ص : ٧٠٩ .
(٣) ابن تيمية – مجموعة الرسائل الكبرى ٢/ ٣٣٦ ، والنهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير – ص : ٣ .
(٤) ابن خلدون . مقدمة ابن خلدون .– ص : ٦١٢ .

الالتذاذ بتخييل الفضائل كما يذكر ابن رشد[١] .ولو تتبعنا مفهوم الأدب في عصرنا هذا لوجدنا أنه " بــدأ بشــكل ســطحي ضــيق فقالوا :"إن الأدب هو الشعر والنثر الفني أي : نثر الخطــب والرســائل والمقامات والأمثال السائرة ثم الأخذ من كل شيء بطرف "[٢]ولــو أعملنا الفكر في التعريف السابق لوجدناه رغم سطحيته يتضمن تعليم النشء مكارم الأخلاق التي اشتملت عليها فنون النثر المذكورة إضافة إلى القسم الأكبر في أدبنا العربي وهو الشعر .

ومــن ذلــك مــا روي عن عمر – رضي الله عنه – حيث "كتب إلى أبي موسى الأشعري : "مُــر مَــن قِــبَلَك بِــتَعَلُّم الشــعر . فإنه يدل على معالي الأخلاق ، وصواب الرأي ، ومعرفة الأنساب"[٣].

فــإطلاق كلمة (أدب) ليس على تلك الأشكال الفنية من حيث صياغتها فحسب ، وإنما هــي أدب لمــا تتضمنه من أخلاق وآداب فإن كانت أخلاقاً حميدة كان الأدب الذي احتواها أدباً ملتــزماً رفيعاً حقيقياً ينشر ويربي في الناس الفضائل ، وإن كانت أخلاقاً ذميمة كــان الأدب الذي احــتواها أدباً رخيصاً يجــر الناس إلى الرذائل وبذلك يكون الأدب شاملاً كافة الآثــار اللغوية التي تثير فينا بفضل ما احتوته من تجارب أخلاقية ثم بفضل صياغتها انفعالاتٍ عاطفية أو إحساسات جمالــية . وقــد عرف الغرب الأدب بتعريفات كثيرة ويرجــع السبب في كثرة التعريفات تلك مــع مــا رأيناه من اختلاف في تعريفهم للخُلُق إلى اختلافهم في المرجعيات الدينية والأخلاقية والمذهبية والسيــاسية . ومن تعريفاتهم للأدب نأخذ التعريف التالي : "الأدب صــياغة فنية لتجربة بشرية "[٤] والتجربة البشرية في التعريف السابق تشمل :

١ – التجربة الشخصية : وهي التي تسوقها للأديب أو الشاعر أحداث الحياة .

٢ – التجربة التاريخية : باستطاعة الأديب أن يتخير من التاريخ ما شاء من تجارب يحيلها أدبًا .

٣ – التجــربة الأسطورية : إذ باستطاعة الأديب أن يلتقط ما يشاء من التجارب البشرية بشــرط أن يكــون خياله من القوة بحيث يستطيع أن يجسم رموزها وأن يحيلها إلى كائنات بشرية تحس وتتــألم وتفكر . ٠

---

(١) ابن رشد – تلخيص كتاب أرسطو طاليس – نشر وترجمة د/ شكري عياد – ص :١٠٥ .

(٢) د. محمد مندور . الأدب ومذاهبه – ص : ٧ .

(٣) العمدة – لابن رشيق – جـ ٢ – ص : ٨٨ .

(٤) د . محمد مندور – المرجع السابق – ص : ٩ .

٤ – التجارب الاجتماعية : وهي التي يستقيها الأديب أو الشاعر من محيطه الاجتماعي أو الإنساني المعاصر.

٥ – التجارب الخيالية : وهي التجارب التي لا تُمَكِّنُ ظروفُ الحياة الشاعرَ أن يعيشها فتراه يتخذ الأدب وسيلة لكي يعيشها بالخيال .

لقد لخصت أنواع التجارب البشرية كما تبدت للدكتور / محمد مندور[١] من خلال التعريف السابق للأدب ولي مآرب في ذلك سأكشف عنها القناع قريباً ولكن لن أفعل ذلك إلا بعد الوقوف على تعريفات العرب المعاصرين لمفهوم الأدب حتى يكتمل العقد ويحصل المراد. فمنهم من قال : "إن الأدب تعبير عن التجربة الإنسانية وصياغتها صياغة فنية "[٢]ويعرف محمد قطب الفن ومن ضمنه الأدب بأنه :"محاولة البشر لتصوير الإيقاع الذي يتلقونه في حسهم من حقائق الوجود في صورة جميلة مؤثرة "[٣].

وهناك من يعرف الأدب بأنه :" الذخر الإنشائي الذي جادت به قرائح الأفذاذ من أعلام البيان وعبروا به عن خلجات النفس "[٤] ويعرفه د. أحمد الشايب بأنه :"الكلام الذي يصور العقل والشعور تصويراً صادقاً "[٥].

وقد عرّف الأدبَ كثيرٌ من الأدباء والنقاد غير أننا سنقف عند تعريف نراه شاملاً لكل التعريفات الأخرى وهو أن الأدب :" صياغة لغوية جمالية مؤثرة تعبر عن التجربة بمفهومها الواسع ذاتياً واجتماعياً وإنسانياً حسياً وعقلياً ووجدانياً تتأثر بالواقع المعاش زماناً ومكاناً وترصد ما يخلفه من آثار في نفس الأديب بحيث تكون قادرة على إثارة المتلقي وإدهاشه وإقناعه بصورة مختلفة وعلى أشكال متباينة والأدب أجناس متنوعة تدخل في إطار نوعين متميزين هما الشعر والنثر وكل نوع يتفرع إلى أشكال فنية متعددة "[٦].

وبعد أن وقفنا على كل من مفهوم الخلق ومفهوم الأدب عند العرب والمسلمين وعند غيرهم من الأمم يتضح لنا مدى العلاقة بين الأخلاق والأدب فما الأخلاق إلا "عادة الإرادة "

---

(١) د . محمد مندور – المرجع السابق . ص: ١٢ وما بعدها .

(٢) د . محمد صالح الشنطي . في الأدب العربي القديم . ص: ٧ .

(٣) د . محمد قطب . منهج الفن الإسلامي – ص : ١٥ .

(٤) د . محمد عبد القادر أحمد . دراسات في أدب ونصوص العصر الجاهلي – ص : ١٣ .

(٥) د . أحمد الشايب . أصول النقد الأدبي – ص : ٣١ .

(٦) د . محمد صالح الشنطي . في الأدب العربي القديم . – ص : ٩

يعني أن الإرادة إذا اعتادت شيئاً فعادتها هي المسماة بالخُلُق ، فإذا اعتادت الإرادةُ العزمَ على الإعطاء سُمِّيَت عادة الإرادة هذه خلق الكرم ... والخلق صفة نفسية لاشيء خارجي أما المظهر الخارجي للخلق فيسمى "سلوكاً " أو معاملة والسلوك دليل الخلق ومظهره "[١] وذلك السلوك وتلك المعاملة للخلق ومحاولة إظهاره أو إضماره وتربيته أو إماتته لا يتأتى إلا عن طريق صياغة وتصوير ذلك الخلق في صورة محببة يستريح لها القلب ولا تأباها النفس أو يمجها الذوق السليم هذا إذا كان الخلق فاضلاً . أما إذا كان الخلق ذميماً فإن تلك الصياغة وذلك التصوير يجسده تجسيداً قبيحاً حتى يكرهه الناس فيجتنبوه . وقد يجسد الأديب خلقاً قبيحاً في صورة جميلة إذا كان من دعاة الرذائل وشياطين الهوى والضلال .وليس غير الأدب بما فيه من صياغة وتصوير يتولى ذلك فهو القناة التي تعبرها صورة الخلق أياً كانت لتصل إلى ذهن المتلقي في صورة أدبية رائعة، عندها يكون الأدب بحكم أنه يأدب الناس إلى المحامد والأخلاق ويكره إليهم المقابح من خلال ما تحمله ألفاظه وصياغته الفنية التي تعد إطاراً يحوي تلك الأخلاقيات بمختلف أنواعها . فما الأخلاق في رأيي إلا مضامين رسالية اتخذت من الصياغة الأدبية أطراً مختلفة – شعراً ونثراً – لتشق طريقها إلى أذهان الناس وقلوبهم .

ومن هنا يتضح لنا جلياً مدى العلاقة بين الأخلاق والأدب ، وأن الأدب – وخاصة الشعر – له وظائف أخلاقية هو مطالب باحتوائها ثم نقلها إلى الناس في صياغة تأسر القلوب وإذا لم تكن تلك الصياغة بارعة كان صاحبها _ كاتباً أو شاعراً أو متكلماً _ أقرب إلى الضلالة منه إلى الهدى .

وورد فيما كتبنا ما أورده د. شوقي ضيف من أن الأدب دعوة إلى المحامد والمكارم . وفي رأيي أن تلك الدعوة لا تخرج عن كونها أحد فني الأدب الرئيسين – الشعر والنثر .

والعرب تقول :" المرء بأصغريه "[٢] فانظر كيف جعلوا القلب واللسان دليلاً يكشف شخصية الإنسان لأنه لا يمكنه أن يقوِّم معانيه وأفكاره إلا بهما فإذا كشف مكنون قلبه بما ينساب على لسانه من ألفاظ ومعانٍ فقد كشف عن جوهره الداخلي الذي يعد مجموعة أخلاق مقرها القلب منها ما هو فطري ومنها ما هو مكتسب .

---

(١) أحمد أمين . كتاب الأخلاق . – ص : ٦٣ .

(٢) الميداني – مجمع الأمثال – ج٢ – ص : ٢٩٤ .

إن ذلك المكنون النفسي العظيم الذي قد يتسرب من صاحبه كلُّهُ أو جزءٌ منه إلى المتلقي أثناء التعامل الإنساني في صوره المتعددة والتي يعد الأدب صورة منها سلوك ظاهري ينقل إلينا تجربة من التجارب البشرية الممزوجة بالأخلاق بنوعيها النظري والعملي وتلك الأخلاق تكاد أن تكون هي المنظم الوحيد عند الإنسان – الجاهلي بالذات – لكل سلوكه حتى أنه من كان يخلو من بعضها لظروف حائلة فإنه يقوم بتخييل تلك التجارب وفق أخلاقيات يرتضيها لنفسه ثم يحاول أن يبثها للناس في أدبه فإن وافقت ما هم عليه من عادات وأخلاق لقيت ترحيباً واسع النطاق وإنْ كانت عكس ذاك أُفرد صاحبها كما يُفرد الجمل الأجرب ، ومثل هذه الحالات لابد أن تُوَلِّد نوعاً من الالتزام تنظمه – هو أيضاً – ما يتواضع عليه المجتمع من أخلاق حميدة وأخرى مذمومة.

إن هذا الأمر يحتِّم علينا أن نفرد عدداً من صفحات بحثنا هذا في نظرية الالتزام .

ب – نظرية الالتزام :

معنى الالتزام في اللغة :

جاء في "لسان العرب" :" والفعل لزم يلزم ، والفاعل: لازم ، والمفعول به : ملزوم ، لزم الشيء يلزمه لزماً ولزوماً ، ولازمه ملازمة ولزاماً والتزمه وألزمه إياه فالتزمه . ورجل لزمه : يلزم الشيء فلا يفارقه"[١].

وفي القاموس المحيط :" هو لُزَمَة كهُمَزة أي: إذا لزم شيئاً لا يفارقه "[٢] ، وفي المعجم الوسيط: " التزم الشيءَ أو الأمرَ : أوجبه على نفسه "[٣] ومن كل ما تقدم يظهر لنا بأن الالتزام في اللغة يعني : " التعلق بالشيء والمداومة عليه وعدم مفارقته "[٤] خاصة على من أوجب على نفسه ذلك الالتزام بأي صورة كانت فمن الناس من يوجب عليه طبعه وخلقه التزام الشيء والمداومة عليه ومنهم من يوجب عليه ذلك الالتزام أمور أخرى كالثوابت العقدية والقوانين والسياسة وما إلى ذلك.

ومن هنا نرى أن أوضح صورة من صور الالتزام ما كانت نابعة من نفس الملتزم بما تمليه وتفرضه عليه سجاياه وأخلاقه وطباعه .

---

(١) لسان العرب . مادة : لزم .

(٢) القاموس المحيط . مادة : لزم .

(٣) المعجم الوسيط . مادة : لزم . الجزء : الثاني . ص: ٨٢٣ .

(٤) ناصر بن عبد الرحمن الخنين . الالتزام الإسلامي في الشعر . – ص : ٢٥ .

معنى الالتزام في الاصطلاح الأدبي :

نظـراً لاخـتلاف المـبادئ والثقافات والميول الفكرية والاتجاهات السياسية اختلف مفهوم الالتـزام عند الأمم وعند كثير من الأدباء والنقاد . فهذا الروائي الأمريكي (نورمان مالر) يفسر الالتـزام بأنه: "نـوع من التعاقد أو الارتباط بشيء خارج الذات "[(١)] ، وأرى أن ذلك التفسير قاصـراً حيث جُعِل الالتزام ارتباطاً بشيء خـارج الذات وهذا التفسير أقرب إلى الإلزام منه إلى الالتـزام إذ إن كـلمـة الالتزام توحي بالتفـاعلية الذاتية وعلى ذلك فأين ما يلتزمه الأديب مما تفرضه عليه طباعُهُ وأخلاقُهُ وسجاياه ؟! والحجة على ذلك ما نجده في العصر الجاهلي– وبالذات الشـعراء الصعـاليك الذين خرجوا على قبائلهم وهاموا في الصحـارى والقفار فلا أعراف ولا تقالـيد قبلـية تلـزمهم إلا أن ذلك الانفراد لم يَحِدْ بهم عما تمليه عليهم طباعهم وأخـلاقهم فيلزمون أنفسهم بما توحي به لهـم تلك الأخلاق والطباع بعيداً عن الالتزام بما هو خارج الذات مما تفرضـه السياسـات والأفكار والثقافات إلا أنها الجبلة أو الطبع الذي يجعل الواحد منهم يلتزم بما فطـرت علـيه نفسه مـن سجايا يظـل يدافع عنها بكل ما أوتي من صور البيان .إننا نقرأ في العصـر الجاهلـي أن ذلـك الصعلوك إنسـان فقير يواجه الحياة وحيداً إلا أنه رغم فقره تُلزِمه أخلاقـه بأمور خلقية فطرية فيه لا مفر له منها فهذا عروة بن الورد ويسمى عروة الصعاليك كان يجمـع أنداده فيكرمهم مما يغنم ، وإنما كان ذلك منـه لأن في طبعه خلق الكرم حتى وإن اختلفت صورته فإن النبتة تظل تحمل اسمها وطبيعة خصائصـها وإن نُقلت إلى غـير بيئتها الأم ولذلك يقـال : " إن عبد الملك قال : من زعم أن حاتماً أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد " [(٢)] ، كما يفسر الالتزام بأنه :" التزام الشاعر ووجوب مشاركته بالفكـر والشعور والفن في قضايا الوطنية والإنسـانية وفيما يعانون من آلام وما ينبون من آمال "[(٣)] وفي المعجم الأدبي الالتزام :" حزم الأمر علـى الوقوف بجـانب قضية سياسـية أو اجتماعـية أو فنية والانتقال من التأييد الداخلي إلى التعـبير الخارجـي عن هذا الموقف بكـل ما ينتجه الأديب أو الفنان من آثار وتكون هذه الآثار محصلاً لمعانـاة صاحبها ولإحسـاسـه العمـيق بواجـب الكفاح والمشاركة الفعلية في تحقيق الغايـة مـن الالتزام"[(٤)] كمـا يفسر الالتزام في الاصطـلاح الأدبي بأنه : " التزام الأديب في

---

(١) د . لويس عوض . الاشتراكية والأدب – ص : ١٨٠ .

(٢) أبو الفرج الأصفهاني . الأغاني – الجزء : الثالث – ص : ٧٣ .

(٣) د . محمد غنيمي هلال . النقد الأدبي الحديث – ص: ٤٥٦ .

(٤) د . جبور عبد النور . المعجم الأدبي – ص : ٣١ .

أعماله الأدبية عقيدة من العقائد أو مبدأ من المبادئ أو فلسفة من الفلسفات "[١] .

ولعل أنسب تعريف للالتزام الأدبي لبحثنا هذا هو أن الالتزام الأدبي " أن يتقيد الأدباء وأرباب الفنون في أعمالهم الفنية بمبادئ خاصة وأفكار معينة يلتزمون بالتعبير عنها والدعوة إليها ويقربونها إلى عقول جماهير الناس ويحببونها إلى قلوبهم "[٢] .

ولسنا مع (جان بول سار تر) حين يقول :"لا نريد للرسم ولا للنحت ولا للموسيقى أن تكون ملتزمة أو بالأحرى لا نفرض على هذه الفنون أن تكون على قدم المساواة مع الأدب في الالتزام، والشعر يعد من باب الرسم والنحت والموسيقى ...."[٣] لأنه بهذا القول أخرج الشعر من دائرة الأدب ، ثم جرده من الالتزام الأدبي .

والذي يهمنا في بحثنا هذا هو الالتزام عند الشاعر الجاهلي . كيف كان ؟ وما طبيعته ؟ إلا أننا قبل الشروع في البحث عن الإجابة حري بنا أن نقف على الالتزام عند الأمم الأخرى ليزداد الأمر وضوحاً وتجلية .

فالالتزام عند قدماء مصر في النصوص الأدبية يقوم على أساس تأثر الأدباء بالمعتقدات الدينية وعند اليونان نجد ملامح الالتزام غامضة لاختلاف رؤى المفكرين والأدباء والفلاسفة حيث تمتزج المتعة بالمنفعة ،وكذلك عند الرومان حيث تمثل صورة الالتزام " المحافظة على سمت الأسلاف والحرص على تقديم المنفعة في ثوب المتعة والتمسك بتقاليد المجتمع وقيمه السائدة"[٤].

أما الالتزام عند الأديب العربي في العصر الجاهلي (في رأيي) – وخاصة الشاعر – فقد تشكلت صورته في ثلاثة مناحٍ رئيسة هي :

١ – المنحى الخلقي : حيث كان العربي يتمتع بقيم ومثل عليا منها ما هو فطري في ذات النفس العربية ومنها ما هو مكتسب وجهته تلك المبادئ والأخلاق والمثل وجهة لا إرادية إلى الالتزام في شعره بحيث تأبى طباعه وسجاياه أن يحيد عنها قدر أنملة سوى ما يُلاحظ من شذوذ عند بعض الشعراء يرجع في نظري إلى تغلب الأخلاق المكتسبة حميدة وذميمة على الأخلاق

---

(١) ناصر عبد الرحمن الخنين . الالتزام الإسلامي في الشعر . – ص : ٢٧ .

(٢) د. بدوي طبانة . قضايا النقد الأدبي . ص : ٢٦ .

(٣) د. محمد بن سعد بن حسين .الالتزام الإسلامي في الأدب. محاضرات النادي الأدبي الثقافي بجدة – المجموعة الثالثة – ١٤٠٧هـ – ص: ٣٦٢.

(٤) ناصر بن عبد الرحمن الخنين . المصدر السابق . ص: ٣٣.

والطـبـاع الفطـرية . إلا أن تلـك الأخلاق الفطرية تظـل جذوتها حية تحت رماد الأخلاق المكتسبة و الطارئة وقـد تستعر متى ما وجدت لذلك سبيلاً كما رأينا عند عروة بن الورد. كمـا أن الشنفرى رغـم صعلكته فإن أشعاره تزخر بالمبادئ والمثل والأخلاق ولامية العرب خير مثال لذلك[١].

علـى أن الشـعر الجاهلـي " قد عرف عدداً من الشعراء الذين التزموا الدعوة إلى السلام وسـاءهم أن تسـفك الدماء في الحروب فتجر الويلات على المحاربين الذين لم يكونوا يسقطوا من حسابهم قضية الثأر وواجـب القيـام به"[٢]، وأكبر من يمثل ذلك في الجاهلية زهير بن أبي سلمى " كمـا كانت تظهر بين حين وآخـر دعوات تحث على الأخلاق الحميدة والسجايا الكريمة التي عـرف بهـا المجـتمع الجاهلي كالجود، والعفة ، والعفـو عند المقدرة ، وصلة الرحم ، وإغاثة الملهـوف، وحمايـة العِرض والجار ، ... وما إلى ذلك مما كان يلمـح من قريض شعرائهم ، كحاتم الطائي والسموأل وطرفة بن العبد والأعشى ، وعنترة بن شداد ، وغيرهم "[٣]، ومن خلال ذلك كله يتضح لنا أن " الأدب في مفهومه السليم دعوة إلى الأخلاق الفاضلة والصفات الحميـدة الـتي علـيها تبنى العلاقات المتينة بين أفراد المجتمعات ثم بين المجتمعات، والأديب هو منشأ العمل الأدبي ولـذا فـإن مرتبته في الأمة مرتبة الرائد والمصلح . ومن هنا قالوا : الأديب مرآة المجتمع وقـد أسـاء من فهم هذا على أنـه يعني انعكاس واقع المجتمع في العمل الأدبي كما هو لأنه يضع الأديب بمنزلة الحاكي أو الصور (الفوتوغرافية) وهذا يسلبه صفة الريادة والتوجيه والإصلاح . إن شـرف الأديـب وشرف عمله إنما يأتي من طريق كونه أقدر أفراد المجتمع على تبين فضائل المجتمع ونقائصـه ، ومعالجـة هـذا الواقع بتنمية الفضـائل والدعوة إلي التمسك بها ومحاربة النقائص والدعوة إلى التخلص منها"[٤]، وخروج الأديب عـن إطار عمله ومهمته السالفة الذكر خروج عن طبيعته " ومن هنا نستطيع أن نقول إن الأديـب ملتزم بطبعه فإذا تجاوز الالتزام تجاوز حد طبعه وإن شئت فقل طبيعة عمله " [٥].

---

(١) الشنفرى – الديوان – تحقيق وشرح : أميل بديع يعقوب – ص : ٥٨-٧٣ .

(٢) د. أحمد أبو حاقة . الالتزام في الشعر العربي – ص: ٦٥ .

(٣) ناصر عبد الرحمن الخنين . الالتزام الإسلامي في الشعر . – ص : ٣٥ .

(٤) د. محمد بن سعد بن حسين . الالتزام الإسلامي في الأدب . محاضرات النادي الأدبي الثقافي بجدة . (١٤٠٧هـ) ص:٣٥٤-٣٥٥.

(٥) السابق . ص: ٣٥٦ .

٢ – المنحـــى القبلـــي [١]: حيث كان المجتمع العربي مجتمعاً قبلياً متفرقاً وكل قبيلة تعيش وحـــدها تبعاً لمقومات حياتها وعند ذلك تكون القبيلة هي مادة الالتزام عند الشاعر حيث إن لكل قبيلة أمجـــــاداً وأعـــرافاً وتقالـــيد لابد من الالتزام بها عند شاعر القبيلة ، ومن أبرز من يمثل ذلك الالتزام القبـــلي في الجاهلية عمرو بن كلثوم التغلبي صاحب المعلقة الفخرية المشهورة :

ألا هبّي بصحنـــك فاصبحينا ولا تبقي خـــمور الأندرينــــا

يقول : " ألا استيقظي من نومك أيتها الساقية واسقيني الصبوح بقدحك العظيم ولا تدخري خمـــر هـــــذه القرى"[٢] ، وكان لكل قبيلة شيخ أو رئيس هو سيد القبيلة ، وإليه الفصل فيما ينشأ من خصومات حسب ما للقبيلة من أخلاق وعادات وأعراف ، وسيادة الرئيس في القبيلة مبنية على ما وقر في نفوس الأفراد من إجلال واحترام .

وكـــان للقبـــيلة بجانب الرئيس حكام وهم رجال امتازوا في القبيلة برجاحة العقل وثقابة النظر قد يفـــزع الـــيهم في الخصومات الأدبية كالمفاخرة في النسب وغيرها وللقبيلة كذلك شاعر أو شعراء يتغنون بمحامدها ويشيدون بمناقبها .

أمـــا علاقـــة القبائل بعضها ببعض فعلاقة عداء غالباً فالقبيلة إما مغيرة على أخرى أو مغار عليها مما أدى إلى نشـــوب كـــثير من الوقائع والحروب بين القبائل ومن أجل هذا كانت الحروب والنصرة والهزيمة وما إليها أكبر موضوع تناول القول فيه الشعراء الجاهليون .

ومع ذلك تظل مادة الالتزام الأساسية عند الشاعر الجاهلي هي القيم والأخلاق حتى أنه إذا نـــزل شـــاعر على قبيلة من القبائل الأخرى فإنه لا يتغنى أمامهم بأعراف قومه ومناقبهم فحسب ، وإنمـــا يمـــدح القـــوم الذين نزل بهم بمكارم الأخلاق وما حازوه من القيم الرفيعة والمثل العليا التي فطـــــروا عليها أو اكتسبوها من البيئة العربية التي كان لها أثر كبير في تعزيز الأخلاق الحميدة عند العرب .

٣ – المنحى الاختلاقي : وهو النزول على ما تواضع الناس على حسنه أو قبحه على سبيل التصنع الـــذي يفرضـــه الخلـــق العملي النفعي . ومادة الالتزام في هذا المنحى عبارة عن خليط من مـــادتي المنحيين – الخلقي والقبلي– سواء كان الخلق حميداً أو ذميماً بحيث يصنع الأديب

---

(١) ناصر بن عبد الرحمن الخنين . الالتزام الإسلامي في الشعر –ص: ٣٣ ..

(٢) ديوان عمرو بن كلثوم – ص : ٥١ .

أدبه منها فيُخرِج لنا نصًّا في أي غرض شاء ، وأغلب ما يوجد هذا النوع من الالتزام أن الأديب قد يضطر أن يختلق لنفسه أو لغيره صفات خلقية ليست فيه كأن يذكر أنه شجاع وهو عكس ذلك أو يلبس غيره صفات حميدة أو ذميمة ليست فيه ولكنها مما تواضع عليه الناس حُسناً أو قُبْحاً ولذلك وجدنا من الشعر ما يرفع قبيلة ويضع أخرى ووجدنا منه ما يسجل بخيلاً في قائمة الكرام وهكذا ...

نعم إن مادة هذا المنحى موجودة ضمن مادة المنحيين السابقين – الخلقي والقبلي – إلا أن الأديب يبني من ذلك الحطام المتناثر صرحاً خيالياً مُصْطَنَعاً في ذاته لكنه يصبح حقيقة في أعين الآخرين .

إن الشاعر المتكسب بشعره –مثلاً – كان يترل على القوم فيمدح من نزل عليه بصفات يرتضيها ويرضاها الذوق العام وقد لا يتحلى بها المخاطب مما يضطره بأن يجزل له العطاء فتلصق فيه خصلة تجعله من المشاهير والعكس صحيح فقد يترل الشاعر على كريم في طبعه إلا أن الوقت الذي نزل فيه الشاعر عليه لم يسعفه ليكرمه إما لعدم أو نحوه فينصرف الشاعر من عنده وقد ألصق فيه ببيت من الشعر صفة البخل .

إن هذا النوع من الالتزام يكثر في الخلق العملي النفعي – خاصة التكسب بالشعر – وسيأتي الحديث عنه مفصلاً . ولكننا نسوق إليك مثالاً واحداً من أمثلة كثيرة للمنحى الاختلاقي في الالتزام عند الشاعر الجاهلي بالذات ، فهذا الأعشى ميمون يجعل من شعره واسطة لزواج بنات المحلق الكلابي الذي كان " مئناثاً مملقاً فقالت له امرأته : يا أبا كلاب ما يمنعك من التعرض لهذا الشاعر ! فما رأيت أحدًا اقتطعه إلى نفسه إلا وأكسبه خيراً . قال : ويحك ! ما عندي إلا ناقتي وعليها الحمل ! فقالت : الله يخلفها عليك . قال : فهل بد من الشراب والمسوح ؟ قالت : إن عندي ذخيرة لي ولعلي أن أجمعها . قال: فتلقاه قبل أن يسبق إليه أحد وابنه يقوده فأخذ الخطام ؛ فقال الأعشى : من هذا الذي غلبنا على خطامنا ؟

قال: المحلق . قال : شريف كريم ،ثم سلّمه إليه فأناخه ؛ فنحر له ناقته وكشط له عن سنامها وكبدها ، ثم سقاه وأحاطت بناته به يغمزنه ويمسحنه فقال : ما هذه الجواري حولي ؟ قال: بنات أخيك وهن ثمانٍ شريدهن قليلة .قال(الراوي) : وخرج من عنده ولم يقل فيه شيئاً فلما وافى سوق عكاظ إذا هو بسرحة قد اجتمع الناس عليها وإذا الأعشى ينشدهم :

لعمري لقد لاحت عيون كثـيرة   إلى ضوء نار في يفاع تحـــرّق

تُشَبُّ لمقرورَين يصطليـــانها   وبات على النار الندى والمحلـــقُ

رضيعَـــي لبانٍ ثديَ أمٍّ تحـــالفـا   بأسحمَ داجٍ عَوضُ لا نَتَفَـــرَقُ

[اليفـــاع : المرتفـــع من كل شيء ، يكـــون في المشـــرف مـــن الأرض والجبـــل والـــرمـــل وغـــيرها (المعجم الوسيط) مقرورين : رجلين أصابهما البرد . أسحـــم داجٍ : ليـــل أســـود . عـــوض : أبدًا] فسلم عليه المحلق ؛ فقال له : مرحباً يا سيدي بسيد قومه . ونادى : يـــا معشر العرب ، هل فيكم مذكار يزوج ابنه إلى الشريف الكريم ! قال : فما قام من مقعده وفيهن مخطوبة إلا وقد زوجها "[١].

إن الأعشى قد فهم المغزى من وراء كرم الرجل له منذ أن قال : " بنـــات أخيـــك وهـــن ثمـــان شـــريدهن قليلة " حتى أنه خرج من عنده ولم يقل فيه شيئاً لأن الهدف المنشود لن يتحقق وقـــتها . فانظـــــر كيف تصنع الكرم من رجل مملق يتضح من لومه لامرأته أن الكرم ليس من طبعه؟! ثم ارجع البصر كرة في الشاعر الذي ألبس المحلق حلة الكرم في عشاء ليلة كان القصد منها واضحاً لديه ؟!!

وغير ذلك من الأمثلة الكثير فكم من شاعر جبان نسب الشجاعة إلى نفســـه وما هذا منه إلا اخـــتلاق . وقـــد كان العرب يتسمون بمسميات تثير الرعب في قلوب الأعداء وقد يكون من يحملها أخوف من نعامة خرقاء . فسموا أسد ، سيف ، حرب ،صخر .. حتى إذا ما سمع بها العدو قال : مـــا سُمّي فلان بأسد إلا لشجاعته .

ومـــا أوجـــد مثل ذلك المنحى إلا ظروف البيئة العربية التي كان لها الأثر الكبير في أخلاق الجاهليين .

ج ـ أثر البيئة في أخلاق الجاهليين :

لا شـــك أن للبيـــئة أثراً كبيراً في أخلاق البشر لأن " الإنسان ثمرة من ثمرات البيئة التي ولد وتـــربى فيها كالشجرة تنمو في الأرض التي نبت فيها أصلها وأنه يمكن أن ترجع جميع الأسباب التي تكـــون الإنسان إلى ثـــلاثة أصلية : الجنس والبيئة والطبيعة الاجتماعية ثم الزمن الذي تكونت

---

(١) أبو الفرج الأصفهاني . الأغاني – . الجزء : التاسع – ص : ١٣٣ .

فــيه حـــــياته العقلية "[١] وقد"أثبت العلم أن أخلاق الإنسان ليست حظًّا يمنح حسب المصادفة والاتفاق ولكنها تصــلح وتفســـد وترقى وتنحط تبعاً لقوانين ثابتة لا تتخلف وإذا عرفنا هذه القــوانين وعملنا على وفقــها استطعنا أن نصلح أخلاق الإنسان بقدر ما تسمح طبيعته . وهذه القــوانين —ســواء مــنها ما يتعــلق بنفس الإنسان أو ما يتعـــلق بالبيئة التي تحيط بها — معقدة مــركبة، لم تستكشــف استكشـــافاً تامًا حتى الآن "[٢] وقد ذكر ابن سلاّم أثر البيئة في الشعر عند حديــثه عن صناعة الشعر حيث ساق الأمثلة الدالة على تأثير البلاد والمكان في إنتاج الأديب من البيـئة نفسها فقال :"...من ذلك اللــؤلــؤ والياقوت لا تعرفه بصفة ولا وزن دون المعاينة ممن يبصــره ومــن ذلك الجهبذة بالدينار والدرهم لا تعرف جودتهما بلون ولا مس ولا طراز ولا وسم ولا صــفة ويعرفه الناقــد عند المعاينة فيعـــرف بهرجها وزائفها وستوُّقها ومفرغها ، ومنه البصر بغريب النخل ، والبصر بأنواع المتاع وضـــروبه واختلاف بلاده مع تشابه لونه وزرعه حتى يضاف كل صنف إلى بلده الذي خرج منه "[٣] .

وفي الحاشـــية من الكتاب نفسه [الجهبذة : أراد بها هنا نقد الزيوف والصحاح من الدنانير والدراهم. الطـــراز : صيغة الدينار . الوسم : ما يسك عليه من صورة أو نقش أو كتابة . البهرج: رديء الفضـــة ، فيــبطل ويرد . والستوق: إذا كان من ثلاث طبقات ، يرد ويطرح . والمفرغ : المصمت المصبوب في قالب ليس بمضروب] ونحن نقول : ما دام هناك صلة وثيقة بين الشعر والبيئة فإنــه لابد وأن يكون هناك أثر للبيئة العربية في أخلاق الجاهليين فما الشعر عندهم إلا تغنٍ وتفاخر بــالأخلاق الحمــيدة والمثل العليا وحطٌّ للأخلاق الذميمة ولمن يتخلق بها من قريب أو بعيد كما أن الأدب — شعره ونثره — ما هو إلا وعاء لتلك الأخلاق والقيم والمناقب والمثالب عند كل أمة ونظراً لإدراكنا أثر البيئة في الأخلاق وغيرها فإننا نجد في مناهج دراسة الأدب ما يسمى بالنظرية الإقليمية " وفحــواها ربــط الأدب بالأرض والاعتقاد بأن لكل قطر خصائص جغرافية ومادية ومعنوية تَسِمُ أدبــه وتميــزه من آداب الأقطار الأخرى "[٤] ولكن قبل البدء في البحث عن أثر البيئة في أخلاق الجاهلــيين حري بنا أن نقف أولاً عند المقصود بالبيئة في معاجم لغتنا العربية ومعرفة أبعاد فضاءات

---

(١) د. عاصم حمدان . ملحق الأربعاء . تحت عنوان : الصلة بين الأدب والبيئة . (١٤رجب ١٤٢١هـــ).

(٢) أحمد أمين . كتاب الأخلاق — ص: ٢٤ .

(٣) ابن سلاّم الجمحي . طبقات فحول الشعراء — ص : ٥ .

(٤) د. غازي طليمات وَ أ. عرفان الأشقر . الأدب الجاهلي — ص: ٢٥

تلك الكلمة حتى يتسنى لنا بعد ذلك وضع مفهوم خاص للبيئة يؤطر بحثنا في هذا الجانب المهم ومن ثم يمكننا البحث في أثر البيئة العربية الجاهلية في أخلاق الجاهليين وللوصول إلى ذلك نطرح التساؤلات الآتية :

- ما ذا تعني كلمة (بيئة) في معاجمنا اللغوية ؟ وما حدود البيئة التي نقصدها في بحثنا هذا ؟
- ما المقصود بالبيئة العربية الجاهلية ؟وما مدى أثر البيئة العربية الجاهلية في أخلاق العرب الجاهليين؟ وأين يمكن أن نجد شواهد ذلك الأثر ؟

ورد معنى البيئة في معاجمنا اللغوية بمعنى :المترل والمحيط والحالة . ففي المنجد في اللغة والأعلام : البيئة والمبْوأ والمباءة : المترل والمحيط . البيئة : الحالة . يقال : " إنه حسن البيئة "[١] أي: الحالة . وفي المعجم الوسيط : البيئة : المترل والحال . ويقال :بيئة طبيعية وبيئة اجتماعية وبيئة سياسية . [٢]

والبيئة في معناها الاصطلاحي هي : " المحيط الذي تعيش فيه الكائنات الحية ويدعى أيضاً بالمحيط الحيوي والذي يتضمن بمعناه الواسع العوامل الطبيعية والاجتماعية والثقافية والإنسانية التي تؤثر على أفراد وجماعات الكائنات الحية وتحدد شكلها وعلاقاها وبقاءها " [٣]

أما حدود البيئة التي نقصدها في بحثنا هذا فهي البيئة العربية الجاهلية بجوانبها المتعددة جغرافياً واجتماعيًا وسياسيًا لزمان ومكان محددين وشريحة معينة من البشر ومن هنا يمكننا تحديد التعريف بدقة أكثر فنقول : إن البيئة العربية الجاهلية هي : كل ما يحيط بالإنسان العربي الجاهلي فيؤثر فيه سلبًا أو إيجابًا ومن ثم ينعكس ذلك الأثر في أخلاقه وجميع جوانب نشاطه الإنساني .

والتعريف السابق للبيئة يتطلب منا تحديد مفهوم المحيط أو المكان والزمان والشريحة البشرية (الإنسان العربي الجاهلي) بدقة حتى نتوصل إلى الهدف المنشود فنقول :أما المكان فهو الجزيرة العربية بطبيعتها الجغرافية والاجتماعية والسياسية وسنسهب القول إن شاء الله فيها قريبًا.

وأما الزمان فهو ما حدده أكثر المؤرخين والأدباء والنقاد بحوالي مائة وخمسين إلى مائتي عام

---

(١) المنجد في اللغة والأعلام – ص: ٥٢ .

(٢) المعجم الوسيط – الجزء : الأول . ص: ٧٥ .

(٣) د. سامح غرايبة . و د. يحى الفرحان . المدخل إلى العلوم البيئية – ص: ١٣

قبل بعثة النبي الكريم محمد – ﷺ – يقول الجاحظ :" أما الشعر العربي فحديث الميلاد صغير السن، أول مـن نهج سبيله وسهّل الطريق إليه امرؤ القيس بن حجـر ومهلهل بن ربيعة .. فإذا استظهرنا الشـعر وجدناله ــ إلى أن جاء الله بالإسلام ــ خمسين ومائة عام وإذا استظهرنا بغـاية الاستظهار فمائتي عام " [١] وحري بنا أن نقف عند المقصود بالجاهلية حـيث [" يرى أكثـر الباحثين أن كلمـة (الجاهلية) مشتقة من الجهل بمعنى السفه والغضب والنزق فهي ضد الحِلم . ويغلب على ظـن الألوسـي أنها " لفظ حدث في الإسلام للزمن الذي كان قبل البعثة " وفي ظنـه حظ من الصـواب غير يسير . فقد وردت الكلمة في القرآن الكريم أربع مرات. منها قوله تعـالى في نهي النسـاء عـن التبرج :" ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى "[٢] [وفسرها البيضاوي وغيره بأنها الكفر الـذي سـبق الإسلام . ووردت في الحديث الشريف أكثر من سبع مرات ، ودلالتـها تتردد بين معنيين : الفترة التي سبقت الإسلام ، والمفاهيم والعادات المرذولة التي نسخها الإسلام . وحـدد لسـان العرب معناها بقوله :" هي الحال التي كانت عليها العرب قبل الإسلام من الجهـل بالله سبحانه ورسـوله وشرائع الدين والمفاخرة بالأنساب والكِبْر والتجبر وغير ذلك " ونقيضهـا – عـند شوقي ضيف – لفظة – (الإسلام) التي تدل على الخضوع والطاعة لله وتحث على التحلي بالخـلـق الكريم] [٣] وليس معنى ذلك أن عرب ما قبل الإسلام لم تكن عندهم أخلاق كريمة ومن الجور أن نحكم عـليهم بذلك وهـم أحفاد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، وهناك حديث ورد عـن رسـول الله – ﷺ – يؤكد أنهم كانوا على كثير من الأخلاق الكـريمة حيث يقول: " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " [٤].

وسـنتحدث في ذلـك الأمر في حينه إن شاء الله تعالى . إلا أننا الآن عند ثـلاثة أقسـام رئيسـة للبيئة العربية الجاهلية حتى نتمكن من الخروج بنتائج مرضية تعيننا على الإجـابة عن مدى أثـر تلك البيئة في أخلاق الجاهليين :

---

(١) الجاحظ . كتاب الحيوان . تحقيق وشرح عبد السلام هارون – ٧٤/١ .

(٢) الأحزاب / ٣٣.

(٣) د. غـازي طليمات . ود. عرفان الأشقر . الأدب الجاهلي –ص: ٣٠ ، وانظر : البيضاوي : أنوار التنزيل وأسرار التأويل – ص : ٥٥٧.

(٤) أخـرجه البيهقي في السنن الكبرى – ج ١٩١/١٠؛ورواه أحمد في مسنده:٣٨١/٢ والإمام مالك في الموطأ ص:٦٥١

١- البيئة العربية الجغرافية (الطبيعية) :

كلنا يعلم أن " موطن العرب الأصلي في الإقليم الواقع في الجنوب الغربي من آسيا ، ويحده من الشمال بادية الشام ومن الشرق الخليج العربي و بحر عُمان ومن الجنوب المحيط الهندي ، ومن الغرب البحر الأحمر . وقد سمي هذا الإقليم بجزيرة العرب أو شبه جزيرة العرب نسبة إليهم لأنه موطنهم الأصلي وقد استوطن بعضهم خارج الجزيرة العربية لا سيما في بادية الشام"[١] و" أرض هذه الجزيرة مرتفعة من سطح البحر إلى الخليج وبها أراضٍ منبسطة وقابلة للزراعة . والمنطقة المسماة نجد تعتبر نصف المناطق الأخرى بالجزيرة من حيث الطول والعرض . وهي عبارة عن دائرة مكونة من صحارى واسعة جدًا ، أراضيها مرتفعة ومنبسطة ، والصحارى الواقعة إلى الشرق من الجزيرة وإلى الجنوب والغرب مليئة بالرمال والصحارى الواقعة في الشمال مليئة بالحجارة . وهناك دائرة أخرى فضلاً عن المواقع التي تتكون من هذه الصحارى وأكثر أماكن هذه الدائرة عبارة عن سلسلة جبال صغيرة غير منبتة قد أكسبت سلسلة جبال عسير وصنعاء اليمن منطقة اليمن وسواحل بحر عُمان اتساعاً كبيراً ، وبها أماكن نافعة وصالحة للزراعة ، وهناك أراضٍ رملية ومستوية تقع بين الجبال المنبسطة وسواحل البحر ويحيط البحر الأحمر بالجزيرة المذكورة من طرفها الثالث . وإذا كان ثلثا الجزيرة عبارة عن أراضٍ منبتة وقابلة للزراعة فإن ثلثها الآخر عبارة عن صحارى رملية وحجرية غير منبتة .. وحرارتها شديدة . . ."[٢] وهضاب نجد وفي الصحارى والفلوات الممتدة من بحر القلزم (الأحمر) في الغرب إلى البحرين وعمان في الشرق والمناخ في هذه البقاع حار ، والسماء صافية فلا غاب يكسو الأرض ولا ضباب يغشى السماء. . . وفرضت البداوة على الشاعر التنقل من بقعة إلى بقعة مع قومه الباحثين عن الماء والعشب فإذا القصيدة رحلة فكرية ذات مراحل يتنقل فيها الشاعر بين آفاق الأفكار يبدأ ببكاء الأطلال ويمضي منها إلى صفة الطريق الذي يجوزه والرفيق الذي يصحبه فإذا مر برسم المحبوبة وقف بين يديه خاشعاً خشوع العابد في محرابه يتغنى بمرابع الصبا ، ومفاتن الحبيبة ، ثم يمضي لمطيته فإذا هو ووحش الصحراء رفقة ، فينعت ناقته ويقارنها بما يرى من حمر الوحش والظباء ثم يفخر بنفسه وبقومه تيّاهًا بمحامدهم مباهيًا بأيامهم التي ظهروا فيها على الأعداء. ."[٣] وعندما ننظر إلى تأثير الطبيعة في أخلاق الإنسان العربي الجاهلي فإننا ننظر إلى ذلك التأثير من خلال تأثير الطبيعة العربية في الأدب إذ أن وعاء الأخلاق

---

(١) د. عبد الكريم زيدان . المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية – ص: ١٤.

(٢) أيوب صبري باشا . مرآة جزيرة العرب – ص: ١٢٩.

(٣) د. غازي طليمات و عرفان الأشقر . الأدب الجاهلي – ص: ٣١ .

العربية الجاهلية هو الأدب شعره ونثره ومن خلال تبيُّن ذلك الأثر في الأدب يتبين لنا أثر البيئة العربية في الأخلاق فهل أثرت البيئة العربية في الأدب ؟

إننا إذا نظرنا إلى الأدب العربي باعتباره وعاء الأخلاق العربية فإننا نجد أنه " نبت هذا الأدب في شعاب الحجاز ومن خلال ذلك يتضح أن للإنسان الجاهلي سلوكاً معيناً إزاء هذه الطبيعة فما الذي يوجه هذا السلوك ؟ بالطبع إنها الأخلاق التي فطر عليها أو اكتسبها ذلك الإنسان !

إن تلك الأخلاق تجعل العربي يقرن في أشعاره ما يختلج في نفسه من ذلك الحدس الخلقي أيًّا كان بما يقع أمام ناظره من مناظر طبيعية مشابهة فهو مثلاً عندما يريد أن يمتدح خلق الحياء في محبوبته فإنه يقرن ذلك بصورة طبيعية يراها أمامه ولننظر إلى قول النابغة الذبياني (١):

نظرت بمقلة شادن متربب ... أحوى أحم المقلتين مقلَّدِ
والنظم في سلك يزين نحرها ... ذهب توقد كالشهاب الموقدِ
صفراء كالسِّيراء أكمل خلقها ... كالغصن في غلوائه المتأودِ
قامت تراءى بين سجفي كلة ... كالشمس يوم طلوعها بالأسعدِ
أو درة صدفية غواصها ... بهج متى يرها يهل ويسجدِ
أو دمية من مرمر مرفوعة ... بنيت بآجرٍّ تشاد بقرمدِ
سقط النصيف ولم ترد إسقاطه ... فتناولته واتقتنا باليدِ
بمخضب رخص كأن بنانه ... عنم يكاد من اللطافة يعقدِ

---

(١) المقلة : الشحمة التي تجمع البياض والسواد ، الشادن : من أولاد الظباء الذي قد شدن أي: ترعرع . أحوى : مأخوذ من الحوة وهي حمرة تضرب إلى السواد . أحم : شديد سواد المقلة . المقلد : الذي قد قلد الحلي وزين به . وصف الظبي أنه متربب وأنه قد زين بالحلي ليكون أبلغ لحسن المشبه .. النظم : ما نظم من الحلي في سلك . السلك : الخيط . النحر : الصدر . الشهاب: شعلة نار ساطعة . " لَمّا قال نحرها يزينه نظم في سلك لم يرد إنه من صنوف الحلي فنبّه بأن قال : هو ذهب فإن شئت جعلته خبر مبتدأ مضمر ، وإن شئت جعلته بدلاً وأنث توقد لأنه فعل للذهب والذهب مؤنثة ..، السيراء : ثوب من حرير فيه خطوط . غلو الغصن : طوله وارتفاعه . المتأود : المتثني من النعمة واللين " السجف : الستر الرقيق المشقوق الوسط . تراءى : أراد تتراءى فحذف إحدى التاءين .

ومعـــناه : تتعـــرض لـــنا وتظهر لنا نفسها وإشراق وجهها كإشـــراق الشمس إذا طلعت بالأسعد : أتم ما يكون ضياؤها إذا كانت بالأسعد وهو برج الحمل [١].

يقـــول : هـــذه المـــرأة مثل دمية بني لها بنيان مرتفع وحملت فيه فهو أصـــون لها وأحفظ لجسمها"[٢] النصيف : الخمار .قاله الخليل وقال غيره : هو نصف الخمار أو نصـــف الثـــوب. البنان : الأصابع ، جمع بنانة .

العـــنم : شـــجر أغصانه ليّنة ، وله ورد أحمر مثل البنان الطوال يقـــال له : العنم وهذا الشجر ينبت في مكة .

وقـــوله : بمخضب من قبيل البنان لقوله السابق : اتقتنا باليد أي : بكف مخضّب يكاد بنانه مـــن لطافته يُعقد"[٣] والأمثلة من هذا النوع كثيرة في الشعر العربي – خاصة الجاهلي – ونود أن نشـــير هـــنا إلى أن مـــن أهم الخصائص الفنية للشعر الجاهلي المثالية ويُقصد بها " التســـامي في تصـــور الأمور وتصـــويرها والتعلق بالجميل من كل شيء وإدراك العلاقة بين مظاهر الجمال في الكـــون واختـــيـــار بعضـــها للتعبير عن البعض الآخر ...فالشاعر الجاهلي إذا نظر في الخَلْق أو الخُلُق، لم يباعد تعلقه بالحقيقة وواقـــع الحياة بينه وبين اختيار الأجمل والأكمل جميعاً ..."[٤] إن هـــذا التأثير الذي رأيناه للطبيعة العـــربية في الأدب قد سبقه تأثير في أخلاق العرب الذين عايشوا تلـــك الطبيعة وظروفها . نعم لقد أثـــرَّت البيئة العـــربية بكل ما تحتويه طبيعتها الصامتة من جبال وكثبان وسراب ووديان وريـــاض وحرات وآبار وعيون وأنـــــواء وأمطار ونجوم وأشجار ونبات وكذلك طبيعتها المتحركة من حيـــوانات أليفة ووحشية وطيور وزواحف وحشـــرات ...أثرت في أخلاق الإنسان العربي تأثيراً كبيراً إضافة إلى ما جُبل عليه من أخلاق فطرية فـــأودع لنا تلك الأخلاق في وعاء الأدب شعره ونثره .

---

(١) الصـــدف : المحـــار . البَهِج : الفَرِح المسرور . يهل : يرفع صوته بالتكبير والحمد لله وهو مأخوذ من الإهـــلال بـــالحج . يسجد : يضع جبهته على الأرض شكرًا لله على ما وهبه من نفاسة هذه الدرة وجلالة قدرها . شبه المرأة بالدرة الخارجة من البحر أي : لم تمسها يد فهو أصفى لها وأبهى لضيائها".
الدمية : التمثال والصورة . المرمر : الرخام الأبيض والأحمر معروف .
وقوله : يشاد : يرفع بالشيد وهـــو الجص . القرمد : الخزف المطبوخ .

(٢) الديوان / ٤٩.

(٣) ديوان النابغة الذبياني . د. عمر فاروق الطباع . ص: ٤٨-٤٩.

(٤) نجيب محمد البهبيتي . تأريخ الشعر العربي – ص: ٨٢ ــ ٨٣ .

يقول أحمد أمين في كتابه فجر الإسلام :" ولا بد من النظر إلى تأثير هذه الصحراء في النفوس ذلـــك أن الحياة في الصحراء قليلة إذا قيست بحياة الحضر سواء في ذلك حياة النبات أم الحيوان أم الإنسان فلقد خلت أرضها غالباً من آثار البشر فلا أبنية ضخمة ولا مزروعات واسعة ولا أشجار باســقة فــابن الصحراء يقابل الطبيعة وجهاً لوجه ..لا شيء يحول دون التفاته إليها تطلع الشمس فـــلا ظل ويطلع القمر والنجوم فلا حائل ٠٠٠"[1].

والعرب أسرع الناس قبولاً للحق والهدى لسلامة طباعهم من عوج الملكـــات وبـــراءتها من ذميم الأخلاق إلا ما كان من خلق التوحش ـــ التبدي ـــ القريب المعاناة المتهيئ لقبـــول الخـــير "وهـــم أقرب إلى الشجاعة لأنهم قائمون بالمدافعة عن أنفسهم لا يكلونها إلى سواهم ولا يثقـــون فـــيها بغيرهـــم فهـــم دائماً يحمـــلون السلاح ويتلفتون عن كل جانب في الطرق ، قد صار لهم البـــأس خلقًا والشجاعة سجية ٠" [2].

إنـــني أرجـــو أن يكـــون بحثي هذا أحد براهين التصدي لكل المزاعم التي تحاول أن تسلخ العـــرب من أخـــــلاق كريمة يتمتعون بها قد أملتها عليهم طبيعتهم وبيئتهم .

٢- البيئة الاجتماعية والسياسية وأثرها في أخلاق الجاهليين :

إن طبـــيعة الصـــحراء العربية السالفة الذكر والتي فرضت على العرب الترحل من مكان إلى مكـــان قد فرضت عليهم العيش في المجتمع القبلي بوجهيه الاجتماعي والسياسي فمجتمع القبيلة " يتألف من ثـــــلاث طبقات :

- طبقة الأحرار التي تتشكل من السادة والأشراف وعملهم القتال لحماية الحمى .
- وطـــبقة العبـــيد الـــذين جمعهم الأسر والاسترقاق بالشراء والاختطـــــــاف وعملهم الرعي والسقي والاحتلاب والاحتطاب وخدمة الأحرار .
- وطبقة الموالي التي كانت تلوذ بالقبيلة القوية مستجيرة بها ، ومنزلتها بين بين ، فهي دون الأحرار وفوق العبيد شرفاً وعملاً "[3] وقد تكونت هذه الطبقات نظراً لحـــالات الاضطراب التي كانت تعيشها العرب فرضتها عليهم شظف العيش وصعوبة الحياة . وقد كـــان لهذا النظام القبلي أثره

---

(١) أحمد أمين . فجر الإسلام – ص : ٤٥ .

(٢) مقدمة ابن خلدون – ص: ١٣٨ .

(٣) د. غازي طليمات .و أ – عرفان الأشقر . الأدب الجاهلي – ص : ٣١- ٣٢ .

في أخـــلاق الجاهليين وقد ســـــبق أن ذكرنا أنه منحى مهم من مناحي الالتزام عندهم حيث أصـــبح لكـــل قبـــيلة مناقب ومثل أخلاقية عليا ترى أنها السبّاقة إليها دون منازع مما أدى إلى تفجـــــر صيحات المفاخرة والمنافرة بين القبائـــل بذلك ." ولم يكن النظام القبلـــــي ــ على شيوعه ــ الشكل السياسي الوحيد في جزيرة العرب فقد شهدت بلاد العرب إمارات صغـــيرة كإمـــارة كِـــندة الـــتي كان حُجـــْر والد امرئ القيس آخر أمرائها ، وإمارات كبيرة كإمارتي الغساســـنة والمـــنـــاذرة على تخـــــوم الروم والفرس "[1] وقد كان للقبائل العربية سفراء من الشـــعراء والخطـــباء يفدون إلى هـــــذه الإمـــــارات ليروِّجوا بضاعتهم الأدبية المتضمنة مثل القـــــوم وأخـــــلاقهم وقيمهم وخصـــالهم الكريمة رافعين من شأن قبائلهم وخافضين من شأن مَن يفاخرهم في تلك المبادئ والمثل .

إن أفـــراد القبـــيلة " كانوا متضامنين أشد ما يكون التضامن وأوثقه ، وهو تضامن أحـــكم عـــــراه حرصـــهم علـــى الشرف وقد تكونت حوله مجموعة من الخلال الكريمة لعل خير كلمة تجمعهـــا هي كلمة المـــروءة التي تضم مناقبهم من مثل الحِلم والكرم والوفاء وحماية الجار وسعة الصـــدر والإعراض عن شتم اللئيم والغض عن العوراء .. وقد بعثتها فيهم حياة الصحراء القاسية وما فيها من إجداب وإمحال "[2] "

ولـــيس هـــناك خلة تؤكد معنى العزة والكرامة إلا تمدحوا بها فهم يتمدحون بإغاثة الملهوف وحمايـــة الضـــــعيف والعفو عند المقدرة كما يتمدحون بالأنفة وإباء الضيم "[3] كما أنهم ينكرون الهـــوان والضـــيم وكان للشجاعة والفروسية عندهم منزلة لا يفوقها منزلة " على أن هناك آفات كـــانت تشـــيع في هـــــذا المجتمع الجاهلي (مثـــله كأي مجتمع في الدنيا فيه الفضيلة والرذيلة) لعـــل أهمهـــا الخمر واستباحة النساء والقمار ونحن نجد الخمر تجري على كل لسان ٠٠٠ وأكثر من يتجـــر بهـــا الـــيهـــود والنصـــارى وكانوا يجلبونها لهم من بصرى وبلاد الشام ومن الحيرة وبلاد العراق "[4] .

وعـــندما نقرأ أن " العرب أول من حرم الخمر في الجاهلية فقد حرمها الوليد بن المغـــــيرة

---

(١) السابق . ص : ٣٢ .

(٢) د. شوقي ضيف . العصر الجاهلي – ص: ٦٧ .

(٣) السابق . ص: ٦٩ .

(٤) المرجع السابق . ص: ٧٠ .

وقيل: قيس بن عاصم ٠٠٠وأول من حرم القمار في الجاهلية الأقرع بن حابس التميمي ٠٠٠ وحرمت سائر قبائل العرب الزنا وسائر ما عهدته العرب من أنكحة فاسدة ٠٠٠٠"[١] ندرك عند ذلك أن هذا الفعل من اليهود والنصارى ما هو إلا محاولة منهم للقضاء على أخلاق العرب الحميدة التي تؤهلهم لحمل الرسالة المحمدية المنتظرة وإحلال الخصال الذميمة مكانها خاصة وإنهم يعلمون في كتبهم ما الذي سيكون عليه العرب من شأن عظيم ببعثة رسول عربي منهم وجدوا خبره عندهم في التوراة والإنجيل . وللأسف تحقق لهم من مآربهم تلك الكثير حيث " كان من الشباب من يدمن عليها حتى تنفر منه قبيلته وقد تخلعه لما يتدنى فيه من رذائل "[٢].

أما المرأة وهي ثالثة الأثافي التي حاول اليهود والنصارى رمي العرب بها في ذلك الوقت فلا يذهب ذهن القارئ الكريم عند حديثنا عن استباحة النساء في الجاهلية إلى أن المرأة العربية هي المقصودة وإنما كان النساء نوعين :" إماء وحرائر وكانت الإماء كثيرات وكان منهن عاهرات يتخذن الأخدان ، وقينات يضربن على المزهر وغيره في حوانيت الخمارين كما كان منهن جوارٍ يخدمن الشريفات وقد يرعين الإبل والأغنام "[٣].

والذي يؤكد هذا القول " أن العرب تعتز بنقاء نطفها وأنسابها ٠٠٠"[٤] وكان أغلب الإماء والعاهرات والقينات والخادمات من أصل غير عربي . أما المرأة العربية الأصل فهي مثال العفة والحياء . وحتى إن كان هناك شواذ رضين على أنفسهن البغي والفجور فإن الأغلب الأعم منهن طاهرات حرائر عفيفات وهذه هند بنت عتبة لما تلا النبي عليه السلام على النساء قوله تعالى :" ولا يسرقن ولا يزنين " تقول : " ما أقبحه حلالاً فكيف به حرامًا ؟!"[٥] إننا نجد حتى الشاعر عند استحضار جمال المرأة المحبوبة " من الندرة العثور هنا (في شعره) على وصف الرعشات الجسدية ، ذلك أن الشاعر يتورع بدافع الحياء المتحدر دون ريب من الاصطلاحات الاجتماعية ، والأحوال الأخلاقية الظاهرة ، أكثر منه بقوة المثل العليا عن الوقوع أبدًا في الإباحية"[٦] إلى درجة أن بعضهم كان يئد بنته مخافة الفقر والعار

---

(١) د. مصطفى صميدة . الإسلام دين العقل والفطرة – ص: ٣٢–٣٣ .

(٢) د . شوقي ضيف . العصر الجاهلي . ص : ٧٠ .

(٣) السابق – ص : ٧٢ .

(٤) أحمد موسى سالم . لماذا ظهر الإسلام في جزيرة العرب .– ص: ٢٢ .

(٥) أحمد بن الأمين الشنقيطي – طهارة العرب – ص : ١٢

(٦) د . ر. بلاشير . تاريخ الأدب العربي . ترجمة د. إبراهيم الكيلاني – ص : ٤٤٥ .

قـال تعالى :﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ القَوْمِ مِـن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ﴾(١) أما الحياة العقلية والدينية عند العرب فإننا نجد أنه " لم يعرف عـرب نجد والحجاز في العصر الجاهلي شيئاً من العلم والفلسفة بـالمعنى الدقيق لأن بـداوتهم حـرمتهم الاستقرار والعلم يحتاج إلى شعب مستقر ٠٠٠فإذا حرم العقل المنطق الذي يضبط حركته وينتظم تفكيره غلبته الخرافة وطـفق يلتمس الدليل على ما يعجز عـن تعليله في معتقدات بدائية . ومع ذلك كله فقد وقف الجاهليون على جملة من المعارف تحصلت لهـم مـن التجـربة والمعاينة فعرفوا أشياء عن النجوم ومواقعها وسخروا معرفتهم لهداية قـوافل الـتجـارة وأطالـوا النظرات في السحـب وتتبعوا تقلب الأنواء واستنبطوا من مشاهداتهم أمورًا كثيرة ... ومن المعـارف التي تشهد لهم بالذكاء ودقة الملاحظة الفَراسة ومعناها معرفة أخـلاق المرء من خَـلْقه وهيئتـه والقيـافة ومعناها معرفة الناس من آثار أقدامهم ٠٠٠ولم يكن للعرب قبل الإسـلام معتقد ديني واحد بل دانوا بعقائد متباينة ولعل الوثنية كانت أوسع أديانهم انتشارًا... وعرف العرب اليهودية والنصرانية وعبـادة الكواكب التي سمى القرآن من يعبدونها (الصابئين)(٢) كما عرفوا عبادة الملائكـة والجن وتسربت إليهم المجوسية "(٣).

ورغـم كـل تلـك الاضطرابات وعدم الاستقرار الديني التي كان يعيشها العرب إلا أنهم كـانـوا في الأصـل موحدين " وأن الإيمان بالله وتوحيده بالنسبة لهم هو الأصل وأن الوثنية وعـبادة الأصـنام وغيرها انحـراف وعدول عن هذا الأصل الموروث ٠٠٠إذ يرى (رينان) في هـذه المسألة أن العرب كانوا قومًا موحدين شأنهم شأن إخوانهم من الساميين ـــ ومنهم اليهود ـــ ومـن هـنـا راح يرسـم للمجـتمع الجاهلي صورة زاهية مشرقة جدًا ويعطي للعرب في جاهليـتهم تقـدماً عقـلياً وحضارياً معجباً ٠٠٠وهـو حين يذهب هذا المذهب ، لا يفعله إحقاقًـا للحق ، وإنصافًا للعـرب كما يتراءى للرائي من الوهلة الأولى . ولكن يفعله لغرض آخر خبيث هو الطعن على رسالة محمد – ﷺ –(٤).

---

(١) النحل / ٥٨-٥٩ .

(٢) الصـابئون:الخارجون من دين كانوا عليه إلى آخر غيره وقيل :هم ليسوا بمجوس ولا يهود ولا نصارى "وهـذا يدعم قولنا بأن العرب في الأصل موحدون إذ ماذا يكونون إن كانوا على غير ما سبق ؟ انظر سورة البقرة / ٦٢مختصر تفسير الطبري مذيلاً بأسباب الترول للواحدي – ص : ١٠ .

(٣) د. غازي طليمات . وعرفان الأشقر . الأدب الجاهلي . ص: ٣٤_ ٣٥.

(٤) د. صالح آدم بيلو . تيارات عقدية وثقافية في الأدب الجاهلي – ص:٢٢

وفي رأيـــي أن العـــرب كانوا على أخلاق فطرية عظيمة تؤهلهم لحمل الرسالة السماوية التي عـــرف الـيهــود والنصارى خبرها في التوراة والإنجيل فراحوا إضافة إلى استفادتهم التجارية ينشــــرون في المجتمع العـــربي آفات الشر والانحراف الخلقي كشرب الخمر واستباحة النساء والقمـــار وهي آفـــات دخيلة " وأكثر من كان يتجـــر بها اليهود والنصارى ، وكانوا يجلبونها لهم مـــن بصـــرى وبلاد الشـــام ومن الحيرة وبلاد العراق ، ويقال : إنهـــم كانوا يضربون خيامهم في بعـــض الأحـــياء أو في بعــــض القرى ويضعون فوقها راية تعلن عنهم فيــــأتيهم الشباب ليشـــربوا وليسمعوا بعض القيـــــان ممن يصاحبنهم وكان من الشباب من يدمن عليها حتى تنفر منه قبيلته ، وقد تخلعه لما يتدنى فيــــه من رذائل "[١].

ورغم ذلك فإنني أقول : إن حكمة الله اقتضت إرسال الرسول إلى هؤلاء العرب خاصة وإلى الخلـــق عامة حتى ولو كان سكان الأرض كلهم ملائكة لبعث الله فيهم رسولا.قال تعالى :﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَّسُولاً ﴾ [٢].

وأخـــيرًا نقـــول : إن البيـــئة العربية بيئة واحدة في طبيعتها تقريباً والبيئة الواحدة [تكيف أســـلـــوب الإنســـان كما تكيف بنيته العضوية ، والمناخ عامل قوي التأثير في هذه البيئة ، ومن بيـــنها الدمـــاغ ومن ثم فهو عامل قـــوي التأثير أيضًا في الناحية الروحية لهذا الإنسان ، واختلاف البيـــئات والمنـــاخ يتبعه اختلاف البنية الجسمـــــانية والروحية على السواء ٠٠٠فإذا رجعنا إلى البيـــئة العربية وجــــدنا أوضح ما فيها هاتين الظاهرتين : الحرارة ، فمناخ جزيرة العرب – على العمـــوم – حـــار شديد الحرارة ، والصحراء وهي تفرش أكبر جزء من جزيرة العرب ٠٠٠إنهما تفســـران لـــنا في الحـــياة الـــروحية ظاهرتي الثبات (على التقاليد) والتكرار ٠٠٠وقد نقلت إلن سمبل،وهـــي مـــن ثقات علماء الجغرافيا ،رأيًا لمنتسكيو يقرر فيه هذه الحقيقة بالنسبة للشرق بصفة عـــامــــــة وتقول:"ويعزو منتسكيو ثبات الدين والأخـــــلاق والعــــــادات والقوانين في الهـــند وغيرها من أمـــم الشرق إلى حرارة الجو ٠٠٠أما الصحراء فتفسر لنا ظاهرة التكرار إذ أن "للصحراء موسيقى ذات نغمة واحدة متكررة ، موسيقى عابسة قاسية ، رهيبة عظيمة فلا عجب أن تـــرى أهلها قد استولى عليهم نوع من انقبـــاض النفس أو الكآبة أو الوجد ..ولا عجب أيضًا أن يـــتغنى شـــعراؤها بنوع واحد من القول ونغمة واحـــدة ، لأن الصحراء توقع في نفوسهم صوتًا واحدًا فيشعرون – كما تلقوا – شعورًا واحدًا] [٣].

---

(١) د. شوقي ضيف – العصر الجاهلي – ص : ٧٠ .

(٢) الإسراء / ٩٥.

(٣) د. عز الدين إسماعيل . الأسس الجمالية في النقد العربي – ص: ٢٢٤-٢٢٥.

وخلاصـــة القـــول في هذا الجانب هو أن البيئة العربية الجاهلية بكل ما يحمله هذا المفهوم من معنى أثـــرت تأثيرًا كبيرًا في أخلاق الإنسان العربي سواء أكان ذلك التأثير إيجابيًا أو سلبيًا ، إلا أننا نـــود التركيز على ذلك المجتمع القبلي ــ وهو الغالب في المجتمع العربي في الجاهلية ــ الذي سادت فـــيه الحروب والغزو والسلب ممـــا أدى إلى مناصبة العداء بين القبائل في أغلب الأحيان ولكن هذا لا يعـــني أنه لم تكن هناك صداقات وعلاقات بين القبائل والأفراد أبدًا ، فقد كان ذلك الأمر قائماً وخاصـــة بين العقلاء والحليمين منهم ، كما كانت هناك دعـــوات للسلم وتذكير بويلات الحرب كمـــا نجـــد ذلك جليًا في معلقة زهير بن أبي سلمى . إن آثار تلك البيئة في أخلاق الإنسان الجاهلي تتكشف لنا من خلال ذلك الوعاء الأمين الذي حفظ لنا حياة الجـــــاهليين وما تتضمنه من أخلاق حمـــيدة أو ذميمة وأعني بذلك الوعاء –كما أسلفت – الأدب العربي شعره ونثره " فقد ملئ الشعر الجاهلـــي بوصـــف الوقائـــع والحروب والتمدح بالأخذ بالثأر،والفخر بالانتصار والأنفة من المذلة والاعتزاز بالقوة والحرص على الشرف،وعدم الحرص على الحياة والمال.. وكان لهذا النـــــوع مـــن الحـــياة أثر طبيعي ؛وهو سيادة الأخلاق الحربية من شجاعة وكرم ووفاء . فأطنبوا في مدحها وعدوها عنـــــوان الرجولة وسموها اسمًا جامعًا وهو" المروءة"] [1].

د - حياة الجاهليين وبواعث الأخلاق عندهم :

ســبق أن تحـدثت كـثيراً عـــن حياة الجاهليين في معرض الحديث عن أثر البيئة في أخـــلاق الجاهلـــيين إلا أنـــني هنا رأيت أن نشكل صورة مؤطرة للحياة في الجاهلية والواقع الجاهلي . تلك الصـــورة توضـــــــح المعـــالم البارزة التي يكون لها حضور شبه دائم في الأدب الجاهلي ــ وعاء الأخلاق ــ شعره ونثره حيث " يشكل الرباعي التالي المحور الأساسي التي تدور حوله باقي المحاور ، وأعـــني به الفرد (الأنا)، والقبيلة (نحن)، والصعـــــلوك (الفرد المتمرد على القبيلة وتقاليدها) ، والملـــك أو الكاهن أو رئيس القبيلة . وهذه العناصر الأربعة المكونة لهذا المحور قد تتفق وقد تتنافر وقـــد تـــتحد . والمجمـــوعة الثانية أو المحور الثاني : الصحراء ، والطلل ، والمطر والســـــــيل والـــرحلة ، والظعيـــنة ، والوشـــم ، وهذه تربطها بالإنسان الجاهلي علاقات قد تكون إيجابية وقد تكـــــــون ســـلبية ... والمحور الثالث يمثل الحيوان ولكن لا يكون حضوره وفاعليته في القصيدة الجاهلـــية بالكـــثافة نفســـها وتطالعنا الحيوانات التالية ممثلة في الشعر بصورة ملفتة وهي : الناقة ، الفـــرس، حمـــار الوحش ، الكلاب ، الذئاب ... أما المحور الرابع فيتمثل في الزمن ، الموت والفناء

---

(١) أحمد الإسكندري وآخرون . المفصل في تاريخ الأدب العربي – ص: ٣ .

وانــتهاب اللذات من خمر ونساء وصيد وعقر ، والمــــرأة والحروب (الأيام) والصراع بمظاهره المخــتلفة ، والخمـــر ، والمحــبوبة ، والكرم . وهذه المجموعة تأتي أو يــأتي بعضها لتصارع المحاور السابقة لتشكل فلسفة الشاعر الجاهلي "[1].

وأرى أن الباحــثين قد تحدثوا كثيراً في هذا المجال لكنهم – حسب علمي – لم يشيروا إلى ما هــو أهم من ذلك كله ، ذلك أنهم لم يسألوا أنفسهم يومًا هذا السؤال : لنفرض أن المحاور السابقة هــي التي شكلت فلسفة الشاعر الجاهلي ليعبر عن حياته وحياة أقرانه الذين يعانون مثل ما يعاني . لكن : ما هي المقومات أو المحــــاور التي شكلت شخصية ذلك الإنسان الجاهلي ؟ ومن ثم كانت المــوجه الأساسي والقوي لتصارع تلك المحاور الأربعة ومن ثم تضافرها كي تشكل فلسفة الإنسان العــربي الجاهلــي على وجه العموم والشاعر العربي الجـــاهلي على وجه الخصوص؟ في رأيي (ويــوافقني بعض الباحثين المنصفين)[2] أن القيم والأخلاق سواء ما كان منها فطريًا أو مكتسبًا هي الــتي شــكلت شخصية الإنسان العربي الجاهلي كإنسان أولاً ، ثم أن تلك الشخصية المتكونة من مجمــوعة قــيم وأخــلاق وجهت تلك المحاور المتصارعة التي فرضتها ظروف متنوعة تؤثر في درجة حــــدهما ســلبًا وإيجابًا حتى تؤدي في النهاية إلى تشكل فلسفة الإنسان الجاهلي ونظرته للحياة والكون .

كــيف لا ونحن نعلم أن الجاهليين كانوا يعنون بالأخلاق الفاضلة التي هي في الأصل مقومات الشخصية العربية التي تؤهلها للقيادة وتفرض على الآخرين احترامها .

ولــذلك فــإن البحث في القيم والقضايا الأخلاقية عند الجاهليين يعد أمرًا في غاية الأهمية ، ولعــل هــذا يطـــــرح أمامــنا سؤالاً مهمًا في هذا المجال وهو : إذا كانت الأخلاق هي الموجه الأساسي لتصارع المحاور السابقة ومن ثم تشكل فلسفة الإنسان الجاهلي فما بواعث تلك الأخلاق عندهم ؟

قبل البحث في بواعث الأخلاق عند الجاهليين رأيت من الضروري ـــ وحتى لا يتشعب علينا الحــديث في حياة العرب الجاهليين ، وبما أن بحثنا هذا قائم على استنطاق النصوص الموثقة ومن ثم

---

(١) د. عفيف عبد الرحمن . الأدب الجاهلي في آثار الدارسين قديمًا وحديثًا – ص: ١٤٤.

(٢) د. عــبد الخالق بن مساعد الزهراني . مقومات الشخصية العربية من خلال الشعر الجاهلي . (العقيق . يصــدر عن نادي المدينة المنورة الأدبي) مج١٣ ، ع٢٥ ، ٢٦ ، جمادى الأولى ١٤٢٠هـــ ـــ شعبان ١٤٢٠هـــ . ص:٢.

الخروج بتصور كامل عن حياة الجاهليين الخلقية (على وجه الخصوص) ــ أقول من الضروري جدًا الوقوف أمام نصين جاهليين مختارين أحدهما احتشد له صاحبه ليبرز الوجه المضيء من تلك الحياة ، والآخر احتشد له صاحبه أيضًا ليبرز الوجه المظلم من تلك الحال ، وكل منهما حتمت عليه المناسبة القائمة والحال المقتضية ما أورد وما قال .

أما النص الأول فهو في تلك المناظرة التي جرت بين النعمان بن المنذر وكسرى ملك الفرس في شأن الأمم ومن بينها العرب ومما قاله النعمان(١) : "...وأما الأمم التي ذكرت فأي أمة تقرنها بالعرب إلا فضلتها . قال كسرى : بماذا ؟ قال النعمان : بعزها ومنعتها وحسن وجوهها وبأسها وسخائها وحكمة ألسنتها وشدة عقولها وأنفتها ووفائها "فأما عزها ومنعتها " فإنها لم تزل مجاورة لآبائك الذين دوّخوا البلاد ، ووطدوا الملك ، وقادوا الجند ، لم يطمع فيهم طامع ، ولم ينلهم نائل حصونهم ظهور خيلهم ، ومهادهم الأرض ، وسقوفهم السماء وجنتهم السيوف ، وعدتهم الصبر إذ غيرها من الأمم إنما عزها الحجارة والطين وجزائر البحور " وأما حسن وجوهها وألوانها " فقد يعرف فضلهم في ذلك على غيرهم من الهند المنحرفة ، والصين المنحفة ، والترك المشوهة ، والروم المقشرة . " وأما أنسابها وأحسابها" فليست أمة من الأمم إلا وقد جهلت آباءها وأصولها وكثيرًا من أولها حتى إن أحدهم ليسأل عمن وزاء أبيه دنيا فلا ينسبه ولا يعرفه . وليس أحد من العرب إلا يسمي آباءه أبا فأبا أحاطوا بذلك أحسابهم وحفظوا به أنسابهم . فلا يدخل رجل في غير قومه ، ولا ينتسب إلى غير نسبه ، ولا يدعى إلى غير أبيه " وأما سخاؤها " فإن أدناهم رجلاً الذي تكون عنده البكرة والناب عليها بلاغه في حموله وشبعه وريه فيطرقه الطارق الذي يكتفي بالفلذة ويجتزى بالشربة فيعقرها له ويرضى أن يخرج عن دنياه كلها فيما يكسبه حسن الأحدوثة وطيب الذكر " وأما حكمة ألسنتهم " فإن الله تعالى أعطاهم في أشعارهم ورونق كلامهم وحسنه ووزنه وقوافيه مع معرفتهم بالأشياء وضربهم للأمثال وإبلاغهم في الصفات ما ليس لشيء في ألسنة الأجناس . ثم خيلهم أفضل الخيل ، ونساؤهم أعف النساء ، ولباسهم أفضل اللباس ، ومعادنهم الذهب والفضة وحجارة جبالهم الجَزْع ، ومطاياهم التي لا يبلغ على مثلها سفن ، ولا يقطع بمثلها بلد قفر . " وأما دينها وشريعتها " فإنهم متمسكون به حتى يبلغ أحدهم من تمسكه بدينه أن لهم أشهرًا حرمًا وبلدًا محرمًا وبيتًا محجوجًا ينسكون فيه مناسكهم ويذبحون فيه ذبائحهم فيلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه وهو قادر على أخذ ثأره وإدراك رغمه منه

---

(١) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب للألوسي ــ ج ١ ــ ص: ١٥١-١٥٨ .

فيحجــزه كرمه ويمنعه دينه عن تناوله بأذى . " وأما وفاؤها " فــإن أحدهم يلحظ اللحظة ويومئ الإيماء ، فهي ولث وعقدة لا يحلها إلا خروج نفسه ، وإن أحدهم يرفع عــودًا من الأرض فيكون رهــنًا بديــنه فلا يغلق رهنه ولا تخفر ذمته وإن أحدهم ليبلغه أن رجلاً استجار به وعسى أن يكون نائــيًا عــن داره ، فيصاب فلا يرضى حتى يفني تلك القبيلة التي أصابته أو تفنى قبيلته لما أخفر من جــواره وأنــه لــيلجأ إليهم المجرم المحدث من غير معرفة ولا قرابة فتكون أنفسهم دون نفسه وأموالهم دون ماله . وأمــا قولك أيها الملك : يئدون أولادهم ، فإنما يفعله من يفعله منهم بالإناث أنفةً من العار وغيرة من الأزواج . وأما قولك : إن أفضل طعامهم لحوم الإبل على ما وصفت منها فمــا تــركوا ما دونها إلا احتقارًا له فعمدوا إلى أجلها وأفضلها فكانت مراكبهم وطعامهم مع أنها أكثر البهائم شحومًا ، وأطيبها لحومًا ، وأرقها ألبانًا ، وأقلها غائلة ، وأحلاها مضغة ، وإنه لا شيء مــن اللحمــان يعالج ما يعالج به لحمها إلا استبان فضلها عليه " وأما تحاربهم " وأكل بعضهم بعضًا وتركهم الانقياد لرجل يسوسهم ويجمعهم فإنما يفعل ذلك من يفعله من الأمم إذا أنست من نفسها ضــعفًا وتخوفت نهوض عدوها إليها بالزحف وإنه إنما يكون في المملكة العظيمة أهل بيت واحــــد يعرف فضلهم على سائر غيرهم فيلقون إليهم أمورهم ، وينقادون لهم بأزمتهم وأما العرب فإن ذلك كــثير فيهم حتى لقد حاولوا أن يكونوا ملوكًا أجمعين مع أنفتهم من أداء الخراج والوطف بالعسف وأمــا الــيمن التي وصفها الملك فلما أتى جد الملك إليها الذي أتاه عند غلبة الحبش له على ملك متســق وأمر مجتمع فأتاه مسلوبًا طــريدًا مستصرخًا قد تقاصر عن إيوائه ، وصغر في عينه ما شيد مــن بــنائه ولولا ما وتر به من يليه من العرب لمال إلى مجال ، ولوجد من يجيد الطعان ، ويغضب للأحــرار ، من غلبة العبيد الأشرار . قال : فعجب كسرى لما أجابه النعمان به . وقال : إنك لأهل لموضعك من الرياسة في أهل إقليمك ولما هو أفضل ثم كساه من كســـوته وسرحه إلى موضعه من الحــيرة ..." ونظــرًا لأهمية الجانب الخلقي عند الأمم جميعًا نرى أن جُلَّ ما قاله النعمان في حال العرب يركز على الحالة الخُلُقية حيث نجده يذكر فيهم جملة من الفضائل والأخلاق الحميدة ومنها :

[العــزة والمنعة ، والعقل والبيان ، والأنفة ، والوفاء ، وحفظ الأنساب ، والسخاء ، واقتناء أفضل الخيل ، وعفة نسائهم ، والصبر ، والتمسك بما ورثوه من مناسك ، وحماية المستجير ، والأنفة من العار (الغيرة) ، والكــرم والتجارب ، والشجاعة] . وغير ذلك من الفضائل التي كان يرى النعمان أنه لم يوفها حقها مما حــدا به إلى أن يبعث سفراء له من العرب إلى كسرى ليكملوا ما بنى وليبيــنوا للأعاجم أن العرب ليسوا عبيدًا لأحـــد . وإن شئت الاستزادة من ذلك فاقرأ ما قاله

سفراء النعمان بين يدي كسرى وحتى أكون منصفًا في بحثي هذا فقد اخترت نصًّا آخر يعكس لنا الجانب المظلم من حياة العرب في الجاهلية حتى جاءهم محمد – ﷺ – فأخرجهم من تلك الجاهلية الجهلاء والضلالة العمياء ، وهذا النص كما أسلفت لجعفر بن أبي طالب أمام الملك النجاشي حيث يقول :" أيها الملك ، كنا قومًا أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف ؛ فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا ،نعرف نسبه وصدقه ، وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه ، من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده فلم نشرك به شيئًا . . . "[١].

وفي نص جعفر بن أبي طالب السابق يتضح لنا أن العرب في الجاهلية كان منهم من : يعبد الأصنام ، ويأكل الميتة ، ويأتي الفواحش ، ويقطع الأرحام ، ويسيء الجوار ، ويجور على الضعيف، ومن خلال ما وصف به جعفرُ مهمة محمدٍ عليه السلام يتبدّى لنا صفات حميدة يمكن إضافتها إلى عقلاء العرب ومنها: كرم النسب والصدق ، والأمانة ،والعفاف ، ويمكننا أيضًا أن نستشف من خلال ما ذكر جعفر من أمور دعا محمد عليه السلام العرب إليها لأنهم كانوا في ضد منها فقد دعاهم إلى توحيد الله بالعبادة لأنهم أشركوا به غيره ، وأمرهم بالصدق لتفشي الكذب بينهم ، وبأداء الأمانة لوجود الخيانة ، وبصلة الرحم لوجود قاطعيها ، وبحسن الجوار لوجود من يسيء الجوار ، والكف عن المحارم والدماء لوجود من يستحل ذلك ، والنهي عن الفواحش لوجود مرتكبيها ، وقول الزور لوجود شاهديها وقائليها ، وأكل مال اليتيم لوجود من يأكله ، وقذف المحصنات لوجود من يقذفهن ومعنى ذلك أن النبي – ﷺ – دعا العرب إلى كل ما تقدم لوجود أضداد تلك الصفات الحميدة صفات وأخلاق رذيلة كما بيّنا . و يمكن أن نستنتج من النصين السابقين أمورًا مهمة منها :

(١) إنّ المبدأ الذي تتفق فيه الأمم جميعًا مهما اختلفت أجناسها وأديانها هو إقرار الخلق الحميد والإباء من الخلق الذميم وهذا الأمر يؤكد شيئًا كبيرًا جدًا من قولنا بفطرية الأخلاق عند بني البشر.

---

(١) ابن هشام – السيرة النبوية : ١/٣٣٦ ، القاهرة ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي (١٩٥٥م) .

(٢) إنّ مـدار تقـويم الإنسان والحكم عليه في نظر الجاهليين ـ على وجه الخصوص ـ يعود في أغلـب الأمر إلى الأخلاق وربما يكون ذلك لعدم وجود قانون يشملهم جميعًا سوى الأعراف الـتي قد تختلف من قبيلة إلى أخرى وعند ذلك لا يكون مدار التقويم عندهم إلا بالخلق سواء كان ذلك سلبًا أو إيجابًا .

(٣) إن التركيـز على الجانب الخلقي في النصين ليؤكد ما ذكرت سابقاً من أن الأخلاق هي الموجه الأسـاسي لتصارع المحاور الأربعة التي تتشكل على إثرها فلسفة الشاعر الجاهلي –على وجه الخصـوص – بـل إنني أقول: إن الأخلاق هي التي حتمت على العرب إيجاد فن الشعر برمته حـيث " كـان الكـلام كله منثورًا فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها ، وطيب أعـراقها ، وذكر أيامها الصالحة ، وأوطانها النازحة ، وفرسانها الأنجاد وسمحائها الأجواد لتهز أنفسها إلى الكرم ، وتدل أبناءها على حسن الشيم ، فتوهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام، فلما تم لهم وزنه سمـوه شعرًا لأنهم قد شعروا به أي : فطنوا "[١].

ومـن هـنا تبـزغ لنا شمس حقيقة أثر القيم والقضايا الأخلاقية وأثرها في تشكيل القصـيدة العـربية ، وهـذا ما سيكون بإذن الله صلب بحثنا هذا .

بواعث الأخلاق عند الجاهليين :

من خلال ما وصلنا إليه من معرفة حياة الجاهليين يمكننا أن نوجز بواعث الأخلاق عندهم في الآتي :

(١) الفطرة (الطبع) :

فلقد ذكرنا من قبل أن العرب قد جبلوا على حب الفضائل ومكارم الأخلاق وذلك أمر ركبه الله فـيهم ، وجعلـه في طبعهم وفطرهم خاصة وأنهم أحفاد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام " ولا ريـب أن إمعـان العـرب في الفضائل يقطع بأنهم طبعوا على تقديس القيم الروحية والمثل العلية والمـبـادئ الخلقـية حتى أُشربوا حبها ، وبغض الرذائل الدنية وهذه المزية هي أجل مزية تميز بها العرب على جميع الأمم الإنسانيـة"[٢] قال عليه الصلاة والسلام " إن الله تعالى اطلع أزلاً إلى أضوء وجـوه بـني آدم فـرأى محمـدًا أضواهـم ، ثم اطلع إلى أضوء الأمم وجوهًا فرأى أمة العرب أضـوأهم فاصـطفاهم وزراءه وأصحابه " [٣] وقد ورد في أشعار الجاهليين ما يؤكد بأن الأخلاق

---

(١) بلوغ الأرب – ص : ٨٣ .

(٢) د. مصطفى صميدة . الإسلام دين العقل والفطرة . – ص: ٢٩.

(٣) مسند أحمد عن ابن مسعود . ٣٧٩/١ .

الحميدة طبع فيهم ، وأما ما خرج منها إلى الأخلاق الذميمة فإن له أسباباً قد يكون للظروف الاجتماعية والسياسية والطبيعية نصيب كبير فيها لكن سرعان ما تتقد جذوة ذلك الخلق الحميد عندما تجد ما يعززها وعندها يرجع العربي في أغلب الأحوال إلى خلقه الفطري الحميد الذي طبعه الله عليه ، وهذا لا يمنع من أن بعضهم قد مارس الخلق الذميم حتى ران على قلبه وأصبح في حكم الخلق الفطري .

يقول زهير بن أبي سلمى في سياق مدحه لهرم بن سنان موضحًا أن السماحة والندى خلق فطري فيه :

إن تلق يومًا على علاّته هرمًا   تلق السماحة منه والندى خلقا[1].

أي : إن تلقه على قلة مال ، أو عدمٍ تلقه كذا .

وها هو لبيد بن ربيعة يضع مقياسًا صحيحًا للخلق الطبعي حيث يذكر أن قومه على أخلاقهم التي طبعوا عليها متمسكين بها حتى في أحلك الظروف :

قومي أولئك إن سألت بخيمهم   وبكل قوم في النوائب خيم

والخيم : الخلق والطبيعة .[2]

وهذا الأعشى في سياق حديثه عن إرادة الله سبحانه ومشيئته يذكر أن الناس مختلفون على سجائحهم (أي: أخلاقهم) حيث يقول[3] :

والناس شتى على سجائحهم   مستوقحًا حافيًا ومنتعلا

[مستوقحًا : أصابته البلايا فصار مجربًا . منتعلا : لبس النعل] [4]

(٢) البيئة بظروفها المتنوعة :

كان للصحراء العربية التأثير الكبير في الإنسان العربي(ابن تلك البيئة) وسليل ظروفها الصعبة .

---

(١) ديوان زهير بن أبي سلمى – ط: دار صادر – ص: ٤٣ .

(٢) ديوان لبيد بن ربيعة العامري . ط: دار صادر . بيروت . (د.ت) ص: ١٥٨.

(٣) ديوان الأعشى . ط: دار صادر . بيروت . (د.ت) ص : ١٧٠ .

(٤) المعجم الوسيط – طبعة دار الفكر – ص : ١٠٤٨، ٩٣٤.

إن تلــك البيــئة كانت تحمل مميزات وخصائص أثرت في نفس الإنسان العربي وفي أخلاقه ، وشكلت منــه شخصية فذّة .فهواء الصحراء " هو أصح هواء يحيا فيه إنســان في أصح الظروف المناســبــة لحــياته .. ونذكــر في قــيمــة الهواء للمحافظة على فطرة البدن سليمة قوية بعض العــبارات للدكــتور فكتوردين .. فقد خصص في كتابه (العلاج الشمسي) جزءًا للهواء النقي وحماماتــه قال فيه: (يحتوي الهواء النقي على خلاصة الحياة وعطرها وإكسيرها ‥ إننا لا نستطيع الحــياة بلا هواء لأن الهــواء النقــي يغذي الدم وينقيه ممــا فيــه من الشوائب والدم بدوره يقــوي الجســم ، ويحفــظ صحة الجهاز كله ويصونــــها ‥"[1] ونحن نعلم أن صحــة العقل والــتفكير مــن صــحة الجسم فالعقل السليم في الجسم السليم ،كما أن البيوت العربية من الأدم والشعر والتي يستخف حملها عند الظعن وعند الإقامة هي وحدها البيوت المثالية للإنسان الصحيح الــبدن "وفي نعمة الهواء نذكر قول العربية ميسون بنت بحدل وقد نقلها معاوية بعد زواجه منها من البدو إلى الحضر :

لبيت تخفق الأرواح[2] فيــــــه أحب إلي من قصــر منيــفِ

و أصــوات الريــاح بكل فــجٍ أحب إليّ من نقــر الدفــوفِ

خشــــونة عيشتي في البدو أشهى إلى نفسي من العيش الطــريفِ

إن الظـــــروف الصحراوية القاسية في جزيرة العرب كانت باعثًا قويًا في الأخلاق العربية فقد تحمل العربي الجــوع والظمــأ فتأصل في نفســه خــلق الصبر على المكاره جميعها ، وقد علمــته شــدة الفاقة والجــوع أيضــًا خــلق الكــرم حيث استقــر في نفسه الإحســـاس الــدائم بما يعانيه المنقطعون عن أهلهم والمحرومون ، كما علمته ظــروف الصحــــراء وقطع الفــيافي والقفار الموحشة وأصلت في نفسه الشجاعة التي أصبحت طبعًا فيه مما يجعلنا نؤمن بأن تلك الظــروف وتلك العناصر البيئية من ماء وهــواء وشمس وضياء وأرض وسماء وخوف وأمن وجوع وشبع وري وظمأ كل تلك العناصر مجتمعة أثرت في العرب وطبعت أخلاقهم بطابع خاص حتى أن هــذه الصلة الفطرية بين ظروف الطبيعة ومشاعر الإنسان أثــــرت في توجيهه وضبط حياته حتى جعلــته يتخذ منها قنوات فعالة في التعبير عن أحاسيسه فمثّل وصور ، وشبّه فأبــلغ ومن الأمثلة

---

(١) أحمــد موسى سالم . لماذا ظهر الإسلام في جزيرة العرب . ط : الثالثة . دار الجيل . بيروت . (١٤١١ هــ١٩٩١م) ص: ١٥٦-١٥٧.

(٢) الأرواح هنا : الرياح والنسمات . المصدر السابق . ص : ١٥٧ .

على ذلك :

قول طرفة بن العبد :

ووجه كأن الشمس ألقت رداءها　　عليه نقـي اللـون لم يتخـددِ

وهـذا يعـني " ما تخلعه الشمس الوهاجة على الوجوه في الجزيرة العربية من وسامة العافية ونقاء اللون"[١]

ألقت رداءها عليه : أظلته وغطته . لم يتخدد : لم يتغضّن ويتشقق بسبب السن والجهد .

والمعـنى " هي ذات وجه مشرق منير كأشعة الشمس وهو وجه أبيض نقي البياض لم تشـوه جماله الغضـون والشقوق "[٢]

إن الظـروف البيئية المتنوعة في الجاهلية أصلت في الإنسان العربي (وإن شئت فقل عززت) كـثيراً من المبـادئ والقيم والأخلاق التي كانت في أغلبها من الأخلاق والمبادئ والمثل العليا ذلك أن " معيشـتهم القبلـية اقتضـت تعاملهم بالصدق والعدل والأمانة وبالوفاء والعفاف فكل قبيلة كانت بمنزلة دولة صغيرة لها حاكمها يحكمـها حكمًا مستقلاً عن جميع بقية قبائل الجزيرة "[٣]

(٣) الضمير الحي :

إن الباعـثين السـابقين للأخـلاق عند العرب في الجاهلية قد تولد منهما باعث آخـر هـو الضـمير الحي حيث " كان الضمير يحملهم على لوم من ساء خلقه والثناء على من حسـن خلقه لأنهم اعتادوا التحلي بمكارم الأخلاق ولأن مكارم الأخلاق محبوبة لذاتها ولأنها من الخصال الموروثة عـن الخليل وإسماعيل أبي العرب الحجازيين "[٤] .

إن باعـث الضمير الحي عند عرب الجاهلية جعلهم لا يسودون كما يقول الجاحظ[٥] إلا من تكاملـت فيه ست خصال [السخاء والنجدة والصبر والحلم والتواضع والبيان] كما أنهم كانوا يخـرجون من القبيلة من ساء خلقه فها هي عشيرة الشاعر طرفة بن العبد تفرده مثل ما يُفرَدُ الجمل

---

(١) السابق . ص: ١٥٢ .

(٢) عبد القادر محمد مايو . ديوان طرفة بن العبد . ص : ٥٣ .

(٣) د. مصطفى صميدة . الإسلام دين العقل والفطرة . ص : ٣٦.

(٤) السابق . ص : ٣٧ .

(٥) المصدر السابق : ٣٥.

الأجرب عندما تمـــادى في الإسراف واللهو وشرب الخمر مما حدا به إلى القول[1]:

وما زال تشرابي الخمور ولذتي وبيعي وإنفاقي طريفي ومتلدي

إلى أن تحامتني العشيرة كلـها وأُفردتُ إفراد البعير المـعبدِ

والمعـنى " مـا زال دأبي شـرب الخمـور وإتـلاف الأموال إلى أن غضبت مني عشـيرتي وقـاطعتني وتُركتُ وحيدًا معزولاً كالبعير الأجرب "[2] .

لقـد دأب علـى شـرب الخمر وإتلاف الأموال في غير وجهها إلى أن غضبت منه عشيرته وقـاطعته وتركته وحيداً معزولاً كالبعير الأجرب الذي يُخشى خطره .

و لعـل البعض منا يسمع بهذه الكلمة بل وقد يكررها أثناء حديثه لكنه يجهل معناها ولذلك حرصت أن أجد تعريفًا للضمير حتى أضع القارئ الكريم أمام مقروء مفهوم .

فالضـمير هـو " اسـتعداد نفسـي لإدراك الخبـيث والطيب من الأعمـال والأقـوال والأفـكار، والتفـرقة بينها واستحسان الحسن واستقباح القبيح منها "[3]

كما أن الضمير يأتي بمعنى : " ما تضمره في نفسك ، ويصعب الوقوف عليه " [4] وقـد كان مـن حـرص العرب على التحلي بضمير حي ويقظ أنهم كانوا يستدلون بالنظـر عن الضـمير ومـما ورد عنـهم في ذلك : قولهم[5]: شاهد البغض اللحظ . وجلّى محب نظره . وقال زهير :

فإن تكُ في صديق أو عدوٍّ تخبرك العيون عن الضميرِ

الضمير : ما يُضمر في النفس ويصعب الوقوف عليه .

وقال ابن أبي حازم :

خذ مـن العيش ما كفـى ومـن الدهر ما صفـا

عين مـن لا يحـب وصـ لَكَ تبـدي لك الجفـا

جفا فلان : ساء خلقه ، وفلانًا : أعرض عنه وقطعه .

---

(١) ديوان طرفة بن العبد . ط: الأولى . دار القلم العربي بحلب . سوريا . (١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م) ص: ٦٢.

(٢) الديوان – ص : ٦٢ .

(٣) المعجم الوسيط . ط: دار الفكر . (د.ت) المجلد الأول . ص : ٥٤٤ .

(٤) السابق . ص : ٥٤٤ .

(٥) ابن عبد ربه الأندلسي . العقد الفريد . ج ٣ / ٦٨ .

(٤) المحافظة على المفاخر وتوارث الأمجاد واتقاء الذم بسوالب الفضائل :

إن الفضائل العلية والأخلاق الحميدة لهي مطلب الأمم الماجدة والجماعات الفاضلة من البشر جميعًا العربي منهم والعجمي ، فما ظنك بأمة كالأمة العربية التي لو عاودنا التفكير في مقوماتها لوجدنا أن القيم والأخلاق والفضائل من مقومات شخصية أبنائها ؟ إننا بالطبع سنجد أن المحافظة على المفاخر وتوارث الأمجاد واتقاء الذم بسوالب الفضائل من أهم بواعث الأخلاق لدى الإنسان العربي متضامنًا ومتحدًا مع البواعث التي ذكرناها .

وكم كانت القبيلة العربية تحافظ على ذلك أمام القبائل الأخرى ، بل والأمم المجاورة للعرب كما تجلى لنا ذلك من مناظرة النعمان مع كسرى حيث إن العرب لم يكن عندها ما تفاخر به سوى تلك الأخلاق والصفات ، وما كانت فرحة العشيرة بمولد الشاعر فيها تلك الفرحة العظيمة إلا لأنه سيكون حامل لواء تلك المفاخر والأمجاد ولسان قبيلته وسفيرها للتغني بها أمام القبائل والأمم الأخرى . يقول ابن رشيق : " كانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها ، وصنعت الأطعمة ، واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعون في الأعراس ويتباشر الرجال والولدان ، لأنه حماية لأعراضهم ، وذب عن أحسابهم ، وتخليد لمآثرهم ، وإشادة بذكرهم "[1].

وقد كان الشعراء في الجاهلية أرقى الطبقات عقلاً وأدقهم شعورًا كما يدل على ذلك اشتقاق اسمهم ، وكان الشاعر عند العرب يقوم بما يقوم به الفلاسفة والعلماء في الأمم المتحضرة يرسمون المثل الأعلى ، ويفتحون أعين الناس لإدراك ما حولهم من شؤون الحياة ونقدها .

إن حفاظ العرب على تلك الفضائل والأمجاد جعلت القبيلة منها تطرد بعض أفرادها لخروجه وعدم التزامه بأخلاق وأعراف قبيلته وقد أدت هذه الظاهرة إلى وجود طبقة اجتماعية في جزيرة العرب وأقصد بذلك " الصعاليك" .

وقد كان من عادة العرب المحافظة على سلامة الأنساب لأن في حفاظهم على أنسابهم حفاظًا على قيمهم وأخلاقهم ومثلهم ، كما أن الحفاظ على الأنساب فضيلة توجه إلى الخلق السليم كأن يتبين به الإنسان المحرمات عليه من النساء ومن الشواهد على ذلك قول عنترة بن شداد :

---

(١) ابن رشيق القيرواني . العمدة في محاسن الشعر وآدابه . مجلد (١) ص: ١٥٣ .

يا شاة ما قنص لمن حلت له حرمت عليّ وليتها لم تَحرُمِ [١]

والمعـــنى : " هي حسناء جميلة مقنع لمن كلف بها وشغف بحبـــها ولكنها حرمت علي وليتها لم تحرم عليّ ، أي ليت أبي لم يتزوجها حتى كان يحل لي تزوجها "[٢] .

(٥) الحرص على نيل السؤدد :

كان من بواعث الأخلاق عند العرب حرصهم على نيل السؤدد الذي ما كان يتـــأتى إلا لمن يجتمع فيه رصيد كبير من القيم وفضائل الأخلاق .

" قـــيل لقيس بن عاصم : بم سدت قومك ؟ قال: (ببذل الندى وكف الأذى ونصرة المولى وتعجـــيل القـــــرى) وقد يسود الرجل بالعقل والعفة والأدب والعلم . وقال بعضهم : السؤدد اصـــطناع العشيرة واحتمال الجـــريرة ٠٠٠ومن أظهر خصال السؤدد المجمع عليها عند العرب أن المـــرء يســـود إذا كانت شـــروط السيادة لامعة فيه متكاملة عنده منذ الصغر ومن ثم قالوا : (إنما السؤدد في السواد)[٣].

ولا غـــرابة في أن العرب كانوا يحرصون على أن تتوفر فيهم الأخلاق الفاضلة رغم ما كان يشـــوبها أحيـــانًا من انحرافات وتهور إلا أن القول بفطرية أخلاقهم أمر مسلم به ذلك أنهم ورثوا تلك الأخـــلاق الفاضلة من أبيهم إبراهيم عليه السلام الذي قال الله فيه : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِّلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[٤].

والرجـــل الأمـــة هـــو : الـــجامع لخصال الخير ، والقيم والأخـــــــلاق الفاضلة من أهم تلك الخصال .

ومـــن كل ما تقدم يمكننا أن نتصور المجتمع العربي ذا النظام القبلي بأنه كعـــدد من خـــلايا الـــنحل المتفـــرقة في الأمكنة لكن النحل رغم ذلك متقارب الطباع وكل خلية واحدة منها تحتوي علـــى مجمـــوعة منه شأنها الوحـــدة والتآلف لكن إذا حملت نحلة منه إليه رائحة غريبة هجم عليها البقية فقتلها أو أخرجها إلى الخارج وهذه طبيعة في النحل لا يعلم سرها إلا الله تعالى . فكذلك كان العـــرب في الجاهلـــية قبائل متفرقة في أنحاء الجزيرة وكل قبيلة لها أعرافها وتقاليدها وأخلاقها التي

(١) خليل شرف الدين – ديوان عنترة ومعلقته – ص : ٦٥ .

(٢) الزوزني . شرح المعلقات العشر . ص : ٢١٠ .

(٣) د. مصطفى صميدة . الإسلام دين العقل والفطرة . ص : ٣٥ .

(٤) النحل / ١٢٠ .

تدَّعــي كل قبيلة السبق إليها ، فإذا ما خرج فرد من أفرادها ، أو أتــى بما يخالف طبعها وعادتها فقد جنى على نفسه بفعلته تلك إما بالقتل وإما بالإخراج . وأخيرًا أقول : إن الأخلاق في اعتقادي هــي الدســتور الأقــوى الذي كان العرب في الجــاهلية يعتمــدون عليه – إلى جانب أعرافهم وتقالــيدهم– في تســيير نظام حياتهم بل إن الأعراف نفسها عمادها الأخلاق ، وذلك الدستــور كــان لتطبيقه وسيلتان لا ثالث لهما :

١– الوســيلة الدافعــة : وهي الوسيلة التي تنمي الاستعداد لفعل الخير . مثل : القــدوة الرزينة العاقلة ، والحكمة البليغة ، والصحبة الوفية .

٢ – وســيلة مانعــة : وهي الوسيلة التي تحول دون فاعلية الرغبة في الأخلاق السيئة ، وتعطــل الإرادة والاســتعداد لفعلها مثل : الاعتبار ممن طُرد خارج العشيرة لخلق سيئ فيه ،والعقوبات الأخــرى كالقتل والتشريد ، وكذلك إيراد الأمثال التي تبين الأحداث والنهاية غير المرضية لصاحب الخلق الرذيــل كقوله : " أتتك بحائن رجــلاه " يضرب مثلاً في أن الشر يعود على فاعلــه[١] وكقــولهم : " على أهلها تجني براقش"[٢] يُضرب لمن يعمل عملاً يرجع ضرره على نفسه وأهله .

لقــد صــاغ العرب تلك الأشعار والحكم والأمثال والوصايا والخطب في عبارات قصيرة ، وإنهم إنما فعلوا ذلك لتحفظ صدورُهم أكبر قدر ممكن منها حتى إذا ما عرض لأحدهم عارض رجع إلى ذلــك الدستور المحفوظ في صدره من أشعار وحكم وأمثال ووصايا وخطب فيقيس ما عرض له بما حفظه ووعاه ثم يصدر بعد ذلك منه القول الخلقي أو الفعل الخلقي الذي يحفظ عليه نفسه وأهله وماله .

إن مــا عرضــناه لــك غيض من فيض وقليل من كثير فتعال معي الآن لنتعرف سويًا على أخــلاق العــرب في الجاهلــية كمــا تظهر في أشعارهم ." حكى أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين النيســابوري أن كعب الأحبار قال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقد ذكر الشعر : يا كعب ، هــل تجد للشعراء ذكرًا في التوراة ؟ فقال كعب : أجد في التوراة قومًا من ولد إسماعيل ، أناجيلهم في صدورهم ، ينطقون بالحكمة ، ويضربون الأمثال ، لا نعلمهم إلا العرب "[٣].

---

(١) المنجد في اللغة والأعلام . ص : ٩٧٠ .

(٢) الميداني . مجمع الأمثال . ص : ١٤ .

(٣) ابن رشيق القيرواني . العمدة في محاسن الشعر وآدابه . مجلد (١) ص: ٥٢ .

هـــ – أخـــلاق العـــرب فـــي الجاهلية كما تظهر في أشعارهم : (دواوين شعراء المعلقات العشر نموذجًا) :

لقـــد رأيـــت أنني لو بحثت في أخلاق الجاهليين كما تظهر في أشعارهم كلها لأخذ ذلك وقتًا طـــويلاً ومجلـــدات تعـــد ولا تحصى خاصة إذا ما عرفنا أن كل قصيدة عربية جاهلية – ولن أكون مجازفًـــا – إذا ما قلت : كـــل بيت من قصائد الشعر الجاهلي إذا لم يصرح فيه بخلق معين مباشرة فإنـــه لا يعدم أن يكون وراء معناه معنًى آخر لا يخلو من الأخلاق أو الروح الخلقية التي كان العربي الجاهلـــي يتصـــف بها خاصة وأننا سبق أن قلنا : إن تلك الأخلاق العربية لم تعد مجرد أحد عناصر تشكيل القصيدة العربية الجاهلية أو فلسفة الشاعر الجـــاهلي فحسب وإنما هي مقومات للشخصية العربية.

إنـــنا " إذا تتبعـــنا صـــورة الرجل العربي ومقوماتها التي نجدها مبثوثة في شعر المديح والفخر والرثـــاء والهجـــاء والوصايا..فالمدح غرض كان يقصد إلى إظهار الممدوح في أحسن صورة تخلع علـــيه الصـــفات الحسنة التي تعلي مكانه ، وتبرز مآثره . والفخر: كان يهدف إلى إعلاء الفرد أو القبيلة بسبب ما ينفرد به أو تنفرد به عن غيرها من الصفات المثلى . والرثاء : كان نوع منه يبين أن الســـبب في شـــدة اللوعة والحسرة على الفقيد هو ما يتحلى به من خصال محمودة فقدت بفقده ، واندثـــرت بمـــوته . والهجـــاء : الذي كـــان يهـــدف إلى سلب الصفات الجميلة عن الشخص وتعريته منها ليبدو للعيان شخصًا منفرًا ، لا تطمئن إليه النفس ، ولا تسر به العين .

والوصايا : يبدو فيها حرص الآباء والحكماء على من سيأتي بعدهم فيزودونه بما يحفظ عرضه نقـــيًا طاهرًا أو بما يمكن له الحياة الكريمة والسمعة الحسنة "[١] ونحن لا نقرر بأن المجتمع العربي كان مجـــتمعًا مثاليًا في الأخلاق والفضائل فقد وجد فيه أخلاق سيئة تعد من أضداد الفضائل والأخلاق الحمـــيدة إلا أنـــنا نؤكد أن الأخلاق الحسنة والكريمة هي السائدة وأنها مطلب حتى لمن عُرف عنه الســـوء والفحشـــاء فهذا امرؤ القيس رغم فحشه في شعره يجعل الأخلاق مصير همته ومبلغ كسبه يقول :

وكل مكارم الأخلاق صارت إليه همتي ، وبه اكتســـابي[٢]

---

(١) د. عـــبد الخالق بن مساعد الزهراني . مقومات الشخصية العربية من خلال الشعر الجاهلي . السابق ، ص : ٢٠-٢١.

(٢) ديوان امرئ القيس ط: دار صادر . بيروت (د. ت) ص: ٧٢ . والضمير في (إليه همتي) عائد إلى كل .

وحرصًـــا مني على دقة التنقيب في الشعر العربي الجاهلي عن تلك الأخلاق حميدها ورذيلها فـــإنني قــــد اخترت نصوصًا كثيرة إلا أنها محددة وموثقة لا تحتاج مني إلى قول القائل : هذا بيت غـــير جاهلـــي ، وذلك خـــلق ليس من أخلاق الجاهليين . وقد أعملت فيها الفكر وقضيت معها الـــوقت الطـــويل في ســـبيل الخروج بما هـــو مفيد في مضمونه وموثوق في نصه فأجلت النظر في دواوين شعراء المعلقات العشر باعتبار أن الديوان الشعري من أصح ما يمكن أن يعتمد عليه الباحث ثم إن أولـــئك الشـــعراء العشـــرة يمـــثلون أشهر شعراء العصر الجاهلي ، كما أن دواوينهم تزخر بالقصـــائد المشـــهورة ، والأخبار المذكورة ، والصور الرائعـــة ، والأخـــلاق الذائعة عـــلمًا بأنني سأعتمد في بحثي في أخلاق العرب الجاهليين من خلال قصائد هذه الدواوين الأخلاق المصرح بها لفظًـــا بأحد الفضائل الأخلاقية أو أضدادها مع شرح معناها ، مرجئًا البحث عن معنى المعنى – أو بالأحـــــرى باطن المعنى – في القصيدة العربية والذي حتمًا يتضمن خلقًا معينًا يرمي إليه الشاعر مـــثل أن يختار صورة معينة يلقي عليها رؤيته الخاصة " وقد صبغها بألوان نفسه ، وظللها بأصناف حسه وضـــروب مشـــاعره "[١] في فرحه وحزنه ولا شك أن تلك الأحاسيس والمشاعر ستعكس لنا ما تحمله من أخلاق حميـــدة أو رذيلة – إلى حين البحث في الإطار الخلقي في المعلقات العشر في الفصل الثاني من بحثنا هذا إن شاء الله تعالى .

إلا أنـــني أوافـــق من يقول " إن الدلالة الحرفية للشعر ليست ضربة لازب ، وإنما هو وحي تكفـــي إشـــارتـــه ... ومـــــن الخطأ أن نرفض الدلالة الحرفية ، للشعر لنفرض عليه دلالة نتوهمها "[٢].

إنني سأنظر عند البحث في الأخلاق وأثرها في تشكيل القصيدة العربية الجاهلية نظرة توفيقية لا تـــرفض الدلالة الحرفية للشعر كما أنها لا تتوقف عند تلك الدلالة خاصة إذا ما عرفنا أن من بين الشـــعراء الجاهلـــيين المعنـــيين في هذا البحث من كان يرفض الدلالة الحرفية فقد " رفض الأعشى الوقوف بالشعر عند الدلالة الحرفية... عندما أنشد قصيدته[٣] :

رَحلـــت سمـــية غـــدوة أجْمالهـــا	غَضْـــبَى عَلَـــيكَ بمـــا تقـــول بـــداها
هَـــذا الـــنهار بـــدا لهـــا مـــن همهـــا	مـــا بالهـــا باللـــيل زال زوالهـــا
سَفَهًـــا وَمَا تـــدْرِي سمية ويحُهَـــا	أن رب غانيـــة صرمـــت وصالهـــا

---

(١) د. محمد محمد أبو موسى . قراءة في الأدب القديم . ص: ٣٦٠.

(٢) السابق . ص: ٣٤.

(٣) الديوان . ط: دار صادر (د. ت) ص: ١٥٠ .

" ســئل عن سمية التي ذكرها فقال : لا أعرفها وإنما هو اسم أُلقي في روعي . مع أنه حدث عنها وأنها رحلت غدوة ، ورحلت غضبى ، وتساءل ما بدا لها ، وأنها سفهت ، وجهلت صاحبها ، وأنه صرّام حبال، وكـــل هذه أحداث وأقوال ، ومع هذا يقول : إنه لا وجود لها ، وإنما هو شيء قُذف في قلبي وكل هذا محض شعر وليس وصفًا لوقائع ، وكأن الشعر نفسه أصداء لأصوات خفية مكتمة قبعت في ضمير القلب"[١] .

إنهـــا لقنوات يبث من خلالها الشاعر مشاعره بامتداح وإعجاب بخلق يرتضيه أو رفض خلق يزدريه ، وأقول : إن هذا ليؤكد ما ذهبت إليه سابقًا من الغرض الأساسي عند الشاعر الجاهلي من هـــذا النوع من الشعـــر وأمثـــاله إنما هو مجرد اتخاذ هذه المسميات وتلك المعاني المباشرة والصور المعـــبرة وأود أن أذكـــر هنا أنني ســـأقـــف طويـــلاً في باب معنى المعنى ذلك الباب الجليل الذي ذكره علماؤنا أمثال الشيخ عبد القـــاهر الجر جـــاني وســـأثبت إن شاء الله – أنه باب مهم جدًّا فهـــم القدماء من خلاله النصوص ونحن بدلاً أن نكمل ما وصلوا إليه اتجهنا إلى مذاهب نقدية غربية لا تخضـــع لها طبيعة الشعر العربي كالرمزية وغيرها ذلك أن معنى المعنى في شعرنا العربي هو الموجود فعـــلاً والدليل على ذلك ما نراه إلى اليوم عند شعراء عرب فقدوا التعبير باللغة العربية الفصحى إلا أنهـــم يوردون في أشعارهم معاني ظاهرة ليست هي المقصودة في ذاتها وإنما يقصدون معـــاني أخرى وراء تلك المعاني الظاهرة – أو بمعنى أدق باطن تلك المعاني الظاهرة لا يفهمها إلا شاعـــر مثلهم أو مـــن رزقه الله نظرة صائبة وقلبًا واعيًا ، إلا أنني لا أقصد بمعنى المعنى هنا " التمثُّل " أي : " انتقال الشعر من معانيه ومقاصده التي قيل فيها إلى معان وأغراض أخرى "[٢] كتمثل الحسن البصري بقول الشاعر :

اليـــوم عندك دلهـــا ودلالها وغدًا لغيرك كفّهـــا والمعصـــم

دلّها : جرأتها في تكسر وملاحة كأنها تخالفه وما بها من خلاف . دلالها :حسن حديثها ومزحها .

إن البيت قيل في النساء ونقله الحسن إلى معانٍ كثيرة يتمثل بها في مواعظه .

لا ، لا أريـــد النظـــرة إلى معنى المعنى بهذه الصورة فقط لأنها وإن كانت صائبة إلا أنها تُعدُّ ضـــيقة إذ أن معـــنى المعنى في رأيي : أن الشاعر نفسه يطرح في قصيدته معان يكون وراءها أو في

---

(١) د. محمد محمد أبو موسى .المرجع السابق . ص : ١٢٧ .

(٢) السابق . ص : ٣٤ .

باطـــنها معان أخرى يريـــدها إلا أنه يصرف كلامه عن مراميه ويقصد به غير ما يفهمه الناس . إلا الحاذق منهم والخبير بالشعر ولهذا وجـــد منهم من يحكم بين الشعراء كالنابغة مثلاً ، وكان بعضهم يقـــال الشـــعر على مسمع منه فيستغلق عليه معناه فلا يبقى له سبيل إلا أن يسأل العارفين بأسراره والمتمرســـين بأفـــنانه .وقد سبق لنا أن مثلنا لذلك بقول الأعشـــى ورفضه الوقوف على الدلالات الحرفية للشعر ، وسنتبين من ذلك الباب الجليل الكثير من خلال وقوفنا على المعلقات العشر .

ولكنـــنا هـــنا جلنا بالنظر في دواوين الشعراء العشرة – أعني شعراء المعلقات العشر – من خـــلال الدلالـــة اللفظية لتلك الأخلاق مرجئين النظر والبحث فيما وراء دلالات الألفاظ والمعاني المباشـــرة فكـــنت بذلك كالجيـــولوجي الخبير في الآبار الجوفية حينما يزور أرضًا معينة ثم ينظر إلى معالمهـــا الطبيعـــية التي يمكن أن تنبئ عن وجود الماء في مكان محدد فيها ،وبعد أن يجمع معلوماته في المظاهـــر الطبيعـــية الدّالة يقع نظره الصائب على مكان البئر فيقول: هنا الماء الغزير فتحفر البئر وتدرّك وتعمق بشكل دقيق ومحدد فإذا بالماء يتفجر منها وكلما زاد نزوحًا زاد جمًّا وأحسبني بذلك أفتح بابًا جديدًا أمام من يريد أن يستخرج بعض ما تتضمنه نصوص الشعر العـــربي القديم من كنوز ثميـــنة لا زالـــت دفينة ونحن نقف مشدوهين أمام النظريات الغـــربية التي قد لا يخضـــع أدبنا العـــربي لأكثـــرها ، وما أجمل أن نترفع عن أهواء الرمزيين وإسقاطاهم التي يسقطوها على النص الجاهلي ! .

وإنـــني لأعجـــب ممـــن يفعـــل ذلك وفي لغتنا أساليب عربية تنبئ بمعنى المعنى مثل الكنايات والتعـــريض والـــتورية ، إن الحاذق والفصيح ليعلم أن هناك معنًى مغيبًا وراء المعنى المباشر من بناء القصيدة بل البيت أو البيتين وهناك قصة ملخصها أن رجلاً كثير المال صحب عبدين في سفر فلما توسطا الطـــــريق همّـــا بقتله فلما صح ذلك عنده قال : أقسم عليكما – إذا كان لا بد لكما من قتلي – أن تمضـــــيا إلى داري، وتنشـــدا ابنتي هذا البيت ! قالا : وما هو ؟

قال :

مـــن مبلـــــغ بنتيَّ أن أباهما لله دركما ودرُّ أبيكمـــــا

فلم يريا بأسًا في ذلك وعندما سمعت بنته الصغرى البيت خرجت كاشفة ، وقالت : هـــذان قتلا أبي يا معشر العرب ، ما أنتم فصحاء ! قالوا : وما الدليل عليه ؟ قالت : المصراع الأول يحتاج إلى ثـــانٍ ، والـــثـــاني يحتاج إلى ما يكمله ، ولا يليق أحدهما بالآخر . قالوا : فما ينبغي أن يكون ؟

قالت : ينبغي أن يكون :

مَن مخبر بنتيَّ أن أباهـما أمسى قتيلاً بالفـلاة مجندلا

لله دركما ودرُّ أبيكمـا لن يبرح العبدان حتى يقتلا

فاستخبروهما فوجدوا الأمر على ما ذكرت[1].

وبالعقـل أي شـخص يريد البحث والتنقيب عن شيء ما فهو مطالب أولاً بتحـديد مطـلـبه، ومعـرفة مادتـه وعناصرها أو مركباتها ، ومن هنا فحري بنا قبل البدء في البحث في دواوين الشعراء العشرة عن الأخلاق والفضائل الحميدة أو أضدادها أن نعرف شريحة كبيرة أو عينة مسماه من قبل الآخرين الذين سبقونا إلى ذلك لهذا حرصت أن أجمع مادة كبيرة وشريحة عريضة من أخلاق الجاهليين حتى أعرف في بحثي عـمّ أبحث؟ وماذا أريد ؟وبم يجب أن أخرج ؟لقد حصلنا على الكـثير والكـثير جدًا فيما سبق ذكره في هذا الفصل مـن التعرف على أخلاق الجاهليين إلا أننا سـنقف الآن على نص آخر جمع لنا أشتات تلك الأخـلاق، وهـو نص ابن طباطبا في كتابه عيار الشعر حيث يقول: " وأما ما وجدته في أخـلاقها ، وتمدحت به ومدحت به سواها وذمّت من كان على ضد حالها فيه فخلال مشهورة : منها في الخَلْق : الجمال والبسطة .

ومـنها في الخُلُق : السخاء ، والشجاعة ، والحِلم ، والحزم ، والعزم ، والوفاء ، والعفـاف، والـبر ، والعقـل والأمانة ، والقناعة ، والغيرة ، والصدق ، والصبر ، والورع ، والشكر ، والمداراة ، والعفـو ، والعـدل والإحسان ، وصلة الرحم ، وكتم السر ، والمواناة ، وأصالة الـرأي ، والأنفـة ، والدهـاء ، وعـلو الهمة والتواضع ، والبيان ، والبشر ، والتجارب ، والنقض والإبرام .وما يتفرع من هذه الخلال التي ذكـرناها من قرى الأضياف ، وإعطاء العفاة، وحمل المغارم ، وقمع الأعداء وكظم الغيظ ، وفهم الأمور ، ورعاية العهـد والفكرة في العواقب، والجـد والتشمير ، وقمع الشهوات، والإيثار على النفس ، وحفظ الودائع ، والمجـازاة ،ووضع الأشـياء مواضـعها ، والذب عن الحريم ، واجتلاب المحبة والتتره عن الكذب ، واطراح الحرص، وادخـار المحامد والأجر ، والاحتراز من العدو ، وسيادة العشيرة ، واجتناب الحسد ، والنكاية في

(١) بلوغ الأرب : ٣٢/١ .

الأعــداء ، وبلـــــوغ الغايــات ، والاســتكثار من الصدق، والقيام بالحجة ، وكبت الحساد ، والإســلاف في الخير ، واستدامة النعمــة وإصلاح كل فاسد ، واعتقاد المنن ، واستعباد الأحرار بهــا، وإيــناس النافر ، والإقدام على بصيرة ، وحفـــظ الجار . وأضداد هذه الخلال : البخل ، والجــبن ، والطــيش ، والجهــل ، والغدر ، والاغترار والفشل ، والفجــور والعقوق ، والخيانة ، والحــرص ، والمهانة ، والكذب ، والهلع ، وسوء الخلق ، ولؤم الظَّفَر ، والجور ، والإساءة وقطيعة الــرحم ، والنمــيمة ، والخلاف ، والدناءة ، والغفلة ، والحسد ، والبغي ، والكِبر ، والعبوس ، والإضاعة ، والقبح ، والدمامة ، والفماءة ، والاستحلال ، والخور ، والعجز ، والعِيُّ . " [١]

والآن جاء الوقت لنبحث عن أخلاق الجاهليين كما صـــرح بها الشعراء العشرة لفظًا في دواويــنهم إلا أنني أطلب من القارئ الكريم ألا يستعجل ويسألني عن غياب بعض القيم والأخلاق الــتي ذُكــرت ســابقًا إذ أنها لم تغب في الأصل وهذا ما سنوضحه جملةً وتفصيلاً عند البحث في المعلقات العشر.

وعــند النظــر في دواوين الشعراء العشرة نجد أن " المجتمع العربي قبل الإسلام كأي مجتمع متحضــر آخــر ، حــدد لأبنائه القيم الأخلاقية العالية وميز بينها وبين ما يقابلها من الصفات والأخــلاق الــرديئة الــتي أكد على نبــذها والإعراض عنها ، والتوجه كليًا إلى حميد الأخلاق والصفات ، فترددت في دواوين شعر المعلقات العشر ألفاظ تدل على الأخلاق والصفات الحميدة ، وأخــرى تــدل على الأخلاق والصفات الرديئة والسيئة ، فكانت الأولى تبعث على المدح والثناء وحسن الصيت وكانت الثانية تبعث على الذم والهجاء "[٢].

ويتضــح لــنا هنا أن الأخلاق مثلما حدت بالعــرب إلى إيجاد الشعــــر كما أسلفنا فإنها نفسها لا زالت وراء الأغراض الشعرية أيضاً ومن هنا يزداد الأمر وضوحًا حول أثر القيم والقضايا الأخلاقية في تشكيل القصــيدة العربية – في العصر الجاهلي خصوصًا – والآن لنتعرف على بعض من تلك القيم والأخلاق :

---

(١) ابن طباطبا . عيار الشعر . تحقيق : د. عبد العزيز ناصر المانع . ص: ١٧–١٨ .

(٢) د . نــدى عبد الرحمن يوسف الشايع . معجم لغة دواوين شعراء المعلقات العشر تأصيلاً ودلالةً وصرفًا – ص : ٦٧ .

١ – الصدق وخلافه الكذب :

ورد في المعجم الوسيط الصدق : مطابقة الكلام للواقع بحسب اعتقاد المتكلم " وخلافه الكذب يقال : كَذَبَ : أخبر عن الشيء بخلاف ما هو عليه في الواقع . (وأود أن أشير هنا إلى أنني استعملت كلمة (خلافه) لدقة معناها وقد استخدمها ابن سيده صاحب المخصص) [١]

يقول الأعشى في مدح رجل يُقال له أبو الخنساء [٢]

إني وجدت أبا الخنساء خيرهم   فقد صدقت له مدحي وتمجيدي

أبا الخنساء : الممدوح ، والأعشى هنا يحقق على أنه صادق في إخباره في واقع مدحه وتمجيده لأبي الخنساء .

وقرن طرفة بن العبد بين اللفظتين المتضادتين (الصدق ، والكذب) حيث يقول :

والصدق يألفه الكريم المرتجى   والكِذْب يألفه الدنيء الأخيبُ

والمعنى : إنّ الصدق في المعاملة من اختيار الكرام الأُصلاء ، وضده الكذب فهو من اختيار اللئام الأدنياء. فكونوا صادقين لتكونوا كرامًا. [٣]

ويقول لبيد بن ربيعة العامري :

واكذب النفس إذ ا حدثتها   إن صدق النفس يزري بالأمل

أي : " حدث نفسك بالظفر دائمًا وبلوغ الأمل لتنشطها على الإقدام ولا تحدثها بالخيبة فتثبطها. أو: منّها بالعيش الطويل لتجدَّ في الطلب ، ولا تقل لها : لعلك تموتين اليوم أو غدًا "[٤].

ويقول زهير بن أبي سلمى يمدح هرم بن سنان :

ليث بعثَّر يصطاد الرجال إذا   ما الليث كذّب عن أقرانه صدقا

ليث : أسد .   عثَّر : موضع .   القِرن : الصاحب في القتال .

---

(١) انظر المخصص . ج١/ ٢٩٢ .
(٢) ديوان الأعشى – ص : ٥٣ .
(٣) ديوان طرفة بن العبد – ص:٣٢ .
(٤) الديوان – ص : ١٤١ .

يقول : " إذا رجع الشجاع عن قرنه ولم يصدق الحملة عليه فهذا الممدوح يصدقها "[١].

ويقول عبيد بن الأبرص في سياق حديثه عن العذاب الناتج من طول الحياة :

والمرء ما عاش في تكذيب طول الحياة له تعذيبُ

أي : " إن الحياة كذب وطول عذابها على من أُعطيها لما يقاسي من الكبر وغيره من غُيرِ الدهر"[٢]

ويقول الأعشى في سياق مدحه المحلّق :

يروح فتى صدق ويغدو عليهم بملء جفان من سديف يدفق

وعاد فتى صـــدق عليهم بجفنة وسوداء لأيًا بالمزادة تُمـــرقُ

والمعنى : يصف الأعشى المحلق بأنه فتى صدق يروح ويغدو في آل المحلق بجفان مليئة بشحم سنام الإبل .

ووصـــف طرفة نفسه بأنه (ذو مصدق) أي : (صادق الحملة شجاع) في سياق فخره بنفسه حيث يقول:[٣]

فلما ابتدرنا كبا مُحمَرٌ وكنت على البعد ذا مصدق

والمعنى :لمـــا تبادرنا أنا وخصمي الضراب بالسيف وبادرني بضربة بسيفه المثلوم يريد شق رأسي ورده عني عزمي وشبابي لهذا كبا حده ونبا ، وكنت أنا الشجاع الصادق الحملة .

ويقول عبيد بن الأبرص :[٤]

وخرق من الفتيان أكرم مصدقًا من السيف قد آخيت ليس بمذروب

الخِرق : الظريف السخي ، المذروب : السيئ الخلق الخبيث اللسان .

أي : آخـــيت من الفتيان الظريف السخي الأصدق من السيف إذا ضربت به فصدق وليس السيئ الخلق الخبيث اللسان .

وقال لبيد في سياق رثائه أخاه أربد :[١]

---

(١) الديون – ص : ٤٣ .

(٢) د. مفيد قميحة . شرح المعلقات العشر . ص : ٤٣٣ .

(٣) الديوان – ص : ١٣٦.

(٤) الديوان – ص : ٣٨ .

لعمري لئن كان المخبِّر صادقًا   لقد رُزئت في سالف الدهر جعفر

والمعنى : قسمي لئن كان المخبِّر صادقًا حين أخبر بموت أربد فقد أصيبت جعفر مصابًا جللاً.

ويقول النابغة الذبياني في هجائه مرة بن ربيعة لما قدم عليه عند النعمان : (٢)

أتاك بقول هلهل النسج كاذب   ولم يأتِ بالحق الذي هو ناصع

والمعنى : أتاك مرة بن ربيعة بقول سخيف كاذب ولم يأتك بقول حق واضح وصادق .

وقال لبيد : (٣)

أرى النفس لجّت في إناء مكذّب   وقد جربت لو تقتدي بالمجرب

أي : هذا الرجاء هو أمل النفس في البقاء مخلفًا لا يتحقق ، ولكن ليت التجارب وعظتها .

وهذا النابغة الذبياني في إحدى مدائحه واعتذارياته للنعمان يقول :

لئن كنت قد بلغت عني خيانة   لمبلغك الواشي أغش وأكذبُ

يقول : لئن بلغت عني أني أجحد نعمك وأتنقص عرضك فالواشي الذي بلغك هذا عني غاشٌّ لك وكاذب فيما نقل "(٤)

ويقول الأعشى في سياق رثائه للنعمان بن الحارث(٥) :

قل للهمام وخير القول أصدقه   والدهر يومض بعد الحال بالحالِ

وفي هذا البيت يقرر الأعشى بأن خير القول أصدقه .

٢ – الوفاء بالعهد وخلافه الغدر والإخلاف :

يقول امرؤ القيس في سياق مدحه العوير بن شنجة بن جابر : (٦)

لكن عوير وفى بذمته   لا عور شانه ولا قصرُ

---

(١) الديوان – ص : ٧٣ .

(٢) الديوان – ص : ٧٤ .

(٣) الديوان – ص : ٢٦ .

(٤) الديوان – ص : ٢٥ .

(٥) د. ندى الشايع . معجم لغة دواوين شعراء المعلقات العشر . ص: ٦٩ .

(٦) الديوان – ص : ١٠٤ .

لما قتل حجر الحارث بنته هند وقطينه إلى عوير هذا . فقال له قومه : كل أموالهم فإنهم مأكولون فأبى فلما كان الليل حمل هندًا وقطينها وأخذ بخطام جملها وأشأم بهم في ليلة طخياء (مظلمة) مدلهمة فرمى بها النجاد ، حتى أطلعها نجران وقال لها : إني لست أغني عنك شيئًا وراء هذا الموضع ، وهؤلاء قومك وقد برئت خفارتي، ولهذا امتدحه امرؤ القيس لوفائه وأمانه وكفالته تلك .

ويقول عنترة بن شداد في سياق الفخر : [١]

إنا كذلك يا سهيَّ إذا　　غدر الحليف نقود بالخطمِ

يقول : إنّا يا سهية إذا غدر الحليف فإننا لا نبالي ونقود خصمنا من أنفه .

وقال زهير بن أبي سلمى في سياق هجائه بني عليم :

فإنكُمُ وقومًا أخفروكم　　لكالديباج مال به العباءُ

يريد : إنكم وهؤلاء القوم الذين نقضوا عهدكم كالحرير فضِّل عليه العباء وهو من الصوف الخشن مع أنكم أشرف منهم." [٢].

وقال الأعشى في سياق شكواه قطيعة حبيبته له وإخلافها الميعاد : [٣].

من ديار بالهضب هضب القَليب　　فاض ماء الشؤون فيض الغروبِ

أخلفتني به قتيلةُ ميعا　　دي وكانت للوعد غير كذوبِ

هضب القليب : جبل في ديار بني عامر ، الشؤون : مجاري العين الدمعية . يقول : خلفت قتيلة بموعدها في ذلك الموضع رغم أن المعروف عنها أنها غير كاذبة ولا مخلفة وعدها .

ونعود إلى زهير وهو يقول في سياق مدحه بني الصيداء : [٤]

أبلغ لديك بني الصيداء كلهم　　أن يسارًا أتانا غير مغلولِ

ولا مهان ولكن عند ذي كرمٍ　　وفي حبال وفيِّ العهد مأمولِ

يقول : أبلغ بني الصيداء جميعًا بأن غلامي يسارًا لم يهن ولكنه كان عند كريم وفيِّ العهد يحفظه ويكرمه .

---

(١)　الديوان – ص : ٢٠٣ .

(٢)　الديوان – ص : ٨٣.

(٣)　الديوان – ص : ٢٦.

(٤)　الديوان – ص : ٢٢٤ .

وهـذا الأعشـى أيضًا يقول في سياق مدحه شريح بن حصن بن عمران بن السموءل بن عاديا بأنه لم يكن خائنًا للعهد :

واختار أدراعه أن لا يُسَبَّ بها ولم يكن عهده فيها بختّارِ[(١)]

٣ – الأمانة وخلافها الخيانة :

تعـد خيانة الأمانة عيبًا عند العربي ، يُسَبُّ من لا يحافظ عليها ويطعن به ، وقد وردت عند الشعـراء العشرة كثيرًا فهذا النابغة الذبياني في سياق هجائه يزيد بن عمرو بن الصعق يقول : [(٢)]

فإن يقدر عليك أبـو قبيس تمط بك المعيشة في هـوانِ

وتُخضب لحية غدرت وخانت بأحمر من نجيـع الجوف آني

وكنتَ أمينه لـو لم تخنه ولكـن لا أمانة لليمـاني

وقول زهير في سياق مدحه هرم بن سنان : [(٣)]

إن تؤته النصح يوجد ،لا يضيعه وبالأمانة لم يغدر ولم يخنِ

والمعنى : أن هرمًا غير مضيع للنصح ولا غادر ولا خائن بالأمانة .

ونعود إلى النابغة الذبياني في معرض مدحه للنعمان حيث يقول : [(٤)]

ولو كفي اليمين بغتك خونًا لأفردتُ اليمين من الشمالِ

بغـتك خـونًا : أرادت خيانـتك . والمعـنى : لـو كفي اليمين أرادت خيانتك لقطعتها وبقيت الشمـال مفردةً .

وهـذا لبـيد بن ربيعة في سياق فخره بنفسه يقرر بأن خون النصح والود والعهد عيب لا يُغتفَر : [(٥)]

تلك ابنة السعديِّ أضحت تشتكي لتخون عهدي والمخـانة ذامُ

المخانة : خون النصح والود . الذام : العيب .

---

(١) الديوان – ص : ٧٠ .

(٢) الديوان – ص : ١٣٤-١٣٥ .

(٣) الديوان – ص : ١١٢ .

(٤) الديوان – ص : ١٠٣ .

(٥) الديوان – ص : ١٦١ .

ويقول الأعشى : [١]

وجارٍ أجاوره إذ شتـــــــو ـتُ ، غيرِ أمينٍ ، ولا مؤتمن

والمعنى : رب جار طلبت جواره في الشتاء ولكنه خائن لا أمانة له .

ويقول أيضًا : [٢]

ولقد شهدتُ التاجـــر الـْ ـــأُمـَّـان مـــوروداً شرابـــه

والمعنى : لقد حضرت وشاهدت تاجر الخمر الموثوق به .

وهذا عبيد بن الأبرص يحذر من أن تُسند الأمانة إلى خؤون فيقول : [٣]

إذا أنت حملت الخؤون أمانة فإنك قد أسندتـــها شر مسندِ

والمعنى : إذا أنـــت كلفـــت الخائن أو أسندت إليه أداء أمانة فإنك قد أسندها شر مسند لأنك وضعتها في يد خائن الأمانة .

ويقول النابغة في سياق مدحه النعمان واعتذاره إليه : [٤]

ولا أنا مأمون بشيء أقوله وأنت بأمر لا محالة واقع

ومعنى البيت : إذا كنت لا تكذّب عني ذا الضغن (الحقد) ولا أنا أؤتمن على ما أقول من الصدق فما أصنع"؟

٤ – الكرم وخلافه البخل :

أكـــبر شـــعراء المعلقـــات العشر وغيرهم من شعراء الجاهلية أصحاب الكرم والجود والعطاء والســـخاء ووقفـــوا إجلالاً وتعظيمًا لهم وتدفق الشعر في مدحهم والثناء عليهم ، وذموا إزاء ذلك البخل وأصحابه ، وعابوا الرجل الذي يضن بما عنده .

يقول الأعشى في سياق مدحه المحلّق : [٥]

ولا الملك النعمان يوم لقيته بإمته يعطي القطوط ويأفقُ

---

(١) الديوان – ص : ٢٠٨.
(٢) الديوان – ص :٢٢ .
(٣) الديوان – ص :٦٧ .
(٤) الديوان – ص : ٨٧ .
(٥) الديوان – ص : ١١٧.

والمعنى : وليس كمثل المحلّق ولا الملك النعمان الثالث في كرمه ونعمته وسنته المعتادة في إعطاء العفاة نصيبهم وصك جوائزهم و إعطاء بعضًا أكثر من بعض جزالة في العطاء .

ويقول لبيد في سياق رثائه أربد : (١)

انـــع الكريم للكريم أربـــدا

انـــع الرئيس واللّطيفَ كبـــدا

يحـــذي ويعطي ماله ليحمدا

والمعنى : انـــع الكريمَ – أخي أربد – لكل كريم من الناس ، إنع الرئيس العطـــــــوف الـــذي يـــؤثـــر الـــناس على نفسه ولو كان به خصاصة . وهو يعطي ماله ليحمد من النـــــاس ويكسب بذلك طيـــب الثنـــاء له ولأبنائه من بعده حيث يقول بعد ذلك :

أورثتنا تراث غـــير أنكـــدا

غنًى ومالاً طارفًـــا وأتلـــدا

شرخًا صقورًا : يافعًا وأمردا

وقال عبيد بن الأبرص :

والمشـــرفية مفلولاً ضـــواربها يـــوم اللقاء وأيدٍ بالندى سبط

لا يحسبون غنًى يبقى ولا عدمًا إذا رأى ذاك منهم معشر فرط

الســـبط : "الكريم ، نعت الجمع بالمفرد وربما كانت سَبَط بفتح السين والباء فيكون نعتًا بالمصدر أو لعلها سُبُط بضم السين والباء فيكون من الجموع الشاذة "(٢)

والمعنى : هم إلى جانب شجـــاعتهم كرمـــــاء وأصحاب أيادٍ كريمة فهم مجاوزون الحد في العطاء إلى درجة الإسراف لأنهم لا يضعون في حسبانهم غنًى يبقى ولا عدمًا يبقى .

وهذا الأعشى في سياق مدحه هوذة بن علي الحنفي يقول : (٣)

تضيفته يومًا فقرّب مقعدي وأصفدني على الزمانة قائدا

---

(١) الديوان – ص : ٥٣ – ٥٤ .

(٢) الديوان – ص : ٩٥ .

(٣) الديوان – ص : ٤٤ .

والمعنى : نزلت في ضيافة هوذة بن علي الحنفي فأكرمني وقرّب مقعدي وأعطاني على حال ضعفي وعــــاهتي قائدًا يقودني بسبب ضعف بصري .

ويقول طرفة في سياق فخره بقبيلته : (١)

نعفو كما تعفو الجياد على الــ ـــعلات والمخذول لا نذره

إن غـــــاب عنه الأقربون ولم يُصْبَحْ بريِّق مائه شجــــــره

إنّ التبـــــالي في الحيــــــاة ولا يغني نوائب مـــــاجد عذره

كــــل امـرئٍ فيما ألــــمَّ بــه يومًـــا يبين من الغنى فُقُرُه

والمعنى : نحــن قوم نجود بغير سؤال ، ولا ندع المخذول البائس إلا مجبور الخاطر ، وإن تخلى عنه أقــرب أقربائه ولم يُسقَ من خيرهم . إن الحياة فرصة ليعرف كل منا فيها الآخر ويجربه ، ولا تغني الأعذار شيئًا عن المعتــذر والحوادث هي التي تكشف عن غنى النفوس وفقرها من خلال ما تعطي وتمنع .

وقال النابغة الذبياني : (٢)

فتى كملت أخلاقه غير أنه جواد ، فما يبقي على المال باقيا

وهذا مدح في معرض الذم وهو من المحسنات البديعية ويسميه البلاغيون تأكيد المدح بما يشبه الذم .

ومعنى البيت : هو فتى أخلاقه كاملة وزادت أخلاقه كمالاً بجوده وكرمه إذ أنه يجود بماله كله.

وهذا طرفة بن العبد يفخر بقومه فيقول : (٣)

سمحاء الفقر أجواد الغنى سادة الشِّيب مخاريق المرد

والمعنى : القـــوم كـــرماء يعطون ولو افتقروا أو قَلَّ ما عندهم ، ويزيد عطاؤهم إذا اغتنوا وأثروا ولا عجـــب في ذلك فهم سادة أقوامهم شيبًا وشبّانًا .

---

(١) الديوان – ص : ١٠٤ .

(٢) الديوان – ص : ٩٢ .

(٣) الديوان – ص : ٤٣ .

وقد جعل شعراء المعلقات العشر الكريم بمنزلة الربيع في الخصب لكثرة عطائه وفضله كقول النابغة الذبياني في سياق مدحه النعمان : [1]

وأنت ربيع ينعش الناس سيبه　　وسيف أُعيرته المنية قاطع

والمعنى : أنت أيها النعمان بمنزلة الربيع لأوليائك تنعشهم بعطائك فترفع سقَطَتهم بكرمك، وأنت سيف متى ضرب شيئًا لم يحيَ بعد الضرب لأن المنية فيه .

ويقول زهير بن أبي سلمى في مدح حصن بن حذيفة الفزاري : [2]

وأبيض فياضٍ يداه غمامة　　على معتفيه ما تُغب فواضله

بكرت عليه غدوة فرأيته　　قعودًا لديه بالصريم عواذله

يفدِّينه طورًا وطورًا يلمنه　　وأعيا فما يدرين أين مخاتله

فأقصرن منه عن كريم مرزّإٍ　　عزومٍ على الأمر الذي هو فاعله

والمعنى : رب رجل نقي من العيوب كحصن بن حذيفة كثير العطاء يداه كالغمامة تمطر عطاءً على طالبي معروفه لا تنقطع عطاياه عنهم بكرتُ عليه غدوة وقد اجتمع به عند منقطع رمل نساء يلمنه على إنفاق المال تارة ويفدينه تارة أخرى أعجزهن فما يدرين كيف يخدعنه ليقبل عذلهن فما يكون أمامهن إلا الكف عجزًا فالرجل كريم سخي اعتاد أن يصاب منه كثيرًا وهو عازم على المضي في كرمه وعطائه لا يستطيع أحد رده .

ويقول لبيد بن ربيعة العامري في سياق فخره بقومه : [3]

وكم فينا إذا ما المحل أبدى　　نُحاس القوم من سمح هضومِ

يباري الريح ليس بجانبي　　ولا دَفِنٍ مروءته لئيمِ

والمعنى : نحن قوم فينا الكثير من الكرماء والأسخياء خصوصًا إذا ما أجدب الزمان وقل المطر ــ وفي الشدة تعرف طبيعة القوم ــ فكم فينا من سمح سخي يعارض الريح في ممرها سخاءً وكرمًا وليس فينا من يعتزل القوم ولا يدخل معهم في عمل الخير وليس فينا اللئيم القليل المروءة .

---

(١) الديوان – ص : ٧٦.

(٢) الديوان – ص : ٦٨.

(٣) الديوان – ص : ١٨٦ .

وقـــد بلغ الكرم من القوم إلى حد الإسراف ــ والشيء إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده ــ فـــوجد فـــيهم الـــرجل الـــذي يتلف ماله إسرافًا فهـــذا عمـــرو بن كلثوم يعتذر لبنت ثوير بن هـــلال التي باتت تلومه على إسرافه فيقول : (١)

لا تلـــوميني فـــإني متلف كل ما تحوي يميني وشمالي

لست إن أطرفت مالاً فَرِحًا وإذا أتلفتـــه لست أبـــالي

يقول : لا تلوميني على إسرافي فإني سأتلف كل ما عندي ، فأنا لا أفرح باكتساب المال وإذا أنفقته وأتلفـــته فلست مهتمًا ولا مباليًا .

أمـــا الأعشى فنراه يصور لنا أولئك النفر من جلسائه في مجالس الشرب وتماديهم في الشرب والإســـــراف في إتلاف المال فيقول : (٢)

وإذا الدن شـــربنا صفوه أمـــروا عمرًا فناجـــوه بدن

بمتـــاليف أهـــانوا مـــالهم لغنـــــاءٍ ،وللعبٍ ، وأذن

فتـــرى إبريقهم مسترعفـــًا بشمول صفقت من ماء شن

والمعنى : إذا شـــربنا إناء من الخمر نادى أولئك الجلساء عمرًا وأمروه بأن يأتي بدنٍّ آخر فهـــؤلاء الجلساء مسرفون متلفون لأموالهم من أجل التمتع بالغناء واللعب والسماع لآلات اللهو والمغنيات فهم في ذلك الجو وإبـــــريق الخمر لديهم يفيض بخمر باردة قد صفقت من ماء قربة بالية ترشح فيبرد ماؤها .

ويقول لبيد في الفخر بنفسه : (٣)

إن تري رأسيَ أمسى واضحًا سُلّط الشيب عليه فاشتعـــل

فلقد أعوص بالخصم وقـــــد أمـــلأ الجفنة من شحم القلل

ولقد تحمد لّما فـــــارقت جارتي، والحمد من خير خـــول

وغـــــــــلامٍ أرسلته أمُّه بألوك فبذلنا مـــــا ســـــأل

أو نهته فأتـــــــاه رزقـــــه فاشتوى ليلة ريـــــح واجتمل

---

(١) الديوان — ص : ٤٠ .
(٢) الديوان — ص : ٢١٥ .
(٣) الديوان — ص : ١٤٠ .

ومجمل المعنى : إن تري رأسي أمسى واضحًا ببياض الشيب المسلط عليه حتى عمّه البياض فلقد أركب بالخصم الأمر العويص (الصعب) ، وقد أملأ القصعة من شحم أسنمة الإبل ولقد تحمد لي جارتي كرمي عندما تفارقني والحمد والشكر والثناء من خير العطايا ، ورب غلام أرسلته أمه برسالة فأعطيناه ما سأل أو نهته عن السؤال حياءً فبعثنا إليه رزقه فاشتوى منه وأكل في ليلة شتاء باردة وانتفع بالشحم أيضًا .

ونعود إلى الأعشى وهو يقول مادحًا قيس بن معد يكرب الكندي :

ونبئت قيسًا ولم أبلُهُ كما زعموا خير أهل اليمن

رفيع الوساد طويل النجا دِ ضخم الدسيعة رحب العطن

والمعنى : خبرتُ أن قيس بن معد يكرب الكندي ولم أختبره بعد ولكن زعم الناس أنه خير أهل اليمن فهو كريم وشجاع وجفنته واسعة ومائدته كريمة وعطاياه جزيلة كما أنه سخي كثير المال .

ولنصغِ إلى قول النابغة الذبياني في بني حنّ بن حزام وهم من بني عذرة حين هزموا آل غسان :

عظام اللهى أولاد عذرة إنهم لهاميم يستلهونها بالحناجر[(١)]

يقول : " عطاياهم عظام إلا أنها تصغر عندهم لعظم أفعالهم حتى أنهم يرون ما يَحْبُون بمنزلة ما يبتلعونه تحقيرًا له وإن كان عظيمًا "[(٢)]

وقال الأعشى في مدح إياس بن قبيصة الطائي : [(٣)]

وليس كمن دون ماعونه خواتم بخل وأقفالها

الماعون : اسم جامع لمنافع البيت كالقدر والفأس والقصعة ونحو ذلك مما جرت العادة بإعارته" [(٤)]

والمعنى : وليس إياس بن قبيصة مثل الذي وضع دون منافع بيته أقفالاً مختومة بل هو كريم يجود بما لديه .

---

(١) ديوان النابغة الذبياني – طبعة دار القلم – بيروت (د.ت) ص: ٧٢ .

(٢) السابق . ص : ٧٢ .

(٣) ديوان الأعشى – طبعة دار صادر بيروت – ص : ١٦٢ .

(٤) المعجم الوسيط . ج٢/ ٨٧٨ .

ويقول عبيد بن الأبرص في سياق الفخر بقومه : [١]

والخالطو معسرًا منهم بموسرهم   وأكرم الناس مطروقًا إذا أُختبطوا

أُختبطوا : أي أتاهم طارق في الليل .

ومعنى البيت : أن قومه يخالطون معسرهم بموسرهم و يعطونه حتى ما يبقى فيهم معسر أبدًا، وهم أكرم الناس لمن يطرق أبوابهم في الليل سائلاً .

وهذا زهير بن أبي سلمى يمدح هرم بن سنان والحارث بن عوف بقوله : [٢]

رأيت ذوي الحاجات حول بيوتهم   قطينًا لهم حتى إذا أنبت البقلُ

هنالك إن يُسْتخبلوا المال يُخبِلوا   وإن يُسْألوا يعطوا وَإِنْ ييسروا يغلوا

ومجمل المعنى : رأيت أصحاب الحاجات يترلون في ديار الممدوحين وقومهم فيلزمونهم فيسكنون عندهم حتى إذا أخصب الناس أُستعيرت إبلهم لتشرب ألبانها كما أنهم يتفضلون في الشدة ويجودون على أصحاب الحاجات وأهل المسألة ، وإن يقامروا بالميسر يأخذوا سمان الجزر فيقامروا عليها لا ينحرون إلاّ الغالية .

ولنعد إلى لبيد في سياق رثاء أخيه أربد حيث يقول : [٣]

كأن هجانها متأبضاتٍ   وفي الأقران أصورة الرُّغامِ

وقد كان المعصب يعتفيها   وتحبس عند غايات الذمامِ

الرُّعام : المخاط وقيل : اسم موضع ببلاد كليب . متأبضات : مشدودة بالإباض ، وهو حبل يشد في اليد . الأقران : جمع قرن وهو الحبل أيضًا . أصورة : جمع صوار وهو القطيع.شبه الهجان وهي مقيدة في الحبال بقطعان من بقر الوحش في مكان اسمه الرعام ؛ أو نسبة إلى ما يخرج من أنوفها.

المعصب : الفقير المحتاج يشد رأسه بسبب الجهد . يعتفيها : يطلب خيرها. الذمام:الحقوق .

أي : أن هذه الإبل تُحبس لأداء الحقوق من تكرم للسائلين وغير ذلك .

---

(١) ديوان عبيد بن الأبرص – طبعة دار صادر – ص : ٩٤ .

(٢) الديوان – ص : ٦٢ .

(٣) الديوان – ص : ٢٠١ .

وهذا عنترة بن شداد أمام عبلة يقول [١]

ويـــوم البذل نعطي ما ملكنا ونملا الأرض إحسانًا وجودا

أي : يوم البذل والكرم والعطاء نعطي كل ما نملك ونعم الناس بالإحسان والجود .

ويقـــــول أيضــــًا : [٢]

تجافيت عــن طبع اللئام لأنني أرى البخلَ يُشنا والمكارم تطلبُ

وأعلم أن الجود في الناس شيمة تقوم بها الأحــرار والطبع يغلب

والمعنى : تــباعدت عــن طــبع اللــئام لأنني كريم سجية لا اصطناعًا لأن البخل يُكره ولأن الكـــــرم من طبيعة الأحرار.

وقال الأبرص مفتخرًا بأمجاد قومه : [٣]

لا يحرم السائل إن جاءه ولا يُعقّي سيبَه العــاذلُ

ومعنى البيت : وكم فينا من سيد لا يحرم السائل المحتاج إن جـــــاءه سائلاً ولا يحبس عطاءه لائم .

وهذا الحارث بن حلزة يقول مادحًا : [٤]

فإلى ابن مارية الجواد وهل شروى أبي الحسان في الإنسِ

يحبوك بالزَّغْفِ الفيوض على هميانها والدهم كالغـــرسِ

وبالسبيك الصـــفر يعقبها بالآنسات البيض واللعــسِ

لا ممسك للمــــال يهلكه طلق النجوم لديه كالنحــسِ

فله هنــالك لا عليـــه إذا رغمت أنوف القوم للتعــسِ

وهـــو عندما يقول : طلق النجوم لديه كالنحس : أي أوقات السعد كأوقات النحس فماله

---

(١) الديوان – ص : ٩٢ .

(٢) الديوان – ص : ١٥٦ .

(٣) الديوان – ص : ١٢٦ .

(٤) الديوان – ص : ٥٦.

كـــثير لا يخشـــى أيـــام الـــنحس فهو متوافر فيها كتوافره في أيام السعد ، فله الفضل عندما ذلت وخضعت أنوف القوم وعجزت عن النهوض.

والأعشى في سياق فخره بنفسه يخاطب محبوبته ميّ قائلاً : [١]

ولا تصرميني واسألي ما خليقتي　　إذا رد عافي القدر من يستعيرها

وكانوا قعودًا حولها يرقبـــونها　　وكانت فتاة الحي ممن ينيـــرها

إذا احمرّ آفاق السماء وأعصفت　　رياح الشتاء،واستهلت شهورها

تري أن قدري لا تزال كـــأنها　　لذي الفـــروة المقرور أم يزورها

يقـــول : لا تقطعي وصلي يامي ولكن اسألي عن طبيعتي إذا قدري ردها مستعيرها وقد بقي فـــيها مـــا زاد مـــن المرق عن حاجته وكفايته، وقد كان الناس حولها قعودًا يرقبونها ، وكانت فتاة الحـــي ممن يضرم النار تحتها في وقت احمرّ فيه آفاق السماء وحل فصل الشتاء وبدأت شهوره عند ذلك تري أن قدري لا تزال كأنها أم لمن أصابه البرد يتعهدها بالزيارة لتناول الطعام منها .

ويعاودنا زهير بن أبي سلمى بمدح هرم بن سنان وينفي عنه البخل قائلاً : [٢]

يترِعن إمّة أقـــوام لذي كـــرم　　بحر يفيض على العافين إذ عدموا

حتى تآوى إلى لا فـــاحش بـــرمٍ　　ولا شحيح إذا أصحابه غنمـــوا

ولا يخفـــى على أحد كيف جعل زهير الممدوح بحرًا لكثرة عطائه ، ثم نفى عنه البخل وأنه لا يستأثر بشيء دون أصحابه ولا ينافسهم فيما ظفروا به .

وقال امرؤ القيس : [٣]

وبني القباب ، وملء الجفا　　نِ ، والنار والحطب المُـــفأدِ

المفـــأد : بضم الميم : الذي يحـــرك بالمفأد بكسر الميم وهو عـــــود تحرك به النار .

فهو هنا بفخر بكرم قومه وأنهم أهل الجفان الملأى التي لا تطفأ نارها .

---

(١)　الديوان – ص : ٦٧ .

(٢)　الديوان – ص : ٩٤ .

(٣)　الديوان – ص : ٨٥ .

ويقـــول طـــــرفة بن العبـــــــد : [1]

إني من القـــوم الذين إذا   أزم الشتاءُ ودوخلت حُجَرُه

تلقى الجفان بكل صادقة   ثمتْ تــردّدُ بينهـــــم حِيَرُه

أي : إني مـــن القـــوم الـــذين إذا اشـــتد الشتاء ترى الجفان كل صباح مليئة بالطعام للمحتاجين والسائلين.

وهذا لبيد في سياق فخره بنفسه يعاتب امرأته على لومها له فيقول : [2]

فلو أنني ثمرت مـــالي ونسله   وأمسكت إمساكًا كبخل منيعِ

رضيتِ بأدنى عيشنا وحمدتنا   إذا صدرت عن قارص ونقيـــعِ

ولكن مالي غـــاله كلُّ جفنة   إذا حـــان ورد أسبلت بدموعِ

والمعنى : لو أنني كثرت مالي وأمسكت إمساك البخيل لرضيتِ بأقل عيش معي حتى ولو كان لبنًا حامضًا أو حليبًا مبردا . ولكن مالي ذهب به وردُ الناس على جفاني التي تسيل دسمًا .

وقال الأعشى في سياق وصفه مجلس شراب : [3]

في شباب كمصابيح الدجى   ظاهر النعمة فيهم والفـــرح

لا يشحون على المال ومـــا   عودوا في الحي تصرار اللقح

والمعنى : هم لا يحرصون على المال ويبخلون به ولم يعودوا في الحي والعشيرة ربط أضرع النوق الحلوبة حتى لا يرضعها ولدها – وهذا فيه إشارة إلى نفي البخل عنهم – وإنما الكرم والجود طبع فيهم .

وهذا عبيـــــد بن الأبـــــــرص في سياق هجائه بعض الأخلاق الراذلة يقول : [4]

وأكرم والدي وأصون نفسي   وأكره أن أعـــد من الحراصِ

إذا ما كنتَ لحاسًا بخيـــــلاً   سئولاً للمطاع وذا عقـــاصِ

---

(١) الديوان – ص : ١٣ .

(٢) الديوان – ص : ٨٦ .

(٣) الديوان – ص : ٤١ .

(٤) الديوان – ص : ٨٦ .

والمعنى : أنا أكرم والدي وأحفظ عرضي بالتكرم وأكره أن أكون معدودًا من البخلاء ، فإذا ما كنت بخيلاً شديد البخل وكثير السؤال عند باب المطاع (رئيس القوم وأميرهم) وصاحب بخل فإن النتيجة :

بكى البواب منك وقال : هل لي وهل للباب من ذا من خلاصِ ؟

فيوشك أن يراك له عدوًا عداوة من يلاطم أو يناصي

ومعنى يناصي : "يمسك بناصية عدوه وهذا يمسك بناصيته"[١]

وهذا امرؤ القيس " يستعمل الألفاظ (أعطى) و(السؤال) و(الكز) استعمالاً مجازيًا حيث شبه الفرس الضخم الذي يعطيك ما عنده من الجري قبل أن تكلفه ذلك وتسأله إياه ، بالرجل الجواد السمح الذي يمنح ماله ويجود به قبل أن يُسأل "[٢]:

على هيكل يعطيك قبل سؤاله أفانين جري غير كز ولا وان[٣]

ويقول لبيد في سياق رثائه أخاه أربد : [٤]

أبكي أبا الحزاز يوم مقامة لمناخ أضياف وَمَأْوَىَ مقتر

والحي إذ بكر الشتاء عليهم وعدت شآمية بيوم مقمر

وتقنع الأبرام في حجراتهم وتجزأ الأيسار كل مشهر

ألفيتَ أربد يستضاء بوجهه كالبدر غير مقتر مستأثر

والمعنى : إنني لأبكي أربد يوم المجلس بين يدي الملك فهو محط أنظار الأضياف ومأوى المحتاجين ، أبكيه للحي المحتاج إليه إذا حلّ الشتاء بشدة برده واختفى اللئام ولم يدخلوا مع القوم في الميسر وتقسيم الذبائح الضخمة فيه، إنه إذا الأمر في تلك الشدة وجدت أربد متهللاً يستضاء بوجهه لا يبخل ولا يؤثر نفسه بشيء دون غيره.

---

(١) الديوان – ص : ٨٦ .

(٢) د. ندى عبد الرحمن يوسف الشايع –معجم لغة دواوين شعراء المعلقات العشر تأصيلاً ودلالة وصرفًا – ص: ٧٦ .

(٣) الديوان – ص : ١٧٤ .

(٤) الديوان – ص :٧٥ .

ويعاودنا امرؤ القيس في سياق فخره بنفسه قائلاً : [١]

وحيٌ أبـــرتُ وحيٍّ جــبرتُ   وحيٌّ عصمــتُ وحيٌّ نفــيت

وقد جاءت اللفظة (جبر) هنا للدلالة على " إغناء المرء بعد فقره " [٢]

٥ - العقــل والـرزانـة والـوقـار والحكمـة والصبـر وخلافهـا الحمـق الجهـل وضعـف الــرأي :

أما العقل والرزانة والوقار والحكمة وخلافها الحمق والجهل وضعف الرأي والطيش فقــد وردت كــثيرًا عند شعراء المعلقات العشر وسنورد منها هنا ما وقــع عليه النظــر والاختيار وبالله التــــوفيق .

يقول الأعشى متغزلاً : [٣]

تمالك حتى تبطــر المرء عقله   وتصبي الحليم ذا الحجى بالتقــلِ

والمعنى : تتمايل تلك المرأة في مشيها حتى أنها تدهش المرء العاقل وتستميل الرزين صاحب العقل الراجح .

وقال طرفة بن العبد : [٤]

وإن لسان المرء ما لم تكن له   حصــاة على عــوراته لدليلُ

والمعنى :" إن اللسان دليل على عيوب صاحبه ما لم يمسك به العقل عن الثرثرة والهذر " [٥]

وقال النابغة الذبياني يمدح الغساسنة وهو يرتحل عن ديارهم عائدًا إلى الحيرة : [٦]

أحلام عادٍ ، وأجسادٌ مطهرةٌ   من المعقّـــة والآفــاتِ والإثــمِ

يقــول : لهم عقول قوم عاد وأجساد مطهرة من الآفات ونفوس منزهة من عقوق الأرحام

(١) الديوان – ص : ٣٢١ .
(٢) د. ندى الشايع . السابق . ص : ٧٦ .
(٣) الديوان – ص : ١٤١ .
(٤) الديوان – ص : ١٥٢.
(٥) عبد القادر مايو . ديوان طرفة بن العبد – ص : ١٥٢ .
(٦) الديوان – ص : ١١٥ .

وقطعها وارتكاب الآثام واستسهالها . وقد يكنى بالحلم عن العقل ، وأحلامهم أي : عقولهم .[١]

وقال لبيد في سياق فخره بنفسه :[٢]

ضارستهم حتى يلين شريسهم عنّي ، وعندي للجموح لجـــامُ

والمعنى : جــربت الـــناس وعرفتهم حتى يخضع ويلين لي عسر الخلق وبمضارستي وعقلي وتجربتي كبحت جمـــاح النفوس وألجمتها .

وهذا زهير بن أبي سلمى في سياق مدحه هرم بن سنان يقول :[٣]

ومن يحارب يجده غير مضطهدٍ يربي على بِغضه الأعداءَ بالطَّبَنِ

يقـــول : مـــن يحـــارب هرم بن سنان يجده فارسًا غير مغلوب بل يزيد على بغضة عدوه له بالفطنة والعلم وحذق الأمور .

ولنستمع إلى امرئ القيس في سياق تحسره على الشباب الراحل حيث يقول :[٤]

وطـــــار غراب الغيِّ عني فلم يعد وأصبحت كهلاً قاعدًا من أولي النهى

ويقول زهير بن أبي سلمى في سياق رثائه هرم بن سنان :[٥]

إن الرزيئة ما لـــها مثـــل فقدان من ينمي إلى الحزمِ

حـــــلوٌ أريب في حلاوته مرٌّ كريم ثابت الحِـــــلمِ

والمعنى : إن مصيبتنا في هرم بن سنان ما لها مثيل فقد فقدنا رجلاً حازمًا طيبًا وماهرًا بصيرًا هو مرٌّ على الأعداء كريم على العفاة ثابت عقل وصاحب حكمة .

ونعود إلى امرئ القيس حيث يقول في سياق وصفه جواده :[٦]

عليه فتًى لا طائش متحذلق ولا واهن رث السلاح إذا غدا

---

(١) د. عمر فاروق الطبّاع . ديوان النابغة الذبياني – ص: ١١٥.

(٢) الديوان – ص : ١٦١ .

(٣) الديوان – ص : ١١٢ .

(٤) الديوان – ص : ٣٣١.

(٥) الديوان – ص : ٢٧٦ .

(٦) الديوان – ص : ٣٣٤ .

ومعنى البيت : على ذلك الجواد فتى غير أهوج ولا ثرثار عنيد بلا جدوى . ولا ضعيف لا يقدر على البطش بالي السلاح عند شروعه بكرة في عمل يريده .

وفي سياق سرد زهير لبعض حكمه يقول :

إذا أنت لم تقصر عن الجهل والخنا   أصبتَ حليمًا أو أصابك جاهلُ

والمعنى : " إذا لم تكف عن الجهل أصبت حليمًا أو جاهلاً يجهل عليك "(١)

ويقول الأعشى في سياق هجائه علقمة بن علاثة :(٢)

واسمع فإني طَبِنٌ عالم   أَقطَعُ من شِقْشِقةِ الهادرِ

الطبن : الفطن . شقشقة : شيء كالرئة يخرجه الجمل من فيه إذا هاج وهدر .. ويقال : هدرت شقشقة فلان : ثار أو افصح في الكلام " (٣)

فيكون معنى البيت : اسمع يا علقمة فإني فطن عالم فصيح ...

ويقول أيضًا في سياق حديثه عن الشباب المودَّع :(٤)

يلوم السَّفِيُّ ذا البطالة بعدما   يرى كُلَّ ما يأتي البطالةَ راشدا

والسفي هنا معناه : السفيه .

وكان الأعشى قد قرن بين المتضادين (الجهل) و (الحكمة) في السياق نفسه حيث يقول :

وما خلتُ أن أبتاع جهلاً بحكمة   وما خلتُ مهراسًا بلادي وماردا

ولنعد إلى زهير بن أبي سلمى في سياق وصفه صيد ثور وحشي :(٥)

فصبحته كلاب شدها خطف   وقانص لا ترى في فعله خرقا

يقول : صبحت ذلك الثور الوحشي كلاب صيد عدوها سريع وقانص لا ترى في فعله نزق ولا عجلة ولا عجرفة .

(١) د. حنا نصر الحِتّي . شرح ديوان زهير بن أبي سلمى . صنعة أبي العباس ثعلب . – ص: ٢١٨.

(٢) الديوان – ص : ٩٥.

(٣) المعجم الوسيط – طبعة دار الفكر – ج١ – ص : ٤٨٩.

(٤) الديوان – ص : ٤٣ .

(٥) الديوان – ص :٦٢.

أما طـــــرفة بن العبد فيقول في سياق هجائه عمرو بن هند أخي قــابـــوس بن هند : [١]

لعمرك إن قابوس بن هند   لَيَخلطُ ملكه نوك كثير

والمعنى : قسمي إن قابوس بن هند ملك مؤمَّر لكنه أحمق لا يليق به الملك .

ويقول امرؤ القيس في سياق وصفه لنفسه : [٢]

ولستُ بخذرافة في قعود   ولستُ بطيّاخة أخدبا

وهـــنا نجد امرئ القيس ينفي عن نفسه الخفة وكثرة الكلام ومزاولة الوقوع في البلية والسوء لأنه ليس كالذي لا يتمالك من الحمق والجهل والاستطالة . ونفي هذا عنه فيه إثبات لضده فهو إذًا عاقل رزين حليم .

وهذا طرفة بن العبد يعاودنا مفتخرًا بقبيلته إذ يقول : [٣]

أسد غاب فإذا ما فزعوا   غيرُ أنكاسٍ ولا هُوجٍ هُذُر

والمعنى : " قومـــي شجعان أشداء كأسود الغاب فإذا تعرضوا لخطر لم يستطاروا هلعًا ولم يستخفهم الطيـــش والهذر " [٤]

أما في الصبر فيقول الأعشى : [٥]

والصّبرُ منهُ قديمًا شِيمَةٌ خُلُقٌ   وَزَنْدُهُ في الوَفَاءِ الثّاقِبُ الوَاري

ويقول عنترة بن شداد : [٦]

فلأُغْضِبَنَّ عواذلي وحواسدي   ولأصبرَنَّ على قلىً وجَـــواءِ

القلى : البغضـــــاء والكــــــراهية . الجواء : قصـــد الجـــوى وهو ألـــم الاشتيـــاق أو الحزن.

---

(١) الديوان – ص : ١٠٠ .

(٢) الديوان – ص : ٧٤ .

(٣) الديوان – ص : ٨١ .

(٤) عبد القادر محمد مايو . ديوان طرفة بن العبد – ص: ٨١ .

(٥) الديوان – ص : ٧٠.

(٦) الديوان – ص : ٢٣ .

ويقول عمرو بن كلثوم : [١]

أَلم تَرَ أنّني رَجُلٌ صبورٌ　　إذا ما المرءُ لم يَهْمُمْ بصبرِ

وفي ضعف الرأي يقول عبيد بن الأبرص : [٢]

مُشَمِّرٌ خَلَقٌ سربالُهُ مشِقٌ　　قاذُورةٌ فائلٌ مُغَذمرٌ قَطَطُ

وهـــذا الحـــارث بن حلزة يرى في التجارب ما يتعظ به الإنسان ويعمل به ويعتبر ليستدل به على غيره فيقول : [٣]

إنَّ السعيدَ له في غيرِهِ عِظَةٌ　　وفي التجاربِ تحكيمٌ ومُعْتَبَرُ

٦ - الجرأة والشجاعة وخلافهما العجز والجبن :

أمـا الجـرأة والشـجاعة عند العرب فلا يشك أحد أبدًا ممن يعرف طبيعة أرضهم وصعوبة عيشـتهم وأصل فطرتهم في أنهم كانوا شجعانًا صناديد وأبطالاً أماجد مما أوجد فيهم من يضرب به المـثل في الشجاعة والإقدام والجرأة والصلابة كعنترة بن شداد وعمرو بن معد يكرب وعمرو بن كلثوم بل أكاد أجزم أنك ما تكاد تقرأ عن أحد من العرب الجاهليين ـــ على وجه الخصـوص ـــ إلا وله قصص وبطولات وصولات وجولات تكاد تشمـل كبيرهم وصغيرهم رجالاً ونساء ، ولعل السـبب في ذلك يرجع إلى كون الشجاعة مطلب اقتضته الحياة العربية الصحراوية الصعبة مما أصل فـيهم هـذا الخلـق الحمـيد وجعل الشعراء يتغنون به ويذمون خلافه من الضعـف والجبن في الرجال، وما دام الأمر على هذا الحال فلا بد أن نطوف قليلاً أو نطل إطلالة سريعة في دواويـن شعراء المعلقات العشر لنخرج منها بما وقع عليه النظر والاختيار .

يقول الأعشى في سياق وصفه ناقته التي قطع بها الصحراء : [٤]

بناجية كالفحل فيها تجاسر　　إذا الراكب الناجي استقى وتَعمَّما

يصـف ناقـته بالقوة وأنها كالجمل الفحل ، والذي يستوقفنا في هذا البيت وأمثاله أن العربي

---

(١) الديوان – ص : ٣٥ .
(٢) الديوان – ص : ٩٣ .
(٣) الديوان – ص : ٦٧ .
(٤) الديوان – ص : ١٨٧ .

كان يصف راحلته بالقوة والتجاسر والتفاعلية والنشاط مما يجعلنا نخرج بأن العربي لجرأته وشجاعته لا يـركب إلا الـراحلة الجسورة القوية التي تتناسب مع طبيعته ليلقي عليها بظلال نفسه الشجاعة الجـريئة .ولـو تتبعنا ذلك في أدبنا العربي لخرجنا بكمٍّ هائل مما يجعلنا نؤجل التفصيل فيه إلى حين الحديث عن وصف الرحلة في المعلقات العشر .

وهذا عبيد بن الأبرص في سياق فخره بأمجاد قومه وحروبهم يقول : (١)

كم فيهـمُ من أيِّدٍ سيِّـدٍ ذي نفَحـَاتٍ قائلٌ فاعـلُ

والمعنى : كثير في قومي الشجاع السيد الشهم صاحب العطايا ممن يقول ويفعل .

وهذا زهير بن أبي سلمى في سياق مدحـه سنان بن أبي حارثة : (٢)

إذا أدلجـوا لحـوال الغـوا رِ ، لم تُلفَ في القومِ نِكْسًا ضئيلا

ولكنّ جلدًا جميعَ السـلا حِ ليلة ذلك صدقًا بسـيلا

والمعنى : إذا سـار القـوم من أول الليل لمحاولة الغارة على العدو لا تجد فيهم ضعيفًا ولا مهـزولاً وإنـما تُلفى ليلة الحرب (والخطاب للممدوح) جلدًا صبورًا مدججا بالسلاح صادق الشجاعة شديدًا لا تهاب .

وهذا الفتى الشجاع طرفة بن العبد في سياق فخره بقومه وهو يقول : (٣)

مِـن بني بكرٍ إذا مـا نُسِبُوا وبني تغلـبَ ضـرّابي البُهَـم

حين يحمي الناسُ نحمي سـربنا واضحي الأوجُهِ معروفي الكـرم

بحُسـامـاتٍ تراهـا رُسـًّبًا في الضريباتِ مترّات العُصُـم

وفحـولٍ هيكلاتٍ وُقُـحٍ أعوجيـاتٍ على الشـأوِ أُزُم

وقنـا جـُردٍ وخيـلٍ ضُمـّرٍ شُزّبٍ من طـولِ تعلاكِ اللُّجُـم

أدّت الصـنعةَ في أمتُنهـا فهي من تحت مُشيحـاتِ الحُزُم

---

(١) الديوان – ص : ١٢٥ .

(٢) الديوان – ص : ١٥٥.

(٣) الديوان – ص : ١٦٢-١٦٣.

تتقي الأرضَ بِـرُحٍّ وُقُـــحٍ   وُرُقٍ ، يقعــرن أنبـــاك الأَكَــم

والمعنى : " جمعــتُ مجــد بكــر مــن جهة أبي ومجد تغلب من جهة أمي وكلاهما شجعان أعـــزاء، نحمــي جماعتــنا بالسيوف الطعّانة على فحول الخيل الضامرات التي تصادم الأرض بحوافرها الصلبة حتى تكاد تغوص في التلال والآكام . "[(١)]

وقال زهير في سياق وصفه مفازة :[(٢)]

وتنـــوفةٍ عميـــاءَ لا يجتـازهـا   إلا المشـيَّعُ ذو الفـؤاد الـهادي

والمعنى : ورب مفازة قفر مظلمة لا يجاوزها إلا الجريء الشجاع الذي كأن معه من يشيعه . وإنما وصفه بذلك لجرأته .

ويقول عنترة بن شداد في سياق الفخر بنفسه :[(٣)]

وهل يدري جريةُ أن نبلي   يكون جَفيرَها البطلُ النجيدُ

وواضح معنى البيت : أن عنترة بن شداد لا يسكن نبله ولا يصوبه إلا في جسد الشجاع الماضي فيما يعجز غيره ، وعنترة عندما يهول من شأن خصمه ثم يتغلب عليه فإنما يفعل ذلك ليهول من شجاعته وبسالته هــو فهو لا يقتل إنسانًا ضعيفًا وإنما يقتل الفارس الذي يعجز عنه الآخرون .

وهذا الأعشى يمدح قيس بن معد يكرب قائلاً :[(٤)]

هل أنت يا مصلاتُ مبـ   تكرٌ غداة غدٍ فزاحل ؟

المصلات : الشجاع ، الماضي في الأمور . الزاحل : المتباعد .

والمعنى : هــل أنــت أيهــا الشــجاع الماضــي في الأمــور لجرأتك مبتكر صباح غدٍ فمتباعـــــد؟

أما عبيد بن الأبـرص فيقول أيضا في سياق وصفه لفرسه وفخره بقومه :[(٥)]

---

(١) الديوان السابق . ص : ١٦٢-١٦٣ .

(٢) الديوان – ص : ٢٤١ .

(٣) الديوان – ص : ٢٨٣ .

(٤) الديوان – ص : ١٥٧ .

(٥) الديوان – ص : ٨٠ .

هاتيك تحملني وأبيضَ صارمًا ومُحرَّبًا في مارنٍ مخموسِ

في أسرةٍ يومَ الحفاظِ مَصالتٍ كالأسدِ لا يُنمَى لها بفريسِ

والمعنى : تحملني فرسي ومعي سيفي القاطع وسناني المحدد في الرمح الصلب الذي طوله خمس أذرع وأنا في جماعة يوم الحمية والغضب شجعان كالأسود لا يُنمى لها بالفرائس وإنما تقوم بافتراسها هي وتدق أعناقها .

وعنترة بن شداد نراه ثانية يوطن نفسه على الموت والضرب قائلاً : (١)

عجبت عُبيلةُ من فتًى متبذّلِ عاري الأشاجع ، شاحبٍ كالمنصلِ

شعثِ المفارق مُنهجٌ سربالُهُ لم يدهُّن حولاً ، ولم يترجلِ

لا يكتسي إلا الحديد إذا اكتسى وكذاك كلُّ معاورٍ مستبسلِ

والمعنى : عجبت عبلة لسوء منظري وتقشفي لما رأتني فتى شاحباً سيئ المظهر ظاهر عروق الكف هزيلاً متلبد الشعر ممزق القميص لم يتطيب عامًا من الزمن ولم يسرح شعره بمشط . إلا أنها لم تنظر إلي نظرة المتأمل ولو نظرت لتيقنت أن تلك الصفات إنما هي صفات الفارس المغوار إذ ما ذلك التقشف والشقاء إلا بسبب الحرب.

ويخالف الجرأة والشجاعة الضعف والجبن الذي كان ينفر منه العربي ويذم من اتصف به ومن ذلك قول عبيد بن الأبرص في سياق فخره بقومه وتهكمه ببني أسد : (٢)

ونسير للحرب العوان إذا بدت حتى تَلُفَّ ضرامَها بِضرَامِ

لّما رأيتُ جموعَ كندةَ أحجمت عنّا وكندةُ غيرُ جدِّ كرامِ

والمعنى : نحن نسير للحرب التي قوتل فيها مرة بعد أخرى حتى نجمع نارها لما رأيت جموع كندة تراجعت جبنًا وكندة غير مشرِّف .

وقال الأعشى في سياق مدحه النعمان بن المنذر : (٣)

بأصدقَ بأسًا منك يومًا ونجدةً إذا خامت الأبطالُ في كلِّ مشهدِ

---

(١) الديوان – ص : ١٩٥.

(٢) الديوان – ص : ١٣٢ .

(٣) الديوان – ص : ٤٩ .

والمعنى : ليس أحد أصدق شجاعةً وبأسًا ونجدةً منك أيها النعمان إذا جبنت الأبطال في كل مشهد.

ويقول امرؤ القيس نافيًا عن نفسه الذل والانقياد : [١]

ولستُ بذي رثيةٍ إمَّـــرٍ إذا قِيد مستكرهًا أصحبا

والمعنى : لستُ كمن أُصيب بداء في المفاصل يبدو ضعيفًا إذا قيد مستكرهًا ذلّ وانقاد .

وهذا لبيد في سياق فخره بنفسه يقول : [٢]

ما إن أُهاب إذا السرادقُ غمّهُ قرعُ القِسيِّ وأُرعِشَ الرِّعديدُ

والمعنى : أنـــا لا أخاف إذا كثرت أمام الملك المفاخرات الحامية إذا ما الجبان الرعديد ذلّ وجبن وخاف .

أمـــا زهير بن أبي سلمى فنجده ينفي عن ممدوحه سنان بن حارثة المرّي أن يكون جبانًا عاجزًا يَكِلُ أمـــره إلى غيره فيقول :

ولا أَوِدٌ إذا ما القومُ جَدُّوا ولا وَكَلٌ ولا وهِلُ الجنانِ

" أوِد : منصـــرف منـــثنٍ عن الحرب . والأَوَدُ : الاعوجاج . والوكَلُ من الرجال : العاجز الذي يَكِلُ أمره إلى غيره . ووهل : غافل . الجنان : القلب"[٣]

ولنعد إلى عنترة بن شداد وهو يفخر بقومه إذ يقول :

ألم تعلموا أن الأسنة أحرزت بقيتنا لـــو أن للدهر باقيـــا ؟

أبينا أبينا أن تضب لثـــاتكم على مرشفاتٍ كالظباء عواطيا

والمعنى : ألم تعلموا " أن السيوف والرماح كفيلة باستبقائنا لو أن الدهر يبقي على أحد؟ لقد منعنا نساءنا أن تتناولوا شفاههن شهوةً ، وهن كالظباء المستجيبات لكم "[٤]

ويقول طرفة بن العبد مخاطبًا عمرو بن هند : [٥]

---

(١) الديوان — ص : ٧٤ .

(٢) الديوان — ص : ٤٨ .

(٣) د. حنا نصر الحتي . شرح ديوان زهير بن أبي سلمى صنعة ثعلب– ص: ٣٦٠ .

(٤) عبد القادر محمد مايو . ديوان عنترة بن شداد العبسي – ص: ٢٩٦ .

(٥) الديوان — ص : ١٢٢ .

وتصبحك الغلبـــاءُ غلبـــاءُ تغلبٍ   هنالك لا ينجيك عرض من العرضِ

ويلبس قـــــوم بالمشـــقر والصـــفا   شـــآبيب مـــوت تستهل ولا تقضي

تميل على العبـــدي في حـــد أرضـــه   وكعبُ بنُ سهـــلٍ تخترِمْهُ عن المحضِ

العـــبدي :"هـــو عبد عمرو زوج أخت طـــرفة وكان طرفة قد هجاه فوشى به إلى عمرو بن هـــند ، فحمله صحيفة تأمر بقتله إلى عامل البحرين المكعبر." كعب بن سهل :هو من المحرضين على قـــتل طـــرفة بن العبد أيضًا . تخترمه : تقضي عليه .المحض : الصافي ، صفة الولاء أو الوداد.ومجمل المعـــنى :"ستغير عليك كتائب بكر فلا تنجو وتقتحم البحرين بدفعات من الموت الزؤام وتـــؤدب العبدي اللئيم وحليفه كعب بن سهل"[١] .

ونقـــف أخـــــــــــــيرًا لنسمع الحارث بن حلّزة وهو يتغنى بشجاعة قومه ونكايتهم بالأعداء فيقول :

فجئناهم قسرًا نقـــــودُ سَـــــرَاتَها   كما ذُبِّبَتْ من الجِمَالِ المصـــــاعبُ

بضربٍ يزيلُ الهـــــامَ عن سَكَنَاتـــِهَا   كما ذِيدَ عن مـــاء الحياضِ الغرائبُ

والمعنى : جئناهم وقهرناهم على كره كما تساق مصاعب الإبل بسرعة وذلك بضرب منا أطار رؤوسهم كما يُذاد الغريب عن ماء الحياض .

٧ – الرفعة والشرف وخلافها الذل والهوان :

وأمـــا الـــرفعة والشرف وما في معناها من عزة وأنفة ومجد وغيره فقد وردت كثيرًا في أشعار العـــرب عامـــة وشـــعراء المعلقـــات العشر على وجه الخصوص ولا عجب في ذلك فحياة العرب وطبيعتهم بل وفطرهم قبل كل شـــيء ألبستهم هذه الفضيلة فتمدح بها الشعراء ومدحوا بها غيرهم وتـــرفعوا عن خلافها من الذل والهوان وما يرادفهما ومن ذلك قول الأعشى في سياق مدحه المحلّق حيث يقول :[٢]

طويلُ اليدين رهطهُ غيرُ ثنيَةٍ   أشمُّ كريمٍ جارُهُ لا يُرَهّقُ

والمعنى : المحلق منعِم وسيد ذو أنفة وكرم لا يضايقه ولا يضايق جارَه الدائنون بالمطالبة .

---

(١) عبد القادر محمد مايو – ديوان طرفة بن العبد – ص : ١٢٢.

(٢) الديوان – ص : ١٢١.

ويقول أيضًا في سياق مدحه بني شيبان ابن ثعلبة في يوم ذي قار :[١]

أذاقوهمو كأسًا من الموت مرةً وقد بَذِخت فرسانُهم وأذَلَّتِ

والمعنى : إن بني شيبان أذاقوا عدوهم يوم ذي قار كاس المنية وقد تكبرت فرسان بني شيبان وأذلت أعداءها .

وقال لبيد مفتخراً بقومه وواصفاً السيل :[٢]

وليرعه قومها فإنهم من خير حيٍّ علمتهم حسبا

قومي بنو عامر وإن نطق الأعداء فيهم مناطق كذبا

بمثلهم يجبه المناطح ذو العِزِّ ويعطي المحافظ الجنبا

والمعنى : ليرع نبت ذلك السيل قوم أُسيماء (محبوبته) فإنهم من خير الناس حسبًا ، وبنو عامر من أحسن الناس وإن قال فيهم الأعداء الأقوال الكاذبة والمصطنعة فإن هذا لا ينقص من قدرهم فهم من يرد المقاتل ذا العز ويعطي الغيور الأبي دون حقه وعورته الانقياد .

وهذا امرؤ القيس في سياق فخره بقومه يقول :[٣]

متى عهدنا بطعان الكماةِ والحمد والمجد والسؤددِ؟

وهذا استفهام غرضه التقرير حيث يقرر فيه امرؤ القيس بأن عهدهم بطعان الفرسان الشجعان وبنيل الحمد والمجد والسؤدد قريب لا يغيب أبدًا .

ويقول زهير بن أبي سلمى في سياق مدحه هرم بن سنان :

أغر أبيض فياض يفكك عن أيدي العناة وعن أعناقها الربقا

والمعنى : هرم بن سنان رجل كريم لا عيب فيه فهو كثير العطاء يفك عن أيدي الأسرى الأذلاّء وأعناقها أغلال الذل والفاقة .

ويقول أيضًا في سياق مدحه حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري :[٤]

---

(١) الديوان — ص : ٣٤ .

(٢) الديوان — ص : ٢٣ .

(٣) الديوان — ص : ٨٥ .

(٤) الديوان — ص : ٦٩ .

حذيفة ينميه وبدر كلاهما　　إلى باذخ يعلو على مَن يطاوله

حذيفـة : أبـو الممدوح . بدر : جده . الباذخ : العالي وأراد به شرفه ."و"من الجدير بالذكـر أن لفظة (نمى) الدّالة على نسبة الرجل إلى أبيه) من المصاحبات اللغوية للفظة (الباذخ) "[(١)]

ولنعد إلى الأعشى حيث يقول في سياق مدحه هوذة بن علي الحنفي :[(٢)]

تقـول بنتي ، وقد قرَّبتُ مرتحلاً :　　يارب جنِّب أبي الأوصابَ والوجعا

واستشفعت من سراة القوم ذا شرفٍ　　فقد عصـاها أبوها والذي شفعا

ويقول أيضًا في سياق مدحه إياس بن قبيصة الطائي :[(٣)]

كـم رأينا من أُناسٍ هلكـوا　　ورأيـنا الـمرءَ عمرًا بِطَلَـحْ

آفقـًا يُجبى إليه خـرجـُهُ　　كـلَّ ما بين عُمـانٍ فَمَلَـحْ

والمعنى : كـثيرًا ما رأينا أُناسًا قد هلكوا بينما إياس بن قبيصة تعمر حياته النعمة فقد بلغ مبلغًا عظيمًا في العلم والكرم وغيره من الخير حتى ليؤتى له بخراج كل ما بين عُمان وملح .

وهذا النابغة الذبياني في سياق هجائه النعمان بن المنذر : [(٤)]

لا أرى الفارسَ المدجّجَ فيكم　　آلَ نصرٍ ولا الفتى البهـلولا

والمعنى : لا أرى فيكم فارسًا مدججًا بالسلاح يا آل نصر ولا أرى فيكم فتًى عزيزًا جامعًا لكل خير .

ويقـول أيضًا في سياق هجائه زُرعة بن عمرو بن خويلد عندما لقيه بعكاظ وأشار عليه أن يشير على قومه بترك حلف بني أسـد فأبى النابغة الغدر وهجا زرعة بعد أن بلغه أنه يتوعده بينما مدح رجلين من أسد بقوله :

ولرهطِ حرّابٍ وقَدٌّ سورةٌ　　في المجد ، ليس غرابُهم بمُطارِ

---

(١) د. ندى عبد الرحمن يوسف الشايع . معجم لغة دواوين شعراء المعلقات العشر تأصيلاً ودلالةً وصرفًا – ص: ٨١.

(٢) الديوان – ص : ١٠٥ .

(٣) الديوان – ص : ٣٨ .

(٤) الديوان – ص : ١٣٢.

" خــرّاب وقــد : رجلان من أســد . السورة : المجد والفضيلة . وقــوله : ليس غرابها بمطار إذا وُصــف المكان بالخصب وكثرة الخير قيل: لا يطير غرابه ، يريد أنه وقع في مكان يجد فيه ما يشبعه فــلا يحتاج إلى أن يتحول عنه . وقيل: الغراب ههنا سوادهم "[١]

ويقول عبيد بن الأبرص مفتخرًا بأمجاد قومه :

يا أيُّها السائلُ عن مجــدنا إنّك عن مسعاتنا جاهلُ

مسعاتنا : " أراد بمسعاتنا فأدخل (عن) مكان (الباء) ، ومسعاهم : فعـــلهم وفضلهم "[٢] .

والمعنى : يا أيـــها السائل عن مجدنا وشرفنا وفضـــلنا إنك بما وصـــلنا إليه جـــاهل لا تعرف .

ولــنعد إلى الأعشـــى وهو يفخر بنفسه بأنه الرجل الحشود الذي لا يدع عند نفسه شيئًا من الجهد والنصرة والمال حيث يقول : [٣]

إنّي امرؤٌ من عُصبةٍ قيسيةٍ شمِّ الأنوفِ غرانقٍ أحشادِ

وهذا عمرو بن كلثوم في سياق هجائه عمرو بن هند وفخره بقبيلته يقول : [٤]

ووجــــدتُ تغلبَ لا يُرامُ قديمُها عِـــــزًّا يَحقُّ له الذي لا يُقهَرُ

أخُماعُ لو أصبحتِ وسط رحالهم عـــــرفت خماعةُ أنها لا تُخفَرُ

ونسب إلى طرفة بن العبد البكري قوله مِمّا لم تشتمل عليه قصيدته المعلقة :

ولا يرهبُ بن العمِّ ما عشتُ صولتي ولا أختَتي مـــن صـــولةِ المتهددِ

والمعنى : " ليـــق ابـــن عمي من أنني لا أعتدي وأبادره بالظلم والبطش وليعلم أنني لا أنكسر من الحزن مهما جرى عليّ من التقادير ومن تهديدات الجائرين "[٥]

وامــرؤ القيس يجمع بين الألفاظ المتضادة (عز) و(ذل) و(العز) و(الذل) في سياق حديثه عن

---

(١) د. عمر فاروق الطبّاع . الديوان : ٦٥.

(٢) الديوان – ص : ١٢٤.

(٣) الديوان – ص : ٥١ .

(٤) الديوان – ص :٢٥ .

(٥) ديوان طرفة : ص :٥٠

نوائب الدهر التي أزالت عظام الناس وكبارهم فيقول : [١]

فـــإن تَهلك شنوءةُ أو تَبــدَّلْ   فسيري إنّ في غسّـــانَ خالا

بعـــزّهِم عـــزَزْتُ فإن يَذلّوا   فَـذُلّكــُمُ أنـــالَكَ ما أنَالا

شـنوءة ، أي أزد شـنوءة : قبيلة . والمعنى : إنما عززت وبلغت مجدًا وشرفًا بعز قبيلة شنوءة فإن تغيرت وتبدلت فإن في غسّان خالاً وبعزهم جميعًا عززت فإن يذلّوا فقد نالك من الذل ما نالهم .

وقال النابغة في سياق هجائه بني عامر :

فما أنا في سهمٍ ولا نصرِ مــالكٍ   ومولاهمُ عبدِ بنِ سعدٍ بطـــامعِ

إذا نزلوا ذا ضــرغدٍ ، فَعُتــائدًا   يُغَنّيهُمُ فيها نقيـــقُ الضفـادعِ

قعــودًا لدى أبياهّم يثمــدُونَها   رمى اللهُ في تلك الأُنوفِ الكوانعِ

وكنّـى امرؤ القيس عن (الأذلاء) بقوله : (عبيد العصا) حين هجـا دودان (قبيلة من بني أسد) لقتلهم أبـــاه : [٢]

يــا دارَ مــاويّةَ بــالحــائلِ   فَالسّــهبِ فَالخبتـــينِ من عـــاقلِ

صـــمّ صــداها وعفــا رسْمُها   واسْتَعْجَمَتْ عن منطـــقِ الســائلِ

قــولا لدودان عبيــدِ العصــــا   مــا غـــرَّكُــمْ بالأسدِ الباســـلِ

أما الحارث بن حلزّة فقد وضح لنا معنى العجز بقوله : [٣]

إنما العجزُ أن تَهمَّ ولا تفعَلَ   والهــمُّ ناشـــبٌ في الضميرِ

وأخيرًا نقف عند عنترة بن شداد الذي يرى أن ما نقص من حسبه يرفعه بحد السيف فيقول : [٤]

إنّي امـــرؤٌ من خيرِ عبسٍ مَنْصِبًـا   شطري ، وأحــمي سائري بالمنصـلِ

والمعنى : إني امــرؤ عبسي ذو حسب ونسب لجهة أبي وأرفع شطري الآخر لجهة أمــي بحد السيف" [٥] .

---

(١) الديوان – ص : ١٥٨.

(٢) الديوان – ص : ١٤٨.

(٣) الديوان – ص : ٥٧ .

(٤) ديوان عنترة – ص : ١٩٤ .

(٥) الديوان السابق : ص : ١٩٦.

٨ – العدل وخلافه الجور :

وقد أحب العرب العدل وذمّوا نقيضه وهو الجور في كثير من أشعارهم وقد تناول ذلك شعراءُ المعلقات في مواضع كثيرة تعد ولا تُحصى إلا أننا سنورد هنا ما وقع عليه الاختيار ومن ذلك :

قول طرفة بن العبد في سياق تعريضه بالمسيب بن علس ومدح قتادة بن مسلمة الحنفي على إيوائه قوم طرفة في عام قحط ومجاعة : [١].

وتصد عنك مخيلة الرجل الـ ـعرِّيضِ موضحةٌ عن العظمِ

والمعنى : تمنع عنك خيلاء وتكبر الرجل المتعرض للناس بالشر طعنةٌ تظهر العظم من تحت اللحم .

وقال عبيد بن الأبرص في سياق إيراده بعض الحكم القبلية : [٢].

وتصفحُ عن ذي جهْلِهَا وتحوطُها وتقمعُ عنها نخوةَ المتهدّدِ

والمعنى : بلغ من العدل أنك تعرض عن جاهل القبيلة وتصفح عنه وأنك حصن مانع لها تمنعها وتقمع عنها وتمنع العدو المتهدد المتحمس والجائر المتكبر .

وقال الأعشى : [٣].

قالت قضيتَ قضيةً عَدْلاً لنا يُرضى بها

ويعاودنا طرفة بن العبد في سياق هجائه عمرو بن هند بقوله : [٤].

قَسَمْتَ الدهرَ في زمنٍ رخِيٍّ كذاك الحُكْمُ يَقْصِدُ أو يجور

والمعنى :"خرجتَ ببدعة تقسيم الأيام إلى أيام نعيم وأيام بؤس وللملوك عوائد من الظلم والعدل"[٥] .

---

(١) الديوان – ص : ١٧٦ .

(٢) الديوان – ص : ٦٦ .

(٣) الديوان – ص : ١٧.

(٤) ديوان طرفة بن العبد – ص : ١٠١.

(٥) الديوان : ص : ١٠١.

أما امرؤ القيس فيقول في سياق إيراده بعض الحكم : [١].

ولا تكُ مختالاً بمشيك واقتصدْ   فإنّ الذي يختالُ يمشي على قِلَى

والمعنى : لا تكن مختالاً متكبرًا في مشيك واعتدل فيه فإن الذي يختال ويتكبر يمشي على بغض وهجر من الناس.

والنابغة الذبياني يدعو إلى ودِّ الصديق وعدم الجور والإلحاح في العلاقة به كما يدعو إلى الرفق والتأني باعتبار ذلك مظهرًا من مظاهر العدل وضدًّا للجور والإسراف حيث يقول : [٢]

استبقِ ودَّكَ للصديق ولا تكنْ   قَتَبًا يَعُضُّ بغاربٍ ملحاحا

الرِّفقُ يُمنٌ ، والأناةُ سعادةٌ   فتأنَّ في رفقٍ تنال نجاحا

يقول : " كن ودودًا للصديق ولا تكن ملحاحًا في علاقتك به ، فإذا كنتَ كذلك كنت أشبه بالرحل الذي يعض سنام البعير " [٣] واللطف بركة وفي التأني وعدم الإسراع سعادة ونيل للنجاح .

وأما لبيد فيقول في سياق رثائه أخاه أربد : [٤].

يُذَكِرُني بأربدَ كلُّ خصمٍ   أَلَدَّ تَخالُ خُطَّتَهُ ضِرَارَا

إذا اقتصدوا فمقتصدٌ أريبٌ   وإنْ جاروا سواءَ الحقِّ جارا

ويهدي القومَ ، مُضْطَلِعًا إذا ما   رئيسُ القومِ بالموماةِ حارا

ومجمل المعنى : يذكرني بأخي أربد كلُّ خصم شديد الخصومة خطته مضارة إن توخى القوم العدل والقصد توخاه وإن حادوا عن الحق حاد وهو قائم بعبء هداية الناس وإرشادهم إذا ما رئيس القوم ضلَّ سبيله بالصحراء أو الأمور الصعبة .

ولنستمع إلى امرئ القيس ثانية وهو يستفهم استفهامًا غرضه نفي جعل الجائر الظالم كالعادل المقسط فيقول : [٥].

قولا خليليَّ لِذا العاذلِ   هل يُجْعَلُ الجائرُ كالعادلِ؟

---

(١) الديوان – ص : ٣٣٦ .

(٢) الديوان – ص : ٣٤ .

(٣) د. عمر فاروق الطبّاع . ديوان النابغة الذبياني –ص : ٣٣-٣٤ .

(٤) الديوان – ص : ٧٤ .

(٥) الديوان – ص : ٢٥٦ .

وانفرد الحارث بن حلزة باستعماله لفظة المقسط للدلالة على (العادل في حكمه) في سياق مدحه عمرو بن هند ، حيث يقول :

ملكٌ مُقْسِطٌ وأكملُ من يمـــ شي ومِن دون ما لديهِ الثناءُ

" المقسط : العدل . أكمل من يمشي : يريد به عقلاً ورأيًا . وقوله :" ومن دون ما لديه الثناء " معناه : عنده من الخير والمعروف أكثر مما نَصِفُ ونثني عليه " [١].

ويقول زهير بن أبي سلمى مستعملاً لفظة (العدل) الدالة على (الرجل المرضيُّ قوله وحكمه) حين مدح هرم بن سنان والحارث بن عوف : [٢].

متى يَشْتَجِرْ قومٌ يقُلْ سَرَوَاتُـهُم هُمُ بيننا فَهُمُ رِضًا وهُمُ عدلُ

والمعنى : متى يختصم قوم يَقُلْ أشرافهم : إن هرم بن سنان والحارث بن عوف هما الرضى والعدل وهما من نرضى قوله وحكمه .

ويقول طرفة بن العبد في سياق هجائه عبد عمرو بن بشر: [٣].

فيا عَجَبًا من عبدِ عمرٍو وبغيهِ لقد رام ظلمي عبدُ عمرٍو فأَنعمَا

والمعنى : ما أعجب عبد عمرٍو في ظلمه المفرط لقد أراد ظلمي وزاد وبالغ فيه .

ويقول لبيد بن ربيعة في سياق فخره بقومه : [٤].

إنّي امرؤٌ مَنَعَتْ أُرُومةُ عامرٍ ضيمي وقد جَنَفَتْ علَيَّ خُصُومُ

جَهَدُوا العَداوةَ كُلَّها فَأَصَدَّها عنّي مناكِبُ عِزُّها معلومُ

ومجمل المعنى : إنني امرؤٌ منعت أصولي ونسبي إلى عامر ظلمي وإذلالي وقد جار عليَّ الخصوم والأعداء الذين بذلوا كل ما في وسعهم فردهم عني وصدهم جماعات لها القوة والعز المعلوم.

---

(١) الديوان : ص : ٤٩ .

(٢) الديوان – ص : ١٠٤.

(٣) الديوان – ص : ١٦٧ .

(٤) الديوان – ص : ١٥٦.

ويقول الأعشى مخاطبًا أبناء عمومته الذين يبيّتون لقومه الأذى : [١]

فلا تَكْسِروا أرماحَكم في صدورِكم   فَتَغْشِمَكُمْ إنّ الرماحَ من الغَشْمِ

والمعنى : يا بني عمِّنا لا تؤذونا وتوجهون رماحكم في صدورنا التي هي بمثابة صدوركم أنتم إذ نحن منكم وأنتم منّا فإن فعلتم ذلك فقد ظلمتكم رماحكم وكنتم كمن يحتطب ليلاً ويقطع ما قدر عليه بلا فكر ولا روية .

أما عبيد بن الأبرص فيعاودنا بقوله في سياق شكواه لفراق الأحبة وتصوير ذكرياته معهم : [٢]

والشَّمْلُ مُجْتَمِعٌ فاعتاقَهُ قِدَمٌ   والدّهرُ منهُ على التّحييفِ والفُرُطِ

يقول : إذا كان الشمل قديمًا مجتمعه فإن الدهر كفيل بتنقصه وأخذه من جوانبه بجور وظلم.

وهذه دعوة من الشاعر الفارس عنترة بن شدّاد إلى ترك الظلم والجور حيث يقول :

ويا لزيادٍ انزعوا الظلمَ بينكم   فلا الماءُ مورودٌ ولا العيشُ طيِّبُ

والمعنى :" يا آل زيادٍ تخلّوا عن الظلم في معاملتي وإلا لم يطبْ لكم طعامٌ ولا شراب " [٣]

وهو قد يجهل ويبطش ولكن لديه متسعٌ للحلم والصفح : [٤]

وللحلمِ أوقاتٌ وللجهلِ مثلُها   ولكنَّ أوقاتي إلى الحِلمِ أقربُ

ومن العدل والإقلاع عن الظلم والجور منع النفس من التمادي في الباطل أو الخضوع للأهواء وقد نُسب إلى عمرو بن كلثوم بيتان في هذا المعنى حيث يقول : [٥]

وكُنتَ امرءًا لو شئتَ أن تبلغَ المنى   بلَغْتَ بأدنى نعمةٍ تستديمُها

ولكنْ فطامُ النفسِ أثقلُ محملاً   من الصخرةِ الصمّاء حين ترومها

---

(١) الديوان – ص : ١٨٥.

(٢) الديوان – ص : ٩٢ .

(٣) ديوان عنترة . ص :٣٥ – ٣٦ .

(٤) نفسه : ص : ٣٥ .

(٥) ديوان عمر بن كلثوم – ص : ٨٥ .

٩ - العِفّة وخلافها الفجور :

إن العفـــــة بمعنى الكف عن المحارم والأطماع الدنية كانت من أهم ما يفتخر به العربي ويتسم به .

وللعفـــة مظاهـــر كثيرة سنورد بعضها في هذه الصفحـــات ، وخلاف العفة الفجور بمعنى : الانـــبعاث في المعاصـــي والمحارم . وله مظاهره الكثيرة أيضًا فتعال معنا نطوِّف ســــويًّا في دواوين أصحاب المعلقات العشر لنخرج بما نستطيع الخروج به من شواهد في هذا الجانب الخلقي البارز .

يقول عبيد بن الأبرص في سياق فخره بنفسه : [١]

لَعَمْرُكَ إنّني لأعفُ نفسي وأَستُرُ بالتَّكَرُّم من خَصَاصِ

والمعنى : أقسم إنني لأكف نفسي عن المحارم والأطماع الدنية ، وأخفي فقري عزة وعفةً .

أما زهير فيقول في سياق هجائه بني الصيداء مستعملاً كلمة (محصنة) للدلالة على العفة:[٢]

فإنْ تكن النساءُ مخبّآتٍ فَحُقَّ لكلِّ مُحْصنةٍ هَداءُ

المحصنة : ذات الزوج . الهداء : الزواج . " ويروى " فإن قالوا: النساء مخبّآت "المعنى : فإن قالوا : " هـــن النساء اللاتي يختبئن في الخدور فينبغي أن يزوجن إذًا " [٣] فكأن في البيت دعوة إلى أن من العفة الحفاظ على حصانة الفتاة بتزويجها .

ويقول النابغة الذبياني في سياق مدحه هوذة بن أبي عمرو العذري : [٤]

كان ابنُ أشْفةَ طيِّبٌ أثوابُهُ عَفًّا شمـــائلُهُ غـــزيرَ النائلِ

والمعـــنى : كـــان ابن أشفة عفَّ الأخلاق كثير الجود والعطاء ، وإنما عبر بالفعل الماضي لتحقيق تلك الصفات في الممدوح .

وكنّى شعراء المعلقات العشر عن (الرجل العفيف النقي العِرض) بالأبيض كقول زهير في سياق مدحه هـــرم بن سنان : [٥].

---

(١) الديوان – ص : ٨٦ .

(٢) الديوان – ص : ١٢ .

(٣) د. حنّا نصر الحِتّي . شرح ديوان زهير بن أبي سلمى – ص : ٨١ .

(٤) د. ندى الشايع . معجم لغة دواوين شعراء المعلقات العشر – ص :٨٩ .

(٥) الديوان – ص : ٦٦ .

أغَـــــــرُّ أبيضُ فيّاضٌ يُفكّك عن أيدي العفاةِ وعن أعناقِها الرِّبَقا

ويقول امرؤ القيس في سياق مدحه عوير بن شِجنة بن عُطارد : [١]

ثيابُ بني عوفٍ طهارى نقيةٌ وأوجُهُهُم عِنْدَ المَشَاهِدِ غُرَّانُ

والمعنى : بـــنو عـــوف ومـــنهم عوير بن شحنة قـــــوم فيهم العفة والترفع عن الدنايا وأوجههم في الأماكن التي يحضرونها كريمة شريفة وبيضاء نقية طاهرة .

وورد في الديوان "الثياب هنا : القلوب . غُرّان ، الواحد الأغر: الأبيض . يقول: " إن ثياب بني عوف طاهرة ليست كثيابكم يا بني حنظلة فإنها دنسة ، وأوجههم بيضاء متهللة " [٢]

ويقول الأعشى : [٣]

دَعْهَا فقد أَعْذَرْتَ في حُبِّها واذكرْ خنا علقمةَ الفاجرِ

والفاجر هنا : المنبعث في المعاصي والمحارم .

والإســـاءة إلى الـــناس مظهر من مظاهر الفجور وفي ذلك يقول النابغة الذبياني في سياق مخاطبته عيينة عون بني عبس حين أراد أن يُخرج بني أسد من حلف بني ذبيان : [٤]

إذا حاولتَ في أسدٍ فجورًا فإنّي لستُ منكَ ولستَ منّي

" يتبرأُ منه إذا حاول الإساءة إلى بني أسد " [٥]

ومما نسب إلى طـــــــرفة بن العبد قوله في سياق هجائه بعض قومه لتكاسلهم عن نصرته عندما أحاطت به الخطوب : [٦]

وهانئًا هانئًا في الحيِّ مُـــومسةٌ ناطتْ سِخَابًا وناطت فوقهُ ثُكَنا

هـــانئًا (الأولى) : السعيدة الهانئة بحياتها ، الفتاة المرحة الحبـــور . هانئًا (الثانية) : الخادم .

مومسة : خفيفة الطيش ، مجاهرة بالفجور . ناطت : علّقت .

---

(١) الديوان – ص : ١٦٩ .

(٢) الديوان . ص: ١٦٩ .

(٣) الديوان – ص : ٩٣ .

(٤) الديوان – ص : ١٢٩.

(٥) د. عمر فاروق الطبّاع – ديوان النابغة الذبياني – ص : ١٢٩.

(٦) عبد القادر محمد مايو . ديوان طرفة بن العبد – ص : ١٧٩ .

السـخاب : العقـد أو الطـوق من القرنفل والزهر من دون لآلئ وجواهر . الثُكَن : جمع ثُكنة ، وهي الراية . وكان المومسات يعلقن فوق خيامهن رايات ليُعرفهُنَّ قاصدهن .

والخريد من النسـاء (المرأة الحييّة الطويلة السكوت الخافضة الصوت الخَفِرة المستترة) [١] وفي ذلك يقول امرؤ القيس :

وتغدو على الوحشِ تصطادُها   وتُروي النديمَ وتُصبي الخريدا

وعند لبيد تُعَدُّ المروءة من مظاهر العفة وكمال الرجولية حيث يقول : [٢]

يُباري الرِّيـحَ ليس بجـانبيٍّ   ولا دَفـنٍ مـروءتـهُ لئيـمُ

والمـروءة :" آداب نفسانية تحمل مراعاتُها الإنسانَ على الوقوف عند محاسن الأخلاق وجميل العادات، أو هي كمال الرجولية .

كمـا أن الحر الكريم من الرجال عنده من عاتب نفسه وعفّ بها عن المفاسد واستعان فوق ذلك بمجالسة الصالحين : [٣]

ما عاتبَ الحرَّ الكريمَ كنفسِهِ   والمرءُ يُصلِحُهُ الجليسُ الصالحُ

والحـارث بـن حلزة يطلب من عمرو بن هند ألاّ يعرض أو يسيء لبكر بن وائل قبيلة الشاعر وإلا سيتعرض لأقوامٍ يرهبون عنه ويَدَعُونَهُ : [٤]

تعـلّمْ بـأن الحيَّ بكرَ بنَ وائـلٍ   هُمُ العزُّ لا يَكذِبْكَ عن ذاك كاذبُ

فَإنَّكَ إن تعـرِضْ لهم أو تسـؤهُمُ   تَعَرَّضْ لأقـوامٍ سواكَ المذاهبُ

ومن العفـة أيضًا حـماية الأعـراض في جميع الأحوال والظروف ومما نُسب إلى عمرو بن كلثوم في هذا المعنى قوله : [٥]

والمـانعونَ بنـاتِـهِمْ   عند الوغى حَـدبًا وبـرًا

المانع : الذي يصون ويحمي . حدبًا وبـرًا : سهـلاً وجبلاً .وهو هنا يفتخر بالذود عن بنات الحي

---

(١) د. ندى الشايع . المصدر السابق . ص: ٩٠ .

(٢) الديوان – ص : ١٨٦

(٣) الديوان – ص : ٢٢٤ .

(٤) الديوان – ص : ٦٣.

(٥) الديوان – ص : ٨٠ .

ونسائهم في كل المواطن سهلاً وجبلاً أي : في كل الظروف .

وهـــذا عنتـــرة بن شداد الذي حمى النســـاء من الإســـار بـــحد سيفـــه وفي هذا حفاظ على شرفهن وعفتهن : [١]

وأَحْصَنْتُ النساءَ بحدِّ سيفي   وأعدائي لِعَظْمِ الخوفِ فَلُّوا

وغض الطرف من مظاهر العفة عند العربي الجاهلي ولعنترة في ذلك بيت مشهور وهو قوله :

وأَغُضُّ طرفي إن بدت لي جارتي   حتى يواريَ جـــارتي مأْواها

" أغض طرفي : أغمض عيني أو ألتفت ولا أنظر كناية عن الاحتشام والعفة "[٢]

ومن مظاهر الفجور عندهم : استحلال المحارم كقول امرئ القيس : [٣]

سموتُ إليها بعد ما نام أهلُها   سُمُوَّ حَبَابِ الماءِ حالاً على حالِ

وفي البـــيت الســـابق ما يدل على أن تلك الخسة والدناءة لا يرضاها الذوق العام الجاهلي وهو قوله :" بعد ما نام أهلها " بما يوحي أن هذا الفجور منه حالة شاذّة يمجُّها الطبع السليم .

قوله : [٤]

وقد أذعرُ الوَحشَ الرِّتاعَ بِغِرَّةٍ   وقد أجتلي بيضَ الخدورِ الروائقا

١٠- النصح وخلافه الغِش :

قـــــال :" نصـــحت لـــه ونصـــحته أنصـــحُ نُصْـــحًا ونصـــيحةً فـــيهما ، وفي التتريل:"وأنصـــــــح لكم"[٥] وأنشد :

نصحتُ بني عـــوفٍ فلم يتقبَّلوا   رسولي ولم تنجحْ لديهم رسائلي

ورجــــل ناصـــــح الجيب – أي نقي الصدر لا غشَّ عنده كقولهم طاهر الثوب والنصاحة " [٦]

---

(١) الديوان – ص : ١٨٥ .

(٢) الديوان – ص: ٢٨٦ ، ٢٨٨ .

(٣) الديوان – ص : ١٤١.

(٤) الديوان – ص : ١٣٨.

(٥) الأعراف / ٦٢.

(٦) المخصص لابن سيدة . ج٣ / ٤٣٢.

وفي المعجـــم الوسيط " غشَّ صدره غِشًّا : انطوى على الحقد والضغينة . وصاحبَه – غِشًّا : زيّن له غير المصلحة وأظهر له غير ما يضمر فهو غاش ." [١]

ومن مظاهر النصح عند شعراء المعلقات التذكير بالعـــواقب وفي ذلك يقول عبيد بن الأبرص:[٢]

لا يَعِـــظُ الناسَ مَن لا يَعِظُ الـــ ـــدَّهرُ ولا يـــنفعُ التلبيـــبُ

والحـــارث بـــن حلزة يشير إلى أن التجارب ما يتعظ به الإنسان ويعمل به ويعتبر ليستدل به علـــى غيره وهو بهـــذا يشير إلى مظهر آخر من مظاهر النصح وهو انتصاح النفس بالتجارب حيث يقول :

إنّ السعيدَ لهُ في غيرِهِ عظةٌ وفي التجاربِ تحكيمٌ ومُعْتَبَرُ [٣]

والحِكـــم عامـــةً في الشعر الجاهلي تُعَدُّ مظهرًا ثالثًا من مظاهر النصح ، ومن ينظر إلى الشعر الجاهلـــي يجده يعـــجُ بهذه العصارات الخِبرية في الحياة ولعل أكثر من يمثل هذا الجانب من الشعراء العشرة زهير بن أبي سلمى وممـــا قال : [٤]

وإنّ الحـــقَّ مقطعُهُ ثلاثٌ : يمينٌ أو نِفـــارٌ أو جـــلاءُ

فَذَالكُمُ مَقـــاطِعُ كلِّ حقٍّ ثلاثٌ كلُّهُنَّ لكم شفـــاءُ

قيـــل : إنّ زهيرًا سمي بهذا البيت قاضي الشعراء .

قوله : شفاء جعل تبيين الحق شفاء من الالتباس والشك [٥]

" وكـــان عمـــر بـــن الخطاب رضي الله عنه إذا أنشد هذا البيت تعجب من معرفته بمقاطع الحقوق، ويقول : لو أدركته لوليته القضاء لحسن معرفته ودقة حكمه "[٦]

---

(١) المعجم الوسيط . ج٢/ ٦٥٣.

(٢) الديوان – ص : ٢٦ .

(٣) الديوان – ص : ٦٧ .

(٤) الديوان – ص : ١٢.

(٥) انظر حاشية الديوان – طبعة دار صادر – ص : ١٢.

(٦) د. حنّا نصر الحتي . شرح ديوان زهير بن أبي سلمى – ص: ٢٤-٢٥.

والنصح يخالفه الغش ومما ورد في ذلك قول زهير في سياق هجائه بني الصيداء : [١]

القائلينَ : يســــارًا لا تناظـــــرُهُ غِشًّا لِسيِّدِهم في الأمرِ إذْ أمروا

يسارًا : غلام زهير . لا تناظره : لا تؤخره ، أي : اقتلْه ، وهو نفي معناه النهي .

والمعنى : قالــوا لسيدهم :اقتل الغلام يسارًا ولا تؤخره وهم بذلك قد أمروا سيدهم بغشٍّ أي: لم ينصحوه بخير.

وللنابغة الذبيــاني نصائح كثيرة نختار منها قوله :

فإيّاكُم وعــــورًا داميــــاتٍ كأنّ صِـــلاءَ هنَّ صِـــلاءُ جــمرِ

"عــــورًا : جمع عوراء المراد بها الكلمة القبيحة . يريد قصائد الهجو . داميات : يريد هجاء يقطر مــنه الــدم .وقوله : كأنَّ صلاءهن صلاء جمر : مثلٌ ضَرَبَهُ أي من هُجي بها ناله من حرِّها ما ينال مصطلى بجمر"[٢] وهذا الأعشى ينصح ويعظ ومما قال : [٣]

ولا تزهدَنْ في وصلِ أهْلِ قرابةٍ ولا تكُ سبعًا في العشيرةِ عاديا

وإن امرؤٌ أســـدى إليك أمــانةً فأوفِ بها إن مِتَّ سُميتَ وافيا

تــزهد : تحتقــر وتقلل . سبعًا : كل ما له ناب ويعدو على الناس والدواب فيفترسها . أسدى : أعطى وأولى .

ومــن مظاهر النصح ما كان على سبيل التهديد للخصم وتحقيق موعد أجله فعنترة بن شداد ينصح خصمه مسحل الكندي بأن يعلن لقومه وصيته إذ أنه لن يخرج من مبارزته حيًّا : [٤]

وأوصِهُمُ بما تخـــتارُ منهم فما لكَ رجعةٌ بعد التلاقي

---

(١) الديوان – ص : ٣٤ .

(٢) د. عمر فاروق الطبّاع – ديوان النابغة الذبياني – ص: ٦٣ .

(٣) الديوان – ص : ٢١٨.

(٤) الديوان – ص : ١٧٢.

ومـــــن مظاهر النصح التحذير من محل السوء وفي هذا يقول عنترة يقول لكلّ صاحبِ عزّةٍ وشرف:

أحذر محلَّ الســـــوءِ لا تَحْلُلْ بهِ وإذا نَبَا بكَ مترلٌ فَتَحَوَّلِ [١]

وينسب إلى طرفة بن العبد قوله في النصيحة : [٢]

خالطِ النَّاسَ بِخُلُقٍ واسعٍ لا تكنْ كلبًا على الناسِ هَرْ

والمعنى :" نصيحتي لك أن تعامل الناس بالحلم والخلق الحسن ولا تبدُ أمامهم كالكلب الذي يهر غضبًا وضيقَ خلقٍ " [٣]

وامرؤ القيس ينصح بحفظ اللسان من الفحش فيقول : [٤]

إذا المرءُ لم يَخْزُنْ عليهِ لسانَهُ فليسَ على شيءٍ سواهُ بِخَزَّانِ

إلا أن طــــــرفة بن العبـــــد وقع في هذا الفحش ولم يحفظ لسانه في هجاء عمرو بن هند وأخيه قابوس حيث يقول : [٥]

إنّ شرار الملوكِ قــد علموا طُرًّا ، وأدنـــاهُمُ من الدّنسِ

عمرٌو وقـــابوسُ وابنُ أمِّهما من يأهَم للخنـــــا بِمُختَبِسِ

يأبيَ الذي لا تُخـــافُ سُبَّتُهُ عمرٌو وقابوسُ قَيْنَتَا عُــرُسِ

يَصْبَحُ عَمْرٌو على الأمورِ وقد خَضْخَضَ ما للرِّجالِ كالفرسِ

والمعـنى :" قد علم الناس أجمعين أن شر ملوكهم هما عمرو بن هند وأخوه قابوس وكلٌّ من انتمى إلى هند أمهما . إنهما ملكان ولكنهما أشبه بجاريتين للّهو والانشراح في الأعــراس وقد يقوم

---

(١) الديوان – ص : ١٨٩.

(٢) الديوان – ص : ٨٩ .

(٣) عبد القادر محمد مايو – ديوان طرفة بن العبد – ص : ٨٩.

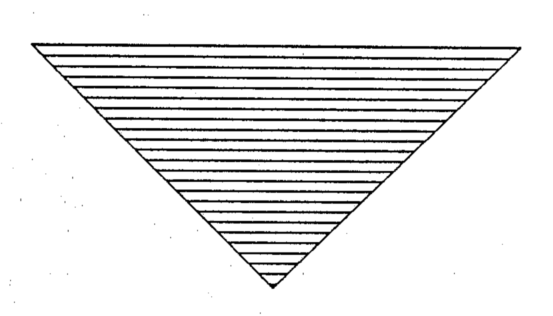
(٤) الديوان – ص : ١٧٣ .

(٥) الديوان – ص : ١٠٨.

قائم عمرو على كرسي مملكته صباحًا بعد أن يروح بأعضاء الرجال ، ويؤتى إتيان الفرس "[١].

ولعـــلّ متســـائلاً يتساءل فيقول : ما دمت لم تورد الشواهد لتلك الأخلاق الكثيرة التي ذكرتها نصوص موثقة فما لي لا أراك ذكرتَ منها سوى هذه الأخلاق العشرة ؟ ولِمَ غابت ؟

أقـــول لـــذلك المتسائل الكريم : إن تلك الأخلاق لم تغب في الأصل ولكن اشتملت عليها أمهـــــات الفضـــائل إن كانت أخلاقًا فاضلة وأمهات الرذائل أيضاً اشتملت على مظاهر الأخلاق المـــرذولة . وإن استقصاء تلك المظاهر الخلقية جميعها من دواوين أولئك الشعراء يكون من الصعوبة والكثـــرة بمكـــان بحـــيث يحـــتاج كل ديوان إلى دراسة خاصة . وسنتبين مظاهر أمهات الأخلاق والفضـــائل ومـــا يخالفهـــا مـــن الرذائل عند الحديث عن الإطار الخلقي في المعلقات العشر وهو موضـــوع بحثنا في الفصل الثاني من هذه الرسالة إن شاء الله تعـــــالى .



(١) ديوان طرفة بن العبد – السابق – ص : ١٠٨.

الفصل الثاني

الإطار الخلقي في المعلقات العشر

ويتناول :

أولاً : الشعر العربي كما يجب أن نفهمه بعيدًا من إسقاطات المذاهب الأدبية الغربية .

ثانيًا : في ظل الأخلاق يتحد التصور عند شعراء المعلقات العشر .

ثالثًا : الأخلاق نشاط إنساني له مجالاته عند شعراء المعلقات .

رابعًا : أ – أمهات الفضائل تمثل الإطار الخلقي في المعلقات العشر .

ب – المظاهر الجسمية أو العرضية متممات للفضائل النفسية .

ج – أمهات الفضائل وأصول الأخلاق الأربعة في المعلقات (مظاهرها النفسية والعرضية ، دراسة تطبيقية) في كل من :

١ – معلقة امرئ القيس .

٢ – معلقة طرفة بن العبد .

٣ – معلقة زهير بن أبي سلمى .

٤ – معلقة لبيد بن ربيعة .

٥ – معلقة عمرو بن كلثوم .

٦ – معلقة الحارث بن حِلِّزَة .

٧ – معلقة عنترة بن شداد .

٨ – معلقة الأعشى .

٩ – معلقة النابغة الذبياني .

١٠– معلقة عبيد بن الأبرص .



أولاً : الشعر العربي كما يجب أن نفهمه بعيدًا عن إسقاطات المذاهب الأدبية الغربية .

كثيرًا ما يتبادر إلى ذهني وأنا أحاول دراسة نصٍ شعري من نصـــوص أدبنا القديم سؤال مهم جـــدًا هـــو : هـــل مـــن الممكن أن ينتمي أدبـــنا العـــربي القـــديم إلى مذهب أدبي مما هو وافد إلينا من المذاهب الأدبية الغربية ؟

في اعـــتقادي – بـــل في اعـــتقاد كثير من الباحثين – أن الأدب العـــربي – وخـــاصة القـــديم مـــنه – يصـــعب كثيرًا انتماؤه إلى مذهب أدبي معين وذلك لأسباب أوردها بعضهم بقـــوله[١] : " من الصعب العثور على صبغة محددة يندرج فيها أدبنا العربي في غابر العصور فهو، مـــن جهـــة أدب تقليدي محافظ على أسلوبية في التعبير لم تحد عن خطوطها العريضة إلا ما ندر... ومـــن جهـــة ثانية ، ذاتي ينطـــلق الكلام منه من همـــوم الأديب وأفكاره وخواطره وصراعه مع المجـــتمع والطبـــيعة في سبيل هذه الذات ... وهـــو من جهة ثالثة أدب تعليم اجتماعي يرمي فيه أصـــحابه إلى نشـــر المبادئ والأهداف الدينية والسياسية أو العصبية بقصد المنافسة تارة أو بقصد التقلـــيد والمماحكة تارة ثانية ... كل هذه الأساليب والأنماط جعـــلت من العسير على الدارس الأدبي الاهتداء إلى اتجاه أدبي أو اتجاهات محددة لها حركتها ولونها ومصبها " ... إن هذا الأدب لم يعـــرف المذهبية بمفهومها الأوربي" ومن هنا يمكن القول بأن " ليس في الأدب العـــربي القديم مدارس أدبية بالمعـــنى الذي عرفناه في الآداب الأجنبية فلا كلاسيكية ولا رومنطيقية ولا واقعية أو رمزية أو سوى ذلك"[٢].

وربمـــا يـــرجع ذلـــك إلى أن ظـــروف المجتمع القديم وحاجاته النفسية والروحية تختلف عن الظـــروف والحاجات التي دفعت إلى ظهور هذا المذهب أو ذاك عند الغربيين ، ولكن ما يمكن قوله أن " هنالك أساليب وطرائق يعتمدها البعض تارة ويتخلى عنها تارة أخرى تبعًا لأهواء النقاد وذوق الجمهور ، ولم تدخل المـــذاهب الغربية إلى أدبنا العربي إلا في مطلع القرن العشرين إثر الاختلاط الاجتماعي والثقافي الواسع النطاق بـــين عرب المشارقة والبلدان الأوربية والأمريكية "[٣].

إلا أنـــني عندما أنظر إلى نصوص شعرنا القديم – المعلقات العشر على وجه الخصوص – التي

---

(١) د. ياسين الأيوبي – مذاهب الأدب معالم وانعكاسات – ص : ٣٦٩ .

(٢) السابق – ص : ٢٤٣.

(٣) السابق – ص : ٢٤٣.

درســـت كثيرًا من عدد من الشرّاح أو النقاد المحللين – رغم أنني لا أنكر أنني قد اتخذت مما وصل إليه بعض أولئك سفينًا أبحر به في عرض تلك النصوص الشهيرة لعلي ألقى من درر الحكمة ومناقب الأخـــلاق والعادات العربية ما يكشف سجفًا عن أسرار النص الجاهلي الذي لا زال يحيط بنصوصه استفهامات كثيرة –قد وجدت كثيرًا من تلك الدراسات قد اتخذت من المــــذاهب الغـــــربية ســـــبـــلاً إلى تفســـــير النصـــــوص العربية الجاهلية وما ذلك منهم إلا إسقاطات وهمية أملتها عليهم ثقافاتهم الأجنبية واطـــلاعهم في الآداب والمذاهب الأدبية الأجنبية فعادوا محملين بآراء نقدية قـــد لا يحتمل النص الجاهلي بالذات وطـــأتها بل وقد يؤدي تطبيقها إلى ليّ أعناق النصوص العربية والـــزعم بالخـــروج بأشياء لم يكن الإنسان الجاهلي يعـــــايش أشباهًا لأصولها الثورية ولا ثوابتها الدســـتورية ولعلنا نقف على مذهب من تلك المذاهب وليكن الرمـــزية (وإنما اخترناه لشدة وطأته على النص الجاهلي) .

إن الرمزية الغربية في أسهل وأوضح تعريف لها هي " مذهب شعري يمثل بالرموز ما يوجد من تجـــــانس خفي بين الأشياء ونفوسنا "[١].

إن هـــذا الـــتجانس المذكور في التعريف لم يصل – في رأيي– عند الشاعر الجاهلي إلى الحد الذي يجعل بعض الباحثين يقول : [٢] " أيقوى الجاهلي على تشبيه المرأة بمعبودته الشمس إن لم تكن المـــرأة الـــتي ذكرها في شعره – على غير ما يبدو في ظاهرها – ذات صفة قدسية عنده ؟ " إلى أن يقـــول في تعلـــيله تشبيه العـــربي الفرسَ بالقطاة : " إن الفرس – رمز الشمس – موجود مثلها في الســـماء في تلـــك المجمـــوعة النجـــمـــية التي تسمى الجوزاء أو الجبار ... وبجانب صورة الفرس السماوية نرى مجموعة الدجاجة كما تسمى اليـــــوم وبجانبها مجموعتان من النجوم تسمى إحداهما النســـر الطائـــر وتسمى الأخرى النسر الواقع فالنسر في السماء يطير ليصطاد الدجاجة أو القطاة فيقع دامي الرأس "[٣].

كمـــا يعلـــل لأسمـــاء النساء في الشعر الجاهلي بمثل قوله : " يبدو أن خولة ترمز في الشعر الجـــاهلـــي إلى ســـيدة الـــزرع ... وتبدو أسماء رمزًا للمراعي أو لحياة الرعي ... وتظهر أميمة

---

(١) المنجد في اللغة والأعلام . ص : ٢٧٩.

(٢) د. نصرت عبد الرحمن . الصورة الفنية في الشعر الجاهلي . ص : ١١٣.

(٣) المصدر السابق . ص : ١٤٤ .

رمــــــزًا لــلأم الحــــــانية العطوف..وتظهر سعاد في الشعر الجاهلي رمزًا للربيع وسلمى رمزًا للحب العذري والعفة ..."[١]ويقول آخر :"ويبدو أن شعراء ما قبل الإسلام قد نزعوا بشكل ما – إلى إســقــاطــات معبوداهم القديمة وكأننا بهم قد بحثوا عن البدائل ، فنالت المرأة حظًّا من تلك النزعــة فنرى الشعراء الجــاهليين قــد خلعوا عليها قداسة معبوداهم ، فنحن نراها شمسًا ، ودمية مــن الدمــى المعبودة ، وغزالا من الغــزلان المقدسة ... بل إننا نراهم يخصُّونها بالقدرة على إحياء الموتى "[٢].

لــو سلمنا جدلاً بافتراض ما قيل ، فأين نضع ما صوره الشاعر الجاهلي مــن دقــــــائق الأشــــياء ؟

لقــد وصف الشاعر الجاهلي الناقة والفرس وصفًا يكاد يكون تشريحيًا كما نلمح ذلك عند طرفة وهــــو يصف الناقة ، بل أين نضع ما ورد من أوصاف أخرى كوصف الذباب عند عنترة ؟ هــل سنجـــد لكل ذلك أشباهًا مثالية في السماء ؟! ما هذا إلا اختلاق .إن الشاعر الجاهلي كان أكثــر مــا يتناول في شــــعره على مختلف أغراضه الصفات النفسية الخُلُقية ، ولم يتناول الصفات الخَلقــية – العرضية أو الجسمية – إلا على سبيل تتمة الصفات النفسية الخُلُقية وأكثر ما نجد ذلك في غــرض الهجــاء فقد "كان الجــاهلي يهجو بالعيوب النفسية الخُلُقية ولم يهجُ بالعيوب النفسية الخَلقية "[٣].

وقــد تنــبه لــذلك ابن سنان الخفاجي وغيره كما سيرد معنا لاحقًا ، ولقد أراد الشاعر أن يقــــرب لنا تلك الصفات الخُلُقية بصورة محسوسة في هيئة نشاط عملي إنساني فهو عندما يذكر أسمــاء " النســاء الحبيات (زهير : أم أوفى ؛ لبيد : نوار ؛ عنترة : أم الهيثم ؛ الحارث بن حلزة : هند ؛...في المعلقات خصوصًا لم يكن أن تلك الأسماء كانت تنصرف حقًا إلى حبيبات الشعراء ... ولكن ما هي إلا " أسماء رمزية لا تعني إلا سمة دالة على نساء بدون تخصيص للنسب ولا تدليل على الانتماء العائلي الحقيقي "[٤] نظرًا لما يلقاه من صرح باسم امرأة بعينها من قوم كانوا يقتلون فتياهم خشــية العار بل وقد تجــــاوزت تلك الرمزية الأسماء النسائية إلى التورية أو الكناية عن المرأة :

(١) د. نصرت عبد الرحمن – الصورة الفنية في الشعر الجاهلي – ص: ١٥٠-١٥٩.

(٢) د. حسني عبد الجليل يوسف – عالم المرأة في الشعر الجاهلي – ص : ٦ .

(٣) د. عمر فروخ – تاريخ الأدب العربي – ص : ٨٣.

(٤) عبد الملك مرتاض – السبع معلقات – ص : ٦٠.

"بشجرة ، أو شاة ، أو بيضة ، أو ناقة أو مهرة أو ما شاكل ذلك"[1] ولا تدليل على الانتماء العقدي في ذلك كله ، وقد مر بنا أن الأعشى لما سئل عن سمية التي ذكرها في شعره قال: لا أعرفها .

إن إجابة الأعشى رغم قصرها توحي لنا بأن تلك الأسماء ما هي إلا رمز مغرٍ يمثل نظرة الإنسان الجوهرية إلى قرينه وصنوه الذي خلق وإياه من نفس واحدة .

إن حضور المرأة في نفس العربي بأي اسم كانت ما هو إلا تواصل حي وانسجام لطيف يعكس حقيقة عملية الإبداع التي تجلو جوهر الإيحاء وكنه النفس والوجود والحياة ، وما ذكر الشاعر الجاهلي اسم المرأة إلا " ليميل نحوه القلوب ويصرف إليه الوجوه وليستدعي بها إصغاء الأسماع إليه لأن التشبيب قريب من النفوس لائط بالقلوب "[2] وكشف عن جبلة الفطرة الإنسانية التي عجنت بهوى النساء ، لا تنفك عن الميل إليهن نفس ولا يحرم من الصبوة إليهن أي وجدان : إن محبة الغزل وإلف النساء خلق في تركيب العباد " [3] والذي يبدو لي أيضًا من وجود تلك الأسماء على وجه الخصوص هو ما تحمله من مضامين أخلاقية مثل : أم أوفى ، وهند ، وعبلة ، وخولة ، أم الرباب ... كلها أسماء موحية بالوفاء والكرم والنعمة والجاه والأنفة والمنعة وما إلى ذلك .

وما صورة الناقة والفرس إلا رمز للدفاع عن النفس ضد مظاهر الطبيعة الجافية في عالم محفوف بالمخاطر من كل جانب ولن يحمي الإنسان في خضم ذلك كله إلا مبادئه وأخلاقه ، وما تلك الأسماء والأوصاف والصور التي طرقها الشاعر الجاهلي إلا قنوات رمزية مغرية تحمل في طياتها معاني وتصورات لنشاط خلقي إنساني يريد الشاعر الجاهلي من خلال قنواته المتعددة أن يجعلنا مهيئين لفهم ما يقول ووعي ما يريد . وسنعرف عند دراستنا للمعلقات العشر أن للشاعر الجاهلي غاية أسمى وأعمق من مجرد ذكر الأسماء والأماكن وأعمق من المحافظة على بناء القصيدة وأعمق من التصوير وإن كل هذه الأشياء التي ذكرت ما هي إلا روافد في الشعر العربي الجاهلي ليؤدي رسالته الأولى التي وجد من أجلها وهي التغني بمكارم الأخلاق وتوارثها من جيل إلى

---

(١) العمدة لابن رشيق – ص : ٥٣٠ .

(٢) ابن قتيبة – الشعر والشعراء – ص : ٨١ .

(٣) نفس المصدر – ص : ٨١.

جـيل مـن خـلال تلك القنوات المتعددة . ومن خلال ما تقـدم يمكننا أن نخرج بمفهوم خاص للرمـزية في الشعر العربي الجاهلي فنقول:ورد في معاجم اللغة معنى رمزه بكذا : أغراه به كما ورد الرمز بمعنى الإشارة والإيماء [١] ومن هذا المعنى المعجمي للرمزية يمكننا أن نخفف من وطـأة الرمزية بمفهـومها الغربي فنقول : إن الرمزية في الشعر العربي الجاهلي – خصوصًا – هي " محاولة مـن الشـاعر إغـراء المتلقي بالإشارة والإيماء له بصور تعبيرية فنية يكون وراء معناها المباشر معنىً آخر يقصـده الشـاعر ويرمي إليه " وقد توصلت إلى هذا المصطلح من خلال القراءة المتأنية في باب الإشـارة عند علمـاء البلاغة والنقد واللغة وقد عرفها ابن رشيق بقوله : " وهي في كل نوع من الكلام لمحة دالة ، واختصـار وتلويح يعرف مجملاً ، ومعناه بعيد من ظاهر لفظه " [٢] وقد عد من ألوان الإشارة التفخيم والإيمـاء والتعريض والكنايات والتمثيل والرمز واللمحة واللغز واللحن (المحاجـاة) والتورية ، ولما كان كل ماتقدم ذكره من مصطلحات أهل البلاغة وهي تتداخل فيما بيـنها رأيت أن أخرج منها بالتعريف السابق ليكون إطارًا محددًا للرمزية في الشعر العربي القديم . ولعـل اللحن (الفطنة) نوع استعمله العرب فكان "أقـرب شيء إلى الرمز الأدبي الخالص . وقد عقـد الجلال السيوطي في المزهر فصلاً في الملاحن ...وهو قـد عنى بهذا اللفظ ما عناه أبو بكر بن دريـد إذ ألّـف كتابًا في هذا الموضوع."قال أبو بكر : معنى قولنا الملاحن لأن اللّحن عند العرب الفطنة ، ومنه قول النبي – ﷺ – :"...ولعل بعضكم ألحن بحجته مـن بعض"[٣] أي أفطن لها وأغـوص علـيها . وذلك أن أصل اللحن أن تريد شيئًا فتوري عنه " [٤] وعندمـا ننظر إلى الرمز بوجه عام فإنه " أسلوب من أساليب التعبير لا يقابل المعنى ولا الحقيقة وجهًا لوجه "[٥] .

والشاعر العربي الجاهلي بهذه الرمزية يجذب إليه المتلقين على اختلاف درجات فهمهم بالشعر فمـن كان فهمه قاصرًا على المعنى المباشر لم يحرم شيئًا من المتعة والفائدة ومن رُزِق فكرًا نيرًا وعقلاً واعيًا وصل إلى مقاصد الشاعر ومراميه البعيدة على أن نضع في حسباننا أن الشاعر الجاهلي لم يكن يريد الإغـراق والغموض من وراء ما صنع وإنما هو يؤمن بأن ما يُتوصل إليه بكد وجهد أعلق

---

(١) الفيروز أبادي – القاموس المحيط : ج٢/ ١٧٧ وَ المنجد في اللغة والأعلام – ص : ٢٧٩ .

(٢) العمدة – ج١/ ٥١٣-٥٣٣ .

(٣) الإمام البخاري – صحيح البخاري – باب : الشهادات – حديث ٢٤٨٣ .

(٤) د. عبد الكريم اليافي – دراسات فنية في الأدب العربي – ص : ١٧٠ .

(٥) السابق – ص : ١٧٣ .

بالـنفس ممـا يصـل إليها بيسر وسهولة فما زاد من قيمة الذهب إلا ندرته وما أعلى من شأن الـدرر إلا مشـقة الحصـول عليهـا والوصول إليها على أن نتذكر دائمًا "أن للرمزية الغربية صورًا متعددة فهي مذهب عام يقوم عـلى إذابة الحواجز بين الحواس فيصبح ما يرى مسموعًا وما يشـم ملموسًا ، وهي مذهب توغل فيه بعـض منهم لدرجة يصعب إدراكها على العقل البشري فبعضها يصبح طلاسم دون حد يحـدها أو ضـابط يضـبطها " (١) وأن الشعر العربي الجاهلـي شعر واضح ومفهوم وما كتب له الدوام إلا لأنه يحمـل في طياته مشاعر إنسانية وأخلاقًا مشتركة بين بني البشر في قديم الزمان وحاضره .

وقـد تنـبه كثير من النقاد وعلماء اللغة إلى هذا السر فوصل قدامة بن جعفر إلى ما سماه " الإرداف " وهو " أن يريد الشاعر دلالة على معنى من المعاني فلا يأتي باللفظ الدال على ذلك المعنى بل يدل على معنى هو ردفه وتابع له فإذا دل على التابع أبان عن المتبوع " (٢)

ثم جـاء عـبد القاهـر بما سماه " معنى المعنى " حيث قال " الكلام على ضربين ضرب أنت تصـل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده وذلك إذا قصدت أن تخبر عن زيد مثلاً بالخروج على الحقـيقة فقلت : خرج زيد ، وبالانطلاق عن عمرو فقلت : عمرو منطلق – وعلى هذا القياس – وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغـة ثم تـجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض ومدار هذا الأمر علـى الكناية ، والاستعـارة والتمثيل ..."(٣) وأنـا أعتبر أن ما وصل إليه الأوائل من قدامة إلى عبد القاهر الجرجاني ما هو إلا بداية الطريق الصحيح لفهـم شعرنا العربي القديم إلا أنني لن أقتصر هنا على ما وصلوا إليه ولن أوغل بالرمزية إلى مفهومها الغـربي المجازف وإنما أقول : إن الشاعر الجاهلـي يعرض قصيدته في قوالب معنوية ذات صورة أو هيئة فنية يغري المتلقي بمعناه المباشر الذي يأسـر القلـوب ولا يمكن مصادرته إلا أن وراء تلك الصفائح الفنية من وقـوف على الأطلال أو وصـف الراحلة وما إلى ذلك معان أُخَر إليها ينتهي مقصد الشاعر وما يرمي إليه وهي في الغالب

---

(١) محمد الحسن علي الأمين أحمد.الكناية أساليبها ومواقعها في الشعر الجاهلي.. ص: ٩٧ .

(٢) قدامة بن جعفر – نقد الشعر – ص : ١٥٥.

(٣) عـبد القاهـر الجرجاني – دلائل الإعجاز – تصحيح الشيخ محمد عبده رضا طبعة : محمد رشيد رضا – ص : ١٨٩..

صفات خُلُقية قد يتممها بصفات جسمية وهي تمثل في مجملها الرسالة الخالدة التي نشأ الشعر العربي من أجلها وهي التغني بمكارم الأخلاق وفضائل العادات.إننا لو استعرضنا المراحل الثلاث التي يمر خلالها الإنتاج الفني ولا يتم إلا بها وهي " الانفعال النفسي بالتجربة الجديدة ؛ ثم استبطان هذا الانفعال في داخل النفس حتى يمتزج بأعماقها ويعطيها من لونه ويأخذ من ألوانها؛ ثم ارتداد التجربة إلى الخارج في صورة " إفراز" أو " تعبير "[1] ولو دققنا النظر في حياة الإنسان الجاهلي لوجدنا أن تجاربه الإنسانية جميعها لا تكاد تخرج عن الإطار الخلقي الذي يمثل له الرصيد الخصب للمراحل الثلاث السابقة بما يكفل صحة الإيحاء الفني ومن ثم إنتاج عمل أدبي فني رائع أبدعه ذلك الإنسان العبقري في عصره الجاهلي وقد تجلت صورته المثلى في نصوص المعلقات العشر .

وعلينا ألا نغفل تلك الظاهرة الشعورية من حزن و فرح أو أمن وخوف إذ أنها " كانت الطابع الأصيل الذي يشد معاني المعلقة بعضها إلى بعض " [2] مما يجعلنا نؤمن بأن تلك الموضوعات المتفرقة في المعلقات – على حد زعم بعض الباحثين – لم تفقد المعلقة وحدتها العضوية التي هي" الوحدة الشعورية التي تجعل من الموضوع والشعور كُلاًّ واحدًا لا يمكن لنا فصم عراه " [3] لقد نظر أولئك إلى الوقوف على الأطلال ووصف الراحلة والصيد كلوحات فنية متفرقة يعرضها الشاعر الجاهلي في قصيدته وفاتهم سؤال مهم جدًّا وهو لِـمَ يعرض الشاعر تلك اللوحات المتفرقة على حد زعمهم؟ ثم لِمَ جعل لها نظامًا وترتيبًا معينًا ؟

إن تلك اللوحات – المتفرقة في نظرهم – ليست من التفرق بمكان وإنما هي بمثابة الصفائح المسطحة المجزئة لشكل كائن حي حتى إذا ما ضُمَّت أجزاؤها إلى بعضها بعض اكتملت الصورة واكتمل لها بناء العمل الفني الذي ينشده الشاعر في قصيدته وقد أشار أبو هلال العسكري إلى ذلك بقوله :" ومما يفضل به غيره (أي الشعر) طول بقائه على أفواه الرواة وامتداد الزمان الطويل به وذلك لارتباط أجزائه ببعض" [4].

---

(١) محمد قطب – منهج الفن الإسلامي – ص : ٦ .

(٢) د . شوقي ضيف – النقد الأدبي – ص : ١٦٠ .

(٣) د . مفيد قميحة – شرح المعلقات العشر – ص : ٨٠ .

(٤) أبو هلال العسكري – الصناعتين – ص : ١٥٥ .

ومما تجدر الإشارة إليه أن بعض الباحثين لم يتنبه إلى الدوافع النفسية من وراء الوقوف على الأطلال ووصف الراحلة والمرأة رغم أن هناك من علمائنا الأوائل من فطن إلى البحث في باطن المعنى المباشر للقصيدة الجاهلية فوصل بإعمال فكره إلى المعنى الذي أخفاه الشاعر وأغرى بغيره يقول أبو القاسم الآمدي : " ثم إنّا ما علمنا أحدًا قصد دارًا عفت من شقة بعيدة ، واحدًا كان أو جماعة ، للتسليم عليها والمسألة لها ، ثم انصرفوا راجعين من حيث جاءوا ، فإن هذا ما سمع به ، ولا هو من أغراضهم ، إذ ليس فيه جدوى ، ولا يؤدي إلى فائدة ، لأن المحبوب إن كان حيًّا موجودًا فقَصْدُ رباعه ومواطنه التي هو قاطنها والإلمام به فيها أولى وأجدى وإن كان ميتًا فالإلمام بناحية الأرض التي فيها حفرته أولى وأحرى وعلى أنهم لا يكادون يزورون القبور، وإنما وقفوا على الديار ، وعرجوا عليها عند الاجتياز بها والاقتراب منها ؛ لأنهم تذكروا عند مشارفها أوطارهم فيها ،فنازعتهم نفوسهم إلى الوقوف عليها والتلوم بها ورأوا أن ذلك من كرم العهد وحسن الوفاء"[(١)]

ونخلص من كل ذلك إلى القول :إن ما ذكره شاعر المعلقة في معلقته من أطلال وحيوان وامرأة ووحش ليست رمزًا غامضًا يصعب فهمه وإنما هي قنوات نابضة بالحياة والتفاعل المستمر بين الشاعر والمتلقي، قنوات مليئة بالمآثر الأخلاقية والفضائل الاجتماعية والتاريخية ولمثل هذا كانت عائشة رضي الله عنها كثيرة الرواية للشعر ، وكانت " تروي جميع شعر لبيد "[(٢)] لقد أدرك بعض نقادنا في العصر الحديث هذه القيم والفضائل للقول الشعري فقال :" إن جهلنا معنى الشعر الحقيقي ومنزلته في عالم الأدب أوصلنا إلى ما نحن فيه الآن من وفرة الناظمين وقلة الشعراء وغنانا بالقصائد وفقرنا بالشعر " [(٣)] إن معنى الشعر الحقيقي يعود إلى مدى التأكيد على القيم الأخلاقية في فضائل القول الشعري، وعلى القيم الفنية وذلك لتغنيه بهذه الفضائل وتخليده لمآثرها والتي يحرص عليها كل إنسان خوفًا من النسيان ورسالة خالدة إلى الأجيال القادمة . إننا لا نريد شعرًا مجرد نظم وإنما نريد شعرًا يتغنى بالفضائل الاجتماعية والمكارم الأخلاقية التي تعود إلى طبيعة المجتمع العربي وبيئته التي نشأ فيها حيث إن الفطرة العربية وذوقها يتوقان إلى القيم الرفيعة

---

(١) الآمدي – الموازنة بين شعري أبي تمام والبحتري ج١/ ٤٠٩-٤١٢ .

(٢) العمدة لابن رشيق – ص : ٩١ .

(٣) ميخائيل نعيمة – الغربال – ص: ٧٨ .

ويبتعدان عن المثالب وينأيان عن الرذائل .

ثم إننـــا لـــو سألنا نفوسنا عن تلك القيم والفضائل الأخلاقية العربية في العصر الجاهلي أين نجدها وقد حال الزمان بيننا وبين تلك العصور الغابرة ؟

إن اللغـــة هي مسكن القيمة الوحيد ، ومن ثم تنطوي كل لغة على حقل دلالي قيمي يتداخل تـــداخلاً مؤثــرًا في حقول اللغة الدلالية ، بشكل يجعل من الحقل القيمي سياقًا فاعلاً في كل اتصال لغـــوي " ولا شيء كالقيمة يوجد في السياق الخارجي كما يوجد في السياق الداخلي اللغوي إذ أن لها حالتي وجود :

الأولى : حالـــة اجتماعية قبل اتصالية ينتظم فيها جميع أفراد مجتمع ما ، فهي – إذن – مكون أصيل مـــن مكونات سياق الموقف .

والثانية : حالة لغوية قائمة بالقوة أو بالفعل في كل مرسلة لغوية سواء هبطت إلى ثرى معيارية اللغة أو حلقت في آفاق شعريتها " [١] .

إن القـــيمة الخلقـــية مســـتقرة في أخطر الظواهر الاجتماعية وأوثقها علاقة بالوعي الفردي والوعي الجمعي على السواء وأعني بذلك (اللغة) التي هي وسيلة الشاعر الجاهلي الوحيدة .

ولعل اهتمام القدماء بالنقد اللغوي يرجع إلى مدى وعيهم بكون اللغة مسكن القيمة الوحيد. وسنبسط الكلام في ذلك عند دراستنا لأثر القيم والقضايا الأخلاقية في التشكيل في الفصل الثالث من هذه الرسالة إن شاء الله .

ثانيًا : في ظل الأخلاق يتحد التصور عند شعراء المعلقات العشر :

لا شـــك أن الأخلاق هي الدعامة الأولى لحفظ كيان الأمم ولهذا نرى الباحثين والفـــلاسفة قـــــد اتفقت كلمتهم على ضرورتها للفرد لصالح نفسه وللمجتمع في جملته .

إن الدعـــوة إلى الأخلاق الفاضلة تعد الدعامة الأولى في بناء كل مجتمع سليم وعلينا أن نفهم ونعي جيدًا أن ما قد نراه نحن رذيلة أو فسادًا عند البعض فهو في نظره صلاح وفضيلة وذلك يرجع إلى انـــتكـــــــاس في البصيرة وضعف في التأسيس على محامد الأخلاق ألا ترى أن الله تعالى يقول علـــى لســـان فرعون :{ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ

(١) د. عبد الفتاح البر كاوي – دلالة السياق – ص : ٣٩ .

دِيـنَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الفَسَادَ } [١] فقد رأى فرعون في مخالفة موسى ودعوته إلى الله فسـادًا لأن بصـيرته انتكست فرأى رذيلته بمنظار الفضيلة . إلا أنه لا أحد ينكر البتة أن الأخلاق أساس كل مجتمع .

وقد تناولنا في الفصل الأول من هذه الدراسة مدى العلاقة بين الأخلاق والفن – وخصوصًا الشـعر – وكيف أن كلاهما له تأثير في تقويم النفس وكلاهما يحاول أن يسمو بالفعل الإنساني إلى درجة من المثالية .

والمجـتمع العـربي الجاهلي كغيره من المجتمعات وجد فيه الخير والشر كما وجد لكل جانب دعاتـه فمن نُشِّئَ على الأخلاق الفاضلة وقام تكوينه النفسي على محاربة الرذائل فإنه يظل على ما طبع عليه حتى وإن عرض له عارض جعله يحيد عن الجادة أحيانًا فإن جذوة الطبع السليم تبقى حية في داخله . ونحـن عندما قلنا سابقًا إن اللغة مسكن القيمة الوحيد والشعر أداته اللغة فإننا الآن سـوف نقـف مع المعلقات العشر باعتبارها أطول عمل أدبي وأصحه وأجوده مما وصلنا من العصر الجاهلي وقد وقع الاختيار عليها اعتقادًا مني بأنها ستنقل صورة واضحة عن النشاط الأخلاقي لدى ذلـك الإنسان الجاهلي خـاصة وأنني أرى في سـبب تسميتها بالمعلقات رأيًا آخر اهتديت إليه بعد أن وقفت وقوف المتأمل والمعلل على تلك النصوص القيمة .

إنـني أرى أن سـبب تسـمية المعلقات بهذا الاسم يرجع إلى أن الشاعر من أولئك العمالقة الأفـذاذ ينظم جزءًا من قصيدته فما يكاد يسترسل في البقية حتى يعرض له عارض معين يوقفه فلا يكـون أمامه إلا أن يعلّق بذهنه ما نظم من أبيات إلى حين يتجاوز العارض الذي قطع عليه شعوره الأول والذي بدأ بدفقة شعورية جامحة لا أراها تنتهي بمجرد حادث عارض كمباغتة صيد أو محاربة عدوٍ مفـاجئ أو مؤانسة صديق . ألا تـرى اختلاف القـدماء في عددها ؟ حتى كأنهم جعـلوا ما يسمى بالمعلقات كل قصيدة طويلة جيدة تحمل أغراضًا كثيرة مما أوقع بعضهم في حيرة في اختيار المعلقة الواحدة لشـاعر عنده أكثر من قصيدة جيدة كالأعشى مثلاً .

ثم إن تلـك الدفقـة الشـعورية لم يتم قذفها أو إفرازها كاملة بعد ومن ثم فإن شاعر المعلقة حـاول أن يُيَمِمَ لذلك الشعور النفسي مجموعة صور فنية يحسبها البعضُ صورًا متفرقة وهي ليست كـذلك ، وإنما هي صور متلاحمة تكوِّن قنواتٍ متصلةً في لحمتها وسداها يوصِلُ من خلالها الشاعر

---

(١) سـورة غـافر / ٢٦ .

أحاسيسه إلى المتلقي حتى أنه بلغ من بعض الحاذقين أن يفهم قصد الشاعر من أول بيت يستهل به قصيدته حتى عرف بعضهم ببراعة الاستهلال وهو" أن يكون مطلع الكلام دالاً على غرض المتكلم من غير تصريح بل إشارة لطيفة"[1]غير أنه من الصعب أن نقول : إن مطالع المعلقات تدل على غرض المتكلم ببيت واحد لكننا نقول : إن صورة أو موضوعًا فيها كأبيات الوقوف على الأطلال يمكن أن يكشف لنا الشيء الكثير من غرض الشاعر الرئيسي فإذا ما عقبه صورة أخرى كوصف الراحلة مثلاً أضافت تلك الصورة الشيء الكثير وسنتبين هذا من خلال الدراسة التطبيقية للمعلقات إن شاء الله .إلا أن ما نود الوقوف عنده الآن هو هذا التساؤل المهم وهو :يلاحظ أن الشعراء الجاهليين يصدرون عن تصور واحد فما سر تلك الوحدة في التصور عندهم ؟

كلنا يعلم أنه إذا تشابهت الصور دلَّ هذا التشابه على وحدة التصور وهذا ما نلحظه عند شعراء الجاهلية مما حدا ببعض الباحثين إلى القول :" في ظل الدين يتحد التصور "[2] وأخذ يطبق هذه المقولة على نصوص الشعر الجاهلي ، ونحن نتساءل أمام هذا وأمثاله فنقول : أي دين جمع عرب الجاهلية قبل الإسلام حتى جعلهم يصدرون عن تصور ديني واحد ؟! إننا نعلم جميعًا أن العرب في جاهليتهم كانوا قبائل متفرقة ومتناحرة يدينون بأديان مختلفة حيث كان منهم الوثنيون واليهود والنصارى والأحناف فمن أين يتأتى لهم وحدة دينية ليصدروا عن تصور ديني واحد ؟! إن العرب وإن كانوا في الأصل موحدين إلا أن تلك الوحدانية الفطرية فيهم قد داخلها اعتقادات متفرقة وأباطيل كاذبة ، وديانات متعددة ، بل وصل بهم الأمر أن يكون لكل قبيلة آلهة من حجر أو شجر ونحو ذلك ، وقد يصل الأمر ببعضهم إلى النفور منها والإساءة إليها أحيانًا فهذا " شاعر من بني ملكان من كنانة وكان لهم صنم يقال له سعد " [3] يقول :

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا　　　فشتتنا سعد فلا نحن من سعد

وهل سعد إلا صخرة بتنوفةٍ　　　من الأرض لا يدعو لغيٍّ ولا رشدِ

وما دام الأمر على هذه الحال بالنسبة للدين فإنه من المستبعد جدًا أن وحدة التصور عند

---

(١) عبد المتعال الصعيدي – بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة ج٤ / ص : ١٥١.

(٢) د. نصرت عبد الرحمن – الصورة الفنية في الشعر الجاهلي – ص : ١٨٠ .

(٣) د. عفت الشرقاوي – قضايا الأدب الجاهلي – ص : ١١٩ .

الجاهلـــيين تكون في ظل الدين وإنما الحق أن عرب الجاهلية اتحدت تصورات شعرائهم في ظل اتحاد أخلاقهم العربية والتي لم يعد يجمعهم – في رأيي – غيرها .

أمـــا الـــدين فلـــم " يترع الشعر العربي منذ نشأته أي مترع ديني ولعلنا ما زلنا نذكر رجز امـــــرئ القيس في هجائه لذي الخلصة حينما استشاره في الانتقام لأبيه ،وحينما جاء الإسلام تحول بعـــض الشـــعراء فأصبحوا دينيين في مترعهم يعبرون عن تعاليم الدين الجديد" (١)وقد ذهب بعض الباحـــثين إلى أن العـــامل الجغرافي المتصل بطبيعة الإقليم الذي يعيشه البدوي في الصحراء قد حدد شـــكل القصـــيدة العربية القديمة في بنـــائها وصياغتها وطرائق التصوير الشعري فقال :" ولا يخفى علـــى أحد ما للعامل الجغرافي من أثر كبير في توجيه حياة الشعوب وتحديد نظم معيشتهم بل ألوان تفكيرهـــم ... بل إننا لنذهب إلى أبعد من هذا فنقول :إن الجفاف والجدب ووعورة الحياة هي التي حددت القيم الأخلاقية عند العرب فشعور العرب بالضعف أمام قوة الطبيعة وقسوتها فرض عليهم تقـــديس القوة والبسالة وهو الذي جعلهما مبدأ من مبادئ السيادة عنـــد العربي وهو كذلك الذي ولّـــد الشـــعور بالحاجة إلى واجب مقدس هو واجب الضيافة والنجدة والمـــــروءة فهذه الأرض الصحراوية الممتدة الواسعة عندما تضيق بجفافها ووعورتها وجدبها بأحد من هؤلاء البدو فإنه لا يعدم أن يجـــد العون والجوار وحسن الضيافة عند الجميع ، وكان هذا الخلق شيئًا عامًّا ولّدته الطبيعة بل لقـــد كـــان الإخـــلال به فضيحةً وعارًا ، وبالتالي نوعًا من الجريمة الأخلاقية التي تتنافى مع الخلق العـــربي"[٢] ونحـــن لا ننكر أثر العامل الجغرافي إلا أن ذلك العامل لا يقف عند ثوابت معينة وذلك يرجع إلى طبيعـــة مناخ صحراء العرب ، نعم له تأثير كبير في تكوين الشخصية العربية إلا أنه رغم ذلـــك لا يعول عليه كثيرًا في الحكم إذ لا يمكن أن نقول إن الإنسان الجاهلي كريم لأن برد الشتاء القـــارس فرض عليه ذلك فقط بل إن هناك دافعًا غريزيًّا فيه يدفعه إلى الكرم أو الشجاعة أو غيرهما ومن هنا لا يمكن أن يـــؤدي العـــــامل الجغرافي وحده إلى وحدة التصور عند شعراء الجاهلية لأنه عامـــل مـــتغير كما أنه عامل خارجي ، ومن هنا يكون للعامل الداخلي المتمثل في الأخلاق الغريزية الفطرية الأثر الأكبر .

إن القيم والأخلاق التي فطر عليها الإنسان أو ورثها من آبائه وأجداده هي التي تدفعه إلى أي

---

(١) د. عز الدين إسماعيل – الأسس الجمالية في النقد العربي – ص: ١٥٢.

(٢) د. محمد زكي العشماوي – النابغة الذبياني مع دراسة للقصيدة العربية في الجاهلية – ص: ٢٢٠-٢٢١.

نشـــاط إنساني يعمله . فهذا نبي الله – إبراهيم عليه السلام – الذي دفعه كرمه الفطري إلى أن يـروغ إلى أهـلـه فيذبح لضيوف لا يعرفهم كما نص على ذلك القرآن الكريم حيث قال الله تعالى:{ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ } (١).

وإني لأتصـور ذلك الدافع الفطري للكرم من إبراهيم في مدى ما صوره التعبير بالفعـل ((راغ)) .

إن تلك الأخلاق الفطرية هي التي جعلت من الإنسان العربي إنسانًا متفاعلاً مع تلك العوامل الجغـرافيـة المخـتلفة فلقـد أكرم ضيفه وقراه عندما تغير نظام العامل الجغرافي وتغير من حالة الـدفء والحـر إلى حالة البرد والقر ، لقد دفعه كرم طبعه أن يكون مضيافًا ،بينما مَن كان طبعه الـبخل فلـن يؤثـر فيه لا برد ولا حر لأنه بخيل بطبعه . وقـد كان العربي الجاهلي متكيفًا أمام مـتغيرات العامل الجغرافي التي عززت لديه قيمًـا وأخلاقًا هي في الأصل موجودة وفطرية فيه كما احـتاج ذلك الإنسان إلى صنع أنظمة أخلاقية يقـف بها صامدًا أمام جميع المؤثرات الجغرافية ولكن ما يمكن أن نقوله إن قيم وأخلاقيات العربي الجاهلي كـانت بمثابة المواد الخام انصهرت في بوتقة العـوامل الجغرافية الصعبة ومن ثم نظّمتها حاجة الإنسان الجاهلي بحيث أصبحت دستورًا وحيدًا لا يصـدر العـربي الجاهلي إلا عنه حتى قالوا : فلان تأبى طباعه ، وفلان أبت شيمته وكرمه أن يفعل كذا.

من كل ما تقدم يظهر لنا أن وحدة التصور عند شعراء الجاهلية في أشعارهم ترجع إلى وحدة تصـورهم الخلقي فبالأخلاق يعيشون وعنها يصدرون ، ونكرر على الأسماع دائمًا أن الشعر ما وجد في الأصل إلا للتغني بمكارم الأخلاق والشيم،وهذا ما يدفعنا إلى القول :

(في ظـل الأخـلاق يتحد التصور عند شعراء الجاهلية) والذي يؤكد مقولتنا هذه هو " أن الحـاسـة الخُلُقـية انبعاث داخلي فطري ، وأن القانون الأخلاقي قد طبع في النفس الإنسانية منذ نشأتها " ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها" والواقع أن الإنسان العادي يستطيع أن يميِّز إلى حد ما ، وفي كل ما يقـوم به من أنواع السلوك ، بين ما هو خير وما هو شر ، وبين ما هو "محايد" لا ينفع ولا يضر ؛ وذلك مثلما يميِّز في عالم المحسوس بين " الجميل " و" القبيح " ، و" المجرد " من

(١) سـورة الذاريات /٢٤– ٢٥ .

كــل تعبير . ولا يقتصر الأمـــــر فقط على" المعرفة" بل إن مظهر الفعل الحسن أو الفعل القبيح يــثير فينا مشاعر جدًّ مختلفة ، فنمتدح بعض أنواع من السلوك ، ونستهجن بعضها الآخر . غير أن هــذا القانــون الأخلاقــي فينا ناقص وغير كافٍ ، ليس فقط لأن العادة ، والوراثة ، وأثر البيئة ، والمصــالح المباشرة تفسد نوازعنا التلقائية ، وتلقي أنــواعًا من الظلال عــلى نور بصيرتنا الفطرية ولــيس فقــط لأن شواغل الحياة في الدنيا تستوعب الجـــزء الأكبر من نشاطنا الواعي ؛ بل إن ممارسة الأخلاق في أحسن الظروف الملائمة تواجه صعوبة أخــــرى رئيسية : وهي أن الضمير إذا اقتصـــر على مصادره الفطرية وحدها ، وجد نفسه عاجزًا في غالب الأحيــان عن أن يقدم في جميع الظــروف " قاعــدة" ذات طابع عام تستأثر باعتراف الجميع . فإذا تجاوزنا حـــدًا معيَّنًا نجد أن "الــيقين" الأخلاقي قد ترك مكانه للاحتمالات والتردد والمتاهات وهذا هو السبب الذي من أجله بعــث الله في الـــناس مــن حين لآخــر نفوسًا متميزة ملهمة بالوحي الرباني ، ونستطيع على مدى الــتاريخ الإنساني أن نضطلع برسالة إيقـــاظ الضمائر ، وإزالة الغشاوة عن النور الفطري الذي أودعــه الله فينا . وهـــــذه النفوس المصطفاة بتعـــاليمها الدقيقة التي تلقنها للناس تعمل على حصــر الاخــتلافات بينهم في أضـــيق نطاق ممكن ، وخاصة بالنسبة لتقدير الحكم الأخلاقي ، وهكذا يجد النور الفطري ، ما يكمله ويقويه من وحي النور الإلهي " نور على نور "[١].

إذن الأخــلاق نشـــاط إنســاني لا يقتصر فقط على مصدره الفطري وحده فإذا كان الأمر كـــذلك فكيف نقدِّر المجالات التي تمثل في مجملها ذلك النشاط في المعلقات العشر؟

هذا ما سنحاول البحث عن الإجابة عنه في الصفحات التالية .

ثالثًا : الأخلاق نشاط إنساني له مجالاته عند شعراء المعلقات :

ما دامت الأخلاق تتدخل في كل نشاط إنساني فإن العلاقة تكون" قوية بين الشعر والأخلاق فكلاهما له تأثير على تقويم النفس وكلاهما يحاول أن يسمو بالفعل الإنساني إلى درجة من المثالية "[٢] ولــو أردنا أن نضع خطابًا خلقيًا منظمًا نتتبع من خلاله أخلاق شعراء المعلقات العشر في معلقاتهم فــلا بد أن نبحث في إطار الفعل الإنساني للعربي الجاهلي والذي سينحصر في الفعل الإنساني كما يــنقله لـــنا شعــر المعلقـــــات العشر(موضوع الدراسة) ولقد وجدنا أن الفعل الإنساني للعربي

---

(١) انظر مقدمة د . محمد عبد الله درّاز في كتابه : دستور الأخلاق في القرآن .

(٢) د.محمد بن مريسي الحارثي .الاتجاه الأخلاقي في النقد العربي حتى نهاية القرن السابع الهجري .– ص: ٨ .

الجاهلي والذي تقوى فيه العلاقة بين الشعر والأخلاق لا يخرج عن خمسة أمور تشكل في مجملها النشاط العملي للإنسان العربي الجاهلي عامة وشعراء المعلقات العشر – على وجه الخصوص – وتلك الأمور هي :

١ – البيئة الطبيعية وظواهرها : إقامة –ترحال – أطلال – ليل – سيل –قحط وجدب – نعمة وخصب.

٢ – الإنسان : قريب – صاحب – عدو – ضيف ، إضافة إلى المراحل العمرية (طفولة ، فتوة شباب ، شيخوخة) .

٣ – الحيوان : راحلة – صيد – وحش– قرى – متاع وزينة – ركوبة وتسلية .

٤ – المجتمع بما فيه من أعراف ومعتقدات وأخلاق .

٥ – الزمن : حياة – موت – فقر – غنى – انتهاب اللذات – الحروب والأيام – التجارب والخبرات.

إن مدى تفاعل الشاعر الجاهلي مع واحد من الأمور السابقة أو معها مجتمعة يولد العواطف النفسية التي يحتاج الشاعر بعد ذلك إلى التحرر منها عن طريق التعبير الفني الذي عرفنا مراحله الثلاث سابقًا " ومما لا شك فيه أن هذه العواطف تحمل في ذاتها مميزات أخلاقية "[١] ذلك لأن تلك العواطف نبعت من نفس المنبع الذي استقرت فيه الأخلاق الفطرية أو ما أضيف إليها من أخلاق مكتسبة وذلك المنبع هو النفس الإنسانية .

وما دام أن الأخلاق نشاط إنساني فإن " الأخلاق تتجه إلى تحقيق كل فعالياتنا في الحياة – عمليًا– أما الفن فهو فعالية نظرية لا عملية "[٢] إلا أن ذلك النشاط الخُلقي لم نكن لنعرف عنه شيئًا لولا وجود النص الأدبي الجاهلي والذي هو مسكن القيمة الخلقية الوحيد بعد أن غادرت مسكنها الأول (النفس) لتسكن في المسكن الخارجي الجديد المتمثل في اللغة واللغة أداة الشعر العربي ومن هنا كان الشعر العربي الجاهلي وعاءً حافظًا وسجلاً أمينًا لتلك الأخلاق ومن خلاله يمكننا التعرف على ذلك النشاط الخلقي العربي الجاهلي الذي يعد أصدق برهان للتعرف على شخصية ذلك

---

(١) د. إحسان عباس – فن الشعر – ص : ١٥٠.

(٢) د. إحسان عباس – فن الشعر – ص : ١٥١.

الإنســـان من الداخل ، ولذلك فـــإن الأمور الخمسة السالفة الذكر ستظل حاضرة معنا من الآن ونحن نبحث في تحديد الإطـــــار الخلقي في المعلقات العشر .

وتأطيرًا لدراسة الجانب الخلقي في شعر المعلقات فقد وجدت أن أمهات الأخلاق والفضـــائل النفسية التي تتمثل في أصول الأخلاق الأربعة عند كثير من العلماء والنقاد [١] تمثل الإطار الخلقي في المعلقات العشر وتلك الأصول الأربعة هي :

١ – الحكمة (العقل) ٢ – الشجاعة . ٣– العفّة . ٤ – العدل .

وقـــد اشـــتملت المعلقات العشر على أمهات الفضائل وأصولها الأربعة السابقة في هيئة مظاهر متعـــددة لكل أصل منها كما سنبين ذلك في الدراسة التطبيقية .

رابعًا : أ – أمهات الأخلاق والفضائل النفسية تمثل الإطار الخلقي في نصوص المعلقات :

لا يبالغ من يقول : " إن أبرز ما في الإنسان بل أشرف ما فيه من صفات هو قوة أخلاقه فبها يســـخر أســـباب المادة ، وبغيرها تدوسه المادة وتعود به إلى حيوانيته الكامنة فيه ، التي تهذبها قوته الخُلُقـــية " [٢] ولن يكون للإنسان إرادة وحرية اختيار إلا إذا كان مستجمعًا لصفات أخلاقية كثيرة تعود كلها إلى أصول أربعة هي أمهات الأخلاق وأصول الفضائل وهي كما ذكرنا سابقًا :

١ – الحكمة (العقل) . ٣ – العفَّة .

٢ – الشجاعة . ٤ – العدل .

والمحمود من الأخلاق هو ما يسمى بالفضيلة ، وهي وسط والطرفان رذيلتان مذمومتان .

- ونعـــــني بالحكمة (العقـــــل) : حالة للنفس بها يدرك الصواب من الخطأ في جميع الأفعال الاختيارية .
- ونعني بالشجاعة : كون قوة الغضب منقادة للعقل في إقدامها وإحجامها.

---

(١) انظر : قدامة بن جعفر – نقد الشعر – ص : ٦٦ و د. علي عبد الحليم محمود – التربية الخلقية – ص : ٣.

(٢) د. علي عبد الحليم محمود – التربية الخلقية – ص : ٤٢ .

- ونعني بالعفَّة : تأديب قوة الشهوة بتأديب العقل و[الشرع[1]].
- ونعـــني بالعـــدل : حالة للنفس وقوة بها تسوس الغضب والشهوة ، وتحملها على مقتضى الحكمة وتضبطهما في الاسترسال والانقباض على حسب مقتضاها "[2].

ومـــن اعتدال هذه الأصول الأربعة تصدر الأخلاق الجميلة ومـــن الإفراط أو التفريط فيها تصدر الأخلاق المرذولة .

وهـــذه الأصـــول الأربعة هي جماع الفضائل عند قدامة بن جعفر إذ يقـــول :"إنه لما كانت فضائل الناس من هم ناس ، لا من طريق ما هم مشتركون فيه مع سائر الحيوان ، على ما عليه أهل الألـــباب من الاتفاق في ذلك إنما هي العقل والشجاعة والعدل والعفة ...ومن أقسام العقل : ثقابة المعرفة والحياء والبيان والسياسة والكفاية ، والصدع بالحجة ، والعلم ، والحلم عن سفاهة الجهلة ، وغـــــير ذلـــك مما يجري هذا المجرى . ومن أقسام العفة : القناعة وقلة الشره ،وطهارة الإزار وغير ذلك مما يجـــــري مجراه .

ومن أقســـــام الشجاعة : الحماية والدفاع ، والأخذ بالثأر ، والنكاية في العدو ، والمهابة ، وقتل الأقران والسير في المهامه الموحشة والقفار ، وما أشبه ذلك .

ومن أقسام العدل : السماحة ، ويرادف السماحة : التغابن ، وهو من أنواعها ، والانظلام ، والتـــــبرع بالنائل ، وإجابة السائل،وقرى الأضياف وما جانس ذلك "[3].

لقد قدم لنا قدامة بن جعفر هذه الفضائل والصفات النفسية فكان له قصب السبق في الدعوة إلـــيها مـــن بـــين نقاد العرب إلا أن بعض الباحثين [4] رماه بتهافت التقسيم وتداخل الصفات التي ذكـــرها دون أن يتنبه إلى أن الفضائل النفسية تتداخل فيما بينها فما من فضيلة إلاوهي محتاجة إلى أختها فمثلاً لو أخـــــذنا فضيلة الصبر لوجدناها أساسًا لكثير من الفضائل" فما من فضيلة إلا وهي

---

(١) ورد في المعجم الوسيط جـــ١ ص : ٤٧٩، الشرع : السواء ، يقال : "الناس في هذا شرع واحد " وقد ذكرتُ في هـــذا الفصل أن العرب الجاهليين ما كان يجمعهم على السواء إلا الدستور الأخلاقي . أما الشرع بمعنى الدين فلا .

(٢) د . علي عبد الحليم محمود – السابق – ص ص : ٣٢ – ٣٣ .

(٣) قدامة بن جعفر – نقد الشعر – ص ص : ٦٥–٦٦ .

(٤) انظر كتاب د. محمد غنيمي هلال – النقد الأدبي الحديث – في الحاشية ص : ١٧٢ .

محتاجة إليه :

فالشـــجاعة هـــي الصـــبر علـــى مكاره الجهاد ، والعفاف هو الصبر على الشهوات والحِلْم هـــــو الصبر على المثيرات ، والكتمان هو الصبر على إذاعة الأسرار " [١].

وقـــد اجـــتهد بعض الباحثين في استنباط ما يصدر من اعتدال الأصول الأربعة السابقة من أخلاق جميلة وما يصدر من الإفراط والتفريط فيها من أخلاق رذيلة فقال[٢] : "

فمن اعتدال قوة العقل يحصل :

- حسن التدبير .
- وجودة الذهن وثقافة الرأي وإصابة الظن .
- والتفطن لدقائق الأعمال وخفايا آفات النفوس .
- ومن إفراطها تصدر الجربزة (اللؤم والخسة) والمكر والخداع والدهاء .
- ومن تفريطها يصدر البله والغمارة(قلة التجربة) والحمق والجنون .

* ومن اعتدال قوة الشجاعة يصدر :

- الكرم .
- الجدة والشهامة .
- وكسر النفس والاحتمال .
- والحلم والثبات وكظم الغيظ .
- والوقار والتودد وأمثالهما وهي أخلاق محمودة .
- ومن إفراط الشجاعة يحدث التهور ، فيصدر منه :
- الصلف .
- والبذخ .
- الاستشاطة .
- الكبر والعجب .

---

(١) د . عفيف طبارة – روح الدين الإسلامي – ص : ٢١٤ .

(٢) د. علي عبد الحليم محمود – التربية الخلقية – ص : ٣٣ - ٣٤ .

* ومن تفريطها يحدث :

- المهانة والذلة والخساسة .
- الجزع.
- صغر النفس .
- الانقباض عن تناول الحق والواجب .

* ومن اعتدال العفة يصدر :

- السخاء .
- والحياء .
- والصبر والمسامحة .
- والقناعة والورع .
- واللطافة والمساعدة .
- والظرف وقلة الطمع .

* ومن الإفراط في العفة يحدث :

- الحرص والتقصير .
- الرياء والملق .
- والتذلل للأغنياء .

* ومن التفريط في العفة يحدث :

- الشره .
- الوقاحة .
- التبذير .
- المجانة .
- الحسد والشماتة .

* استحقار الفقراء .

* "وأما العدل إذا فات فليس له طرفا زيادة ونقصان بل له ضد واحد ومقابل واحد وهو الجور" [١] ونحـــن أمام هذه الأقسام والفروع الكثيرة لأمهات الفضائل الأربع سوف نفسح لنصوص المعلقـــات العشـــــر بحـيث تكون هي المتحكمة في تصنيف ما نجد من تلك الفروع والمظاهر وذلـــك بحســـب مـــا يقتضـــيه النـــص إلا أننا قبل الشروع في ذلك والخروج بإطار خلقي للمعلقـــات العشـــر أمـــام تساؤل مهم – في رأيي– وهو : يلاحظ أن شعراء المعلقات العشر يـــوردون في نصـــوص معلقاتهـــم فضائل عرضيـــة أو جسمية بين حين وآخـــــر فما سبب ذلك؟ .

سوف نحاول أن نبحث فيما يلي عن جواب يكون شافيًا بإذن الله .

ب- الفضائل العرضية أو الجسمية متممات للفضائل النفسية :

لقـــد وقـــع نظري على نص مهم رأيت من خلاله مفتاح السر في ذكر الفضائل الجسمية أو العرضـــــــــية عـــند شـــعراء المعلقات – خصوصًا في المعلقات – ذلك النص أورده ابن سنان الخفاجـــي عندما نقل نقـــــد الآمدي لقدامة بن جعفر في قصره المدح على الفضائل النفسية حيث يقـــول:" إنه خالف فيه المذاهب كلها عربيها وأعجميها لأن الوجه الجميل يزيد في الهيئة ويتيمن به ويدل على الخصال المحمودة "[٢].

وهناك نص آخر لابن رشيق حيث يقول :" وأكثر ما يعوَّل على الفضائل النفسية التي ذكرها قدامـــة فـــــإن أضيف إليها فضائل عرضية أو جسمية كالجمال والأبهة وبسطة الخلق وسعة الدنيا وكثرة العشيرة كـــان جيدًا " [٣].

ومـــن كـــل ما تقدم يتبين لنا أن ذكر الصفات العرضية أو الجسمية يعد متممًا للفضائل أو الـــرذائل النفسية بل وكاشفًا قويًا يجعلنا نستحضر الفضائل أو الرذائل النفسية في أذهاننا ولا أبالغ إذا قلت : إن ذكر الصفات العرضية أو الجسمية تضع أمامنا صورة حسية لكل ما هو موسوم بتلك الصفات ، وصدق الله العظيم حين أعطانا صورة حسية واضحة عن عفاف الفقراء حيث يقـــول : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الجَاهِلُ

---

(١) د . علي عبد الحليم محمود – المرجع السابق – ص : ٣٢ .

(٢) ابن سنان الخفاجي – سر الفصاحة – ص : ٢٥٠-٢٥١ .

(٣) ابن رشيق – العمدة في محاسن الشعر وآدابه – ج٢ / ٧٨٤ .

أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾[١].

فعفة أولئك الفقراء فضيلة نفسية دلّت عليها فضيلة عرضية وهي قوله تعالى:" لا يسألون الناس إلحافا" ولو لم تكن الفضائل الجسمية متممة للفضائل النفسية ما كان الله قرن بينهما في قصة الملك طالوت حيث قال : ﴿ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ... ﴾[٢].

فالعلم فضيلة نفسية قرنت بفضيلة جسمية وهي البسطة في الجسم وبهما استحق أن يكون ملكًا . والقرآن الكريم نزل بلغة العرب وأساليبها وما دام الأمر بهذه الأهمية فإننا سنقف مع المعلقات العشر لنرى ما اشتملت عليه من فضائل أو رذائل نفسية تُممت بفضائل أو رذائل جسمية أو عرضية .

ج - أمهات الأخلاق والفضائل النفسية في المعلقات العشر (مظاهرها ومتمماتها العرضية والجسمية) دراسة تطبيقية :

قبل الشروع في البحث عن مظاهر أمهات الفضائل النفسية في المعلقات العشر وما يتممها من متممات عرضية أو جسمية أود أن أؤكد بأن الوحدة الشعورية التي تجعل من الموضوع كلاً واحدًا كما سبق لنا ذكره لا تتعارض مع نصوص المعلقات خاصة إذا عرفنا بأن نصوص المعلقات تربط بين المواقف التي تبدو مختلفة وكل منها مستقل عن الآخر ظاهرةٌ معينة واحدة تجعل من تلك الموضوعات المختلفة كلاً لا يتجزأ كظاهرة الحزن في معلقة امرئ القيس وظاهرة الخوف في معلقة النابغة وظاهرة المسالمة الفطرية وحب السلام في معلقة زهير وكل معلقة لها ظاهرة مسيطرة من أول نص المعلقة إلى آخره كما سنتبين ذلك .

إن ظاهرة الحزن مثلاً في معلقة امرئ القيس كانت " الطابع الأصيل الذي يشد معاني المعلقة بعضها إلى بعض " [٣] .

---

(١) البقرة آية / ٢٧٣ .

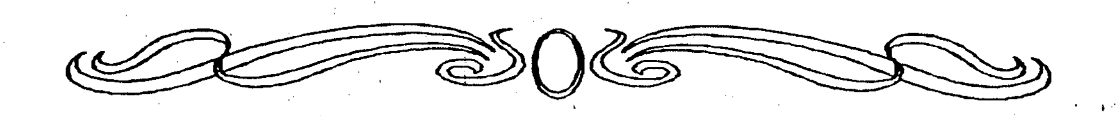
(٢) البقرة آية / ٢٤٧.

(٣) بكري الشيخ أمين – المعلقات السبع – ص : ٦٣ .

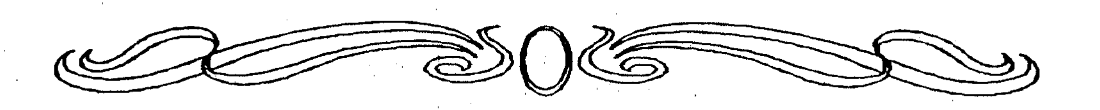
كما أننا نعرف أن القصيدة العربية القديمة كانت " متأثرة في نظمها بواقع الحياة العربية فهي تتـــألف من عدة أغراض يربط بينها خيط نفسي دقيق يستعيره الشاعر من تجربته في مجرى حياته "[(١)] وإن ذلـــــك الخيط النفسي تمثله الظاهرة النفسية المسيطرة على النص فتلبسه طابعًا أصيلاً يشد معاني المعلقة بعضها إلى بعض كما تقدم ولو استعدنا المراحل التي يمر خلالها الإنتاج الفني لوجدنا أن ذلك الخيـــــــط النفسي أو الظاهرة المسيطرة لا تعدم أن تتلون بأخلاق القائل لأن المنبع النفسي الـــذي تصدر منه الظواهـــــر النفسية والأخلاق النفسية واحد . بل قد يتمثل ذلك الخيط النفسي في الخلق ذاته .

ونحـــن هـــنا ســـوف نتخذ من الأصول الأربعة للأخلاق والتي تمثل أمهات الفضائل النفسية (والفضـــــيلة كما عرفنا وسط محمود طرفاه مذمومان ولكل منها متمم عرضي أو جسمي) إطاراً كاشفًا عن أخلاق الشعراء العشرة من خلال نصوص معلقاتهم على أن نضع في حسباننا أن تلك المـــتممات ليست مقصورة على تتميم الفضائل فقط وإنما للفضيلة متمم لبنائها وللرذيلة مثل ذلك ولكن شتان بين جسمين :جســـم نبت من حلال ، وجسم نبت من سحت .

(١) د. رشدي علي حسن –شعراء الطبيعة في العصر العباسي الثاني– ص : ١٧ .



الإطار الخلقي لمعلقة امرئ القيس



معلقة أمرئ القيس*

إضاءة :

معلقـــة امرئ القيس قصيدة لامية على البحر الطويل يصل عدد أبياهّا عند بعض أهـــــل العلـــم إلى اثـــنين وتسعين بيتًا ، ولن أقسم المعلقة إلى أقسام متفاوتة الطول مختلفة الموضوعات كما درج عـــلـــيه بعض الباحثين (١) ، وذلك إيمانًا مني بأن أبيات المعلقة كلٌّ لا يتجزأ تجمعها ظاهرة واحدة هي ظاهرة الحـــزن المسيطرة على النص من أوله إلى آخره ، وهذه الظاهرة (خلق كبير في المعلقـــة)كشـــفت لنا عن كثير مـــن أخلاق الشاعر تعتبر اعتـــرافًا صريحًا في ساعـــة العسرة وفي رأيي أن الفـــرح الشديد أو الحزن الشديد يكشف بصراحة عن الطبع الحقيقي للإنسان .

وســـنجعل الأصـــول الأربعة للفضائل (الإطار الخلقي) بمثابة سؤال استنطاقي كبير للشاعر الذي ينوب عنه هنا نص المعلقة فكأنه حاضر بيننا وسألناه هذا السؤال :

العقل والشجاعة والعفة والعدل أصول أربعة لفضائل الأخلاق وهي تمثل الوسط المحمـــود ذا الطرفـــين الخُلُقيين المرذولين فأين مقام معلقة امرئ القيس من ذلك ؟

لقـــد ســـلطنا أضواء أصول الأخلاق الأربعة على نص معلقة امرئ القيس لتحديد الإطـــار الخلقي في المعلقة إلا أن الوسط المحمود الذي يمثل أمهات الفضائل الأربع :

[العقـــل – الشـــجاعة – العفة – العدل] كانت مظاهره قليلة جدًّا بينما كانت مظـــاهر الطـــرفين المـــرذولين لكل فضيلة من الفضائل الأربع كثيرة جدا ، وهذا ليس بمستغرب من إنسان كامـــرئ القيس عاش جُلَّ حياته لاهيًا غَزِلاً وغارقًا في الملذّات .

---

* الشيخ /محمد علي طه الدرة – فتح الكبير المتعال في إعراب المعلقات العشر الطوال – ج١/ ٩–١٢ .

(١) د. غازي طليمات و عرفان الأشقر – الأدب الجاهلي– ص : ٢٥٤.

(أ) العقل (الحكمة) :

مر بنا أن العقل :" حالة للنفس بها يدرك الصواب من الخطأ في جميع الأفعال الاختيارية "

وقد اتخذ هذا الخلق في معلقة امرئ القيس الإطار الآتي :

أولاً : مظاهره النفسية المحمودة وما يتممها من مظاهر عرضية :

وتتمثل في الآتي :

١ - ثقابة المعرفة :

وقد عدّه قدامة بن جعفر من أقسام العقل كما مرّ بنا ، والثقابة تعني الحذق تقول : حذق فلان الشيء حذقًا " أوغل في ممارسته حتى مهر فيه " [١] ونتيجة لهذا الإيغال تأصل الحذق حتى أصبح منه خلقًا ومن صور هذه الظاهرة في معلقة امرئ القيس :

١- **حب التبكير في الخروج إلى الصيد** : وهذه الصورة تتضمن صورًا خلقية عدّها ابن طباطبا من الأخلاق المحمودة و منها " علو الهمة و الجد والتشمير والعزم والصبر والتجارب" [٢] وكل هذه الصور يشملها قول امرئ القيس :

وقد أغتدي والطير في وكناتها بمنجردٍ قيد الأوابد هيكلِ

فالبيت السابق يتضمن :

أ - الدافع الذاتي من الشاعر في الخروج إلى الصيد وهذا يتطلب منه التحلي بالصبر وعلو الهمة والجد والتشمير والعزم ، واختيار الوقت المناسب للصيد .كيف لا والحال يتطلب منه التبكير و مسابقة الطير في الحصول على الرزق.(وقد أغتدي والطير في وكناتها)

ب - التجربة العميقة بعملية الصيد دعته إلى استخدام الوسيلة المناسبة المتمثلة في الفرس الضخم النشيط (بمنجرد قيد الأوابد هيكل)

والمتممات الجسمية أو العرضية للمظهر الخلقي السابق تتمثل في قول امرئ القيس في الأبيات التي تلي البيت السابق مباشرة :

---

(١) المعجم الوسيط – ج١ /١٦٣ .

(٢) ابن طباطبا – عيار الشعر – ص : ١٨.

مكـــــر مفـــر مقبـل مدبـر معًا كجلمـــود صخر حطه السيل من عل
كمـيت يـــزل اللّبدُ عـــن حـــال متنه كمــــــا زلــــت الصفـــواءُ بالمتزلِ
على الذبـــل جيـــاش كأن اهتزامـــه إذا جـــاش فيـــه حميه غلي مرجلِ
مســح إذ ما السابـــحات على الونى أثـــرن الغبــــار بالكديد المركـــل
يُـــزل الغـــلام الخِفَّ عـــن صهـــواته ويلـــوي بأثـــواب العنيـــف المثقّـــل
درير كخـــذروف الوليــــد أمـــرّه تتـــابع كفّيـــه بخيــــط موصل

وقـــــوله :

كـــأن دمـــاء الهاديـــات بنحـــره عصـــارة حـــناء بشـــيب مـــرجل
فعـــن لـــنا ســـرب كـــأن نعاجـــه عـــذارى دوارٍ في مـــلاء مـــذيلِ
فأدبـــرن كالجـــزع المفصـــل بيـــنه بجـــيد معـــم في العشـــيرة مخـــولِ
فألحقـــنا بالهاديـــات ، ودونـــه جواحـــرها في صـــرة لم تـــزيلِ
فعـــادى عـــداء بـــين ثـــور ونعجـــة دراكـــا ، ولم ينضـــح بمـــاء فيغسلِ
فظل طهـــــاة اللحم ما بين منضج صفيـــــف شواء أو قدير معجّلِ

٢ ـ الخبرة الكافية بالفرس الصالح المستجيب لمطالب فارسه :

إن هـــذا الفـــرس معتاد على الحرب صالح لجميع أحوالها من طلب وهرب وكر وفر وهذه الصـــفات مجتمعة في قوته وقدرته لا في فعله في حالة واحدة فهو في سرعة مره وصلابة خلقه كحجر عظـــيم ألقاه السيل من مكان عالٍ ، وهو أشهب اللون ولاكتناز لحمه وانملاس ظهره يزل لبده عن ظهـــره كما أن الحجـــر الصلد الأملس يزل الإنسان والمطر عنه ، وتزيد حرارة نشاطه على ذبول خلقـــه وضمور بطنه كلما حركته عـــدا عدوًا يتكسر صهيله في صدره كغليان المرجل ، ويشتد في جريه إذا تعبت الخيل وكلت عن الركض .

وهذا الفرس إذا ركبه غلام خفيف غير عالم بالفروسية وأحوالها رمى به وأسقطه على الأرض وإذا ركبه الثقيل الشديد الماهر في الفروسية رمى بثيابه لشدة عدوه فهو كثير الجري سريعه كسرعة الخذروف الذي أُحكم فتل خيطه الموصل الذي يلعب به الصبيان وهذا الفرس سبّاق لا يفوته صيد ودليل ذلك أن دمـــاء أوائل الصيد والوحوش على نحره كعصارة الحناء على شعر أشيب ،فكانت

نتـيجة التـبكير أن عـرض قطـيع من بقر الوحش أبيض كبياض العذارى المصونات في الخدور وتبختـرهن في مشـيهن ،فما كاد القطيـــع ينصرف متفرقًا حتى لحق هذا الفرس بأوائل الوحش وسـوابقه وترك المقصرات منه في الركض وراءه ثقـة بشدة جريه الذي جمع بين الثور والبقرة في شـوط واحد على ما كان بينهما من بعد ونتيجة لاجتماع هذه الصفات والصور الخلقية تحت هذا الخلـق الحمـيد كانت النتيجة محمودة حيث التمكن من نيـــل الغاية المتمثلة في الحصول على الصيد والأكل مما لذ منه وطاب.

وأود أن أشـير هنا إلى أمر مهم جدًّا وهو أن الصفات الجسدية قد تكون متممات لأكثر من خلق نفـسي كما سيتضح لنا في بقية مظاهر أصول الأخلاق الأربعة .

ولا يخفـى عليـنا أن ما ألبسه الشاعر من صفات خلقية طيبة على فرسه هي بالتالي صفات يسعى هـو إلى إحرازها و التخلق بها .

٢ - الحيـاء:

وهـو سـلوك لم يكن صادرًا من الشاعر ولم يكن يتصف به لكنه يؤمن بفضيلته وقد عده قدامـة بـن جعـفر من أقسام العقل وهو في معلقة امرئ القيس صادر من المرأة ، والحياء في المرأة خلـق محبب إلى الرجال وقد أحبه امرؤ القيس في معشوقته التي غلبها الحياء في بعض المواقف لأنه طبع فيها رغم غوايته لها ومـوافقتها على الخروج معه .

يقول :

تصـــد وتبدي عن أسيل وتتقي   بناظرة من وحش وجرة مطفلِ

أي " إن المحـبوبة تعـرض عني استحياءً فتظهر في إعراضها خدًّا طويلاً ناعمًا ، وتلقاني بعد الإعراض بعيون مثل عيون ظباء وجرة اللواتي لهن أطفال ..."[١].

وتشبيهه لها بالظبية متمم عرضي يصور لنا مدى وقوع تلك المرأة بين متناقضين حياء عذري واستمـالة عارمة من العاشق . إلا أن ذلك الحياء لم تمت جذوته وإن غلبته شهوة النفس فلا زالت علاماته ترتسـم على خدها وإن قل .

---

(١) محمد علي طه الدرة –فتح الكبير المتعال إعراب المعلقات العشر الطوال – ص : ٩٦.

٣- البيان :

وقد عده قدامة بن جعفر من أقسام العقل وإنما عُدَّ من العقل والحكمة لما لصاحبه من قدرة على المجادلة وإيراد الحجة والدليل والبرهان وعُدَّ من العقل أيضًا لقدرة الشاعر على صوغ "الكلام الذي يكشف عن حقيقة الحال أو يحمل في طياته بلاغًا "[(١)] وقد كان البيان عند الشاعر العربي الجاهلي طبعًا فيه يترجم سلوكه بل قد اتخذ بعضهم من قدرته على البيان مصدرًا للتكسب بالشعر فأصبح هذا منه خلقًا نفعيًا ذميمًا كما هو حال النابغة والأعشى ولبيد . وقد كان لدى امرئ القيس قدرة على البيان بمعنييه السابقين إلا أنه وظف البيان بمعناه الأول توظيفًا خلقيًا مذمومًا وذلك لأنه وظفه في جانب الشر من لهو ومجون وإسراف في الملذات وخاصة مع النساء .

ولنستمع إليه وهو يجادل إحدى معشوقاته حيث يقول :

تقول ، وقد مال الغبيط بنا معا ... عقرت بعيري ، يا امرأ القيس ، فانزل
فقلت لها : سيري وأرخي زمامه ... ولا تبعديني من جناك المعلل
دعي البكر لا ترثي له من ردافنا ... وهاتي أذيقينا جناة القرنفل
بثغر كمثل الأقحوان منور ... نقي الثنايا أشنب غير أثعل
فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع ... فألهيتها عن ذي تمائم محول
إذا ما بكى من خلفها انصرفت له ... بشق ، وتحتي شقها لم يحول

معنى الأبيات على لسانه : إن عنيزة كانت تقول لي بعد دخولي الخدر معها وفي حالة إمالة الهودج لأنني أنثني عليها وأقبلها فنصير في شق واحد : قد أدبرت ظهر بعيري فأنزل عنه ودعني وحدي فقلت لها: سيري وأرخي زمامه على غاربه ولا تبعديني مما أنال من عناقك وشمك وتقبيلك الذي أكرره ولا أملُّ منه ، أو الذي يلهيني عما أنا به من الهموم ، واتركي الجمل ولا تشفقي عليه من ركوبنا وهاتي نولينا رائحتك الطيبة التي تشبه رائحة القرنفل وهذه الرائحة موجودة بثغر مشرق مضيء مثل الأقحوان ، فرب امرأة مثلك يا عنيزة حبلى أتيتها ليلاً ، ورب مرضع قد طرقتها ليلاً فشغلتها عن ولدها الصغير صاحب التعاويذ والتمائم المعلقة عليه وقاية من العين ومع كونهما أزهد الناس في الرجال تعلقتا بي ومالتا إليَّ لحسني وجمالي فكيف تتخلصين أنتِ مني ؟!

أرأيت كيف أقام امرؤ القيس الحجة والغلبة بإقامة الأدلة والبراهين الحسية على المرأة إلى أن وافقته.

---

(١) قدامة بن جعفر – نقد الشعر – ص : ٦٨.

ولعلنا نخرج بصور عملية تعكس قدرة امرئ القيس على القيام بالحجة منها :

١- عـــندما احتجت عليه بعقر البعير طلب منها أن ترخي زمامه على غاربه ولا تبالي به ولعل عدم مـــبالاته بالـــبعير قصد منه ليغريها بأنه ابن ملك يستطيع أن يعوضها عن جملها وهذه لمحة يدل عليها قوله : (دعـــــي ، لا ترثي له) فإن حدث له شيء فَبَدَلُهُ موجود .

٢- استطاع استمالتها بذكر محاسنها المتمثلة في رائحة الفم الطيبة وبرودته وإشـــراقة الثغر وانتظام الأسنان البيضاء ، ولا يخفى أن المرأة كثيرًا ما يستميلها الرجال إليهم بذكر محاسنها .

٣- الرفع من شأنه هو حيث إن جماله وحسنه أغرى الحبلى والمرضع رغم زهدهما في الرجـــال على ذلك الحال ، ولا يخفى أن المرأة عندما يُذكر لها ما يغري صويحباتها النساء في الرجال فإن طبعها الأنـــثـــــوي يدعوها إلى حب الاستحواذ عليه . وانظر كيف يتمم خلقه النفسي المتمثل في قوة حجته وبيانه بمتمـــــم عرضي أو جسمي حين يقول في وصف تعلق المرضع به :

إذا ما بكى من خلفها انصرفت له بشـــــق ، وتحتي شقها لم يحوّلِ

حـــيث وصف غاية ميل المرضع إليه وكلفها به حيث لم يشغلها عن مرامه ما يشغل الأمهات عن كل شيء وهو بهذا الوصف الحسي يكون قد بلغ (في نظره) الذروة في استمالة قلب معشوقته إليه .

أما البيان بمعناه الثاني (الكلام الذي يكشف عن حقيقة الحال) فلا شك أن بعض العرب قد آتـــاه الله وغـــرس فيه الحكمة (فضيلة نفسية) وفصل الخطاب (متمم عرضي لتلك الفضـــــيلة ، وأعني هنا بالحكمة :الإصابة في الأمور ، وأعني بفصل الخطاب : البيان الشافي في كل قصد . إلا أن امـــــرأ القيس أخطأ الأولى وحذق الثانية .

٤ - العـــلم:

وإنما عدَّ قدامة العلم من العقل لأن النفس لن تدرك الصواب من الخطأ في جميع الأفعال ما لم يســـبق ذلـــك علم وخبرة بحقيقة الأشياء وكنهها ، وقد ورد في معلقة امرئ القيس إضافة على ما أوردناه في ثقابة المعرفة تجربة عميقة بطبيعة كثير من الأشياء . ومن صور ذلك :

١- القدرة على وصف الأماكن وصفًا دقيقًا يصل إلى درجة الرسوم والخـــرائط التوضيحية أو الإرشادية التي نعايشها اليوم حيث يقول :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل   بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها   لما نسجتها من جنوب وشمألِ

يقول بعض الباحثين[١] : " وإنه وإن كانت الأسماء لا تُعلل إلا أن اختيار الشاعر للأسماء – وقد كان القوم يؤمنون بالتفاؤل والتطيّر – لا بد وأن كان فنيًا . والدلالة الهامشية لهذين الاسمين (يعني : الدخول وحومل) تعزز الاستنتاج أن المكانين قد كانا قبلة المسافرين على خط القوافل من اليمين إلى اليسار . فالدخول تعني : أن المسافر قد أصبح داخل المكان ، وهو ما قد يسمى بلغة الحضارة المعاصرة " حدود بلدية كذا ترحب بكم " والحومل من كل شيء أوله . وهو يعزز ما يريد الشاعر رسمه في هذا المناخ العام ... والذي يؤكد أن اتجاه السير هو من اليمين إلى اليسار قول الشاعر" :

على قطن بالشيم أيمنُ صوبه   وأيسره على الستار فيذبلِ

ونحن نقول : إن ذلك التحديد الوصفي الرهيب يكشف لنا عن ذلك الخلق النفسي عند الشاعر حيث إن علمه بهذه الأماكن جعله يصفها كما يصف الرحالة أو العالم الجغرافي مكانًا معينًا .

٢ ـ **التفطن لدقائق الأعمال :** وهذا مظهر أيضًا من مظاهر فضيلة العقل كما في قوله يصف فرسه :

دريرٍ كخذروف الوليد أمره   تتابع كفيه بخيط موصل

كأن على المتنين منه إذا انتحى   مداك عروس أو صلاية حنظلِ

فالشاعر هنا قد فطن إلى ما قد لا يفطن إليه غيره من دقائق الأعمال كملاحظة حركة الحصاة المثقوبة التي يلعب بها الصبيان حيث يجعلون بها خيطًا ثم يمرونها بين أيديهم فيُسمع لها صوت .كذلك فطنته إلى ملاسة مداك طيب العروس وبريق الحجر الذي يكسر عليه الحنظل .

٣ ـ **العلم بخصائص الحيوان وطبائعه :** ولا غرو في ذلك فالتجربة أساس العلم والشاعر كثير الارتحال والتنقل من مكان إلى آخر وطبعي أن يقع نظره على حيوانات مختلفة الطبائع والصفات وقد التقط امرؤ القيس صفات أعجبته في حيوانات متفرقة فألبسها فرسه فقال :

له أيطلا ظبي وساقا نعامة   وإرخاء سرحانٍ وتقريب تتفلِ

---

(١) د.محمد علي أبو حمدة – في التذوق الجمالي لمعلقة "امرئ القيس"– ص :٢٣ .

فشبه فرسه بالظبي في ضمور خاصرتيه وشبه ساقيه بساقي النعامة وسيره بسير الذئب وعدوه بعدو ولد الثعلب وما جمع هذه التشبيهات إلا علم الشاعر بسلوكيات وطبائع الحيوانات المذكورة .

ولعلك تلاحظ في هذا المظهر الخلقي للعقل أن الصفات العرضية أو الجسمية هي التي كشفت لنا هذا الخُلُق باختلاف صوره وذلك يرجع إلى أن العلم بالأشياء يعني مدى التفاعل معها حسيًّا. إلا أن هذه الصفات العرضية التي ذكرها امرؤ القيس كشفت لنا عن كثير من الأخلاق النفسية التي تعتبر من أقسام العقل إلا أن تلك الأخلاق كثيرًا ما كانت تمثل جانب التفريط في فضيلة العقل والحكمة ليتولد عند الشاعر نتيجة ذلك الإفراط والتفريط مظاهر أخلاقية مذمومة .

ثانيًا : مظاهره النفسية المرذولة وما يتممها من مظاهر عرضية :

١- **المكر والخداع** : ويتمثل هذا الخلق المرذول في كونه يعقر مطيته للعذارى ليس كرمًا منه كما هو واضح في الأبيات وإنما ليحصل له التبرير للركوب مع عنيزة على ظهر جمل واحد ومن ثم تكون قد نجحت خطته الماكرة ليحصل على مآربه الماجنة منها .

يقول :

ويوم عقرت للعذارى مطيتي   فيا عجبًا من كورها المتحملِ

لقد كان عقره مطيته للعذارى مكرًا وخداعًا نجح فيه إلى درجة أن الأبكار الشابات حملن رحل ناقته وأداته بعد ذبحها واقتسمن متاعه ومن ثم ركب هو مع عنيزة على بعير واحد :

ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة   فقالت : لك الويلات ، إنك مرجلي

٢ - **اللؤم والخسة** :حيث دخوله متطفلاً على من كرهت دخوله عليها ويدل على ذلك قول عنيزة له : " لك الويلات" في البيت السابق وهي " قولة لا تقال إلا لخسيس "[1].

إن اللؤم والخسة والدناءة تمثل الطرفين المرذولين لفضيلة العقل وقد دفع الشاعر إلى ذلك ميله إلى الإغراق في الملذات المتمثل في الصور الآتية :

١ – عشق النساء والتلذذ بهن دون الحفاظ على الحب المقيم : وتتضح هذه الصورة في مثل قوله :

---

(١) ابن شرف القيرواني – مسائل الانتقاد – ص : ١١٤.

كـــدأبك مـــن أم الحويـــرث قـــبلها وجارتهـــــا أم الـــــرباب بمأســـــل

إذا قامــــتا تضـــوع المســـك مـــنهما نســـيم الصـــبا جـــاءت بـــريا القـــرنفل

ففاضـــت دمـــوع العـــين مـــني صبابة علـــى النحـــر حـــتى بـــل دمعـــي محملي

ألا رب يـــوم لـــك مـــنهن صـــالح ولا ســـيما يـــوم بـــدارة جلجـــل

٢ – المداومـــة على الجهل والضلالة والغواية ورفض نصيحة الناصحين : وتتضح هذه الصورة في قـــولـــه:

فجـــئت ، وقـــد نضـــت لـــنوم ثيابها لـــدى الســـتر إلا لبســـة المتفضـــل

فقالـــت : يمـــين الله ، مالـــك حـــيلة ومـــا إن أرى عـــنك الغـــواية تنجلـــي

إنه اعترافه بمزاولة أعمال الجهل والضلالة وإرادة المداومة على التلذذ والمجون ،ونفي المرأة يقـــرر عـــدم انجـــلاء الغواية عنه .ثم يتمم هذه الرذيلة النفسية بتممات عرضية ظنًا منه أنها ستبرر إفراطه وتفريطه في فضيلة العقل حيث يقول :

خـــرجت بهـــا أمشـــي تجـــر وراءنـــا علـــى أثـــرينا ذيـــل مـــرط مـــرحل

فلمـــــــا أجزنا ساحة الحي وانتحى بـــنا بطـــن خـــبت ذي قفـــاف عقـــنقل

هصـــرت بفـــودي رأســـها فـــتمايلت علـــيّ هضـــيم الكشـــح ريـــا المخلخل

إذا التفـــتت نحـــوي تضـــوع ريحهـــا نســـيم الصـــبا جـــاءت بـــريا القـــرنفل

إذا قلـــت : هـــاتي نولـــيني تمايلـــت علـــى هضـــيم الكشـــح ريـــا المخلخل

مهفهفـــة بيضـــاء غـــير مفاضـــة تـــرائبها مصـــقولة كالســـجنجل

كبكـــر المقانـــاة البـــياض بصـــفرة غـــذاها نمـــير المـــاء غـــير محلـــل

تصـــد ، وتـــبدي عـــن أسـيل وتتقي بناظـــرة مـــن وحـــش وجـــرة مطفـــل

وجـــيد كجـــيد الـــريم لـــيس بفاحش إذا هـــي نصـــته ولا بمعطـــل

وفـــرع يـــزين المـــتن أســـود فـــاحم أثـــيث كقـــنو الـــنخلة المتعـــثكل

غدائـــره مستشـــزرات إلى العـــلا تضـــل العقـــاص في مـــثنى ومرســـل

وكشح لطيف كالجديل مخصر ... وساق كأنبوب السقي المذلل

ويضحى فتيت المسك فوق فراشها ... نؤوم الضحى ، لم تنتطق عن تفضل

وتعطو برخص غير شثن كأنه ... أساريع ظبي أو مساويك إسحل

تضيء الظلام بالعشاء كأنها ... منارة ممسى راهب متبتل

إنه بذكر هذه الصفات الجسدية المغرية يحاول أن يبرر لنفسه مثل ما ذكرنا سابقًا مداومته على خلقه السيئ ظنًا منه أنه سيعذر عندما يرد نصيحة الناصحين له بالإقلاع عما هو فيه فهذه المرأة يرنو إليها العقل الرزين فهو (في رأيه) محق في مداومته تلك .

يقول :

إلى مثلها يرنو الحليم صبابة ... إذا ما اسبكرت بين درع ومجول

تسلت عمايات الرجال عن الصبا ... وليس فؤادي عن هواك بمنسل

ألا رب خصم فيك ألوي رددته ... نصيح على تعذاله غير مؤتلي

٣ – الكِبر : وعندما يغرق الإنسان في ملذاته فيحرز منها ما أراد فإنه ينتابه سحابة من الكبر لا يرى معه أحد على ظهر البسيطة وتصل به هذه الحالة إلى الشعور بأنه محسود على نفسه ومركوبه وجاهه وقد انتابت هذه الحالة امرأ القيس إلى درجة تجعله يقول في فرسه :

ورحنا يكاد الطرف يقصر دونه ... متى ما ترق العين فيه تسهلِ

إن فرسًا تكاد العيون تعجز عن ضبط حسنه واجتلاء محاسنه حتى لا تصيبه بالعين ملك لامرئ القيس الذي قد تطوله العين أيضًا .

(ب) الشجاعة :

كان للشجاعة عند العرب منزلة ليس فوقها منزلة وهي فضيلة كانوا يتمتعون بها ويفاخرون بها بعضهم بعضا .ويرجع تخلق العرب بهذه الفضيلة إلى ما فطروا عليه وورثوه من إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ولا أدل على صحة هذا القول من قوله – ﷺ – : " ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان راميًا " [١].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه – في باب الجهاد والسير – المجلد الثاني – طبعة : دار الفكر (١٤٠١هـ) – ص: ٢٢٧ .

والعــرب أهــل عزة وكرامة وكانوا لا ينكرون شيئًا إنكارهم للهوان والضيم ، وقد عزّز الجــانــب الفطــري للشــجاعة والفروسية عند العرب عامل خارجي هو طبيعة الصحراء العربية الصعبة وما كان يدور بين القبائل العربية من تناحر وحروب لا تفتر .

والحــديث عــن الشــجاعة ومظاهــرها عند العرب حديث جد شيِّق فلنمضِ لنتعرف إلى مظـــاهر الشجاعة العربية من خلال نصوص المعلقات العشر والتي أولها معلقة امرئ القيس .

١ - الوفـــاء:

وإنمــا أدرجنا خلق الوفاء وجعلناه مظهرًا من مظاهر الشجاعة عند امرئ القيس لأنه " يكون بإتمــام مــا وعــد بــه المــرء ، فإن وعد بشيء وفى به ولا ينبغي أن يتراجع أبدًا مهما أحاطت به الظروف"[١] ونحن نعلم أن ظاهرة الحزن هي المسيطرة على نفس امرئ القيس في هذه المعلقة " فإذا كان الرجل يبالغ في غزله ويمعــن في فحشه ويسرف في مجاهرته فإنما يمارس نوعًا من التعويض عما يموج في أعماقه من ضعف أو عجـــز لا تريده النساء فيه ، فإذا ما جاء وصف الليل أو الفرس أو المطــر رأينا جانبًا من مأساته مع الزمن ، ورغبة في الخلاص مما حاق به ، وألّم بقبيلته فهو متأمل مع الليل ، وراغب في الانتصار مع الفرس ومحب للطبيعة والقوة والحياة مع البرق والسيل "[٢].

وامــرؤ القيس رغم ما كان ينتابه من ظاهرة الحزن تلك إلا أنه مثل غيره من شعراء الجاهلية "يعــتد بالبطولة والوفاء وحماية الجار والشهامة والنجدة ، والاعتداد بالنفس ... يرى في خضوعه لحبيبته وفي المخاطرة في سبيلها وحمايتها مظهرًا من مظاهر الرجولة ، لا ضعف فيه ولا خَوَر "[٣] بل إننا نراه يقف على الأطلال ويعوج عليها وفاءً لأحبابه واستلهامًا لأيام الشباب والفروسية .

ومن صور الوفاء في معلقة امرئ القيس :

١ - الحنين والبكاء عند تذكر الأحبة والديار :

وقــد يســأل سائل بقوله : وأين هذا من الشجاعة ؟! فيجاب عليه بالقول : ألا تعلم أن " البــأس والجلد والمثـــابرة والحمية متجاورة مع الدماثة والرِّقة والخضوع والذلة لسلطان العاطفة والجانـــبـــان لا يتناقضـــان في نفس الفارس ولكن يتكاملان وهذا هو الأعم الأغلب في روح

---

(١) د. عبد الخالق بن مساعد الزهراني – العقيق – مج١٣ ، ع ٢٥ ، ٢٦ ، جمادى الأولى ١٤٢٠هـ ص : ٤٦ .

(٢) د. محمد السيد الديب – دراسات في الأدب الجاهلي – ص : ١٤٣.

(٣) د. محمد غنيمي هلال – النقد الأدبي الحديث – ص : ١٨٣ .

الفروسة في الآداب العالمية " [١].

ولهـذا كـان مـن المألـوف أن يقـف الشـاعر الفارس على ديار محبوبته وفاءً للأحباب واستحضـارًا لطيف الأصحاب . وفي ذلك يقول امرؤ القيس :

قفـا نـبك مـن ذكـرى حبيب ومنزل ... بسـقط اللـوى بـين الدخول فحومل

فتوضـح ، فالمقـراة لم يعـف رسمهـا ... لمـا نسـجتها مـن جـنوب وشمـأل

رخـاء تسـح الـريح في جنـباتها ... كسـاها الصـبا سـحق المـلاء المذيل

تـرى بعـر الآرام في عرصـاتها ... وقـيعانها كأنـه حـب فلفـل

كـأني غـداة الـبين يـوم تحملـوا ... لـدى سمـرات الحـي ناقـف حنظل

وقـوفاً بهـا صـحبي علـى مطـيهم ... يقولـون : لا تهلـك أسـى وتجمـل

فـدع عـنك شـيئاً قـد مضى لسبيله ... ولكـن علـى مـا غالـك اليوم أقبل

وقفـت بهـا حـتى إذا مـا ترددت ... عمايـة محـزون بشـوق مـوكل

وإن شـفائي عـبرة مهـراقة ... فهـل عـند رسـم دارس من معول؟

" وعلـى الرغم من أن الطابع العام كان طلب اللهو والمتاع ، قد كان العربي مع ذلك يحفل بالعاطفـة لأنه يشارك فيها حبيبته ولأنها مظهر لخلق الفروسة فيه وجانب جوهري من جوانب نفسه ولهـذا كان من المألوف أن يبكي الفارس من الوجد :

وإن شفـائي عـبرة مهـراقـة ... فهل عند رسم دارس من معوّلِ ؟

وقـد حفـل النقاد بإيراد مظاهر الوجد والصبابة وبقايا ذكراها في النفس ، والوقوف على آثارها في رسوم ديار الحبيب وفطنوا لدقائق المعاني في الوقوف على الديار ، والتسليم عليها ، وذكر تعفية الدهور والأزمان والرياح لها وسؤالها واستعجامها ثم ما يخلف الظاعنين في الديار من الوحش والدعاء لها بالسقـيا وذكر الأنفاس والحرق والزفرات وزوال الصبر والتجلد "[٢].

٢ - إظهار الضعف والخور وعدم المحافظة على الحب المقيم :

نحـن نقـول : إن الاعـتداد بالعاطفة عند الشاعر الجاهلي بالإضافة إلى نشدانه المتعة واللهو

---

(١) السابق – ص : ١٨٤ .

(٢) د . محمد غنيمي هلال – المرجع السابق – ص : ١٨٦.

والــوفاء للأحباب والوقوف على الديار والشعور بالانتماء والبكاء على الأطلال أمر لا غرابة فيه وإنمــا الغرابة في امرئ القيس نفسه،فالرجل لا يربطه (كما يبدو في نص المعلقة) حب مقيم لأهل الطلــل وإنمــا يربطه بهم استجابة نزوة النفس وعاطفة الغريزة لا غريزة العاطفة إلى درجــة تجعله يجزع من رحيل الأحبة " وهذا ما أحدث في نفس الشاعر التبدل ، وولد الخيبة المريرة لأنه لم يتمكن مــن تحقيق الغاية والقصد ، فانكفأ مذهولاً أمام تلك الصدمة الشعورية القوية "[1] ليس إلا لمجــرد أنــه لم يتمكن من تحقيق رغبته الغريزية فانتابته حالة شديدة من الضعف والخور مما يخرج بهذا المظهر الخلقي مــن منحاه المحمود إلى منحى مذموم:

تــرى بعــر الآرام في عرصــاتها	وقــيعانها كأنــه حــب فلفــل
كــأني غــداة الــبين يــوم تحملــوا	لــدى سمــرات الحــي ناقــف حــنظل
وقــوفاً بهــا صــحبي علــى مطــيهم	يقولــون : لا تهلــك أســى وتجمــل
فــدع عــنك شــيئاً قد مضى لسبيله	ولكــن علــى مــا غالــك الــيوم أقبل
وقفــت بهــا حــتى إذا مــا ترددت	عمايــة محــزون بشــوق مــوكل
وإن شــفائى عــبرة مهــراقة	فهــل عــند رسـم دارس مــن معول؟

والدليل على صحة ما ذكرنا أن الشاعر انتقل انتقالاً مفاجئًا إلى تذكر مغامرة عاطفية جديدة مصورًا عبثه ومجونه ومغامراته اللاهية كما في قوله :

كــدأبك مــن أم الحويــرث قــبلها	وجارتهــا أم الــرباب بمأســل
إذا قامــتا تضــوع المســك مــنهما	نســيم الصــبا جــاءت بــريا القــرنفل

ورغم كل ما ذكرنا فإن نفس الفارس الأبية تظل هي المسيطرة خاصة عندما نرى الشاعر يعقــد مع نفسه صورة من صور الوفاء مع النفس وحملها على اتخاذ القرار في الوقت المناسب وهذه الصورة هي :

٣ - القدرة على اتخاذ القرار الصعب في الموقف الصعب :

ويتجلى ذلك المظهر الخلقي البطولي المحمود في قول امرئ القيس :

وإن كــنت قــد ساءتك مني خليقة	فســلي ثــيابي مــن ثــيابك تنسل

---

(١) د. مفيد قميحة – شرح المعلقات العشر – ص : ٧٥ .

أغـــرك مـــني أن حـــبك قاتلـــي وأنـــك مهمـــا تأمري القلب يفعل؟
وأنـــك قســـمت الفـــؤاد ، فنصفه قتـــيل ، ونصـــف بالحديـــد مكـــبل
ومـــا ذرفـــت عيـــناك إلا لتضـــربي بســـهميك في أعشـــار قلـــب مقتل

قد يرى بعض الباحثين أن الأبيات السابقة خضوع لسلطان الحب عند امرئ القيس[1] إلا أننا لـــو محصنا النظر في الأبيات لوجدنا أن امرأ القيس يؤمن بأن لكل شيء نهاية محتومة فهو يطلب من فاطمـــة أن تـــدع الدلال والإعراض وأن تترفق به وتحسن وتجمل الهجران كما أنه يدوس على مشـــاعره وفاء لنفسه بعـــدم الخضوع والخنوع لأحد حتى لأقرب الناس إلى قلبه فيطلب منها أن تفارقه إن بدا منه ما يسوء من أخلاق وأن الأمر ليس كما تظن محبوبته فهو مالك لقلبه .

إن " ضـــرب السهام في أعشار القلب المقتل يعني تفسيرًا واحدًا فقط وهو لحاظها التي كانت بطـــريقة أو بأخرى تخاطب نواحي الوفاء في قلبه الذي قد توزع بين عواطف الاحتفاظ بمودتها وعواطف "الـــدوس" على هذه العاطفة لصالح القرار الصعب "[2] الذي اتخذه في الموقف الصعب فـــتح عنه فتـــح كتاب الذكريات على صفحة جديدة ومغامرة أخرى تكشف لنا مظهرًا آخر من مظاهر شجاعة امـــرئ القيس وإن كان مظهرًا مذمومًا كما سترى .

٢ – الاستحلال والتهور :

لا أحد يتصور أن امرأ القيس أو غيره مهما بلغت به جرأته وشجاعته أن يدخل بيتًا هكذا من تلقـــاء نفسه دون أن يمهد لذلك الدخول بصورة من صور القبول من تلك المرأة وإلا لِمَ كان بيتها هو البيت المقصود من بين عدة بيوتات أخرى ؟!

إن إشـــارة القبول من تلك المرأة وربما أخذ موعد معها ليجعل فارسًا ماجنًا محبًا للنساء كامرئ القـــيس يفي بذلك الوعد فيستحل ما لم يستطع غيره استحلاله وتعمي قوة غريزته قوة عقله ويتهور تهـــورًا شـــديدًا فـــيوظف شجاعته في غير موضعها فيحصد نتيجة ذلك خلقًا ذميمًا آخر هو الاستحلال والتهور ويصور لنا ذلك بقوله :

وبيضـــة خـــدر لا يـــرام خـــباؤها تمـــتعت مـــن لهـــو بهـــا غـــير معجل
تجـــاوزت أحراســـاً إلـــيها ، ومعشراً علـــى حراصـــاً لـــو يســـرون مقتلي

---

(١) د. محمد غنيمي هلال – المرجع السابق – ص : ١٨٦ .

(٢) د.محمد علي أبو حمدة .في التذوق الجمالي لمعلقة امرئ القيس – ص : ٧٩ .

فهـــو يذكر لنا أنه دخل على امرأة بيضاء مكنونة لا تبرز للشمس ولا تظهر للناس ولا يصل إلـــيها أحـــــــد لعـــزها وصيانتها إلا أنه وصل إليها وتمتع بها غير خائف من أحد فقد تجاوز إليها الأحـــرا س والأهـــــوال الكثيرة دون أن يجرأ أحد على قتله وذلك لشجاعته وشرفه ونباهته وموضعه من قومه.

إلا أنه بهذا المظهر المذموم من مظاهر الشجاعة قد خرج عن دائرة تلك الفضيلة المحمودة ونزا وراء رغائب النفس الأمارة،ولم يكتف بذلك بل صور لنا من المتممات العرضية لذلك المظهر الخلقي النفسي المذموم ما يجعلنا نكاد نسمع ونرى ما عمل في مغامرته تلك :

إذا مـــا الثـــريا في الســـماء تعرضـــت	تعـــرُّض أثـــناء الوشـــاح المفصـــل
فجـــئت ، وقـــد نضـــت لـــنوم ثـــيابها	لــــدى الســـتر إلا لبســـة المتفضـــل
فقالـــت : يمـــين الله ، مالـــك حـــيلة	ومـــا إن أرى عـــنك الغـــواية تنجلـــي
خـــرجت بهـــا أمشـــي تجـــر وراءنـــا	علـــى أثـــرينا ذيـــل مـــرط مـــرحل
فلمـــا أجـــزنا ســـاحة الحـــي وانتحـــى	بـــنا بطـــن خـــبت ذي قفـــاف عقـــنقل
هصـــرت بفـــودي رأســـها فـــتمايلت	علـــيّ هضـــيم الكشـــح ريـــا المخلخـــل

ومن مظاهر الشجاعة في معلقة امرئ القيس أيضًا مظهر خلقي عربي أصيل ظهرت صوره في المعلقة وذلك الخلق هو :

٣ – الكـــرم :

ومـــا جُعـــل الكرم مظهرًا من مظاهر الشجاعة إلا لأنه ترويض للنفس وحمل لها على البذل والعطـــاء في أحلك الظروف وقد كان العرب يجلّون هذا الخلق " ولم تكن خصلة عندهم تفوق خصـــلة الكرم وقـــد بعثتها فيهم حياة الصحراء القاسية ، وما فيها من إجداب وإمحال فكان الغني يفضـــل على الفقير وكثيرًا ما كان يذبح إبله في سنين القحط ، ويطعمها عشيرته ، كما يذبحها قرير العين لضيفانه الذين يترلون بـــه أو تدفعهم الصحراء إليه "(١).

وقـــد ورد هذا الخلق في معلقة امرئ القيس في صورتين إحداهما مذمومة حيث وصل الكرم عنده إلى درجة.

---

(١) د. شوقي ضيف – العصر الجاهلي – ص : ٦٨ .

١ - الإسـراف والتبذيـر وسوء الغاية الموصلة إلى الفقر والعدم ويتضح هذا في قوله :

ويـوم عقـرت للعـذارى مطـيتي ... فـيا عجـبا مـن كـورها المـتحمل

ويـا عجـبا مـن حلـها بعد رحلها ... ويـا عجـبا للجـازر المتـبذل

فظـل العـذارى يـرتمين بلحمهـا ... وشـحم كهـداب الـدمقس المفـتل

تـدار علينـا بالسـديف صـحافنا ... ويـؤتى إليـنا بالعبـيط المـثمل

حـيث عقر مطيته للعذارى فظللن يرتمين بلحمها وشحمها ، ولم يكن دافع الكرم الحـقيقي وراء ذلـك وإنمـا دفعه إلى ذلك مآرب خبيثة كانت نتيجتها المحتومة الفقر الشديد للملك ابن الملك ومـن المتممات العرضية لهذه الصورة الخلقية الذميمة قوله :

فقلـت لـه لمـا عـوى : إن شأننا ... قلـيل الغـنى ، إن كـنت لمـا تمـول

كلانـا إذا مـا نـال شـيئاً أفاتـه ... ومـن يحتـرث حرثـي وحرثك يهزل

٢ - أما الصورة المحمودة للكرم : عند امرئ القيس فتتمثل في تمدحه " بتحمل أثقال الحقوق ونـوائب الأقـوام من قرى الأضياف وإعطاء العفاة ما يبتغون ودفع الديات عن المقاتلين وغير ذلك"[1].

يقول :

وقـربة أقـوام جعلـت عصـامها ... علـى كاهـل مـني ذلـول مرحل

٣ - العزم :

والعـزم مظهـر من مظاهر الشجاعة وقد عده ابن طباطبا من فضائل الأخلاق كما تقدم لنا ذكره وهـو في معلقة امرئ القيس يتجلى في صورتين :

١ ـ وصـف الرحـلة والراحلة وما ينم عنه الوصف من علو الهمة :

يقول :

وقـد أغـتدي والطـير في وكـناتها ... بمنجـرد قـيد الأوابـد هـيكل

---

(١) الشيخ محمد علي طه الدرة – فتح الكبير المتعال إعراب المعلقات العشر الطوال – ص : ١١٧ .

مكـــر ، مفـــر ، مقـــبل ،مدبـــر ، معاً　　كجلمـــود صـــخر حطه السيل من عل

كمـــيت يـــزل اللـــبد عـــن حال متنه　　كمـــا زلـــت الصـــفواء بالمـــتنزل

علـــــى الـــذبل جياش كأن اهتزامه　　إذا جـــاش فـــيه حمـــية علـــى مرجل

مســـح إذا مـــا الســـابحات على الونى　　أثـــرن الغـــبار بالكديـــد المـــركل

يـــزل الغـــلام الخـــف عـــن صـــهواته　　ويلـــوي بأثـــواب العنـــيف المـــثقل

دريـــر كخـــذروف الولـــيد أمـــره　　تـــتابع كفـــيه بخـــيط موصـــل

لـــه أيطـــلا ظـــبي ،وســـاقا نعامـــة　　وإرخـــاء ســـرحان وتقـــريب تـــتفل

ضـــليع إذا اســـتدبرته ســـد فـــرجه　　بضـــاف فويـــق الأرض لـــيس بأعزل

كـــأن علـــى المتـــنين مـــنه إذا انتحـــى　　مـــداك عـــروس ، أو صـــلاية حنظل

كـــأن دمـــاء الهاديـــات بنحـــره　　عصـــارة حـــناء بشـــيب مـــرجل

فعـــن لـــنا ســـرب كـــأن نعاجـــه　　عـــذارى دوار في مـــلاء مـــذيل

فأدبـــرن كالجـــذع المفصـــل بيـــنه　　بجـــيد معـــم في العشـــيرة مخـــول

فألحقـــنا بالهاديـــات ودونـــه　　جواحـــرها في صـــرة لم تـــزيل

فعـــادى عـــداء بـــين ثـــور ونعجـــة　　دراكـــاً ، ولم ينضـــج بمـــاء فيغســـل

وقـــد يتســـاءل بعضنا كيف يكون وصف الرحلة من امرئ القيس أو غيره صورة من صور العزم وعلو الهمة والشجاعة وهو مجرد وصف رحلة لا غير ؟!

وســـنريح ذلك السائل من عناء التفكير في ذلك بقولنا : إن الرحلة لدى الشاعر الجاهلي لا تعتـــبر مجـــرد مطية ووسيلة نقل فقط بل إن الشعراء في وصفهم الرحلة والراحلة يستجيبون لعامل الحنين واستعادة الذكريات "فهم يستعيدون بذكر الناقة والصحراء عصر المخاطرة والفتوة والشباب الذي تركوه وراء ظهورهم"[١] .

كما أن الرحلة " وجه من وجوه البطولة ، ومظهر من مظاهر الاقتدار والجسارة والقدرة على المغامـــرة ومـــواجهة الأهـــوال ، وهذه المعاني تراها تنبجس في نفوس الشعراء مع معاني المروءة

(١) د. محمد عبد العزيز الكفراوي – الشعر العربي بين الجمود والتطور – ص : ٣٨ .

والنجدة والسخـــاء وبسط اليد ، وكذلك الشجاعة والجسارة في ملاقاة الأعداء ، فهي واحدة من مجموع الشمائل المرتبطـــة بالشباب والفتاة والصبوة "[١] وفي الأبيات السابقة نحن لا نصادر المعنى الظاهر التمثل في وصف الرحلة والفرس لذاتها إلا أننا نقول : إن هذه الصورة الحية النابضة بالتبكير في الخـــروج إلى الصيد ومسير الرحـــلة والحركة والرشاقة والقوة والجمع بين الأضداد في أوصاف الخيل لتعبر بصدق عن صورة امـــرئ القيس نفسه ، فامرؤ القيس في الأبيات السابقة " لم يصف جـــواده بـــل أبدع فيها ذاته، وجسد واقـــعه وحياته في إطار من الحركية النامية التي تتجدد وتتغير ولا تقبل القبول والخضوع "[٢].

إن هـــذا العـــزم قد سبقه صورة حسية جسدت ما يحمله امرؤ القيس من عزم شديد جعله يصـــارع الهموم ليلاً حتى الصباح الذي تفجر فيه ذلك العزم البطولي بالصورة التي رأيناها مما جعل امرأ القيس يفصح عن تلك الصورة بقوله :

ولـــيل كمـــوج البحـــر أرخـــى سدوله	علـــيَّ بأنـــواع الهمـــوم ليبتلـــي
فقـــلت له لما تمطـــــي بصلبـــــه	وأردف أعجـــازا ونـــاء بكلكـــل
ألا أيهـــا اللـــيل الطـــويل ألا انجلـــي	بصـــبح ، ومـــا الإصباح مـــنك بأمثل
فـــيا لـــك مـــن لـــيل ، كـــأن نجـــومه	بكـــل مغـــار الفـــتل شـــدت بـــيذبل
كـــأن الثـــريا علقـــت في مصـــامها	بأمـــراس كـــتان إلى صـــم جـــندل

إن شدة الوله والهموم التي قاساها امرؤ القيس إلى درجة يتساوى فيها عنده الصباح بالليل قد ألهبت العزم في نفسه إلى الدرجة التي ذكـــرها في وصفه للخيل .

٢ - الأمل والبشر وضمان الانتصار :

ومن صفات الفارس الشهم أن يكون الأمل والبشر وضمان الانتصار صورة من صور العزم ومظهـــــرًا مـــن مظاهر الشجاعة عنده وقد تجلى ذلك أثناء وصف امرئ القيس للبرق والمطر في آخر معلقته حيث يقول :

أصـــاح ، تـــرى بـــرقاً أريـــك وميضه	كلمـــع الـــيدين في حـــبي مكلـــل؟

---

(١) د. محمد أبو موسى – قراءة في الأدب القديم – ص : ٣٥٤ .

(٢) د. مفيد قميحة – شرح المعلقات العشر – ص : ٨٤.

يضـــيء ســـناه ، أو مصـــابيح راهـــب ... آمـــال الســـليط بالـــذبال المفـــتل

قعـــدت لـــه وصـــحبتي بـــين ضـــارج ... وبـــين العـــذيب بعـــدما متأملـــي

عـــلا قطـــنا بالشـــيم ايمـــن صـــوبه ... أيســـره علـــى الســـتار فـــيذيل

فأضـــحى يســـح المـــاء حـــول كتـــيفة ... يكـــب علـــى الأذقـــان دوح الكنهبل

ومـــر علـــى القـــنان مـــن نفـــيانه ... فأنـــزل مـــنه العصـــم مـــن كل متزل

وتـــيماء لم يتـــرك بهـــا جـــذع نخلـــة ... ولا أجمـــا إلا مشـــيداً بجـــندل

كـــأن ثـــبيراً في عـــرانين وبلـــه ... كـــبير أنـــاس في بجـــاد مـــزمل

كـــأن ذري راس المجيمـــر غـــدوة ... مـــن الســـيل والأغـــثاء فلكـــة مغزل

وألقـــى بصـــحراء الغبـــيط بعاعـــه ... نـــزول الـــيماني ، ذي العـــياب المحمل

كـــأن مكاكـــي الجـــواء غديـــة ... صـــبحن ســـلافاً مـــن رحـــيق مفلفل

كـــأن الســـباع فـــيه غرقـــي عشـــية ... بأرجائـــه القصـــوى أنابـــيش عنصل

وقـــد ســـبق لنا أن عرضنا وصف امرئ القيس للفرس " الذي هو الوسيلة الأولى التي تصل بصـــاحب الحاجة إلى حاجته ، وينعته بكل النعوت التي تتوافق مع التصور الذهني والنفسي القائمين في ذات الجاهلي عنه ، فالقوة والسرعة والتحمل من الصفات التي أغدقها الشاعر على حصانه وهي بالتالي نفس الصفات التي أحب الجاهلي امتلاكها ، ورغب في اقتنائها"[١].

وفي الأبـــيات السابقة عندما نقف مع الأبيات التي وصف امرؤ القيس فيها البرق والمطر نجد أن ذلـــك الوصـــف يكاد أن يكون مجاراة لحصانه السابق جمالاً وقوة وسرعة ومضاءً وهذا أيضًا ما يـــرغب الشاعر اقتناءه من أوصاف يضاف إليها أوصافًا أخرى تتمثل في البشر والأمل في البقاء " فالحياة القاسية الصعبة هي التي جعلت العربي يسمي المطر غيثًا وحيًّا كما جعله يسمي احتباسه جدبًا وقحلاً ولذا فإن الشاعر في وصفه للمطر يستبشر بالخير العميم "[٢] .

إننا لو تأملنا وصف امرئ القيس للبرق والمطر لوجدنا أن لمعان البرق في سحاب متراكم يمثل ظهور الشاعر الفارس في قتامة الظروف الصعبة ، وأن ذلك البرق المتلالئ ضوؤه المستوقف جماله ،

---

(١) د. مفيد قميحة – شرح المعلقات العشر – ص : ٧٩ .

(٢) السابق – ص : ٧٩ .

المـــرتفع مكانه، الغزير عطاؤه ، العظيم انصبابه ، القويُّ مَرُّهُ ، المعم خيرُه ما هو إلا مجموعة صفات تمـثلت في شـــخص الشـــاعر واستطاع اقتناءها فاستطاع بها أو يستطيع أن يلقي حسّاده ومبغضيه الشداد صرعى في عميم أخلاقه وبحر سجاياه العظام :

كـــأن مكاكـــي الجـــواء غديـــة ... صـــبحن ســـلافاً مـــن رحيق مفلفل

كـــأن الســـباع فـــيه غرقـــي عشـــية ... بأرجائـــه القصـــوى أنابـــيش عنصل

٣ ـ تعسّــف الســبل المخيفــة :

ومما كان يفخر به العربي الجاهلي ويعتبره صورة من صور العزم والجلد والصبر عند الفارس ومـــن ثم مظهـــرًا مـــن مظاهر الفروسية تعسف السبل المخيفة و" الإقدام على ورود المياه الآجنة وتعسف الطرقات المجهولة "[1] .

وقد استمر هذا المظهر البطولي عند الإنسان العربي إلى عهد قريب جدًّا ، ومن عاش عمرًا في البادية فلا أعتقد أنه يجهل هذه الظاهرة ، ولقد كنتُ أشاهد وأنا صغيرًا صورًا من صور التحدي بين أبـــناء القبائل وهم يتنافسون في المرور على ماء مهجور ، أو قطع وادٍ سحيق ، أو صعود جبلٍ تكثر فيه الهوام والجوارح والسباع والحيات في الوقت الذي يراقبه الآخرون من بطن الوادي وهو يشعل الـــنار على قمة الجبل بعد وصوله ليثبت لهم صدق ما فعل ، ولا أحسب ذلك منهم إلا على سبيل تدريب الأبناء على ورود المهالك بإقدام وشجاعة وبسالة استدعتها ظروف الصحراء القوية .

والشـــعر العـــربي يزخر بهذه المظاهر البطولية الرائعة وسيرد من الشواهد على ذلك الكثير والكثير ، ومما ورد في معلقة امرئ القيس في ذلك قوله :

ووادٍ كجـــوفِ العَيرِ قَفْرٍ قَطَعْتُـــهُ ... بـــه الذّئبُ يعـــوي كالخليـــعِ المُعَيَّلِ

فامرؤ القيس يخبر بأنه قطع واديًا قفرًا خاليًا من النبات والأنيس ، وقد جاوزه وقطعه في وقت كان الذئب يعوي فيه من شدة الجوع كالرجل الذي طرده أهله وقطعوا صلتهم به ، ومن يتخيل صوت الذئب ليلاً في مكان موحش فسوف يدرك مدى المخاوف التي يمكن أن تلحق بمن يمر ذلك الوادي.

---

(١) د. أحمد عبد الواحد – عبيد بن الأبرص حياته وشعره – ص : ١٢٣ .

(جـ) العــــدل :

عندما ننظر إلى هذه الفضيلة في معلقة امرئ القيس نجدها فضيلة قد فاتته ولم تبرز عنده إلا في مظهر الضد وأعني بذلك (الجـــــــــور) المتمثل في قوله :

دعي البكر لا ترثي له من ردافنا   وهاتي أذيقينـــا جناة القرنفل

ألا ترى أنه لم يستطع ضبط شهوته إلى الدرجة التي لا تجد الرأفة بالحيوان المسكين الطريق إلى قلبه وأنه فضل ممارسة شهواته على ظهر ذلك البعير في الوقت الذي تشجب فيه المحبوبة تلك الفعلة الجائرة :

ويـــوم دخلـــت الخـــدر خدر عنيزة   فقالـــت : لك الويلات ، إنك مرجلى

تقـــول ، وقـــد مـــال الغبيط بنا معا   عقـــرت بعيري ، يا امرأ القيس ، فانزل

كما أنه لم يستطع كبح جماح الشهوة وحمْلها على مقتضى الحكمة حين يعلن صراحة أنه طرق الحبلى والمرضع :

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع   فألهيتهـــا عن ذي تمائم مـــحول

ويظـــل هذا الخلق المشين في نفس امرئ القيس إلى الدرجة التي يرى فيها أن الأشياء الطبيعية لا تـــروق لـــه رؤيتها إلا إذا عكست ظلال نفسه الجائرة المتعالية مما حدا به إلى القول أثناء وصف البرق والمطر :

فأضـــحى يســـح المـــاء حـــول كتيفة   يكـــب علـــى الأذقان دوح الكنهبل

ومـــر علـــى القـــنان مـــن نفـــيانه   فأنـــزل مـــنه العصـــم من كل منزل

وتـــيماء لم يتـــرك بهـــا جـــذع نخلـــة   ولا أجمـــا إلا مشـــيداً بجـــندل

كـــأن ثـــبيراً في عـــرانين وبلـــه   كـــبير أنـــاس في بجـــاد مـــزمل

كـــأن ذري راس المجيمـــر غـــدوة   مـــن السيل والأغـــثاء فلكة مغزل

وألقـــى بصـــحراء الغبـــيط بعاعـــه   نـــزول اليماني ، ذي العياب المحمل

(د) العِفَّـــة

وهـــي : تأديب قوة الشهوة بتأديب قوة العقل والشرع كما ذكرنا ، ونحن عندما نورد هذا الخلـــق في معلقة امرئ القيس المشهور بالمجانة والفجور فإننا لا نتعسف ذلك وإنما نورده لأننا فعلاً

نرى أنه رغم مجـــونه وفجوره وخسته ودناءته التي تصورها لنا بعض أبيات المعلقة إلا أنه لا يلبث وتظهـــر لنا منه جـــذوة ذلك الخلق الفطري المتأصل في النفس مهما بلغت درجت ضعفه ، وتأكيدًا لذلك تعال بنا لنستمع إلى قوله :

فعــن لــنا ســرب كــأن نعاجــه عــذارى دوار في مــلاء مــذيل

فأدبــرن كالجــذ ع المفصــل بيــنه بجــيد معــم في العشــيرة مخــول

إن تشبيهه بقر الوحش في بياضها بالعذارى لأهن مصونات في خدورهن فلا يغير ألواهن حرُّ الشــمس ثم انصــرافهن متفرقات عند رؤية الفرس يفصح لنا عن ظاهرة خلقية ألقى امرؤ القيس بظــلالها على فرسه وصيده وهي من مظاهر العفة لدى العذارى العربيات وتلك الصفة هي حب الصــون في البيــوت والتفرق السريع عند رؤية الغريب ، ومن يعش عمرًا في البادية العربية يرى تلك الصفة الدالة على العفة متأصلة في النساء إلى اليوم .

ومــع ذلك فإننا لا ننكر البتة أن المظاهر السائدة من هذا الخلق في معلقة امرئ القيس هي المظاهر المذمومة المتمثلة في المظاهر التالية :

١ - المجــــانة :

والمجانة تعني : قلة الحياء وخلط الجد بالهزل "[1] ومن هذا قوله :

فقلــت لها : سيري وأرخى زمامــه ولا تــبعديني مــن جــناك المعلــل

دعى البــكر لا ترثى لــه مــن وهــاتي أذيقيــنا جــناة القــرنفل

بثغــر كمــثل الأقحــوان مــنور نقــى الثــنايا أشــنب غــير أثعــل

فهــو هنا لا يبالي في البعير أعُقر أم سلم ؟! وإنما همه كله منصب على النيل من عناق الحبيبة وشمها وتقبيلها.

٢ - الرِّيــاء والمَــلَق :

والــرياء والملــق طرف ذميم في فضيلة العفة كما تقدم معنا و يتمثل في : إطلاق ما في اليد دون حبس ودون روية ويتمثل ذلك في قوله :

ويــا عجــبا مــن حلــها بعد رحلها ويــا عجــبا للجــــــازر المتبذل

---

(١) المعجم الوسيط : ٨٥٥/٢ .

ألا تراه يتعجب ممن ذبح ناقته رياءً وملقًا وتبذلاً ؟! وأراد بذلك نفسه .

إن الرجل لم يجعل فضيلة العفة هي المسيطرة على الموقف وكيف يكون ذلك والشاعر أصبح عبدًا مطيعًا لنزواته وشهواته ؟!

٣ - استحقار الضعاف والفقراء :

وهـذا مظهـر مـن مظاهر التفريط في فضيلة العفة كما عرفنا سابقًا ونستشف ذلك المظهر الخلقـي الذمـيم من خلال تصوير امرئ القيس لفرسه السريع الجري الذي يلحق بأوائل الوحش وسـوابقه ويتـرك المقصرات في الركض وراءه ثقة بنفسه واستحقارًا للضعاف والمقصرات من بقر الـوحش ، وقـد سبق أن قلنا : إن ما يضفيه امرؤ القيس من صفات على فرسه هي بالتالي ظلال صـفاته النفسـية ، وبهـذا يكون هذا الوصف كشف لنا عن مظهر خلقي مذموم كان يحمله امرؤ القيس في نفسه ألا وهو استحقار الفقراء والضعفاء والنظر إليهم بعين الكبر والاستعلاء .

وفي وصفه للفرس بقوله :

ضـليع إذا اسـتدبرته سـد فـرجه	بضـاف فويـق الأرض لـيس بأعـزل
كـأن علـى المتـنين مـنه إذا انتحـى	مـداك عـروس ، أو صـلاية حـنظل
كـأن دمـاء الهاديـات بنحـره	عصـارة حـناء بشـيب مـرجل

مـتمم جسـدي لهذا المظهر وذلك يتمثل في كون الفرس الذي يمتلكه فرس عظيم الأضلاع منـتفـخ الجنـبين يسد الفضاء من بين رجليه بذنبه الطويل السابغ وفي هذه الأوصاف ما يرمز إلى السبق في جميع الأمـور والاستعلاء والكبر واستحقار كل ضعيف لا يصل إلى ما وصل إليه .

وفي نهاية هذه الدراسة التطبيقية لمعلقة امرئ القيس أود أن أشير إلى أمر مهم جدًّا ألا وهو أن القـارئ لهـذه الدراسـة ربما يرى تداخلاً في شواهد المظاهر الخلقية في المعلقة على اختلافها فيتهم الباحث بعدم الدقـة في إيرادها إلا أنني سأدفع عن نفسي ما رميت به من اتهام موضحًا للقارئ ما قـد يقـع فـيه من اللبس فأقول : إن الأخلاق النفسية حسنها وقبيحها وما قد يتممها من مظاهر عرضـية أو جسـمية شـديدة التداخل فيـما بينها وذلك يرجع إلى وحدة المصدر النفسي الذي صدرت منه .

ونحـن نعـرف أيضًـا أن نفـس الإنسان العربي الجاهلي تتذبذب في سلوكياتها وتتغير بتغير

الظروف والأحوال من حين إلى آخر مما يجعل تلك الأخلاق نتيجةً لذلك تأخذ برقاب بعضها بعض وتـتـداخـل فـيما بيـنها تداخلاً قويًا يصعب علينا فصم عراه وبسبب ذلك نرى أن الشواهد تتداخل فيما بينها فتكـون مرآة عاكسة لخلق حسن مرة وسيئ مرة أخرى ولتوضيح ذلك فإنني أطلب من القارئ أن يتخيل معي تلك الشواهد في صورة مرآة حقيقية يقف أمامها أبيض اللون مرة وأسـوده مرة أخرى فتظهر كلاً بلونه، وقد يقف الأبيض والأسود جنبًا إلى جنب أمام مرآة واحدة فيظهـر كـل بلونه في إطار المرآة الواحد وكذلك الأمر في صـور ومظاهر الأخلاق في القصيدة الجاهلية .

وقـبل الشـروع في تحديد الإطار الخلقي في المعلقة الثانية وهي معلقة الشاب الفتي طرفة بن العبـد أود أن أشير إلى الأمور الخمسة التي ذكرنا أنها تمثل قنوات اتصال مهمة بين شاعر المعلقة وبـين المتـلقـي وأن تلـك القنوات ستظل حاضرة معنا ونحن نحدد الإطار الخلقي لكل معلقة من المعلقات العشر ولو أننا سنجعـل نصوص المعلقات تتحدث من الداخل دون أن نقيدها بمجال معين إلا أنـني وجدت نصًا مهمًا لابن قتيبة يؤكد ما ذهبت إليه من أن تلك الأمور الخمسة تمثل قنوات يـبث الشـاعر من خلالها كل ما يريد بثه مـن أخلاق يؤمن بها فيدافع عنها أو ينفر منها فيحذر منها .

يقـول ابن قتيبة :" وسمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيدة إنما ابتدأ فيهـا بذكر الديار والـدمن والآثـار فبكـى وشكا وخاطب الربع واستوقف الرفيق ، ليجعل ذلك سببًا لذكر أهلها الظاعنين عنها ، إذ كانوا نازلة العمد في الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة المدر لانتقالهم عن مـاء إلى ماء وانتجاعهم الكلأ وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان ، ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شـدة الـوجـد وألم الفـراق وفـرط الصبابة والشوق ليميل نحوه القلوب ويصرف إليه الوجوه ويسـتدعي به إصغاء الأسماع إليه لأن التشبيب قريب من النفوس ، لائط بالقلوب لما جعل الله في تـركيب العـباد من محبة الغزل وإلف النساء فليس يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلقًا منه بسبب وضـاربًا فيه بسهم حلال أو حرام ، فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه والاستماع له عقب بإيجـاب الحقوق ، فرحل في شعره وشكا النصب والسهر وسرى الليل وحر الهجير وإنضاء الراحلة والـبعير فـإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء وذمامة التأميل وقرر عنده ما ناله من المكـاره في المسـير بـدأ في المديح فبعثه على المكافأة وهزّه للسماح على الأشباه وصغر في قدره

الجليل"[١] ولو دققنا النظر في النص السابق لوجدناه يشمل الأمور الخمسة التي سميناها مجالات النشاط الخلقي ثم قررنا أن الشاعر الجاهلي اتخذ من تلك المجالات قنوات صالحة لبث رسائله الخلقية من خلالها .

١- إن قناة البيئة الطبيعية وظواهرها من إقامة وترحال وأطلال وليل وسيل وقحط وجدب ونعمة وخصب نجدها في قول ابن قتيبة "...ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار فبكى وشكا وخاطب الربع واستوقف الرفيق ... وانتقالهم من ماء إلى ماء وانتجاعهم الكلأ وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان " .

٢- وأما الإنسان : صاحب أو عدو أو ضيف فيتمثل في قوله :" ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الوجد وألم الفراق وفرط الصبابة والشوق ...." وما ذلك إلا مبين لكل ذي لب أن الإنسان متمثلاً في (المرأة المحبوبة) أو غيرها يمثل قناة صالحة للاتصال بالمتلقي .

٣- الحيوان : راحلة أو صيد أو وحش أو قِرى أو متاع أو زينة أو ركوبة أو تسلية يمثل أيضًا قناة أخرى للاتصال ثم بث الرسالة " فرحل في شعره وشكا النصب والسهر وسري الليل وحر الهجير وإنضاء الراحلة والبعير " .

إن وصف تلك الرحلة (في رأيي) ليست لمجرد الوصف للناقة أو الفرس وحسب وإلا ما كان أخذ ذلك الوصف الجزء الأكبر في المعلقة الواحدة وإنما كان ذلك الوصف من أجل بث شيء ما إلى المتلقي .

ويتضح ذلك في قول ابن قتيبة :" فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه والاستماع له عقب بإيجاب الحقوق ... " وقوله : " فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء وذمامة التأميل وقرر عنده ما ناله من المكاره في المسير بدأ في المديح " ويجب علينا أن نفهم أن المديح في قصد ابن قتيبة هنا شامل لكل الأغراض الشعرية الأخرى والتي تتخذ قناتين أخريين لكسب إصغاء المتلقي وهما :

٤- المجتمع بما فيه من أعراف ومعتقدات وأخلاق " فبعثه على المكافأة وهزّه للسماح " من خلال قناة تنتظم القنوات الأخرى جميعها ألا وهي :

---

(١) ابن قتيبة – الشعر والشعراء : ١/ ٢٠-٢١ .

٥- الزمن : بكل ما يحمله من حياة وموت وفقر وغنى وحرب وسلام وتجارب وخبرات. ومن هذه القنوات جميعها استطاع أن ينفذ الشاعر الجاهلي إلى قلب متلقيه فيبث إليه وينفث فيه الرسالة الخالدة التي وجد من أجلها الشعر العربي وهي (الأخلاق) .

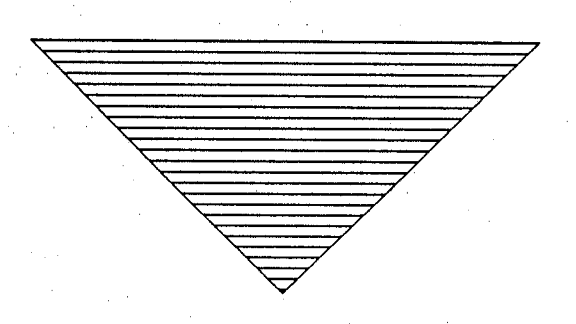
إن الشــاعر الجاهلي أراد أن يجعل المتلقي لشعره في ذروة الاستماع والفهم والوعي والنشوة لتلك الرسالة الأخلاقية التي أراد توجيهها إليه فلم يكن أمامه إلا أن يدخل من خلال تلك الوسائط والقنوات السالفة الذكر والتي هي بالنسبة للإنسان الجاهلي كل شيء في حياته .

فالوقــوف علــى الأطلال شعور بالانتماء إلى مكان كان عزيزًا لدى الإنسان العربي فقد يمثل مكــان مــيلاده ومســقط رأسه وقد يكون أول مكان مارس فيه ما يحب والتقى فيه بمن يحب حتى أصــبحت هناك علاقة تلازمية مكانًا وزمانًا أوجدها ظاهرة إنسانية هي ظاهرة الانتماء وهي ظاهرة قديمــة قــدم الوجود الإنساني . فما أصبح طللاً اليوم كان مكانًا مأنوسًا بالأمس تكونت فيه أسرة وتــوطدت فيه علاقة وتولدت منه ظروف وأهداف مشتركة جعلت الإنسان العربي يدرك أن هذا الوقــوف ذو " صبغة عاطفية ذاتية يعبر فيها الشاعر عن عاطفته في وفائه لحبه ويحن لماضيه الماثل في آثار الحبيبة النازحة ، ويبعث بوصفه لتلك الآثار الحائلة ذكرى ماض لا يزال حيًّا مشبوبًا في أعماق نفســه ، ويعود في ظلال هذه الذكرى لأيام الصبا الحلوة يستريح بها من حاضر عيشه المكدود ... فكان الشعراء يرون بقايا نفوسهم فيما ترك أهــل الحبيبة من آثار ضئيلة لا تسترعي إلا انتباه ذوي العواطــف الرقيقة الصادقة "(١) ومن هنا رأى الشاعر الجاهلي أن أول قناة صالحة لبث ما يريده إلى متلقــي شعره هي الطبيعة المتمثلة في الوقوف على الأطلال وما يجــانسها من ظواهر طبيعية أخرى ذات صلة ثم نراه بعد ذلك ينتقل إلى (الإنسان) المتمثل في المــــرأة المحبوبة أو الضيف العزيز أو العــدو الغازي . إلا أن حضور المرأة المحبوبة يظل له المكان الأكبر كيف لا ؟! والمــــرأة في حياة العربي الجاهلي تمثل " عنصر الاستقرار النفسي والحسي الذي كان يود بجدع الأنف أن لو أدركه في بيئــته المضــطربة القلقة ، أليس خباؤها هو المكان الوحيد الذي يأوي إليه من كل تلك الصحراء العريضــة حــين يفرغ من مشاكل البادية التي لا تنتهي فيصادف فيه نوعًا من الراحة والاطمئنان ، أليســت الحياة دائمًا في تجدد وتنكر أمامه خلا وجهها ينظر إليه كلما دارت به الحياة فيدرك أنه لا يزال في يده شيء جوهري من ماضيه العزيز يمكن أن يبني عليه مستقبله ثم يستأنف رحلته في طريق

(١) رشدي علي حسين – شعراء الطبيعة في العصر العباسي الثاني – ص : ٢٥.

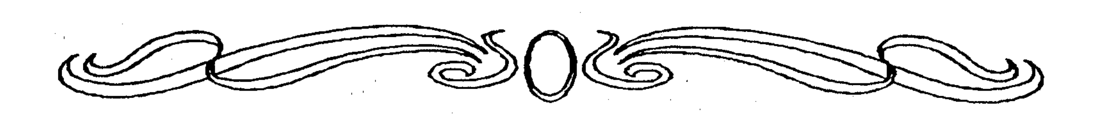
الحياة الذي لا ينتهي إلا حيث ينتهي جميع الأحياء " [١] وأما الراحلة وما يرتبط بها من إقامة وسفر ومتعة وزينة فإنما أحس فيها الشاعر قناة صالحة لبث رسالته لما رأى من إعزاز العربي لها ، والحيوان بشكل عام " يشغل جانبًا فسيحًا من الحياة الجاهلية لاتصاله بأسباب هذه الحياة فالخيل والإبل والغنم والبقر والكلاب كانت وسيلتهم على مقاومة قسوة الحياة " [٢] وما من حيوان في الصحراء العربية إلا وكان للإنسان العربي علاقة به سواء علاقة حميمية أو عدائية لا تنسى على مر السنين والأيام . وأما الأعراف والأخلاق فهي مناط الأمر عند العربي حيث كانت الدستور الذي ينظم للجاهلي حياته المرتبطة أشد الارتباط بقناة أخرى لا تقل أهمية عن كل ما سبق بل إنها تنتظم القنوات الأخرى جميعها ألا وهي الزمن .

وعند حديثنا عن القيم والقضايا الأخلاقية وأثرها في تشكيل نصوص المعلقات سوف نجعل القنوات الخمس التي ذكرنا هي التي تضيء لنا بادي الرأي الطريق الصحيح نحو الإيمان بوحدة القصيدة الجاهلية .



(١) د. محمد عبد العزيز الكفراوي – الشعر العربي بين الجمود والتطور – ص : ٣٩.

(٢) د. نوري حمودي القيسي – الطبيعة في الشعر الجاهلي – ص : ١٩.



الإطار الخلقي لمعلقة طرفة بن العبد



معلقة طرفة بن العبد*

إضاءة :

كنت أود أن أجعل البحث في الإطار الخلقي في المعلقات العشر وتحديده عن طريق مجالات النشاط الخلقي الخمسة السالفة الذكر فأتناول المعلقة مرتبة من أولها إلى آخرها إلا أنني رأيت أن المظاهر الخلقية المنتمي بعضها إلى العقل وبعضها إلى الشجاعة وبعضها الآخر إلى العدل وآخر إلى العفة متناثرة في أبيات المعلقة الواحدة ومتنوعة تنوعًا كبيرًا فآليت أن أتخذ من أصول الفضائل الأربعة أُطُرًا أخلاقية يندرج تحت كل منها مظاهره الخلقية الخاصة به على أن تكون بترتيب منطقي واحد كما كان عليه الحال في معلقة امرئ القيس وما دام الأمر كذلك فلنبحث عن الإطار الخلقي في معلقة طرفة بن العبد .

(أ) العقل

كان الجاهليون على ما فيهم من حمية يولون العقل مكانة بارزة ويزرون بالجهل ومن كان في شبابه أحمق نزقًا مغلوبًا بحرارة الرأس فالدهر كفيل برده إلى الوقار .

وعندما ننظر إلى هذا الأصل الخلقي في معلقة الشاب الفتي طرفة بن العبد نجده يتخذ المظاهر الآتية :

١- البِرّ :

إن البر هو الجامع الروحي الذي كان يجمع بين أفراد الأسرة وأفراد القبيلة في المجتمع الجاهلي وإذا كان طرفة قد سلك في حياته وشعره مسلكًا شخصيًا بعيدًا عما توجبه البيئة الجاهلية فإنه لم يستطع أن يتخلص من هذا المظهر الخلقي العقلي إذ استطاع أن يدرك بصواب عقله مدى أهمية تلك الرابطة الاجتماعية فما كان أمامه إلا أن يستجيب لنداء العقل فقال وهو يتألم في نفسه من أهله وابن عمه خاصة:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة ... على المرء من وقع الحسام المهند

فذرني وخلقي ، إنني لك شاكر ... ولو حل بيتي نائياً عند ضرغد

---

* جمع أبياتها وحققها ورتبها الشيخ / محمد على طه الدرة – فتح الكبير المتعال إعراب المعلقات العشر بطوال ج١ ص: ١٦٥-١٦٩.

وإنما اندرج هذا المظهر الخلقي تحت فضيلة العقل لأننا نجد فيه أن طرفة بن العبد لم يخرج عن طور عقله عندما منعه أعمامه إرث أبيه إضافة إلى ما كان يلقاه من أخيه معبد من احتقار واستهزاء وما كان عليه ابن عمه مالك حيث كان يلومه ويحرض عليه فاستطاع طرفة تحت وطأة هذا كله أن يستجيب لنداء عقله الحكيم الذي عزز فيه هذا المظهر الخلقي الكريم (البر) رغم الظروف القاسية .

إن هذا البر بالأقارب قاد طرفة إلى مظهر خلقي آخر من مظاهر العقل حيث استطاع طرفة بعقله أن يدرك أن مشيئة الله فوق مشيئة العبد فهو الرازق المانع وبهذا يكون طرفة قد كشف لنا عن ذلك المظهر الخلقي الحميد ألا وهو العلم .

٢ - العلم :

فقد علم طرفة بجودة ذهنه وثقافة رأيه وحسن ظنه أن الغنى والفقر بيد الله وحده يهب لمن يشاء ويمنع الرزق عمن يشاء :

فلو شاء ربي كنت قيس بن خالد ولو شاء ربي كنت عمرو بن مرثد

فأصبحت ذا مال كثير ، وزارني بنون كرام سادة لمسود

وقد وهب العقلُ طرفةَ وعيًا كاملاً وواقعية ناضجة وقدرة على محاكمة الأمور وتلخيص التجارب في مظهر خلقي حميد آ خر وهو :

٣ - الحكمة :

وقد أورد طرفة في معلقته حكمًا متنوعة تدور في مجملها حول فلسفة الحياة والموت :

أرى قبر نحام بخيل بماله كقبر غوي في البطالة مفسد

ترى جثوتين من تراب عليهما صفائح صم من صفيح منضد

أرى الموت يعتام الكرام ، ويصطفي عقيلة مال الفاحش المتشدد

أرى الموت يعتاد النفوس ولا أرى بعيداً غداً ، ما أقرب اليوم من غد !

أرى الدهر كنزاً ناقصاً كل ليلة وما تنقص الأيام والدهر ينفد

لعمرك ، إن الموت ما أخطأ الفتى لكالطول المرخى ، وثنياه باليد

متى ما يشأ يوماً يقده لحتفه ومن يك في حبل المنية ينقد

إلا أن هـــذه الفلسفة للحياة والموت خضعت خضوعًا كاملاً لانتهاب اللذات رغم صواب الرؤية بأن الموت مورد حتمي – كما في قوله :

أرى المــوت يعــتاد النفوس ولا أرى   بعــيداً غداً ، ما أقرب اليوم من غد !

أرى الدهــر كــنزاً ناقصــاً كل ليلة   ومــا تــنقص الأيــام والدهــر ينفد

لعمــرك ، إن المــوت مــا أخطأ الفتى   لكالطــول المرخــى ، وثنــياه بالــيد

إلا أنــه رغم الوصول إلى هذه الحقيقة التي تبغض إلى الناس الحياة وتزهدهم في الرغاب ، هــذه الحقيقة نفسها رغبت طرفة في ملذات الدنيا فانفلت من زمام عقله ليكون في سباق مع الموت فانتكس في مظهر خلقي مذموم صدر من الإفراط في قوة العقل وذلك المظهر هو : خداع النفس .

٤ – خـداع النفس :

فهو برغم ما وصل إليه بنجابته وذكائه الفتي وعقله الراجح نجده يخدع نفسه ويخضع لسلطان شهوته إلى درجة يصل فيها إلى اتخاذ رؤية خاصة للموت فيقول :

أرى قــبر نحــام بخــيل بمالــه   كقــبر غــوي في الــبطالة مفســد

تــرى جثوتين مــن تراب عليهما   صــفائح صــم مــن صــفيح منضــد

أرى المــوت يعــتام الكرام ، ويصطفي   عقــيلة مــال الفــاحش المتشــدد

وكانــت نتــيجة هــذه الرؤية التي انتكست – بعد أن كادت تصل إلى ذروة العقلانية في الــتفكير– أن يجعــل طرفة بن العبد مثله الأعلى في الحياة مقصورًا على ثلاث خصال يرى من أجلــها عيشة الفتى ووجــوده في الحياة : شربة خمر ، وغارة على فرس لنجدة المستنجد ، ومواصلة لامرأة جميلة في يوم غائم وفي بيت رفيع العماد وفي هذا يقول :

فلــو لا ثــلاث هــن من عيشة الفتى   وجــدك لم أحفــل مــتى قــام عودي

فمــنهن ســبق العــاذلات بشــربة   كمــيت مــتى مــا تعــل بالمــاء تربد

وكــري إذا نــادى المضــاف محنــبا   كســيد الغضــا نبهــته المــتورد

وتقصــير يــوم الدجن والدجن معجب   ببهكــنة تحــت الطــراف المعمــد

كــأن الــبرين والدمالــيج علقــت   علــى عشــر أوخــروع لم يخضــد

ذريــتي أروى هــامتي في حــياتها   مخافــة شــرب في الحــياة مصــرد

كــريم يــروي نفســه في حــياته   ســتعلم إن متــنا غــداً أيــنا الصدي؟

ثم يســـوق طرفة أبياتًا أخرى ليجعل منها متممات عرضية لفلسفته للحياة والموت وذلك مثل قوله :

وإن تــبغني في حلقـــة القـــوم تلقـــني ... وإن تقتنصـــــني في الحوانـــيت تصـــطد

مـــتى تـــأتني أصـــبحك كأســـاً رؤية ... وإن كـــنت عـــنها غانـــيا، فاغن وازدد

وإن يلـــتق الحـــي الجمـــيع تلاقـــني ... إلى ذروة البـــيت الكـــريم المصـــمد

نـــداماي بـــيض كالـــنجوم وقيـــنة ... تـــروح علينـــا بـــين بـــرد ومجســـد

رحـــيب قطـــاب الجـــيب منها رفيقة ... بجـــس الندامـــى بضـــة المتجـــرد

إذا نحـــن قلـــنا : أسمعيـــنا انـــبرت لنا ... علـــى رســـلها مطـــروفة لم تشـــدد

إذا رجعـــت في صـــوتها خلـــت صوتها ... تجـــاوب أظـــآر علـــى ربـــع رد

"فهـــو لـــيس صاحب لذة غليظة تصدر عن الحس لترضي الحس وإنما هو صاحب لذة رقيقة تصـــدر عـــن تفكير وعن فلسفة وعن اختبار للحياة وبناءً على هذا يرى أن قومه عجزوا عن فهمه فأنكـــروه "[1] ولذلك فهو أحد أعيان العشيرة عندما يجتمعون للمشورة فهو لا يتخلف عن قومه في الرأي رغم أنه يمارس ما أوحت به فلسفته للحياة من شرب الخمر وملذات الحياة الأخرى إلا أن في قوله " تقتنصني في الحـــــوانيت" ما يوحي بأن من أولع بشرب الخمر في الجاهلية كان يستتر بقدر ما يستطيع عن أعين الناس وكأنه يحس بإثم يحيك في نفسه ويكره أن يطلع عليه الناس مما جعله يعتبر من يجده في الحوانيت مصطاداً له وكأنه أدرك أنه في مكان معيب ولعلك تدرك مكانة من يقبل على ذلـــك العمـــل السيئ من خلال اعتراف الشاعـــر بنتيجة خداعه لنفسه وإقدامه على إضاعة المال والإسراف في شرب الخمر حيث يقول :

ومـــا زال تشـــرابي الخمـــور ، ولذتي ... وبيعـــي وإنفاقـــي طريفـــي ومـــتلدي

إلى أن تحامـــتني العشـــيرة كلـــها ... وأفـــردت إفـــراد الـــبعير المعـــبد

ثم يختم هذا كله بمتمم عرضي أخير علّه – في نظره – يعزز رؤيته تلك فيقول :

رأيـــت بـــني غـــبراء لا ينكـــرونني ... ولا أهـــل هـــذاك الطـــراف الممـــدد

ألا أيهـــذا اللائمـــي احضـــر الوغـــى ... وأن أشـــهد اللـــذات هـــل أنت مخلدي؟

فـــإن كـــنت لا تســـطيع دفع منيتي ... فـــدعني أبادرهـــا بمـــا ملكـــت يـــدي

---

(١) د. طه حسين – حديث الأربعاء – ج١ / ٦٣ .

فهو بقول "لن يضيرني أهل عشيرتي الأقربون إذا قاطعوني ونبذوني لأن فقراء الناس يرضونني لمساعدهم ووجهاء الناس يرضونني لمنادمتهم وحسن معاشرتي لهم "[1].

وعندما يعود العقل أحيانًا إلى فطرته يصدر منه حكمٌ تتناسب مع تلك الفطرة السليمة ومن ثم يتولد من تلك الحكمة الناضجة مظهر خلقي حميد يمكن أن نسميه :

٥ - صواب الرؤية :

وفي هذا بقول طرفة :

أرى المـوت لا يرعـى على ذي جلالة   وإن كـان في الدنـيا عزيـزاً بمقعـد

فهـو يرى ويعتقد ويوقن بأن الموت لا يترك رجلاً ذا مهابة ووقار ومهما كان وجيهًا وكريمًا في الدنيا فالموت لا يبقي عليه بل لا بد من أخذه إياه .لأن الموت لا يبقي على أحد أبدا .

ثم يتمم لذلك بقوله :

وأصـفر مضـبوح نظـرت حـواره   علـى النـار ، واسـتودعته كف مجمد

سـتبدي لـك الأيـام مـا كنت جاهلاً   ويأتـيك بالأخـبار مـن لم تـزود

ويأتـيك بالأخـبار مـن لم تبـع له   بـتاتاً ، ولم تضـرب له وقت موعد

لعمـرك مـا الأيـام إلا معـارة   فمـا اسـطعت مـن معروفها ، فتزود

ولا خـير في خـير تـرى الشـر دونه   ولا نائـل يأتـيك بعـد الـتلدد

عـن المـرء لا تسـأل وأبصـر قـرينه   فـإن القـرين بالمقـارن يقـتدي

لعمـرك مـا أدري وإني لـواجل   أفي الـيوم إقـدام المنـية أم غـد؟

فـإن تـك خلفـي لا يفـتها سـواديا   وإن تـك قدامـي أجـدها بمرصـد

إذا أنـت لم تـنفع بـودك أهلـه   ولم تـنك بالبؤسـى عـدوك فابعـد

أي : ورب قـدح أصـفر انتظرت فوزه وخروجه ونحن مجتمعون عند النار وأودعت القدح كـف رجل معروف بالخيبة وقلة الفوز ، وعلى هذا فالدنيا والحياة لا تأتي كما نريد ، كما أن الأيام سـتظهر لك ما لم تكن تعلمه وسيأتيك بالأخبار من لم تشتر له شيئًا مما يحتاجه ولم تبين له وقتًا لنقل الأخـبار إلـيك وإنما يتبرع بنقل الأخبار تبرعًا ويأتيك من غير موعد ، ثم يقول : أقسم بحياتك إن

---

(١) عبد الخالق محمد مايو – ديوان طرفة بن العبد – ص : ٦٢ .

الدنـــيا وما فيها من خير ما هي إلا عارية بيد الإنسان فأكثر من صنع المعروف فيها قبل الرحيل منها ثم يذكر أن الخير الذي يكون بعده الشر ليس بخير وأن العطاء الذي يحصل بعد التردد ليس بعطاء .

ثم يـــوجه من يريد أن يتعرف أخلاق إنسان وطبائعه إلى أن يسأل عن أصحابه وأصدقائه إذ المرء من جليسه .

وأخـــيرًا يذعن طرفة للموت لأنه لا يعلم متى سيأتيه لكنه نازل به لا محالة ولا مهرب منه ثم يقـــرر بأنـــك أيهـــا الإنسان إن لم تنل معروفك للمستحقين له وتصب أعداءك بالشر أهلكك الله وأبعدك.

(ب) الشجاعة :

ومن مظاهرها في معلقة طرفة بن العبد :

١ – الوفـــاء :

وقد اتخذ هذا المظهر الخلقي في معلقة طرفة الصور الآتية :

١ - الوقوف على أطلال منازل الأحبة :

إنـــه الانـــتماء والصـــلة بـــالأرض التي " تقف قسيمًا للصلة بالإنسان في تجسيد هذه القيم النفســـيـــة"[١]حـــيث ارتبطت بالأحبة فأصبح في كل مكان ذكرى ولكل جبل وسهـــل معنى حتى أصـــبحت تلك الأطلال ليست مجرد وشم يلوح في ظاهر اليد وإنما وشم في قلب كل من يشده إلى ذلـــك المكان موقف نفسي إيجابيًا كان أو سلبيًا ، المهم أنه اتخذ من القلب مكانًا فكان لزامًا عليـــه أن يـــتخذ من الأخلاق النفسية جوارًا "وحينذاك تختفي القيم الجزئية العارضة لهذه الأشياء التي تنتثر في هـــــذه النصـــوص كالهوادج والكلل ، والرقم والعقم والجبل والوادي ، والبخت والمراكب ، وتكتسب قيمـــــًا جديدة إضافية من خلال الجو النفسي الذي تثيره هي بالذات .. إنها تتسربل بهذه الأثواب الداخـــــلية تنسجها ثم ترتدي بها ..وتكون الظعن و الحمول بعد ذلك ليست إلا رمـــوزًا ..والجبل ليس بعد هـــــذه الكتلة من الأرض ولكنه هذا الحيز الذي ترتفع فوقه الأحبة .. والسراب لم يعد هذا الحادث الطبيعي وإنما أضحى هذه الموجة التي تحمل الظعن ، تغيبها وتظهرها ، تـــرفعها وتخفضـــها والرمال أضحت جزءًا من حياة الحب لا تنفصل عنه ..والسفن التي شبهت بها

---

(١) د. شكري فيصل – تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام – ص : ١٢٧ .

الظعن والهوادج أضحت لا تعبيرًا عن نوع من المفارقة الفنية فحسب بل تعبير عن نوع من المفارقة النفسية أيضًا . إن سلسلة من القيم الجديدة انضافت إلى هذه "الأشياء" وغيرت نظرتنا إليها وردها من عالمها المادي إلى عالم النفس مصفاة من كل أثوابها الظاهرة " [1] وما كتب الله للشعر الجاهلي الاستمرار والحياة إلى الآن إلا من أجل ذلك وإلا ما شأننا بأمكنة وراحلة عفا عليهما الزمان ؟!

لخولة أطلال ببرقة ثهمد	تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد
بروضة دعمي ، فأكناف حائل	ظللت بها أبكي ،وأبكي ، إلى الغد

والآن هل من شك في أن هذا الوقوف على الأطلال إنما هو وفاء وانتماء استطاع الشاعر الجاهلي أن يضمن لنا حفظه له في وعاء يبقى إلى الأبد ؟إنه وعاء المكان والطلل الذي سيبقى ما بقيت الحياة والناس.

٢ - الجزع والحزن لفراق الأحبة :

وهو أيضًا صورة من صور الوفاء جسدها لنا الشاعر الجاهلي ليوقفنا على حاله بعد أن ضمن لنا الوقوف على أطلال أحبابه إنها طريقة مغرية تستحضر القلوب ويستشهد بها الشاعر الجاهلي كل من قرأ قصيدته على ذلك الوفاء المنقطع النظير ، وفي هذا يقول طرفة :

بروضة دعمي ، فأكناف حائل	ظللت بها أبكي ،وأبكي ، إلى الغد
وقوفا بها صحبي على مطيهم	يقولون : لا تهلك أسى وتجلد

٣ - استحضار صورة المرأة غداة الرحيل :

صورة أخرى من صور وفاء الشاعر العربي وهو يسجل لنا تلك الرحلة النسوية المهيبة في كيان القبيلة النازحة في صورة حسية تجعلنا نشاطر الشاعر متعة النظر وحرارة الخبر :

كأن حدوج المالكية غدوة	خلايا سفين بالنواصف من دد
عدولية أو من سفين ابن يامن	يجور بها الملاح طورا ويهتدي
يشق حباب الماء حيزومها بها	كما قسم الترب المفايل باليد
وفي الحي أحوى ينفض المرد شادن	مظاهر سمطي لؤلؤ وزبرجد

---

(١) السابق – ص : ١٢٨-١٢ .

خـــذول تراعـــي ربـــربًا بخمـــيلة ... تـــناول أطـــراف البريـــر وتـــرتدي

وتبســـم عـــن ألمـــى كـــأن مـــنورًا ... تخلـــل حـــر الـــرمل دعـــص لـــه نـــدي

ســـقته إيـــاة الشـــمس إلا لـــثاته ... أُســـفَّ ولم تكـــدم علـــيه بإثمـــد

ووجـــــه كـــأن الشمس ألقت رداءها ... عليـــه نقـــي اللـــون لم يتخـــدد

٤ - انجـــاز الوعـــد :

صورة حية أخرى يترجم لنا بها الشاعر الجاهلي وفاء العربي وقـــد تمثل ذلك عند طرفة بن العـــبد في وفائـــه لأهل عصبيته فليس له أن يخالفهم مهما كانت درجة الخلاف بينهم فما قطعه على نفسه من وعد فلا بد من الوفاء بإنجازه خوفًا من أن يوصم بالغدر وقد كان العـــرب يعتبرون خلف الـــوعد آفـــة الأخلاق وورد في أمثالهم " آفة المروءة خلف الوعد "(١) ورووا عن عوف بن النعمان الشيباني أنه قال في الجاهلية الجهلاء :"لأن أموت عطشًا أحب إلي من أن أكون مخلاف الموعدة"(٢).

وما دام الأمر كذلك فليس غريبًا على طرفة أن يقول :

وإني وإن أوعدتـــــه ، أو وعدتـــــه ... لمخلـــف إيعـــادي ، ومنجـــز موعدي

أي : إن وعـــدت ابن العم بخير ، أو توعدته بشر أخلف الوعيد ، وأنجز الوعد ، وذلك من مكارم الأخلاق كما رأيت .

٢- العـــزم في المغامرة والترحال :

والعـــزم يعني الجد مع الصبر فإذا اجتمع الجد والقوة مع الصبر وقد سمى العرب الأســـد عزَّامًا لشجاعته وإقدامه وقد سمى الله الأنبياء الذين صبروا وجدوا في سبيل دعوتهم أولي العزم فقال جل شأنه : "فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل "(٣) وهذه الظاهرة الخلقية من مظاهر الشجاعة العـــربية الـــتي اتـــخذت صورًا عديدة في شعر الجاهليين وعندما نقف مع طرفة بن العبد لنرى نصـــيبه مـــن هذا العزم فإننا سنكشـــــف السجف عن فتى شجاع بكل ما تحمله هذه الكلمة وعـــندما ننظر إلى وصف طرفة لناقته فإننا نتصور عزم ذلك الفتى الشجاع ونشاطه إذ " مهما تشبه هذه الصور الواقع الخارجي فهي ليست وصفًا له بـــل تعبيرًا استعاريًا عن الشاعر فعزم الناقة عزمه

(١) ابن سلام – كتاب الأمثال – تحقيق: د/عبد المجيد قطامش – ص : ٧١ .

(٢) الســـــابق – ص : ٧١ .

(٣) سورة الأحقاف آية / ٣٥ .

وعـــناؤها عـــناؤه "[١]ومن خلال وصف طرفة بن العبد لنـــاقته تلك تتجلى لنا صور عزم الشاعر مقـــرونة بـــتلك الصفات العجيبة التي وصف بها طرفة ناقته ومن تلك الصفات : النشاط والسرعة والخشـــونة والقـــوة وعظـــم الأعضاء وشدة الذكاء ورهافة الحس والنيل من الأعـــداء وكل هذه الصـــفات ما هي إلا الظلال الوارفة لنفسية طرفة بن العبد وقد اتخذ من ناقته قناة صالحة لنقل كل تلـــك الأخـــلاق والأحاسيس إلى الناس ومن هنا يمكننا أن نخرج بشيء مهم جدًا مفاده أن وصف الشـــاعر الجاهلـــي للـــناقة والفرس والليل والسيل أشبه ما يكون بالرموز التي تشتمل على معنى الفروســـية والشـــجاعة وهو المعنى الذي يكاد يكون سائدًا في الشعر العربي الجاهلي كله و" الذي يكشـــف عـــن حقيقة موقف البـــدوي من الحياة ورغبته في الانتصار عليها بكل ما أوتي من قوة ويكفيك أن تنظر إلى أوصاف الناقة فكلها أوصاف مشتقة من معاني القوة "[٢] ولو نظرنا في معلقة طرفة بن العبد لوجدنا أن وصف الناقة عنده أخـــذ من المعلقة حيزًا كبيرًا .

يقول طرفة واصفًا ناقته ومستعرضًا لمظاهر أخلاقه الشجاعة :

وإني لأمضـــي الهـــم عـــند احتضـــاره	بعـــوجاء مـــرقال ، تـــروح وتغـــتدي
أمـــون ، كألـــواح الإران نســـاقها	علـــى لاحـــب ، كأنـــه ظهـــر بـــرجد
جمالـــية وجـــناء ، تـــردى كأنهـــا	ســـفنجة تـــبري لأزعـــر أربـــد
تـــباري عـــتاقا ناجـــيات ، واتـــبعت	وظـــيفاً وظـــيفاً فـــوق مـــور معـــبد
تـــربعت القفـــين في الشـــول ترتعـــي	حدائـــق مـــولي الأســـرة أغـــيد
تـــربع إلى صـــوت المهـــيب ، وتتقـــي	بـــذي خصـــل ، روعـــات أكلـــف ملبد
كـــأن جناحـــي مضـــرحي تكـــنفا	حفافـــيه شـــكا في العســـيب بمســـرد
فطـــورا بـــه خلـــف الـــزميل ، وتارة	علـــى حشـــف كالشـــن ذاو مجـــدد
لهـــا فخـــذان أكمـــل الـــنحض فيهما	كأنهمـــا بابـــا منـــيف ممـــرد
وطـــي محـــال كـــالحني خلـــوفه	وأجـــرنة لـــزت بـــدأي منضـــد
كـــأن كناســـي ضـــالة يكـــنفانها	وأطـــر قســـي تحـــت صـــلب مـــؤيد
لهـــا مـــرفقان أفـــتلان كأنمـــا	تمـــر بســـلمي دالج متشـــدد

---

(١) د. سوزان بنكي – أدب السياسة وسياسة الأدب – ص: ٦٧ .

(٢) د. محمد زكي العشماوي – النابغة الذبياني مع دراسة للقصيدة العربية في الجاهلية – ص : ٢٢٨.

كقنطرة الرومي أقسم ربها ... لتكتنفن حتى تشاد بقرمد

صهابية العثنون ،موجدة القرا ... بعيدة وخد الرجل ، مؤارة اليد

أمرت يداها فتل شزر ، وأجنحت ... لها عضداها في سقيف مسند

جنوح ، دفاق ،عندل ، ثم أفرعت ... لها كتفاها في معالى مصعد

كأن علوب النسع في دأياتها ... موارد من خلقاء في ظهر قردد

تلاقى ، وأحياناً تبين كأنها ... بنائق غر في قميص مقدد

وأتلع نهاض إذا صعدت به ... كسكان بوصي بدجلة مصعد

وجمجمة مثل العلاة كأنما ... وعى الملتقى منها إلى حرف مبرد

وخد كقرطاس الشآمي ، ومشفر ... كسبت اليماني ، قده لم يجرد

وعينان كالماويتين استكنتا ... بكهفي حجاجي صخرة قلت مورد

طحوران عوار القذي فتراهما ... كمكحولتي مذعورة أم فرقد

وصادقتا سمع التوجس للسري ... لهجس خفي ، أو لصوت مندد

مؤللتان تعرف العتق فيهما ... كسامعتي شاة بحومل مفرد

وأروع نباض ، أحذ ، ململم ... كمرداة صخر في صفيح مصمد

وإن شئت سامي واسط الكور رأسها ... وعامت بضبعيها نجاء الخفيدد

وإن شئت لم ترقل . وأن شئت أرقلت ... مخافة ملوي من القد محصد

وأعلم مخروت من الأنف مارن ... عتيق ، متى ترجم به الأرض تزدد

إذا أقبلت قالوا : تأخر رحلها ... وإن أدبرت قالوا : تقدم فاشدد

وتضحي الجبال الحمر خلفي كأنها ... من البعد حفت بالملاء المعضد

وتشرب بالقعب الصغير وإن تقد ... بمشفرها يوماً إلى الليل تنقد

على مثلها أمضي إذا قال صاحبي: ... ألا ليتني أفديك منها ، وأفتدي

إن مما وصف به طرفة الناقة في الأبيات السابقة أنها كالسفينة العظيمة وكألواح التابوت وكقنطرة الرومي :

كأن حدوج المالكية غدوة ... خلايا سفين بالنواصف من دد

كقنطرة الرومي أقسم ربها ... لتكتنفن حتى تشاد بقرمد

وهي عظيمة الوجنات تشبه الجمل في وثاقة الخلق والنعامة في سرعة الجري :

جمالية وجناء تردي كأنها سفنجة تبري لأزعر أربد

ولو تتبعنا بقية أوصاف ناقة طرفة بن العبد لوجدناها تمثل مقومات الشجاعة ومطالبها التي يسعى العربي إلى امتلاكها وإذا تغنى بها الشعراء من خلال مغامرات الترحال أمثال طرفة فإنما يريد أن يوصل لنا رسالة أخلاقية مفادها أن تلك الأخلاق والصفات التي وصف بها راحلته هي صفات يحبها ويتحلى بها ، وإن ما ذكره من أوصاف لراحلته هي بالتالي ظلال نفسه وهي أمور معنوية لما أراد الشاعر أن يوصلها إلى متلقيه لم يجد بدًا من تجسيدها في تلك المغامرات الحسية ليضمن وصولها إليهم من خلال شيء ألفوه وحبوه وأنسوا لذكره وأعني بذلك الراحلة .

٣ - الشعور بالانتماء والإحساس بالواجب :

إن الشعور بالانتماء والإحساس بالواجب ظاهرة إنسانية حميدة وقد أدرجناها في مظاهر الشجاعة إيمانًا منا بأن الإنسان يمكن أن يقابل إزاء هذا الشعور النبيل بالجحود من الناس حتى ولو كانوا من الأقارب والخصوص وعندها يكون من يتحلى بذلك الشعور بحاجة إلى الصبر والصمود أمام موجات الجحود ونكران الجميل إلا أن شيمة الرجل الكريم وشجاعته ومروءته تحتم عليه الإحساس بواجبه والقيام به في أحلك الظروف وقد جاءت هذه الظاهرة عند طرفة في الصور الآتية :

١ - الصبر على ظلم الأقارب :

فما لي أراني وابن عمي مالكاً؟ متى أدن منه ينأ عني ، ويبعد

يلوم ، وما أدري علام يلومني؟ كما لامني في الحي قرط بن أعبد

وأيأسني من كل خير طلبته كأنا وضعناه إلى رمس ملحد

على غير ذنب قلته غير أنني نشدت فلم أغفل حمولة معبد

وقربت بالقربى ، وجدك إنني متى يك أمر للنكيثة أشهد

٢ - **إجابة الصريخ :**

"إذ لا يفعل ذلك إلا الشجعان الأقوياء ، ولا يتخلف عنه إلا المَبَلَّدُ الجبان "[١] يقول طرفة :

وإن أدع في الجلــي أكــن مــن حماقـــا   وإن يأتــك الأعــداء بالجهــد أجهــد

وإن يقذفــوا بالقــذع عرضــك أسقهم   بكــأس حــياض المــوت قــبل التهدد

٣ - **مد يد العون لكل محتاج : وفي ذلك يقول طرفة :**

ولســت بحــلال الــتلاع مخافــة   ولكــن مــتى يســترفد القــوم أرفــد

٤ - **الفخر بعراقة النسب :**

وهــذا أيضًــا مــن صور الانتماء وقد قيل : هذا الشبل من ذاك الأسد وقد كان العرب يفاخرون في مواطن الشجاعة بعراقة النسب هذه وفي هذا يقول طرفة :

وإن يلــتق الحــي الجمــيع تلاقــني   إلى ذروة البــيت الكــريم المصــمد

إن انــتماء طــرفة وإحساســه بواجبه تجاه أقاربه وعشيرته "جعله يشعر بأنه لابد أن يجيب قـــــومه حتى لو لم يدعه القوم فإن أية دعوة وإن لم توجه إلى فرد بعينه إنما هي دعوة موجهة إليه وإلى كل من ينتمي إلى هذا الكائن العضوي الذي هو القبيلة وأية إشارة إلى العمل أو الفداء وإن لم توجه إليه فهي له "[٢].

ولهذا كله فقد كان لزامًا عليه أن يتصف بجميع صور الانتماء السابقة الذكر .

إن الــتمازج الحــي المثير بين الشعور بالذات والشعور بالجماعة ومحاولة المصالحة مع الحياة بكــــل متناقضاتها بحيث "يروي ظمأه من ملذاتها ما استطاع مع المحافظة على القيم الإنسانية والمثل الأخلاقية التي تجعــل من الحياة معنى "[٣] هــو مــا كــان يســعى طــرفة بن العبد إلى تحقيقه في أبــياته هذه ، ألا تراه يفــاخر بشرف نسبه الكريم وعنصره الشريف ؟!ثم إنه حتى في وقت لهوه لا يجالس إلا ندامى أحــــرار ، تتلألأ ألوانهم ، وتشرق وجوههم (نداماي بيض كالنجوم ...) .

---

(١) محمد الناصر –أخلاق العرب بين الجاهلية والإسلام ص : ١٠٦ .

(٢) د. محمد زكي العشماوي – السابق – ص : ٢٨٣ .

(٣) د . محمد زكي العشماوي – السابق – ص : ١٢٧.

٤ - النشاط الجم والذكاء المتوثب :

من أهم مظاهر الشجاعة في معلقة طرفة إذ ما للإنسان بالجسم القوي والبنية الضخمة إن لم يكن جم النشاط متوثب الذكاء ؟!

إن طرفة بن العبد يخبرنا بأنه يتمتع بذلك المظهر المهم إذ يقول :

أنا الرجل الضرب الذي تعرفونه   خشاش كرأس الحية المتوقد

أي : أنا كما تعرفونني رجل جم النشاط متوثب الذكاء كأنني رأس حية يتوقد حراكًا وانتباهًا ، ولا أظن أن هناك تشبيهًا يصور ذكاء الرجل أقوى من هذا التشبيه ، ولا يؤمن بصحتة إلا امرؤ رأى في الطبيعة الحية وهي تمارس ذلك التوقد والانتباه .

٥ - ملازمة السلاح وسرعة اليقظة :

إن طبيعة الحياة الصحراوية المضطربة والقائمة على الغزو والغارة والعداء تحتم على الفارس الشجاع أن يلازم سلاحه وأن يكون في يقظة مستمرة وإلا وقع به ما لا تحمد عقباه وفي ذلك يقول طرفة :

فآليت لا ينفك كشحي بطانة   لعضب رقيق الشفرتين مهند

حسام إذا ما قمت منتصراً به   كفى العود منه البدء ليس بمعضد

أخي ثقة لا ينثني عن ضريبة   إذا قيل : مهلاً ، قال حاجزه : قدي

إذا ابتدر القوم السلاح وجدتني   منيعاً إذا بلت بقائمه يدي

إنه ممن أقسموا على ملازمة السيف صديقًا يعتمد عليه لا تخيب ضربته ولا ينفع معه الاستمهال إذا هب القوم بأسلحتهم حماه ما دام مقبضه في يده .

٦ - الذب عن الحريم في مواطن الشدة :

ولم أدرج هذا المظهر كصورة من صور الشعور بالانتماء والإحساس بالواجب وذلك اعتقادًا مني بأن هذا المظهر الخلقي أخذ من الشعر العربي المكانة الكبرى فقل ما تجد شاعرًا جاهليًا يهمل الفخر بشجاعته وشجاعة قومه وخاصة في الذب عن الحريم في مواطن الشدة فكان هذا سببًا كافيًا لإفراده كمظهر من مظاهر الشجاعة لا مجرد صورة من صور الشعور بالانتماء .

ومما قاله طرفة من معلقته في هذا المظهر :

لعمــرك ، مــا أمــري علــي بغمــة ... نهــاري ، ولا ليلــي علــى بســرمد

ويــوم حبســت الــنفس عــند عراكه ... حفاظــاً علــى عــوراته والــتهدد

علــى مــوطن يخشى الفتى عنده الردى ... مــتي تعتــرك فــيه الفــرائص تــرعد

فهــو هنا يقسم إنه ليس ممن يتلبسه الهم نهارًا ولا ممن يطول ليله حسبانًا لما يلقاه في غده فكم خــاض من عراك وحرب حفاظًا على عورته وعرضه ومحارمه في موطن ترتعد فيه الفرائص ذعرًا .

٧ - الكـرم:

وهــو مظهر من مظاهر الشجاعة كما أوضحنا ذلك في معلقة امرئ القيس و" ليس هناك ما يدعــونا إلى تأكيد القول بأن بذل العون للمحتاج وإغاثة الملهوف واستجارة المستجير عمل من أعمــال الــبطــولة لا تنحصر دلالته عند مجرد الكرم وحده كما لا يكسب صاحبه صفة الجود فحســب وإنمــا هــو عمل فيه مــن الفروسية والبطولة ما لا يقل عن معاني الاستبسال في القتال والــذود عن الحياض "[1]ولعلنا لا نستغرب عندما نرى غلوًّا في الكرم عند العربي الجاهلي فإنما مرد ذلك إلى كونه يعتبر الكرم في شتى صوره مظهــراً من مظاهر الشجاعة والفروسية وهذا ما أوجد بعض المظاهر الخلقية المذمومة فيه والتي كان مــردها إلى اندفاع نفس العربي الشجاعة في كل شيء حــتى في الكرم ، ومن بواعث الكرم عند العرب حياة الصحراء القاسية وما فيها من جدب وإمحال إضافة إلى سبب آخر يتمثل في كلف العرب بحسن الأحــدوثة وطيب الثناء فهم ذوو أريحية تسعد نفوسهم بمساعدة المحتاج وإطعام الجائع وإغاثة الملهوف وكان المــال عندهم وسيلة لا غاية ، وسيلة إلى كسب المحامد .

وفي معلقة طرفة اتخذ الكرم عدة صور منها المذموم ومنها المحمود :

١ - **التهور والإسراف وعدم صون الأموال :** ويبدو هذا المظهر المذموم للكرم في قوله :

وبــرك هجــود قــد أثــارت مخــافتي ... نــواديها أمشــي بعضــب مجــرد

فمــرت كهــاة ذات خــيف جلالــة ... عقــيلة شــيخ كالوبــيل يلــندد

يقــول وقــد تــر الوظــيف وساقها : ... ألســت تــرى أن قــد أتــيت بمؤيد؟

(١) د. محمد زكي العشماوي – السابق – ص : ٢٢٧ .

وقـــال : ألا مـــاذا تـــرون بشـــارب ... شـــديد علينـــا بغـــيه مـــتعمد

وقال : ذروه ، إنــــما نفعـــــها ... وإلا تـــردوا قاصـــي الـــبرك يـــزدد

فهـــو هـــنا يصور كرمه الذي تعدى فضيلة الكرم إلى طرفها المرذول بأنه عقّار الإبل يهجم علـــيها وهي نائمة فيفزع أوائلها وهو يمشي بسيف مجرد مسلول ويسرف في عقرها وبتر سوقها إلى الدرجـــة التي يعذله فيها والده فلا يبقى أمام الشيخ الكبير – والده – إلا الاستسلام بقوله : دعوه فهـــي ماله ومن حقه فلو منعتموه لازداد لها عقرًا وقتلاً . ثم يورد طرفة متممًا عرضيًا لتلك الصورة المذمومة فيقول :

فظـــل الإمـــاء يمـــتللن حـــوارها ... ويســـعى علينـــا بالسديف المسرهد

فـــإن مـــت فانعـــيني بمـــا أنـــا أهله ... وشـــقي علـــي الجيب يا ابنة معبد

ولا تجعلـــيني كامـــرئ لـــيس همـــه ... كهمـــي ، ولا يغني غنائي ومشهدي

حيث يذكر انصرافه مع الإماء إلى شيِّ اللحم بالجمر وتقديمه مع لحم السنام الفاخر ، ويرى أن الفروســـية في هذا التهور وهذا الإسراف ويطلب من ابنة أخيه أن تذكر نعيه بعد موته مشفوعًا بتلك الشمـــــائل والصفات من كرم وشجاعة وجرأة وبسالة وإقدام .

٢ - الإغراق في الملذات :

مـــن شـــرب الخمـــر ومداعبة الجواري والمغنيات وملامسة أجسادهن الناعمة والمبالغة في الشرب وإتلاف الأموال :

نـــداماي بـــيض كالـــنجوم وقيـــنة ... تـــروح علينـــا بـــين بـــرد ومجســـد

رحـــيب قطـــاب الجـــيب مـــنها رفيقة ... بجـــس الندامـــى بضـــة المتجـــرد

إذا نحـــن قلـــنا : أسمعيـــنا انـــبرت لنا ... علـــى رأســـها مطـــروفة لم تشـــدد

إذا رجعـــت في صـــوتها خلـــت صوتها ... تجـــاوب أظـــآر علـــى ربـــع رد

وكانت النتيجة الحتمية لاستجابة نداء النفس الأمارة بالسوء مقاطعة العشيرة لطرفة وعزله كما يعزل البعير الأجرب حيث يعترف لنا بذلك قائلاً :

ومـــا زال تشـــرابي الخمـــور ، ولـــذتي ... وبيعـــي وإنفاقـــي طريفـــي ومـــتلدي

إلى أن تحامـــتني العشـــيرة كلـــها ... وأفـــردت إفـــراد الـــبعير المعـــبد

٣ - مساعدة الفقراء ومعاشرة الوجهاء :

وهذه صورة محمودة من صور الكرم عند طرفة حيث يقول :

رأيـــت بـــني غـــبراء لا ينكـــرونني ولا أهـــل هـــذاك الطـــراف الممـــدد

يقـــول :لمـــا اعتزلتني عشيرتي رأيت الفقراء وغيرهم من المحاويج لا ينكرون إحساني وإنعامي عليهم ورأيت الأغنياء الذين لهم بيوت من جلد لا ينكرونني أيضًا لاستطابتهم صحبتي ومنادمتي .

والمراد : هجرني الأقارب ووصلني الأباعد الفقراء لطلب المعروف ، والأغنياء لطلب العلا .

٤ - نجدة المستنجد :

وإنمـــا جعلـــنا هذه الصورة من صور الكرم ومن ثم مظهرًا من مظاهر الشجاعة لأننا رأينا أن طـــرفة يذكـــر في معلقته أنه يجود بروحه في سبيل نجدة المستغيث وهذه صورة من أجـــل صور الكرم ومظهر من أعلى مراتب الشجاعة العربية .

يقول :

وكـــري إذا نـــادى المضـــاف محنـــبا كســـيد الغضـــا نبهـــته المـــتورد

إنـــه يجعـــل من إعانة المهموم وبذل العون له عملاً من أعمال البطولة ، بل جعل ذلك أحد أهدافه الثلاثة التي لولاها لما كان للوجود قيمة في ذاته .

٨ - ادخار المحامد :

من كرم الأصل وشرف المنبت وطيب العنصر وصدق العزيمة والإقدام في ميدان الحرب كل هـــذه الأمور تعد من الأمور المهمة لمن يريد أن يسجل في قائمة الشجعان ولحرص طرفة على تلك المحامد ونسبتها إليه جمعها في بيت واحد وهو قوله :

ولكـــــن نفى عني الأعادي جـــرأتي عليهـــــم وإقدامي وصـــدقي ومحتدي

(جـ) العـــدل :

وقد تجلت هذه الفضيلة في معلقة طرفة في ثلاثة مظاهر هي :

١- الصـــبر والمسامـــحة :

مظهر محمود من مظاهر فضيلة العدل ، وإنما رأينا إدراج هذا المظهر تحت فضـــيلة العدل لمـــا اسشعرناه من نفس طرفة بن العبد التي ساست الغضب على الأقارب نتيجة ظلمهم والشهـــوة المتمـــثلة في الحصـــول على الحقوق المسلوبة حيث استطاع حمل نفسه على مقتضى الحكمة وضبط

النفس في الاسترسال والانقباض وهذا ما يتضح لنا في قوله :

فمـــا لي أراني وابـــن عمـــي مالكـــاً؟ ... مـــتى أدن مـــنه يـــنأ عـــني ، ويـــبعد

يلـــوم ، ومـــا أدري عـــلام يلـــومني؟ ... كمـــا لامـــنى في الحـــي قـــرط بن أعبد

وأيأســـني مـــن كـــل خـــير طلبـــته ... كأنـــا وضـــعناه إلى رمـــس ملحـــد

علـــى غـــير ذنـــب قلـــته غـــير أنـــني ... نشـــدت فلـــم أغفـــل حمـــولة معـــبد

وقـــربت بالقـــربى ، وجـــدك إنـــني ... مـــتى يـــك أمـــر للنكيـــثة أشـــهد

وإن أدع في الجلـــي أكـــن مـــن حماتهـــا ... وإن يأتـــك الأعـــداء بالجهـــد أجهـــد

وإن يقذفـــوا بالقـــذع عرضـــك أسقهم ... بكـــأس حـــياض المـــوت قـــبل التهدد

بـــلا حـــدث أحدثـــته ، وكمحـــدث ... هجائـــي وقـــذفي بالشـــكاة ومطـــردي

فلـــو كـــان مولاي امـــرءاً هـــو غيره ... لفـــرج كـــربي ، أو لأنظـــرني غـــدي

ولكـــن مـــولاي امـــرؤ هـــو خانقـــي ... علـــى الشكر والتسآل ، أو أنا مفتدي

٢ - الجـــور :

وهـــو مظهر خلقي مذموم يمثل الطرف المضاد لفضيلة العدل ويتمثل ذلك الجور في معلقة طرفة في عدم الرأفة بالحيوان أثناء الركوب كما في قوله :

وإن شـــئت لم تـــرقل . وأن شئت أرقلت ... مخافـــة ملـــوي مـــن القـــد محصـــد

وقوله :

أحلـــت علـــيها بالقطـــيع فأجـــذمت ... وقـــد خـــب آلال الأمعـــز المـــتوقد

فـــذالت ، كمـــا ذالـــت ولـــيدة مجلس ... تـــري ربهـــا أذيـــال ســـحل ممـــدد

حيث يقبل على ناقته ضربًا بالسوط لتسرع في السير تحت وطأة الضرب الشديد .

كمـــا يظهر عدم الرأفة بالحيوان أثناء ذبحه أو نحره حيث نرى طرفة يعقر ويبتر ويجفل النوق الآمنة وكـــل هذا يتمثل في قوله :

يقـــول وقـــد تـــر الوظـــيف وســـاقها : ... ألســـت تـــرى أن قـــد أتـــيت بمـــؤيد؟

٣ - الإحسان :

وهو مظهر محمود من مظاهر العدل مع النفس ومع الناس وفي هذا يقول طرفة بن العبد :

لعمــــرك مـــا الأيــــام إلا معـــــارة فمـــا اســـطعت مـــن معروفها ، فتزود

ولا خـــير في خـــير تـــرى الشـــر دونه ولا نائـــل يأتـــيك بعـــد الـــتلدد

فهـــو هنا يدعو إلى الاستزادة من الإحسان بشتى صوره وفي المقابل استقباح المنكر والبعد عنه ، كما أنه يكره الخير والإحسان الذي يأتي بعد التحير والخصومة .

(د) العـــفة:

ومن مظاهر هذا الخلق الفاضل في معلقة طرفة بن العبد :

١- الحيـــاء:

ويتمثل هذا المظهر الخلقي في وصف طرفة لمحبوبته وتشبيهه لها بالظبي الخذول الذي يتناول أطراف ثمر الأراك ويستتر بأغصانه ونستشف من هذا الاستتار الذي أحبه طرفة في الظبية حياء المرأة المستتر وراء ذلك الدلال العجيب .

يقول طرفة :

وفي الحـــي أحـــوى ينفض المردشادن مظاهــــــر سمطــــــي لؤلؤوزبــــــرجد

خـــذول تراعـــى ، ربـــربا بخمـــيلة تـــناول أطـــراف البريـــر ، وتـــرتدي

ويتمم طرفة هذا المظهر الخلقي الحسن في محبوبته بمتمم عرضي يتمثل في قوله :

وتبســـم عـــن ألمـــى، كـــان مـــنورا تـــخلل حر الرمـــل ، دعـــض له ندي

ســـقته إيـــاه الشـــمس إلالـــثاته أســـف ولم تكـــدم علـــيه بإثمـــد

ووجـــه كـــأن الشـــمس ألقـــت رداءها علـــيه نقـــى اللـــون ، لم يـــتحدد

إن ذلك الثغر الندي وتلك الأسنان البراقة وذلك الوجه المشرق الذي لم تشب جماله الغصون والشـــقوق منعه الحياء من الخروج إلى مثل تلك المؤثرات ، وإن وقعت عليه العين مرة واحدة فهو ظـــبي شـــرود لن تقع عليه مرة أخرى ، وفي البيت العاشر ما يدل على عفة المرأة حيث إنها لعفتها تأكل اللحم وتترك العظم فهي بذلك عفيفة ليست بشرهة .

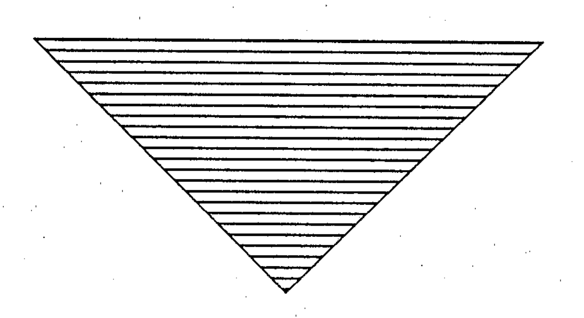
٢ - الإسراع إلى المكارم والإقلاع عن الفحشاء :

ويتضـــح هـــذا المظهر الخلقي المحمود في طلب طرفة من ابنة أخيه أن تنعاه بما هو أهله حيث يقول :

ولا تجعلـــيني كامـــرئ لـــيس همـــه ... كهمـــي ، ولا يغـــني غنائـــي ومشـــهدي

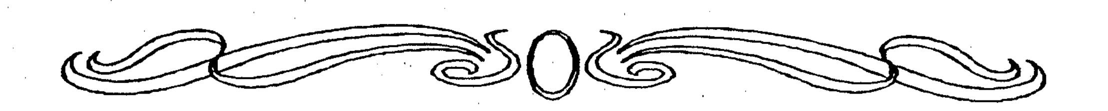
بطـــئ عـــن الجلـــي ســـريع إلى الخـــنا ... ذلـــول بأجمـــاع الـــرجال ملهـــد

فهو ينفي عن نفسه أن يكون من الرجال المغمورين الذين يقصرون عن المكارم ويسارعون إلى الفحشـــاء يُدفع أحدهم بالأكف ويطرد من المجالس ويُهان . وهو عندما يصدر منه هذا النفي فكأنما اشتعلت في نفسه جذوة العفة عن المسارعة إلى الفحشاء .





الإطار الخلقي لمعلقة زهير بن أبي سلمى



معلقة زهير بن أبي سلمى*

إضاءة :

عندما نقف مع معلقة زهير هذه فإننا نقف مع رجل سياسي مفكر يدبر الأمور ويحاول أن يصلح منها ما عطب ، ولا ريب في ذلك فزهير بن أبي سلمى بما عرف عنه من رجاحة عقل وخبرة عميقة بالحياة بمختلف ظروفها ، وحبه للأمن والسلام يعد من أعلام الفكر العربي فهو الشاعر المجرب والسياسي المحنك .

وقد تميز زهير بذلك الميل الفطري للسلم والسلام فسجل بذلك " شذوذًا على ذوق الجاهليين وأشعارهم التي تدوي بفكرة الأخذ بالثأر والترامي على الحرب ترامي الفراش على النار "[(١)] ومن يمعن النظر في معلقة زهير فإنه سيجد أن الجانب الخلقي العقلي هو الرابط النفسي الخفي الذي يربط أجزاء معلقته هذه - بغض النظر عما وقع فيها من خلط الرواة من تقديم بيت على آخر أو زيادة في عدد الأبيات بين رواية وأخرى - فيكون منها وحدة عضوية لا تقبل التفكيك أو التجزئة ، وستلاحظ أننا وإن كنا حاولنا أن نجعل لكل أصل من الأصول الأخلاقية الأربعة إطارًا خاصًا في المعلقة وندرج تحته مظاهره المتعددة إلا أن فضيلة الجانب العقلي بمظاهرها وصورها الكثيرة تظل هي المسيطرة على جو المعلقة من أولها إلى آخرها حتى كأن الأصول الأخلاقية الثلاثة الأخرى (الشجاعة ، العدل ، العفة) وما يندرج تحت كل منها من مظاهر تكاد أن تكون هي أيضًا مظاهر رئيسة أو كبيرة لفضيلة العقل . كما أن من يدقق النظر أيضًا في معلقة زهير يجده لم يصف الراحلة الخاصة به من ناقة أو فرس أو نحوهما على عادة الشعراء الجاهليين وإنما كان جل حديثه في هذا المضمار يتمثل في وصف ظعن المحبوبة ، وهو أيضًا وصف من نوع خاص ، وكأن زهيرًا بذلك ترك قناة من قنوات الاتصال بمتلقيه لم يرها صالحة لنقل غرضه الأخلاقي الأسمى وهو الدعوة إلى السلام فهو لم يستعرض مظاهر الشجاعة التي من الممكن أن تقوض قواعد السلام والأمن الذي يدعو إليه وإنما ترك الراحلة و" أعرض عنها فلم يصفها ساكنة ولا متحركة ولم يمض في هذه التشبيهات التي تعود الشعراء أن يمضوا فيها لأنه عن كل هذا مشغول ؛ مشغول،لا أقول بمدح صاحبيه اللذين مدحهما بل الدعوة إلى السلم التي يحبها ، ويكلف بها ، ويريد أن يحببها إلى الناس ، ويتخذ مدح صاحبيه هذين وسيلة إلى ما يريد"[(٢)] وهو عندما ترك قناة الراحلة غير الصالحة في

---

* المعلقات السبع – ص : ٩٩-١٢٣.

(١) د. شوقي ضيف – العصر الجاهلي – ص : ٣٠٨ .

(٢) د. طه حسين – حديث الأربعاء – ج١/ ٨٥ .

هــذا المجــال فقد اتخذ قنوات أخــرى صالحة لنقل رسالته الأخلاقية تلك وأعني بتلك القنوات (الإنســان والمجــتمع بعاداتــه وتقاليده ومظــاهر معايشه المتنوعة ، الزمن) وسنوضح ذلك كله في دراستنا لهذه المعلقة من الجانب الخلقي فيما يأتي مــن صفحات هذا البحث .

ولعــل من أهم ما يميز زهيرًا في معلقته الإكثار من تقديم الصور الحسية البسيطة لمتلقيه وكأنما أراد أن يقرب من خلالها صورة الحرب وصورة السلام من العقول على مختلف مستوياتها .وفي سوقه لــبعض مظــــاهر الشجاعة والعدل والعفة ما يخدم غرضه من إنشاء معلقته ، فهو مثلاً لم يسق من مظاهر الشجاعة إلا مــا يخدم غرضه الأساس فهو داعية سلام وأمن لا داعية حرب وذعر .

والآن ســنعرض للمناسبة التي نظم فيها زهير معلقته ليزداد الأمر وضوحًا وتجلية ، فقد أورد الأصــفهــــاني أن هــذه المعلقة " قالها زهير في قتل ورد بن حابس العبسي هرم بن ضمضم المري الذي يقول فيه عنترة وفي أخيه :

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر   للحرب دائرة على ابني ضمضمِ

ويمــدح بها هرم بن سنان والحارث بن عوف بن سعد بن ذبيان المريين لأنهما احتملا ديته في مالهما وذلك قول زهير :

سعى ساعيا غيظ بن مرة بعدما   تبزّل ما بين العشيرة بالـــــدمِ

يعــني بني غيظ بن مرة بن سعد بن ذبيان " [1] وعندما أعلن هرم بن سنــــان والحارث بن عوف بأنهما " يتحملان ديات القتلى حتى تضع الحرب أوزارها بين القبيلتين المتناحرتين ، وتصادف في أثنــاء ذلك أن قتل الحصين بن ضمضم عبسيًا ثائرًا لأخيه هرم بن ضمضم ، وكان قتله ورد بن حــابس العبســي فثــارت عبس وشهرت سيوفها تريد أن تعيد الحرب جذعة . وسرعان ما تقدم الحارث لهم بمائة من الإبل وبــابنه ليختاروا إما الدية وإما قتل فلذة كبده ، فقبلوا الدية ودخلوا في الصلح وانتهت الحرب الداميــة"[2].

والآن وبعد أن كشفنا ظروف و مناسبة نظم هذه المعلقة فإننا مطالبون بتأطير الجانب الخلقي لهــا وفـــــق أصول الفضائل والأخلاق الأربعة بما يندرج تحت كل واحد منها من مظاهر وصور خلقية .

---

(١) الأصفهاني – الأغاني – ج١٠/ ٣٤١-٣٤٢ .

(٢) د. شوقي ضيف – العصر الجاهلي – ص : ٣٠٧ .

(أ) العقــل :

ســبق أن ذكرنا أن هذه الفضيلة الخلقية في معلقة زهير هي الرابط النفسي القوي الذي يشد أجــزاء المعلقة بعضها إلى بعض " فمعلقته ببساطة تقدم لنا نظرة شاملة في فلسفة الواقع الاجتماعي المتجدد في حـــربه وسلمه ، وفي خيره وشره ، وما يطرأ عليه من أحوال لا تعرف طعم الاستقرار والأمن إلا إذا تغلبت فيها رجاحة العقل على جموح العاطفة وانتصر الخير على الشر "[١].

ولعلــنا أول ما نستشعر ذلك في تلك الصورة الحسية التي مهد بها زهير لغرضه وأعني بذلك صورة الموكب الآمنة لرحلة المحبوبة والتي يتكشف معها أول مظهر عقلي في المعلقة ألا وهو :

١- السيــاسة :

ساس الأمور : " دبرها وقام بإصلاحها " [٢]، والسياسة من أقسام العقل كما عدّها قدامة بن جعفــر في كــتابه نقــد الشعر [٣]، ولعل هذا المظهر العقلي يكون اسمًا جامعًا لكل صور الإصلاح والدعوة إلى السلم والسلام التي دعا إليها زهير في معلقته ومن صور هذا المظهر :

١ – الدعوة إلى التفكير والتذكر : وذلك حين يقول زهير :

تبصــر خليلــي هــل تــرى مــن ظعائن	تحملــن بالعلــياء مــن فــوق جــرثم
جعلـــن القـــنان عـــن يمـــين وحـــزنه	وكـــم بالقـــنان مـــن محـــل ومحـــرم
وعـــالين أنماطًـــا عـــتاقا وكلـــة	وراد الحواشـــي لـــونها لـــون عـــندم
ظهـــرن مـــن الســـوبان ثم جـــزعنه	علـــى كـــل قـــيني قشـــيب ومفـــأم
ووركـــن في الســـوبان يعلـــون متـــنه	علـــيهن دل الـــناعم المتـــنعم
كـــأن فـــتات العهـــن في كـــل مـــنزل	نـــزلن بـــه حـــب الفـــنا لم يحطـــم
بكـــرن بكـــورا واســـتحرن بســـحرة	فهـــن ووادي الـــرس كالـــيد في الفـــم
فلمـــا وردن المـــاء زرقـــا جمامـــه	وضـــعن عصـــي الحاضـــر المتخـــيم
تذكـــرني الأحـــلام ليلـــى ومـــن تطـــف	علـــيه خـــيالات الأحـــبة يحلـــم
وفيهـــن ملهـــى للطيـــف ومنظـــر	أنيـــق لعـــين الـــناظـــر المتـــوسـم

إنهـــا صـــورة حسية ساذجة يمهد بها زهير لغرضه الأساس كما أسلفنا – الدعوة إلى الأمن

---

(١) محمد صادق حسن عبد الله – المعاني المتجددة في الشعر الجاهلي – ص : ١٦٣ .

(٢) المعجم الوسيط – ج١/ ٤٦٢.

(٣) قدامة بن جعفر – نقد الشعر – ص : ٦٧.

والسلام – فهـــوعندما يخاطب خليله بقوله : " تبصر خليلي ... " فإن في هذا الأمر دعوة الإنسان إلى الـــتفكير والتذكـــــر ليس في مجرد حقيقة الظعائن التي مرّ على رحيلها عشرون عامًا أو أكثر ، وإنمـــا أراد زهــــــير أن يوجه إلى الناس (المتلقين) من خلال مخاطبة خليله دعوة صادقة إلى القبيلتين المتخاصمتين من خلال تلك الرحلة الآمنة التي بدأت مسيرها في السحر متجهة مباشرة نحو وادي الـــرس فاخترقـــــت بذلك كثيرًا من الأماكن التي فيها الأعداء والأصدقاء ، وعلى الموكب دلائل النعيم والترف إلى أن وصلت الظعائن إلى الماء الغزير الصافي آمنات مطمئنات " وكأنه حينما وصـــل إلى هـــذا المنظر الجميل الفتّان سبح به خاطره إلى جمال الخلق وروعة السلوك ، وحب الخير والتضحية في سبيل الأمن والاستقرار "[١].

وإنني لأجد في قوله :

بكرن بكورًا واستحرن بسحـــرة فهن ووادي الرّس كاليـــد للفـــمِ

صـــورة حســـية مـــوجهة إلى القبيلتين المتناحرتين يريد زهير أن يبرهن من خلالها أن الأمن والســـلام أقـــرب مـــن اليد للفم والحرب كذلك ، فالسلام والأمن مركب آمن يصل بأهله إلى بر الأمان.

إن نفـــس زهير الميّالة بفطرها إلى حب الاستقرار والسلام والأمن رأت جمال الظعائن في أمنها واطمئـــنانها إلى الدرجـــة التي ترى فيه جمال حب عنب التعلب في عدم تكسيره لأنه إذا تكسر ظهر داخلـــه غـــير اللون الأحمر المقصود بالتشبيه ، ورأت أن جلال الظعائن واكتمال صورها يكمن في وصولها إلى الماء الصافي المقصود في أمن ودعة ومنعة وفي منظر معجب لعين الناظر المتفرس .

إنـــه بـــتقديمه هـــذه الصـــورة الحســـية يضع نمطًا عقليًا أمام القبيلتين المتناحرتين متمثلاً في الصـــــورة الرائعة التي رسمتها مخيلة الأمن والسلام فهي على تلك الحالة العجيبة لم ينغصها منغص فيحيل أمنها وســـلامها إلى حرب ودمار ، و" ومع هذا الاستقرار وذلك الهدوء يبدو تلميح زهير إلى أهمـــية قضـــية الســـلام من خـــلال إيحاء مشهد ذلك الماء الصافي الذي استوقفه في ختام لوحة الظعينة "[٢].

(١) د . علي الجندي – في تاريخ الأدب الجاهلي – ص : ٣٠٢ .

(٢) د . عبد الله التطاوي – أشكال الصراع في القصيدة العربية – ص : ٥..

٢ - حب الخير والتضحية في سبيل الأمن والسلام :

وتظهر هذه الصورة الخلقية في ثنايا قول زهير بن أبي سلمى :

سعى ساعيا غيظ بن مرة بعدما	تبزل ما بين العشيرة بالدم
فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله	رجال بنوه من قريش وجرهم
يمينًا لنعم السيدان وجدتما	على كل حال من سحيل ومبرم
تداركتما عبسا وذبيان بعدما	تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم
وقد قلتما : إن ندرك السلم واسعًا	بمال ومعروف من القول نسلم
فأصبحتما منها على خير موطن	بعيدين فيها من عقوق ومأثم
عظيمين في عليا معد هديتما	ومن يستبح كنزًا من المجد يعظم

يمدح زهير " السيدين الكريمين المريين الحارث بن عوف وهرم بن سنان ، هذين الذين وجد فيهما زهير مرآة ذاته وشخصه فهما وحدهما اللذان تمكنا من إطفاء حريق نار حرب البسوس ، وإعلان الصلح بين المتحاربين ، عبس وذبيان ، وقد افتديا أسرى الفريقين ، ودفعا ديات القتلى ، مجنبين العرب ويلات الحرب وأهوالها " [١] بعدما تمزقت القبيلتان بسبب الحرب ، وقد أقسم زهير بالبيت الحرام أنهما نعم السيدان في جميع الأحوال وأنهما أصبحا في أعلى الدرجات بين العرب جميعهم لأنهما ضحيا بكل ما يستطيعان في سبيل السلام فأصبحا بعملهما ذلك على خير منزلة وأعلى رتبة .

٣ - التفطن لدقائق الأعمال وخفايا آفات النفوس :

ألا أبلغ الأحلاف عنى رسالة	وذبيان هل اقسمتم كل مقسم
فلا تكتمن الله ما في نفوسكم	ليخفي . ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر	ليوم الحساب . أو ليعجل فينقم

إن زهيرًا يوجه الكلام إلى الطرفين المتحاربين قائلاً : هل أقسمتم أن تفعلوا ما لا ينبغي ؟ لا تظهروا الصلح وفي نيتكم الغدر لأن الله سيدخره لكم ويحاسبكم عليه .

ثم يتمم زهير لذلك بصورة حسية للحرب " يحاول أن يقرب صورة الحرب من العقول كي يطفئ جذوتها لأن السلام فعل العقل المستنير الناضج ، والحرب فعل العاطفة الغامضة الجامحة "[٢].

---

(١) د . يحيى الشامي – زهير بن أبي سلمى الشاعر الحكيم – ص : ٢٨ .

(٢) د . مفيد قميحة – شرح المعلقات العشر – ص : ١٦٦ .

وبعـــد تلك الصـــــورة الحســـية يقـــدم لنا صورة خـــلقية أخـــرى وهـــي:

٤ - **إقناع المتخاصمين بالتفكير في العواقب** : حيث يقول :

وما الحـرب إلا ما علمتم وذقتم ... وما هـو عـنها بالحـديث المرجم

متى تبعثوها تبعثوها ذميمة ... وتضـر إذا ضريتموها فتضـرم

فتعرككم عـرك الرحي بثقالها ... وتلقـح كشـافاً ثم تنتج فتتئم

فتنتج لكم غلمان اشأم كلهم ... كأحمر عـاد ثم ترضـع فتفطم

فتغلل لكم ما لا تغل لأهلها ... قـرى بالعـراق مـن قفيز ودرهـم

" وهو هنا يحاول أن يخاطب العقول إقناعًا لها بضرورة السلام عن طريق إبراز مساوئ الحرب بصـــورة واضحة مجسمة ، صور تدرك الحواس أثرها ، وتعرف نتائجها لسعًا وقتلاً وتفتيتًا ، ومن ثم تراه بعد ذلك يحاول أن يزين للناس السلام عن طريق المقارنة بين النتائج فالحرب لا تنتج إلا الشر والويلات مثلها كمثل الناقة التي تلقح ومن بعد تلد ، ورغم أن هناك زمنًا بين فترة الحمل والولادة ، إلا أن هذا الزمن لا يعرف في شريعة الحرب هدوءًا ولا سكينة ، لأنه فترة الاستعداد التي تتضخم عـداوة وإعـدادًا وغـيظًا ، وتنفـرج بعد ذلك عن ولادة مشؤومة مضاعفة بالآلام والأهوال والمصـائب ، تجـر وراءهـا اليتم والتشريد والفـاقة إن هذا التمثيل الرائع الذي يشبه الحرب بالأمومة الفاجرة التي تلقي أبناءها في أحضان الشر والبـؤس ويحول الأطفال وهم رمز السعادة ومصدرها إلى مصادر للشؤم والتعاسة ، لأن ولادهم ترافقت مـع قتل آبائهم في ساحات الحروب ، لهو تمثيل يرمي الشاعر من خلاله إلى تحريك الضمائر الإنسانية بأنجع الطرق المثيرة للعواطف ، وإلى تصـوير مضار الحرب بأقرب الصور التي تثير في النفوس الخوف والجزع وتجعلـها تنتفض مذهولة أمـام يقظـة الضمير والمشاعر ، فالحرب لا تجر إلا الحرب ، ولا تغلّ إلا الأحقاد والضغائن بينما السلام يغلّ الأمان وينتج الخير والسعة والربح . هذه هي نتيجة السلام رسمها الشاعر على سبيـل التهكم محـاولاً فـيها عن طريق إبراز المتناقضات وتجسيمها أن يصل إلى إقناع العقول بضرورة السـلام وعميم فائدته "[١] .

(١) د. مفيد قميحة – السابق – ص : ١٦٦-١٦٧ .

٢ - صواب الرؤية :

ولعل هذا المظهر الخلقي عند زهير يرجع إلى ما كان فيه من توقر ونبل وفطرة سليمة جعلته إنسانًا عاقلاً رزينًا حتى اُعتبر أحد الذين تحنفوا في الجاهلية وشكوا من دينهم الوثني ، " وأغلب الظن أنه لم يفارق دين قومه ، إنما هي خطرات كانت تمر به " [١].

ومن صور هذا المظهر الخلقي في معلقته :

١ - الانتفاع بالتجارب والتسليم بالغيب :

وأعلم ما في اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غد عم

فزهير هنا يقرر أنه يعلم ما حصل في يوم البارحة واليوم الذي هو فيه فقد رأى بعينه وسمع بأذنه وانتفع بما رأى وسمع ، وأما ما سيحدث في المستقبل فذلك في حكم الغيب فهو مسلّم لما خبّأ القدر فيه .

٢ - الإذعان للموت :

إن من صواب العقل والرؤية التسليم والإذعان للموت الذي هو سبيل كل حي على وجه الدنيا وفي ذلك يقول زهير :

رأيت المنايا خبط عشواء ، من تصب تمته ، ومن تخطيء يعمر فيهرم

إن من يفسر البيت السابق تفسيرًا حرفيًا " يغمطه حقه من الجمال ومن المعنى ، ذلك أن زهيرًا أراد ببيته أن يعجب من تفاوت أقدار الناس ، فمنهم من لا تمتد به الأيام فيموت صغيرًا ، ومنهم من يعمّر كثيرًا حتى يبلغ أرذل العمر "[٢].

وقد غالط ابن شرف القيرواني في تفسيره للبيت السابق إذ ذهب إلى الاعتقاد بأن زهيرًا غلط في وصف المنايا بخبط عشواء ،" لا لأنه مطالب بحكم الإسلام وإنما لأنه مطالب بحكم العقل ، ولذا فإن قوله يصح لو كان بعض الناس يموت وبعضهم ينجو ، غير أنه لما كان الكل يعرف "حتى البهائم " أن سهام الموت لا تخطئ شيئًا من الأحياء حتى يعمها رشقها فقد وهم زهير حين ظن أن البعض يموت اعتباطًا في سن صغيره لأن سهم المنية أصابه ،والبعض يموت هرمًا لأن سهم المنية أخطأه "[٣].

---

(١) د. شوقي ضيف – العصر الجاهلي – ص : ٣٠٣ .

(٢) د. غسان إسماعيل عبد الخالق – الأخلاق في النقد العربي – ص : ١٨٤ .

(٣) ابن شرف القيرواني – رسائل الانتقاد – ص : ٤٨ .

ونحن نقول : إن ابن شرف في تفسيره الحرفي لهذا البيت لو أنه دقق في قراءته لوجد في النص ما يغالط فهمه ويرجعه إلى جادة الصواب وأعني أنه لم يقرأ قول زهير:

ومـــن هـــاب أســباب المــنايا ينلــنه وإن يـــرق أســـباب الســـماء بســـلم

إن زهيرًا في هذا البيت يذعن للموت بل يقرر أن من خاف المنية وابتعد عن أسبابها فلا بد أن تناله ، ولم ينفعه تشبثه بطرقها ووسائلها ولو حاول أن يصعد إلى السماء فرارًا منهاه أبعد هذا البيت يبقي مجال للشك بأن زهيرًا غلط في وصف المنـــايـــا ؟!

٣ - الحكمة :

رأى زهـــير أن من العقل سوق الحكم في معلقته لما تحمله من تجارب عميقة في الحياة ، سوف تساهم في دفع عجلة الإصلاح الذي ينشده .

نعـــم لقد أراد زهير " أن يتم المشروع بنجاح عظيم وينفذ تنفيذًا صحيحًا كاملاً عن رضًا تام واقتناع حقيقي من جميع الأطراف فساق لهم حكمًا تساعد على ذلك "[١] ، ومن تلك الحكم :

١- من يرفض الصلح فسوف يكتوي بنار الحرب :

ومـــن يعـــص أطـــراف الزجاج فإنه يطـــيع العـــوالي ركـــبت كـــل لهـــذم

٢ - الموفون بالعهود محمودون مكرمون والميالون للخير يحبون السلام :

ومـــن يـــوف لا يـــذمم ، ومن يهد قلبه إلى مطمـــئن الـــبر لا يـــتجمجم

٣ - الحذر لا ينجي من القدر :

ومـــن هـــاب أســـباب المـــنايا ينلـــنه وإن يـــرق أســـباب الســـماء بســـلم

٤ - البخيل بالفضل على أهله منبوذ ومذموم :

ومـــن يـــك ذا فضـــل فيبخل بفضله علـــى قـــومه يســـتغن عـــنه ويـــذمم

٥ - لا عز للمرء إلا بقومه :

ومـــن يغتـــرب يحسب عدواً صديقه ومـــن لا يكـــرم نفســـه ولا يكـــرم

---

(١) د . علي الجندي – في تاريخ الأدب العربي – ص : ٣٠٤ .

٦ - الضعيف مأكول والقوي مهاب :

ومــن لا يــذد عــن حوضــه بسلاحه　　　يهــدم ومــن لا يظلــم الناس يظلم

وفي هــذا البــيت ذهــب ابن شرف القيرواني إلى أن زهير " تجاوز بحقه الباطل ، لأن الظلم مراكبه وعـــره وعواقبه مذمومة في الجاهلية والإسلام ، فحرّض في شعره عليه . فإن كان عنى أن الظــالم يُرهب فلا يُظلم ، فهذا قياس فاسد وأصل لا يقاس عليه ، لأن من هو أضعف منه قد يرهبه وينتقم منه بالحيلة والمكيدة "(١).

"فكم أبعد ابن شرف في هذه المماحكة عن جادة الصواب ألم يقل بأنه لن يطالب زهيرًا بحكم الإسلام ؟ ثم من قال بأن الظلم الذي يتحدث عنه زهير هاهنا هو الظلم الذي تحدث عنه الإسلام ؟ إنــه يتحدث عن العصبية الجاهلية التي تستند إلى الاعتماد على النفس وقوة البأس وحدة الشوكة التي تصد الطامعين عــن الاعتداء " (٢).

ونحن لو أخذنا بتفسير ابن شرف للبيت السابق لأحدثنا خللاً واضحًا في الهدف أو الغــرض الذي بنيت عليه أبيات المعلقة كلها ويسعى الشاعر إلى تحقيقه وهو الدعوة إلى السلام والأمن ، ولا يــخفى على ذي لب ما يكون بين تفسير ابن شرف للبيت وغرض المعلقة الرئيسي من بون شاسع.

٧ - تارك المجاملة للناس في أكثر الأمور يصاب بما يكره :

ومــــن لا يصانع في أمور كثيرة　　　يضـــــرس بأنيــاب ويوطأ بمنســـم

٨ - صانع المعروف حفاظًا على الشرف مصون العرض محفوظ الكرامة والجزاء من جنس العمل:

ومن يجعـــل المعروف من دون عرضه　　　يفـــره ومــــن لا يتق الشتــم يشتم

٤ - الحلم:

وهو مظهر عقلي في معلقة زهير وفي " القصيدة الجاهلية يعد الحلم الفضيلة التي تحفظ البدوي مــن الضــياع في الصــحراء ، وتحفــظ الفارس من التورط في منازعات بدون ضرورة أو ضمان

---

(١) ابن شرف القيرواني – رسائل الانتقاد – ص : ٤٨-٤٩ .

(٢) د. غسان عبد الخالق – السابق – ص : ١٨٤ .

للانتصـــــار. وعلى مستوى آخر يمكن أن ينظر إليها بوصفها الفضيلة التي تمكن الشاعر أو البطل مــن أن يــتوقع الخطر ، والخســـــارة والتعرض للموت دون إجفال أو ذعر ، أو توهم "[١] لقد أدرك زهــير بعقلــه فضيلة الحلم فحاول أن يضع لها إطارًا محددًا تعرف به من بين جميع الفضائل فجعل لها وقتًا لا تأتي في غيره فإذا فات الإنسان لم يمكنه تعويضه :

وإن ســـفاه الشـــيخ لا حلـــم بعــده وإن الفـــتى بعـــد الســـفاهة يحلـــم

فالإنســـان إذا كبر وشاخ ، وهو سفيه مصر على أعماله الفاسدة فلا أمل في إصلاحه لأنه لا يوجد بعد الكبر والشيخوخة إلا الموت ، وأما الإنسان الذي لا يزال في ريعان شبابه فيرجى صلاحه ما لم يكبر .

٥ - المعـــرفة :

والمعرفة من أقسام العقل كما يذكر قدامة بن جعفر وغيره ، و" ويتجلى هذا المظهر في الحس التاريخـــي لدى زهير حين يقسم بالكعبة فيسجل من خلال ذلك القسم دور قريش وجرهم في بناء الكعبة ، وتبني السقاية والرفادة فيها "[٢].

فأقســـمت بالبـــيت الذي طاف حوله رجـــال بـــنوه مـــن قـــريش وجرهم

ولا شـــك أن رجـــلاً حكـــيمًا مجربًا كزهير لا يخلو من المعرفة بالتاريخ ، وما ساق لنا تلك المعارف الكثيرة في مظهر الحكمة إلا لأنه رجل ذو معرفة وخبرة بالناس والحياة .

(ب) الشجـــاعة :

تكـــاد لوحة هذه الفضيلة أن تختفي – إلا ما ندر – في معلقة زهير وربما ذلك يمثل استجابة صريحة لطبيعة دوافعه الحقيقية ويتبع ذلك أيضًا مظهر الكرم كمظهر من مظاهر الشجاعة فالرجل لم يطمح في نيل رضا ممدوحيه فهو في غنى عن باب " إيجاب الحقوق " لنفسه ، ومشغول بإيجابها لغيره ، وبهـــذا يكون زهير قد تزعم مدرسة المدح غير المتكسب خاصة إذا عرفنا أنه كان سيدًا من سادات قومه كثير المال ، ولم يكـــن ثراؤه طريفًا مستحدثًا بل ناله عن أصالة ووراثة عريقة فقد عرف خاله بشـــامة بـــن الغدير بكثرة أمواله وقد ورث زهير الثراء مصحوبًا بتلك السيادة حتى أصبح أميرًا في عشـــيرته لا ينتظر منه مدح بغية العطـــــاء أو الاستجداء وإنما يُعتبر مدحه ذلك على غرار مدائح

---

(١) د . سوزان بنيكي ستيتكيفيتش – أدب السياسة وسياسة الأدب – ص : ٢٠ .

(٢) د . عبد الله التطاوي – أشكال الصراع في القصيدة العربية – ص : ٦٢.

الأمــراء كالولــيد بن يزيد في عصر بني أمية وعبد الله بن المعتز في مجتمع بني العباس وأبي فراس في بلاط سيف الدولة [١].

إن زهــيرًا لم يبرز من مظاهر الشجاعة في معلقته إلا ما يخدم غرضه الأخلاقي الأسمى وأعني به الدعوة إلى السلام فكان من مظاهر الشجاعة والحال كما ذكرت ما يأتي :

١ - الوفــاء :

ومن صور هذا المظهر في معلقة زهير بن أبي سلمى :

١ - التوجع لفقد الديار أهلها ووحشتها بعدهم : وفي ذلك يقول زهير :

أمــن أم أوفي دمــنة لم تكلــم	بحــومانه الــدراج فالمتــثل
ودار لهــا بالــرقمتين كأنهــا	مــراجيع وشــم في نواشــر معصم
بهــا العــين والأرام يمشــين خلفــة	واطلاؤهــا ينهضــن مــن كل مجثم

إن زهــيرًا يقف متسائلاً على منازل أم أوفى وهي دمنة لم تتبين ولم يظهر أثرها ، ولبعد عهده بمــنازل الأحبة وشدة تغيرها لم يعرفها معرفة قطع وتحقيق إلا أنه عندما وقف عليها بدت تتداعى له الأمــاكن والذكــريات لتحيي وفاء في قلبه لأحبته لم يزل أثره باقيًا بقاء الوشم في ظاهر اليد رغم وحشــة المكــان وخلوه من أهله إذ لم يعد فيه إلا بقر الوحش يتبع بعضها بعضًا ،وظباء تنهض من مرابضها لترضع أمهاها .

وقــد ســبق أن عــرفنا أن الشــاعر الجاهلــي يرى أن مثل هذا المظهر وما سيعقبه من الوقــــوف على الديار والدعاء لها واستحضار لظعائن الحبيبة يعد من الأمور المهمة التي يضيفها الشاعر الجاهلي إلى فروسته .

٢ - الوقوف على الديار والدعاء لها :

وقفــت بهــا مــن بعــد عشرين حجة	فلأيــا عــرفت الــدار بعــد تــوهم
أثــافي ســفعاً في معــرس مــرجل	ونــؤيا كجــذم الــبحوض لم يتــثلم
فلمــا عــرفت الــدار قلــت لــربعها	إلا أنعــم صــباحاً أيها الربــع وأسلم

صــورة أخرى من صور الوفاء ومظهر من مظاهر الشجاعة العربية يتمثل في وقوف الشاعر

---

(١) انظر المرجع السابق –ص : ٥١ .

في ذلك المكان الموحش صابرًا مما يتطلب منه قلبًا جسوراً لا يهاب ولا يضعف أمام تداعيات الذكريات وأيام الصبا"ولذلك نرى زهيرًا ييمم راحلته شطر ديار الأحبة وفاء لها وباحثًا فيها عن مواضع الذكريات ليعاين ما تبقى منها وما فعلته فيها يد الزمان البوار ، ذلك الزمان الذي استطاع أن ينال من الديار وآثارها ، ولم يبق إلا على أثافي ونؤى وأخاديد راح الشاعر يتقرّاها واحدة واحدة ويتفقدها تفقد المستطلع الباحث عن شيء عزيز مخبوء في جنباها إلا أنه لم يستطع أن يمحو من قلبه وذاكرته الوفاء والحنين لأم أوفى رغم أن أم أوفى تنكرت له كما تقول الروايات وأبدلته وصلاً بصدود،وإقبالاً بجفاء [(١)].

وقف زهير على تلك الديار مسترجعًا في مخيلته شريط تلك الحياة التي طالما حفلت بالمواقف والمشاعر والعواطف الإنسانية .

٢ - المكر والدهاء وكظم الغيظ:

وهذ مظهر خلقي محمود في مواطن الشجاعة وفي ذلك يقول زهير :

لعمري لنعم الحي جر عليهم   بما لا يواتيهم حصين بن ضمضم

وكان طوي كشحاً على مستكنه   فلا هو أبداها ولم يتقدم

٣ - الإقدام:

مظهر خلقي آخر يعقب المكر والدهاء وكظم الغيظ والثقة بالنفس :

فشد ولم يقزع بيوتاً كثيرة   لدى حث ألقت رجلها أم قشعم

لدى أسد شاكي السلاح ، مقذف   له لبد ، أظفاره لم تقلم

جريء متي يظلم يعاقب بظلمه   سريعاً ، وإلا يبد بالظلم يظلم

يقول الدكتور طه حسين : " ألست ترى في هذه الأبيات أجمل صورة ، وأكملها للرجل البدوي الذي يجمع إلى الشجاعة والإقدام مكرًا ودهاءً وثقة بالنفس ، واعتمادًا على القبيلة وقدرة على الكتمان ؟ فهذا الأعرابي حصين بن ضمضم قد رأى الصلح فلم ينكره جهرة ، ولم يعرفه فيما بينه وبين نفسه وإنما طوى كشحه على خطة دبرها وأحكم تدبيرها ، ثم أخفاها وأحكم إخفاءها لم يصرح بها ولم يشر إليها وإنما أسرها بينه وبين ضميره ، واستوثق من أنها ناجحة ومن أنه آمن بعدُ من إنفاذها ، أليس من ورائه قومه يحمونه راضين أو كارهين بألف من الخيل ؟ فلما أتم خطته ،

(١) د . مفيد قميحة – شرح المعلقات العشر – ص : ١٦٣ .

أقــدم وهو قوي قادر على الإقدام ، هو أسد مقذّف ، يقذف نفسه ويقذفه قومه كلما جد الجد ، لم يقلم أظفاره خوفٌ ، ولم يقلّم أظفاره أمــنٌ ، لا يهاب حربًا ، ولا يذعن لسلم ، لا يرضى من ظالم ظلمًا ، ولا يطمئن إذا مسه الظلم ، حتى يعاقب الظالم فإن لم يظلمه أحد فهو لا يتحرج من أن يظلم الناس "[1] .

٤ - الكـرم:

إن مــن أعلى درجات ومظاهر الشجاعة أن يقدم الإنسان نفسه أو يجود بأغلى ما عنده في ســبيل إقــامــة الصلح والأمن والسلام وهذا ما نلمسه في معلقة زهير بن أبي سلمى حيث نجد من صور ذلك الكرم :

١ - ذم البخـل :

ومــن يــك ذا فضــل فيبخل بفضله   علــى قــومه يســتغن عــنه ويــذمم

أي : مــن كــان عنده مال فيمنعه عشيرته وأهله استحق الذم والقدح ولا حاجة لهم فيه ، ويكون وجوده بينهم كالعدم .

٢ - حمـل المغــارم :

وأصــبح يجــري فــيهم مــن تلادكــم   مغــانم شــتى مــن إفــال مــزنم

تعفــى الكلــوم بالمــئين فأصــبحت   يــنجمها مــن لــيس فــيها بمجــرم

ينجمهــا قــوم لقــوم غرامــة   ولم يهريقوا بينهــم مــلء محجــم

أي شــجاعة أكــبر من شجاعة إنسان ينذر نفسه وماله في سبيل إصلاح ذات البين فيجود ويعطــي مــن مالــه من أجل إحلال الأمن والسلام بين الناس ؟! إن هذا – حقًا – قمة الشجاعة والكرم .

٣ - المنعة وحماية المستجير :

صــورة أخــرى من صور الكر م الشجاع كيف لا ؟! والشجاعة تحتــاج إلى أسباب المنعة والقوة من بذل مال وحماية مستجير ونجدة مستنجد .

---

(١) د . طـه حسين – حديث الأربعاء – ج١/ ٨٧ .

لقـــد أدرك زهير أبعاد ذلك كله فما كان منه إلا أن يشيد بذلك المظهر الخلقي الرائع حيث يقول :

لحـــي حـــلال يعصـــم الـــناس أمـــرهم إذا طـــرقت إحـــدى اللـــيالي بمعظـــم

كـــرام فلا ذو الظغـــن يدرك تبلـــه ولا الـــجارم الـــجاني عليهـــم بمســـلم

(جـ) العـــدل :

أما ما يتصل بهذه الفضيلة من مظاهر خلقية في معلقة زهير فليس أدل على ذلك من امتداحه لسيدين ساسا الغضب والشهوة وحملاهما على مقتضى الحكمة . كيف ؟

إن هرم بن سنان والحارث بن عوف قد حدّا من غضب القبيلتين وكبحا شهوة الثائرين .

وأي صورة أروع عدلاً من إنسان كالحارث بن عوف يتقدم إلى خصمه بمائة من الإبل وبابنه ليختار خصمه ما شاء منهما ؟! ليس هذا إلا العدل في أجلى مظاهره عند عقلاء العرب في الجاهلية ومن تلك المظاهر :

١- التبـرع بالنـــائل :

وقد عدّه ابن قدامة من أقسام العدل [١].

يقول زهير :

لعمـــرك مـــا جـــرت علـــيهم رمـــاحهم دم ابـــن نهـــيك أو قتـــيل المـــثلم

ولا شـــاركت في المـــوت في دم نـــوفل ولا وهـــب مـــنها ولا ابـــن المخـــزم

فكلا أراهـــم أصبحـــوا يعقـــلونه صحيحـــات ألف بعد ألف مصتـــم

أي : أقســـم أن الممـــدوحين لم يســـفكوا دماء هؤلاء القتلى ولم يشاركوا قاتليهم في سفك دمـــائهـــم ، ولكن تبرعوا بحمل الديات ليصلحوا ما بين القبائل المتنازعة فقدموا ألفًا من الإبل بعد ألف آخر تام غير ناقص .

---

(١) قدامة بن جعفر – نقد الشعر – ص : ٦٨ .

٢ - السماحة :

وهـــي مـــن أقسام العدل عند قدامة بن جعفر[١] ومظهر من مظاهره وإنما كانت كذلك لأنها تعني : البذل والعطاء في العسر واليسر عن كرم وسخاء ، وفي ذلك يقول زهير :

تداركـــتما عبســـا وذبـــيان بعـــدما تفانـــوا ودقـــوا بيـــنهم عطـــر منشـــم
وقد قلتمـــا : إن ندرك السلـــم واسعـــا بمـــال ومعـــروف من القـــول نسلـــم

حـــيث أشاد زهير بسماحة ممدوحيه بتلافيهما قبيلتي عبس وذبيان بعد أن أفنى بعضهم بعضًا بالســـيف وكان من سماحتهما وكرمهما أنهما قالا : إن أمكن إبرام الصلح بين المتنازعين ببذل المال والقول الحسن ونسلم من الحرب فعلنا ذلك .

٣ - الجـــور :

وهـــو الطـــرف المـــرذول لفضيلة العدل ويتمثل هذا المظهر في سآمة زهير وملالته من الحياة ويظهـــر هذا في قوله :

سئمت تكاليـــف الحيـــاة ومـــن يعـــش ثمـــانين حولا - لا أبا لك - يســـــأم

لقـــد جار على نفسه عندما وصل بها إلى هذه الدرجة من الملالة والسآمة ويبدو لي أن سبب ذلـــك لا يعود فقط إلى طول العمر كما ذكر زهير بل يعود السبب إلى تلك الظروف الحرجة التي عانى منها زهير وقبيلته جراء الحرب التي استمرت أربعين عامًا .

ونحـــن نعلم أن خير الناس من طال عمره وحسن عمله وهو مقياس إسلامي لكنه ينطبق على زهـــير باعتباره من الحنفاء في الجاهلية أو على اقل تقدير من العقلاء ، وسن الثمانين ليست بالعمر المـــرذول فهـــناك أنـــاس تصل أعمارهم إلى مائة سنة أو أكثر ومع ذلك نراهم راضين مسرورين يرفلون في ثياب الأمل والعافية .

(د) العفـــة :

ولّمـــا كانـــت العفة : تأديب قوة الشهوة بتأديب العقل والشرع كما سبق أن عرفنا ذلك ، وقـــــد ورد في معلقة زهير مظاهر لهذه الفضيلة تمثلت في :

---

(١) الســـابق - ص : ٦٨ .

١ - الترفع عمّا يوجب الذل والمهانة :

وهذا مظهر من مظاهر العفة نلمسه في قول زهير [١] :

ومن لا يزل يسترحل النــاس نفســـه | و لا يعفهـــا يوما من الذل ينـــدم

والمعنى : أن الشخص الذي يجعل نفسه عرضة للذل والمهانة والاحتقار ولا يبرئها من ذلك بالابتعاد عن أسبابها يندم في حياته بل وبعد مماته،لأنه لم يحترم نفسه بالابتعاد عن الأمور التي تسبب له المهانة.

٢ - الغـيرة على الأعــراض :

في تلــك البيــئة العربية " التي قامت فيها الأخلاق على الإباء والاعتزاز بالشرف وحسن الأحدوثـــة كان لا بد للرجال والنساء من العفة و من التعفف لأن الاعتداء على العرض يجر ويلات وحربا "[٢].

و" كان للغيرة عند القوم مظاهر كثيرة ، منها حبهم لعفة النساء عامة ، ونسائهم على وجه الخصوص ومنها حبهم لحيائهن وتسترهن ووقارهن ووفائهن "[٣] .

ولهـــذا أطـلـــق زهير حكمة لا زالت الآذان لها مصغية والنفوس عنها راضية ، ولمضمونها منفذة حين قال :

ومن يجعل المعروف من دون عرضـــه | يفره ومن لا يتق الشتـــم يشتم

فمن بذل إحسانه صان عرضه ، ومن بخل بمعروفه وإحسانه عرّض عرضه للذم والشتم .

٣ - قلة الشره في الكلام وغيره :

من العفة ألا يتكلم الإنسان إلا بما يراه عقلاً وفي وقته الموجب له :

وكـــائن تـــرى مـــن صـــامت لك معجب | زيادتـــــه أو نقصـــــه في الـــــتكلم
لســـان الفتى نصف ونصف فـــــؤاده | فلم يبـــق إلا صـــــورة اللحم والدم

---

(١) التبريزي – شرح القصائد العشر – ص ١٢٦ .

(٢) د . أحمد محمد الحوفي – الحياة العربية من الشعر الجاهلي – ص : ٣٦٢ .

(٣) محمد الشيخ محمود صيام – المعتقدات والقيم في الشعر الجاهلي – ص : ٣٥٠ .

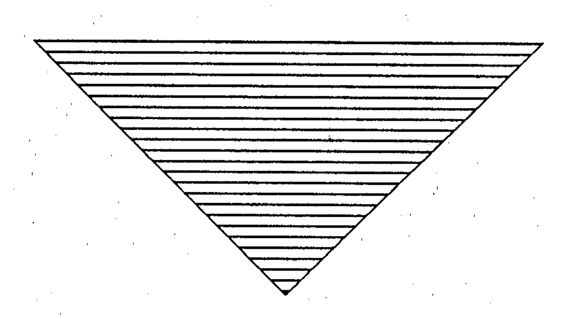
ذلــك أن الرجل الصامت يعجبك صمته ومنظره فتستحسنه ولكنه عندما يتكلم إما أن يكبر في عينك وإما أن يصغر لأن المرء بأصغريه : قلبه ولسانه . وما دام الأمر كذلك فعليه أن يكف عن الكلام الذي لا طائل تحته ، ولا فائدة فيه .

٤- ذم كـثرة التسـآل :

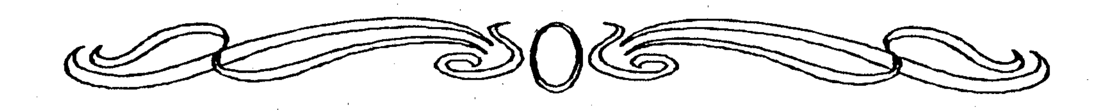
مظهر من مظاهر العفة في معلقة زهير وذلك لأن كثرة سؤال الكرام من العباد يحرم العطاء :

سألنا فأعطيتـــم ، وعدنـــا فعـــدتم   ومن أكثـــر التسـآل يوما سيحـــرم

ونود أن نشير هنا إلى أن من علامات أهل التعفف عدم السؤال وهذا مظهر أخبر به الله تعالى في كـــتابه فقال : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الجَاهِــلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ [١] .



(١) البقرة – الآية / ٢٧٣.



الإطـار الخلقي لمعلقة لبيد بن ربيـعة



معلقة : لبيد بن ربيعة العامري *

إضاءة :

عـــندما نقـــف أمـــام معلقـــة لبيد بن ربيعة ندرك من أول وهلة أنه وظف في معلقته جميع مجـــــــالات النشـــاط الإنساني الخمسة (الطبيعة ، الإنسان ، الحيوان ، المجتمع ، الزمن) ونحن إذ نعتـــبر المعلقات العشـــر رسائل أخلاقية مطولة ، وأن المجالات الخمسة السابقة تمثل قنوات صالحة ليبث من خلالها الشاعر رســـالته تلك فإننا نجد أن لبيد بن ربيعة رأى لجميع المجالات (القنوات) الســـابقة أهمـــية في تأديـــة رسالته الأخـــلاقية إلى متلقيه ، ومن خلالها جميعًا أخذ لبيد يسترسل في معلقته.

" إن الشـــاعر الجاهلي تلمس بغريزته الغامضة الصور الموحية لتجسيد أفكاره ، ودلل بذلك على تنبهه إلى الارتباطات الحميمة بين مظاهر العالم الخارجي ومشاعر العالم الداخلي وخواطره "(١).

إن الصـــراع الشديد بين ظروف قاهرة وشعور بالانتماء لهو الخيط النفسي العام الذي ينتظم معلقة لبيد من أولها إلى آخرها " إنها قصة الحياة ، فراق فلقاء ثم فراق فلقاء . والإنسان بين هذا كله وســـط أمـــواج من العواطف والمشاعر هادئـــة حيناً وصاخبـــة أحياناً : ينتقل من ذروة الفرح إلى حضيض الشقاء (٢).

إن لبـــيدًا بن ربيعة في نظمه معلقته في هذا الجو النفسي المتناقض الذي اختطه لقصيدته يحاول أن يجعـــل منه أرضية صالحة قوامها المجالات الخمسة السابقة ومن ثم يشرع ينفث في روع متلقيه كل ما يريد إيصاله والفخر به من أخلاق إنسانية أحب الإنسان العربي الجاهلي امتلاكها لنفسه أو لقبيلته ومـــن ينتمـــي إليه ومن ثم استطاع الشاعر الجاهلي أن يؤثر فينا إلى الآن لأنه يخاطب فينا ضمائرنا وأخلاقنا ولو كان الأمـــــــر مقصورًا على وصف طلل عافٍ ، أو ناقة جسور ، أو فرس جموح ، أو روضـــة أنف ، لما استمر تأثـــير الشعر الجاهلي في متلقيه إلى الآن لكن الشاعر الجاهلي تيقن بـــــأن " الدنـــيا روح نلمســـها بيد من المادة فالروح هي الحقيقة والمادة هي وسيلة الإحساس بهـــا "(٣).

---

* ديوان لبيد بن ربيعة – طبعة دار صادر – بيروت – ص : ١٦٣ – ١٨٠ .

(١) إيليا حاوي – فن الوصف وتطوره في الشعر العربي – ص : ٤٩ .

(٢) د . محمد زكي العشماوي – النابغة الذبياني مع دراسة للقصيدة العربية في الجاهلية – ص : ٢٤١ .

(٣) العقاد – مطالعات في الكتب والحياة – ص : ٨ .

إن الشعر الجاهلي " أدب تمليه بواعث الحياة القوية وتخاطب به الفطرة الإنسانية عامة ، وهو الأدب الصحيح العالي "[١].

إن بواعث الحياة القوية تلك جعلت من الجانب الخلقي قانونًا منظّمًا لحياة الإنسان الجاهلي ليس عنده غيره ، وأن تلك البواعث الكثيرة استصلحت ما بقي من فطرية الأخلاق العربية التي استطاع الإنسان العربي الجاهلي بامتلاكها أن يصارع الحياة بكل ظروفها القاسية .

وقبل الشروع في البحث في الإطار الخلقي في معلقة لبيد نود أن نشير إلى أمر مهم جدًّا حتى لا يتهمنا أحد بالخلط بين المظاهر الأخلاقية لأصول الفضائل الأربعة ، رغم أننا أشرنا في الفصل الأول من هذه الدراسة إلى أنه من الممكن أن تتداخل الفضائل النفسية فيما بينها وأن ذلك لا يعد تهافتًا في تقسيم الفضائل عند قدامة بن جعفر ، وعرفنا كيف يكون أحد المظاهر الأخلاقية أساسًا لكثير من الفضائل .

ونضيف هنا ما نود إيضاحه من أن الأصول الأربعة للأخلاق يختلف مقدار وجود كل منها في معلقة دون أخرى ، وأن هناك تباينًا في تعدد مظاهر الأخلاق تبعًا لكل أصل منها وأن ما نراه مظهرًا للشجاعة في معلقة بعينها فقد نراه مظهرًا للعقل في معلقة أخرى وذلك يرجع في نظري إلى مرونة تلك المظاهر الأخلاقية من جهة ، ثم ترابط الأصول الأخلاقية الأربعة فيما بينها ترابطًا وثيقًا من جهة أخرى مما يمكّن من تبادل المظاهر الأخلاقية بين أصل أخلاقي وآخر من أصول الأخلاق الأربعة .

والآن ، وبعد هذا الإيضاح المهم نعاود النظر الدقيق في معلقة لبيد رضي الله عنه لتحديد الإطار الخلقي فيها ، والذي وجدناه يتخذ الشكل الآتي :

(أ) العقل :

وقد اتخذت هذه الفضيلة الخلقية في معلقة لبيد المظاهر التالية :

١ - الشعور بالانتماء :

وهذا المظهر نلحظه من أول بيت في المعلقة وقد اتخذ الصور التالية :

١ - **الوقوف على الأطلال والدعاء لها :** وفي هذا يقول لبيد :

---

(١) عباس محمود العقاد – المرجع السابق – ص : ١٢ .

عفت الديار محلها فمقامها | بمنى تأبد غولها فرجامها
فمدافع الريان عري رسمها | خلقا كما ضمن الوحي سلامها
دمن تجرم بعد عهد أنيسها | حجج خلون حلالها وحرامها
رزقت مرابيع النجوم وصابها | ودق الرواعد جودها فرهامها
من كل سارية وغاد مدجن | وعشية متجاوب إرزامها

يقول : دُرست منازل الأحبة وانمحت آثارهم ،ومنازلهم بمنى وقد توحشت ولم يبق فيها أنيس ، حتى أن مجاري المياه الموجودة في جبل الريان درست رسومها وصارت بالية تشبه كتابًا خط في حجارة لا يظهر من بعيد ، وإنما يظهر لمن يقرب منه ، إنها آثار ديار الأحبة التي قد مر عليها بعد مفارقة أهلها أعوام عديدة بأشهرها الحلال منها والحرم فرزق الله تلك الديار والدمن أمطار الأنواء الربيعية ،وأنزل عليها مطر السحائب المصحوبة بالرعد ، ما كان منه غزيرًا ، وما كان منه لينًا لطيفًا ليلاً وغدوًا وعشية تتجاوب رعودها .

إن الشعور بالانتماء للمكان الذي ينطوي على ذكريات كثير ة هو الذي جعله يقف على تلك الأطلال المهجورة فيدعو لها بالسقيا بل ويرى الشاعر في تجاوب الرعود شعورًا بالانتماء إلى بعضها بعض ومن ثم نزول المطر الغزير .إن شعور لبيد بالانتماء هو ما جعله يرى تلك الصورة الخلقية الجميلة حتى لوحة المطر تلك .

" لقد أراد لبيد من خلال هذا الوقوف أن يخلق حالة من التعاطف المتبادل بين المكان والإنسان يرمي من خلالها أن تستقر الحياة ، وأن يتفاعل الطرفان فيها ليوجدا حالة من الارتباط والتجذر "(١).

٢ - التسليم بالتلاحم العضوي بين الإنسان والمكان :

وهي صورة أخرى من صور الشعور بالانتماء يدركها لبيد بعقله الراجح فيسطر للأجيال القادمة قوله :

عريت وكان بها الجميع فأبكروا | منها وغودر نؤيها وثمامها

إن استعمال العري هنا يعني أن الإنسان هو الذي يخلق في الديار البهجة والأمل والجمال ، فهو المزين لها وبدونه تبقى موحشة مقفرة ولقد"وفق الشاعر أيّما توفيق عند جعل الرحيل عن الديار

(١) د. مفيد قميحة – شرح المعلقات العشر – ص : ٢٠٩-٢١٠.

عــريًا ، والإقامة فيها ثوبًا، لأن ذلك يعكس الجانب الحقيقي من الحياة ، ويكشف العلاقة الحميمية بين الأرض والإنسان "[١] .

٢ - الحــزم :

إن الحزم في معلقة لبيد يمثل مظهرًا عقليًا باتخاذه الصور التالية :

١- الروية والرشد :

وتتمــثل هــذه الصورة عند لبيد في معلقته عندما " ينكر على نفسه ما هو فيه من سؤال الأحجــار والصــخور الصــم الخوالد التي فقدت كل حركة وكل نشاط فكيف السبيل لها إلى أن تتكلم! وكيف السبيل لها إلى أن تجيب ! وكيف السبيل لها إلى أن تبين ! "[٢].

يقول :

فوقفت أسـألـــها ، وكيــف سؤالنــا   صمـــا خــوالد مــا يبين كــلامهـــا

إنـــه يتســاءل متعجبًا : وما يجدي سؤالنا حجارة صمًّا بواقي لا تتكلم ؟! إنه يشير إلى أن الداعـــي إلى هـــذا السؤال إنما هو فرط الشوق وشدة الوله بالأحبة ، لكن حزمه شديد لا يسمح بالتمادي في ذلك حتى وإن كان الراحلون أحب الناس إليه فحزم الرجال العقلاء يأبى عليه ذلك .

٢ - عدم الانسياق مع العواطف : صورة أخرى من صور الحزم عند لبيد إذ يقول :

فاقطــع لــبانة مــن تعــرض وصـــله   ولشــــر واصـــل خلـــة صـــرامها

واحـــب المجامـــل بالجـــزيل وصـــرمه   بـــاق إذا ضـــلعت وزاغ قـــوامها

بطـليـــح أسفـــار تـــركـــن بقيـــــة   منهـــا فأحنـــق صلبهـــا وسنامهـــا

يقدم لنا لبيد هذا المظهر العقلي في حكمة رائعة قريبة للحفظ بعيدة عن النسيان :

* اقطع حاجتك ممن تعرض وصله للانتقاض والزوال فخير الأصدقاء من إذا علم من صديقه أن حـــاجته تثقل عليه قطع حوائجه منه لئلا يفسد ما بينهما.

---

(١) د. مفيد قميحة – المرجع السابق – ص : ٢١١ .

(٢) د . طه حسين – حديث الأربعاء – ج١ / ٢٠ .

* لا تعاجل صديقك بقطع الذي بينك وبينه واخصصه بالمودة ما ثبت لك فإن تغير فأنت قادر أيضًا على قطيعته .

* حاول أن تقطع حاجتك وتنسى همومك بركوب ناقة قد أعيتها الأسفار .

٣ ـ العمل من أجل الحياة مهما كانت الظروف :

ومن العقل الاستمرار في العمل الدؤوب من أجل ضمان حياة كريمة وفي هذا يقول لبيد :

حتى إذ سلخا جمادى ستة   جزآ فطال صيامه وصيامها

رجعا بأمرهما إلى ذي مرة   حصد ونجح صريمة إبرامها

ورمى دوابرها السفا وتهيجت   ريح المصايف سومها وسهامها

فتنازعا سبطا يطير ظلاله   كدخان مشعلة يشب ضرامها

مشمولة غلثت بنابت عرفج   كدخان نار ساطع أسنامها

ولعل الشاعر " قد رمز بالشتاء إلى حالة الاضطراب والتمرد ، وبالربيع إلى عودة الهدوء والصفاء وبالصيف إلى حالة السعي والجد الذي يمثل الورود إلى الماء ، أي إلى العمل من أجل الحياة التي لا يتم صفاؤها إلا بالتعاون المثمر والحرص المتبادل "[١].

٤ ـ مناظرة الخصوم :

صورة من صور الحزم حيث الوقوف أمام الخصم بحزم ومعرفة بمواطن القوة والضعف عند الخصوم. يقول لبيد :

وكثيرة غرباؤها مجهولة   ترجى نوافلها ويخشى ذامها

غلب تشذر بالذحول كأنها   جن البدي رواسيا أقدامها

أنكرت باطلها وبؤت بحقها   عندي ولم يفخر عليّ كرامها

يقول الزوزني[٢] :" يفتخر بالمناظرة التي جرت بينه وبين الربيع بن زياد العبسي في مجلس النعمان بن المنذر ملك العرب ..وتحرير المعنى : رب دار كثرت غاشيتها لأن دور الملوك

---

(١) د. مفيد قميحة – شرح المعلقات العشر – ص : ٢١٣ .

(٢) الزوزني – شرح المعلقات السبع – ص : ١٥٦-١٥٧ .

يغشـــاها الوفـــــود وغرباؤها يجهل بعضها بعضًا ، وتُرجى عطايا الملوك ويُخشى معايب تلحق في مجـــــالســـها ناظـــرت فيها رجـــــالاً غلاظ الأعناق كالأسود يهدد بعضهم بعضًا بسبب الأحقاد الـــتي بيـــنهم ، فأنكـــرت دعاوى تلك الرجـــال الغلب وأقررت بما كان حقًّا منها عندي ، أي في اعتقادي ، ولم يفخر عليّ كرامها، أي : لم يغـــلبني بالفخر كرامها .

٥ ـ عـدم الميـل مع الهوى :

ومن رزق عقلاً راجحًا ونفسًا أبية لا تتدنس أعراضه بعار ، ولا تفسد فعاله ، ولا تذيع وتنتشر فتبقى أبد الدهر لأنه لا يميل مع هواه ، وهذا ما يريد إثباته لبيد لنفسه ولقـــومه حيث يقول :

لا يطبعـــون ولا يبـــــور فعالـــهم إذ لا تميـــل مـــع الهـــوى أحلامها

(ب) الشجـــاعـــة :

عرفنا أن الإنسان الجاهلي احتاج إلى التغني بمكارم الأخلاق ، والشجاعة بمظاهرها المتعددة ذات الصـــور المتنوعة إحدى تلك المكارم التي تغنى بها الشاعر الجاهلي ، وإذا كان اللُّغويون يرون أن الشـــجاعـــــة : جنون النشاط فإنني أرى أن ذلك النشاط ليس مقصورًا على النشاط الجسمي فقـــط وإنمـــا النشاط : كل مـــا يرى الإنسان في مزاولته تحقيق هدف أو وصولاً إلى غاية ، فهناك نشاط في التعامل وهناك نشاط في الأخـــلاق وهناك أيضًا نشاط في التفكير والإبداع وغير ذلك،ولما كـــان الأمر على هذه الحال فإن الشجـــاعة قـــد اتخذت عند العرب مظاهر عديدة كان منها عند لبيد في معلقته خاصة المظاهر التالية :

١ - الوفـــاء :

جاء مظهر الوفاء في معلقة لبيد في صور ثلاث :

١ـ الوقوف على الأطلال الموحشة :

إن الوقوف على دمن وأطلال دارسة عفا عليها الزمن لا أنيس فيها هو أروع الأمثلة لوفاء الإنسان الجاهلي ووقفته تلك الوقفة الوفية الشجاعة وإنما اُعتبر الوفـــاء بالوقوف على الأطلال من مظاهـــر الشـــجاعة "لأن الإنسان إذا صار في مثل هذه الأماكن وتوحد تفكر وإذا هو تفكر وجل وجبن ، وإذا هو جبن داخلته الظنون الكاذبة ، والأوهام المؤذية والسوداوية [الفاسدة] فصورت له

الأصـــوات ومثلت له الأشخاص وأوهمته المحال بنحو ما يعرض لذوي الوسواس وقطب ذلك وأسه سوء التفكير "[1] ولذا كان من يقف على تلك الأطلال الموحشة وفاءً لأهلها النازحين عنها شجاعًا بكل ما لهذه الكلمة من معنى .

يقول لبيد :

عفـــت الـــديار محلـــها فمقامهـــا	بمـــنى تأبـــد غـــولها فـــرجامها
فمدافـــع الـــريان عـــري رسمهـــا	خلقـــا كمـــا ضـــمن الوحـــي سـلامها
دمـــن تجـــرم بعـــد عهـــد أنيســـها	حجـــج خلـــون حلالهـــا وحـــرامها
رزقـــت مـــرابيع الـــنجوم وصـــابها	ودق الـــرواعد جـــودها فـــرهامها
مـــن كـــل ســـارية وغـــاد مـــدجن	وعشـــــية مـــتجاوب إرزامهـــا
فعـــلا فـــروع الأيهقـــان وأطفلـــت	بالجلهـــتين ظـــباؤها ونعامهـــا
والعـــين ساكنـــة علـــى أطـــلائها	عـــوذا تـــأجل بالفضـــاء بـــهامها

إن تلــك الدمن التي مر عليها بعد مفارقة أهلها سنون عديدة فأمطرت ثم أعشبت فسكنتها الوحوش والهوام لمخيفة حقًّا خاصة إذا وافقت زيارتها أمطار غزيرة ذات رعود وبروق ورهج ووهج مما يستوجب على من يقف عليها قلبًا رابط الجأش لا يهاب شيئًا .

٢ - الدعاء للديار بالسقيا :

ومـــن وفـــاء حب الفارس الشجاع أيضًا حب ديار الأحبة في محبتهم وتعهـــدها بالزيارة والـــدعاء لها بالسقيا باعتبارها كانت دارًا للأحباب يشدُّ الشاعرَ إليها شعور بالانتماء إلى أمـــاكن التعارف واللقاء والذكريات .

رزقـــت مـــرابيع الـــنجوم وصـــابها	ودق الـــرواعد جـــودها فـــرهامها
مـــن كـــل ســـاريـــة وغـــاد مدجن	وعشيـــــة متجـــاوب إرزامهـــا

٣ - تذكر الأحبة :

من أجل صور الوفاء أن يتعلق الإنسان بخيوط الذكريات مع الأحبة النازحين " وحين يعود لبـــيد إلى لحظة الوداع لا يكاد ينسى منها شيئًا فهو يعيشها بكل وقائعها : فلن ينسى أبـــدًا تلك اللحظـــة التي صعدت فيها النساء إلى هوادجهن كأنهن الظباء قد دخلن الكناس ، ولن ينسى ذلك

---

(١) المسعودي – مروج الذهب – ج٢ / ١٦٠ .

الإحساس الذي غمره عندما شاهد صديقاته وهن يتحملن جماعات فأحس بما ينبعث من عيونهن من عطف ورقة ، وبما تفيض به وجوههن من مشاعر الحنان والحب بل إن صوت الهوادج وهي تهتز ساعة التحميل ما يزال يرن في أذنه ثم تأتي بعد هذا لحظة تحرك القافلة واندفاعها في السير تلك اللحظة الرهيبة التي تبلغ عندها مشاعر اللهفة أقصاها "[١].

حتى أنه سجل أشياء قد تغيب عن كثير من الشعراء فليست " عين الشاعر وحدها هي التي ترى وتتبع الإبل ...ولكن أذن الشاعر أيضًا قد سمعت ، وهي تذكر ما سمعت "[٢] من صرير الخيام حين تسعى بها الإبل إلى غير ذلك من جلبة الظعائن .

وفي هذا يقول لبيد :

شاقتك ظعن الحي حين تحملوا	فتكنسوا قطنا تصر خيامها
من كل محفوف يظل عصيه	زوج عليه كلة وقرامها
زجلا كأن نعاج توضح فوقها	وظباء وجرة عطفا أرآمها
حفزت وزايلها السراب كأنها	أجزاع بيشة أثلها ورضامها

٢- العزم :

مظهر شجاعي آخر عند لبيد في معلقته وقد اتخذ صورًا كثيرة لعل من أهمها :

١- **عدم الاستسلام لليأس والجزع :** ويتضح هذا في قوله :

بل ما تذكر من نوار وقد نأت	وتقطعت أسبابه ورمامها
مرية حلت بفيد وجاورت	أهل الحجاز فأين منك مرامها ؟
بمشارق الجبلين أو بمحجر	فتضمنتها فردة فرخامها
فصوائق إن أيمنت فمظنة	منها وحاف القهر أو طلخامها
فاقطع لبانة من تعرض وصله	ولشر واصل خلة صرامها
واحب المجامل بالجزيل وصرمه	باق إذا ضلعت وزاغ قوامها

بهذه الأبيات يكشف لنا لبيد بأن من أخلاقه أنه "ليس ضعيفًا ولا واهي العزم ، ولا مسرفًا في الاسترسال مع العاطفة وإنما هو صاحب عزم وإرادة وتصميم "[٣] لما رأى أنه ليس له من سبيل

(١) د. محمد زكي العشماوى – النابغة الذبياني مع دراسة للقصيدة العربية الجاهلية – ص : ٢٤١.

(٢) د. طه حسين – حديث الأربعاء – ج١ / ٢٢ .

(٣) نفس المرجع السابق – ص : ٢٢ .

إلى أن يـرد الماضـي أو يعـرف أين يكون أحباؤه ، وأين يترلون ، وما دام الأمر كذلك فما يغني الاسترسال في اليأس والاستسلام للجزع ؟! عند ذلك قرر لبيد قطع حاجته على ناقته التي " تمضي همـوم الشاعر وتسليها بطرق شتى أهمها اثنتان : بالرحلة في الصحراء وتأمل الكون وما يضطرب فيه،والتماس العزاء مما يرى والتسرية عـن النفس" [١]ومن خلال ذلك يحاول الشاعر – ما استطاع – أن يقـاوم الشعور بالهزيمة ، وأن يمضـي في طريق الحياة بخطى ثابتة فيعقد العزم على أن يقطع صـلته بـنوار وأن يمضـي في سبيله مجابهًا الواقع ومنتصرًا عليه غير عابئ بكل ما يلاقيه من مظاهر التحدي على تلك الناقة الجسور .

٢ - **حماية الحي وتعسف السبل المخيفة :** صورة أخرى من صور العزم عند الشجاع في الجاهلية ممثلاً في لبيد بن ربيعة حيث يقول :

ولقـد حميت الخـيل تحمـل شـكتي	فـرط وشـاحي إذ غـدوت لجامهـا
فعلـوت مـرتقبا علـى ذي هـبوة	حـرج إلى أعلامهـن قـتامها
حـتى إذا ألقـت يـدا في كافـر	وأجـن عـورات الـثغور ظلامهـا
أسـهلت وانتصـبت كجـذع منـيفة	جـرداء يحصـر دونهـا جـرامها
رفعـتها طـرد الـنعام وفـوقه	حـتى إذا سـخنت وخـف عظامهـا
قلقـت رحالـتها وأسـبل نحـرها	وابـتل مـن زبـد الحمـيم حـزامها
ترقـى وتطعـن في العنـان وتنتحـي	ورد الحمامـة إذ أجـد حمامهـا

إن لبـيدًا عندما يعرض لنا صورة فرسه المنطلق به في عدو كعدو النعام فإنما يريد أن يعرض لـنا صـورة الفارس من خلال ما نراه على فرسه من صفات وسمات تتمثل في قوة نشيطة متدفقة في جـريها تطـارد الـنعام فتسبقه ، وتقلق رحالتها من شدة الجري ويبتل نحرها وحزامها من العرق ، وترفع عنقها نشـاطًا وهي تعدو حتى لكأنها تطعن بعنقها في لجامها ثم إذا هي أطلقت للريح ساقيها كانت كالحمامة العطشى التي تسابق الريح باحثة عن مورد ماء . وقد التفت الدكتور نجيب محمـد البهبيتي إلى رمزية الأغـراض الشعرية المختلفة فقال يتحدث عن قصص الحيوان في الشعر الجاهلـي : " ولا ريب في أن الشاعر يتخذ من هذه القصة مرآة يعكس عليها صورة أمر آخر غير موضوع القصة الأصلي "[٢]وما صورة الفرس المتوثبة نشاطًا وقوة إلا جزء من صورة الفارس نفسه.

---

(١) د . وهب رومية – شعرنا القديم والنقد الجديد – ص : ١٨٣ .

(٢) د . نجيب محمد البهبيتي – تاريخ الشعر العربي – ص : ٩٨ .

٣ - **أخذ العدة لإغاثة المستجير :** صورة أخرى من صور العزم عند لبيد تظهر في قوله :

إن يفزعـــوا تلق المغافـــر عندهـــــــم	والسن يلمع كالكواكـــب لامهـــــــا

فقـــومه – وهـــو منهم – إذا هبوّا لإغاثة من يستجير بهم تجد المغافر(زرد ينسج على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة) موجودة عندهم وتجد الأسنة كذلك حال كون الدروع تلمع كالنجوم الساطعة في ظلمة الليل البهيم .

٣ - **الصـبر :**

مـــن أَجَلّ مظاهر الشجاعة عند العرب وفي معلقة لبيد نجد أنه يعرض لنا صور ذلك الصبر من خلال نـــاقته التي شبهها ببقرة الوحش المذعورة في ولدها " والناقة في هذه الحالة ليست وسيلة إلى غايـــة بل هي مجمـــع كل شعور بالغائية الواضحة والغامضة ... إن الناقة هي التي نقلت الفكر العربي قبل الإسلام مما نسمـــيه طبيعة الملاحم إلى طبيعة الدراما والصراع . فالعلاقات الأساسية بين الشاعر والعالم في شكل مـــزاج من الرفض والقبول تكمن في هذه الناقة " (١) ونحن عندما نقف عند وصـــف لبـــيد لناقته وتشبيهها بالبقـــرة الوحشية نجد أنه عند وصفه للبقرة الوحشية " لم يكتف بالالتفات إليها من الخارج في شكلها وســـرعتها وقوة بطشها ، بل تصدى إلى واقعها الداخلي "(٢) ومـــن خلال تلك القصة يعرض لنا لبيد صـــور الصبر عند تلك البقرة والتي هي بالتالي صور الصبر عند بني البشر ، ومن تلك الصور :

١- **الجد في الطلب :**

أفـــــتلك أم وحشـــــــية مســــــبوعة	خــــذلت وهاديـــة الصـــــوار قـــوامها ؟
خنســـــاء ضـــيعت الفريـــر فلـــم يـــرم	عـــــرض الشـــــقائق طـــوفها وبغامهـــــا
لمعفـــــــر قهـــــد تـــــنازع شـــــلوة	غـــــبس كواســــــب لا يمـــــن طعامهــــا
صـــــادفن مــــــنها غـــــرة فأصــــــبنها	إن المـــــــنايا لا تطــــــيش ســـــــهامها
باتـــــت وأســـــبل واكــــف مــــن ديمـــــة	يـــــروي الخمائــــــل دائمــــــا تســـــجامها
تجـــــتاف أصــــــلا قالصــــــا متنـــــبذا	بعجـــــوب أنقـــــــاء يمـــــيل هــــــيامها
يعلـــــــو طــــــريقة متـــــــنها متواتـــــــر	في لـــــــيلة كفـــــــر الـــــــنجوم غمامهـــــــا
وتضـــــيء في وجــــه الظــــلام مــــنيرة	كجمانـــــــة البحــــــري ســـــــل نظامهـــــــا

(١) د . مصطفى ناصف – قراءة ثانية لشعرنا القديم – ص : ١١٥.

(٢) د. إيليا أبو ماضي – فن الوصف وتطوره في الشعر العربي – ص : ٣١ .

حـــتى إذا انحســـر الظـــلام وأســـفرت بكـــرت تـــزل عـــن الثـــرى أزلامهـــا

علـــهت تـــردد في نهـــاء صـــعائد ســـبعا تـــؤاما كـــاملا أيامهـــا

حـــتى إذا يئســـت وأسحـــق حالق لم يبلـــه إرضاعهـــا وفطامهـــا

ولنتناســـى تشبيه البقرة بالناقة الآن ولننظر إلى ما حدث للبقرة ذاتها فقد خـذلت ولدها وذهـبت ترعى مع صواحبها فافترست السباع ولدها ، وبعد ذلك تأخذ البقرة الوحشية بالجـد في السـير طالبة لولدها الذي أكله السبع فما تزال في ذهاب وإياب وجد في الطلب من أجل أن ترى ولـدها المفقـــود الذي تجاذبت جسده الذئاب المفترسة عندما وجدت من البقرة غفلة فأصابتها بافتراس ولدها فباتت البقـرة بعد فقدها لولدها ممطورة في رمال منبتة مما دعا بها الحال إلى المبيت في جـوف أصل شجرة نابتة في أرض رمـلية لا تتماسك فأصاب ظهرها مطر متتابع أو منقطع لم تظهر فـيه النجوم وكلا الحالين أصعـب من بعضهما وإذا بها تضيء في أول الليل كـدرة الصدف البحـري تمـوج لمعانـا حتى إذا انكشف الظلام غدت البقرة مبكرة مواصلة الجد في الطلب رغم الظروف القاسية تطلب ولدها إلى أن يئست منه .

" إن لبـيدًا لا يصـف البقـرة في كل هـــذا الشعر من أجل ناقة أراد أن يتحدث عن سرعتها وقوتها إنه ولا شك أراد أن يفصح عن أشياء حبيسة في نفسه فاختار متنفسًا لها هذه الصور النقلية ..." [١] ولقد وجد لبيد في هذه الصور النقلية قناة صالحة لبث رسالته الأخلاقية من خلالها .

٢ ـ **الإذعـــان للمنايا** : ومن أعلى صـــور الصبر الإذعان للموت و التسليم للقدر الذي لا تخطئ سهامه أحدًا . يقول لبيد :

صادفن منها غـــرة فأصبنهـــا إن المنـــايا لا تطيش سهامهـــا

إن المـوت واقـع بكـل مخلوق لا محيص عنه ولا مهرب منه وليس لحي أمامه إلا الإذعان والاستسلام للقضاء والقدر .

٣ ـ **كسر النفس ودفعها على الاحتمال** : ويكشف عن هذه الصورة من صور الصبر قول لبيد:

وتســـمعت رز الأنـــيس فـــراعها عـــن ظهـــر غـــيب والأنـــيس ســـقامها

(١) د . مفيد قميحـــــة – شرح المعلقات العشر – ص : ٢١٦ .

فغــدت كــلا الفــرجين تحســب أنــه مــولى المخافــة خلفهــا وأمامهــا

حــتى إذا يــئس الــرماة وأرســلوا غضــفا دواجــن قــافلا أعصــامها

فلحقــن واعتكــرت لهــا مدريــة كالســمهري حــدها وتمامهــا

لــتذودهن وأيقــنت إن لم تــذد أن قــد أحــم مــع الحــتوف حمامهــا

فتقصــدت مــنها كســاب فضــرجت بــدم وغــودر في المكــر ســحامها

فبــتلك إذ رقــص اللوامــع بالضــحى واجــتاب أرديــة الســراب إكامهــا

أقضــي اللبــانة لا أفــرط ريبــة أو أن يــلوم بــحاجة لــوامهــا

واســتمر لبــيد يــنفث في روعنا من خلال قصة تلك البقرة الوحشية التي شــبه ناقته بها مــزيدًا مــن صــور الصبر ، فها هي البقرة الوحشية تسمع صوتًا خفيًا ولا ترى أحدًا فتخاف وتعــدو إلى الجبــل خــائفة وجلة ، وإذا بالرماة لما أيسوا من البقرة وأيقنوا أن سهامهم لا تنالها يرســلوا خلفها كلاب الصيد فتلحق بها فلا تجد بدًا من الرجوع نحو الكلاب بقرن حادة ثم تأخذ في طعــنها بــذلك القرن لترد عن نفسها المــوت والهلاك متيقنة ألا ملجأ ولا منجى إلا بكسر النفس الخائفة واحتمال المواجهة فلم يخيب الله صــبرها فإذا هي تقصد الكلبة المسماة (كساب) فتلطخها بالــدم وتتــرك (سحام) الكلب الآخر في موضع كــرها ورجوعها صريعة أيضًا ونتيجة لذلك الصبر تنتصر البقرة الوحشية .

يقول الجاحظ :" ومن عادة الشعراء إذا كان الشعر مرثية أو موعظة أن تكون الكلاب التي تقــتل بقــر الوحش وإذا كان الشعر مديحًا ، وقال : كأن ناقتي بقرة من صفتها كذا أن تكــون الكــلاب هي المقتولة ليس على أن ذلك حكاية عن قصة بعينها ولكن الثيران ربما جرحت الكلاب وربمــا قتلــتها ، وأما في أكثر ذلك فإنها تكون هي المصابة والكلاب هي السالمة الظافرة وصاحبها الغــانم" [1] والذي يهمنا من كلام الجاحظ قوله : " وإذا كان الشعر مديحًا ، وقال : كأن ناقتي من صــفتها كذا ... " ، وقد عرفنا أن الناقة ليست المقصودة بالمدح وإنما اتخذ الشاعر منها وسيلة أو قــناة صالحة ليشعرنا من خلالها أنه يمتلك صفة شجاعة وهي الصبر ممثلاً في صورته السابقة – كسر النفس واحتمال الشدائد .

(١) الجــاحــظ – الحيــوان : ٢/ ٢٠ .

٤ – الكـــرم :

لســـنا الآن بحاجة إلى تقديم الشواهد والبراهين والأدلة على أن الكرم من مظاهر الشجاعة فقد تقدم الحديث عن ذلك بما فيه الكفاية .

وعندما نستظهر صور الكرم في معلقة لبيد فإننا نجد من تلك الصور ما يلي :

١ - التباهي بالتلذذ واللهو ومنادمة الكرام : يقول لبيد :

بـــل أنـــت لا تـــدرين كـــم مـــن ليلة ... طلـــق لذيـــذ لهـــوها ونـــدامها

قـــد بـــت ســـامرها وغايـــة تاجـــر ... وافـــيت إذ رفعـــت وعـــز مـــدامها

أغلـــي الســـباء بكـــل أدكـــن عاتـــق ... أو جـــونة قـــدحت وفـــض ختـــامها

باكـــرت حاجـــتها الـــدجاج بســـحرة ... لأعـــل مـــنها حـــين هـــب نـــيامها

وغـــداة ريـــح قـــد وزعـــت وقـــرة ... إذ أصـــبحت بـــيد الشـــمال زمامهـــا

بصبـــــوح صافيـــــة وجـــذب كرينة ... بموتـــــر تأتـــــالـه إبهامهـــــا

هنا نجد لبيدًا يعدد لمحبوبته الليالي التي يقضيها مع أقرانه متباهيًا بأنه يحقق لندمائه ما لم يحققه غـــيره حـــيث بلغ به كرمه إلى أنه يشتري لهم من ماله الخمر الغالية الثمن فيقدمها لهم عن كرم وسخاء .

" ولكـــنه تصـــوير لا يقف عند مجرد ما يبذله الشاعر لأصدقائه من كرم الضيافة وإنما هو الكرم الذي يمتزج بالشهامة والبطولة والتضحية بكل غالٍ ورخيص "[١].

فهـــل يبقـــى هناك أدنى شك في أن الكرم مظهر رئيس من مظاهر الشجاعة عند العرب في الجاهلية ؟ أبـــدًا ومـــا يزال !

٢ - الكرم باعث للميسر ودعوة للضيف والجار :

يقـــول الدكـــتور أحمـــد محمد الحوفي :" ومما يدل على أن الكرم أثير عندهم أنه كان من بواعث الميسر عند أجوادهم وأثريائهم إذا اشتد

الـــبرد وكلـــب الـــزمـــان ليطعمـــوا ذوي الحاجة الجزور التي تياسروا عليها ، قال لبيد في معلقتـــه :

---

(١) د . محمد زكي العشماوي – النابغة الذبياني مع دراسة للقصيدة العربية في الجاهلية – ص : ٢٢٧ .

وجـــزور أيســـار دعـــوت لحـــتفها بمغالـــق متشـــابه أجســـامها

أدعـــو بهـــن لعاقـــر أو مطفـــل بـــذلت لجـــيران الجميـــع لحامهـــا

فالضيـــف والجـــار الغـــتريب كأنمـــا هبطـــا تبالـــة مخصبـــا أهضـــامهـــا

رب جزور مما يذبح أصحاب الميسر دعوت ندمائي لنحرها بسهام الميسر المتشابهة الأجسام، وأنـــا أدعو بالقداح لنحر هذه الناقة سواء أكانت عاقرًا أم ذات ولد وأبذل لحمها للجيران جميعًا ، فالضيوف والجيران يشبعون كأنهم نزلوا بوادي تبالة الخصيبة سهوله "[١].

٣ ـ إيواء الضعفاء وذوي الحاجة :

من أَجَلِّ صور الكرم عند العرب في الجاهلية وفي ذلك يقول لبيد :

تـــأوي إلى الأطـــناب كـــل رذيـــة مـــثل البلـــية قـــالص أهـــدامها

ويكللـــون إذا الريـــاح تنـــاوحت خلجا تمد شوارعـــــا أيتامهـــــا

أي : تلجـــأ إلى بـــيتي كل امرأة مسكينة ضعيفة لا كافل لها ، ثيابها قصيرة بالية لما بها من الفقـــــر والمسكنة فنضع اللحم متراكمًا بعضه فوق بعض في وقت اشتداد البرد واختلاف الرياح فيتناوله من الجفان الأرامل واليتامى وذوو الحاجة .

(جـ) العـــدل :

عـــندما ننظر إلى فضيلة العدل بالمفهوم الذي سبق أن عرفناه عند تعريفنا بأصول الفضائل والأخلاق الأربعة نجده في معلقة لبيد اتخذ مظهرين أساسيين ولكل مظهر منهما صوره المتنوعة .

١ – ادّخار المحامد :

مـــن الفضـــائل الخلقـــية التي ذكرها ابن طباطبا في عيار الشعر [٢] وعندما نقف عند هذه الظاهـــــرة الخلقـــية يتبادر إلى أذهان بعضنا سؤال مهم مفاده : إلى متى تدخر تلك المحامد ؟وأين تظهر عند شاعر جاهلـــي ؟ !

نقـــول : إن الإنسان الجاهلي يهمه حسن الأحدوثة وطيب الثناء ولما كان الأمر كذلك فإن

---

(١) د . أحمد محمد الحوفي – الحياة العربية من الشعر الجاهلي – ص : ٣١٠ .

(٢) ابن طباطبا – عيار الشعر – ص : ١٨ .

الشاعر الجاهلي يدخر تلك المحامد ليوم المفاخرة والمناظرة بين القبائل والأمم حيث يسجل كل شاعر مآثـــره ومآثر قومه في قصائد تكون بمثابة رسائل أخلاقية موجهة إلى الخصوم والمنافسين ، ولا يغيب عـــنا أن لبيدًا كان في معلقته يفاخر ويناظر خصومه أمام الملك النعمان بن المنذر أو غيره ، وما كان مـــدار تلك المفاخرات إلا الفضائل الخلقية وما يتممها من متممات عرضية تجلي صورها بل وتنتقل بهـــا مـــن فضائل نفسية معنوية إلى فضـــائل نفسية عرضية مادية حسية مما دعا بالشاعر إلى توظيف مجالات النشاط الأخلاقي جميعها في سبيل إيصال تلك الرسالة الخلقية الخالدة .

والشـــاعر لبـــيد بن ربيعة في معلقته وظف مجالات النشاط الإنساني وقنواته الخمس جميعها نتيجة موقف الفخر الذي هو فيه وما أراد أن يبثه من فضائل أخلاقية كثيرة ومتنوعة .

ومن صور ادخار المحامد في معلقته :

١ - التكلف بالأمور والقيام بها :

إذ من العدل أن من يرى نفسه أهلاً لكسب المعالي أن يتكلف بالأمور ويقوم بها بنفسه وألا يكون جباراً في الأرض ينسب لنفسه ما يقوم به غيره .

وفي هذا يقول لبيد :

إنا إذا التقـــت المجامـــع لم يـــزل   منـــا لزاز عظيمـــة جشامهـــا

فهو من قوم يفاخرون بأنهم هم من يقوم بعظائم الأمور ويحكمونها .

ومن العدل :

٢ - إعطاء الحقوق لمن أحسن وحجبها عمن أساء :

ومقســـم يعطي العشيرة حقهـــــا   ومغـــذمر لحقوقهـــا هضامهـــا

إن في قبـــيلة لبيد من يقسم الغنائم فيوفر على العشائر حقوقها ، ويغضب عند إضاعة شيء مـــن حقوقها ويهضم حق نفسه ، ومنها السيد الذي يملك أمور القوم فإن أساءوا هضم حقهم ، وإن أحسنوا غضب من أجلهم .

ومن العدل أيضًا :

٣ - **كسب رغائب المعالي بالكرم وسماحة الأخلاق : لا بالبطش وأخذ حقوق الناس** بالباطل :

فضلا وذو كرم يعين على الندى سمح كسوب رغائب غنامها

فالسيد عند لبيد من يعين أصحابه على الكرم وسماحة الأخلاق فيكسب رغائب المعالي ويغتنمها .

٤ - **الفخر بوراثة الأفعال المجيدة أبًا عن جد :**

إذ من العدل ألا يهدم الأبناء ما بناه الأجداد والآباء من أمجاد ، بل تجب المحافظة عليه والاستمرار في إعلاء بنائه حتى تتفيأ ظلاله الأجيال القادمة .

من معشر سنت لهم آباؤهم ولكل قوم سنة وإمامها

فكل قوم سنت لهم آباؤهم أفعالا من كرم وجود وكسب أفعال مجيدة ، ولكل قوم طريقة وإمام يؤتم به في فعل الخير وصنائع المعروف .

٢ – إصلاح ذات البين :

مظهر من مظاهر فضيلة العدل في معلقة لبيد اتخذ الصور الأخلاقية التالية :

١ - **حماية العشيرة :**

وحماية العشيرة إنما جُعلت من فضيلة العدل لأن العدل يقتضي حماية العشيرة من داخلها ابتداءً بإصلاح الذات فقد يكون شرها من أحد أفرادها الحاقدين ، وعندما يكون العدو من الداخل يكون ضرره اكبر لأنه يعلم أسرار العشيرة ومواطن القوة والضعف فيها أكثر من غيره وعندها يكون من العدل أن تحمى العشيرة منه أكثر مما تحمى من العدو الخارجي وذلك لأن العدو الخارجي نار تتأجج أمام العين يمكن اتقاء خطرها بينما العدو الداخلي كمرض السرطان لا يعرف إلا عندما يستشري في الجسم فيقتل معظم خلاياه .

يقول لبيد :

وهم السعاة إذا العشيرة أفظعت وهمو فوارسها وهم حكامها

أي : أن رهطه الأدنين إذا أصاب العشيرة أمر عظيم سعوا بدفعه وكشفه وهم الذين يمنعون العشيرة ويحموها من أعدائها ، ومن العدل أن يكونوا حكامها عند تخاصمها يُقبل قولهم لأن هدفهم إصلاح ذات البين .

٢ - تعميـم المنفعـة :

فمـن العدل ألا يخص الإنسان أهله وأقاربه بالمنفعة ويحجبها عن الآخرين من قومه ، ولهذا كان قوم لبيد بمنزلة الربيع في الخصب لمن جاورهم لعموم نفعهم .

وهمـو ربيـع للمجـاور فيهم   والمـرملات إذا تطـاول عامهـا

٣ - التعـاون :

مـن أجَلّ مظاهر العدل ، ولذلك يخبر لبيد بأن قومه يد واحدة على من سواهم كراهية أن يثـبط حاسد وحاقد بعضهم عن نصر بعض ، وكراهية أن يلوم لائمهم مع الأعداء ويظاهرهم على الأقارب :

وهـم العشـيرة أن يبطئ حاسد   أو أن يلـوم مع العـدى لوامهـا

(د) العفـة :

من مظاهر هذه الفضيلة في معلقة لبيد :

١- الغـيرة :

وقد جاء هذا المظهر الخلقي العفيف على صورتين هما :

١ - الريبة الجائرة التي تداخل النفس فيمن تحب :

يقول لبيد :

أو ملمـع وسـقت لأحقـب لاحـه   ضـرب الفحـول وضـربها وكـدامها

يعلـو بهـا حـدب الإكـام مسـحجا   قـد رابـه عصـيانها ووحامهـا

بأحـزة الثلبوت يربأ فوقهـا   قفـر المـراقـب خوفـهـا آرامـهـا

" فلبـيـد يفصل في وصف حمار الوحش تفصيلاً يطلعك على نوع مما يجري بقلبه من انفعـالات الغـيرة والحرص على أُنثاه ، حرصًا لا يقاربه فيه إلا الإنسان . وهو إذ يفعل ذلك يتتبع تلك الانفعالات النفسية الطارئة على الذكـر في حالته هذه تتبعً دقيقًا وافيًا ، ويصف من أحواله وأحوال أنثاه ما لا مراء في أن عناصره مستمدة من إحسـاسات صاحب الشعر نفسه وتجاربه. ولـو كان محل هذا الحمار إنسان لما استطاع الشاعر أن يذهب في تحليل حرصه على أنثاه أكثر من ذهابه في تحليل مشاعر الحمار "[١].

---

(١) د . نجيب محمد البهبيتي – تاريخ الشعر العربي – ص : ٩٦ .

٢ - حب الاستئثار والحرص على العزلة بالمحبوب :

فمضـــى وقـــدمها وكانـــت عـــادة	مـــنه إذا هـــي عـــردت إقـــدامها
فتوســـطا عـــرض الســـري وصـــدعا	مســـجورة مـــتجاورا قلامهـــا
محفوفـــة وســـط الـــيراع يظـــلهـــا	منـــه مصـــرع غابـــة وقيـــامهـــا

ثم إن حمار الوحش لما "لعب في نفسه الشك ، وثارت فيه الريب وملكت عليه الغيرة أمره ، ففضـــل حياة العزلة ،وزاده حرصًا على العزلة وتأثرًا بالغيرة ما يرى من تمنع صاحبته وتجنيها ، فهو يـــدفعها أمامـــه وهـــي تمضي مسرعة تود لو تفوته ، ولكنه يعدو في إثرها فلا يزيدها هذا العدو إلا إلحاحًـــا في الإســـراع، وما تزال مسرعة ،وما يزال هو عادياً في إثرها حتى تتم لهما العزلة في مكان مـــرتفع قـــد كثر فيه النبت وغطّـــاه العشب "[1] وفي تغطية العشب هذه أيضًا ما يشعرنا بحب التستر بالحبيب عن الأعـــين وهذا من العفة أيضًا.

٢ - الاعتداد بالكرامة :

وإنمـــا كان هذا المظهر من مظاهر العفة لأن كرامة الإنسان وعفته تمنعه من الولوج بالنفس في مـــواطن الشـــك والـــريبة والذلـــة والمهانة ، فهو مظهر رائع اتخذ عند لبيد في معلقته الصورتين التاليتين :

١ - مواصلة من يستحق الوصال ومقاطعة من يستحق القطيعة :

يقول :

أو لم تكـــن تـــدري (نوار) بأنـــني	وصـــال عقـــد حبـــائل جـــذامهـــا

أي : ألا تعلم نوار علم اليقين أنني أصل عقد العهود والمودة مع الذين أعقـــــــدها معهم وأقطعها عمن يستحق القطيعة والهجر ؟!

" ومـــا دامت نوار أعرضت عنه فلا اقل من أن يقابلها إعراضًا بإعراض وكيف لا ؟! وهو أكثر منها قدرة وأمضى عزمًا وأقوى على مواجهة الواقع في عزم وتصميم "[2].

---

(١) د . طـــه حسين – حديث الأربعاء – ج١ / ٢٤ .

(٢) د . محمد زكي العشماوي – المرجع السابق – ص : ٢٤٨.

٢ - الترفع عن المكاره :

وحري بالإنسان العاقل أن تترفع به عفته عن المكاره ومزالق الشر ، ولذا نجـد لبيدًا ترّاك أمكنة يرى فيها ما يكره إلا أن يدركه الموت فيحده عليها ويحبسه .

تـراك أمكنـــــة إذا لم أرضهـــا   أو يعتـلق بعـض النفـوس حمـامهـا

٣ - القـناعة :

إن النفس القنوع العفيفة محبوبة إلى الناس ، ولذا فإن لبيدًا عندما يفخر أمام حبيبته ليكسب ودها، أو أمام خصمه ليكسب الفخار والمناظرة لا يفوته الاعتداد بهذا المظهر العفيف الذي كان من صوره في معلقته :

١ - الرضا بالقسمة :

وفي ذلك يقول لبيد :

فاقنـع بـما قسـم المليـك فـإنــما   قسـم الخـلائـق بيننـا عـلامهـا

أي : ارض أيهـا الإنســان بما قسم الله لك " فإن الله تعالى قد قسم الأرزاق والأخلاق في قـديم الأزل قال الرسول (صلى الله عليه وسلم): " إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم " [١].

٢ - أداء الأمـانة :

من العفة لأنك عندما تؤدي الأمانة إلى أهلها فقد عفّت نفسك عما تطمع فيه نفوس خونة الأمانة وفي هذا يقول لبيد :

وإذا الأمانـة قسمـت في معشــر   أو فى بـأعظـم حظنـا قسـامهـا

أي : " إذا تفاخر الأقوام بأداء الأمانات ، فإننا في المحل الأرفع والمكانة العليا في هذه الصفة الجلـيلة القـدر ولا غرو لأن الله هو الذي خصنا بالقسط الأوفر منها حين قسم الحظوظ من تلك الصفة النبيلة " [٢]

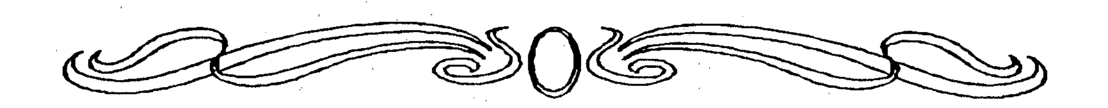
---

(١) أحمد بن حنبل – مسند الإمام أحمد – دار المعارف – مصر (١٩٤٩م –١٩٨٠م) .

(٢) الشيخ محمد علي طه الدرة – فتح الكبير المتعال إعراب المعلقات العشر الطوال – ص : ١١٦ .



الإطار الخلقي لمعلقة عمرو بن كلثوم



معلقة عمرو بن كلثوم *

إضاءة :

قبل الدخول في بحث الجانب الخلقي لمعلقة عمرو بن كلثوم نحن بحاجة ماسة إلى تحري أمر مهم يتعلق بهذه المعلقة ويتمثل ذلك الأمر في :مخالفة هذه المعلقة إجماع أصحاب المعلقات على البداية بذكر الأطلال وابتداؤها بالمقدمة الخمرية إلى جانب التشكيك في بعض أبياتها مما حمل الدكتور طه حسين على الحكم عليها بأنها منحولة ، وألقى ظلالاً من الشك حولها حيث قال في كتابه " في الأدب الجاهلي " فلسنا نعرف كلمة تضاف إلى الجاهليين وفيها من الإسراف والغلو ما في كلمة عمرو بن كلثوم هذه ، على أن رأي الرواة فيها يشبه رأيهم في معلقة امرئ القيس ، فهم يشكون في بعضها ، وهم يختلفون في الأبيات الأولى منها أقالها عمرو بن كلثوم أم قالها عمرو بن عدي ابن أخت جذيمة الأبرش ؟ فأما الذين يضيفون هذه الأبيات لعمرو بن كلثوم فيرون أن مطلع القصيدة :

* ألا هبي بصحنك فاصبحينا *

وأما الآخرون فيرون أن مطلعها :

قفي قبل التفرق يا ظعينا *

وأولئك وهؤلاء لا يختلفون في إنطاق عمرو بن عدي بالبيتين :

صددت الكأس عنا أم عمرو ... وكان الكأس مجراها اليمينا

وما شر الثلاثة أم عمرو ... بصاحبك الذي لا تصبحينا

وأنت حين تمضي في القصيدة ترى فيها أبياتًا مكررة تقع وسط القصيدة وفي آخرها . ولكن هذا النحو من الاضطراب مشترك في أكثر الشعر الجاهلي ، مصدره اختلاف الروايات . فإذا قرأت القصيدة نفسها فستجد فيها لفظًا سهلاً لا يخلو من جزالة ، وستجد فيها معاني حسانًا ، وفخرًا لا بأس به لولا أن الشاعر يسرف فيه من حين إلى حين إسرافًا ينتهي به إلى السخف ؛ كقوله :

إذا بلغ الرضيع لنا فطامًا ... تخر له الجبابر ساجدينا

---

* الأبيات في شرح القصائد العشر للتبريزي – ص : ٢٥٤.

وستجد فيها أبياتًا تمثل إباء البدوي للضيم واعتزازه بقوته وبأسه ؛ كقوله :

ألا لا يجهلــن أحد علينــا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

قلــت إن هــذا البيت يمثل إباء البدوي للضيم . ولكني أسرع فأقول : إنه لا يمثل سلامة الطبـــع البدوي وإعراضه عن تكرار الحروف إلى هذا الحد الممل :

ألا لا يجهلن أحـــــد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

فقـــد كثرت هذه الجيمات والهاءات واللامات ، واشتد هذا الجهل حتى مل ، وهم يحملون على الأعشـــى بيتًا فيه مثل هذا النوع من التعسف ، لكننا نشك في صحة هذا البيت الذي يضاف إلى الأعشـــى. ومهما يكن من شيء فإن في قصيدة ابن كلثوم هذه من رقة اللفظ وسهولته ما يجعل فهمهـــا يسيرًا على أقل الناس حظًا من العلم باللغة العربية في هذا العصر الذي نحن فيه ، وما هكذا كانـــت تـــتحدث العرب في القــــرن السادس للمسيح وقبل ظهور الإسلام بما يقرب من نصف قرن. وما هكذا كانت تتحدث ربيعة خاصة في هذا العصر الذي لم تسد فيه لغة مضر ولم تصبح فيه لغة الشعر "[1].

ويـــتفق مع طه حسين في رأيه الدكتور حسين عطوان في كتابه " مقدمة القصيدة في الشعر الجــاهلي " في التشكيك في المقدمة الخمرية لهذه المعلقة باتفاق القدمــــــاء بالإضافة إلى إسقاط أبيات منها مرجــعًا عدم اطمئنانه لذلك إلى أربعة أسباب[2] نوجزها في الآتي :

١- إن القدماء أنفسهم مختلفون في المناسبة التي قال عمرو فيها هذه المعلقة .

٢- إنه ليس فيما بقي من شعر عمرو بن كلثوم أي وصف للخمر.

٣- إن القــدماء أنفســـهم شكوا في البيتين (السابق ذكرهما في رأي طه حسين) مما دفع ابن الأنبـــاري إلى إسقاط البيت الذي يليهما وهو :

وكــــــأس قد شربت ببعلبك وأخـــرى في دمشق وقاصرينا

٤- إن شـــيوع الخمـــر في الجاهلـــية شـــيوعًا واسعًا ..لا يفضي بالضرورة إلى وجوب وجود

---

(١) د . طـــه حسين – في الأدب الجاهلي – ص : ٢٢٠-٢٢٢ .

(٢) د . حسين عطوان – مقدمة القصيدة في الشعر الجاهلي – ص : ١٧١-١٧٣.

قصـــــائد جاهلية استهلها الشعراء بوصف الخمر . ثم يقول :" ولعل من أقوى الأدلة على مـــا نقول أن الشعر الجاهلي كله – فيما نعلم – يخفى خلوًّا تامًا من قصائد بل من قصيدة واحـــدة اُفتـــتحت بوصف الخمر . ومـــــن يدري فليس بين أيدينا من الأدلة القاطعة ما نستطيع معها الجزم بأن عمرًا استهل معلقته بوصف الخمر . ومـــن يدري فلعله صنع ذلك ولعله وصف الخمر في ثنايا قصيدته ، فإن الخمر ومجالسها وسقاها ودناها غالبًا ما يلقانا في تضاعيف القصيدة الجاهلية " [١]

لقد شكك طه حسين ومن اتبعه في هذه المعلقة لتصورهم أن الابتداء بالوقوف على الأطلال كـــان أمرًا ملتزمًا عند شعراء الجاهلية .بل لقد اعتبر بعض الباحثين أن ابتداء معلقة عمرو بن كلثوم بوصف الخمر خرق للعادة إذ رأى " أن بنية كل معلقة تقوم على ثلاثة عناصر لا تكاد تعدوها ، ولا تكـــاد تمـــرق عن نظامها : إذ كل منهن تبتدئ بذكر الطلل أو وصفه ، ثم ذكر الحبيبة ووصفها ثم الانـــتقال بعـــد ذلك إلى الموضوع .. إلا معلقة عمرو بن كلثوم التي تخرق العادة بابتدائها بالغزل ثم وصف الطلل قبل الانطلاق إلى الفخـــــر وعلى الرغم من خـــــرق هذا الترتيب فإن المعلقة تظل محـــــافظـــة علـــى البنيـــة الثـــــلاثية العناصر "[٢] ولا يخفى على ذي لب ما وقع فيه عبد الملك مرتاض من خلط بين الوقوف على الأطلال ومجرد استيقاف الراحلة عند عمرو بن كلثوم !

وقـــد تـــناول الدكتور مصطفى عبد الواحد الرد على هذه الشكوك مثبتًا بالحجة والبرهان صـــحة أبـــيات المعلقـــة المشكوك فيها ، ومناقشًا رد طه حسين القصيدة بسبب يسر معاني المعلقة وســـهولة فهمهـــا حيث قال :" إن دلالة خلو هذه المعلقة من ذكر الأطلال أن ذلك التقليد لم يكن ملتـــزمًا .. وإلا لمـــا وسع عمرو بن كلثـــوم أن يخالفه .. ثم تختار العرب قصيدته وتسلكها مع هذه القصـــائد والمخـــتارات التي كتب لها أوفر حـــظ من الذيوع والتقدير .. فإذا عرفنا أن عمرو بن كلـــثوم لا يعـــرف الـــرواة لـــه إلا هذه القصيدة، وليس كغيره من شعراء الجاهلية من أصحاب الدواوين.. أدركنا تعذر وقوع النحل في قصيدة واحدة هي كل ما عـــرف لهذا الشاعر الجاهلي .. فقـــد يتصـــور الانتحال في ثنايا شعر شاعر من أصحاب الدواوين ، كما صنع الرواة في شعر امرئ القـــيس .. أما عمرو بن كلثوم فإن كل حظه من الشعر هذه القصيدة . كذلك فـــإن ابن سلام الجمحي قد أورد مطلع هذه القصيدة دون خلاف وهو : ألا هبي بصحنك ... وجعله من الطبقـــة

(١) د. حسين عطوان – السابق – ص : ١٧١-١٧٣ .

(٢) عبد الملك مرتاض – السبع معلقات – ص : ٦٢.

السادسة :" أربعة رهط لكل واحد منهم واحدة " وهم عمرو بن كلثوم، والحارث بن حلزة وعنترة بن شداد ، وسويد بن أبي كاهل . وقد ذكره ابن قتيبة في الشعر والشعراء ونسب هذه القصيدة إليه فقال : وعمرو بن كلثوم هو القائل :

ألا هبي بصحنك فاصبحينا

وكـان قـام بهـا خطيبًا فيما كان بينه وبين عمرو بن هند وهي من جيد شعر العرب القديم وإحدى السبع ... أما ما أشار إليه الدكتور طه حسين من اختلاف الرواة في نسبة بعض أبيات هذه المعلقـة .. فذلك إنما وقع في البيتين اللذين أشار إليهما .. فقد قال التبريزي في شرحه للمعلقات : "بعضهم يروي هذين البيتين لعمرو بن أخت جذيمة الأبرش " وقد ذكرهما المرزباني في معجم الشعراء منسوبين إلى عمرو بن عدي بن نصر اللخمي، فقال : " وعمرو وهو القائل في رواية المفضل .. " ثم ذكر البيتين .. ولكن جاء في مخطوطة المرزباني :" البيتان يرويان في معلقة عمرو بن كلثوم " إذن فقد وقـع الاخـتلاف بين بعض الرواة في نسـبة هذين البيتين إلى عمرو بن كلثوم ، أو إلى عمرو بن عدي،وهـذا الاخـتلاف دليل على التحري في النسـبة والضبط في الرواية ..فلا ينبغي أن يكون دلـيلاً على الشك في الرواية كلها وإسقاطها جملة عن عمـرو بن كلثوم ! وقد أشار أبو العلاء في رسـالة الغفـران إلى أمر هذا الخلاف في شأن هذين البيتين مما يـدل على شهرته ، وانتهى إلى أن عمرو بن كلثوم ربما سمعهما من عمرو بن عدي " فحسن بهما كلامه واستزادهما في أبياته " وأما ما أبـداه الدكتور طه حسين من أسباب لرد هذه القصيدة ، ترجع إلى يسر معانيها وسهولة فهمها .. وسهولة ألفاظها مع إقراره بأنها لا تخلو من جزالة – فهو سبب يصلح لرد الشعر العربي كله .. ففي كل عصوره كانت السهولة وكان اليسر مع الغلظة والخشونة والغرابة جنبًا إلى جنب .. وفي شعـر امـرئ القيس قصائد مملوءة بالغريب .. وأخرى تفهم بأقل حظ من معرفة اللغة .. فليس عمرو بن كلثوم بدعًا في عصره وليست قصيدته بمختلفة عن كثير من القصائد التي يقر بصحتها النقاد .

وقـد عـاد الدكتور طه حسين في آخر كتابه " في الأدب الجاهلي " فأقر بأنه لا ينبغي أن تـتخذ غرابة اللفظ دليلاً على الصحة والقدم ولا ينبغي أن تتخذ سهولة اللفظ دليلاً على النحـل والجدة . وأما البيت الذي رده لما فيه من تكرار لبعض الحروف :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

فهـو سـبب غريب دفعه الشيخ محمد الخضر حسين رحمه الله بقوله :" التكرار في ذاته لا

يخـــــدش وجـــه الفصاحة ، وإنما مرجعه الذوق السليم فهو الذي يقضي بسوء أثره أو حسن مـــوقعه من الكلام . وقد بسط البحث وحققه في هذا الوجه الشيخ عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز وضرب أمثلة للتكرار الذي لا يمس فصاحة الكلام ومن هذه الأمثلة :

وجهل كجهل السيف والسيف منتضى   وحلم كحلم السيف والسيف مغمد " [١]

وأنا إذ ألتمس العذر في تقديم هذا الكلام المطوّل للدكتور مصطفى إلا أنني وجدت فيه حد الاكـــتفـــاء مـــن الخوض في هذه المسألة التوثيقية غير منكر أن هذا الاختلاف في وجهات النظر في هذه القضية بين نقـــادنا قد فتحت لي بابًا جديدًا في دراسة الجانب الخلقي في المعلقات العشر يتمثل ذلـــك الفتح المبارك في تأكيد ما ذهبت إليه عند الحديث عن المجالات أو القنوات الصالحة التي اتخذ منها الشاعر الجاهلي سبيلاً للوصول إلى قلب متلقي شعره عندما يكون عبر قناة مناسبة من القنوات الخمـــس وما أرى عمرو بن كلثـــوم في ابتدائه بوصف الخمر إلا شاعرًا متمكنًا لأنه سلك في معلقته قناة صالحة لغرضه تتمثل في الزمن وما يتعلق به من انتهاب للّذات ممثلة في الخمر وشربها وما تحدثه مـــن إطاحة برأس صاحبها وهذه الحال توافق الحال الذي كان عليه عمرو وهو يشدو بمعلقته فابن كلـــثوم " يســـرع إلى المنافرة والمفاخرة ثم إلى الإطاحة براس الملك .. فلا مكان للأطلال والوقوف علـــيها في كيان الشاعر ووجدانه . إن قلبه أقوى من الحب والأحبة وديار الأحبة . فيبدأ بالخمرة : والخمرة في الجاهلية تجسيد للمجد الفروسي عند البطل ورمز لغناه وسيادته . فكيف لا يبدأ بها هذا الـــبطل الـــتغلبي وهو القادم عما قليل إلى قصر مليء بها ! " [٢] وأما التعـــــليق على معاني وألفاظ أبـــيات المعلقـــة – وبالذات الأبيات موضع الخلاف – فسنؤجله إلى حين الحديث عـــن أثر القيم والقضايا الأخلاقية في تشكيل المعلقات في الفصل الثالث من هذه الرسالة إن شاء الله تعالى . وأمـــا بالنســـبة لعــــــدد الأبـــيــــات فـــلا تـــتفق الروايـــــات على الكثـــير مـــــن أبيـــــاتها فالقصيدة في جمهرة أشعار العرب مائة وثلاثة وعشرون بيتًا [٣] وجاءت عند الزوزني مائـــة وثلاثة أبيـــات [٤]بينما وصل التبريزي بها إلى ستة وتسعين بيتًا [٥] وفي ديوان عمرو بن كلثوم (طبعة دار صادر) مائة وخمسة وعشرون بيتًا [٦] إلا أنه لم يحدث الاختلاف بين الرواة في نسبة تلك

---

(١) د . مصطفى عبد الواحد – الموسم الثقافي لكلية اللغة العربية (١٤٠٢-١٤٠٣هـ) – ص : ٢٨-٣٠.

(٢) القرشي – جمهرة أشعار العرب – ص : ٣٠٣ .

(٣) أبو زيد بن الخطاب القرشي – جمهرة أشعار العرب –ج١ / ٢٧٩ .

(٤) الزوزني – شرح المعلقات السبع – ص : ١٦٥.

(٥) التبريزي – شرح القصائد العشر – ص : ٢١٧ .

(٦) ديوان عمرو بن كلثوم – جمع الدكتور / إميل بديع يعقوب – ص : ٦٤ .

الأبيات إلى عمرو بن كلثوم عدا البيتين اللذين شكك فيهما طه حسين كما سبق أن عرفنا ، ولا يخفى أن الاختلاف في عدد الأبيات بين الرواة لا يفسد جوهر النص ، وتعدد المصادر وإن اختلف الرواة في عدد الأبيات يؤدي إلى الصحة والتوثيق " وإذا ما نحن راجعنا هذه المعلقات في الصورة التي حملتها إلينا المصادر فإننا لا بد لنا من ملاحظة بعض الاختلاف في المادة اللغوية ، ولكن هذا الاختلاف لا يتجاوز إحلال لفظ مكان لفظ أو تقديم بيت على آخر ، وفي أسوأ الأحوال وضع شطر مكان شطر ، وهذا كله ليس بالاختلاف الجوهري الذي يؤدي إلى الشك والرفض " [١]
وقد زعم بعض الرواة أن عدد أبيات المعلقة " تعدى الألف ولم يصلنا من هذا الألف سوى عشرها " [٢] إلا أن هذا لا يؤثر في وحدة القصيدة وذلك في نظري يعود إلى أن أبيات المعلقة في أغلبها تقوم على تعداد المفاخر القبلية الكثيرة وإسقاط عدد من هذه المفاخر لا يؤثر بالضرورة على بناء القصيدة ، ولما رأيت من عدم البأس في ذلك اخترت نص أبيات هذه المعلقة من شرح القصائد العشر للتبريزي .وذلك لقرب عدد أبياتها من أبيات خصمه (ابن حلزة) الطرف الآخر في المفاخرة ظنًّا مني أن ذلك سيحدث توازنًا في دراسة المعلقتين ومن ثم العدل في الحكم عليهما واضعًا في ذهني فكرة أن المفاخرة بين الشاعرين كانت بين يدي ملك وقته محسوب له وعليه .

---

(١) د. مفيد قميحة شرح المعلقات العشر .ص : ٣٣ .

(٢) خليل شرف الدين – جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي – ص : ٣٠٢ .

الإطار الخلقي للمعلقة :

عــندما وقفت مع هذه المعلقة وقرأتها مرات كثيرة لأستجلي ما اشتملت عليه من جوانب خلقية محــاولاً وضع إطار خلقي واضح ومحدد لها وجدت فيها مظاهر خلقية كثيرة جـــــدًا وإنما تعــود تلك الكثرة – في رأيي– إلى كون الشاعر احتشد أمام خصومه ومناظريه ليفخـــر بمناقب قومه فسجل كل ما أمكنه تسجيله منها في هذه المعلقة خاصة إذا ما أخـــذنا بالرأي الذي يقول : " إن الشــاعر قال معلقته هذه على مرحلتين : الأولى عندما تفاخر أو تنــافر في حضرة الملك مع الحــارث بن حلزة ، ونفره ، فحكم الملك للشــاعر ، ثم حكم عليه بعــد أن سمع معلقة الحارث . مما أغضب عمرو بن كلثوم وغادر حانقًا . والمرحلة الثانية بعيــد قصــة الاستخدام المشهورة وقتل الشــاعر الملــك وارتجازه للقسم الثاني من المعلقة الذي يتهدد فيه الملك مشيرًا إلى قصة استخدام أم الملك هند لليلى أم الشاعر :

تهـــددنا وتوعدنـــا رويدًا   متى كنـــا لأمك مقتوينـــا

وينهمــر التــيار جارفًا أمامه كل شيء ، وليس فقط رأس الملك مالئًا الجزيرة دويًا هادرًا يصــم الآذان"[١] " وقد وقف عمرو بن كلثوم في عكاظ فأنشدها في موسم مكة ، وكان بنو تغلب يعظمـــــونها ويــرويها صــغارهم وكــبارهم لما حوته من الفخر والحماسة مع جزالتها وسهولة حفظها"[٢] ومــا دام عمرو بن كلثوم وقف وأنشدها ثانية في عكاظ في موسم مكة فلا يستبعد أن يكون الشاعر نفسه حــذف منها أو زاد فيها ما شاء ولكن الذي يهمنا في هذا أن القصيدة خرجت ثانية من نفس الشاعر لترتسم ثانية خيطًا نفسيًا جديدًا إلا أن مادته وروحه هي نفسها في المرة الأولى مــع هدوء نسبي (في نظري) لنفــس الشاعر عما كانت عليه وقت المناظرة والتفاخر، و ليتأكد لنا بذلك أن المعلقة زادت أبياتها أو نقصت فإنها لعمرو بن كلثوم ولا يشاركه فيها أحد .

والآن ، إلى الولوج في نص معلقة عمرو بن كلثوم لتحديد الإطار الخلقي لهذه المعلقة بعد أن اطمأننا إلى صحة النص ونسبته إلى صاحبه الشاعر الفارس عمرو بن كلثوم التغلبي .

لا يخفــى علينــا أن معلقة عمرو بن كلثوم على كثرة ما اشتملت عليه من مظاهر أخلاقية متفــرقة فــإن تلك المظاهر لا تخرج عن إطار أصول الأخلاق الأربعة إلا أنها تكاد أن تمتزج ببعضها امتــزاجًا يصعب معه تصنيف المظاهر الأخلاقية تلك ، والسبب في ذلك يعود إلى كون أبيات المعلقة

---

(١) القرشي – جمهرة أشعار العرب – ص : ٣٠١-٣٠٢ .

(٢) د . محمد عبد المنعم خفاجي – الحياة الأدبية في العصر الجاهلي – ص : ٢٩٤.

خـــرجت من نفس شـــاعر تغلي غليان المرجل وهو واقف أمام خصمه ومناظره يناظر ويفاخر ناقلاً لنا من خلال أبياته حقيقة مـــا في نفسه ، ولله در العقاد عندما قال وهو يتحدث في الشعر ومزاياه:" وقد يخالف الشعر الحقيقة في صورته ولكن الحر الأصيل منه لا يتعداها ولا تخالف روحه روحها لأنه لا حقـــيقة للإنسان إلا بما ثبت في النفـــس واحتواه الحس ، والشعر إذا عبر عن الوجدان لا ينطق عـــن الهوى إن هو إلا وحي يوحى"[١]وفي خضم تلك المظاهر الأخلاقية ما كان أمامي إلا أن أصنع فـــيها ما يصنعه صاحب مهنة استخراج اللؤلؤ عندما يمرر حباته على مناخل مختلفة الأحجام فيسقط مـــنها ما يسقط ويبقى منها ما يبقى حسب حجمه وقيمته ، وما هو جيد منه وما هو رديء فمررت المظاهر الأخلاقية في المعلقة على أصول الأخلاق الأربعة فاتخـــــذت المعلقة الإطار الخلقي التالي :

(أ) العقـــل :

ومن مظاهر هذا الأصل الخلقي في معلقة عمرو بن كلثوم :

١- الحـــكمة :

وقد تمثل هذا المظهر العقلي في المعلقة في ثلاث صور هي :

١- الإقرار بحـــتمية المـــــوت : ويظهر هذا في قوله عمرو بن كلثـــــــوم :

وإنا ســـوف تدركنـــــا المنايـــــا مقـــــــدرة لنـــــا ومقدرينـــــا

هـــنا يقر الشاعر بأن الموت أمر واقع لا بد منه فهو مقدر علينا ، ونحن خُلقنا مقدرين له ، فلا محيص عنه ولا مهرب منه .

٢ - التسليم بالـــــغيـــــب :

وإن غـــــــدا وإن اليـــــوم رهن وبعــــــد غـــــد بـــما لا تعلمينـــــا

فعمـــرو بـــن كلثوم مسلّم بأن الأيام مرتهنة بالأقدار ، فهي توافي الإنسان من حيث لا يعلم "والأيـــام سوف تكشف عما لا نعلمه فهي رهينة بالأقدار "[٢].

٣ - التفكـــــير في العواقب :

وإن الضغـــن بعد الضغـــن يبـــدو عليك ويـــخرج الداء الدفينـــــا

---

(١) عباس محمود العقاد – مطالعات في الكتب والحياة – ص : ٣٤٠ .

(٢) السيد محمد الديب – دراسات في الأدب الجاهلي – ص : ١٠٢.

حيث يقرر عمرو بن كلثوم بأن كثرة الحقد في قلب صاحبه تظهر آثاره عليه ، ثم أنه يبعث علـــى الانتقام ." وقد جاءت الحكمة الجاهلية على قدر كبير من النضج العقلي ..." [١] عند الكثير منهم ولا غرو بأن تكون الحكمة الناضجة من مظاهر خلق شاعر وفارس ومجرب كعمرو بن كلثوم .

٢ - الصدع بالحجة (المناظرة) :

الصـــدع بالحجـــة من أقسام العقل ومظهر من مظاهره ويتمثل في معلقة عمرو بن كلثوم في مناظرة الخصـــم ومفاخرته والوقوف موقف المحاماة عن النفس والقبيلة والأرض والعرض وقد سبق لـــنا أن ذكـــــــرنا أن الشاعر الجاهلي يحرص على كسب المحامد وادخارها ليس لشيء سوى شغفه بحسن الأحدوثة وطيب الثناء ومفاخرة الأعداء والخصوم ومناظرتهم بذلك ، ولّما كان المقام في معلقـــة عمرو بن كلثوم مقام مفـــــاخرة ومناظرة إذ وقف الشاعر موقف المحامي البارع عن قومه أمـــام المـــنافس أو الخصم فهو يحتشد لهذا بكل ما في وسعه مما جعل هذا المظهر الخلقي يأخذ مكانًا واسعًا في المعلقة وصورًا متعددة هي :

١ - **الشعور بالانتماء :** المتمـــثل في التفاخر بوراثة المجد في قومه أبًا عن جد ويتضح هذا في قوله :

فهـــل حـــدثت في جشـــم بـــن بكـــر	بـــــنقص في خطـــــوب الأوليـــــنا ؟
ورثـــنا مجـــد علقمـــة بـــن ســـيف	أبـــاح لـــنا حصـــون المجـــد ديـــنا
ورثـــــت مهلـــهلا والخـــير مـــنه	زهـــير نعـــم ذخـــر الذاخـــرينا
وعـــــتابا وكلـــــثوما جمـــيعا	بهـــم نلـــنا تـــراث الأكـــرمينا
وذا الـــبرة الـــذي حـــدثت عـــنه	بـــه نحمـــى ونحمـــي الملجئيـــنا
ومنـــا قبلـــه الســـاعـــي كـــليب	فـــأي المجـــد إلا قـــد ولينـــا ؟

يقول : هل أخبرك أحد أنه يوجد نقص أو عيب في سلفنا فنحن الوارثون عز علقمة بن سيف وســـؤدده الذي غلب أقرانه على ذلك ، ثم يخص نفسه بأنه ورث مجد جده مهلهل ومجد من هو أفضـــل مـــنه وهـــو زهير جده لأبيه ، وذلك في نظره خير ذخر يُخبَّأ ليوم شدة أو ساعة مفاخرة كما أنه ورث مجد عتـــاب وكلثوم وبه بلغ هو وقومه ميراث الأكارم حيث حازوا مآثرهم فشرفوا بها إضافة إلى مجد ذي البرة الذي اشتهر وبمجده تُحمى تغلب ويُعرف حقها عند الملوك ، وبه يحمون

(١) د. يحيى الجبوري – الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه – ص : ٤٠٤.

الفقــراء المستضــعفين الذين يحتاجــون المساعدة ومن قبل ذي البرة كليب الساعي للمعالي والمجد والسؤدد وبأولئك كلهم بلغت تغلب مجــدًا لا يبلغه غيرها .

٢ ـ غلبة الخصم وقهره في القتال والجدال :

مــــتى نعقـــد قريننـــا بحبــــل ـــنجذ الوصـــل أو نقـــص القرينـــا

أي : متى قُرنًا بقوم في قتال أو جدال غلبناهم وقهرناهم فهم الغالبون في السنان واللسان.

٣ ـ حماية الذمــار والوفـــاء باليمين :

ونوجـــد نحـــن أمنعهـــم ذمـــارا وأوفـــاهـــم إذا عقـــدوا يمينـــا

أي : نحن أشد الناس غيرة وحفظًا لما يجب حفظه وحمايته من عرض ومال ونفس ، ونحن أوفى الناس بالعهود إذا عاهدوا عهدًا أو أبرموا وعدًا .

٤ ـ الصبر على إعانة القوم ومساعدتهم على أعدائهم :

ونحـــن غـــداة أوقـــد في خـــزاز رفـــدنا فـــوق رفـــد الـــرافدينا

ونحـــن الحابســـون بذي أراطـــى تســـف الجلـــة الـــخـــور الدرينـــا

يفتخـــر وعشيرته بصبرهم على إعانة القوم ومساعدتهم على أعدائهم يوم أُوقدت نار الحرب "وذلـــك في حربهم مع أهل اليمن"[1] وقد صبروا صبرًا عظيمًا حين حبسوا أموالهم بالموضع المسمى بذي أراطـــى إلى درجة أن الإبل على صبرها وقوة احتمالها أكلت النبت القديم المسود عندما لم تجد عنه بـــديــــلاً يسد جوعها .

٥ ـ المـــن في السلم والقتال في الحرب :

وقـــد علـــم القـــبائل مـــن معـــد إذا قـــــبب بأبطحهـــــا بنيـــــنا

بأنا العاصمـــون بكـــل كحـــل وأنـــا البـــاذلـــون لمجتـــدينـــا

يقـــول : لقد علمت القبائل منذ جد العرب الأول (معد) وقت اجتماعهم للمفـــــاخرة بأنـــا أشـــرافهم وساداتهم .. كيف لا ؟! ونحن نمنع الناس من الضر في السنوات الشديدة الكرب ونبـــذل المعـــروف والإحسان لمن يطلب ذلك في السلم .

---

(١) الشيخ محمد علي طه الدرة – فتح الكبير المتعال إعراب المعلقات العشر الطوال – ص : ٤٠٧ .

٦ - الكـــرم :

وأُعتـــبر الكـــرم هنا من صور مناظرة الخصم بادخار المحامد لأن الشاعر في موقف مناظرة الخصـــم في هـــذا الجانب ذلك أن العرب " كانوا يكرمون الضيف لكلفهم بحسن الأحدوثة وطيب الثـــناء فهم ذوو أريحية تسعد نفوسهم بمساعدة المحتاج وإطعام الجائع وإغاثة الملهوف .. وكان المال في نظرهم وسيلة لا غاية ، وسيلة إلى كسب المحامد "[1] وفي ذلك يقول عمرو بن كلثوم :

ونحـــن غـــداة أوقـــد في خـــزازٍ رفـــدنا فـــوق رفـــد الـــرافدينا

وقوله :

وأنا المنعمـــــون إذا قـــدرنـــا وأنـــــا المهلكـــــون إذا أتينــــا

فـــتغلب قبـــيلة قومها كرام يعطون في ساعة العسرة فوق عطاء المعطين ويتكرمون على من وقـــع في الأسر بالتخلية والعفو عنه ما لم يغر عليهم فمن فعل ذلك هلك .

ونـــود أن نـــبه هـــنا إلى أن جميع المظاهر الخلقية الواردة في معلقة عمرو بن كلثوم صالحة الإدراج تحـــت هذا الخلق العقلي الكبير (ا لمناظرة) الذي ما نُسجت أبيات المعلقة إلا من أجله إلا أن مـــنهج الدراسة لديـــنا يحتم علينا تصنيف هذه المظاهر الخلقية حسب ما يمكن إدراجه منها تحت واحد من الأصول الأخـــلاقية الأربعة .

(ب) الشجـــاعة :

ومـــا عســـانا أن نقـــــول في شـــجاعة عمرو بن كلثوم الذي ضرب به المثل في الجرأة والإقـــدام ؟!

إن معلقـــة عمرو بن كلثوم قد زخرت بهذا الأصل الخلقي العربي الأصيل إلا أن المبالغة فيه من قِبَل الشاعر عمرو بن كلثوم ربما قد ورث مظاهر شجاعة مرذولة كما سنتبين ذلك سويا .

ويمكننا حصر مظاهر الشجاعة في المعلقة العمرية فيما يأتي :

١ - **علـو الهمة** : وجاء هذا المظهر على الصور التالية :

١ - **حب التبكـــير إلى الغايـــات :**

ويتبدى لنا هذا المظهر من خلال قول عمرو بن كلثوم :

---

(١) محمد الناصر – أخلاق العرب بين الجاهلية و الإسلام – ص : ٦٨ .

ألا هـــبي بصـــحنك فاصــبحينا ولا تبقـــي خمـــور الأندريـــنا
مشعشـــعة كـــأن الحـــص فـــيها إذا مـــا المـــاء خالطهـــا ســـخينا
تجـــور بـــذي اللـــبانة عـــن هـــواه إذا مـــا ذاقهـــا حـــتى يليـــنا
تـــرى اللحـــز الشـــحيح إذا أمـــرت علـــيه لمالـــه فـــيها مهيـــنا
كـــأن الشهـــب في الآذان منهـــا إذا قرعـــوا بـــحافتهـــا الجبينـــا

ربمـــا يتبادر إلى أذهاننا أن طلب عمرو بن كلثوم من الساقية أن تستيقظ من النوم مسرعة فتســـقيه شـــراب الصبوح ولا تدخر من خمر الأندرين شيئًا أن عمرًا يكشف لنا بذلك عن خلق مذمـــوم فـــيه يتمثـــــل في الإسراف في شرب الخمر – وهذا صحيح – فيكون ذلك من مظاهر التفريط في الكرم والكرم من مظاهر الشجاعة أيضًا كما عرفنا إلا أن هناك أمرًا لابد من التفكير فيه والوقوف عنده مليا ويتمثل هذا الأمـــر في أن بعض شعراء الجاهلية ومنهم عمرو بن كلثوم – يرى في شـــرب الخمر فروسية وشجاعة وذلك مثـــل ما يرى شارب الدخان اليوم أن التدخين ربما يمثل جانب الرجولة والفروسية فيه ، أو يظن أنه المطية الصالحة للهروب من واقع الحياة المرة – وما أشبه اللـــيلة بالـــبارحة ! – " فالخمـــرة في الجاهلية تجســـيد للمجد الفروسي عند البطل ورمز لغناه وســـيادته فكيف لا يبدأ بها هذا البطل التغلبي وهو القادم عما قليل إلى قصر مليء بها ؟! " [1] وما دام الأمـــر علـــى هذه الحال فإن عمرو بن كلثوم رأى في المقدمة الخمرية لمعلقته قناة صالحة لتأدية رســـالته وهذا لا يخرج به عن المجالات الخمسة للنشاط الخلقي ، فالخمرة تمثل مظهرًا مهمًا في مجال الزمن (أحد المجالات الخمسة) بما فيه من انتهاب للذات والفخر بذكر الحروب والأيام وبهذا نجد أن عمرو بن كلثوم يكشف لنا من خلال مقدمته الخمرية تلك عن مظهر خلقي حميد في أصله وهو حـــب التبكير إلى الغايات " فليس التبكير إلى أماكن شرابها ببعيد عن التبكير إلى الغايات التي يسعى الإنســـان إلى تحقـــيقها والفوز بها في وقت يجمع النشاط والمباغتة ، وليس الإقبال عليها حتى نفاد الـــدنان إلا كالإقـــبـــال علـــى الحـــرب وإفـــناء الأعداء وتركهم في ساحات الوغى مصـــرعين كالـــدنـــــان المطرحة في حـــانـــات الشراب ، وليس لونها الأحمر ذاك إلا لون الدماء الراعفة من جـــراح القتلـــى ، وهـــي تخالط رمال الصحراء ممزوجة بها ، وليس ذلك الجور والميل بذي الحاجة والهـــوى عـــن حاجته وهواه إلا دليـــل على تلك النشوة التي ينساق معها الشارب فينسى وجوده وذاتـــه كما ينسى المحارب الشجاع وجوده وذاته في غمرة الحرب والدفاع عن الشرف والحرمات

(١) خليل شرف الدين – جمهرة أشعار العرب للقرشي – ص : ٣٠٣ .

والقبـــيل ، وهكذا تبدو الخمرة في نظرنا عند عمرو تمهيدًا ضروريًا لما يليها من ذكر المفاخر والأمجاد التي راح الشاعر يصورها في نشوة لا تختلف عن نشوة الخمر ، وفي حمـــاس لا يختلف في نتائجه عن نتائجها "[١].

٢ - الإقــــدام :

صــورة أخرى من صور علو الهمة وقد بلغت هذه الصــــورة الخلقية مــــن عمرو بن كلثوم إلى الدرجة التي نراه فيها يعلن ذلك الإقدام الشجاع أمام الملك عمرو بن هنـــد قائلاً في عزة وكبرياء :

أبـــا هـــند فـــلا تعجـــل علينـــا	وأنظـــــرنا نخــــبرك اليقيـــــنا
بأنـــا نـــورد الرايـــات بيضـاً	ونصـــدرهـــن حـــمرا قـــد روينـــا

إنه يطلب من الملك بعلو همة لا تضاهى أن يتريث ليعلم علم اليقين أن عمرًا وقومه قد بلغ بهـــم الإقدام في الحروب أنهم يوردون أعلامهم ساحات الوغى بيضًا ويردُّونها حمرًا قد لُطِّخت بدماء الأبطال .

ثم يستمر في تصوير ذلك الإقدام الشجاع تصويرًا حسيًّا بقوله :

إذا مـــا عــــي بالإســـناف حــــي	مـــن الهـــول المشـــبه أن يكـــونا
نصـــبنا مـــثل رهـــوة ذات حـــد	محافظـــــة وكـــــنا الســـــابقينا
بفتـــيان يـــرون القـــتل مجـــدا	وشـــيب في الحـــروب مجـــربينا
حـــديا الـــناس كلـــهم جمـــيعا	مقارعـــة بنـــيهم عـــن بنيـــنا
فأمـــا يـــوم خشـــيتنا علـــيهم	فنصـــــبح غـــــارة متلببيـــــنا
وأمـــا يـــوم لا نخشـــى علـــيهم	فنصـــــبح في مجالســـــنا ثبيـــــنا
بـــرأس مـــن بني جشـــم بـــن بكـــر	نـــدق بـــه السهـــولة والـــحزونـــا

إن ذلـــك الإقـــدام الشجاع المنقطع النظير في ساعة يحجم الناس فيها عن التقدم في الحرب يُرى فيها عمرو بن كلثوم وقومه من السابقين إلى ساحات الوغى تدفعهم إلى ذلك نفوس شجاعة لا تهاب الموت حفاظًا على الأحساب وذبًّا عن المحارم .

---

(١) د. مفيد قميحة – شرح المعلقات العشر – ص : ٢٥١-٢٥٢ .

٣ - حماية الأعراض :

من صور علو الهمة الشجاعة عند الإنسان العربي حيث كانوا يصطحبون النساء في الحروب ليزيد ذلك من همم الرجال حين يقفون صامدين في وجه الأعداء ذبًّا عن الحريم وبذلك لا تفشل القبيلة مخافة العار بسبي الحرم إلى جانب ما تقدمه المرأة العربية من دور كبير في تحميس الرجال ودفعهم إلى الحرب .

لقد صور لنا عمرو بن كلثوم كل هذا بقوله :

على آثارنا بيض كرام ... نحاذر أن تفارق أو تهونا
ظعائن من بني جشم بن بكر ... خلطن بميسم حسبا ودينا
أخذن على بعولتهن عهدا ... إذا لاقوا كتائب معلمينا
ليستلبن أبدانا وبيضا ... وأسرى في الحديد مقرنينا
إذا ما رحن يمشين الهوينا ... كما اضطربت متون الشاربينا
يقتن جيادنا ويقلن لستم ... بعولتنا إذا لم تمنعونا
إذا لم نحمهن فلا بقينا ... لشيء بعدهن ولا حيينا
وما منع الظعائن مثل ضرب ... ترى منه السواعد كالقلينا

ومن صور علو الهمة أيضًا :

٤ - الصبر على تحمل ويلات الحرب والاستعداد لمواجهة العدو بكل وسائل القوة :

وفي هذا يقول عمرو بن كلثوم :

علينا البيض واليلب اليمانيس ... وأسياف يقمن وينحنينا
علينا كل سابغة دلاص ... ترى فوق النجاد لها غضونا
إذا وضعت عن الأبطال يوما ... رأيت لها جلود القوم جونا
كأن متونهن متون غدر ... تصفقها الرياح إذا جرينا
وتحملنا غداة الروع جرد ... عرفن لنا نقائذ وافتلينا
ورثناهن عن آباء صدق ... ونورثها إذا متنا بنينا

فهم يضعون بيض الحديد على رؤوسهم لتقيها ضرب السيوف ، ويتقلدون سيوفًا ترفع

وتوضــــع وقت الضرب بها ، ويلبسون الدروع الواقية الواسعة البرّاقة وقد اسودت منها جلود القوم نتيجة صبرهم وقــوة بأسهم وطول لبسهم لها دون ملل حتى صارت سودًا تشبه سطح غدير مــن المــاء هبت عليه الرياح فجعلت فيه طرائق ، ويركبون خيلاً قصيرًا شعــــرها معــــروفة لــديهم وموســــومة قد فطمت عن أمهاتها عندهم ، وورثوها من آباء كرام شأنهم الصدق في المقــال والفعــال ، وسيورثونها أبناءهم بعد موتهم أي : أنها توالدت وتناسلت عندهم قديمًا وحديثًا فهي بذلك من الخيل الأصيلة .

٢ - الوفــاء :

مظهــر آخر من مظاهر الشجاعة عند عمرو بن كلثوم في معلقته وقد اتخذ هذا المظهر الصور التاليــــة :

١ - استحضار رحيل الأحباب باستيقاف الظعائن :

قفــي قــبل التفــرق يــا ظعيــنا ... نخــــبرك الــــيقين وتخــــبرينا

بـــيوم كـــريهة ضـــربا وطعـــنا ... أقـــر بــــه موالــــيك العــــيونا

قفــي نســألك هــل أحــدثت صرما ... لوشــك البـــين أم خنــت الأمينـــا

ولا يخفــى علينا ما يعكسه هذا المظهر الذي عنَّ في خيال الشاعر في ساعة عســـرة كتلك الــتي يقف فيها عمرو بن كلثوم مفاخرًا ما جبلت عليه نفس الشاعر من وفاء لأحبابه وعتابهم بروح الفــارس المــتعالي حــتى مع أعز الناس إلى قلبه – وكأني به يتمثل ذلك في قبيلة بكر كما سيأتي إيضــاحه – إلا أن روح الفــارس تلك لا تلبث أن تخضع لسلطان الحب فيبدو لنا عمرو بن كلثوم الفارس المقدام في صورة أخرى تمثــــل مظهرًا آخر من مظاهر الوفاء ألا وهي :

٢ - الجزع والحزن الشديد لفراق الأحبة وتذكر أيام الصبا :

تذكــــرت الصــبا واشــتقت لمــا ... رأيـــت حمـــولها أصـــلا حديـــنا

وأعرضــــت الـــيمامة واشمخـــرت ... كأســـــياف بأيــــدي مصـــلتينا

فمــــا كـــوجدي أم ســـقب ... أضـــلته فـــرجعت الحنيــــنا

ولا شمطـــاء لم يتــــرك شقــاهــــا ... لهــا مــن تسعــــة إلا جنينـــا

فهــو عندما تذكر أيــام الصبا واللهو واللعب اشتاق إلى ذلك خاصة عندما مر عليه طيف

الحبيبة حاملة أثاثها على إبل سيقت عشيًّا وتغنّى الحداة بأصواقم لينشطوها على السير وظهرت له قرى اليمامة فزادت من ولهه وشوقه . يقول التبريزي :" ظهرت لنا قرى اليمامة ، وارتفعت في أعيننا فتبينتها كما تُتَبيّن السيوف إذا شهرت ، فاشتقت لذلك لما رأيت موضعها الذي تصير إليه وكان ذلك أشد لِوَلَهي"[1] .

وربما يسأل سائل فيقول : وما علاقة هذا بوقوف عمرو بن كلثوم مفاخرًا خصومه أمام الملك عمرو بن هند ؟!

نجيب فنقول : إننا قد ذكرنا أن الشاعر الجاهلي يتخذ من (الإنسان) المتمثل هنا في المرأة المحبوبة مجالاً خصبًا يبث من خلاله ما يريد من رسائل خلقية إلى متلقيه من أصحاب أو خصوم .

يقول الدكتور وهب رومية :" وأول ما يستوقفنا هذا الارتباط بين الظعائن وتشقق الأواصر والافتراق وهي ظاهرة بارزة في شعرنا القديم . فإذا وقفنا عند المعاني الكبرى في حديث الظعائن رأينا فيها كل معاني الفرقة : الفرقة بين المحبين أو الفرقة بين الشاعر وعمرو بن هند أو بينه وبين بكر ، والصفاء الذي عصفت به والحزن الذي خلفته جرحًا نازفًا وسمعنا هذا التساؤل عن سر الفراق وهذه الدعوة إلى التريّث قليلاً ليقول كل طرف ما في نفسه من بقية قول يبرئ بها ساحته من مسؤولية الانشقاق ويحملُها الطرف الآخر ، بل ربما سمعنا ظنون أحد الطرفين في أمر الفراق وما في الظنون من قم كالخيانة وسواها ولا يقف عمرو بن كلثوم عند هذا الحد بل يثير إحساس الجاهلي وخوفه من المجهول الآتي الذي لا منصرف له عنه .. وهذه المعاني جميعًا تصلح أن تكون في حديث الشاعر إلى الملك " عمرو " وفي حديثه إلى " بكر " . وأنها ليست سوى رمز لهؤلاء الأقارب والأعداء "[2].

وقد سبّق عمرو بن كلثوم هذه الأبيات بأبيات حسية يذكر فيها محاسن جسدية لمحبوبته ترمز هي أيضًا إلى الصفو الجميل وطمأنينة القلب بعيدًا عن صنوف المخاوف فقال :

تريك إذا دخلت على خلاء ... وقد أمنت عيون الكاشحينا
ذراعي عيطل أدماء بكر ... تربعت الأجارع والمتونا
وثديا مثل حق العاج رخصا ... حصانا من أكف اللامسينا
ومتني لدنة طالت ولانت ... روادفها تنوء بما يلينا

(١) التبريزي – شرح القصائد العشر – ص : ٢٢٣ .
(٢) د. وهب رومية – الرحلة في القصيدة الجاهلية – ص : ٣٠٩-٣١٠ .

إنهــا امرأة بيضاء في ريعان الشباب ، نشأت في رحاب النعيم ، طويلة القامة بضة الجسم ، محصنة عفيفة لم يمسسها أحد . وما أشبه حال هذه المرأة بحال بكر وتغلب عندما كانتا على وفاق من أمـــرها ! " والشعـــر وحده كفيل بأن يبدي لنا الأشياء في الصورة التي ترضاها خواطرنا وتأنس بها أرواحــــنا لأنه هو ناســـــج الصور وخالع الأجسام على المعاني النفسية وهو سلطان متربع في عرش الـــنفس يخلع الحلل على كل سانحة تمثل بين يديه ويغض الطرف عن كل ما لا يجب النظر إليه " [1] وفي تصـــوير عمـــرو الحسي لهذه المرأة التي ترمز إلى ما كان بين تغلب وبكر من أمن ووفاق ورغد عيش ما ترضاه خواطر الخصـــــــوم وتأنس به أرواحهم عندما يتذكرون ذلك وما نرى عمرو بن كلـــثوم يـــورد هـــذا إلا ليعـــيد إلى الأذهان تلك الصــــــور الناصعة للأمن والوفاق بين الطرفين المتخاصمين .

ومن صور ذلك الوفاء الشجاع أيضًا :

٣ - الدراية بأساليب الحرب وأدواتها :

وإنمـــا كان ذلك من صور الوفاء الشجاع لأن وفـــاء المرء لقبيلته في الجاهلية يوجب عليه ضـــمان انتصارها ، ومن أين يتأتى ذلك إذا لم يكن هناك دراية بأساليب الحـــــرب وأدواتها تضمن للمرء النصر والغلبة ؟!

نطـــاعن مـــا تراخـــى الـــناس عـــنا ... ونضـــــرب بالســــيوف إذا غشـــــينا

بسمــــر من قنـــا الخطـــي لـــدن ... ذوابـــــل أو ببيـــــض يعتلينـــــا

إن درايـــة القوم بأساليب الحرب توجب عليهم طعن الأعداء بالرماح السمر اللينة التي لا تنكســـر إذا طُعــــن بها وقت تباعدهم ، وضربهم بالسيوف البيض التي ترتفع فوق الرؤوس وقت اقتراب الأعداء وهجومهم .

كما أن وفاء الفارس الشجاع يوجب عليه :

٤ - مطاعنة الأعداء دون الشرف : وفي هذا يقول عمرو بن كلثوم :

ورثنـــا الـــمجد قـــد علمت معـــد ... نطـــــاعن دونــــه حـــتى يبينـــا

حتى يظهر على الناس ويعلو وينتشر ؟ ومن وفائهم أنهم حافظوا على هذا الإرث العظيم .

ومن وفاء الشجاع أيضًا في قرارة نفس عمرو بن كلثوم :

---

(١) عباس محمود العقاد – مطالعات في الكتب والحياة – ص : ٢٤١ .

٥ - حماية الجيران والأقارب :

ونحن إذا عماد الحي خرت   على الأحفاض نمنع من يلينا
ندافع عنهم الأعداء قدما   ونحمل عنهم ما حملونا

إنهم يمنعون من يكون بقربهم من الجيران والأقارب ولا يدعونهم يرحلون بل يذودون عنهم ويحمون حوزتهم في الوقت الذي يفزع الناس فيه أو يهمون بالهرب من وجه الأعداء فهل ترى وفاء أجل من هذا الوفاء الذي يقدم فيه المرء نفسه رخيصة دفاعًا عن جيرانه وأقاربه ووفاء بما أخذوه عليه من عهد وميثاق في ذلك ؟!

٣ - الحرية وإباء الضيم :

وهو مظهر خلقي عربي أصيل ظهر في بادي الأمر في معلقة عمرو بن كلثوم حميدًا مقبولاً وانتهى مذمومًا مرفوضًا وها أنا أرصد صور هذا المظهر الخلقي كما صورته أبيات المعلقة العَمْرية :

١ - الأنفة والإباء :

وتتمثل هذه الصورة الخلقية للحرية وإباء الضيم من خلال ما وجهه عمرو بن كلثوم إلى الملك عمرو بن هند بسبب استماعه للوشاة في قومه ، وسلوكه معهم سلوكاً مزريًا محاولاً النيل من كرامتهم ، والانتقاص من هيبتهم ، ثم يصف إباء قومه وأنفتهم وعزتهم وعنادهم وصلابتهم بما يعطي صورة واضحة عن أنفة القوم :

بأي مشيئة عمرو بن هند   تطيع بنا الوشاة وتزدرينا
بأي مشيئة عمرو بن هند   نكون لقيلكم فيها قطينا
تهددنا وواعدنا رويدا   متى كنا لأمك مقتوينا ؟

٢ - العزة وقوة الشكيمة :

صورة أخرى من صور حرية القوم وإبائهم تضاف إلى الصورة السابقة لتعطي صورة عرضية أوضح وأشمل وأقرب إلى أذهان المتلقين حيث يقول :

فإن قناتنا يا عمرو أعيت   على الأعداء قبلك أن تلينا
إذا عض الثقاف بها اشمأزت   وولتهم عشوزنة زبونا
عشوزنة إذا انقلبت أرنت   تدق قفا المثقف والجبينا

وقوله :

ونحـــن الحاكمـــون إذا أطعـــنا ونحـــن العازمـــون إذا عصـــينا
ونحـــن التـاركـون لمـا سخطـنا ونـــحن الآخـــذون لمـا رضينـــا

أي : إن عزنا أعجز الأعداء الذين كانوا قبلك فنحن كالقناة التي يريد المثقف تقويمها فتنفر مـن الـتقويم وتعطـيه وجهًا صلبًا شديدًا يقاوم الثقاف وتنقلب عليه ولها صوت يرن فتشج قفاه وجبيـنـه . يـريد : أن عـزهم وقوة شكيمتهم لا تتضعضع لمن رامها بسوء فهم الحاكمون وهم العازمون ، وهم التاركون لما سخطوا والآخذون لما رضوا .

٣ - التعالي على الأعداء وقمعهم والاستهزاء بهم في مواطن التفاخر والمناظرة :

وأنـا الشـاربون المـاء صـفوا ويشـرب غيرنـا كـدرا وطيـنا
ألا أبلـغ بـني الطمـاح عـنا ودعمـيا فكـيف وجدتمـونا ؟
نـزلتم مـنزل الأضـياف مـنا فعجلـنا القـرى أن تشـتمونا
قـريناكـم فعجلنـا قراكـم قبيـل الصبـح مـرداة طحـونـا

فهـم لحريتهم ومنعتهم يأخذون من كل شيء أفضله ويدعون لغيرهم أرذله وأرداه ، ثم يوجه سـؤالاً إلى خصـمه يحمل في طيا ته التعالي على الخصم والاستهزاء به ويتضح ذلك عندما وجه لهم القول : نزلتم بنا حلول الضيف الكريم فقمنا بواجبكم كراهية أن تشتمونا ، وعجلنا لكم القرى .

ولا يخفى أنه أراد بالقرى هنا القتل والضرب بالسيوف والطعن بالرماح فيكون المعنى المراد: تعرضـتم لحربنا كما يتعرض الضيف للقرى فقتلناكم في عجل كما يُعَجَّل قرى الأضياف ، وذلك كـراهية شـتمكم إيانـا إن أخـرنا قراكم ، وذلك تهكم واستهزاء من عمرو بن كلثوم بأعدائه وخصومه.

وإلا مـا عسى أن يكون ذلك القرى ؟! إنها الحرب ولقاء العدو بجيش عظيم يطحنهم طحن الرحى مما يولد صورة خلقية أخرى كما سترى الآن .

٤ - النكـاية في الأعداء :

حـيث إن حرية القوم وإباءهم للضيم جعلت منهم قومًا ينزلون عدوهم منازل الهلاك ولا يأبهون به مهما كان :

وأيـام لـنا غـر طـوال عصـينا الملـك فـيها أن ندينـا
وسـيد معشـر قـد توجـوه بـتاج الملـك يحمـي المحجـرينا

تـــركنا الخـــيل عاكفـــة علـــيه	مقلـــــدة أعنـــــتها صـــــفونا
وقـــد هـــرت كـــلاب الحـــي مـــنا	وشـــذبنا قـــتادة مـــن يليـــنا
مـــتى نـــنقل إلى قـــوم رحانـــا	يكونـــوا في اللقـــاء لهـــا طحيـــنا
يكـــون ثفالـــها شـــرقـــي نجـــد	ولهـــوتـــهـــا قضـــاعـــــة أجمعيـــنا

فـــرب ســـيد قوم توّجَهُ قومه يحفظ من استجار به ويمنعه من أعدائه قتله عمرو بن كلثوم وقومه ، وحبســـوا خيلهم عنده ونزلوا عنها وقلدوا أعنتها حتى أخذوا جميع السلب ، وقد نبحتهم كلاب الحي لإنكـــارها إياهم ،وقد كسروا شوكة من يتصدى لحربهم .

إن تغلـــب قبـــيلة لا يحاربها أحد إلا غلبته وأخذت ماله وجعلته بمنزلة الدقيق الذي يُطحن بالرحـــــى ، وأي رحـــىً هذه ؟! إنها رحى الحرب المتمثلة في سيطرة هذه القبيلة السيطرة الغالبة التامة الممتدة من تهامة واليمن إلى العراق والشام .

ثم يستمر عمرو بن كلثوم في نقل صورة حسية أخرى للنكاية في العدو فيقول :

نطـــاعن مـــا تراخـــى الـــناس عـــنا	ونضـــــرب بالـــــيوف إذا غشـــينا
بســـمر مـــن قـــنا الخطـــي لـــدن	ذوابـــــل أو ببـــــيض يعتلـــــنا
نشـــق بهـــا رؤوس القـــوم شـــقا	ونخلـــيها الـــرقاب فيختلـــنا
تخـــال جمـــاجم الأبطـــال فـــيها	وســـــوقا بالأماعـــــز يـــــرتمنا
نـــحـــز رؤوسهـــم فـــي غـــير بـــر	فمـــا يـــدرون مـــاذا يتقونـــا ؟

فهم يطعنون بالرماح من تباعد عنهم ، ويضربون بالسيوف من اقترب منهم فيشقـــون الـــرؤوس شـــقًا ويقطعون الرقاب قطعًا حتى تُظَنَّ رؤوس الشجعان في الحرب أحمال إبل تسقط في الأمـــاكن الصلبة الكثيرة الحجارة والحصى حينما يقطعونها في غير شفقة ولا هوادة إلى الدرجة التي يندهش فيها الأعداء فلا يعرفون كيف يدفعون عن أنفسهم .

إلا أن مؤشـــر الحـــرية وإباء الضيم عند الشاعر على اختلاف صوره يأخذ في الزيادة إلى الدرجة التي يتكشف من خلالها مظهر خلقي شجاعي مذموم هو :

٤ – الطيش وسرعة الانفعال :

" كان الطيش خلقًا شائعًا في البادية ، وذلك طبيعي حيث لا حكومة تردع ، ولا قـــوانين

تمـــنع ، وحيث يعتقد كل امرئ في نفسه السمو والسيادة والقوة وعراقة المحتد ، ويتوقع كل فرد أن تنصره قبيلته وعشيرته فيثور معتمدًا على أسناده وأعوانه ... وأي دلالة على الجهل والطيش أقوى من قول عمرو بن كلثوم أنهم يبطشون بالناس عن قدرة وعن عدوان ، وإن لم يمسسهم عدوان فهم يبدءون بالظلم وإن لم يلحـــق بهم ظلم "[١] :

لـــنا الدنـــيا ومـــن أضـــحى علـــيها ونـــبطش حـــين نـــبطش قادريـــنا
إذا مـــا الملك ســـام النـــاس خَسفاً أبينـــا أن نقـــر الـــذل فينـــا

ولكـــن ما يجب أن نفهمه هنا أن الظلم ليس من عادات العرب وأن عمرو بن كلثوم عندما يقول :

نسمـــى ظالمـــين ومـــا ظلمـــنا ولكنـــا سنبـــدأ ظالمينـــا

ليس معناه أن الظلم خلق مركب في طبع العرب ولكن معنى البيت "أن الناس يطلقون علينا اسم الظالمين والحال لم نظلم أحدًا قط ، ولكننا سنبدأ من يظلمنا ، ويعتدي علينا فننتقم منه "[٢].

ومن روى البيت " بغاة ظالمين وما ظلمنا ..."[٣] فليس معناه الإقرار من الشـــاعر على نفسه وقبيلته بالبغي والظلم ، وإنما هو يخاطب خصمه بذلك فكأنه يقول : تقولون عنّا : " بغـــاة ظـــالمين "

(والنصب هنا على الحكاية) وما ظلمنا ولكنا سنبدأ ظالمينا إن لم تكفوا ظلمكم عنا .

وكأنه بذلك يرد على الحارث بن حلزة وهو يقول :

فاتركـــوا البغـــي والتعـــدي وإما تتعاشـــوا ففـــي التعاشـــي الداءُ

ثم يتمم لكل مظاهر الإباء والحرية السابقة بمتمم عرضي حسي صبّ من خلاله الشاعر كل ما يضطرم في نفسه من تلك المظاهر لتكون الأبيات الأخيرة في المعلقة وعاءً واسعًا لما يتصوره المتلقي من مفاخر أخرى :

---

(١) د. أحمد محمد الحوفي – الحياة العربية من الشعر الجاهلي – ص : ٣٤٦ – ٣٤٧ .

(٢) الشيخ / محمد علي طه الدرة – فتح الكبير المتعال إعراب المعلقات العشر الطوال – ج١ / ٤٤٢ .

(٣) د. إميل بديع يعقوب – ديوان عمرو بن كلثوم – ص : ٩٠ .

إذا مـــا الملـــك ســـام الـــناس خســـفا ... أبيـــنا أن نقـــر الخســـف فيـــنا

نســـمى ظـــالمين ومـــا ظلمـــنا ... ولكـــنا ســـنبدأ ظالميـــنا

إذا بلـــغ الفطـــام لـــنا صـــبي ... تخـــر لـــه الجبابـــر ســـاجدينا

ملأنـــا الـــبر حـــتى ضـــاق عـــنا ... وظهـــر البحـــر نملـــؤه ســـفينا

ألا لا يجهلـــن أحـــد علينـــا ... فنجهـــل فـــوق جهـــل الجاهلينـــا

وكأني به يقول : هذه الأبيات الخمسة هي ختام معلقتي و تمثل وعاءً مفتوح الصلاحية لكل مـــا عســـى أن تتصوره أيها المناظر والخصم فما لم أذكره في تصورك فإنه ضمن في هذه الأبيات " والانـــتهاء قاعـــدة القصيدة وآخر ما يبقى منها في الأسماع وسبيله أن يكون محكمًا : لا تمكن الـــزيادة عليه ، ولا يأتي بعده أحسن منه ، وإذا كان أول الشعر مفتاحًا له ، وجب أن يكون آخره قفلاً عليه "(١)

(جـ) العـــدل :

رغـــم أن موقف عمرو بن كلثوم في معلقته موقف مفاخرة ومناظرة إلا أنني أجد أن جذوة هـــذا الخلق العربي الأصيل لم تنطفئ بعد ، وأن هذا الخلق ما زال يتوارى لنا في مظاهر يسيرة تتمثل في مظهرين همـــا :

١ - التريث والتمهل :

إذ يـــرى عمـــرو بـــن كلـــثوم أن من عدل الحاكم المقسط التريث والتمهل ليسمع حجة المتخـــاصمين ومن ثم يصدر حكمه عن عدل وقناعة فينصف المظلوم من الظالم فيقول :

أبـــا هنـــد فلا تعجـــل علينـــا ... وأنظـــرنـــا نخـــبرك اليقينـــا

أي : رويدًا أيها الملك عمرو بن هند نخبرك اليقين بما حصل بيننا وبين بني بكر ، واليقين بما فيه كل طرف منّا من عزة وشرف وسيادة.

٢ - الإنصـــــاف :

وهـــو مظهـــر من مظاهر العدل أيضًا يتمثل في معلقة عمرو بن كلثوم من خلال الاعتراف

(١) ابن رشيق القيرواني – العمدة في محاسن الشعر وآدابه – ج١ / ٤١٥ .

بندية الخصم حيث يقول :

كـأن سـيوفنا فيـنا وفـيهم ... مخاريـق بأيـدي لاعبيـنا
كـأن ثيابنـا منـا ومنهـم ... خضـبن بأرجـوان أو طلينـا

وإنـني لأرى في كلمة " سيوفنا " ما يوحي بأن الخصمين – بكر وتغلب – كان يجمعهما قبل العداء تحالف ومودة وأمن وطمأنينة ، ويكفي أهما ابنا وائل من ربيعة[١] وعمرو يظهر للملك عمرو بـن هـند ووفـد "بكر " أن من العدل والإنصاف الاحتفاظ بذلك الود وحق الأُخُوة إلى الرمق الأخـير رغم ما اعتراه مـن جدال وخصومة دفعتهم إلى التحارب إلى الدرجة التي كانوا لا يحفلون فـيها مـن ضرب بعضهم بعـض بالسيوف التي كانت في أيدي الطرفين كمخاريق الصبيان في سرعتها ومضائها إلى أن اصطبغت ثيـابهم وثياب أقرانهم بالدماء .

وإن شئت التأكد من صحة هذا القول فاقرأ قوله :

إلـيكم يـا بـني بكـر إلـيكم ... ألمـا تعـرفوا مـنا اليقيـنا
ألمـا تعلمـوا منـا ومنكـم ... كتـائـب يطعـن ويرتمينـا

والمعـنى " يا بني بكر تنحوا وتباعدوا عن مباهاتنا ومفاخرتنا في المكارم ، ألم تعلموا من نجدتنا وشـدة مراسـنا في الحـرب الجـد علمًـا يقينًا لا شك فيه ؟ ألا تذكرون يا بني بكر كتائب من جيشـنا وجيشكم يطعن بعضها بعضًا ، ويقتل بعضها بعضًا ، فيذهب دمها هدرًا ، فينبغي لكم أن تفيقوا من سباتكم ، وتدركوا أمركم "[٢].

(د) العِـفَّة :

الأصـل الرابع من أصول الأخلاق الأربعة ، والذي لم يغب هو أيضًا رغم الجو العـام للمعلقة العمرية الفخرية هذه .

وقد ورد من مظاهر العفة في معلقة عمرو بن كلثوم ما يلي :

١ – الميل الفطري للمرأة العفيفة المحصنة :

يقول عمرو :

---

(١) المنجد في اللغة والأعلام – ص : ١٣٢ ، ١٧٧ .

(٢) محمد علي طه الدرة – فتح الكبير المتعال إعراب المعلقات العشر الطوال – ج(١) – ص : ٤١٣-٤١٤ .

تــريك إذا دخلــت علــى خــلاء وقــد أمــنت عــيون الكاشــحينا
ذراعـــي عـــيطل أدمـــاء بكـــر تـــربعت الأجـــارع والمـــتونا
وثديــا مثــل حــق العــاج رخصــا حصــانــا مــن أكــف اللامسينــا

فالشــاعر هــنا رغــم غزله المكشوف وذكره لمحاسن المرأة الجسدية كما ترى إلا أن ما يحبه الرجــال في المرأة من التحصن والعفاف لا يزال له مكان في نفسه ولا أرى قوله : "تريك ..." إلا أســلوبًا بلاغــيــًا يسميه البلاغيون " التجريد "وهو :" أن تأتي بكلام يكون ظاهره خطابًا لغيرك وأنــت تريده خطابًا لنفسك"[1] حيث جرد الشاعر نفسه من الخطاب وخاطبها مخاطبة إنسان آخر فلا تذهب نفسك إلى تصور أن عمرو بن كلثوم يخاطب عمرو بن هند أو غيره ليخبره بما تتمتع به حبيبته من محاسن جسدية فغيرة العربي تمنعه من ذلك ، ولكن مثل ما ذكرنا سابقًا أن هذه المرأة التي يتغزل بها الجاهلي فيذكر محاسنها قد لا تكــون على وجه الحقيقة وإنما يتخذها الشاعر قناة صالحة لبث رسالته الخلقية من خلالها لما يعرف من شغـــف العربي بالمرأة المتصفة بتلك الصفات .

٢ - الزهد في الغنائم عند هزيمة الأبطال :

مظهر آخر من مظاهر العفة في معلقة عمرو بن كلثوم إذ يقول :

وكـــنا الأيمـــنين إذا التقيـــنا وكـــان الأيســـرين بـــنو أبيـــنا
فصـــالوا صـــولة فـــيمن يلـــيهم وصـــلنا صـــولة فـــيمن يليـــنا
فآبـــوا بالنهـــاب وبالسبـــايـــا وأبنـــا بالملـــوك مصفـــدينـــا

ألا تــراه وقومه يزهدون في السبايا والنهاب وليس همهم إلا الرجوع بالملوك من أعدائهم مصفدين؟!

٣ - الغيرة على الحُـــــرَم :

من أَجَلّ مظاهر العفة عند عرب الجاهلية حيث وصل بهم الأمر في هذا الخلق المتأصل فيهم إلى اصــطحاب نسائهم معهم وهم يخوضون "غمار الوغى من أجل نسائهم ، وقراع الأبطال لمنعهن والتواصــي بالــدفــاع عنهن "[2]وإنما عُدَّ هذا من مظاهر العفة لأن العربي في هذا المقام يعتبر كل نســاء عشــيرته أو قبيلته بمثابة بناته أو أخواته فهو مسؤول عن حمايتهن والدفاع عنهن والغـــيرة

---

(١) د. بدوي طبانة – معجم البلاغة العربية – ج١ / ١٤٨ .

(٢) محمد الشيخ محمود صيام – المعتقدات والقيم في الشعر الجاهلي – السفر الأول – ص : ٣٥٢ .

عليهن والتعفف عن النيل منهن ، والمتمدحون بالغيرة لا بد أن يكونوا أصحاب عفة أيضًا ولذا قالوا : " كل شيء مهَهٌ ما خلا النساء وذكرهن " أي : أن الرجل يحتمل كل شيء حتى يأتي ذكر حرمه، فيمتعض حينئذٍ فلا يحتمله "[1].

وفي هذا يقول عمرو بن كلثوم :

يقتن جيادنا ويقلن لستم	بعولتنا إذا لم تمنعونا
إذا لم نحمهن فلا بقينا	لشيء بعدهن ولا حيينا
وما منع الظعائن مثل ضرب	ترى منه السواعد كالقلينا

هذه معلقة عمرو بن كلثوم التغلبي التي ملأت الدنيا وحفظ الناس كبارًا وصغارًا جُلّ أبياتها لما حوته من جوانب أخلاقية كثيرة ، ونزعة خطابية مثيرة ، فحق لتغلب أن تفخر بها لأنها سجلها الحافل بالأحداث الجسام والحروب والأيام ، وقد " قعدت بنو تغلب ، بعد هذه القصيدة، عن كل مأثرة . وما زالوا يتناشدونها وينشدونها لأطفالهم وشبابهم حتى كادت هممهم تخبو ويفتر نشاطهم .. "[2] وينبري أحد الكارهين من شعراء بكر قائلاً[3] :

أَلْهَى بَنِي تَغْلِبٍ عَنْ كُلِّ مَكْرُمَةٍ	قَصِيدةٌ قَالَهَا عمرُو بنُ كلثومِ
يُفَاخِرُونَ بِهَا مُذْ كَانَ أَوَّلُهُم	يَا للرجالِ لفخر غير مَسْؤُومِ

وعند الحديث عن أثر هذه القيم والأخلاق في تشكيل القصيدة سوف يتكشف لنا أمور فنية كثيرة تجعلنا نؤمن إيمانًا كاملاً بأن القصيدة الجاهلية ممثلة في المعلقات العشر لا تزال بحرًا عميقًا يعج بمختلف الجوانب الفنية مما يحدو بنا إلى الفخر نحن أيضًا بأمة لها ذلك الأدب العظيم .

---

(١) الميداني – مجمع الأمثال : ١٣٢/٢.

(٢) أبو زيد القرشي – جمهرة أشعار العرب – تحقيق : خليل شرف الدين – ص : ٣٠٢ .

(٣) الأصفهاني – الأغاني – ج٥٧/١١ ، وقد ورد عنده في البيت الثاني : " يروونها أبدا ..." بدلا من " يفاخرون بها ..." .



الإطـار الخلقي لمعلقة الحارث بن حلزة



معلقة الحارث بن حلزة اليشكري*

إضـــــاءة :

هـــا نحن بعد أن وقفنا مع عمرو بن كلثوم في معلقته نقف الآن إلى الطرف الآخر في المناظرة والمفاخـــرة والمنافرة التي جرت بين تغلب وبكر أمام الملك عمرو بن هند .

والطـــرف الآخر هنا يمثله الشاعر الحكيم والسياسي المحنك والمحامي البارع الحارث بن حلزة اليشكـــــري البكري .

ولســـنا هنا بحاجة إلى الوقوف عند تحقيق بيت من أبيات المعلقة ونسبته إلى الحارث كما كان مـــن أمر معلقة عمرو بن كلثوم لأن معلقة الحارث بن حلزة مثبتة إلا البيت الثاني الذي لم يرد إلا في روايـــة عـــبد القـــادر البغدادي في خزانة الأدب وفي شرح النحاس [١] وأما بقية الأبيات فثبت في أكثر من مرجع دون اختلاف في نسبة بيت منها إلى غير الحارث بن حلزة [٢].

وقـــد قـــيـــــل في هـــذه المعلقـــة : إن الحارث بن حلزة "ارتجلها بين يدي عمرو بن هند ارتجالاً"[٣].

وقـــد شـــك طـــه حســـين في ذلك فقال :" ويكفي أن تقرأ هذه القصيدة لترى أنها ليست مرتجـــــلة ارتجالاً وإنما هي نظمت ، وفكر فيها الشاعر تفكيرًا طويلاً ، ورتب أجزاءها ترتيبًا دقيقًا ... وقـــد نظمتا في عصر واحد – إن صح ما يقول الرواة – فهما مسوقتان إلى عمرو بن هند "[٤] كمـــا رد البســـتاني القـــــول بالارتجال إلى رغبة الرواة في مساواته بعمرو بن كلثوم الذي قيل إنه ارتجل معلقته أو جزءًا منها بين يدي عمرو بن هند "[٥].

وقـــيل :" إن عمرًا ارتجل قسمًا من معلقته بين يدي الملك فوجب القول إن الحارث فعل فعل خصمه "[٦].

---

* الديوان – طبعة : دار صادر – ص : ٣٧ – ٥٢ .

(١) البغدادي – خزانة الأدب ، ج١ / ٢٢٣ والنحاس – شرح القصائد التسع المشهورات – ص : ٥٤٣ .

(٢) انظر القصيدة عند : التبريزي – ص: ٢٥١ والزوزني – ص : ٢١٦ ، والأنباري – ص : ٤٣١ .

(٣) ابن قتيبة – الشعر والشعراء – ١/١٢٧ .

(٤) د. طـــه حسين – في الأدب الجاهلي – ص : ٢٢٤ .

(٥) طلال حرب – ديوان الحارث بن حلزة – ص : ٦ .

(٦) فؤاد إفرام البستاني – عمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة – الروائع – العدد/ ٢٦ – ص : ٣٥٥ .

أما مناسبة المعلقة فقد " زعموا أن عمرو بن هند أصلح بين القبيلتين المختصمتين بكر وتغلب واتخــذ منهما رهائن ، فتعرضت رهائن تغلب لبعض الشر وهلكت أو هلك أكثرها فتجنت تغلب علــى بكــر وطــالــبت بدية الهلكى ، وأبت بكر ، وكادت تستأنف الحرب بينهما ، واجتمعت أشــرافها إلى عمــرو بن هنــد ليحكم بينهم . وأحسّ الحارث ميل الملك إلى تغلب فنهض فاعتمد على قوسه وارتجل هذه القصيدة . قالوا : وكان به وضح ، وكان الملك قد أمر أن يكون بينه وبينه ســتار فلما أخذ ينشد قصيدته أخذ الملك يعجب به ويدنيه شيئًا فشيئًا حتى أجلسه إلى جانبه وقضى لبكر "[١].

والــذي يهمنا هنا أن الحارث بن حلزة " أنشدها في حضرة الملك عمرو بن هند ردًّا على عمرو بن كلثوم وغضبًا لقومه ، وكان عمرو بن كلثوم قد تجاوز الحد في فخره ولم يرعَ حرمة الملك فتصدى له الحارث بمعلقته " [٢] .

والآن ، لنقف معًا في جو أبيات هذه المعلقة الرائعة لنرى ما اشتملت عليه من مظاهر خلقية كثيرة مثلت في مجملها الإطار الخلقي للمعلقة حسب أصول الأخلاق الأربعة :

[العقل ـــ الشجاعة ـــ العدل ـــ العفّة]

(أ) العقــل :

عــندما نقــرأ هــذه المعلقة نجدها " نموذجًا رائعًا للشعر الخطابي والسياسي " [٣] تمثل فيها الحارث بن حــلزة حكيمًا مجرباً ومحاميًا بارعًا وسياسيًا محنكًا بكل ما تعنيه هذه الكلمات من معنى ، وعــندما نستعرض أبيات هذه المعلقة نجد أن العقل وهو أحد أصول الأخلاق الأربعة تكاد مظاهره تطغى على بقية مظاهر الأصول الأخلاقية الأخرى التي تكاد هي أيضًا تنطوي تحت لواء هذا الأصل الخلقــي المسيطر على أبيات المعلقــــة ليس لسبب سوى الموقف الذي حتم على الحارث بن حلزة أن يكون " داهية ألوى استطاع أن يدافع عن قبيلته ، ويبيض وجهها ، ويسلّها من الفتنة كما تسل الشــعرة مــن العجــين ، ويبرئها من كل ما كــــانت متهمة به في علاقتها بملك الحيرة في مسالة الــرهائن ... فحكمـــة هذا المعلقاتي لا تتمثل في ســوق الأقوال وضــرب الأمثـــال ؛ كما جــاء ذلك طرفة وزهير ولكن في الجــدال والمســاءلة والاحتــــكام إلى العقــل "[٤].

---

(١) د. طه حسين – في الأدب الجاهلي – ص : ٢٢٣-٢٢٤ ، وانظر الأغاني- ج١١ /٤٤-٥١ .

(٢) الزوزني – شرح المعلقات السبع – ص : ٢١٥ .

(٣) د. مفيد قميحة – شرح المعلقات العشر – ص : ٣٣٨ .

(٤) عبد الملك مرتاض – السبع معلقات – ص : ٣٢ .

وقد جاء هذا الأصل الخلقي متمثلاً في المظاهر التالية :

١ - السياسة :

وهـي مـن أقسام العقل ومظهر من مظاهره يتجلى بوضوح تام في المعلقة " إذ تبدو كأنها خطـبة ألقاهـا داهية من دهاة السياسة ، أو مرافعة قانونية أعدّها محامٍ بارع يعرف كيف يدافع عن حقـه ، وعـن حـق من ندبوه ويعرف كيف يدحض باطل الخصم بالحجة مرة وبالتعريض ثانية ، وبالتحـريض أخرى "[١] وكان " عمرو بن كلثوم ذلل بعض الصعاب لخصمه اليشكري فقد أفرط في عجرفيته أمام ابن هند ، وتجاوز الحد ولم يرعَ حرمة الملك ، وفخره وإن استند إلى وقائع لا يمكن أن يلقى القبول عند ملك يرى نفسه فوق الخصمين "[٢].

ومن صور هذا المظهر العقلي الخلقي :

١ - **التعريض بالخصم** : وتبدو هذه الصورة في قوله :

أيهـا الـناطق المـرقش عـنا   عـند عمـرو وهـل لـذاك بقـاء ؟
لا تخلنـا علـى غراتـك إنـا   قبـل مـا قد وشـى بنـا الأعداء

والمعـنى : أيها المرقش (المزين القول بالباطل) الموقع بيننا وبين الملك بتبليغك إياه عنا ما يكـرهه لا بقاء لما أنت عليه لأن الملك سينظر فيما ادعيت فيعرف بذكائه صدق ذلك من كذبه ، وهـو هـنا يعرض بعمرو بن كلثوم ويرميه بالوقيعة والكيد والافتراء على بكر ويزجره قائلاً : لا تحسـب أنا جازعون لإغرائك الملك بنا فذلك الإغراء لن يقدح في أمرنا كما لم يقدح إغراء غيرك فيه.

٢ - **التأدب ورعاية حرمة الملك بفخر لا يزعجه :**

فملكـنا بـذلك الـناس حـتى   ملـك المـنذر بـن مـاء السـماء
وهـو الـرب والشـهيد علـى يـو   م الحـيارين والـبلاء بـلاء
مـلك أضلـع البريـة لا يـو   جـد فيهـا لما لـديـه كفـاء

يذكر هنا أنه وقومه ملكوا الناس وسادوا عليهم بما حققوه من محامد كثيرة حتى ملك المنذر بن ماء السماء الحيارين (اسم موضع) وكان معه بنو يشكر الذين أبلوا بلاءً حسنًا في ذلك اليوم ،

---

(١) د. غازي طليمات و عرفان الأشقر – الأدب الجاهلي – ص : ٤٣١ .
(٢) السابق – ص : ٤٣٢ .

ولـــيس لأحـــد في البرية أن يحتمل مثل الذي يحتمله المنذر من الأمور الثقيلة وليس فيها من يساويه بفعل الخير .

وذلـــك بتذكير الخصم بمخالفته نصوص المعاهدة أمام الحَكَم والإصرار على الوفاء بالعهد المكتوب والتحذير من الخيانة في مخالفته :

فاتـــركوا البغـــي والـــتعدي وإمـــا تتعاشـــوا ففـــي التعاشـــي الـــداء
واذكـــروا حلـــف ذي المجاز ومـــا قد دم فـــيه العهـــود والكفـــلاء
حـــذر الـــخون والتعـــدي وهل ينـــ ـــقض مـــا في المهـــارق الأهـــواء ؟

" اتهم الشاعر خصومه بالطغيان والتعامي عن الحق وذكّرهم حلف ذي المجاز في مكة ، وفي هـــذا الموضع أخذ عمرو بن هند على تغلب وبكر العهود والمواثيق ، وأصلح بين الحيين ، واحتجن الـــرهائن ، فلمـــاذا تنصلت تغلب من عهودها ونقضت ما في الصحيفة المكتوبة لإرضاء شهواتها أو ليس هذا النقض نيلاً من هيبة الملك الذي رعى العهد ونهض بتنفيذه ؟"[١].

٣ - شحن قلب الملك بكره تغلب وتأليبه على عمرو بن كلثوم :

وبعـــد أن اطمـــأن على تحقيق ذلك أخذ يفخر فخرًا قبليًا لا يجرح سمعًا ولا يستطيل على شـــرف الملك ومن وراء ذلك الفخر تتكشّف لنا صورة خلق عقلي آخر يحتاجه رجـــل الســـياسة في مثـــل هذه المواقف ألا وهو :

٤ - المعرفة بالتاريخ والاستفادة منه في كسب القضية :

حـــيث نـــرى الحارث بن حلزة في معلقته يعرض لأحداث تاريخية مهمة في إضعاف الخصم ومـــن ثم كسب القضية وقد كان من أظهر تلك الوقائع التاريخية التي أوردها في أبياته " إغارة بكر علـــى أحياء العرب من البحرين إلى الحساء ، ثم على تميم ، وباهى بمن سرق قومُهُ وسبوا ، وبيَّن أن غـــزوهم الشامل لم يسلم منه قوي ولا ضعيف ولم يحمِ أحدًا منهم حصن مبني،ولا قمة وعرة المرتقى لأن عزائمهم بلغتهم أوكـــار النسور في قلل الجبال "[٢].

والآن اقـــرأ الأبيات التالية وتحسس بنفسك هذه المعاني ثم اعمل عقلك لترى ما لذلك كله

---

(١) د . غازي طليمات وعرفان الأشقر – المرجع السابق – ص : ٤٣٣.

(٢) المرجع السابق – ص : ٤٣٣ .

من كسب للقضية ونيل من الخصم حيث يقول :

هل علمتم أيام ينتهب النا ... س غوارا لكل حي عواء ؟

إذ رفعنا الجمال من سعف البحـ ... ـرين سيرا حتى نهاها الحساء

ثم ملنا على تميم فأحرمـ ... ـنا وفينا بنات مر إماء

لا يقيم العزيز في البلد السهـ ... ـل ولا ينفع الذليل النجاء

ثم اقرأ قوله :

من لنا عنده من الخير آيا ... ت ثلاث في كلهن القضاء

آية شارق الشقيقة إذ جا ... ءت معد لكل حي لواء

حول قيس مستلئمين بكبش ... قرظي كأنه عبلاء

وصتيت من العواتك ما تنـ ... ـهاه إلا مبيضة رعلاء

فرددناهم بطعن كما يخـ ... ـرج من خربة المزاد الماء

تجد أن الشاعر لديه خبرة كاملة بالوقائع التاريخية التي اعتبرها من علامات ولاء قبيلة بكر للملك ليستميله إليه حيث يذكر الحرب التي قامت بينهم وبين بني الشقيقة (قوم من بني شيبة أغاروا على إبل لعمرو بن هند[1] وقد أتوا متحصنين بسيد من بلاد القرظ كأنه في منعته وشوكته هضبة من الهضاب ومع ذلك فقد رجع مدحورًا بسبب صد بني يشكر له" [2] بطعن خرج الدم من جراحه كما يخرج الماء من أفواه القرب وثقوبها .كما استطاع الحارث كسب القضية بذكر ثلاثة مواقف تاريخية لقومه مع عمرو بن هند استطاع من خلالها استمالة الحكم بإثبات ولاء بكر للملك وهي [3] :

أولاً : حينما جاء قيس بن معد يكرب على رأس جيش للإغارة على إبل عمرو بن هند فردهم بنو يشكر وقتلوا - كما رأيت في الأبيات السابقة .

ثانياً : حين غزا الكندي امرؤ القيس أبا المنذر بن ماء السماء بجمع كثير من كندة فخرجت بكر مع امرئ القيس وهزموهم شر هزيمة .

---

(١) الشيخ / محمد علي طه الدرة - فتح الكبير المتعال إعراب المعلقات العشر الطوال ج٢ / ٥٣٦ .

(٢) السابق - ج٢/ ٥٣٧ .

(٣) انظر : د . علي الجندي - في تاريخ الأدب العربي - ص : ٣٢٨-٣٢٩ .

ثالثًا : عـنـدما أغـارت بكر بن وائل مع عمرو بن هند لاستنقاذ امرئ القيس بن المنذر بن ماء السـمـاء أخي عمرو بن هند لأبيه ، فقتلوا ملك غسان واستنفدوا امرأ القيس ، وأخذ عمرو بن هنـد ابنة ذلك الملك ، وهي ميسون .

ثم ذكر الحارث أن عمرو بن هند قريب لهم فجدة عمرو بن هند من قوم الحارث بن حلزة ، فهـم أهل لمصاهرة الملوك وتلك القرابة تفرض عليهم وتوجب النصح والإخلاص لعمرو بن هند .

ولك أن تتبين كل هذا في قوله :

فـرددناهم بطعـن كمـا يخـ	ـرج مـن خـربة المـزاد المـاء
وحملـناهم علـى حـزن ثهـلا	ن شـلالا ودمـي الأنسـاء
وفعلـنا بهـم كمـا علـم اللـ	ـه ومـا إن للحائـنين دمـاء
ثم حجـرا أعـني ابـن أم قطـام	ولـه فارسـية خضـراء
أسـد في اللقـاء ورد همـوس	وربـيع إن شـنعت غـبراء
فجبهـناهم بطعـن كمـا تـنـ	ـهز عـن جمـة الطـوي الـدلاء
وفككـنا غـل امـرئ القـيس عـنـ	ـه بعـدما طـال حبسـه والعـناء
وأقـدناه رب غسـان بالمـنـ	ـذر كـرها إذ لا تكـال الـدماء
وأتيـناهم بتسـعة أمـلا	ك كـرام أسـلابهم أغـلاء
ومـع الجـون جـون آل بـني الأو	س عـنود كأنهـا دفـواء
مـا جـزعنا تحـت العجاجـة إذ ولـ	ـت بأقفائهـا وحـر الصـلاء
وولـدنا عمـرو بـن أم أنـاس	مـن قـريب لمـا أتانـا الحـباء
مثلهـا يخرج النصيحـة للقـو	م فـلاة مـن دونـها أفـلاء

ثلاثـة مواقـف تاريخـية لا يسـتطيع الخصم إنكارها لأن التاريخ قد سجلها في صفحاته الصادقة.

٢ – الصدع بالحجة :

وبعد أن اطمأن الحارث بن حلزة إلى استمالة الحكم – عمرو بن هند – اخذ يصدع بحجته ويجـاهر بمناظرته وقد جاء ذلك في صـور متعددة تمثلت في :

١ - استقصاء الحقائق وتَبيُّنُ المفسد من المصلح :

ويظهـر هـذا الخلق السيـاسي العقـلي مـن خـلال قـوله :

أيما خطة أردتم فأدو ... ها إلينا تمشي بها الأملاء
إن نبشتم ما بين ملحة فالصا ... قب فيه الأموات والأحياء
أو نقشتم فالنقش تجشمه النا ... س وفيه الصلاح والإبراء

يقول : أي أمر عظيم يقع بيننا وبينكم أعلمونا ببيانه مع السفراء يمشون به إلينا وتشهد به الجماعات فإن شهدوا وعرفوا ما ادعيتم كان ذلك لكم وإن ادعيتم ما لا تعرفه الرؤساء الأشداء – أمثال عمرو بن هند – فليس بشيء وإن أثرتم ما كان بيننا وبينكم من القتل والأسر في الوقعات التي كانت بين أهل ملحة (مكان) وأهل الصاقب (جبل) ظهر عليكم ما تكرهون من قتلى قتلنا لم تدركوا بثأرهم ، ولو كان بيننا وبينكم محاسبة فاستقصيتم ما جرى بيننا وبينكم من قتال وجدال لكان أمرًا عظيمًا يتعلقه الناس ويتبين فيه المذنب من البريء والسقيم من الصحيح ويظهر للملأ ما تكرهون .

٢ - شن الحملة على الخصم ورميهُ بخصال ذميمة أقرها فيه بالحجة والبرهان ومنها :

(أ) – الجهل : إن تغلب لجهلهم لا يميزون بين الحق والباطل ولا بين البريء والمسيء ولذلك جاءنا منهم هذه التهم :

وأتانا عن الأراقم أنبا ... ء وخطب نعنى به ونساء
إن إخواننا الأراقم يغلو ... ن علينا في قولهم إحفاء
يخلطون البريء منا بذي الذنـ ... ـب ولا ينفع الخلي الخلاء
زعموا أن كل من ضرب العيـ ... ـر موال لنا وأنا الولاء

فقد أتانا منهم ما نحن معنيون به ومحزونون لأجله فقد جاوزوا الحد في ظلمنا وحملونا ذنب غيرنا وخلطوا البريء منا بالمذنب ومن جهلهم ألزموا العامة جناية الخاصة .

(ب) – الكذب : ويمثل ذلك قوله :

أيها الشانئ المبلغ عنا ... عند عمرو وهل لذاك انتهاء ؟
إن عمرا لنا لديه خلال ... غير شك في كلهن البلاء

ها هو الحارث بن حلزة يعود ثانية ليؤكد للملأ اتصاف عمرو بن كلثوم بالأكاذيب الباطلة ليقرر (بالاستفهام التقريري : وهل لذاك انتهاء ؟) أن حبل الكذب قصير مهما طال وتكون الإجابة في قرارة نفس كل عادل منصف : نعم للكذب انتهاء مهما طال حبله .

(ج) – الغـــــدر :

ولـــيس أشـــد علـــى العـــربي من أن يرمى بالغدر أو الخيانة من خصمه فتلك مثلبة كبيرة تـــنقـــــص مكانـــة من اتصف بها ، وقد احتشد الحارث بن حلزة وأورد الأدلة الحسية والبراهين القاطعة الدالة على غـــدر تغلب ليطيح بخصمه ويكسب جولة المناظرة القائمة حيث قال:

أجمعـــــوا أمـــــرهم عشــــاء فلمــــا أصـــبحوا أصـــبحت لهـــم ضوضــــاء

من منـــــاد ومن مجيب ومن تصـــــــــــهال خيل ! خـــــلال ذاك رغـــــاء

يقول : إن هؤلاء القوم من غدرهم يعملون تحت جنح الظلام ليوقعوا بالآمنين والمسالمين وما الليل إلا رمز لما تبيته أولئك القوم من غدر .

٣ ـ دعوة الخصم بالحكمة إلى ترك الظلم والكِبر والتعدي :

فـــبعد أن أطـــاح الحـــارث بن حلزة بخصمه وأظهر عليه حجته ما كان أمامه ليبرهن على رجاحة عقله وإنهاء جولة طويلة من المنافرة والمفاخرة والمناظرة لصالحه إلا أن يدعو خصمه في حضرة الملـــك إلى ترك الظـــلم والتعدي مقدمًا تلك الدعوة في ثوب الحكمة الزاهي والباقي على مر الزمن قائلاً :

فاتركـــــوا البغــــي والتعـــــدي وإمـــا تتعاشـــــوا ففـــي التعاشــــي الـــــداء

إن الجهـــل والتعامي يرتد على صاحبه بالشر ويكشف ما لحقه من عار لأن الشر عام شامل لا يســــلم مـــنه العزيز ولا الذليل ، وأطلق الحارث بن حلزة البكري بوق الحكمة الصارخ بِنَفَسِ صاحب التجربة العميقة بالحياة قائلاً :

لا يقــــيم العزيـــــز في الـــبلد الســـهـــــــــل ولا يــــنفع الذلـــــيل الـــــنجاء

لـــيس ينجـــي مـــوائلا مـــن حــــذار رأس طـــــــود وحـــرة رجــــــلاء

يقول : " لم يكن العزيز الممتنع يقدر أن يقيم بالبلد السهل لما فيه الناس من المغاورة والحيف والجهد ، ولا ينفع الذليل النجاء ، أي : الهرب "[١] وقد قالت العرب : " من مأمنه يؤتى الحذر"[٢] فإلامَ التعامي والجهل ؟!

---

(١) الأنبا ري .شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات – ص : ٤٧٢ .

(٢) الميداني – مجمع الأمثال – ج٢ / ٣١٠ .

٤ - تحقير الخصم والسخرية اللاذعة منه :

أعلينـــا جـــناح كـــندة أن يغـــ ــــنم غـــازيهم ومـــنا الجـــزاء ؟
أم علينـــا جـــرى حنـــيفة أو مـــا جمعـــت مـــن محـــارب غـــبراء ؟
أم جـــنايا بـــني عتـــيق ؟ فمـــن يغـــ ــــدر فإنـــا مـــن حـــربهم بـــراء
أم علينـــا جـــرى العـــباد كمـــا نـــيـ ــــط بجـــوز المحمـــل الأعـــباء
أم علينـــا جـــرى قضـــاعة أم لـــيـ ــــس علينـــا فـــيما جـــنوا أنـــداء
أم علينـــا جـــرى إيـــاد كمـــا قيـ ــــل لطســـم : أخـــوكـــم الأبـــاء

في أبـيات الحـارث بن حلزة السابقة "يبدو أن الغضب قــد تملكه من سلوك خصومه فشرع يسرد بعض مخازيهم تعييرًا لهم وتحقيرًا لشأنهم بأسلوب استفهام في سخرية لاذعة قائلاً :

إذا كانت كندة قد غزت تغلب وقتلت منهم وسبت فهل يغنمون هم ،وندفع نحن الجزاء ؟

هل علينا في العهود التي بيننا أن تأخذونا بذنوب حنيفة وما فعلت بكم لصوص محارب ؟

هـل علينا جنايات بني عتيق ؟ وإنّا لنبرأ من كل غادر ، هل علينا جريرة العباد فنحمل نحن الأعـباء؟ وهل علينا إثم ما فعلت بكم قضاعة ؟ وهل علينا ذنب إياد كما أُخذ طسم بذنب أخيه جديس ؟ " [١]

واسـتمر الحـارث في تعيير القوم وتحقيرهم بتقديمه عرضًا حيًّا لبعض الوقائع التي هُـزم فـيها التغلبيون ولا ينكرونها فعيَّرهم بما " حدث من تميم نحوهم حيث جاء ثمانون من تميم وقتلوا من بني رزاح التغلبيين...وما حدث من الغلاّق وخيله إذ قتلوا التغلبيين وسبوا في غير لين ولا رحمة ... ومـثل ذلك حدث من عمرو بن هند حينما حاولوا عصيانه "[٢] وكل تلك الهزائم حاقت بالتغلبيين في وضـح الـنهار ولم يؤخذوا على حين غرة أو غدرًا كما يعاملون هم خصومهم ، ولك أن تتخيل بنفسـك ذلـك الإذلال الـذي صـور فيه الحارث خصومه وجعلهم في موضع سخرية وتحقير لا يحسدون عليه وذلك من خلال الأبيات التالية :

وثمانـــون مـــن تمـــيم بأيـــديـ ــــهم رمـــاح صـــدورهن القضـــاء
لم يخلـــوا بـــني رزاح بـــبرقا ء نطـــاع لهـــم علـــيهم دعـــاء
تـــركوهم ملحـــبين وآبـــوا بـــنهاب يصـــم مـــنه الحـــداء

(١) د. علي الجندي – في تاريخ الأدب الجاهلي – ص : ٣٢٦ .

(٢) د . علي الجندي – الســـابق – ص : ٣٢٧ .

ثم جـاءوا يسـترجعون فلـم تـر جـع لهـم شـامة ولا زهـراء

ثم فـاؤوا مـنهم بقاصـمة الظهـر ولا يـبرد الغلـيل المـاء

ثم خـيل مـن بعـد ذاك مـع الغـلاق لا رأفـة ولا إبقـاء

مـا أصـابوا مـن تغلـبي فمطلـول علـيه إذ تـولى العفـاء

كتكالـيف قومـنا إذ غـزا المـنذر هـل نحـن لابـن هـند رعاء ؟

إذ أحـل العـلاة قـبة ميسـون فـأدنى دارهـا العوصـاء

فـتأوت لـه قراضـبة مـن كـل حـي كـأنهم ألقـاء

فهـداهم بالأسـودين وأمـر اللـه بلـغ يشـقى بـه الأشـقياء

إذ تمـنونهم غـرورا فسـاقتـهم إلـيكم أمنـية أشـراء

لم يغـروكـم غـرورا ولكـن رفـع الآل شخصهـم والضحـاء

(ب) الشجاعة :

وهـي الأصـل الـثاني الذي اتخذ هو أيضا مظاهر متعددة إذ إن مقام المعلقة مقام مفاخرة ومناظـرة ومنافرة ولا بد أن يكون للشجاعة مكان في ذلك وقد تمثلت مظاهر الشجاعة في معلقة الحارث بن حلزة في :

١ - الوفاء :

والـوفاء مظهـر من مظاهر الشجاعة كما سبق أن عرفنا و" كان الوفاء من الأخـلاق الأصـيلة عند العرب ، فالرجل منهم قد ينطق بالكلمة فتصبح عليه عهدًا لا بد أن يفي به ، وإلا عـرض شرفه للتجريح . وكان الغدر معرة يتجافون عنه وإذا ما غدر أحدهم رفعوا له اللواء بسوق عكاظ ليشهروا به وفي ذلك يقول الحادرة " قطبة بن محصن " [(١)] :

أسمي ويحك هل سمعت بغدرة رفـع اللواء لنا بها في مجمع

إنـا نعف فلا نريب حليفنا ونكف شح نفوسنا في المطمع

فهم لم يغدروا ، وإنهم لن يأتوا ما يشكك حليفهم منهم وقد كانوا أوفياء في نصر الحلفاء ، والذب عـن الجيران ، وقد كان هذا الخلق متعدد الأشكال والألوان فوفاء لمن يجاورون ، ووفاء لمن يعاهدون ، ووفـاء لمن يحبون ، ووفاء لمن يصنع معهم معروفًا "[(٢)] وقد اتخذ الوفاء في معلقة الحارث الصور الأخلاقية التالية :

---

(١) المفضل الضبي – المفضليات – ص : ٤٥ .

(٢) محمد الناصر – أخلاق العرب بين الجاهلية والإسلام – ص : ١٣٦.

١ - التعلق بالأحباب والبوح بألم الفراق :

آذنتنا ببينها أسماء ... رب ثاو يمل منه الثواء

آذنتنا ببينها ثم ولت ... ليت شعري متى يكون اللقاء ؟

ألا تراه يخبر بأن حبيبته أسماء أخبرته بيوم الفراق قبيل أوانه مما جعله يبوح بألم ذلك الفراق في حكمة رائعة " رب ثاوٍ يمل منه الثواء " تبقى على مر الزمان لتسجل للحارث وفاءه الدائم لمن يحب وإنه وإن طالت إقامته فإنه لم يمل منه .

٢ - الإخلاص للديار والحنين للذكريات :

بعد عهد لها ببرقة شماء ... فأدنى ديارها الخلصاء

فالمحياة فالصفاح فأعنا ... ق فتاق فعاذب فالوفاء

فرياض القطا فأودية الشر ... بب فالشعبتان فالأبلاء

إن وفاء الشاعر لأحبابه بعث في نفسه الشعور بالانتماء والإخلاص للديار والحنين للذكريات، إنه يتفقد أماكن الحب واللقاء بحسرة ظاهرة فيعددها دارًا دارًا فنجد من خلال ذلك"إحساسًا يهتف بالحنين والشوق سواء كان لطلل أو كان لشباب،أو لنمط من الحياة الناعمة التي أحاطتها أحداث وتقلبات صيرت الشاعر في حال غير هذا الحال "[١].

٣ - تزايد الحرقة والجوى برحيل الأحبة :

ولنا أن نتحسس إحساس الشاعر بذلك ونحن نقرا قوله :

لا أرى من عهدت فيها فأبكي الـ ... ـيوم دلهًا وما يرد البكاء ؟

وبعينيك أوقدت هند النا ... ر أخيرا تلوي بها العلياء

أوقدتها بين العقيق فشخصيـ ... ـن بعود كما يلوح الضياء

فتنورت نارها من بعيد ... بخزاز هيهات منك الصلاء

" أليس ذلك الإيقاد رمزًا لتلك النار التي أججها الفراق في داخله وهل ذكره هنا إلا تبيانًا لمقدار الحرقة والجوى الذين خلفهما رحيل الأحبة عنه ، وكيف لا يحترق بالنار وعيناه تتابع مسير الأحبة وهن ينسلخن عنه مبتعدين شيئًا فشيئًا حتى يغرقن في ظلام التلاشي والبعد ويغرقنه في رعدة الخوف والجفاء والقطيعة فيحس بعيد ذلك بانسلاخ القلب وبرعشة باردة لا يجد معها قبسًا يصطلي بحر ناره ، فيتأسف على ذلك الصلاء الذي كانت أسماء سببًا له ، وعلى ذلك الدفء الذي كانت تبعثه في نفسه ، ويود لو أن باستطاعته أن يلاحق ذلك الضياء المبتعد ليعيده إلى

(١) د. محمد محمد أبو موسى – قراءة في الأدب القديم – ص : ٣٦٥ .

سـالف عهده من المواصلة والحب واللقـاء "[1] وإني لأرى في تلك المرأة رمزًا واضحًا لقبيلة تغلب ومـا كان بينهما وبين قبيلة بكر من ودٍّ وأخوة قطعت وشائجها خلافات دموية ومنافرات قبلية .

٤ - نصرة الحلفاء وذوي القرابة :

صورة أخرى ناصعة من صور الوفاء العربي وقد تمثلت هذه الصـورة في نصرة الحارث بن حلـزة وقومه للملك عمرو بن هند في كثير من الوقائع التي نختار منها شـاهدًا لهذه الصورة المضـيئة حيث جاء قوم من بني شيبان مغيرين على إبل لعمرو بن هند فردهم بنو يشكر ، وما ذلك منهم إلا وفاء للملك الذي تربطهم به وشائج القربى فكان من الوفاء نصرته .

يقول الحارث :

آيـة شـارق الشـقيقة إذ جـا ... ءت معـد لكـل حـي لـواء

حـول قـيس مسـتلئمين بكـبش ... قرظـي كأنـه عـبلاء

وصـتيت مـن العـواتك مـا تـنـ ... ـهـاه إلا مبيضـة رعـلاء

فرددنـاهم بطعـن كمـا يخـ ... ـرج من خـربة المـزاد المـاء

وأي وفاء أَجَلّ من أن يقدم المرء حياته دفاعًا عمن تربطه بهم علاقة كهذه ؟!

٢ - الصـبر :

مظهر آخر من مظاهر الشجاعة في معلقة الحارث بن حلزة جاء في صورتين هما :

١ - العزم وعدم الاسترسال مع الهم الذي يوهن العزيمة :

فالحـارث بـن حلـزة مـن صبره لم يـدع لنفسه الاسترسال مع الهم المورث لليأس والانكسـار بل استعان على الهم وتبديده بالانشغال بالأسفـار والتنقل على ظهور الإبل وهذا يظهر في قوله :

غـير أني قـد أسـتعين علـى الهـ ... ـم إذا خـف بالـثوي الـنجاء

بـزفوف كأنهـا هقلـة أمـ ... ـم رئـال دويـة سـقفاء

آنسـت نـبأة وأفـزعها القـنـ ... ـناص عصـرا وقـد دنـا الإمسـاء

---

(١) د . مفيد قميحة – شرح المعلقات العشر – ص : ٣٣١-٣٣٢ .

فتـرى خلفهـا مـن الـرجع والـوقـ ـــع منيـــنا كأنـــه إهـــباء

وطـــراقا مـــن خلفهـــن طـــراق ســـاقطات تلـــوي بهـــا الصـــحراء

أتلهـــى بهـــا الهـــواجـــر إذ كـــ ـــل ابـــن هـــم بليـــة عميـــاء

وإني لأرى في وصــف تلــك الــناقة وصــفًا لحال الحارث بن حلزة وقومه ، وما تلك " الطـــراق مـــن خلفهن طراق " إلا وسمًا في نفوسهم سببته وطأة الظلم والغدر من إخوانهم الأراقم الــذين يخلطـــون البريء بذنب المسيء كما اختلط رجع قوائم الناقة ووقع خفافها على الأرض فخلفت غبارًا رقيقًا كــأنه هبـــــاء منبث ، ولا أرى ذلك الغبار الرقيق إلاّ حجة الخصم الواهية التي لم ترقَ إلى الحق أبدًا .

٢ - التحمل والثبات على الحوادث والمكاره :

يقول :

فبقيـــنا علـــى الشـــناءة تنمـــيـ ـــنا حصـــون وعـــزة قعســـاء

قـــبل مـــا الـــيوم بيضـــت بعـــيون النـ ـــاس فـــيها تغـــيظ وإبـــاء

وكـــأن المـــنون تـــردي بـــنا أر عـــن جـــونا يـــنجاب عـــنه العمـــاء

مكفهـــرا علـــى الـــحوادث لا تـــر تـــوه للدهـــر مؤيد صمـــاء

إن صـــبرهم على بغض الناس وعداوتهم زادهم رفعة وعلوًا ، وزاد عدوهم غيظًا وحنقًا لما يـــرون مـــن ثـــباتهم وعزهم وسيادتهم التي أعمت عيون الأعداء ، وإن نوائب الدهر تنزل بهم فلا تضـــرهم إذ هم كالجبل العظيم الثابت الذي لا يبلغ السحاب أعلاه ولا يزعزعه شيء لأنه متراكم بعضه على بعض فامتنع على الحوادث لا تضره ولا تؤثر فيه .

كمـــا أنه وقومه لا يجزعون عندما تحتدم المعارك ويرتفع غبار الحرب فتهرب الكتائب عند اشتداد الأزمة بل ثبات في القلوب وعلو في الهمة :

مـــا جزعنـــا تحت العجاجـــة إذ ولـ ـــت بأقفائهـــا وحـــر الصلاء

٣ - عـــلو الهمة :

و وراء مظاهر الصبر وصوره التي رأيت علو همة يتغنى بها الشاعر ويفاخر بها خصمه تمثلت في الصـــور التالية :

١ - **الإباء والشمم :** يصور الحارث إباء وشمم قومه بقوله :

فبقينـــــا على الشنـــاءة تنميـــ ـــنا حصـــون وعزة قعســـــاء

ألا تـــراهم في أحلـــك الظروف لا يبالون عدوًّا ولا حاسدًا ولا وشاية ؟! وليس ذلك إلا لإبـــائهم وشممهم وانتمائهم إلى أجداد كرام لهم عزة ثابتة وقوة دائمة .

٢ - النكاية في الأعداء :

صورة أخرى من صور علو الهمة الشجاعة عند الحارث وقومه حيث يقول :

وصـــتيت مـــن العـــواتك مـــا تـــنـــ ـــهـــاه إلا مبيضـــة رعـــلاء

فجبهـــناهم بضـــرب كمـــا يخـــ ـــرج مـــن خـــربة المـــزاد المـــاء

وحملـــناهم علـــى حـــزم ثهـــلا ن شـــلالا ودمـــي الأنســـاء

وفعلنـــا بهم كمـــا علـــم الله ومـــا إن للحائنـــين دمـــاء

ضـــرب شـــديد يبين منه بياض العظام ولا يظهر من أجسام الأعداء إلا باللحم معه ، وردٌّ لقـــوم معـــتدين بطعن يخرج الدم من جراحه كما يخرج الماء من أفواه القرب ، وإجبار للعدو على التحصـــن بجبل ثهلان الوعـــر هربًا من ضرب شديد وطعن أليم في مواضع القتل لا يعلمه إلا الله ، وإهدار لدم من عصى وخالف .

ولن أسرد عليك كل صور هذه النكاية في الأعداء وإنما سأترك لك حرية التخيل لمثل قوله:

فجبهنـــاهم بطعـــن كمـــا تنـــ ـــهز عـــن جمـــة الطـــوي الـــدلاء

٣ - النجدة والشهامـــة :

وتتمـــثل هذه الصورة الشجاعة في تخليص وإنقاذ امرئ القيس أخي عمرو بن هنـــد لأبيه من حبس الغساني بعدما اشتد عليه العناء فكان من علو همة البكريين " أن قتـــلوا ملك بني غسان بالمنذر بن ماء السماء قصاصًا ، وأتوه بتسعة أملاك كرام من بني حجر آكل المرار "[١] .

يقول الحارث بن حلزة :

وفككنا غل أمرئ القيـــس عنـــه بعـــد مـــا طـــال حبســـه والعـــناءُ

وأقدنـــاه رب غَســـان بالمنـــذر كـــرها إذ لا تكـــال الدمـــاءُ

وأتينـــاهم بتسعـــة أمـــلاك كـــرام أسلابهـــم أغـــلاء

---

(١) الشيخ / محمد علي طه الدرة – فتح الكبير المتعال إعراب المعلقات العشر الطوال – ج٢/ ٥٤٣-٥٤٥ .

(جـ) العــدل :

وقد اتخذ هذا الأصل الخلقي في معلقة الحارث بن حلزة ثلاثة مظاهر خلقية هي :

١ - حفظ العهود والمواثيق :

مــن مظاهر سياسة الغضب والشهوة وضبط النفس حفظ العهود والمواثيق وذلك من أظهر مظـــــاهــر العــدل ، ولهذا نجد ابن حلزة يذكّر خصومه من تغلب بما بينهم من عهود ومواثيق ورهائن اتخذها منهم الملك عمرو بن هند منعًا للظلم والعدوان فكان لابد والأمر على هذه الحال أن يتســاوى الطرفـــان في شروط تلك العهود والمواثيق بحيث تسري على الطرفين سواء بسواء فلا تنقضها الميول والأهــواء . وفي ذلك يقول الحارث :

واذكــروا حلــف ذي المجــاز ومــا قــد ... دم فــــيه العهـــــود والكفـــــلاء
حــذر الخــون والــتعدي وهــل يــنــ ... ـــقض مـــا في المهـــارق الأهـــواء ؟
واعلمـــوا أننـــا وإيـاكــم فيـــ ... ــما اشترطنـــا يـــوم اختلفنـــا سواء

٢ - الثناء على من يعدل في حكمه :

ومن العدل أن يثنى على من يكون عادلاً في حكمه ليكون ذلك الثناء مدعاة له إلى الحفاظ على هـــذا الأصل الخلقي النبيل ، ولهذا لم يفت الحارث بن حلزة أن يقول :

ملـــك مقســـط وأكمـــل مـــن يمـــ ... ــشــي ومــن دون مــا لديــه الثـناء
إرمـــي بمثلـــه جـــالـــت الـجـــ ... ـــن فـآبت لخصمهـــا الإجـــلاء

فعمــــــرو بن هند ملك عادل لا يجور ، وهو بذلك وغيره من الأخلاق الكريمة أكمــل مــن يمشــي على الأرض ، والثناء عليه أقل مما فيه ،لأن ملك هذا شأنه قادر على استمرار العدل ونصرة المظلوم من الظالم .

٣ - إنصاف الخصم :

مــن أعلــى درجــات ومظاهــر العدل عند العربي إنصاف خصمه خاصة أنه يرى بذلك الإنصــاف إعـــلاء من شأنه هو أيضًا كما سترى ذلك بوضوح عند عنترة بن شداد في معلقته ، ولهذا يقول الحارث بن حلزة :

ثم حجــرا أعـــني ابـــن أم قطـــام ... و لـــــه فارســـــية خضـــــراء
أســـد في اللقـــاء ورد هـــموس ... وربيـــــع إن شنعـــــت غـــــبراء

يخـبر أنهم قاتلوا حجر بن أم قطام حينما غزا جد الملك عمرو بن هند وهو امرؤ القيس ، وكان "معه كتيبة خضراء من كثرة السلاح ..." [١] أنه " أسد في الحروب ... وملجأ وغوث قومه في السـنة المجدبة فهو يصفه بالشجاعة والكرم " [٢] إلا أنهم ينتصرون على ذلك القائد العظيم رغم قوته وعلو مكانته وما دام الأمر انتهى لصالحهم فهم الأكثر عددًا والأعز نفرا .

٤ – ذم الظلم والجـور :

ومـن مظاهـر العدل أيضًا في هذه المعلقة ذم الظلم والجور والإنكار على من يلزم الذنب ويحمله من لم يفعله ويظهر هذا في قوله :

عننـا باطـلا وظلمـا كمـا تعـ ـتر عـن حجـرة الربيـض الظبـاء

يقول :" ألزمتمونا ذنب غيرنا عنًا باطلاً كما يُذبح الظبي لحق وجب في الغنم ... وقد كان الـرجل يـنذر إن بلغ غنمه مائة ذبح منها واحدة للأصنام ثم ربما ضنت نفسه بها فأخذ ظبيًا وذبحه مكان الشـاة الواجبة عليه "[٣].

(د) العفَّة :

ورد في معلقـة الحارث بن حلزة هذا الأصل الخلقي الكريم متمثلاً في المظـاهر التالية :

١ – التعفف عن سبايا القبائل :

ونجد هذا المظهر الكريم ونحن نقرأ قول الحارث :

ثـم ملنـا على تميم فأحرمـ ـنا وفينـا بنـات مر إماءُ

والمعـنى :" ثم ملنا عن الحساء فأغرنا على بني تميم ثم دخل الشهر الحرام ، وعندنا سبـايا القبائل ، فعففنا عنهن ولو شئنا لوطأناهن لا يمنع مانع من ذلك "[٤] لكنهم أدبوا قوة الشهوة بتأديب العقل وهـذا من أجلّ مظاهر العفة .

٢ – التبرؤ من الغدر وأهله :

ومـن العفة أن يتبرأ الإنسان ويترفع عن كل ما يخدش الشرف والحياء والمروءة ويترفع عن

---

(١) التبريزي – شرح القصائد العشر – ص : ٢٨٣ .

(٢) الشيخ / محمد الدرة – السـابق – ج١ / ٥٤١ .

(٣) الزوزني – شرح المعلقات السـبع – ص : ٢٣٣ .

(٤) الشيخ / محمد علي طه الدرة – المرجع السابق – ج١ / ٤٩٧ .

كل صفة تحط من مقداره ، والتبرؤ من الغدر وأهله مظهر شريف من مظاهر العفة نجده في معلقة ابن حلزة أثناء قوله :

أم جنـــايـــا بني عتيـــق فمـــن يغـــ ـــدر فـــإنا مـــن حربهم برآء

ألا تراه يبرئ نفسه وقومه من كل غدرة لحقت بتغلب ؟ مؤكدًا بأنهم بعيدون كل البعد عن ذلك.

٣ - المسامحة وغض الطرف عن الإساءة :

المســـامحة صـــادرة من اعتـــدال العفة كما مـــرَّ معنا [١] وها هو ذا المظهر الكريم يشرق به قول الحـــارث بن حلزة :

أو سكتـــم عنـــا فكنا كمن أغـ ـــمض عينـــا فـــي جفنهـــا الأقذاء

والمعنى : " إن نبشتم على أنفسكم ما قد غاب عن الناس بادعائكم غير الحق خرج عليكم من ذلك مـــا تكرهون ، وإن سكتم عنا فلم تستقصوا كنا نحن وأنتم عند الناس في علمهم سواء، وكان أسلم لنا ولكم على أنا نسكت ونغمض عينًا على ما فيها منكم "[٢] .

٤ - النصيحة للأهل والأقارب :

أعتـــبر هـــذا الخلـــق مظهرًا من مظاهر العفة لأن النصيحة - في رأيي - من باب اللطافة والمساعدة الصادرة من اعتدال العفة كما سبق أن عرفنا [٣] وفي هذا يقول الحارث :

وولـــدنا عمـــرو بـــن أم أنـــاس مـــن رقـــيب لمـــا أتانـــا الحـــباء

مثلهـــا يـــخرج النصيحـــة للقـــو م فـــلاة مـــن دونـــها أفـــلاء

إن البكريين كما مر بنا أخوال عمرو بن هند لأمه وهذه قرابة تستخرج النصيحة وتوجبها للقـــوم الأقـــارب صـــلة قـــربى واسعة النطاق يتصل بعضها ببعض كفلوات واسعة يتصل بعضها بـــبعض.وعفة النفس هـــي التي أوجبت عدم احتكار وسائل النصح والمساعدة،وبهذا سجل الحارث بن حلزة مظهرًا جديدًا من مظـــاهر العفة لا يزال صداه في آذان الناس على مر الزمان .

---

(١) د. علي عبد الحليم محمود - التربية الخلقية - ص : ٣٤ .

(٢) الأنباري - شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات - ص : ٤٦٩ .

(٣) د. علي عبد الحليم محمود - الســـابق - ص : ٣٤ .

هـــذه معلقـــة الحـــارث بـــن حلزة التي استطاع من خلالها أن يظهر جميع مجالات النشاط الأخلاقـــي الخمســـــة متخذًا تلك المجالات جميعها قنوات صالحة لتبليغ رسالته الخلقية إلى متلقي شـــعره ، وليبيِّن لهم "أن القـــوة ليست عددًا وعدة فحسب ، بل هي إلى جانب ذلك عقل يخطط ، وعـــزم يـــنفذ ، ورأي نيِّـــر يستلهم تجارب الآخرين ويوظفها في سبيل تحقيق غاياته وأهدافه" (١) وصدق من قال :" زاحم بعود أو دع "(٢).

---

(١) د . مفيد قميحة – شرح المعلقات العشر – ص : ٣١٣ .

(٢) أبو عبيد القاسم بن سلام – كتاب الأمثال – تحقيق :د . عبد المجيد قطامش – ص : ١٠٧ .

الإطار الخلقي لمعلقة

عنترة بن شدّاد العبسي



معلقة : عنترة بن شداد*

إضاءة :

أمـا معلقـة عنترة بن شداد العبسي التي نحن بصدد بحث الإطار الخلقي لها الآن فإننا نجد لها أكثر مـن رواية وكل رواية تختلف عن الأخرى في عدد الأبيات وتتابعها وزيادتها ونقصها . وهذا – في رأيـي – يعـود إلى أهميتها وكثرة حفاظها وتعدد رواتها " وقد دعا هذا بعض المعاصرين إلى القول بأنها مؤلفة من نشيـدين أو أكثر ، وأن الرواة خلطوا بينها جميعًا "(١).

وسـأعتمد في دراستي لهذه المعلقة على أبياتها الواردة في الديوان باعتباره أصح ما وصل إلينا من المصـادر التي جمعت شعر عنترة بن شداد .

أما ما يقال حول المعلقة من أنها مؤلفة من نشيدين فهذا مستبعد _ من وجهة نظري _ وذلك أننـا إذا نظرنا إلى المعلقة العنترية وجدناها قصيدة ينتظمها خيط نفسي واحد من أولها إلى آخرها وذلك الخيـط النفسي هو الدعوة الصادقة إلى إحلال العدل في جميع الأمور.

إنهـا الدعوة الصريحة من عنترة بن شداد إلى إحلال العدل الذي حرم منه كثيرًا ، لقد حرم العـدل مـن الأسرة الممثلة في إنكار أبيه له وعدم إلحاقه به في النسب ليتمتع بحرية البنوة التي يتمـتع بها أقرانه ، كمـا حرم العدل من الحبيبة التي كانت تتعالى عليه ، بل حرم العدل مع الناس جميعًا حتى الأعداء منهم ، وليس ذلك كله إلا لسواد بشرته وأعجمية أمه الحبشية .

إن عنتـرة رجل حرم من العدل والمساواة من القريب والبعيد ولهذا كان شعره عامة ومعلقته على وجـه الخصوص تحمل أبياتها صرخة عارمة في الدعوة إلى العدل والمساواة .

وتكـاد محبوبة عنترة (عبلة) أن تكون القناة الحاضرة من أول القصيدة إلى آخرها متمثلة في " نغـم واحـد متصل يطَّرِد منذ تبدأ القصيدة إلى أن تنتهي فيتناهى إلى أسماعنا ظاهرًا وواضحًا حينًا وتحسه النفس وإن لم تسمعه الأذن حينًا آخر ، وهذا النغم العذب الشجي هو صوت الشاعر يحدث صاحبته ويستحضر صورها في نفسه منذ ابتدأ إلى أن انتهى"(٢).

" وكـان عنترة من أشد أهل زمانه وأجودهم بما ملكت يده ، وكان لا يقول من الشعر إلا البيـتين والثلاثة حتى سابه رجل من قومه فذكر سواده وسواد أمه وغير ذلك وأنه لا يقول الشعر .

---

* ديوان عنترة بن شداد – شرح وتقديم عبد القادر مايو – ص : ٢٢٨ – ٢٣٢ .

(١) د. عبده بدوي وآخران – الأدب وروح العصر – ص : ٢١.

(٢) عصام السيوفي – المرأة في الأدب الجاهلي – ص : ٣٢ .

فقـــال عنترة : والله إن الناس ليترافدون الطعمة فما حضرت أنت ولا أبوك ولا جدك مرفد الناس قط وإن الناس ليدعـــــون في الغارات فيعرفون بتسويمهم فما رأيتك في خيل مغيرة في أوائل الناس قـــط وإن اللبس ليكون بيننا فمــــــا حضرت أنت ولا أبوك ولا جدك خطة فصل وإنما أنت فقع بقرقـــر [١] وإني لأحتضـــر البأس وأوفي المغنـــم وأعف عن المسألة وأجود بما ملكت يدي وأفصل الخطـــة الصماء وأما الشعر فستعلم فكان أول مـــــا قال [هل غادر الشعراء من متردم] ويروى مترنم وهو أجود شعره "[٢].

بهذه الأخلاق الحميدة كان في مصاف الشعراء الفرسان ذوي الأخلاق الرفيعة وقد روي أن رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم قال :" ما وصف لي أعرابي قط فـــأحببت أن أراه إلا عنترة"[٣].

إنـــه الشاعر الفذ الذي ظلم كثيرًا حيث إنه " لم ينصف في الأدب الفصيح فقد وضعه مثـــلاً ابـــن سلاّم في الطبقة السادسة وتكلم عنه بإهمال ، ولكن الأدب الشعبي هو الذي أنصفه فقد حوله إلى أسطورة، وقدم له أكثر من سيرة "[٤] .

ومـــا هذا الاهتمام بعنترة وشعره ــ في نظري ــ دون سائر الشعراء الجاهليين من قبل الأدب الشعبي خاصة إلا لما تعج به أشعاره ومعلقته خاصة من مكارم الأخلاق التي يريد الناسُ أن يغرسوها في نفـــــوس أبنائهم جيلاً بعد جيل . فما من بيت من أبيات المعلقة إلا ويحمل مظهرًا خلقيًا أو أكثر ممـــا سيضـــطـــــرنا إلا أن يتكرر معنا بعض أبياتها عند تحديد الإطار الخلقي للمعلقة حسب أصول الأخلاق الأربعة .

(أ) العقــل (الحكمة):

إذا كان العقل : حالة للنفس بها يدرك الصواب من الخطأ في جميع الأفعال الاختيارية . كما ســـبق أن عـــرفنا فإن هذا الأصل الخلقي لابد أن يتخذ مظاهره في معلقة الشاعر الفارس عنترة بن شداد وقد تمثل في المظاهر التالية :

---

(١) الفقـــع : الرخو من الكمأة ، القرقر : الأرض المطمئنة اللينة وهذا مثل يقال:(أذل من فقع بقرقر) لأن الدواب تدفعه بأرجلها .

(٢) ابن قتيبة – طبقات الشعر والشعراء – ص : ٤٢ .

(٣) الأصفهاني – الأغاني – ج٨ /٢٥٠ ، وليس للحديث ذكر في كتب الحديث المعتمدة .

(٤) د. عبده بدوي وآخران – الأدب وروح العصر – ص : ٢٣ .

١- السياسة :

مظهر عقلي واضح في المعلقة حيث أراد عنترة من خلال هذا المظهر أن يجعل نفوس متلقيه تدرك معه الصواب من الخطأ في جميع الأفعال الاختيارية .وقد تمثل هذا المظهر في الصور التالية :

١- اجتلاب المحبة :

وهذه الصورة أيضًا اتخذت مسارين واضحين في المعلقة هما :

١- إن عقدة اللون التي كان عنترة يعاني منها كثيرًا حتمت عليه أن يحاول استمالة الناس إلى اللون الأسود الذي كان ينفر منه المجتمع الجاهلي ويحتقره ظلمًا وعدوانًا فما كان منه إلا أن يعمل جاهدًا في استمالة الناس وتحبيبهم في اللون الأسود كأول خطوة في طريق الدعوة إلى العدل ، فالإبل الكرام التي يحبها العرب ذات لون أسود كما في قوله :

ما راعني إلا حمولة أهلها ... وسط الديار تسف حب الخمخم
فيها اثنتان وأربعون حلوبة ... سودا كخافية الغراب الأسحم

والمحبوبة التفتت إليه كالغزال الأرثم وهو الذي على أنفه سواد أو بياض :

وكأنما التفتت بجيد جداية ... رشأ من الغزلان حر أرثم

والحصان النشيط والأصيل الذي تحبه العرب وتعتز بركوبه أسود طويل المتن قصير الشعر:

يدعون عنتر والرماح كأنها ... أشطان بئر في لبان الأدهم
ما زلت أرميهم بثغرة نحره ... ولبانه حتى تسربل بالدم
والخيل تقتحم الخبار عوابسا ... ما بين شيظمة وأجرد شيظم

ولا يفوتنا أن قصر الشعر أو تجعده صفة سائدة في ذوي اللون الأسود من الناس .

ولنقف ثانية عند ناقة عنترة ولندقق النظر في أوصافه لها :

يقول عنترة :

وكأن ربا أو كحيلا معقدا ... حش الوقود به جوانب قمم
ينباع من ذفري غضوب جسرة ... زيافة مثل الفنيق المكدم

إن عنتـــرة في وصـــفه لناقته " يشبه عرقها بالطلاء أو القطران المغلي المعقد ، وهذا العرق يتصبب من عنقها الذي اشتد وصلب فكأنه القمقم الذي يغلى به القطران "(١).

وإن شئت فلنعد إلى ذكر النعام الذي شبه عنترة ناقته به حيث يقول :

فكأنمـــا أقـــص الإكـــام عشـــية ... بقـــريب بـــين المنســـمين مصـــلم

تـــأوي لـــه قلـــص الـــنعام كما أوت ... حـــزق يمانـــية لأعجـــم طمطـــم

يتـــبعن قلـــة راســـه وكأنـــه ... حـــرج علـــى نعـــش لهـــن مخـــيم

صعل يعود بـــذي العشـــيرة بيضـــه ... كالعبـــد ذي الفـــرو الطـــويل الأصلـــم

فهـــي " لسرعتها تشبه الظليم الذي لا أذن له والذي تجتمع حوله صغار النعام كما تأوي الإبـــل اليمانية إلى راعٍ أعجم عيي لا يفصح ، والنعـــام تجعـــل الظـــليم نصب عينها وتقفو أثره فكأنـــه هودج تتطلع إليه العيـــون ، ويتحـــرك الركب وفـــق حركته وهـــذا الظـــليم صغـــير الرأس دقيق العنق وهو يعنى ببيضه ويتعهده بالرعاية فكأنه راعٍ أسود مقطوع الأذنين يجتاب فروة طويلة " (٢) وما أقـــرب هذه الصورة من صورة الشاعر نفسه ، ونحن ما زلنا إلى اليوم نسمع مـــن الســـود عبارات تحبب الناس فيهم إذا ما رُمّوا بسواد لون بشرهم من بعض أصحاب النفوس الضعيفة ومن عباراتهم تلك قولهم : العسل أسود .

وعنترة بدوره يقول (٣) :

لئن يعيبـــوا سوادي فهـــو لي نسب ... يـــوم النزال إذا مـــا فاتني النسب

٢ – إن إعراض عبلة عن عنترة جعلته يسلك سياسة معينة في اجتلاب محبتها وقـــد تمثلت تلك السياســـة في كون عنترة أراد أن يثبت لعبلة عذرية حبه لها فقلبه وعواطفه مرتبطة بها دون غيرها والإخلاص لها وحدها دون سواها وهذا ما نفهمه من مثل قوله في خطابها :

ولقـــد نـــزلت فلا تظـــني غيره ... مـــني بمـــنزلة الـــمحب المكـــرم

فعبلة عنده دون غيرها لها منزلة خاصة من الحب والتكريم .

وهـــا هو يتغنى ببطولاته أمام عبلة استجلابًا لرضاها والحصول على ثنائها وتعـــــريفها

(١) أحمد عبد الله فرهود وزهير مصطفى اليازجي – المعلقات العشر – ص : ٧٤ .

(٢) الســـــابق – ص : ٧٣ – ٧٤ .

(٣) الديوان – ص : ٣٠ .

ببعض أخلاقياته وسلوكه في صحوه وسكره وسلمه وحربه فيقول :

أثـــني علـــي بمـــا علمـــت فـــإنني ... ســـهل مخـــالقتي إذا لم أظلـــم
فـــإذا ظلمـــت فـــإن ظلمـــي باســـل ... مـــر مذاقـــته كطعـــم العلقـــم
ولقـــد شـــربت مـــن المدامـــة بعـــدما ... ركـــد الهواجـــر بالمشـــوف المعلـــم
بـــزجاجة صـــفراء ذات أســـرة ... قـــرنت بأزهـــر في الشـــمال مفـــدم
فـــإذا شـــربت فـــإنني مســـتهلك ... مـــالي وعرضـــي وافـــر لم يكلـــم
وإذا صـــحوت فمـــا أقصـــر عـــن نـــدى ... وكمـــا علمـــت شمائلـــي وتكرمـــي
وحلـــيل غانـــية تـــركت مجـــدلا ... تمكـــو فريصـــته كشـــدق الأعلـــم
ســـبقت يـــداي لـــه بعاجـــل طعـــنة ... ورشـــاش نافـــذة كلـــون العـــندم
هـــلا ســـألت الخـــيل يـــا ابـــنة مالـــك ... إن كـــنت جاهلـــة بمـــا لم تعلـــم
إذ لا أزال علـــى رحالـــة ســـابح ... نهـــد تعـــاوره الكمـــاة مكلـــم
طـــورا يجـــرد للطعـــان وتـــارة ... يـــأوي إلى حصـــد القســـي عرمـــرم
يخـــبرك مـــن شـــهد الوقـــيعة أنـــني ... أغشـــى الوغـــى وأعـــف عـــند المغنم
ولقـــد ذكـــرتك والـــرماح نـــواهل ... مـــني وبـــيض الهـــند تقطـــر من دمي
فـــوددت تقبيـــل الســـيوف لأنـــها ... لمعـــت كبـــارق ثغـــرك المتبســـم

وسترى معي أثناء الحديث عن مظاهر الأصول الأخلاقية الأخرى ذلك الحضور الدائم لعبلة حتى " كأنها وحدها المعنية بالخطاب ووحدها التي تمر بالأمجاد والانتصارات "[1] إلا أن عنترة عندما رأى مـــن عبـــلة إعراضًا وعزوفًا عنه ما كان أمامه إلا أن يتبع سياسة ما يسميه عامة الناس ضرب النســـاء بالنســـــاء وهي سياسة لا زالت متبعة عند كثير من أهل البادية لتأديب زوجاتهم ومن تربطهم بهن علاقة إلى اليوم ، وليس صحيحًا – في نظري – ما ادعاه بعض الباحثين من أن عنترة " لم يكـــن موحدًا في الحب لأن له شعرًا مثلاً في رقاش وفي قطام ..." [2] وهب أننا افترضنا ذلك فإن حـــبه الأول والأخـــير لعـــبلة ، وإن حدث منه ميل لغيرها فإنما هو من باب التلهي فقط أو أسماء مســـتعارة اتخـــذها قـــنوات صالحة لإيصال رسالة من رســـــائله الأخلاقية إلى متلقي شعره كما أوضحنا ذلك في الفصل الأول من دراستنا هذه .

(١) عبد القادر محمد مايو – ديوان عنترة بن شداد – ص : ١٢ .
(٢) د. عبده بدوي و آخران – الأدب وروح العصر – ص : ٢٤.

وفي هذه الوقفة الآن يظهر لي أن ذكر عنترة لأولئك النساء حقيقة ما هو إلا استدراج لعبلة واستدرار لغيرتها عليه وهذا تركيب في طبع المرأة عندما تسمع بشيء من تجارب الحب والغرام تلك ، والدليل على صحة هذا القول أننا لا نرى عنترة يذكر امرأة بعينها أحيانًا وإنما يكني عنها بالشاة مثلاً إما لعذريته في حبه كما سيأتي معنا أو أنه فعلاً أراد أن يوقظ في عبلة عين الغيرة عليه، وفي كلا الأمرين سياسة في اجتلاب محبة عبلة له :

يا شاة ما قنص لمن حلت له حرمت علي وليتها لم تحرم

ثم يسرد لنا عنترة أسلوبا جديدًا في الغزل الجاهلي وهو إرسال الجارية لتقصي أخبار من يحب عفة منه وحفاظًا على عدم فضيحة الأحبة ولعل هذا السلوك الطيب منه يحفظ له مكانًا في قلب عبلة ، ثم يذكر عنترة أن محبوبته التفتت إليه بجيد كجيد غزالة صغيرة مراهقة أملاً منه أن توقظ هذه الصورة في نفس عبلة ذكرى دفينة مع ابن عمها عنترة في صغرهما ، وكل هذا يستجلب محبتها ويرقق قلبها بل إننا " دائمًا ما نراه يعبر عن ظمأ شديد إلى رؤيتها لا لغاية حسية ولكن ليمتع طرفه بجمالها ، ومن أهم ما يلاحظ عنده أنه يقدم لها في معلقته وغير معلقته مغامراته الحربية فمن أجلها يحارب ويستبسل في القتال ومن أجلها يذود عن قومه ويحمي حماهم ، ومن أجلها يسوق كل مناقبه ومحامده "[١].

ألا تراه وهو في ساحات الوغى يمر أمامه طيف عبلة ليشتبه ببريق السيوف البرّاقة في الحرب فيود عنترة تقبيلها لأنها لمعت كثغر عبلة ؟! :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل مني وبيض الهند تقطر من دمي
فوددت تقبيل السيوف لأنها لمعت كبارق ثغرك المتبسم

" والمتتبع لشعر عنترة يدرك المستوى الذي وصل إليه الشاعر العبسي في الهيام برفيقة طفولته وصباه وابنة عمه عبلة بحيث يذكرها ولا تغيب عن ذهنه وبصره حتى في المواقف الرهيبة التي تزل فيها العقول وتضطرب فيها الأنفس ، وتحار فيها الألباب "[٢].

وبعد ذلك يحاول عنترة أن يقدم عدة لوحات بطولية أمام عبلة نختار منها تلك اللوحة التي يبين فيها عنترة حبه وولاءه لعمه أبي عبلة عندما أوصاه " أن اثبت في حومة الوغى في وقت الضحى وهو وقت ترتفع فيه الشفتان عن الأسنان وذلك لشدة الخوف من القتل"[٣].

---

(١) د. شوقي ضيف – العصر الجاهلي – ص : ٣٧٤ .
(٢) شاعر الأقصى يوسف العظم – لو أسلمت المعلقات – ص : ٤٠ .
(٣) الشيخ / محمد علي طه الدرة – فتح الكبير المتعال إعراب المعلقات العشر الطوال –ج١/٢٣٠ .

وإنما اخترنا هذه اللوحة البطولية لأنها تمس الوفاء من عنترة في حبه لعبلة من جهة أبيها وفي هذا يقول :

ولقد حفظت وصاة عمي بالضحى إذ تقلص الشفتان عن وضح الفم
في حومة الموت التي لا تشتكي غمراتها الأبطال غير تغمغم
إذ يتقون بي الأسنة لم أخم عنها ولكني تضايق مقدمي
ولقد هممت بغارة في ليلة سوداء حالكة كلون الأدلم
لما سمعت نداء مرة قد علا وابني ربيعة في الغبار الأقتم
ومحلم يسعون تحت لوائهم والموت تحت لواء آل محلم
أيقنت أن سيكون عند لقائهم ضرب يطير عن الفراخ الجثم
لما رأيت القوم أقبل جمعهم يتذامرون كررت غير مذمم

يقول :" لقد حفظت وصية عمي في أشد الأوقات هولاً التي لا تشكوها الشجعان إلا بصوت خافت يسمع ،ولا يفهم منه شيء ، إنني لم أضعف ولم أجبن حين جعلني أصحابي وقاية بينهم وبين أسنة أعدائهم ... فصرت في مضيق من الأرض لا أستطيع التقدم فيه ، فلذا تأخرت وعندما سمعت صوت مرة وصوت ابني ربيعة حالة كونه قد ارتفع في الغبار الضارب إلى السواد ، وحال كون قبيلة محلم يزحفون تحت لوائهم الذي يوجد تحته الموت بسبب شجاعتهم ... أيقنت يقينًا لا ريب فيه أنه يوجد عند مواجهتهم ضرب بالسيوف يلقي الرؤوس عن أبدان قوم شبيهين بفراخ الطيور الصغيرة الضعيفة"[1] عندها كررت إلى ساحة الوغى محمودًا غير مذموم .

٢ - الحِلْم :

الحلم مظهر من مظاهر العقل وأقسامه كما يذكر ذلك قدامة بن جعفر في ما مر معنا وقد كان عنترة بن شداد على ما فيه من بأس شديد حليمًا يستطيب الناس معايشته ويفيئون إلى حلمه وعندما نبحث هذا الأمر في شخصيته نراه " يخضع قوته لعقله فيجاوز مرحلة المباهاة بالقوة إلى مرحلة تحليم القوة"[2] ولنستمع إليه وهو يطلب من عبلة أن تثني عليه بما علمت عنه من حلمه وأنه سهل المخالطة إذا لم يهضم حقه فإذا ظُلِم فإنه يعاقب من ظلمه عقابًا يستحقه وفي ذلك يقول :

---

(١) السابق – ص : ٢٣١ .

(٢) د . غازي طليمات وعرفان الأشقر – الأدب الجاهلي – ص : ٤١١.

أثـــني علـــي بمـــا علمـــت فـــإنني ســـــهل مخـــــالقتي إذا لم أظلـــــم

فـــإذا ظلمـــت فـــإن ظلمـــي باســـل مـــر مذاقتـــه كطعـــم العـــلقـــم

إن عنتـــرة بن شداد استطاع من خلال حلمه السابق أن يضيف إلى نفسه محمدة أخرى تعد مظهرًا آخر من مظاهر العقل ألا وهي الفروسية المتعقلة .

٣ - الفروسية المتعقلة :

وإنما أدرجنا هذا المظهر الخلقي ضمن مظاهر الأصل الأخلاقي (العقل) لما اتضح لنا من أن قـــوة وفروسية عنترة وغضبه منقادة للعقل في إقدامها وإحجامها " قيل لعنترة : أنت أشجع العرب وأشـــدها . قال : لا . قيـــــل : فبمـــاذا شـــاع لك هـــذا في النـــاس ؟ قـــال : كنت أقـــــدم إذا رأيت الإقدام عزمًا ، وأحجم إذا رأيت الإحجام حزمًا ، ولا أدخل إلا موضعًا أرى لي مـــنه مخـــــرجا"[١] "ولـــا كان أثمن ما في الإنسان عقله فعلى عبلة أن تنقب فيه عن هذه الجوهـــرة الخفـــية النفيسة، فإذا أعياها الظفر بدماغه فلتنظر إلى أثر الدماغ في السلوك وقدرته بعد التمرس في الصعاب على حل المعضلات "[٢].

يقول عنترة :

ذلل ركـــــابي حيـــث شئت مشايعي لـــــبي وأحفـــــزه بأمـــــر مبرم

إن فروسية عنترة المتعقلة جعلت قومه يحتاجون إليه كلما اشتد بهم الخطب :

يدعون عنتر والرمـــــــــاح كأنها أشطـــــان بئـــــر في لبـــان الأدهم

وهذا الاحتياج له من قومه شفى نفسه وأبرأ سقمها إلى الدرجة التي أصبح فيها يتغنى بذلك :

ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمهـــــا قيـــــل الفـــوارس ويك عنتر أقدم

" إنـــه لينتشي بما يسمعه من نداء الأبطال الملهوفين ولكن هذا الانتشاء لا يلهيه عن واجبه وشـــهامته ولا يضـــيع رشده بل يزيد في إقدامه فيندفع حيث شاء من الغزو على ركابه العتاق التي دربهـــا على الكر والفر والترحال فذلت له أي إذلال يرفده عقله الذي يلازمه أبدًا ويعضده بالرأي السديد المحكم "[٣].

---

(١) السابق – ص : ٤١٠ .

(٢) السابق – ص : ٤١٧ .

(٣) عصام السيوفي – المرأة في الأدب الجاهلي – ص : ٤٠ .

ولقـــد شـــفى نفســـي وأبـــرأ ســـقمها   قـــيل القـــوارس : ويـــك عنتـــر أقـــدم
والخـــيل تقـــتحم الخـــبار عوابســـا   مـــا بـــين شـــيظمة وأجـــرد شـــيظم
ذلل ركابي حيث شئت مشايعـــــــــي   لـــــبي وأحفـــــزه بأمـــــر مـــبرم

نعـــم إن عنترة حين يريد الحرب تستجيب له الخيل والعقل وبهذه الفروسية المتعقلة استطاع أن يسجل اسمه بحروف من ذهب على صفحات التاريخ .

٤ - التفطـــن لدقائق الأعمال :

مظهـــر عقلـــي واضح عند عنترة في معلقته ، وليس ذلك بغريب على فارس شجاع عاقل كعنترة لأن الفطنة مطلب مهم في الفارس النابه ، وما من بيت في معلقة عنترة إلا وهو محل إعجاب بفطنة الفارس الشـــاعر عنترة بن شداد إلا أننا سنختار أبياته في وصف الذباب (النحلة) وهو من الأوصـــاف الـــتي تنم عن مـــدى فطنة الشاعر لدقائق الأعمال مما يحيط بالإنسان من مشاهدات قد يعتبرها الكثيرون من عوارض المرئيـــات أو المسموعات أو المحسوسات على وجه العموم إلا أن أولي الفطنة والتفكير السليم لا يفوتهم شيء مـــن ذلك وقليل ما هم .

يقول عنترة :

وخـــلا الـــذباب بهـــا فلـــيس ببارح   غـــردا كفعـــل الشـــارب المتـــرنم
هـــــــــزجا يحك ذراعه بذراعه   قـــــــدح المكب على الزناد الأجذم

" والـــذباب هـــو مـــا نطلـــق عليه نحل العسل حيث يقصد الرياض المزهرة يلتف بالورود المتفـــتحـــــة فيمـــتص رحيقها ويحدث صوتًا مطربًا وقد شبه تصويت الذباب (النحل) بتصويت شـــارب الخمـــر عـــندمـــــا يترنم بالغناء ، وتلك صورة تشبيهية تمثيلية استعان عنترة فيها باللون والحـــركة والصوت والرائحة التي كشـــف بها تصوير الطبيعة ، وصور صوت الذباب بصوت رجل مقطوع اليد يوري الزناد ، وقال القدماء إن هذا من أعجب التشبيه "[١].

قال الجاحظ :" والعرب تجعل الفراش والنحل والزنابير والدّبر كلها من الذّبان "[٢] ثم قال : " ولا يعلم في الأرض شاعر تقدم في تشبيه مصيب تام ، وفي معنى غريب عجيب أو في معنى شريف

---

(١) السيد محمد الديب – دراسات في الأدب الجاهلي – ص : ٣٠ .
(٢) الجاحظ – الحيوان – تحقيق : عبد السلام هارون – ٣ / ٣٠٥ .

كريم ، أو في بديع مخترع ، إلا وكل من جاء من الشعراء من بعده أو معه ، إنْ هو لم يعْدُ على لفظه فيسرق بعضه أو يدعيه بأسره ، فإنه لا يدع أن يستعين بالمعنى ، ويجعل نفسه شريكًا فيه ؛ كالمعنى الذي تتنازعه الشعراء فتختلف ألفاظهم ، وأعاريض أشعارهم ، ولا يكون أحد منهم أحق بذلك المعنى من صاحبه أو لعله [أن] يجحد أنه سمع بذلك المعنى قط ، وقال إنه خطر على بالي من غير سماع ، كما خطر على بال الأول . هذا إذا قرّعوه به . إلا ما كان من عنترة في صفة الذباب ؛ فإنه وصفه فأجاد صفته فتحامى معناه جميع الشعراء فلم يعرض له أحد منهم . ولقد عرض له بعض المحدثين ممن كان يحسِّن القول فبلغ من استكراهه لذلك المعنى ومن اضطرابه فيه ، أنه صار دليلاً على سوء طبعه في الشعر قال عنترة :

جادت عليها كل عين ثرة ... فتركن كل حديقة كالدرهم

سحا وتسكابا فكل عشية ... يجري عليها الماء لم يتصرم

وخلا الذباب بها فليس ببارح ... غردا كفعل الشارب المترنم

هزجا يحك ذراعه بذراعه ... قدح المكب على الزناد الأجذم

قال : يريد فعل الأقطع المكب على الزناد . والأجذم : المقطوع اليدين . فوصف الذباب إذا كان واقعًا ثم حك إحدى يديه بالأخرى ، فشبهه عند ذلك برجل مقطوع اليدين ، يقدح بعودين. ومتى سقط الذباب فهو يفعل ذلك "(١).

(ب) الشجاعة :

وماذا عسانا أن نقول في شجاعة عنترة بن شداد التي أصبحت مثلاً للعربي والعجمي والكبير والصغير ؟! إلا أننا في دراستنا هذه حاولنا أن نتتبع مظاهر تلك الشجاعة وصورها المتعددة فخرجنا بما يلي :

١ – الوفاء :

لسنا بحاجة إلى أن نكرر أن الوفاء مظهر من مظاهر الشجاعة فقد أوردنا ذلك مرارًا فيما سبق من بحثنا هذا ولكن يكفينا أن نذكر هنا أن الوفاء مظهر شجاع بما يحمله من صور كثيرة حظيت معلقة عنترة بكثير منها ، وأهمها :

(١) السابق – ج٣/٣١١-٣١٢ .

١ - الوقوف على ديار الأحبة والدعاء لها :

" ارتباط الشاعر الجاهلي بالطلل شكل من أشكال الإخلاص للماضي وللأهل وللمحبوبة"[١] إن الوقوف على ديار موحشة تتداعى فيها ذكريات الماضي حلوها ومرها تتطلب من الواقف عليها قلبًا صابرًا حازمًا لا يهاب ولا يستسلم لوطأة الفراق والذكرى المؤلمة وهذا ما كان من الفارس الشاعر عنترة بن شداد حيث يقول :

هل غادر الشعراء من متردم ... أم هل عرفت الدار بعد توهم
أعياك رسم العيد لم يتكلم ... حتى تكلم كالأصم الأعجم
ولقد حبست بها طويلا ناقتي ... أشكو إلى سفع رواكد جثم
يا دار عبلة بالجواء تكلمي ... وعمي صباحا دار عبلة واسلمي

إن عنترة يقف كغيره من الشعراء الذين سبقوه متمثلاً لهم لا على سبيل التقليد بل لأنه يقاسي اليوم ما قاسوه بالأمس .

ها هو عنترة يمر بالديار وقد خلت من أهلها ، ودرست رسومها فلم يعرفها إلاّ بعد إنكاره لها وتثبته فيها إذ لم تستبن له الدار إلا بعد إنكار وتثبت " وضرب لذلك مثلاً بقوله: (لم يتكلم حتى تكلم كالأصم الأعجم) أي لا يبين لك أولاً أهي الدار التي عهدت أم لا حتى تبينها آخرًا بعد جهد "[٢].

والذي يبدو لي أن قصده بقوله :

أعياك رسم الدار لم يتكلم ... حتى تكلم كالأصم الأعجم

ما أثارته تلك الديار الدارسة من ذكريات في نفسه لها ارتباط بكل ما ذكر من جزئيات في ذلك المكان كالسفع الرواكد مثلاً :

ولقد حبست بها طويلا ناقتي ... أشكو إلى سفع رواكد جثم

وما كان حبسه الطويل لناقته في ذلك المكان وصبره على الوقوف عليه إلا وقوفًا جبريًا أجبره عليه تداعي الذكريات حتى كأن هيئة كل شيء من تلك الرسوم يكاد ينطق بشيء من تلك

---

(١) غازي طليمات وعرفان الأشقر - الأدب الجاهلي - ص : ٤٣٠ .

(٢) مجيد طراد - شرح ديوان عنترة للتبريزي - ص : ١٤٨.

الذكريات ، ومن يتحمل ذلك كله إلا فارس رابط الجأش شجاع تنتهي به ذكرياته العارمة تلك إلى تحية الدار والدعاء لها بالسلامة دون الانزلاق وراء عثرات النفس وويلات الهوى .

يـــا دار عبلـــة بالجـــواء تكلمـــي   وعمـــي صبـــاحـــا دار عبلـــة واسلمي

وهـــناك لفـــتة أخرى يلفتنا إليها عنترة وهي : أن الوقوف على الأطلال مظهر من مظاهر الوفاء ولكن عنترة هنا يقدم لنا شيئًا جديدًا في وصفه للديار بأنها صماء لا تجيب داعيًا ولا ترد تحية فهـــل تظن أن عنترة يجهل ذلك ؟! أبدًا ولكنه أراد هنا أن يقدم لنا صورة لنفس عبلة الصماء عنه وعـــن حـــبه أيضًـــا فاتخـــذ عنترة من وصف المكان بالأصم الأعجم قناة صالحة ليقدم لمتلقي شعره صورة صادقة للحب الوفي من طرف واحد .

إلا أن عنتـــرة مهمـــا أوتي من شجاعة يظل إنسانًا يجزع ويفزع لفراق أحبته مما ولّد عنده صورة أخرى من صور وفاء الإنسان العربي ألا وهي :

٢ ـ الجزع لفراق الأحبة وبعدهم :

وتتضح هذه الصورة من صور الوفاء في قول عنترة :

كـــيف المـــزار وقـــد تـــربع أهلـــها   بعنيـــــزتين وأهلـــــنا بالغـــــيلم

إن كـــنت أزمعـــت الفـــراق فإنمـــا   زمـــت ركـــابكم بلـــيل مظلـــم

مـــا راعـــني إلا حمـــولة أهلهـــا   وســـط الديـــار تســـف حـــب الخمخـــم

وكـــيف لا يجـــزع ويفـــزع وقد أصبحت حبيبته وأعز الناس وأقربهم إلى قلبه في مكـــان يصـــعب علـــيه طلبها فقد باعدت بينهما الديار كما أن فراقها كان مفاجأة له فقد قُرر الرحيل في الخفـــاء (بليل مظلم) وأفـــزعه أن رأى الإبل تحمل الأمتعة على وشك الرحيل مما اضطرها إلى أن تسف حب الخمخم " كناية عن استقراب المرعى اضطرارًا فهي لم يسرح بها إلى المرعى "[1].

ويستشف من خلال قول عنترة :

وتـــحل عبلـــة بالـــجواء وأهلنـــــا   بالـــحـــزن فالصمـــان فالمتثلـــــــم

" أنهـــا رحلت منفردة دون سائر أهلها ، والمرأة لا ترحل إلى قوم آخرين وحدها إلا لزواج

---

(١) عبد القادر مايو — ديوان عنترة بن شداد — ص : ٢٣٣ .

وهـــذا مما يبعث الأسى في نفس عنترة الذي شغفه حب عبلة "[١]والذي يؤكد هذا الرأي في نظري أيضًا هو قول عنترة :

يا دار عبلـــة بالجـــواء تكلمــــي وعمـــي صباحــــا دار عبلة واسلمـــي

فقـــد خصـــص بالــنداء دار عبلة بعينها وهذا يعني أن الديار لم تخل خلوًا تامًا من ساكنيها "ولكنها خلت من أم الهيثم : عبلة وهذا وحده كاف ليجعل منها ديارًا مقفرة موحشة"[٢] :

حييت مـــن طلل تقـــادم عهــــده أقـــوى وأقفـــر بعــــد أم الهيثم

ومن الوفاء أيضًا :

٣ - الحفاظ على الحب المقيم رغم صروف الأيام :

علقـــتها عرضـــا وأقـــتل قـــومها زعمـــا لعمـــرو أبـــيك لـــيس بمـــزعم
ولقـــد نـــزلت فلا تظـــني غـــيره مـــني بمـــنزلة الـــمحـــب المكـــرم

ألا تحـــس بعـــنتـــرة وهـــو " يتـــأفف مـــن صـــعوبة اللقـــاء الحقيـــقي مـــع الحـــبيـــبة ، ويـــرى وصــــالها أمــــــرًا عســــــيرًا بعـــــد أن اكــــتنفها الأعـــــداء مـــــن كـــل جانب وحـــالوا بينــــه وبينهـــا بسبب العــــداوة والقتــــال إلا أن حبها الذي حل في قلبه كحلول الغيث في التربة الكريمة لا يمكن أن يتغير أو يتحول" [٣] ويحاول عنتـــرة أن يســـتبيح الأعـــذار ليرد على مـــن يلومه على الوفاء لذلك من طرف واحد والمشوب بالمخاطر فيعرض لنا عرضًا جانبًا من المتممات الحسية " ليلتمس لنفسه الأعذار لذلك التقاسم القلبي الذي كاد أن يهز صورة الإباء والبطولة فيه "[٤] فيقول :

إذ تســـتبيك بـــذي غـــروب واضـــح عـــذب مقـــبله لذيـــذ المطعـــم
وكأنمـــا نظـــرت بعـــيني شـــادن رشـــأ مـــن الغـــزلان لـــيس بـــتوأم
وكـــأن فـــارة تاجـــر بقســـيمة ســـبقت عوارضـــها إلـــيك مـــن الفم
أو روضـــة أنفـــا تضـــمن نبـــتها غـــيث قلـــيل الـــدمن لـــيس بمعلـــم

---

(١) أحمد عبد الله فرهود – المعلقات العشر – ص : ٧١ .
(٢) الســـــابق – ص : ٧١ – ٧٢ .
(٣) د. مفيد قميحة – شرح المعلقات العشر – ص : ٢٩٥ .
(٤) الســـــابق – ص : ٢٩٦ .

جـادت علـيها كـل عـين ثـرة فتـركن كـل حديقـة كالـدرهم
سحا وتسكـابا فكـل عشيـة يجـري عليهـا المـاء لم يتصـرم

إن عبلة " تأسر العقول بفم عذب وأسنان بيضاء ، وكأن رائحة فمها رائحـة المسك أو كالرائحة العطـرة التي تصدر عن روضة بعيدة عن متناول الناس ، فهي نقية نظيفة "[1].

وهـا هـو عنترة يغار على عبلة مما وصفها به من أوصاف تذهب بعقول الرجال فيصرف شـعره إلى ما يمكن أن يحل مكان عبلة في تلك الأوصاف النقية فلا يجد إلا تلك الروضة البعيدة عن متناول أيدي الناس إنها روضة عذراء تجود عليها سحائب الربيع فتنبت من كل زوج بهيج ، وتصبح أرضها كأنها دراهم بيضـاء مستديرة مما يطيب للنحل الإقامة فيها نشوان طربًا يحك ذراعه بذراعه كمن يقدح الزناد ليوري النار .

ولعلك تدرك معي مدى عذرية عنترة في حبه لعبلة إذ هو لم يصف محاسنها الجسدية مباشرة وإنمـا صورها بمشبهات من جماليات الطبيعة من حوله أما ما وصفه فيها من بياض الأسنان وعذوبة الفم فإن ذلك ممـا يتيسر على الناظر وصفه والحكم عليه ، وبعد فإن ذلك الجمال الرائع جعل من وفاء عنترة صورة أخرى وهي :

٤ - استحضار صورة الحبيب في أحلك الظروف :

لقد بلـغ من وفاء عنترة في حبه لعبلة أن يستحضر صورتها في أحلك الظروف وأشدها في ساحة الوغى وفي الوقت الذي لا سبيل فيه إلى التذكر إلا أن وفاء عنترة فوق ذلك كله :

ولقـد ذكـرتك والـرماح نـواهل مـني وبـيض الهـند تقطـر مـن دمي
فوددت تقبيـل السيوف لأنـها لمعـت كبـارق ثغـرك المتبسـم

وأيـن من الرجال الصناديد من يذكر حبيبه في أوقات عصيبة كهذه إلا عنترة الوفي في حبه المخلص مع أحبابه ؟!

إن البيـتين السـابقين مـن أجمـل أبـيات الغزل في الشعر العربي على الإطلاق ذلك لأن الشـاعر تذكر حبيبته ، وطاف خيالها بذاكرته وهو في أشق الظروف وأضنكها إلا أنه أحب بريق السيوف ولمعانها لأنها ذكرته بثغر عبلة البسّام .

---

(١) أحمد عبد الله فرهود – المعلقات العشر – ص : ٧٣ .

٢ - الصبر :

مظهر آخر من مظاهر الشجاعة في معلقة عنترة وقد جاء على الصور التالية :

١ - تحمل شدائد الحروب والأسفار :

وقد تمثلت هذه الصورة عند عنترة في معلقته من خلال وصفه لناقته وفرسه في حروبه وأسفاره ونحن نعلم أن وصف الناقة والفرس عند الشاعر الجاهلي " مظهر من مظاهر القوة والشجاعة وهو بالنسبة للبطل شيء مهم وربما أهم من نفسه وأهله "[١] وكثيرًا ما كان يضفي عليهما صفة إنسانية كما سترى لاحقًا .

يقول عنترة :

تمسي وتصبح فوق ظهر حشية ... وأبيت فوق سراة أدهم ملجم

وحشيتي سرج على عبل الشوى ... نهد مراكله نبيل المخزم

هل تبلغني دارها شدنية ... لعنت بمحروم الشراب مصرم

خطارة غب السرى موارة ... تطس الإكام بذات خف ميثم

ولك أن تتخيل معي مدى صبر عنترة وتحمله لشدائد الحروب والأسفار من خلال وصفه لفرسه في الأبيات السابقة مرجئًا وصفه للناقة إلى موضع آخر من هذه الدراسة .

إن وصف عنترة لفرسه فيما سيرد من أبيات ينبئ عن صورة أخرى من صور الصبر ألا وهي :

٢ - الكر والإقدام في الحرب :

حيث يقول عنترة في معلقته :

لما رأيت القوم أقبل جمعهم ... يتذامرون كررت غير مذمم

يدعون عنتر والرماح كأنها ... أشطان بئر في لبان الأدهم

ما زلت أرميهم بثغرة نحره ... ولبانه حتى تسربل بالدم

فازور من وقع القنا بلبانه ... وشكا إلي بعبرة وتحمحم

لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ... ولكان لو علم الكلام مكلمي

---

(١) د . السيد محمد الديب – دراسات في الأدب الجاهلي – ص : ٣١ .

ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها ... قيل الفوارس ويك عنتر أقدم
والخيل تقتحم الخبار عوابسا ... ما بين شيظمة وأجرد شيظم

إن عنترة عندما سمع القوم يحض بعضهم بعضًا ما كان أمامه إلا أن يكر ويقدم محمود القتال شجاعًا في حالة كان القوم فيها يستصرخونه وهو في ساحة الوغى يحارب العدو حتى تسربل نحر فرسه بالدم وهنا تمايل الفرس وصهل صهيلاً يشبه الحنين ليرق له قلب صاحبه إلى الدرجة التي لو كان يعلم المراجعة في الكلام لتكلم .

وهنا يكون عنترة قد اتخذ من الفرس أداة صالحة جدًا ليوصل إلى متلقي شعره وأولهم عبلة أنه الفارس الشجاع الصبور المقدام ولعبلة أن تسأل شاهد الوقيعة (الفرس) الذي كان لصيق عنترة في ساحة الوغى والذي لو استطاع الكلام كما يتكلم البشر لكان خير شاهد لعنترة .

إن معركة يزوّر فيها الفرس ويتسربل ثغره بالدماء وتعبس فيها الخيل وهي تقتحم أرض المعركة لا يثبت بها إلا رجل صبور شجاع كعنترة بن شداد .

٣ - الصبر بتجنب الإساءة :

صورة وضاءة أخرى من صور الصبر لدى عنترة بن شداد خاصة عندما تقرأ قوله :

الشاتمي عرضي ولم أشتمهما ... والناذرين إذا لقيتهما دمي

كأن عنترة بصبره هذا وتجنبه الإساءة يعطي إشارة واضحة بأن عنترة كان يوقن بأن الشديد ليس بالصرعة وإنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب .

٤ - الصبر على المكروه والثبات في مواطن الخوف والشدة :

وهذه صورة أخرى من صور الصبر الشجاع عند عنترة إذ " الصبر على المكروه لا يستطيعه كل أحد ، وليست صفة هينة يدعيها من يشاء فإن الجريء الجلد يقشعر من هولها ويجف قلبه إن بلغها ولكنه يصبر لها حفاظًا على سمعته "[1]يقول عنترة:

ولقد حفظت وصاة عمي بالضحى ... إذ تقلص الشفتان عن وضح الفم
في حومة الموت التي لا تشتكي ... غمراتها الأبطال غير تغمغم
إذ يتقون بي الأسنة لم أخم ... عنها ولكني تضايق مقدمي

(١) د . عبد الخالق الزهراني – العقيق – مج١٣، ع٢٦،٢٥ – ١٤٢٠هـ – ص : ٢٣ .

٣ - النكاية في الأعداء :

مظهر آخر من مظاهر شجاعة عنترة بن شداد تجسدها لنا هذه الأبيات من المعلقة حيث يقول :

ومدجج كره الكماة نزاله ... لا ممعن هربا ولا مستسلم
جادت يداي له بعاجل طعنة ... بمثقف صدق الكعوب مقوم
برحيبة الفرعين يهدي جرسها ... بالليل معتس الذئاب الضرم
فشككت بالرمح الأصم ثيابه ... ليس الكريم على القنا بمحرم
فتركته جزر السباع ينشنه ... ما بين قلة رأسه والمعصم

انظر إلى ذلك الرجل الشجاع المدجج بالسلاح المستعد بسلاحه المقدام في الحرب الثابت في اللقاء كيف رماه عنترة بالرمح القوي الصلب المتين ذي العقد فطعنه طعنة يدل صوتها الذئاب الجائعة الساهرة ليلاً طلبًا للفريسة وهذا ما يلقاه ويتعرض له كل فارس كريم في قومه . لقد تركه عنترة غنيمة للسباع ينهشن جسده .

إلا أن عنترة بن شداد مع ذلك كله يحمل بين جنبيه شجاعة النبلاء حيث كان من أرق الناس في المواطن التي تحسن فيها الرقة وأبعدهم من الطغيان وأحرصهم على الرحمة والرفق بكل مخلوق ، لقد سمعته قبل قليل يعترف بكرامة خصمه " ليس الكريم على القنا بمحرم " "وحسبك الآن أن تصغي إليه وهو يناجي جواده الجريح مناجاة الصديق العطوف ، فيخيل إليك أن حصانه يتكلم معه بلا صوت ويبكي بين يديه بلا دموع " [1] :

فازور من وقع القنا بلبانه ... وشكا إلي بعبرة وتحمحم
لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ... ولكان لو علم الكلام مكلمي

٤ - الكرم :

مظهر شجاع آخر يرد في معلقة عنترة في صورتين :

١ - شرب الخمر :

إن شرب الخمر في الجاهلية عند من كان يشربه منهم أمثال عنترة بن شداد يعد صورة من

(١) د . غازي طليمات – الأدب الجاهلي – ص : ٤١١ .

صـــور الكـــرم في حسبانهم وإنما عد الكرم مظهرًا من مظاهر الشجاعة هنا لأن الرجل يقهر نفسه بأنفـــاق ماله لشراء الخمر ونحوه ، ويبدو أن عنترة وإن كان يفاخر بشربه الخمر إلا أنه لم يكن من أولـــئـــك الذين كانوا يتهالكون على شربه إلى درجة أنه لا يشربه إلا بعيدًا عن أعين الناس ولعله كان يوقـــن بأنه يحط من مقام الرجال العقلاء إلا أنه مع ذلك شاب كبقية الشباب الذين يرون في شربه رمــــــز الكرم ويمكنك أن تسرح بخيالك مع هذه الأبيات وتفكر مليًّا فيما ذكرته لك :

يقول عنترة :

ولقـــد شـــربت مـــن المدامـــة بعـــدما ... ركـــد الهواجـــر بالمشـــوف المعلـــم

بــــزجاجة صــــفراء ذات أســــرة ... قـــرنت بأزهـــر في الشـــمال مفـــدم

فـــإذا شـــربت فـــإنني مســـتهلك ... مـــالي وعرضـــي وافـــر لم يكلـــم

وإذا صحـــوت فمـــا أقصـــر عـــن نـــدى ... وكمـــا علـــمت شمائلـــي وتكـــرمـــي

إنـــه يستهلك ماله في شرب الخمر عند حلول المساء أو عندما يركد الناس من حر الظهيرة لكنه مع ذلك حريص على سمعته صائن لعرضه .

ولكـــن عنتـــرة بـــن شـــداد يعلم أن هناك مبدأ عامّ في مجتمعه الجاهلي مفاده أن العرب الجـــاهلـــيين " رأوا أن الخمـــر لا يجدر بها غير الشجاع المقدام ، أما الرعديد الجبان فغير خليق بأن يشرب إلا المرق ، قال عمرو بن جبلة بن باعث بن صريم في يوم ذي قار يحض قومه على القتال [١]:

يا قوم لا تغرركم هذي الـــخرق ... ولا وبـــيص البيض في الشمس برق

من لم يقاتل منكم هذا العُنـــــق ... فجنبـــوه الراح واسقوه المـــرق[٢]

٢ - كثرة الإنفاق والبذل :

صـــورة أخـــرى من صور الكرم الشجاع وهي صورة أعلى بها عنترة من مكـــانة خصمه الـــذي قتله ليؤكد أن مقتوله ليس مجرد إنسان عادي وإنما هو بطل شهير سريع في تقليب قـــداح الميسر كثيرًا ما يلومه العذّال لكثرة إنفاقه وبذله :

ومشـــك ســـابغة هـــتكت فـــروجها ... بالســـيف عـــن حامـــي الحقـــيقة معلـــم

ربـــذ يـــداه بالقـــداح إذا شـــتا ... هـــتاك غايـــات الـــتجار ملـــوم

(١) د . أحمد محمد الحوفي – الحياة العربية من الشعر الجاهلي – ص : ٣٣٨.

(٢) وبيض : لمعان العنق . الـــــراح: الخمـــــر . المرق : الماء أُغلي فيه اللحم فصار دسمًا . .

لما رآني قد نزلت أريده   أبدى نواجذه لغير تبسم
فطعنته بالرمح ثم علوته   بمهند صافي الحديد مخذم

هذه هي شجاعة عنترة بكل مظاهرها وصورها أضعها بين يديك لتعرف أن الشجاعة مطلب صعب ومسلك وعر لا يقصده إلا الرجال الأقوياء في عقولهم وأجسامهم وآرائهم أما الشدة الحيوانية العنفوانية فما أسرع أن تتهاوى أركانها !

(جـ) العدل :

إذا كان العدل : حالة للنفس وقوة بها تسوس الغضب والشهوة وتحملها على مقتضى الحكمة وتضبطها في الاسترسال والانقباض على حسب مقتضاها . كما تقدم معنا فإن نفس عنترة بن شداد كانت تسيطر عليها هذه النزعة خاصة إذا ما نظرنا إلى شخصه كإنسان حرم من العدل من لدن مجتمع ظالم لا يؤمن إلا بمبادئه حتى وإن كانت ظالمة .

لقد عانى عنترة من الرق والعبودية والظلم كثيرًا إلى الدرجة التي جعلته يصرخ صرخة عارمة في وجه الظلم والطغيان لينادي بالعدل الذي حرم منه هو وأمثاله ليس لسبب إلا لأنهم سود الجلود، فآمن بأهميته لأن النار لا تحرق إلا رجل من يطأها لذلك نجد عنترة ضمن معلقته رسائل متنوعة وجهها إلى كل من يجهل أهمية العدل من قريب أو بعيد .

نعم لقد أخذ هذا الأصل الخلقي بمختلف مظاهره الحيز الأكبر من معلقة عنترة حتى أنه كاد ينفرد بنص المعلقة كاملاً فما كان أمامي إلا أن أحاول إجمال تلك المظاهر الكثيرة في الآتي :

١ - سماحة السجايا وطيب المعشر دون الاستكانة للظلم :

إن من يدقق في قراءة معلقة عنترة بن شداد يجدها مقاطع " توحدت برابط متين جمع أطرافها بعضها إلى بعض وهذا الرابط هو إثبات الذات المهتزة في نظر الحبيبة والقبيلة معًا ولذلك راح عنترة يؤكد ذاته عن طريق البطولة والشجاعة والافتخار بمزاياه النفسية التي يفتقدها الكثيرون"(١) وقد كان فقدان العدل أحد الفضائل الإنسانية التي جعلت عنترة يهتز أمام الجميع حتى أمام نفسه رغم شجاعته وإقدامه أليس هو القائل عندما طلب منه أبوه الكر على الأعداء:" العبد لا يحسن الكر إنما يحسن الحلاب والصر "(٢).

(١) د . مفيد قميحة – شرح المعلقات العشر – ص : ٣٠١.
(٢) الأصفهاني – الأغاني – ج٨ / ٢٤٦ .

إن فقدان عنصر العدل هو ما جعل عنترة بن شداد يحتشد أمام مجتمعه الممثل في عبلة ابنة عمه منـــــاديًا بالعودة إلى إحياء العدل المفقود ، فكان أول ما رأى أن من العدل أن يكون المرء سمح الســـجـــايا طيب المعشر مع الناس مع ضبط النفس في ذلك وعدم الاستكانة للظلم فقال مخاطبًا مجتمعه الممثَّل في شخـــص عبلة :

أثـــني علـــي بمـــا علمـــت فـــإنني ســــــهل مخـــــالقتي إذا لم أظلــــــم
فإذا ظلمـــت فإن ظلمـــي باســــل مــــــر مذاقتـــــه كطعـــــم العلقـــم

٢ – السيطرة على الغرائز في مجتمع يصعب فيه كبح الغرائز والشهوات :

لقد رأى عنترة أن رسالته في الدعوة إلى العدل المفقود لن تتحقق إلا إذا بدأ بنفسه وأوجد فيها الحالة التي تسوس الغضب والشهوة وهذه الحالة هي العدل بعينه فرأى أن من العدل ألا يسرف إذا شـــرب وألا يعـــربد إذا طرب فهو في سكره – كأعنف ما يكون عليه العربي الجاهلي من حالة اللامبالاة – نجـــــده لا يدع للخمر سلطانًا على خلقه وعقله :

يقول :

فــــإذا شــــربت فــــإنني مســــتهلك مــــالي وعرضــــي وافــــر لم يكلــــم
وإذا صحــــــوت فـــا أقصـــر عن ندى وكمــــا علمت شمائلـــــي وتكرمي

إنـــه يرى أن من العدل الحرص على السمعة وصيانة العرض دون أن يــــدع للخمر حرية العبث بعقله .

وسيتضـــح هـــذا المظهـــر جليًّا فيما سيعقبه من مظاهر ترى فيها مدى ضبط النفس والسيطرة على الغرائز .

٢ – الإقدام في الحرب والعفة عند المغنم يقول عنترة :

يخـــــبرك مـــــن شهـــــد الوقيعة أنني أغشـــــى الوغـــى وأعـــف عند المغنم

ها هو عنترة يخاطب عبلة ليخبرها أن من عدل الفارس الشهم أن يسوس نفسه ويضبطها .

لقد أقدم في الحرب إقدام الشجعان صابرًا على تحمل ويلات الأعداء فمن العدل أن يضبط نفسه ويكبـــح جماحها عندما يأتي وقت توزيع الغنائم ومغانم الحرب ليأخذها من هو أحوج منه إليها إنه العدل المفقـــود الذي يجب أن يتحلى به كل من يعايش عنترة ويقاسمه أسباب الحياة .

٤ – الاعتراف بندية الخصم والرفع من قدره رغم عداوته :

إن إيمـان عنتـرة بأهمية العدل المفقود جعله ينادي به حتى مع الأعداء " فهو يرفع من قدر خصمه ، فيدعوه كريمًا ويقول إنه مات ميتة الأبطال الشرفاء في ساحة القتال "[١].

حيث يقول :

ومـدجج كـره الكمـاة نـزاله ... لا ممعـن هـربا ولا مستسـلم

جـادت يـداي لـه بعاجـل طعـنة ... بمـثقف صـدق الكعـوب مقـوم

بـرحيبة الفـرعين يهـدي جرسـها ... بالليـل معـتس الـذئاب الضـرم

فشككت بالرمـح الأصـم ثيابـه ... لـيس الكـريم على القـنا بمحـرم

٥ – ضبط النفس على الحب الطاهر العفيف والترفع عن الغايات الجسدية :

إنـنا عـندما نقـرأ شعر عنترة لا نرى فيه وصفًا حسيًا لجسم المحبوبة ولكنه " استحضره بلمسـات توحـي بالشكل إيحاء ، ويقوم الخيال باستحضار البقية "[٢] ولخيالك أن يستحضر ما تكون عليه عبلة من جـمال جسمـي وأنت تقـرأ قـوله :

إذ تسـتبيك بـذي غـروب واضـح ... عـذب مقـبله لذيـذ المطعـم

وكأنمـا نظـرت بعـيني شـادن ... رشـأ مـن الغـزلان لـيس بـتوأم

وكـأن فـأرة تاجـر بقسـيمة ... سـبقت عوارضـها إلـيك مـن الفـم

أو روضـة أنفـا تضـمن نبـتها ... غـيث قلـيل الـدمن لـيس بمعلـم

جـادت علـيها كـل عـين ثـرة ... فتـركن كـل حديقـة كالـدرهم

وخـلا الـذباب بهـا فلـيس بـبارح ... غـردا كفعـل الشـارب المتـرنم

هـزجا يحـك ذراعـه بذراعـه ... قـدح المكـب علـى الـزناد الأجـذم

تمسـي وتصبـح فـوق ظهـر حشيـة ... وأبيـت فـوق سـراة أدهـم ملجـم

ولك أن ترجع إلى شرحنا السابق لهذه الأبيات إن أعياك الفهم ، أو صعب عليك المراد .

---

(١) د . شوقي ضيف – العصر الجاهلي – ص : ٣٧٢ .

(٢) بلاشير – تاريخ الأدب العربي – ص : ٤٤٧ .

٦ - تجنب إساءة الخصم اعترافًا بأسبقية الخطأ :

لقـــد رأى عنترة أن من العدل تجنب إساءة الخصم وما ذلك الترفع من عنترة عن ذلة أو عدم مقدرة ولكنه رأى أن من العدل أن تفرغ شحنة غضب الخصم أليس شتم ابني ضمضم له سببه قتله لأبيهما والنكاية به وتركه غنيمة للسباع؟ فلا بأس من ضبط النفس والصبر على ما وجهاه له من شتائم :

الشـــــاتمي عرضــــي ولم أشــــتمهما   والــــــناذرين إذا لقيـــــتهما دمـــــي
إن يفعـــلا فلقـــد تـــركت أبـــاهـــما   جزر السبـــاع وكـــل نســـر قشعـــم

٧ - الجود بالمال والضن بالعرض :

إذا كـــان العدل "يعني الإنصاف وهو إعطاء المرء ما له وأخذ ما عليه " [١] فقد تجلى العدل عـــند عنترة في أبين مظاهره وهو يجود بماله الكثير في صحوه وسكره لكنه مع ذلك حسن السمعة مصـــون العـــرض لقد رأى أن العدل يحتم عليه أن يكون للناس المحتاجين نصيب في ماله لكن ليس على حساب سمعته وعرضه وفي ذلك يقول :

فـــإذا شـــربت فـــإنني مســـتهلك   مـــالي وعرضــــي وافـــر لم يكلـــم
وإذا صحوت فمـــا أقصـــر عـــن نـــدى   وكمـــا علمـــت شمائلـــي وتكـــرمـــي

٨ - جبروت مع الأعداء ورأفة مع الأصدقاء :

وكـــم كان عنترة بن شداد عادلاً منصفًا وهو يعطي ما عليه من حقوق في الدفاع عن القبيلة فيفتك بأعدائه أشد الفتك :

في حـــومة المـــوت الـــتي لا تشتكي   غمـــراتها الأبطـــال غـــير تغمغـــم
إذ يـــــتقون بي الأســـــنة لم أخـــم   عـــنها ولكـــني تضـــايق مقدمـــي
ولقـــد هممـــت بغـــارة في لـــيلة   ســـوداء حالكـــة كلـــون الأدلم
لمـــا سمعـــت نـــداء مـــرة قـــد عـــلا   وابـــني ربـــيعة في الغـــبار الأقـــتم
ومحلـــم يســـعون تحـــت لـــوائهم   والمـــوت تحـــت لـــواء آل محلـــم
أيقنـــت أن سيكـــون عنـــد لقائهـــم   يطـــير عـــن الفـــراخ الجثـــم

---

(١) المعجم الوسيط – ج٢ / ٥٨٨.

لكـــن مـــا تلـــبث تلك النفس الشجاعة الفاتكة بالأعداء أن يدعوها داعي العدل فتأخذ في التنازل شيئا فشيئا في سلم هيجان الغضب إلى أن تصل إلى درجة اللين والرأفة حتى مع الحيوان إنه " رقـــيق على فرســـه يألم لألمه ، ويشقى لشقائه ، ويرى بكاءه ، ويسمع توجعه حين تعبث به رماح الأعداء ، ويجعل نفسه ترجمانًا له " [1] فيقول :

فـــازور مـــن وقـــع القـــنا بلـــبانه   وشـــكا إلي بعـــبرة وتحمحـــم

لـــو كان يدري ما المـــحاورة اشتكـــى   ولكـــان لـــو علـــم الكـــلام مكلمـــي

إن صـــوت العـــدل الذي يصرخ بداخل نفس عنترة دعاه إلى ترك الجور وعدم الكبر وعدم الـــتعالي والجـــبروت لأنه مهما بلغ من قوة فلا يزال مسلوبًا من تلك النعمة – نعمة العدل – فمن العـــدل المواساة ومن العدل الرحمة ومن العدل الرأفة ، وبالتالي كل مظاهر العدل السابقة مـــا هي إلا رســـائل موجهة من عنترة إلى مجتمعه عمومًا وإلى عبلة على وجه الخصوص ومن العدل أن تقدر عبلة حبه لها واعتذاره من الزيارة لانشغاله بالحرب :

إني عـــداني أن أزورك فـــاعلمـــي   مـــا قـــد علمـــت وبعـــض مـــا لم تعلمي

٩ – سياسة الغضب والشهوة وحملها على مقتضى الحكمة :

وهذا المظهر هو العدل بعينه وقد بلغ عند عنترة الذروة وهو يقول :

علقتها عرضا وأقتـــل قومهـــا   زعما لعمـــرو أبيـــك ليس بمزعم

قال ابن الأنباري [2] : " معناه علقتها وأنا أقتل قومها ، فكيف أحبها وأنا أقتلهم أم كيـــف أقتلهم وأنا أحبها ، ثم رجع مخاطبًا لنفسه فقال : " زعمًا لعمرو أبيك ليس بمزعم " أي هذا فعل ليس بمـــثـــل فعلـــي " وذكر التبريزي : " ليس بفعل مثلي " [3] فكأنه يقول : ليس من العدل أن أحبها وأقتل قومها فيكون بذلك ينكر على نفسه فعلته " وأقتل قومها؟!"

١٠ – الإحساس بالحرية المسلوبة مع ضبط النفس :

لقد عانى عنترة من الظلم كثيرًا فكان من حقه بل من العدل الإنساني أن يحس بتلك الحرية التي سلبت منه زمنًا طويلاً فكانت عودتها إليه بمثابة عودة العافية إلى الجسد المريض ورغم ذلك كله

---

(١) د. طه حسين – حديث الأربعاء – ج١ / ١٥٠.

(٢) ابن الأنباري – شرح القصائد السبع – ص : ٣٠١ .

(٣) التبريزي – القصائد العشر – ص : ١٨١ .

رأى عنترة أن من العدل ضبط النفس وعدم إعطائها حريتها المطلقة لأنه يدرك أن النفس إذا جمحت أوردت صاحبها موارد الهلاك ، ولنستمع إلى عنترة الفوارس وهو يترجم ذلك كله بقوله :

ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها قيل الفوارس : ويك عنتر أقدم

والخيل تقتحم الخبار عوابسا ما بين شيظمة وأجرد شيظم

ذلل ركابي حيث شئت مشايعي لبي وأحفزه بأمر مبرم

لقد أذهبت صيحات الأبطال لعنترة بالاستحسان والإعجاب كلَّ ما كان يحسه من نقص في نفسه إلا أنه لم يعط نفسه هواها وإنما ضبط إحساس نفسه بالحرية عندما خاف منها الجموح بضابط العقل الذي يسوس أمره ويصرف شؤونه .

بمظاهر العدل السابقة جميعها استطاع عنترة أن يحقق مبدأ العدل الذي جعل فيه " معنى الرجولة العربية الكاملة فهو رقيق دون أن تنتهي الرقة به إلى الضعف ، وهو شديد دون أن تنتهي الشدة به إلى العنف وهو صاحب شراب دون أن ينتهي به السكر إلى ما يفسد الخلق والمروءة، وهو صاحب صحو دون أن ينتهي به الصحو إلى التقصير عما ينبغي للرجل الكريم من العطاء والندى ، وهو مقدم إذا كانت الحرب وهو عفيف إذا قسمت الغنائم "[(١)] .

(د) العفَّة :

إذا كانت فضيلة العدل قد أخذت نصيبًا أوفى من معلقة عنترة بن شداد فإن العفة أيضًا إحدى الفضائل الإنسانية الأربع التي كان لها حضور واضح في معلقته تمثل في المظاهر الآتية :

١ - الترفع عن مغانم الحرب عند اقتسام الأسلاب :

يقول عنترة :

يخبرك من شهد الوقيعة أنني أغشى الوغى وأعف عند المغنم

إنه يخوض غمار المعركة بكل ضراوة لكنه يكف طمعه عند اقتسام أسلاب الأعداء وما ذلك منه إلا عفة فيما يطمع غيره فيه ممن تفغر قلوبهم قبل أن تفغر أفواههم .

٢ - الرغبة عن كل ما يخالف هوى النفس :

ونجد هذا المظهر في قول عنترة :

شربت بماء الدحرضين فأصبحت زوراء تنفر عن حياض الديلم

---

(١) د. طه حسين – السابق – ج١/ ١٥١ .

وكأنما ينأى بجانب دفها ... الوحشي من هزج العشي مؤوم
هر جنيب كلما عطفت له ... غضبى اتقاها باليدين وبالفم

لقد انفرد عنترة بن شداد من بين شعراء المعلقات بكون وصفه للناقة صورة من صور العفة ولم تكن مظهرًا من مظاهر الشجاعة والفروسية فقط كما عند شعراء المعلقات الآخرين .

إن عنترة في الأبيات السابقة " يومئ بذلك إلى اتفاق هوى ناقته مع هواه فهو لم يعد يطيق انتظارًا في ديار بني عبس فقد ارتهن قلبه من تحملوا فسرى في إثرهم عازفًا عن سواهم بعيد العزوف وهاهي ذي ناقته تعزف عن مياه الديلم – والديلم كما في معجم البلدان اسم ماء لبني عبس[1] و" تزور راغبة عنها إلى حيث هوى صاحبها " [2] .

لقد استطاع عنترة أن ينقل إلينا من خلال قناة صالحة جدًّا ــ ناقته ــ خلقًا حميدًا يتمتع به وهو الابتعاد والترفع عن كل ما يخالف النفس والضمير والعقل والترفع عنه ، وبهذا يتأكد لنا أن عنترة اتخذ من الناقة أوالفرس بدائل أو قنوات صالحة يتكلم من ورائها " فهو لا يتعامل معها كطقوس شعرية قديمة وإنما يتعامل معها باعتبارها "ممثلاً شخصيًّا " لحالة من حالاته المتعددة "[3].

٣ – غض البصر :

لقد أحب عنترة في عبلة مظهرًا عفيفًا يتمثل في غض البصر وكفه عما لا يحل النظر إليه رغم أنها فتاة لم تتزوج بعد وهذا يدل على عفتها وحيائها الفطري فيها وفي المرأة العربية على وجه العموم وهو مما يحبب الرجال في النساء وفي هذا يقول عنترة :

دار لآنسة غضيض طرفها ... طوع العناق لذيذة المتبسم

٤ – العذرية في الحب :

إن عفة عنترة بن شداد في حبه لعبلة يجعلنا نعده من شعراء الغزل العذري ويتضح ذلك من خلال قوله :

ولقد نزلت فلا تظني غيره ... مني بمنزلة المحب المكرم

وقوله :

---

(١) ياقوت الحموي – معجم البلدان : ٣٦٩/٤.

(٢) د. وهب روميه – الرحلة في القصيدة الجاهلية – ص : ٣٧٠ .

(٣) د . عبده بدوي وآخران – الأدب وروح العصر – ص : ٢١ .

يـــا شـــاة مـــا قـــنص لمـــن حلـــت له   حـــــرمت علــــي وليـــــتها لم تحـــــرم
فبعثـــت جـــاريتي فقلـــت لهـــا اذهبي   فتجسســـي أخبــــارها لــــي واعلمــــي

فهو في البيت الأول " يعلن ارتباط قلبه وعواطفه بفتاة واحدة والإخلاص لها وحدها "[١].

ثم نجـــده بعد ذلك ينادي عبلة ويشبهها بالشاة أو المهاة ويتشهى عليها ويود لو أنها لم تحـــرم علـــيه بزواجها غيره إلى أن بلغت به عفته إلى أن يرسل جاريته لتتفقد أخبار عبلة ولم يقم هو بذلك رغم شجاعته وإقدامه لأن عفته الفطرية فيه وقفت أمام جموح النفس وشهواتها.

وقـــد يســـأل ســـائل فيقول : وأين العذرية في الحب ، وأين غض البصر من شاعر كعنترة يذكـــر أن محبوبته (طوع العناق ، لذيذة المتبسم) وما مفهوم اللذة عنده ؟

أقول : إن عنترة بن شداد في نظمه لمعلقته بكاملها إنما كان أمام اختبار صعب يجب أن يثبت فـــيه جدارته في الشعر كما أثبت جدارته في الحرب وقد "كانت النزعة الغالبة في الشعر الجاهلي في مجـــــال الغـــزل أن تكـــون الأوصاف الحسية للمرأة هي المجال الذي تتردد فيه أفكار الشعراء والمـــوطن الـــذي يحومـــــون حوله فيتنافسون في إجادة الوصف وابتكار الصورة ويتفننون في ذلك ويختـــرعون "[٢] ولـــيس ببعيد أن يكـــون ذلك الوصف الحسي من عنترة للمرأة إنما هو من باب إظهـــار القـــدرة على إجادة الوصف وابتكار الصورة والتفنن في الاختراع ، وبذلك يكون مفهوم قـــولـــــه: (طـــوع العـــناق ولذة المتبسم) لدى عنترة مفهومًا عامًا يتعاوره الشعراء في وصفهم الحسي للمرأة سعيًا وراء إجادة الوصف وابتكار الصورة.

ويجـــب أن نعلـــم أن المـــرأة من النماذج الجمالية التي يجب أن يبدع الشاعر الجـــاهلي في تصـــويرها وتقديمها تقديمًا خاصًا ، وقد يعبر ذلك التصوير عن واقع الشاعر ، وعن حقائق حياته ، ولكـــن الجمـــال في الفـــن يكتسب طابعه وإطاره وعناصره – في المقام الأول – من الفن نفسه ، فالشاعر " يتجاوز المحسوسات من حيث وجودها العياني القائم إلى الرموز المجردة من كل ما للشيء المحســـوس من خصائص وصـــفات ... فعالم الأفكار – وهو بطبيعته غير واقعي – يحاول أن يصبح واقعيًا بمعانقته للأشياء والبروز من خـــلالها لكن هذه المعانقة ليست فناء للفكرة في الشيء أو مجرد تحول الفكرة إلى (شيء) أي انتقـــالاً كليًا مـــن اللاواقع إلى الواقع بل على العكس تظل الفكرة

---

(١) عبد القادر محمد مايو – ديوان عنترة بن شداد – ص : ٢٢٨، ٢٣٢ .
(٢) د. مصطفى عبد الواحد – دراسة الحب في الأدب العربي : ١٦/١.

في ذاتهـا هـناك بلا واقعيتها وإن تراءت لنا واقعية من خلال ما تعانق من أشياء واقعة . ومن هنا كانـت (الصورة) دائمًا غير واقعية وإن كانت منتزعة من الواقع لأن الصورة الفنية تركيبة عقلية تنتمي في وجودها إلى عالم الفكرة أكثر من انتمائها إلى عالم الواقع "[1] ويكفي عنترة عذرية في الحب أنه رغم حرصه على إظهار براعته الشعرية في جميع أغراض الشعر بما فيها الغزل وما فيه من تصوير حسـي للمـرأة لم يكن مجحفًا كامرئ القيس مثلاً ، وإنما كـانت عفته تمنعه من الفحش في وصف المرأة ، والدليل على صحة هذا القول أننا نراه يكني عن محبـوبته بشـاة القنص .

٥ – ذمُّ الجحود :

وأخيرًا نجد أن من مظاهر العفة العنترية " ذم الجحـود " ويظهر ذلك من خلال قوله :

نبئـت عمـرا غـير شاكـر نعمـتي والكفـر مخبثـة لنفـس المنعـم

إن إقرار عنترة بأن كفر النعمة وجحودها وعدم شكرها مخبثة لنفس المنعم لدليل قاطـع علـى أن عنترة يعف بنفسه ويترفع بها عن كفر النعمة وعدم شكرها لأنه يؤمن بأن جحود المعروف والإحسان وكفرانهما ينفّر المحسن والمنعم من فعل الخير .

وأخيرًا نقول :

هذا هو عنترة بن شداد الفارس العربي الذي كان يمثل مكارم الأخلاق العربية المرضي عنها في معظمها .

إنها أخلاق الإنسان الفارس في كل زمان ومكان ، تلك الأخلاق الإنسانية التي تضع الرجل في مصـاف الـرجال العظماء ، العظماء في أخلاقهم وإنسانيتهم ، ومن ثم العظماء في أفعالهم التي كانت هذه الأخلاق الموجه الدائم وراء كل صغيرة وكبيرة من تلك الأفعال والأعمال العظيمة التي سجلها التاريخ بحروف من نور .

---

(١) د . عز الدين إسماعيل – التفسير النفسي للأدب – ص : ٥٧-٦٦ .

الإطار الخلقي لمعلقة الأعشى

معلقـة : الأعشي *

إضـاءة :

أما المعلقة التي نحن بصدد تحديد الإطار الخلقي لها الآن فهي معلقة الأعشى " ميمون بن قيس بـن جندل ... سمي أيضًا أعشى بكر ، والأعشى الكبير ، وكني بأبي بصير ، وكانت العرب تسميه صـناجة العرب . أدرك الإسلام في آخر عمره ، ورحل إلى النبي الكريم يريد الإسلام فلما أتى مكة قـيل له : إنه يحرم الخمر فقال : أتمتع بها سنة ثم أسلم فمات قبل ذلك في قرية من قرى اليمامة "[١] وليس الخوض في تاريخ حياته موضوع حديثنا الآن ولكن رأينا أن في بعضها خيوطًا ربما توصلنا إلى إمكانية التفسـير السليم لبعض المظاهر الأخلاقية في معلقته .

وقد اعتبره بلاشير من الشعراء الجوابين فقال :" وقد جسد الأعشى في نظر الأجيال التالية الشاعر المداح الجواب الذي قضى حياته الشعرية لحماية ممدوحيه ، ففي النصوص الشعرية إشارات عديدة إلى أسمـاء الأماكن التي ارتادها في أسفاره "[٢].

نشأ الأعشى في اليمامة " وفي قرية من هذه القرى اسمها (منفوحة) عاشت أسرة الأعشى عيشًـا ينأى عن البداوة ، ويقرب من الاستقرار "[٣] إلا أن هذه النشأة كانت نشأة غير المياسير مما اضطره إلى التكسب بشعره والسفر إلى أماكن كثيرة متخذًا من شعره متجرًا كما سنعرف لاحقًا . وقـد عـده ابن سلام الجمحي من شعراء الطبقة الأولى و" هو أكثرهم عروضًا وأذهبهم في فنون الشعر ، وأكثرهم طويلة جيدة ، وأكثرهم مدحًا وهجاءً وفخرًا ووصفًا ، كل ذلك عنده "[٤].

أمـا عن معلقة الأعشى التي بين أيدينا فقد أضافها التبريزي ضمن المعلقات التي أصبحت عـنده عشـرًا ولذلك اعتمدنا في دراستنا على نص المعلقة كما ورد عنده في كتابه شرح القصائد العشر[٥].

وقد نظرت إلى ديوان الأعشى بمختلف دور طباعته فوجدت أن معلقة الأعشى هذه ليست أطول

---

* الأبيات في التبريزي – شرح القصائد العشر – ص : ٢٨٨ .

(١) د. عفيف عبد الرحمن – معجم الشعراء – ص : ٢٢ .

(٢) بلاشير – تاريخ الأدب العربي – ص : ٣٥٦.

(٣) د. غازي طليمات وعرفان الأشقر – الأدب الجاهلي – ص : ٣٢٢ .

(٤) محمد بن سلام الجمحي – طبقات فحول الشعراء – تحقيق محمود شاكر – السفر الأول – ص : ٦٥.

(٥) التبريزي – شرح القصائد العشر – ص : ٢٨٨.

قصائد الديوان وإنما هي أوفاها حظًّا من الجودة وأحفلها بأغراض الشعر وأوثقها صلة بحياة الشاعر ولعـــل هذا سبب كافٍ للتبريزي حين عدّها من المعلقات العشر الجياد . و" هذه القصيدة تحتوي على فيــض مــن الصور والتشابيه والأوصاف الدقيقة لمفاتن المرأة ، وحوار الحب ، والحديث عن مجــالس الشــراب مـــع أصحابه والقيان ، حتى كاد الموضوع الرئيسي الذي ورد في القصيدة والــذي أراد بــه الهجــاء الموجه إلى يزيد بني شيبان ولوم الشاعر له وافتخاره على قومه بالحرب والانــتهاء بالوعــيد والــتهديد بالثأر كاد هذا الموضوع يأتي باهتًا.. وطغت عليه مقدمات الغزل والتشبب ووصف مجالس الشراب "[١].

ومعلقة الأعشى أكثر المعلقات شبهًا بمعلقة امْرئ القيس وربما كان ذلك لتقارب في الطباع والأخلاق والسلوك بينهما حيث "يمكننا أن نستشف خيطًا فكريًا يربط أجزاءها المتعددة بعضها إلى بعــض ذلــك الخيط هو الإحساس الغامر باللّذة الذي يظهر جليًا في كل أجزائها"[٢] ما بين لذة في الشــرب ووصــف مجالسه ولذة في النساء وتأمل في البرق والمطر وتشفٌ في الأعداء . وكل ذلك سيرد إيضاحه بالتفصيل ونحن نستعرض بل نحدد الإطار الخلقي للمعلقة .

أمــا أبــياتها فقد شكك طه حسين في بعضها فقال :" وفي هذه القصيدة نفسها أبيات لا نشــك في أنهــا مــنحولة قــد قصد بها إلى العبث والدعابة ..."[٣] ونحن لسنا بصدد تحقيق أبيات القصيدة الآن لذلك لا يهمنا رأي الدكتور طه حسين خاصة إذا عرفنا أنه شكك في الشعر الجاهلي بــرمته وإنمــا نحــن الآن أمام قصيدة جاهلية عُدَّت من المعلقات العشر فلا بد من الوقوف معها ، وتحديد الإطار الخلقي لها .

ولعــل سائلاً يسأل فيقول : وما دام هذه حال معلقة الأعشى في موضوعاتها وعدد أبياتها فأي أخلاق تؤطرها في قصيدة كهذه ؟! وما ذا عساك أن تجد من أخلاق فيها ؟! فأقول :

إن الأعشــى حاله حال أي شاعر جاهلي عاش في بيئة عربية صحراوية وقاسى ظروفها ، وتخلق بأخلاق أهلها وتطبع بطباعهم سواء كانت تلك الأخلاق والطباع محمودة أو مذمومة فنحن لا يهمــنا ذلك بقدر ما يهمنا كشف مظاهر تلك الأخلاق " وقد رأينا اختلاف صور الحيوان على قــدر اختــلاف طبـــائع الأماكن وعلى قدر ذلك شاهدنا اللغات والأخلاق والشهوات ولذلك

---

(١) عبد الله خلف – شعراء المعلقات – ص : ٢١٧ .

(٢) د . مفيد قميحة – شرح المعلقات العشر – ص : ٣٧٧ .

(٣) د . طـــه حسين – في الأدب الجاهلي – ص : ٢٤٠ .

قالوا : (فـــــلان ابن بجدها) و (فلان بيضة البلد) يقع ذمًّا ويقع مدحًا "[١].

والعـــرب كانـــوا يعيشـــون أصنافًا وطبقات فمنهم الشريف العفيف ومنهم غير ذلك ، ولو كـــانـــوا كلـــهم أصحاب أخلاق محمودة ما أرسل الله تعالى فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويتمم لهم مكارم الأخلاق وينهاهم عما وقعوا فيه من مذموم الأخلاق والعادات .

ونحـــن عـــندما نقف مع معلقة الأعشى فإننا في حقيقة الأمر نقف مع الشاعر نفسه والشاعر إنســـان يخطـــئ ويصيب ولو أن الأعشى وقع في كثير من مذموم الأخلاق إلا أننا سنجد أنه بحكم إنسانيته التي لم تتلوث كل أجزاء صفحتها التي فطره الله عليها أقول سنجد جذوة الأخلاق الفاضلة تحيـــي في نفـــس الأعشى مظاهر خلقية محمودة لم تنطفئ جذوتها بعد وتحيى متى ما هبت عليه ريح الفطرة السليمة فيه فكان حري بنا أن نبحث الجانب الخلقي في معلقته ونؤطره شأنه شأن البقية من شـــعراء المعلقـــات . ولا نتعجل في الحكم ولندخل إلى هذا التأطير الخلقي حسب أصول الفضائل الأربع المعروفة (أعني :العقل ، الشجاعة ، العدل ، العفة) ، ولنعرض أبيات المعلقة على مصفاة كل أصل منها ، ولنرى ما يسقط في جوف كل فضيلة منها إشارة بالقبول لكل خلق محمود ، وما تلفظه إلى الخارج وتمجه إشارة منها بالرفض لكل خلق مذموم .

(أ) العـــقل :

إن أول مظهر عقلي يطالعنا في معلقة الأعشى هو :

١- صواب الرؤية :

وقد جاء هذا المظهر الخلقي العقلي في معلقة الأعشى على الصور التالية :

١- التسليم بحتمية الموت :

ونجد هذه الصورة في قوله :

في فتية كسيــــــوف الهنـــد قد علموا   أن هالــــــك كـــــل من يحفى وينتعل

إن صـــحب الأعشى " فتية ممشوقو القوام كأنهم السيوف الصقيلة وهم واثقون من أن الموت مدرك الغني والفقير "[٢].

والتســـليم بحتمية الموت خلق مركب في طبع الإنسان وفطرته حتى وإن اختلفت معتقدات

---

(١) الجاحظ – البيان والتبيين – ج٣ / ٢٩٤ .

(٢) أحمد عبد الله فرهود وزهير اليازجي – المعلقات العشر – ص : ١١٩ .

الـــناس فالوثني والمدين بأي ديانة سواء أكانت سماوية أو وضعية كل يدرك أنه سيموت فليس أمام الإنسان العاقل إلا الإيمان والتسليم بحتمية ورود ذلك المنهل الصعب .

٢ ـ **اليقين التام بأن المرء عرضة لتقلبات الحال** : يقول الأعشى :

إمـــا ترينـــا حفـــاة لا نعال لنا   إنـــا كـــذلك مـــا نحفـــى وننتعـــل

أي " إن كـــنت تبصـــريننا حفاة غير لابسين النعال فشأننا أن نحفى تارة ونلبس النعال تارة أخرى... وهو كناية عن تقلب الحال غنى وفقرًا "[١].

إن شاعرًا يوقن عقله بتقلبات الحال وهو في ظروف الأعشى اللاهية الماجنة هذه لا يعدم هذه الصـــورة الخلقـــية العقلـــية المضيئة في نفسه والتي لا زال بريقها يغالب الانغماس في الملذات رغم ضراوته ويوقف الإنسان ولو قليلاً على أعتاب العقل والرؤية الصائبة .

٣ ـ **قمع الشهوات في ساعات التأمل والجد :**

كانـــت هذه الصورة العقلية عند الأعشى مما يشفع له حينما نقول : إن أي إنسان مهما بلغ به الإسراف واللهو والإغراق في الملذات فإنه يكون عرضة أيضًا ليقظة العقل السليم في أي لحظة .

إننا سنجد الأعشى في الأبيات القادمة عندما أبصر سحابًا معترضًا في الأفق رأى أن من العقل تـــرك اللهـــو واللعـــب ، والانصراف إلى النظر في السحاب والبرق والتأمل في عارض النوء لأن الأعشى يدرك أن الحياة الحقيقية في الغيث الذي هو أساس الحياة وسر استمرارها ، عندها لم يشغل الأعشى عن ذلك التأمل شاغل ولم تصرفه عنه لذة من كأس ، بل إن تلك اليقظة جعلت منه مرشدًا لمـــن كان يجلس معهم من رفاق مجلس الشراب وقد سكروا في حين أن الأعشى يطلب منهم التأمل والنظـــر والـــتلذذ برؤية السحاب والبرق والمطر ولمّا رآهم في سكرهم أنكر على نفسه طلبه النظر والتأمل ممن لا يعي . يقول في ذلك :

بـــل هـــل تـــرى عارضا قد بت أرمقه   كأنمـــا الـــبرق في حافاتـــه شـــعل

لـــه رداف وجـــوز مفـــأم عمـــل   مـــنطق بســـجال المـــاء متصـــل

لم يلـــهني اللهـــو عـــنه حـــين أرقـــبه   ولا اللـــذاذة مـــن كـــأس ولا شـــغل

فقلـــت للشـــرب فـــي درنى وقد ثملوا   شيمـــوا وكيـــف يشيـــم الشـــارب الثمـــل

---

(١) الشيخ محمد علي الدرة – فتح الكبير المتعال إعراب المعلقات العشر الطوال – ج٢ / ٤٠٠.

٢ - ثقـــابة المعـــرفة :

مظهر عقلي آخر نراه يبدو جليًّا عند الأعشى في معلقته في صورتين :

١- النقد السياسي :

وهـــذه تسمية نعرفها في عصرنا الحاضر لكننا نرى جذورها بدأت مع الأعشى الذي أوغل في ممارســـة الهجاء القبلي حتى مهر فيه فكانت صورة الهجاء القبلي عنده أقرب إلى النقد السياسي الـــذي نعـــرفه اليوم ، ونتيجة لذلك الإيغال تأصل حذق الأعشى فيه حتى أصبح منه خلقا . والآن دقق النظر والفكر في قوله :

أبلـــغ يـــزيد بـــني شـــيبان مألكـــه ... أبـــا ثبـــيت أمـــا تـــنفك تأتكـــل ؟
ألســـت منتهـــيا عـــن نحـــت أثلتـــنا ... ولســـت ضـــائرها مـــا أطـــت الإبـــل
كـــناطح صـــخرة يـــوما لـــيفلقها ... فلـــم يضـــرها وأوهـــى قـــرنه الـــوعل
تغـــري بـــنا رهـــط مسـعود وإخـــوته ... عـــند اللقـــاء فتـــردي ثم تعتـــزل
لا أعـــرفنك إن جـــدت عداوتـــنا ... والـــتمس النصـــر مـــنكم عـــوض تحتمل
تلـــزم أرمـــاح ذي الجـــدين ســـورتنا ... عـــند اللقـــاء فتـــرديهم وتعتـــزل
لا تصعـــدن وقـــد أكلتهـــا حطبا ... تعـــوذ مـــن شرهـــا يومـــا وتبتهـــل

ها هو يهجـــو يزيد بن مسهر الشـــيباني فيزجره عن الحقد الذي يأكل قلبه ويدفعه إلى الكـــيد للنيل من قبيلة الأعشى ، ثم يقول له : أقصر عن الشر فما أنت حين ينفـــر الأبطال إلى القتال مندفعين كالسيل يحملون الغنائم والسبايا إلا كثور يكسر قرنيه على صخرة أمجادنا الراسخة " فهـــو لا يهجو ابن مسهر ليدفع أذاه عن نفسه بل ليحمي القبيلة كلها من هذا الأذى"[1].

ولـــك أن تعاود النظر والفكر في هذا الهجاء الساخر الذي جعل الخصم في صورة مضحكة وهـــو كالثور الهائج الذي ينطح الصخرة الصماء فينكسر قرنه واهناً معفرًا بغبار الهوان والضعف .

٢ - الصراحة والدقة المتناهية في وصف المشاعر الإنسانية :

ولك أن تتحسس هذه الصورة العقلية عند الأعشى وأنت تقرأ قوله :

علقـــتها عرضـــا وعلقـــت رجـــلا ... غـــيري وعلـــق أخـــرى غيرهـــا الـــرجل

---

(١) د. غازي طليمات – الأدب الجاهلي – ص : ٣٣٤ .

وعلقته فتاة ما يحاولها ... ومن بني عمها ميت بها وهل
وعلقتني أخيرى ما تلائمني ... فاجتمع الحب حب كله تبل
فكلنا معرم يهذي بصاحبه ... ناء ودان ومخبول ومختبل

" فهو هنا يصور العواطف المتباينة في الحب ويرسم لها صورة واقعية من خلال نفسه التي علقت هريرة بينما كانت عواطف هريرة مع رجل آخر وعواطف ذلك الرجل مع امرأة أخرى"[١] وهناك فتاة أخرى أحبت الأعشى ولكنها لا تلائمه (فاجتمع الحب حب كله تبل) فكلٌ مولع بصاحبه ، يستلذ بذكره ويهيم به بعيدًا وقريبًا .

" لقد أبدع الأعشى ، حقًا ، أيما إبداع في إيجاز هذا الجانب الآخر الخفي من حياة الإنسان، جانب الانفعالات العاطفية والأحاسيس المتضادة وعلاقات الحب والصدود التي تستحيل ،في الغالب ، علاقات فاشلة مدمرة ، قد تسمو بأصحابها حينًا فتبلغ بهم أعلى مراقي العز والكبرياء ، ولكنها تسحق نفوسهم أحيانًا ، وتقطع نياط قلوبهم حتى لتدفعهم إلى أن يدمر بعضهم البعض الآخر "[٢].

وقد اعتبر بعض الباحثين أن الأعشى هو مبتدع هذه النظرية في علائق العشاق دون أن يشعر فقال :" ونحن نسميها نظرية لأنها كانت مدار تحليل وتصوير مسرحي لدى شعراء المسرح العالميين ككورني وراسين في القرن السابع عشر وشكسبير الإنكليزي في العصر نفسه . وهذا راسين مثلاً في رائعته "أندروماك " يعالج نفس العلائق التي تغنى بها الأعشى !. عنيت علائق المحبين المعبرة عن تلك العاطفة الخالدة في الإنسان وتصارع الأهواء حولها ."[٣] وبذا يكون الأعشى معدودًا في أصحاب الحدوس الكبرى لأنه توغل في أعماق النفس الإنسانية واستطاع أن يخرج بتحليل نفسي ناجح لها رغم بساطة العصر الجاهلي الذي كان لا يؤمن إلا بالواقعية وما يُرى رأي العين .

وكان الأعشى قد أفرط في قوة العقل هذه إلى الدرجة التي يصدر منه نتيجة هذا الإفراط مظهر عقلي مذموم تمجه النفس الإنسانية السوية ألا وهو :

---

(١) د. مفيد قميحة – شرح المعلقات العشر – ص : ٣٧٢ .
(٢) عصام السيوفي – المرأة في الأدب الجاهلي – ص : ١٠٦ .
(٣) خليل شرف الدين – جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي ، تحقيق وشرح وتقييم – ج١ / ٢٥٢ .

٣ - اللـؤم والخسة :

وقد ظهر هذا المظهر الخلقي العقلي المذموم عند الأعشى من خلال معلقته في صورتين :

١ - استحلال الدخول على النساء في غفلة أهلهن :

وهـــذه صورة خلقية سلوكية مذمومة تأباها النفوس الإنسانية الفاضلة في كل زمان ومكان إلا أن الأعشى وقع فيها وجاهر بجريرته مفتخرًا فقال :

وقـد أخـالس رب البيـت غفـلته   وقـد يـحـاذر مـني ثم مـا يئل

يقول : إنه كثيرًا ما يغتنم غفلة رب البيت فيدخل على الحبيبة ويختلي بها ولو أخذ صاحب البيت حذره منه فإنه لن ينجو منه .

٢ - ملازمة الأشرار الغزلين المكثرين من محادثة النساء :

فقـد بلغ الأعشى من اللؤم والخسة حرصه الشديد على ملازمة ومصاحبة الرجل الشرير الذي يكثر من محادثة النساء ويرى في ذلك مفخرة وهو يتصابى بذلك حيث يقول :

وقد أقود الصبـا يومـا فيتبعـني   وقـد يصاحبني ذو الشـرة الغزل

(ب) الشجـاعة :

يكـاد أن يسـيطر هذا الأصل الخلقي على معلقة الأعشى جميعها ولا غرابة في ذلك لأن موضوع القصيدة كلها ما هو إلا رسالة موجهة من الأعشى إلى يزيد الشيباني تحمل في طياتها مظاهر أخلاقية شجاعة ما بين حميد الأخلاق وذميمها والتي سنتناولها بالتفصيل الآتي :

١ - الوفـاء :

والـوفاء مظهـر محمود من مظاهر الشجاعة كما مر بنا في دراسة المعلقات السابقة إلا أن الـوفاء عـند الأعشـى لن نراه بالصورة التي رأيناها عند عنترة بن شداد مثلاً الذي قدس الحب وامتـزج فـيه وربـط وجـوده بإقامته ورحيله بل نرى الأعشى " يقطع كل التساؤلات النفسية والاسـتفهامات الوجدانية "[١] لأن الوفاء عنده مؤقت ونفعي فرضه الوداع الصعب الذي لا تطيقه النفوس فجره إلى أن يقول :

ودع هـريرة إن الـركب مـرتـحـل   وهـل تطيـق وداعـا أيهـا الرجـل

لقد اكتفى الأعشى من ذلك الوفاء الذي فرضه عليه الموقف المؤثر بمساءلة النفس إن كانت تستطيع تحمل ذلك الفراق أو الصبر عليه لا لسبب إلا لأن تلك المرأة الظاعنة تحمل معها كل المتع الحسية التي راح يعددها بتحسر بعد ذلك فقال :

غراء فرعاء مصقول عوارضها ... تمشي الهوينى كما يمشي الوجي الوحل

كأن مشيتها من بيت جارتها ... مر السحابة لا ريث ولا عجل

تسمع للحلي وسواسا إذا انصرفت ... كما استعان بريح عشرق زجل

ليست كمن يكره الجيران طلعتها ... ولا تراها لسر الجار تختتل

يكاد يصرعها لولا تشددها ... إذا تقوم إلى جاراتها الكسل

إذا تلاعب قرنا ساعة فترت ... وارتج منها ذنوب المتن والكفل

صفر الوشاح وملء الدرع بهكنة ... إذا تأتى يكاد الخصر ينخزل

نعم الضجيع غداة الدجن يصرعها ... للذة المرء لا جاف ولا تفل

هركولة فنق درم مرافقها ... كأن أخمصها بالشوك منتعل

إذا تقوم يضوع المسك أصورة ... والزنبق الورد من أردانها شمل

وهكذا يكون الوفاء من الأعشى لحب الجمال الذي تجسده المرأة في مفاهيم عصره وليس الوفاء عنده الحب العذري أو التعلق بحبيب واحد ، إنه الوفاء فقط لحب اللذة الحسية الآنية التي سرعان ما يجد لها الأعشى عوضًا أو بديلا .

٢ - الجرأة الممقوتة :

الجرأة مظهر من مظاهر الشجاعة إلا أنها عند الأعشى في معلقته جاءت ممقوتة وهو يجرؤ على دخول معشوقته ليلاً فتعجب هي لتلك الزيارة الجريئة :

قالت هريرة لما جئت زائرها ... ويلي عليك و ويلي منك يا رجل

بل وقد بلغت به تلك الجرأة الممقوتة إلى دخول البيوت إذا وجد من أهلها غفلة ورب البيت مع مثل الأعشى لا يفيده حذره ، كما أنه يجري وراء فتوته وشبابه مغامرًا وربما رافقه في تلك المغامرة الرجل الشرير الذي لا يأبه من محادثة النساء :

وقد أخالس رب البيت غفلته ... وقد يحاذر مني ثم ما يئل

وقد أقود الصبا يوما فيتبعني ... وقد يصاحبني ذو الشرة الغزل

وإذا ما أعدنا النظر والفكر في معلقة الأعشى فإننا نجد أن هذه الجرأة الممقوتة وصلت به إلى الوصف الحسي للمرأة دون محافظة على أسرار المحبين ، أو الغيرة على من يحب . بل وصل به الأمر إلى وصف ما يحدث بين العشاق والمجّان من مضاجعة وغيرها مما يستدر عاطفة الرجال تجاه النساء ، وربما كان ذلك منه إرضاء لأذواق جلاسه من اللاهين والماجنين والماجنات من شيعته ولك أن تسمع إلى قوله :

غـراء فـرعاء مصقول عوارضها ... تمشي الهوينى كما يمشي الوجي الوحل
كـأن مشيتها من بيت جارتها ... مر السحابة لا ريث ولا عجل
تسمع للحلي وسواسا إذا انصرفت ... كما استعان بريح عشرق زجل
ليست كمن يكره الجيران طلعتها ... ولا تراها لسر الجار تختتل
يكاد يصرعها لولا تشددها ... إذا تقوم إلى جاراتها الكسل
إذا تلاعب قرنا ساعة فترت ... وارتج منها ذنوب المتن و الكفل
صفر الوشاح وملء الدرع بهكنة ... إذا تأتى يكاد الخصر ينخزل
نعم الضجيع غداة الدجن يصرعها ... للذة المرء لا جاف ولا تفل
هركولة فنق درم مرافقها ... كأن أخمصها بالشوك منتعل
إذا تقوم يضوع المسك أصورة ... والزنبق الورد من أردانها شمل
ما روضة من رياض الحزن معشبة ... خضراء جاد عليها مسبل هطل
يضاحك الشمس منها كوكب شرق ... مؤزر بعميم النبت مكتهل
يوما بأطيب منها نشر رائحة ... ولا بأحسن منها إذ دنا الأصل

إن هريرة امرأة بيضاء واسعة الجبين ذات أسنان بيضاء صقيلة ، طويلة الشعر ، تمشي على مهل كأنها غزال يشتكي من حافره ، ويمشي في الوحل ، كأن تماديها إلى بيت جارتها مر السحابة – وهذا مما توصف به النساء – ويسمع المرء لحليها جرسًا إذا انقلبت إلى فراشها ، كما أنها امرأة كسلى تكاد تسقط من الفتور حين تداعب عشيرها واهتز منها وسط ظهرها وعجيزتها ، وهي خميصة البطن دقيقة الخصر تملأ الدرع لضخامتها وتكاد حين تهيأ للقيام ينقطع خصرها لدقته ، أما عشيرها وضجيعها فليس غليظًا ولا منتن الرائحة (ولعله يعني نفسه) ثم يتابع الحديث عنها فهي ضخمة الوركين حسنة الخلق ، فتية ، مرافقها مكتنزة لحمًا ، تمشي متقاربة الخطو لأنها ضخمة حتى (كأن أخمصها بالشوك منتعل) أي كأنها تطأ على شوك لثقل المشي عليها ولدلالها ، وهي عطرة

يضـــوع عطـــرها مسكًا وزنبقًا شاملاً أردالها جميعًا ، فليست الروضة المعشبة الخضراء بأطيب منها رائحة ولا بأجمل حين تدلف الشمس للمغيب .

أ رأيت كيف يصور الأعشى بجرأته الممقوتة تلك جوانب الإثارة في المرأة ؟! إنني لمتأكد أن هـــذا الوصف الحسي الدقيق لو سمعه أحد الرسامين المحترفين في عصرنا الحاضر وفهم قصد الشاعر فتخيله ورسمه لأبدى لنا هريرة هذه أمام أعيننا رسمًا يرى رأي العين .

لقـــد أبدع الأعشى في الوصف كشاعر لكنه لم يحترم مبادئ الحياء والعفة فأوقع نفسه بهذه الجرأة الممقوتة في الفجور .

٣ - الصبر على تعسف السبل المخيفة :

كمـــا عرفنا فيما سبق أن تعسف السبل المخيفة مظهر من مظاهر الشجاعة عند العرب في الجاهلـــية بل أنني لأعرف أن هذا الخلق الشجاع لا يزال موجودًا في نفوس أغلب أبناء البادية إلى اليوم بل إن بعضًا منهم من كبار السن ليقعد بين أفراد أسرته في ليالي سمرهم ليحكي لهم بعض تلك البطولات إما له أو لغيره فيذكر تلك السبل المخيفة والمياه الآسنة والأماكن المهجورة وكيف كانوا يمـــرون عليها ليلاً أو نهارًا فلا يبالون بما يرون أو يسمعون من الهوام أو السباع أو الجن والغيلان أو غـــير ذلـــك يدفعهم قلوب لا تهاب ونفوس لا تذل ومن هنا ليس غريبًا على الأعشى أن يذكر في قصيدته هذا المظهر الشجاع المتجذر في نفس الإنسان العربي منذ ذلك العصر الغابر حيث يقول :

وبلـــدة مـــثل ظهـــر التـــرس موحشة	للجـــن في اللـــيل في حافاتهـــا زجـــل
لا يتنمـــى لهـــا بالقـــيظ يـــركبها	إلا الـــذين لهـــم فـــيما أتـــوا مهـــل
جاوزتـــها بطليـــح جســـرة ســـرح	فـــي مرفقيهـــا إذا استعـــرضتهـــا فتـــل

يذكر الأعشى هنا أنه لشجاعته يقطع البلدة الموحشة التي يسمع للجن فيها جلبة وصياح في اللـــيل ، لا يـــرغب بسلوكها والسير فيها إلا الذين لهم عدة وقوة على احتمال الشدائد والمتاعب وشـــدة الحر والقر كالأعشى الذي قطع بناقته الضخمة السهلة السير التي أعياها طول المسير رغم ضخامتها وتباعد ما بين مرفقيها وجنبيها .

وهكـــذا نـــرى الأعشى وغيره من شعراء الجاهلية عشقوا الترحال والسفر وتعسف السبل المخيفة حتى " أصبح فضيلة معترفًا بها ورمزًا لعلو الهمة وكبر النفس "[١].

---

(١) د. سعدي ضناوي – أثر الصحراء في الشعر الجاهلي – ص : ١٦٥ .

٤ - النكاية في الأعداء :

مظهر آخر من مظاهر الشجاعة عند الأعشى في معلقته حيث يقول :

لا تنتهون ولن ينهى ذوي شطط … كالطعن يهلك فيه الزيت والفتل

حتى يظل عميد القوم مرتفقا … يدفع بالراح عنه نسوة عجل

أصابه هندواني فأقصده … أو ذابل من رماح الخط معتدل

إن نكاية قبيلة الأعشى في الأعداء تجعل الطعن الشديد منهم في أعدائهم واسعًا تغيب فيه الفتل المبلولة بالزيت والتي توضع لأجل مداواته وتجفيفه ، ويدوم الطعن منهم في أعدائهم حتى يقع سيد القوم من الأعداء على الأرض صريعًا ، وقد قتل من الرجال من يدافع عنه فلم يبق حوله إلا النسوة ، وقد أصابه السيف الهندي أو الرمح الدقيق المستقيم من رماح خط هجر المعروفة فهو مضرج بدمائه لا حول له ولا قوة .

٥ - علو الهمة والثبات في الحرب يقول الأعشى :

كلا زعمتم بأنا لا نقاتلكم … إنا لأمثالكم يا قومنا قتل

نحن الفوارس يوم الحنو ضاحية … جنبي فطيمة لا ميل ولا عزل

إن الأعشى يخاطب خصومه قائلاً : لقد ظننتم بأنا لا نقاتلكم وهذا ظن خاطئ لأن من علو همتنا في الحرب ما يجعلنا مقاتلين لأمثالكم ولا نتورع عن القتال فنحن الشجعان المعروفون يوم الحنو - يوم مشهور عندهم كانت فيه وقعة بين بني تغلب وبين بني بكر كانت فيه الغلبة لبكر[1]- لا نميل وقت الحرب عن سرج خيلنا بل نثبت عليها ملازمين للسلاح لا نبالي .

٦ - الدراية بفنون الحرب والطعان :

وكان مما يميز العربي الشجاع في الجاهلية كما هو واضح من قول الأعشى الذي نحن بصدد ذكره الآن الدراية بفنون الحرب والطعان وذلك مظهر محمود من مظاهر الشجاعة عند العرب . يقول الأعشى :

نحن الفوارس يوم الحنو ضاحية … جنبي فطيمة لا ميل ولا عزل

قالوا : الطراد فقلنا تلك عادتنا … أو تنزلون فإنا معشر نزل

قد نخضب العير في مكنون فائله … وقد يشيط على أرماحنا البطل

---

(١) الشيخ / محمد علي الدرة - السابق - ج٢ / ٤٤١ .

إنهم الشجعان الثابتون الذين لا يميلون وقت الحرب عن سرج خيولهم والمتأهبون دائمًا بالسلاح ، يجيدون المحاربة والمطاردة في الميدان راكبين أو راجلين يصيبون أعداءهم فيقعون صرعى مجندلين ، كما أن رميهم لا يقع إلا في مقاتل فرائسهم ، ألا تراه يذكر أنهم يطاردون حمار الوحش فلا يفلت منهم بل يدركونه ويقع رميهم في أحشائه ؟!

إن الدراية بفنون الحرب والطعان مطلب مهم لكل فارس يريد الإطاحة بعدوه أو بطريدته ولا يحسب المرء في عداد الفرسان الشجعان إلا إذا أتقن ذلك المطلب وحذقه .

٧ – رؤية الذات في الإغراق في الملذّات :

مظهر مذموم من مظاهر الشجاعة عند الجاهليين بعامة والأعشى على وجه الخصوص وهذا المظهر عنده ناتج – في رأيي – عن عقدة القوة التي كان يعاني منها كثيرًا إذ طالما كان الأعشى يذكر لهريرة فقره وعشى بصره كما في قوله :

صدت هريرة عنا ما تكلمنا ... جهلا بأم خليد حبل من تصل ؟

أ أن رأت رجلا أعشى أضر به ... ريب المنون ودهر مفند خبل

قالت هريرة لأما جئت زائرها ... ويلي عليك و ويلي منك يا رجل

إما ترينا حفاة لا نعال لنا ... إنا كذلك ما نحفى وننتعل

حيث يستنكر إعراض هريرة عنه نتيجة تقلبات الحال عليه في صحته وغناه ، إن هذا المظهر يكاد أن يكون عند غير الأعشى ــ طرفة بن العبد أو عنترة مثلاً – إلا أن سبب وجوده عند الأعشى – في نظري – يرجع إلى عقدة القوة التي ذكرتها سابقًا فنحن نعلم أن " من مذهب البدوي في القوة تكونت مثله العليا وعن عقدة القوة كذلك صدر مذهبه في اللذة ... ولما كان بعيدًا عن المثل العليا الاجتماعية بمعناها الإنساني الواسع فإن لذّاته بقيت محصورة في النساء والخمرة والميسر وكلها مظاهر لحب السيطرة والتملك والإعجاب بالنفس "[1] وإننا لنجد كل تلك الصور لدى الأعشى من خلال قوله :

وقد غدوت إلى الحانوت يتبعني ... شاو مشل شلول شلشل شول

في فتية كسيوف الهند قد علموا ... أن هالك كل من يحفى وينتعل

نازعتهم قضب الريحان متكئًا ... وقهوة مزة راووقها خضل

---

(١) د. سعدي ضناوي – أثر الصحراء في الشعر الجاهلي – ص : ١١٩ ..

لا يستفيقون منها وهي راهنة ... إلا بـ (هات) وإن علوا وإن نهلوا

يسعى بها ذو زجاجات له نطف ... مقلص أسفل السربال معتمل

ومستجيب تخال الصنج يسمعه ... إذا ترجع فيه القينة الفضل

والساحبات ذيول الريط آونة ... والرافلات على أعجازها العجل

من كل ذلك يوم قد لهوت به ... وفي التجارب طول اللهو والغزل

ها هو يصف مجلس الشرب وتنازع حسن الأحاديث وطريفها مع أصحابه الذين يحيي بعضهم بعضًا بالريحان ، وهو متكئ بينهم – كأنه في موضع السيادة فيهم – والخمر التي فيها مزازة ومرارة تدور بينهم بالآنية الدائمة الندى ، وهم يشربونها دون توقف وهي معدة دائمًا ، وإذا أبطأ عنهم الساقي حثوه على الإسراع بتقديمها ، ثم يصف الساقي بأنه ذو زجاجات ومقرط ، ومشمر عن سرباله ويعمل بجد ونشاط وثمة قينة تلبس الثياب المبتذلة وتحتضن عودًا تخاله الصنج وتطوف بين الشاربين ، والحسان يجررن ثياب الحرير ويحملن مزادات الخمر حتى غدا هذا المجلس مهوى قلب الأعشى حيث رأى ذاته من خلاله كما يرى الفارس الصنديد ذاته من خلال قتال الأنداد والأبطال ، ولعل هذا كله يعود إلى ظروف نشأة الأعشى التي لم تتعهد بالرعاية من قبل أسرته " فقد كان خاله عبدًا من حماعة وأبوه قيس بن جندل قتيل الجوع .. فنشأ في اليمامة نشأة غير المياسير .. ثم جعل الشعر متجراً [(١)] ولعل تلك السيادة التي رآها في نفسه قد حفظها له من كان معه من جلسائه من بعده ، والدليل على ذلك ما أورده الأصفهاني من أن علي بن سليمان النوفلي مر بمنفوحة وهي منزل الأعشى وانتهى إلى قبره فوجده رطبًا فقال " مالي أراه رطبًا ؟ فقالوا : إن الفتيان ينادمونه فيجعلون قبره مجلس رجل منهم ، فإذا صار إليه القدح صبوه عليه لقوله : " أرجع إلى اليمامة فأشبع من الأطيبين الزنا والخمر "[(٢)].

(جـ) العدل :

لعل أول ما يطالعنا من مظاهر العدل في معلقة الأعشى مظهر عدلي محمود نلمسه في ثلاثة أبيات من المعلقة ألا وهو :

١ – استنكار الجور والجهل :

يقول الأعشى :

---

(١) د. محمد عبد المنعم خفاجي – الحياة الأدبية في العصر الجاهلي – ص : ٤٣٩ .

(٢) أبو الفرج الأصفهاني – الأغاني – ج٩ /١٤٨ .

سائل بني أسد عنا فقد علموا ... أن سوف يأتيك من أنبائنا شكل
واسأل قشيرا وعبد الله كلهم ... واسأل ربيعة عنا كيف نفتعل
إنا نقاتلهم حتى نقتلهم ... عند اللقاء وإن جاروا وإن جهلوا

إنه يذكر متكلمًا بلسان قومه أنهم يقاتلون بني أسد وبني قشير وبني عبد الله وقبيلة ربيعة إن ظلموا واعتدوا أو جهلوا قوة قومه ، وهو يستنكر على تلك الأقوام جورهم وجهلهم في عدم اكتراثهم بقوم الأعشى .

٢ – إنكار الفتنة :

ومن مظاهر العدل المحمودة أيضًا لدى الأعشى من خلال معلقته إنكار الفتنة حيث نجده كظم الغيظ على خصومه وكبح الشهوة في انتصار قومه على أعدائهم وحملهما على مقتضى الحكمة وذلك بإنكاره على يزيد بن مسهر الشيباني عندما حاول أن " يغري العداوة بين قوم الشاعر ورهط مسعود ويسلك إلى ذلك شتى السبل ، وهو إذا أُصيب قومه والتُمست منه المعونة فإنه لا يقدم شيئًا بل يزيد حدة الحرب ويؤجج نارها ثم يعتزل وكأنه لم يفعل أمرًا نكرًا فليعد إلى صوابه وليدع هذه الطريقة المنكرة "[١] :

تغري بنا رهط مسعود وإخوته ... عند اللقاء فتردي ثم تعتزل
لا أعرفنك إن جدت عداوتنا ... والتمس النصر منكم عوض تحتمل
تلزم أرماح ذي الجدين سورتنا ... عند اللقاء فترديهم وتعتزل
لا تصعتدن وقد أكلتها حطبا ... تعتوذ من شرها يوما وتبتهل

٣ – إنصاف الخصم :

وإنصاف الخصم مظهر من مظاهر العدل عند الجاهليين لأنهم يرون في إنصافهم له رفعة لأنفسهم ، وهاهو الأعشى ينصف خصمه فيذكر أن في أعدائهم " من يسعى وينتضل لهم ...فما دخولك بينهم ولست فيهم " [٢]ويعني بالخطاب يزيد بني شيبان ثم " يقسم الشاعر بالبيت الذي تساق إليه الذبائح لينتقمن لكل من يُقتل من قومه بأن يقتل أماثل عدوه وأفاضلهم "[٣] حيث يقول:

---

(١) أحمد فرهود وزهير اليازجي – المعلقات العشر – ص : ١٢٢

(٢) التبريزي – شرح القصائد العشر – ص : ٣٠٤

(٣) أحمد فرهود وزهير اليازجي – السابق – ص : ١٢٢ .

قد كان في أهل كهف إن هم احتربوا ... والجاشرية ما تسعى وتنتضل
إني لعمرو الذي حطت مناسمها ... تخدي وسيق إليه الباقر الغيل
لئن قتلتم عميدا لم يكن صددا ... لنقتلن مثله منكم فنمتثل

إن الأعشى لينصف خصمه عندما يذكر أن فيهم أفاضل القوم وأخيارهم ممن يماثلون أفاضل قومه وخيارهم .

هذه المظاهر الثلاثة هي ما وقع في مصفاة خلق العدل من معلقة الأعشى .

(د) العفّة :

قد يُنكر علينا الكلام في العفة ومظاهرها عند شاعر كالأعشى عرف بالمجون والخلاعة والسكر والإغراق في الملذات لكنني أذكّر من ينكر علينا ذلك بأن الباحث من مهمته وهو يبحث في مثل هذا الموضوع أن يبرز المظاهر الخلقية المذمومة أيضًا كما أبرز المظاهر الخلقية المحمودة إذ ليس من مهمته إبراز الجانب المضيء فقط بل لابد له من إبراز الجانب المظلم وذلك أمر مهم يحسب في ميزان عدل الباحث ، ونحن عندما ندرس مظاهر العفة بجانبيها الإيجابي والسلبي عند الأعشى أو غيره فإنما نبحث عن مظاهر الأخلاق عند الإنسان الشاعر وليس عند الشاعر الإنسان وبين العبارتين فرق كبير ذلك أن الإنسان مهما بلغ من إسراف وإغراق في اللهو والهوى والملذات فلا بد أن يكون للفضيلة مكان في نفسه مهما صغر حجمها ومكانها أما الشاعر فقد يغير من حقيقة ذاته وما يكتنفها من أسرار خاصة به ، ورغم ذلك كله فإن الطبع الإنساني يغلب التطبع الشعري ومن هنا نجد أن جذوة الفضيلة تتوارى خلف تلك التطبعات الشعرية إلا أنها لم تمت بعد ، وها نحن نقف مع الأعشى في معلقته فنخرج بمظاهر العفة التالية :

١ - الترفع عن مهاجمة النساء واقتحام صفوفهن في الحرب :

مظهر محمود من مظاهر العفة يورده الأعشى في معلقته فيحسب له هذا المظهر الذي بدا جليًا من خلال قوله :

حتى يظل عميد القوم مرتفقا ... يدفع بالراح عنه نسوة عجل

فلنفكر في الذي منع الأعشى وقومه من قتل النساء المحلقات بعميد القوم ومن ثم الإجهاز عليه وقتله؟ يقول أحد الشراح لهذا البيت :" وإنما لم يقتل من تدفع عنه النساء لأن القوم المغيرين لا يهجمون على النساء ولا يقتحمون صفوفهن تكرُّمًا وتعففًا "[1].

---

(١) الشيخ / محمد على طه الدرة – المرجع السابق – ج٢ / ٤٣٩.

٢ - الترفع عن استراق أسرار الجيران :

وهـــذا مظهر محمود من مظاهر العفة أيضًا أُعجب به الأعشى في سلوك حبيبته فامتدحها به قائلاً :

ليســت كمن يكــره الجيران طلعتهـا   ولا تـــراها لســـر الجار تختتـــل

إن هريرة ميمونة الطلعة يحبها جيرانها وهي لا تسترق السمع لأحاديثهم فهي عفيفة من هذا الجانب .

وأخيرًا نقف عند مظهر خلقي مذموم نتج عند الأعشى نتيجة التفريط في فضيلة العفة فخرج لنا من خلال أبيات المعلقة في صور ممقوتة وذلك المظهر هو :

٣ - المَجـانـة :

والمجانـــة مظهـــر خلقـــي مذمـــوم مـــن مظاهر التفريط في العفة كما عدّه بعض الباحثين في الأخلاق[١] .

والمجانة تعني : قلة الحياء كما ورد ذلك في معاجم اللغة المختلفة .

وكان من صور هذا المظهر المذموم لدى الأعشى في معلقته ما يلي :

١ - الحديث عن مضاجعة النساء والتلذذ بهن :

وتظهر هذه الصورة الممقوتة من خلال قوله :

نعـــم الضـــجيع غـــداة الـــدجن يصرعها   للــــذة المـــرء لا جـــاف ولا تفـــل

هــــركولة فـــنق درم مـــرافقها   كـــأن أخمصـــها بالشـــوك منـــتعل

إذا تقـــوم يضـــوع المســـك أصـــورة   والـــزنبق الـــورد مـــن أردانهـــا شمـــل

مـــا روضـــة مـــن رياض الحزن معشبة   خضـــراء جـــاد علـــيها مســـبل هطـــل

يضـــاحـــك الشمس منها كوكب شـــرق   مـــؤزر بعمـــيم النـــبت مكـــتهل

يومـــا بأطيـــب منهـــا نشـــر رائحـــة   ولا بأحســـن منهـــا إذ دنـــا الأصـــل

٢ - الانهماك في الشهوات ومراودة أماكن اللهو والمجون :

ولك أن تقرأ قوله :

وقـــد أقـــود الصـــبا يـــوما فيتـــبعني   وقـــد يصـــاحبني ذو الشـــرة الغـــزل

وقد غـــــدوت إلى الحانـــوت يتبعني   شـــاو مشـــل شلـــول شلشل شـــول

---

(١) انظر . د. علي عبد الحليم محمود – التربية الخلقية – ص : ٣٢ .

ألا تــراه رغــم كبر سنه لا يزال منهمكًا في لهوه ومجونه بل إنه يتصابى ويأتي بأفعال الفتيان ويصحبه في لهوه وغزله من يدعي نشاط الشباب في محادثة النساء ومعاقرة الخمور فيغدو إلى حانوت الخمارين يتبعه شباب خفيفي الحركة متوزعي المهام ما بين شاوٍ للحم ومن يحمل الأشياء بعناية .

ويــبدو أن الانهمــاك في الملذات والإغراق في الشهوات قد أثرت في شخصية الأعشى إلى الدرجــة التي يصبح فيها متكسرًا ليّنًا حتى في كلامه وتعبيراته إلى أن تولد عنده نتيجة ذلك صورة خلقية مذمومة أخرى كما سترى .

٣ - التخــنُّث :

وهي صورة خلقية مذمومة يتخلق بها المرء عندما يفرط في فضيلة العفة نتيجة تهالكه في اللهو المجون ومجالسة الأخناث .

أورد الزمخشــري في أساس البلاغة قوله :" رجل مخنث ، وفيه تخنيث وانخناث وخنث تكسُّرٌ وتــثنٍ ... وخنّث كلامه : ليّنه "[١] وقد " روي عن الشعبي أنه قال : الأعشى أغزل الناس في بيت ، وأخنث الناس في بيت ، وأشجع الناس في بيت ... وأما أخنث بيت فقوله :

قالــــت هــريرة لما جئت زائرها ويلــي عليــك و ويلــي منك يا رجل

أي :" أتفجــع عليك لأنك تسعى بزيارتك لي في هلاك نفسك وأتفجع منك لأن زيارتك لي تجر عليّ هلاكي "[٢] .

ولعلــك تدرك معي أن الأعشى نزل بنفسه وخنثها إلى الدرجة التي جعلته يتكلم بلسان المرأة في ليونتها وتكسرها في الكلام دون مراعاة للحفاظ على خشونة الرجل ورجولته .

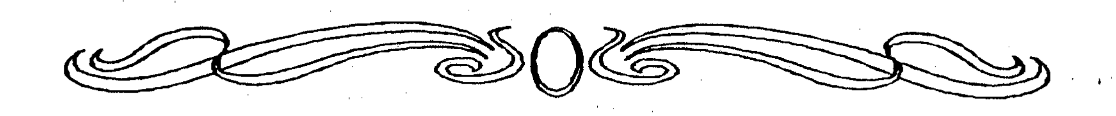
إن الأعشــى يتحدث في ذلك البيت وأشباهه عن علاقته بهريرة " حديثًا فيه عبث المتحضرين مــن أصــحاب الجــواري وتكســرهم فقد كانت هريرة – فيما يذكر الرواة قينة في أغلب الظن أجنبية"[٣].

---

(١) الزمخشري – أساس البلاغة – ص : ١٧٥-١٧٦.

(٢) أحمد الأمين الشنقيطي – شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها – ١١٣-١١٤ ، و انظر الأغاني – ج٩/ ١٣١ -١٣٢

(٣) د. يوسف خليف – دراسات في الشعر الجاهلي – ص : ١٤٩ .



الإطـار الخلقي لمعلقة النابغة الذبياني



معلقة النابغة الذبياني*

إضاءة :

قبل البحث في تحديد الإطار الخلقي لمعلقة النابغة الذبياني هناك أمور تتعلق بالشاعر نفسه لا بد من ذكرها في إيجاز قصير لما لها من أهمية كبيرة في تجلية معاني أبيات المعلقة ومن ثم الخروج بتحديد إطار صحيح ومحكم لها .

فالنابغة الذبياني هو " زياد بن معاوية بن ضباب بن جابر بن يربوع بن غيظ بن مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان بن بغيض ، وهو أحد شعراء السياسة القبلية في العصر الجاهلي لقب بالنابغة لأنه قال الشعر بعد أن أربى على الأربعين ، وقيل : لأنه لم ينشأ في أسرة من الشعراء ، فكان الشعر نبغ فيه نبوغًا . وقد عنى النابغة بسياسة قبيلته في حربها وسلمها وتحالفها مع سائر القبائل يقول قولها وينطق باسمها في بلاطي المناذرة والغساسنة .

وقد اشتهر النابغة بفن من الشعر عرف بالاعتذاريات وهي قصائد وجهها للنعمان بن المنذر معتذرًا ومتنصلاً مما نسب إليه واُختلف في سبب الجفوة " [1] ولم تذكر المصادر شيئًا عن طفولته ونشأته وكل الذي ذكرته قولها :" إنه كان أحد الأشراف الذين غض الشعر منهم"[2] ويقول ابن حبيب إنه "ممن حرم الخمر والأزلام في الجاهلية "[3].

وقد عده ابن سلام الجمحي من شعراء الطبقة الأولى من الجاهليين[4].

وكان هناك تحالف كبير بين بني أسد وبني ذبيان وبني المنذر ملوك الحيرة " وكانت مصالح الثلاثة مشتركة تدفعهم جميعًا إلى نوع من السياسة التي تضمهم تحت تحالف وصداقة واحدة . على ضوء هذا التحالف المشترك بين القبائل الثلاث نستطيع أن نفهم لماذا كان يندفع النابغة هذا الاندفاع القوي نحو النعمان بن المنذر ملك الحيرة ولماذا كان غضب النعمان يؤرقه ويفزعه ، ولماذا كان النابغة يلتمس لإرضائه السبل ويرسل إليه قصائد الاعتذار الواحدة تلو الأخرى ، وعلى ضوء هذا أيضًا نستطيع أن ندرك كيف كان النابغة يحاول أن يأتلف العدوّين في وقت

---

* ديوان النابغة الذبياني – تحقيق وشرح : كرم البستاني – ص : ٣٠–٣٧.

(١) د. عفيف عبد الرحمن – معجم الشعراء – ص : ٢٦٦ .

(٢) الأصفهاني – الأغاني – ج٩ / ٢٦٩ .

(٣) ابن حبيب – المحبّر – ص : ٢٣٨ .

(٤) ابن سلام الجمحي – طبقات فحول الشعراء – ج١ / ٥١ .

واحد ، ويحاول أن ينجح في أن يجعل منهما الاثنين غسّان والحيرة صديقين حليفين لكي يرضى عن نفسه كشاعر أجاد الرسالة وأدّاها ، ولكي يوفر لقبيلته الأمن والاستقرار ، ولكي يحتفظ لها بمكانها بعيدًا عن إغارة القبائل وهجمات الملوك من المناذرة والغساسنة " [١] .

" وهذه هي المعلقة التي تعد من عيون شعر النابغة وقد مدح بها النعمان بعدما جفاه ويعتذر إليه فيها وكان بنو قريع وشوا به ورموه بالمتجردة "[٢] وقيل :" إن ذنب النابغة إلى النعمان إنما هو مدحه ملوكًا غير النعمان "[٣].

والذي يهمنا ونحن ندرس هذه المعلقة لتحديد إطارها الخلقي أن نتذكر ما أوردناه سابقًا من أن دراستنا هذه لا تصادر المعنى المباشر للشعر الجاهلي لكنها أيضًا لا تقف عنده وإنما لا بد من النظر إلى ما وراء المعنى المباشر هذا من معاني أخرى لعلها هي المقصودة عند الشاعر بل هي المقصودة حقًّا ، وذلك لأن الشعر لابد أن يرصد وراء معانيه المباشرة التي يفهمها العامة والخاصة من الناس معاني شعرية ترفع بالشعر عن المستوى العادي المباشر إلى المستوى الرفيع الذي يمكن معه أن يسمى شعرًا .

" وإذا كنا نجد في هذا الشعر أغراضًا شبه محددة يتعاورها الشعراء ويعيدون القول فيها دون حرج فينبغي أن نتريث في الحكم على هذه الأغراض ، وعلى هؤلاء الشعراء فلا نظن أن هذه الأغراض واحدة في كل الأحوال ولو كانت كذلك لنفدت طاقتها الفنية منذ زمن بعيد ، ولكنها (رموز) يمنحها الشعراء طاقات فنية جديدة ، ويجددون طاقاتها القديمة ويوظفونها في التعبير عن مواقف وأمور شتى"[٤].

ولقد ذكرنا أن هناك قنوات صالحة يتخذ منها الشاعر طريقًا للوصول إلى نفوس متلقي شعره ومن ثم ينفث فيها ما يريده من معاني شعرية تمثل في مجملها رسائل خلقية يؤمن بجدواها أو يرفضها محاولاً إقناع الآخرين بما يحسه ويعتقده ، وقد ذكرنا في دراستنا هذه أن الشاعر الجاهلي – على وجه الخصوص– اتخذ خمس مجالات مثلت في مجملها قنوات صالحة وناجحة

---

(١) د. محمد زكي العشماوي – النابغة الذبياني – ص : ١٢٤.

(٢) سيف الدين الكاتب وأحمد عصام الكاتب – شرح ديوان النابغة الذبياني – ص : ٢١ ، والأغاني للأصفهاني–ج ١١/ ١٧

(٣) د . طه حسين – في الأدب الجاهلي – ص : ٣٠١ .

(٤) د. وهب أحمد رومية – شعرنا القديم والنقد الجديد – ص : ١٨٢

للاتصال بالمتلقي واستمالته من خلال هذه القنوات التي تعتبر عوامل إثارة للعواطف نظرًا لما يربط المتلقـي بها من علاقات و ذكريات تفتح أبواب نفسـه على مصراعيها ليودع الشاعر بداخلها ما يـريد ، ولكـن ينبغـي أن نعلم أن الشاعر أيضًا كالمتلقي تربطـه بتلك القنـوات علاقات وذكـريات ومـن ثم يتخـلل شعـره تلك القنـوات فيخرج من خلالها وقد امتزجت نفسه وذاتـه وأخلاقـه إلى الدرجـة التي يصبح يرى فيها نفسه كواحد من متلقي شعره فيؤمن بجدواها وصـلاحيتها كـأداة لنقل رسالته وذلك " أن المرء لا يستطيع أن يرى نفسه إلا بعد أن يختار نقطة ومعيارًا يقعان خارج نفسه "(١).

ولـو دققنا النظر في قنوات الاتصال التي ذكرناها سابقًا من بيئة وإنسان وحيوان ، والمجتمع بمـا فيه من أعراف وتقاليد ثم الزمن الذي يحكمها جميعًا في إطاره لوجدناها تمثل الطبيعة خارج نفس الإنسـان ولـذلك لم يبـتعد كروتشـيه عـن الحقيقة عندما قال :" والطبيعة خرساء ما لم ينطقها الإنسـان"(٢) نعـم إن الشـاعر يتحد مع تلك الطبيعة بجزئياتها الممثلة في القنوات الخمس السابقة ويتمـثلها ويتمثل فيها عندما يصبغها ويلونها بشتى حالاته النفسية تبعًا لما هو مشغول به فيتخذ من تلك الجزئيات أو القنوات الممثلة لمجالات النشاط الخلقي الإنساني غطاءً فنيًا ليفصح من خلاله عما يدور في مستكنات نفسه ويسقط عليها كل ما يحس به ويشعر باللفظ واللون والنغم .

والنابغة الذبياني بمقدرته الشعرية الفذّة وظف في معلقته كل تلك القنوات ومن ثم استطاع أن يـنفذ إلى نفـوس متلقيه إلى الدرجة التي تجعل عدوه يطلق سراح ابنته عقرب وهو يقول:" والله ما أحد أكرم علينا من أبيك ولا أنفع لنا منه عند الملوك "(٣).

والمعلقة التي بين أيدينا هي التي سمعها النعمان بن المنذر فأقسم أنها من شعر النابغة ، وبها نال النابغة عفو النعمان عنه وشهادته على جودة شعره والفوز بمائة بعير من عصافيره (٤)

وما كان النابغة سيحظى بهذا كله لولا أنه ألقى ما في بصيرته على ما يراه ببصره فأبدع صورًا مـزدوجة مـن المـادة والروح فأصبح لشعره تأثير وسر بفضل وضوحه وغموضه وبفضل واقعيته

---

(١) غيروغي غاتشيف – الوعي والفن – سلسلة عالم المعرفة ١٩٩٠م – ص : ٩٣ – ترجمة : نيوف نوفل ومراجعة : سعد مصلوح .

(٢) د. أحمد محمد الحوفي – الغزل في العصر الجاهلي – ص : ٢٨ .

(٣) سيف الدين الكاتب وأحمد الكاتب – شرح ديوان النابغة الذبياني – ص : ٢٥ .

(٤) انظر الأصفهاني – الأغاني – ج١١ / ٣٠ .

وخياله ، وقد ذكر السيوطي : أن أبا بكر رضي الله عنه :" كان يقدم النابغة ويقول : هو أحسنهم شعرًا وأعذبهم بحرًا وأبعدهم قعرًا " [١].

وقبل عرض أبيات معلقة النابغة الذبياني على مناهج الأصول الأخلاقية الأربعة نلمح عند قراءتنا المتأنية لها وحدة شعورية " أو رابطًا أو هاجسًا – إن شئت – يربط القصيدة بعضها إلى بعض، ذلك الرابط هو الدفاع عن النفس الذي أملى على الشاعر كل المواقف وجعله خاضعًا لها ، بحيث نراه يجول هنا وهناك وفي نفسه غرض واحد هو نيل رضى النعمان وعودة عطائه " [٢].

والآن ، نأتي إلى تحديد الإطار الخلقي للمعلقة لنرى ما نصيب كل أصل من أصول الأخلاق الأربعة من مظاهر وصور أخلاقية ؟

(أ) العقل :

بعد أن عرفنا الهاجس الذي يربط القصيدة بعضها إلى بعض فإن أول ما نلمسه من النابغة محاولة الدخول إلى عقل ونفس النعمان بن المنذر ليقنعه ببراءته وليس كالعقل وسيلة إلى التخفيف من حدة العاطفة ونتيجة لهذا كله برزت في المعلقة مظاهر خلقية عقلية كثيرة نجملها فيما يلي :

١ – السياسة :

عرفنا فيما سبق أن السياسة من أقسام العقل وأحد مظاهره الخلقية ، وأنها اسم جامع لكل صور الإصلاح وما دام الأمر على هذه الحال فإن النابغة بحاجة إلى سياسة خاصة تصلح ما أفسده الوشاة فيما بينه وبين النعمان بن المنذر فكان من صور هذا المظهر :

١ ـ المداراة :

وقد تمثلت هذه الصورة الخلقية السياسية العقلية في محاولة النابغة استمالة النعمان بن المنذر ومداراته فكان مما اهتدى إليه النابغة بعقله السياسي ليرق له قلب النعمان ويحظى بعفوه السبل التالية :

١ ـ إبراز حالة الحزن لغضب النعمان بتجاوز كل الذكريات :

فهو حين يقول :

---

(١) جلال الدين السيوطي – المزهر في علوم اللغة وأنواعها – ج٢ / ٢٤ .

(٢) د. مفيد قميحة – شرح المعلقات العشر – ص : ٤١٣ .

فعــد عما تـــرى إذ لا ارتجـــاع له　　　وانـم القتــود علــى عـيرانة أجـــد

فإنه يتجاوز كل الذكريات مهما كانت أهميتها ، ألا تراه " بعدما ذكر مية وأطلالها قال :

" فعد عما ترى إذ لا ارتجاع له " وفي ذلك تصريح كاشف بأنه قادر على أن يدع مية وأطلالها وأن يـتجاوز بنفســه ذكرياتها "؟[1] لقد أتاه لوم النعمان وغضبه فاغتم لذلك فأصبح شغله الشاغل أن يصل إليه ليقف بين يديه ويبرئ ساحته .

٢ ـ الإسراع بالرحيل إلى النعمان على نجائب الإبل :

عندما سمع النابغة بما سمع من توعد النعمان وتهدده ما كان أمامه إلا السمع والطاعة للامتثال للحضـــور بين يدي الملك على ناقة موثقة الخــــلق وثاق نفسه البريئة مما رمي به من تهم ، صالحة للركوب والسفر الطويل حتى كأنها الثور الوحشي قوة ونشاطًا وسرعة وفي ذلك يقول :

فعــد عمــا تــرى إذ لا ارتجــاع لـــه　　　وانم القـــتود علـــى عيرانـــة أجـــد

مقذوفـــة بدخـــيس الــنحض بازلهـــا　　　لـــه صـــريف صـــريف القعـــو بالمسد

كـــأن رحلـــي وقـــد زال الــنهار بـــنا　　　يـــوم الجلـــيل علـــى مســـتأنس وحـــد

من وحش وجــرة موشـــي أكارعــــه　　　طاوي المصير كسيف الصيقـــل الفـــرد

٣ ـ تأكيد فضل الملك النعمان على قومه :

لأن الـــنابغة رأى أن الإشادة بفضل النعمان الذي بلغ فضله وكرمه جميع الناس وهو منهم يستدر عليه عطف الملك فما العفو عنده إلا أحد مكارمه التي لا تعد فقال :

فتـــلك تبلغـــني النعمـــان إن لـــه　　　فضـــلا علـــى النـــاس في الأدنى وفي البعد

٢ – القيام بالحجة وكبت الحسّـاد :

مظهر خلقي عقلي آخر من المظاهر العقلية التي نجح فيها النابغة وبرأ ساحته مما أُلصق به من تهم ، وقد جاءت صور هذا المظهر في ثوب من حسن الاعتذار المنقطع النظير تمثلت في :

١ ـ اللجوء للقسم على أنه لم يأت بما يكرهه النعمان :

حـــيث رأى أن القســـم السبيل الوحيد إلى دفع التهمة عنه فهو أعلى درجات الإقناع عند العقلاء والكرماء من الناس عندما يشح الزمن بشاهد عدل يقف بجانب المتهم في ساعة الاحتكام .

---

(١)　د. محمد أبو موسى – قراءة في الأدب القديم – ص : ٣٧٢ .

يقول :

فـلا لعمـرو الـذي مسـحت كعبـته ... ومـا هـريق علـى الأنصـاب من جسد

والمـؤمن العائـذات الطـير تمسـحها ... ركـبان مكـة بـين الغـيل والسـعد

مـا قلـت مـن سيـئ ممـا أتيت بـه ... إذا فـلا رفعـت سمـوطـي إلى يدي

٢ - **الدعاء على نفسه بما يرضي حسّاده إبراءً لما قذف به :** حيث يقول :

مـا قلـت مـن سـيئ ممـا أتـيت به ... إذا فـلا رفعـت سـوطي إلي يـدي

إلا مقالـة أقـوام شـقيت بهـا ... كانـت مقالـتهم قـرعا علـى الكـبد

إذا فعاقبنـي ربـي معـاقبـة ... قـرت بـها عين من يأتيـك بالفند

يقـول : " إذا كـنت قلـت هذا الذي بلغك فشلت يدي حتى لا أطيق رفع السوط على خفـته... واشـتدت علي مقالتهم وهبتك من أجلها فكأنها قرعت كبدي بذلك ...فإن كان الأمر على ما يصف فعاقبني ربي معاقبة تقر بها عين حاسدي والكاذب علي "[1] ولن تجد أصدق ممن يدعو على نفسه بالهلاك ليبرئ نفسه بعد أن اقسم أنه لم يفعل ولم يقل شيئًا ، وفي هذا الدعاء على النفس من قبل النابغة ما يستدر عطف النعمان مما لا يخفى على أحد إدراكه.

٣ - **الفكرة في العواقب :**

مظهـر عقلـي آخر نلحظه عند النابغة في معلقته إذ ليس بالغريب على من هو في حاله أن يحسـب للعـاقـبة حسابها ، ويفكر في المخارج التي توصله إلى بر الأمان دون أن يصطدم بالملك فـيفقـد بـذلك أشـياء كثيرة تؤثر عليه وعلى قومه المتحالفين مع بني المنذر ونتيجة لهذا جاء هذا المظهر الخلقي العقلي على الصور التالية :

١ - **إعلان الاستسلام وترك الحكم الأخير للنعمان :**

إن الـنابغة بعـدما أورد بالقسم والدعـاء على نفسه بالهلاك ليبرئ ساحته من الاتهامات المـوجهة إليه لم يقف عند هذا الحد كبقية الناس لينتظر الحكم وإنما فكر في إعلان استسلامه وترك الحكـم الأول والأخـير للملك ليضمن الحكم في صـالحه لأن مـن يرفع راية الاستسلام أمام خصم كالملك النعمان لا يسع الطرف الآخر إلا أن يعفو ويصفح لأن العفـو عند المقدرة من شيم العـرب ، وبضمان النابغة لهذه النتيجة الإيجابية يكون قد فكر وقدر الأمور قبل فـوات الأوان.

(١) الأعلم الشنتمري – أشعار الشعراء الستة الجاهلين – ص : ١٩٥-١٩٦ .

وربما يكون الذوق الحضري عند النابغة هو ما جعله يسوس غضبه ويقلل من حدة أنفته كي يحـوز على عفو الملك النعمان .فاسمع له وهو يقول :

أنبئـت أن أبـا قابـوس أوعـدني ... ولا قـرار علـى زأر مـن الأسـد

إن الـنابغة يضع النعمان في صورة الأسد الذي إذا زأر فلا قرار لأحد بجواره ، ولعمري إن هـذه الصورة لتذكي في نفس النعمان بن المنذر أو أي شجاع آخر جذوة الشيمة العربية في العفو عند المقدرة .

٢ - حسن دعوة الملك إلى التثبت في الأمر والتأني في الحكم :

وكـان مما فكر به النابغة بعقله الراجـح الطريقة المثلى التي ينهي بها سياسته مع الملك ودفاعـه عـن نفسه أن يثني على الملك ويفتديه بماله وولده داعيًا إياه إلى التثبت في الأمر والتأني في الحكـم ، وفي ذلك إشعار من النابغة للنعمان بخوفه عليه أن يصدر حكمًا لا يليق به كملك له هيبته ومكانته لتكون عاقبة ذلك أيضًا استدرار عفو النعمان وتذكيره بالصـداقة التي حتمت على النابغة وجوب الخوف على صاحبه من ارتكاب الظلم الذي لا يغتفر في الوقـت العصيب الذي اكتنف فيه الأعداء الملك وأحاطوا به كالأثافي يرفد بعضهم بعضًا للإيقاع بين الصديقين :

مهـلا فـداء لـك الأقـوام كلـهم ... ومـا أثمـر مـن مـال ومـن ولـد

لا تقـذفني بـركـن لا كفـاء لـه ... وإن تأثفـك الأعـداء بالـرفد

٣ - بيان حاله إن لم يقبل النعمان أعذاره :

وهذه صورة من صور التفكير في العواقب تتضح من خلال قوله :

هـا إن ذي عـذرة إلا تكن نفعت ... فـإن صـاحبها مشارك النكد

فكـل ما قدمه النابغة في قصيدته من أيمان إنما هو معذرة يعتذر بها إلى النعمان وفي حالة عدم جـدواها "فـإن صاحبها مشارك النكد " أي : إن لم تقبل مني عذري فإني أكون من الهالكين الذين يشاركون النكد طيلة حياتهم .

٤ – العلم :

ولا يخفى أن العلم أحد أقسام العقل كما عده قدامة بن جعفر فيما ذكرناه سابقًا، ولعل سائلاً يسـأل فيقول:وأي علم هذا الذي تدعيه للنابغة؟وما مظاهره إن كنت من الصادقين ؟! فأقول : إن

النابغة بمكانته في قومه وأدبه ووقاره ومجالسته الملوك وأشياخ القبائل إضافة إلى عمله كسفير لقومه إلى ملوك المناذرة والغساسنة وتنقلاته الكثيرة بين الأقوام والقبائل على اختلاف طباعها وأديانها ما بين حاضرة وبادية أكسبه من العلم ما يمكن إبرازه من خلال معلقته هذه في الصور التالية:

١ - الخبرة الكافية بمظاهر الحياة البدوية والحضرية :

فالنابغة في معلقته ذكر من الأماكن والأدوات والحرف في البادية والحاضرة الشيء الكثير فقد ذكر في البادية مثلاً الأواري والنؤي والمظلومة والجلد والمسحاة والثأد ، وذكر من أدوات الحاضرة وحرفها السجف والنضد والصيد بالكلاب والبيطرة ، وغير ذلك مما يؤكد علمه الواسع وخبرته بشؤون الحياتين البدوية والحضرية ولو استقصينا المعلقة لوجدنا من ذلك الشيء الكثير لكننا نقتصر على قوله :

إلا الأواري لأياً ما أبينها ... والنؤي كالحوض بالمظلومة الجلد

ردت عليه أقاصيه ولبده ... ضرب الوليدة بالمسحاة في الثأد

خلت سبيل أتي كان يحبسه ... ورفعته إلى السجفين فالنضد

وقوله :

فبثهن عليه واستمر به ... صمع الكعوب بريئات من الحرد

وكان ضمران منه حيث يوزعه ... طعن المعارك عند المحجر النجد

شك الفريصة بالمدرى فأنفذها ... طعن المبيطر إذ يشفي من العضد

كأنه خارجا من جنب صفحته ... سفود شرب نسوه عند مفتأد

٢ - المعرفة وثقافة الرأي وجودة الذهن :

مظهر آخر من مظاهر العلم عند النابغة الذبياني إذ أنك عندما تقف مع معلقته هذه كأنك تقف مع عالم في التاريخ القديم أو رحالة عظيم ، ولعل السبب في هذا يعود إلى كثرة تنقلاته وسفره عند الأمم والملوك والاطلاع على أديان وأعراف وتقاليد وأطر حياة متنوعة عند أولئك وهؤلاء ، واستمع إليه وهو يذكر النسر العظيم الذي كان للقمان الحكيم :

أمست خلاء وأمسى أهلها احتملوا ... أخنى عليها الذي أخنى على لبد

أو عندما يصور صريف ناب الناقة ببكرة الدلو على البئر عندما يمر بها الحبل المفتول :

مقذوفة بدخيس النحض بازلها ... له صريف صريف القعو بالمسد

ولــك أن تستمع إليه ثم تدقق النظر وتعمل الفكر وهو يصور عظمة الملك النعمان في صورة النبي سليمان عليه السلام عندما قال له الله :" استعمل الجن واستخدمهم بما شئت من أعمال ، فإني قد أمرهم أن يبنوا بلدة تدمر بالحجارة العريضة الرقيقة ، وأن يقيموا فيها العمد من الرخام وغيره . وقيل أخطأ النابغة في ذلك ، فإن الجن لم تبن تدمر لسيدنا سليمان وإنما بنت له بيت المقدس كما هو معــروف ومشهور ، وإنما الذي بنى تدمر وصنع فيها ما صنع من آثار لا تزال ماثلة إلى أيامنا هذه هي زنوبيا ملكة تدمر بنت أذينة الملك ، وهذا غير معتمد والمعتمد الأول على الصحيح "[١] .

يقول :

ولا أرى فـــاعلا في الـــناس يشـــبهه	ولا أحاشـــي مــن الأقــوام مــن أحــد
إلا ســـليمان إذ قـــال الإلــه لــه :	قــم في الــبرية فاحــددها عــن الفــند
وخـيس الجــن ! إني قــد أذنــت لهــم	يبــنون تدمــر بالصــفاح والعمــد
فمــن أطاعــك فانفعــه بطاعــته	كمــا أطاعــك وادلــله إلى الرشــد
ومــن عصــاك فعاقبــه معاقبــة	تنهــى الظلــوم ولا تقعــد علــى ضمــد

كما أنه يورد لك قصة زرقاء اليمامة كاملة تلك الجارية التي كانت تبصر الراكب من مسيرة ثلاثة أيام وقصتها مع الحمام لا تخفى حيث يقول :

احكــم كحكــم فــتاة الحــي إذ نظرت	إلى حمـــام شـــراع وارد الـــثمد
يحفــه جانـــبا نـــيق وتتـــبعه	مــثل الــزجاجة لم تكحــل مــن الــرمد
قالــت : ألا ليــتما هــذا الحمــام لــنا	إلى حمامتـــنا ونصـــفه فقـــد
فحســـبوه فألفـــوه كمـــا حســـبت	تســعا وتســعين لم تــنقص ولم تــزد
فكملـــت مـــائة فيهـــا حمامتهـــا	وأســرعــت حسبــة فــي ذلك العــدد

والآن ســأتركك مــع هــذه الصــورة الرائعة لنهر الفرات وقــد مدته الأودية بالمــاء مــن كل صوب حتى أصبح مترعًا يخافه الملّاح فيعتصم بذنب السفينة وهو في غاية الإعياء والتعب :

فمـــا الفــرات إذا هــب الريــاح له	ترمـــي أواذيـــه العـــبرين بالـــزبد
يمــده كــل واد متـــرع لجـــب	فــيه ركــام مــن اليــنبوت والخضــد
يظــل مــن خــوفه المــلاح معتصمــا	بالخيــزرانة بعــد الأيــن والنجــد

---

(١) الشيخ / محمد الدرة – فتح الكبير المتعال إعراب المعلقات العشر الطوال – ج٢ / ٤٧٦ .

٣ - اليقين التام بأن الصراع هو جوهر الحياة :

فلقـد وصل النابغة بجودة ذهنه وثقافة رأيه وإصابة ظنه إلى يقين تام بأن الصراع هو جوهر الحـياة ألا تراه " يحلم بالحرية والأمن في هذا العالم الظالم المخيف المضطرب إنه حلم في فم التنين ، حلـم هـذه الطـير التي يفجعها الشؤبوب ذو البرد في النجاة وحلم الملاّح الخائف وقد علا موج الفـرات واضطرب وكان الفيضان فاعتصم بسكان سفينته يرجو النجاة "[(١)] والشاعر يضع نفسه في تلك الصورة المخيفة المرعبة ليذكر النعمان " بالماضي ذلك الماضي الذي كان فيه النابغة أثيرًا عند الـنعمان وقـريبًا من نفسه ومن نواله المتكرر فلعله بذلك التذكير يستطيع أن يجد طريقه إلى داخل ذاته فيمحو ما علق فيها من صورة مشبوهة اصطنعها الواشون لأنها صورة غير أصيلة عنه فالصورة الحقيقـية له هي صورة ذلك الشاعر النديم المقرب الذي يسبغ المدائح على النعمان في كل الأوقات والظـروف ، ويفـيض النعمان لقاءها جودًا وكرمًا كما يفيض الفرات متجددًا في كل حين "[(٢)] فلعلها تنكشف الغمة وتتجدد العلاقة بين الخليلين .

وبالفعل عاد الخليلان إلى ما كانا عليه من ود ووفاء حتى ذهب ما أعطاه ملوك المناذرة للنابغة وبقي ما أعطاهم رمزًا من رموز الزمن السحيق .

يقول :

فمـا الفـرات إذا هـب الـرياح لـه ... ترمـي أواذيـه العـبرين بالـزبد
يمـده كـل واد مـترع لجـب ... فـيه ركـام مـن الينـبوت والخضـد
يظـل مـن خـوفه المـلاح معتصـما ... بالخيـزرانة بعـد الأيـن والـنجد
يومـا بأجـود منـه سيب نافلـة ... ولا يحـول عطـاء اليـوم دون غـد

(ب) الشجـاعة :

قـد ينكـر علي كثير من الناس الحديث عن الشجاعة ومظاهرها في معلقة النابغة الذبياني فيقول : وأين الشجاعة التي تزعم وأبيات المعلقة كلها تكاد تتفجر بألوان الخوف والرهبة التي تهيمن علـى الشاعر مما جعل النقاد القدماء يعتبرونه أشعر الشعراء إذا رهب ؟ وما مفهوم الشجاعة عندك وأنت تزعم ذلك ؟ وما مظاهرها في معلقة كهذه ؟! فأقول :

---

(١) د. وهب رومية – الرحلة في القصيدة الجاهلية – ص : ٢٢٧ .

(٢) د. مفيد قميحة – شرح المعلقات العشر – ص : ٤١٢.

إن القــدماء بشــر مثلنا يصيبون ويخطئون وربما أطلقوا العبارة النقدية السابقة فقالوا : "إن الــنابغة أشعر العرب إذا خاف وذلك لجودة قصائده التي اعتذر فيها إلى النعمان وهذا غير صحيح لأن الــنعمان مــا كــان يقــدر عليه وهو عند آل جفنة "[١] لكنهم رأوا كما رأيت أنت الآن أن الشجاعة جنون النشاط وشدة الصرعة كما هو معلوم عند أهل اللغة و سبق لنا أن عرفناه، إلا أنهم لم يفكــروا وهــم يقرؤون معلقة النابغة – على وجه الخصوص – أن خصم الشاعر ملك من ملوك العرب وليس إنسانًا عاديًا ، كما أنهم لم يعرفوا أن من الشجاعة أن يملك الإنسان نفسه عند الغضب ويعــرف قــدرها ، وأنــه مسؤول عنها فلا يرمي بها في موارد الهلاك ، كما فاتهم أن من الشجاعة التفكير في عواقب الأمور التي تحفظ للإنسان كرامته وكرامة من هو مسؤول عنهم .

إن النابغة لم يكن جبانًا في موقفه مع الملك النعمان ، وهو بريء مما رماه بعض الباحثين بقوله :" فهــو يخالف المألوف الذي عرفته الشخصية العربية الجاهلية تمامًا"[٢] وقام يضرب للأنفة العربية مــثلاً بطرفة بن العبد وعمرو بن كلثوم والمتلمس وغيرهم متجاهلاً ما حدث لطرفة بن العبد الذي قتله لسانه أو عمرو بن كلثوم الذي خرج من هذه الحياة وفي قرارة نفسه ما وجه من نصيحة لأبنائه قــائلاً :" وإني والله ما عيرت أحدًا بشيء إلا عيرت بمثله إن كان حقًا فحقًا وإن كان باطلاً فباطلاً ... وأشــجع القــوم العطوف بعد الكرة كما أن أكرم المنايا القتل ولا خير فيمن لا روية له عند الغضــب "[٣] بــل لقد تمادى ذلك الباحث وهو يقول :" إذا كان هناك من رمز للضعف والهوان والــذل في الأدب فإن نابغة بني ذبيان يعد رمزًا لهذا الضعف في أدبنا القديم "[٤] وقــد نســي هــذا البــاحث أو تنــاسى أن النــابغــة لا يعد في قومه مجرد شاعر فقط بل يعتبر السفير والمرشد وما كان من النابغة تجاه الملك النعمان إنما هو سياسة رجل حكيم ووقور له ثقله في الداخل والخــارج وأن إظهــار ذلــك التلطف والملاينة إنما كان صورة من صور السياسة إضافة إلى مكانة الــنعمان في قلــب النابغة بالفعل مما جعله يغتم لما حدث إلى جانب إيمان النابغة بأهمية كسب رضا الملــك لأنــه يدرك أن في غضبه وبالاً لن يكون ضرره على النابغة وحده وإنما سيطول ذلك الوبال قبيلة ذبيان ومن يحالفها .

(١) الشنقيطي – المعلقات العشر وأخبار شعرائها – ص : ١٢٩ .
(٢) د.أحمد موسى الجاسم – دراسات في الشعر الجاهلي – ص : ٢٧٩ .
(٣) الشنقيطي – المعلقات العشر وأخبار شعرائها – ص : ٦٩ .
(٤) د. أحمد الجاسم – السابق – ص : ٢٧٩ .

ولنفرض أن النابغة تغشّاه خوف من الملك النعمان فهذا أمر طبيعي فمن من البشر لا يتغشاه ذلك الحال وهو أمام ملك له مكانته وهيبته وسلطانه على كثير من القبـــائل العربية ؟! إذا فكرنا في ذلـــك فسنجد أن خوف النابغة لا يعتبر طعنًا في شجاعته ، وإذا كان النابغة أظهر شيئًا من التلطف والملايـــنة فذلك ليس دليلاً على ذله وهوانه بل لقد أورد الأصفهاني خبرًا مهمًا مفاده أنه " قيل لأبي عمـــرو : أفمن مخافته امتدحه وأتاه بعد هربه أم لغير ذلك ؟ فقال : لا لعمر الله ما لمخافته فعل ، إن كان لآمنًا من أن يوجه النعمان له جيشًا ، وما كانت عشيرته لتسلمه لأول وهلة ، ولكنه رغب في عطـــايـــاه وعصـــافيره ... وقيـــــل : إن السبب في رجوعه إلى النعمان بعد هربه منه أنه بلغه أنـــه علـــيل لا يرجـــى ، فأقلقه ذلك ولم يملك الصبر على البعد عنه "[1] ومن هذا الخبر يمكننا أن نستنتج أن النابغة لم يكن يخاف من النعمان وإنما كـــــان سبب رجوعه إليه حبه الشديد له وتعلقه بـــه وطمعه في سيبه ومراعاته لمصالح التحالف المشتركة فلم يعد يملك الصبر على البعد عنه وخاصة بعد أن علم بمرضه ، ولعل هذه العلاقة بينهما شبيهة بعلاقة المتنبي بسيف الدولة الحمداني .

وللدكـــتور شـــوقي ضـــيف تعليل مقبول في إرجاع تلك الملاطفة والملاينة إلى ذوق النابغة الحضـــري حـــيث يقول :" وقد أسعفه في ذلك ذوقه الحضري الذي خلصه من خشونة البدو ومن الأنفـــة الجامحـــة فـــإذا ذنبه يكبر في نفسه ، وإذا هو يحس كأنه أتى بجريرة لا تغتفر ، فما يني يقدم للنعمان المعاذير متخذًا إليه كل ما يستطيع من البراهين ومن سبل التلطف والملاينة وقد يؤديه ذلك إلى غير قليل من التذلل والاسترحام حفاظًا على صداقته القديمة واستبقاءً لوده ، وهو حسن تأتٍّ لا صغار نفس ولا مهانة "[2].

وأود أن أوضـــح القول لمن يشير إلى النابغة بأصابع الاتهام بالجبن والذلة والهوان فأقول : إن الشـــجاعة أصـــل أخلاقي كبير وواسع وله مظاهره الكثيرة ما بين محمودها ومذمومها ، وأن تلك المظاهـــر ليســـت مقصـــورة على التمرد والعصيان والأنفة الجامحة وإنما يجب أن نفتش في مظاهرها الأخـــرى مـــن حماية ودفاع ومهابة وصبر وكسر للنفس وكظم للغيظ وحلم وثبات ووفاء وكرم ووقـــار وتـــودد وغير ذلك مـــن المظـــاهر الشجاعة الكثيرة التي لا يخلو أي إنسان من التخلق بها وانعكاسها في سلوكه ، وأنا ضامن أننا لو نظرنا إلى الشجـــاعة بهـــذا المنظـــــار العدل لوجدنا أن النابغة وغيره من البشر لا يخلو من تلك المظاهر الحميدة أو أضدادها بأي شكل من الأشكال .

---

(١) الأصفهاني –الأغاني – ج١١/ ٣١ ..

(٢) د. شوقي ضيف – العصر الجاهلي – ص : ٢٨٦ .

والآن ، لنرى ما نصيب النابغة الذبياني من الشجاعة ومظاهرها من خلال معلقته ؟

لقـــد عملنا جاهدين في عرض أبيات المعلقة على قواعد هذا الأصل الخلقي الكبير فخرجنا بمظاهر الأخلاق التالية :

١- الوفـــاء :

مظهر شجاع جاء في معلقة النابغة في ثلاث صور هي :

١- الوقوف على الأطـــلال ومساءلتها :

حـــيث يـــنطلق صوت الوفاء مناديًا ديار مية التي أقفرت وطال عليها قديم الدهر ، ويقف الـــنابغة في تلك الديار وقت جنوح الشمس للمغيب فيسألها فلم تحر جوابًا ، ولم ير في المنازل أحدًا إلا آثار القوم التي أثارت بهيئتها ذكريات قديمة مما يجعله يقول :

يـــــا دار مـــــية بالعلـــــياء فالســـــند	أقـــوت وطـــال علـــيها ســـالف الأبد
وقفـــــت فـــــيها أصـــيلانا أســـائلها	عيت جـــوابا وما بالـــربع مـــن أحد
إلا الأواري لأيـــــا مـــــا أبينهـــــا	والنـــؤي كـــالحـــوض بالمظلـــومة الجلد

٢ - الحنين إلى الأحبة باستحضار بعض الذكريات :

وهـــي صورة أخرى من صور الوفاء عند النابغة حيث يسترجع وهو واقف على ديار الحبيب شـــيئًا مـــن الصور التي لا تزال حية في نفسه وإنما أحياها الوفاء للأحبة وشدة التعلق بهم مما جعله يقول:

ردت عليـــــه أقاصيـــــه ولبـــده	ضـــــرب الـــوليـــدة بالمسحـــاة في الثأد

إن الحـــنين إلى الأحـــبة فرض على النابغة أن يسترجع بعض صور الذكريات الحلوة العالقة بالذاكـــرة فهاهـــو يستحضـــر صورة تلك الشابة وقد هيأت تلك النؤي بمجرفة من حـــديد في مـــوضع رطب لتمنع الماء من الدخول إلى الخيمة .

٣ - التحسر لخلاء الديار وفسادها بعد رحيل أهلها عنها مع الاعتقاد أن لكل شيء نهاية :

وعـــند ما وقف النابغة مستحضرًا ذكريات الأحبة انقطع منه الأمل فما كان من وفائه إلا أن يعلـــن التحســـــر لخلاء تلك الديار التي كانت عامرة بأهلها فحل بها الخراب كما حل بلبد وهو

نسر من نسور لقمان عمر طويلاً ومع ذلك وافاه القدر المحتوم لأن لكل شيء نهاية . يقول :

خلـــت ســـبيل أتي كـــان يحبســـه	ورفعـــته إلى الســـجفين فالنضـــد
أمســت خلاء وأمســى أهلهـــا احتملوا	أخــنى عليهـــا الــذي أخــنى علــى لبد
فعــد عمـــا تـــرى إذ لا ارتـــجاع لــه	وانـــم القتـــود علـــى عـــيرانـــة أجـــد

وربمـــا يسأل سائل فيقول : وأين الوفاء من النابغة لأحبابه وهو يختم مقدمته الطللية بقوله : "فعـــدِّ عما ترى إذ لا ارتجاع له ..." ؟وما علاقة ذلك كله بغرض المعلقة الرئيسي ؟ فأقـــول : إن مـــيـــة والأطـــــلال في رأيـــي – ما هي إلا قناة صالحة تسربت من خلالها نفس النابغة الوفية لصـــديقه الملك النعمان ليبرهن له أن الوفاء طبع فيه إلا أن الوفاء للملك يعلو فوق كل وفاء مهما كان شأنه .

إن الوقـــوف على الديار الموحشة واستحضار الذكريات المؤلمة واللحظات الحاسمة التي تمثل قمـــة الـــوفاء عند الشعراء غير النابغة قد أربى عليها لديه وفاؤه للنعمان حتى رأى في تلك المقدمة الطللية المعادل الذي يعيش في إحساسه وذاكرته تجاه النعمان بن المنذر .

إننا عندما نقرأ هذه المقدمة الطللية نجد " أن هناك قضايا تشع في ثناياها وذلك حين يُتبصر أن الشـــاعر يستل تصويره المادي من أعماق جوه النفسي ويطابق بين الحالتين بجامع الوحشة والترقب وبجـــامـــع الأمل والتجدد بريق نفسه المتمثل في أمله بعفو النعمان وتجدد حياته الماضية بعد وحشة قلقها وترقبها الحـــاضر واستطاع أن يبعث هذا الأمل في نفسه مصحوبًا بالتجديد حين أزاح عنها ســـتار الخوف وبدأ يرفدها بماء الأمن من خلال صورة الوليدة التي كانت تقوم بعملية تجديد عفاء الدار من نسخها التام إلى إثبات جدها فتتغلب على إقوائها ببعثها من جديد "[1] وما تلك الوليدة – في نظري – إلا دافـــع الوفـــاء الشجاع من النابغة الذي جعله يتغلب على خوف نفسه ليقف أمام الـــنعمان معتذرًا عزاؤه في النجاة منه ذلك الوفاء القديم الذي كان في قرارة نفس النابغة أنه السبيل الوحـــيد لـــرفع سجف العداء والخصـــومة بينه وبين الملك مودعًا تلك الأواري والنؤى المتمثلة في تلـــك العلاقة العميقة والمترسمة في نفس النابغة مهمـــا عفـــى عليها الزمن أو أفسد عليها ما قام به الواشـــون من إفساد لطيب العلاقة بين الشاعر والملك . مع الاعتقاد أيضًا أن لكل شيء نهاية وأنه يخشى نهاية تلك العلاقة الطويلة مع الملك بعد أن أفسدها كيد الواشـــين وحقـــد الحاقدين .

---

(١) د. محمد صادق حسن عبد الله – المعاني المتجددة في الشعر الجاهلي – ص : ١٤١.

"وليس غريبًا ، بعد هذا ، أن نقول بصدور الوفاء عن القدرة والاستطاعة لأن الذي يفي وهو قادر على الإخلال بالقول وعلى الكسب من الخيانة إنما يختار بين عمل وعمل ويميل بثقل إرادته إلى جانب ما ، على رغم جميع المغريات التي تلقي ثقلها في الجانب الآخر . والوفاء لأنه اختيار يفترض القوة والاستطاعة فالذي يفي على رغمه لا فضل له ولا قيمة لعمله "[1] لقد كان باستطاعة النابغة الإخلال بالقول في النعمان وخيانته والميل إلى جانب الغساسنة مثلاً – فهم ملوك أيضًا – لكن وفاءه للنعمان رغم كل المغريات المقدمة من الغسّانيين لم يطب النابغة بها نفسًا لأن وفاءه كله للنعمان بن المنذر ، وهذا أمر اختاره النابغة لنفسه بقوته واستطاعته فكيف يعرف الخوف من تلك صفته ؟!

٢ - السفر :

مظهر آخر من مظاهر الشجاعة و" أيًا كان الحافز إلى الانتقال فإنه أصبح فضيلة معترفًا بها ورمزًا لعلو الهمة وكبر النفس " [2].

إن السفر والترحال على كرائم الإبل أو نجائب الخيل كان من مظاهر الشجاعة التي كان العربي يتغنى بها في شعره .

ها هو النابغة بعد رفعه السجف عن وفائه للنعمان بن المنذر يشد رحله متجهًا إلى صاحبه الغضوب الذي أملى الوشاة قلبه غضبًا ليقف أمام الملك الكريم بكل حزم ليدافع عن نفسه مما رمي به من اتهامات فلا يرى معادلاً لنفسه الحازمة وهمته العالية إلا تلك الناقة الصلبة الخف ، الموثقة الخلق ، والمكتنزة اللحم النشيطة التي يسمع لها صياح عال كأنه صوت الدلاء في البئر :

فعد عما ترى إذ لا ارتجاع له ... وانم القتود على عيرانة أجد

مقذوفة بدخيس النحض بازلها ... له صريف صريف القعو بالمسد

إن صريف ناب الناقة الممثل لغضب النعمان ومرور الحبل على بكرة البئر الرامزة لحزازة نفس النعمان وحملها على النابغة وراءه ذلك اللحم المكتنز الرامز لعمق العلاقة والصداقة بين الشاعر والملك والتي لا يمكن أن تنتهي لمجرد عارض ملم من صنع الوشاة والحاقدين . وبذلك كله رأى النابغة في السفر على تلك الناقة القوية صورة السعي والدأب التي تشرق حيث تعلو الهمة وتتفتح الدروب ببسمة العطاء والأمل :

فتلك تبلغني النعمان إن له ... فضلا على الناس في الأدنى وفي البعد

---

(١) د. سعدي ضناوي – أثر الصحراء في الشعر الجاهلي – ص : ١١٤ .

(٢) د. سعدي ضناوي – السابق – ص : ١٦٥

٣ - الصــــبر :

والصـــــــــــبر مــن أبــرز مظاهر الشجاعة العربية وأجلها ذكرًا وقد تمثل في معلقة الــنابغة الذبياني في كسر النفس والاحتمال : المتمثل في الصمود أمام الأعداء ومقارعتهم والدفاع عن النفس في مواطن الشدة على اختلاف مستوياتها وقد قدم النابغة هذه الصورة الخلقية الشجاعة له من خلال قوله :

مــن وحــش وجــرة موشــي أكارعــه	طــاوي المصــير كسـيف الصيقل الفرد
ســرت علــيه مــن الجــوزاء سـارية	تزجــي الشــمال علــيه جامــد الــبرد
فارتــاع مــن صــوت كــلاب فبات له	طــوع الشــوامت من خوف ومن صرد
فبــــثهن علــــيه واســـتمر بـــه	صــمع الكعــوب بــريئات مــن الحرد
وكـــان ضـــمران مـــنه حــيث يــوزعه	طعــن المعــارك عــند المحجــر الــنجد
شــك الفريصــة بالمــدرى فأنفــذها	شــك المبيطــر إذ يشــفي مــن العضد
كأنــه خارجــا مــن جــنب صــفحته	ســفود شــرب نســوه عــند مفــتأد
فظــل يعجــم أعلــى الــروق منقبضــا	في حالــك اللــون صــدق غير ذي أود
لــما رأى واشــق إقعــاص صــاحبـه	ولا سبيـــل إلـــى عقـــل ولا قــود

لقــد نجح النابغة أيما نجاح وهو يصور صبره على حسد الحسَّاد واحتماله لهم من خلال هذه القناة الصالحة التي لا يفك رموزها الشعرية وأسرارها الخفية إلا رجل فطن كالنعمان بن المنذر الذي قـــال حينما سمع القصيدة :" أقسم بالله إنه لشعر النابغة" (١) وسأل عنه وأمّنه.

لقد جعل النابغة نفسه ممثلة في ناقته التي تشبه وحش وجرة الأبيض الغرة والقوائم ــ ولعــل بياضــها رمز حي لبياض نفسه وخلوها مما اُتّهم به ونحن نعلم " أن الثور الوحشي يرمز به إلى حالة الشاعر النفسية وأن هذا الثور ربما كان يحمل دلالات دينية قديمة ، صح هذا الزعم فإن النابغة هنا قــد أسقط صفاته على ذلك الثور المنتصر في عراكه وصراعه في الدفاع عن نفسه ، وحمل الصورة مضامين داخلية كان يحسها "(٢) ثم رمز لغضب النعمان عليه المشبوه بعفو محتمل بالسحابة الآتية من برج الجوزاء حالة كــون ريــح الشمال تسوق عليه أيضًا البرد الصلب ، أما الصياد فيتمثل في بني قــريع الذين اختاروا من بينهم من يحبك الوشاية ويذكي نار العداوة بين النابغة وبين النعمان فكانوا

(١) الأصفهاني – الأغاني – ج١١ / ٣٠ .

(٢) د. مصطفى ناصف – قراءة ثانية لشعرنا القديم – ص : ١٨١.

في صــورة كــلاب الصيد التي يطلقها الصــــياد على الفريسة " ذلك أن الصياد هنا لا يخلو من إرادة التقهقــر الــتي تــناوئ بواعث التقدم في المجتمع ، الصياد هنا صورة الرجل الأثر أو صورة التعصــب الــذي يحــرك عوامل الفرقة والتناحر "[١]ولكن من الصيد هذه المرة ؟ إنها نفس النابغة الذبياني الصبورة الشجاعة التي وقفت بصبر وثبات ممثلة في وقــوف وثبات وحش وجرة المحتد قرنه والــذي فزع من صوت الصياد أول مرة فبات خائفًا يترقب بسبب شــدة البرد الممثــل لغضب النعمان والخوف من سوء العاقبة لكنه لا يلبث بعد أن أخذت الكلاب تراوغه وتلاحقه أن يطعــن بقــرنه واحدًا من تلك الكلاب (ضمران) فيخرج القرن من جنبه كالسفود فيظل الكلب يعض ذلك القــرن النافذ من صفحته في حال انقباضه وقد اسود لونه وهو صلب مستقيم غير معوج مما أخاف الكلب الآخر (واشق) فلاذ بالهرب .

وإنــي لأرى في حدة ذلك القرن قوة حجة النابغة على خصمه ، وصبره على أذاه ووشايته مهمــا لطخــــت سمعته واستقامته ظغائن الوشاة وأحقادهم إلى أن يرجع الواشي خاسئًا يمضغ في وشــايته (ممثلة فيمــا علق بالقرن من أحشاء الكلب "ضمران") وبها يكون عبرة لمن يراه ممن هو على شاكلته من الوشاة والحاقدين فيطلق ساقيه للريح (واشق) ونفسه تردد النتيجة المحتومة لأرباب الحسد والنفاق ، والتي افصح عنها النابغة بقوله :

قالت له النفــس إني لا أرى طمعــــــا وإن مــــولاك لم يسلــم ولــم يصــــد

٤ – الوقــار والتــودد :

لو أعدنا النظر في أبيات المعلقة لوجدنا أن هناك مظهرًا شجاعًا آخر هو الوقار والتودد الذي تمثل في الصور التالية :

١ - الإشادة بفضل النعمان على القريب والبعيد :

وفي تلــك الإشــادة توقير لمقام النعمان وتودد وتقرب إليه حيث يذكر أن ناقته توصله إلى الــنعمان صــاحب الفضل على الناس أجمعين القريبين منهم والبعيدين ويتضح ذلك من خلال قول النابغة :

فتلك تبلغــــني النعمــــان إن له فضــلا على الناس في الأدنى وفي البعد

---

(١) د . علي عبد الحليم محمود – التربية الخلقية – ص : ٣٤ .

٢ - الإشارة إلى عظمة ملك النعمان وهيمنته :

فالنابغة لا يعتقد أن أحدًا من الناس يشبه النعمان في أفعاله الحميدة وشيمه الكريمة ، ولا يستثني أحدًا بل هو أكرم الناس فعالاً ، وأشرفهم خصالاً إلا سليمان بن داود حيث أعطاه الله ملكًا عظيمًا وأمره بأن يقوم في الخليقة فيمنعها ويصونها من الزلل :

ولا أرى فاعلا في الناس يشبهه	ولا أحاشي من الأقوام من أحد
إلا سليمان إذ قال الإله له:	قم في البرية فاحددها عن الفند

٣ - الإشادة بكرم النعمان وجوده :

فهو السابق إلى الجود فلا أحد يعطي عطاءه فهو يعطي الإبل الفارهة ويتبعها بالهبات الجزيلة ، يجود بنفس راضية سمحة بالمئات السمينة التي ربيت على نبات السعدان الذي تسمن عليه الإبل وتغزر ألبانها ويطيب لحمها ، ويهب أيضا الجواري اللائي يسحبن الذيول منعمات كأنهن غزلان تتنقل في مكان أجرد خالٍ من النبات . كما أنه يعطي الخيل السريعة العدو كأنها الطير تفر من المطر الغزير والنوق البيض المذللة القوية عليها رحال الحيرة :

إلا لمثلك أو من أنت سابقه	سبق الجواد إذا استولى على الأمد
أعطى لفارهة حلو توابعها	من المواهب لا تعطى على نكد
الواهب المائة الأبكار زينها	سعدان توضح في أوبارها اللبد
والراكضات ذيول الريط فنقها	برد الهواجر كالغزلان بالجرد
والخيل تمزع قبا في أعنتها	كالطير تنجو من الشؤبوب ذي البرد
والأدم قد خيست فتلا مرافقها	مشدودة برحال الحيرة الجدد

٤ - حسن الاعتذار :

حيث نرى النابغة يحيي الملك النعمان موضحًا له أن ما قال فيه من مدح أو اعتذار لا يريد من ورائه عطاء ثم يقر بخطئه معلنًا أن قبول الملك لعذره نوال لما يريد ، وإن رفض اعتذاره طامة كبرى بحيث لا يفارقه النكد أبدًا :

هذا الثناء فإن تسمع لقائله	فلم أعرض أبيت اللعن بالصفد
ها إن ذي عذرة إلا تكن نفعت	فإن صاحبها مشارك النكد

(جـ) العـــدل :

وإذا ما نظرنا إلى نص المعلقة بمنظار فضيلة العدل فإننا سنخرج بالمظاهر التالية :

١ – المعاملة بالمثل خيرًا أو شرًّا دون الحقد على أحد :

ويبرز هذا المظهر جليًا من خلال قول النابغة :

فمـــــن أطاعـــك فانفعــــه بطاعــــته	كمـــا أطاعـــك وادلـــلـه علـــى الرشـــد
ومن عصـــاك فعـــاقبـــه معـــاقبــــة	تنهـــى الظلـــوم ولا تقعـــد علـــى ضمـــد

يقول : أنت أيها الملك لا يشبهك إلا سليمان عليه السلام حين قال له الله تعالى : من أطاعك مـــن الجـــن فجازه بطاعته خيرًا كما أطاعك وامتثل أمرك ، ودله على طريق الخير والرشاد ، ومن خالـــف أوامرك منهم فجازه مجازاة تكف الظالم وتردعه عن ظلمه ، ولا تكن حاقدًا بل انتقم منهم عاجلاً غير آجل .

٢ – الإصابة في الحكم مع إنصاف المظلوم :

إن الـــنابغة عنـــدما أورد قصـــة زرقاء اليمامة ذات النظر الثاقب في معرض اعتذاره للنابغة إنما هو يعرض بصاحبه وصديقه النعمان بن المنـــذر كي يكون عادلاً مدققًا في حكمه ينصف المظلوم من الظالم بنظرته الثاقبة ، وحكمته الصائبة ، وإن كان سياق الكلام والأمر جاء في معرض الحديث عن قصة سليمان عليه السلام عندما أمره الله بأن يحكم بالعـــدل في أرضه . وهذا التعريض المؤدب مـــن النابغة يوقظ في صديقه الملك النعمان فضيلة العدل المتمثلة في هذا المظهر الخلقي الكريم بحيث ينـــبه النابغة الملك إليه دون أي شعور من الآخرين بذلك حتى لا يُنتقص شـــأن الملك وتضيع هيبته فانظـــر كـــيف ضمن النابغة الوصول إلى قلب صاحبه ، وكيف استطاع أن ينفث في صدره تلك الرسالة الخلقية العادلة بينما جعل بقية المتلقين يسرحون بأذهانهم مع أحداث القصة وهو يقول :

واحكـــم كحكـــم فـــتاة الحي إذ نظرت	إلى حمـــام شـــراع وارد الـــثمد
يحفـــه جانـــبا نـــيق وتتـــبعه	مـــثل الـــزجاجة لم تكحـــل مـــن الـــرمد
قالـــت : ألا ليـــتما هـــذا الحمـــام لـــنا	إلى حمامتـــنا أو نصـــفه فقـــد
فحســـبوه فألفـــوه كمـــا زعمـــت	تســـعا وتســـعين لم تـــنقص ولم تـــزد
فكملـــت مـــائة فيهـــا حمـــامتهـــا	وأســـرعت حسبـــة فـــي ذلك العـــدد

٣ – الدفاع عن النفس مع الإحساس بالذنب :

إنـــه المظهـــر الخلقي العادل الذي يجعل من النابغة الذبياني يسوس غضبه على أعدائه وحدة الدفاع عن نفسه بالشعور والإحساس بالذنب حتى كأنه أتى بجريرة لا تغتفر .

إن ذلك الإحساس العادل يكبح جماح النفس أن تزيغ عن الحق قدر أنملة حتى وإن كان على نفســـه فلربما قادهُ حدة الطبع في الدفاع عن النفس إلى ظلم لا يغتفر فما أحرى أن يتحلى الإنسان بهذا المظهر الخلقي العدلي الرائع ! وفي هذا يقول النابغة :

إذا فعاقـــــــــبني ربي معاقـــــــــبة   قـــرت بهـــا عـــين مـــن يأتـــيك بالفند

هـــذا لأبـــرأ مـــن قـــول قـــذفت بـــه   كانـــت نـــوافذه حـــرا علـــى الكبد[1]

إلا مقـــــالة أقـــــوام شقيـــــت بهـــم   كـــانت مقالتهـــم قرعـــا علـــى كبدي

٤ – طيب الثناء لمن يستحق دون الطمع في نوال :

وهـــذا مظهر خلقي عادل آخر لأنه إعلان للحق ، وإقرار بالفضل ، دون طمع في مال ، أو زيـــادة في حـــال إنما ذلك خلق النفس العادلة التي لا تريد من وراء إبراء الذمة في طيب الثناء على الآخـــرين جـــزاء ولا شكورًا ، وهاهو النابغة يثني على النعمان ويمدحه مدحًا نابعًا من سويداء قلبه دون الطمع في الوصول إلى مكفأة أو عطاء فيقول :

هـــذا الثنـــاء فـــإن تسمـــع لقائله   فلـــم أعـــرض أبيـــت اللعـــن بالصفد

(د) العـــفَّة :

لـــو أعدنا النظر في أبيات معلقة النابغة لننظر فيها هذه المرة بمنظار أصل خلقي آخر لما عدمنا الحصول على شيء من مظاهره وإن قلّت .

إنـــه خلق العفة ذلك الأصل الخلقي الكريم الذي يصل بمن يتحلى به إلى "ضبـــط النفس الكثيرة الأهواء الكثيرة الرغبات ، وكبت بعض ميولها ومن جهة أخرى حملها على الشاق العســير مـــن أمورها فالسيطرة على الأعصاب ، ورياضة الإرادة ... والقنـــاعة بالقليل كلها فضـــائل الـــنفس القوية الشكيمة "[2] إنها تأديب قوة الشهوة بتأديب العقل ولن تجد ذلك إلا عند من رُزق هذا الخلق الكـــريم الذي تجلى في معلقة النابغة في مظهرين أساسيين هما :

---

(١) سيف الدين الكاتب – شرح ديوان النابغة الذبياني – ص : ٢٤ .

(٢) د. سعدي ضناوي – أثر الصحراء في الشعر الجاهلي – ص : ١١٤-١١٥ .

١ - الترفع عما يسيء من الأقوال والأفعال :

يقول النابغة في ذلك :

فـــلا لعمـــر الـــذي مســـحت كعبـــته	ومـــا هـــريق علـــى الأنصـــاب من جسد
والمـــؤمن العائـــذات الطـــير تمســـحها	ركـــبان مكـــة بـــين الغـــيل والســـند
مـــا قلـــت مـــن ســـيئ ممـــا أتـــيت بـــه	إذا فـــلا رفعـــت ســـوطي إلي يـــدي
إذا فعـــــاقبـــني ربــــــي معاقبــــة	قـــرت بهـــا عـــين مـــن يأتيـــك بالفنـــد

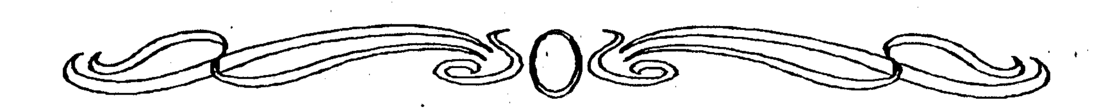
اســـتمع إليه وهو يثبت براءته كيف يقسم بالله الذي زار كعبته مـــرارًا ومســـح بأركانها ، كما يقسم بدم القرابين التي تصب على الأحجار المنصوبة للعبادة ، ثم يكرر القسم بالله الذي يؤمن الطـــير بتحـــريم صـــيدها حيث يمسح الناس ظهورها دون أن يمسوها بسوء بين المكانين : الغيل والســـند إنـــه لم يأتِ بما به يسيء من الأقوال أو الأفعال التي تزعج الملك داعيًا على نفسه بالويل والثبور إن هو فعل شيئًا من ذلك .

٢ - صـون النـفس ومنـعها عن الزلل والخطأ :

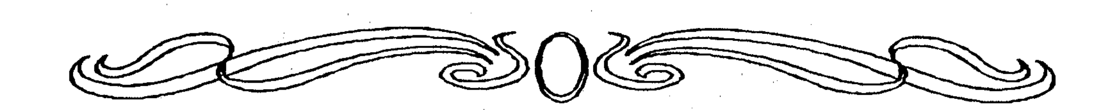
مظهر خلقي عفيف أحبه النابغة في ذاته ثم أراد أن يلبسه الملك النعمان بن المنذر عندما شبهه بسليمان عليه السلام مستقصيًا في المشبه به هذا المظهر الخلقي النبيل حيث يقول :

ولا أرى فـــاعلا في الـــناس يشـــبهه	ولا أحاشـــي مـــن الأقـــوام مـــن أحـــد
إلا سليمــــــــان إذ قـــال الإله له	قـــم في البريـــة فاحددهـــا عن الفنـــد

فالـــنابغة يـــريد أن يقـــول : أيها الملك النعمان بن المنذر أرجو أن تكون ممن يقوم في الناس فيمنعهم ويصونهم من الزلل والخطأ ، وأنت أهل للتحلي بذلك المظهر الخلقي الكريم .



الإطار الخلقي لمعلقة عبيد بن الأبرص



معلقة عبيد بن الأبرص *

إضاءة :

هـــا نحن في المعلقة الأخيرة من المعلقات العشر ، وهي معلقة عَبيد بن الأبرص ، ولكن قبل أن نخوض في نص المعلقة لتحديد الإطار الخلقي لها كبقية أخواقا السابقات رأيت أنه لابد من استعراض بعـــض النقاط المهمة عن عبيد بن الأبرص هذا لعلها تكون خير معين لنا على تفسير الأبيات تفسيرًا مقبـــــولاً ومن ثم الخروج بتأطير ما اشتملت عليه المعلقة من مظاهر وصور أخلاقية تمثل في مجملها الإطار الخلقـــي للمعلقة حسب أمهات الفضائل الإنسانية الأربع .

فمـــن عبـــيد بن الأبرص هذا ؟ وما جوانب حياته التي نقلها إلينا المؤرخون ودارسو الأدب الجاهلـــي؟ وهل في الشعر المنسوب إليه ما يدلنا ولو على بعض تلك الجوانب ؟ ثم ماذا عن معلقته التي بين أيدينا والمعنية بالدراسة ؟

كل هذه التساؤلات جد مهمة للاستعانة بها في تفسير نص المعلقة ، وتأطير الجانب الخلقي لها.

أما الشاعر عبيد بن الأبرص فاسمه " عبيد بن الأبرص بن حنتم بن عامر بن هز بن مالك ابن الحــــارث بـــن ســـعد بن ثعلبة بن دودان بن أسد بن خزيمة . كان سيدًا وفارسًا من فرسان قومه المشهورين . خاض معهم جميع المعارك التي خاضوها "[١].

ولا تعــرف ســـنة ولادتـــه بالتحديد إلا أن الدكتور عمر فروخ ذكر أنه " ولد نحو ٤٥٥ للمــــيلاد، ونشأ في قومه بني أسد في نجد وكان شاعرهم "[٢] وقد عدّه ابن سلاّم في الطبقة الرابعة[٣] وقرنه بطـــرفة بن العبد وعلقمة بن عبدة التميمي وعدي بن زيد العبادي و" سبب قوله للشعر أنه كــــان محــــتاجًا ولم يكن له مال فأقبل ذات يوم ومعه غنيمة له ومعه أخته مأوية ليوردا غنمها فمنعه رجـــل مـــن بني مالك بن ثعلبة وجبهه أي قابله بكره فانطلق حزينًا مهمومًا للذي صنع به المالكي حتى أتى شجرات فاستظل تحتهن فنام هو وأخته فزعموا أن المالكي نظر إليه وأخته إلى جنبه فقال :

ذاك عبيد قد أصاب ميـــا   يـــا ليته ألقحها صبيـــا

فحملت فولدت ضاويّا

---

* ديـــوان عبيد بن الأبرص – تحقيق وشرح – حسين نصار – مطبعة : مططفى البابي الحلبي بمصر _ ١٩٧٥–ص: ١٠–١٢

(١) د. عفيف عبد الرحمن – معجم الشعراء – ص : ١٥٥ .

(٢) د. عمر فروخ – تاريخ الأدب العربي – ج١ / ١٢٤.

(٣) ابن سلام – طبقات فحول الشعراء – ج١ / ١٣٦.

ضـــاويّا – أي ضـــعيف ... فسمعه عبيد فرفع يديه ثم ابتهل فقال : اللهم إن فلانًا ظلمني ورمـــاني بالبهتان فأدلني منه أي اجعل لي منه دولة وانصرني عليه ، ووضع رأسه ونام ولم يكن قبل ذلك يقول فأتاه آتٍ في المنام بكبة من شعر حتى ألقاها في فيه ثم قال قم فقام وهو يرتجز ويتغنى ببني مالك وكان يقال لهم بنـــو الزنية :

أيا بني الزنيـــة ما غركـــــم فلكم الويل بسربال حجر "[1].

ثم استمر بعد ذلك في الشعر وكان شاعر بني أسد غير مدافع .

وقـــد أوجز الدكتور طه حسين الكلام في سيرته بقوله [2]:" وأما عبيد فقد التمسنا في سيرته ومـــا يضاف إليه من الشعر ما يعيننا على إثبات شخصية امرئ القيس فكانت النتيجة محزنة جدًّا : ذلـــك أنهـــا انـــتهت بنا إلى أن نقف من عبيد وشعره نفس الموقف الذي وقفناه من امرئ القيس وشــــعره . ولـــيس علينا في ذلك ذنب ؛ فالرواة لا يحدثوننا عن عبيد بشيء يقبل التصديق : إنما عبيد عند الرواة والقصّـــاص شخص من أصحاب الخوارق والكرامات كان صديقًا للجن والسماء معًا ، عمر عمرًا طويلاً يصـــلون به إلى ثلاثة قرون ، ومات ميتة منكرة : قتله النعمان بن المنذر أو المنذر بن ماء السماء في يوم بؤســـه[3].

والـــرواة يعـــرفون شيطان عبيد واسم هذا الشيطان هبيد وقد حاول بعضهم أن يرسل هذا المـــثل "لولا هبيد ما كان عبيد " وقد رووا لهبيد هذا شعرًا ، وزعموا أنه أراد أن يلهم الشعر ناسًا غير عبيد فلم يوفـــق ، ولعبيد مع الجن أحاديث لا تخلو من لذّة وعجب[4] ، ولكن كل ما نقرأ من أخـــبار عبيد لا يعطينا مـــن شخصيته شيئًا ولا يبعث الاطمئنان إلا في نفس العامة وأشباه العامة . فأمـــا شـــعر عبيد فليس أشـــد من شخصيته وضوحًا ، فالرواة يحدثوننا بأنه مضطرب ضائع ، وابن سلام يحدثنا في موضع من كتابه "طبقات الشعراء " أنه لم يبق من عبيد وطرفة إلا قصائد بقدر عشر ، ولكنه يحدثنا في موضع آخر أنه لا يعرف له إلا قوله :

أقفـــر من أهلـــه ملحـــوب فالقطبيـــــات فالذنـــــوب[5]

---

(١) أحمد الأمين الشنقيطي – المعلقات العشر وأخبار شعرائها – ص : ١٤٣-١٤٤ ، وانظر الأصفهاني – الأغاني – ج٢٢ /٨٦ .

(٢) د. طه حسين – في الأدب الجاهلي – ص : ٢٠٩-٢١٠ .

(٣) انظر : أبو علي القالي – الأمالي – ج٣ / ١٩٥ ، ولا يخفى أنه من أمهات الكتب .

(٤) الأصفهاني – الأغاني – ج٢٢/ ٨٩ -٩٠ ، حيث قصته مع الثعبان الظمآن .

(٥) ابن سلاّم – طبقات فحول الشعراء – ج١ / ١٣٨-١٣٩.

... ويكفـــي أن تقرأ هذه القصيدة التي قدمنا مطلعها لتجزم بأنها منحولة لا أصل لها " أما عن ديانته فقد " عدّه لويس شيخو في شعراء النصرانية ولم يرد في أخباره ولا يظهر في شعره ما يدل على نصرانيته " [١] لكن أبا العلاء المعري أشار إلى نصرانيته في رسالة الغفران فقال :" فيقف عليه – يعـــني عــدي بن زيــد العبادي – فيقول : كيف كانت سلامتك على الصراط ، ومخلصك من بعد الإفراط ؟ فيقول : إني كنت على دين المسيح ، ومن كان من أتباع الأنبياء قبل أن يبعث محمد فلا بأس عليه ، إنما التبعة على من سجد للأصنام ، أو عد في الجهلة من الأنام "[٢].

ولســنا الآن بصدد التحري عن صحة ما سبق من كلام وأخبار عن عبيد بن الأبرص ، وإذا كان الدكتور طه حسين قد شكك فيه وفي شعره فلا عجب فقد سبق له أن شكك في الشعر العربي الجـــــاهلـــي كلـــه ولكن من خلال اطلاعي على ديوانه المطبوع في أكثر دار طبع حاولت أن استشف بعض ملامح شخصية عبيد بن الأبرص من خلال ما نسب له من أشعار وليس بما نقله عنه الرواة من أخبار فوجدته رجلاً فارسًا من فرسان قومه وسيدًا من ساداتهم ، وشاعرًا غير منازع فيهم كما كان الناطق باسمهم ورســـــولهم إلى الملوك ، ويدل شعره أيضًا على أنه كان يتميز بعقل راجح ورأي حصـــيف وحكمة ناضجة وخبرة عميقة في إيراد الأمور وإصدارها ، كما أنه كان لسان قومه الذاكـــر لأيـــامهم والمصور لحروبهم وانتصاراتهم والمدافع عنهم في السراء والضراء ، كما وجدته الشاعر الذي لا يختلف عن أمثاله من شعراء المعلقات رغم ما أُحيط به من هالة خرافية وأسطورية .

أما معلقة عبيد بن الأبرص التي رميت بالانتحال من طه حسين فيما ذكرت سابقًا فيكفي أن القصيدة مثبتة في ديوان الشاعر بأكثر من طبعة على اعتبار أن الديوان أصح ما يمكن أن يصل إلينا ، كما أن هناك من المؤرخين والنقاد والرواة القدماء من أثبتها أو بعضًا منها إلى عبيد بن الأبرص . فهـــــذا ابـــن قتيبة يذكر أنها إحدى المعلقات السبع ويعتبرها أجود شعر عبيد بن الأبرص فيقول :"وأجود شعره قصيدته التي يقول فيها :* أقفر من أهله ملحوب * وهي إحدى السبع "[٣].

أما القرشي فقد عدّها واحدة من المجمهرات مع اختلاف في المطلع [٤] وهذا التبريزي يصنفها في المعلقـــات العشـــر قائلاً :" ... وقصيدة عبيد بن الأبرص البائية تمام العشر "[٥] أما مناسبة نظم

---

(١) د . أحمد عبد الواحد – عبيد بن الأبرص – ص : ٣٢ .

(٢) أبو العلاء المعري – رسالة الغفران – تحقيق الدكتورة / عائشة عبد الرحمن – ص : ٦٩ .

(٣) ابن قتيبة – الشعر والشعراء – ص : ٤٨ .

(٤) أبو زيد القرشي – جمهرة أشعار العرب – ج٢ / ٣٣ .

(٥) التبريزي – شرح القصائد العشر – ص : ٢ .

المعلقـــة فـــإن المصادر التي بين أيدينا لم تحدد أسباب نظمها ، ولا الظروف التي اكتنفت الشاعر حينما نظمها ولكن الدكتـــور حسين نصّار محقق الديوان يظن أنها قيلت بعد إحدى غارات الحارث الأعـــرج ملـــك غسان على بني أســـد ولعلّنا نؤكد هذا الظن ونحن نستجلي المظاهر الخلقية التي اشـــتملت عليها المعلقة لأن تلك المظـــاهر تمثل بالطبع انعكاسًا حقيقيًا لمشاعر الإنسان في حربه وسلمه وشبابه وهرمه ووجوده وفنائه .

نعـــم سنجد كل ذلك لأن عبيد بن الأبرص شأنه كشأن أي شاعر جاهلي اتخذ من القنوات الخمـــس أو ما سميناه مجالات الأخلاق بوصفها نشاطًا إنسانيًا عند الشاعر الجاهلي " ولا يخفى أن البيـــئة لها أثرها الواضح في الإمداد بمكونات الصورة من طبيعة الحياة ومشاهدها وموجوداتها وأنها تتشكل بما يتفق مع الجوالنفسي في حال التصوير "[١].

إن البيـــئة متمـــثلة في المجـــالات الخمسة التي سبق ذكرها في بداية الفصل الثاني من هـــذه الدراســـة هي المادة الخصبة والقناة الصالحة للشاعر لينقل من خلالها مشاعر بني الإنسان باعتبارهم جـــزءًا مـــن الطبيعة في صورة رائعة ومحسوسة تجسد حتى المعنويات فتقدمها لنا في صورة حية تكون بمثابة الشريط السنيمائي ، وأن تلك المشاعر توجهها أخلاق إنسانية تتشـــكل بتشـــكلها فتأخذ من المحســـوســـات هيـــآت مـــاثلة مثول تلك المحسوسات تمامًا .

والآن إلى تحديد الإطار الخلقي لمعلقة عبيد بن الأبرص وفي ثنايا الحديث نؤكد ما ذهبنا إليه في الأسطر القريبة الماضية .

(أ) العقـــل :

إن مفهوم العقل عند العرب يعني معنيين متلازمين في مفهوم العقل البشري " فالعقل يكون بتمييـــز الحقائـــق والعلوم من كل ما يدور ، ثم إدراكها أي الإمساك بها وتنظيمها في سجل الحافظة والذاكـــرة ... والعقـــــل يكون بمعنى الضبط وقدرة الرفض والتمييز للخطأ أو الشر أو الزيف ، وبـــذلك يستقيم الطريق لمهمته الأولى وهي تحصيل المدركات السليمة ، والعلوم والحقائق التي تحفظ النفس والبدن وتهديهما إلى ســـــــــواء السبيــــــل "[٢] ولم يكن العرب في جاهليتهم يدركون هـــذا المفهوم لكنه لم يغب عن بعضهم ممن كان على دين معين أو كان ممن عركتهم الحياة وطال بهم العمر وعلمتهم التجارب ، أو كانت فطرهم سليمة ولو بعض الشيء حتى عُدَّ بعضهم من المتألهين أو على أقل تقدير من العقلاء والحليمين المشهـــــــود لهم وشاعرنا عبيد بن الأبرص كان ممن توفرت

---

(١) د. أحمد عبد الواحد – المرجع السابق – ص : ١٤٧ .

(٢) أحمد موسى سالم – لماذا ظهر الإسلام في جزيرة العرب – ص : ٢٠٩ .

فـيه هذه الأمور ، ومن هذا المنطلق نجد أن عبيد بن الأبـرص عندما وقف على الطلل المقفر وتفقد الأمـاكن أدرك حقيقة مهمة جدًا لا يدركها إلا من اتصف بشيء من الصفات السابقة إنها حقيقة الحياة والمـوت أو الوجـود والفـناء ، وعندما أدرك تلك الحقائق نظمـها في سجل الحافظة والذاكرة.

ها هو يرى ملحوبًا قد أقفر فيعقّب بنظره على أماكن أخرى كانت مأهولة بالناس والحركة والحياة وفجأة تصبح قفرًا " ليس بها منهم عريب " يقول ابن منظور في شرحها :" ما بالدار عريب: أي أحـد ، الذكر والأنثى سواء ، ولا يقال في غير النفي "[1] إن تلك الأماكن المذكورة التي كانت مـثَلاً للشاعر في البقاء والحياة المستمرة المطمئنة الآمـنة وفجأة أصبحت قفرًا محلاً جعلت الشاعر يفكر لا في تلك الأمكنة فقط وإنما في الكون والحياة كلها إلى أن يصل به تفكيره إلى الاعتقاد الكلي بـأن كـل شيء إلى زوال سواء المكان أو الزمان أو الحيوان .. كل الأشياء إلى فناء تتوارثها المنايا. ونتيجة لذلك التفكير العميق تولد وبرز لنا في معلقة عبيد بن الأبرص مظاهر عقلية تمثلت في الآتي :

١ – التسليم بحتمية الفناء والموت :

ويبرز هذا المظهر العقلي عند عبيد أثناء قوله :

أقفـر مـن أهلـه ملحـوب	فالقطبـيات فالذنـوب
فـراكس فثعيلـبات	فـذات فـرقين فالقلـيب
فعـردة فقفـا حـبر	لـيس بها مـنهم عـريب
وبـدلت مـن أهلـها وحوشـا	وغـيرت حالهـا الخطـوب
أرض تـوارثها شعـوب	فكـل مـن حلها محـروب

ذكر الشاعر في الأبيات السابقة تلك أماكن قومه التي أقفرت من أهلها وأصبحت خالية لا أحـد فـيها إلا الوحوش حيث تتالت عليها الخطوب وحلت بها المنايا وهو بذلك " لا يقف بالديار ليبكـي ويعـبر عن شوقه ولكنه يقف ليعتبر بما أصابها ويصور الموت مقيمًا فيها "[2] مما جعله يوقن بهذه السنة الماضية التي ترجمها عندما استنشده النعمان المعلقة فقال[3] :

أقفـر من أهلـه عبيـد	فليـس يبـدي ولا يعيـد

(١) ابن منظور – لسان العرب – ج١ / ٥٩٢ .

(٢) أحمد فرهود و زهير اليازجي – المعلقات العشر – ص : ١٣٩ .

(٣) الأصفهاني – الأغاني – ج٢٢ / ٩٢ .

٢ – صواب الرؤية :

مظهــر خلقي عقلي محمود يبرز لنا في شخصية عبيد بن الأبرص وقد اهتدى وأصاب المعنى وهــو يخرج من التفجع والتعزي الذي وصل به إلى درجة كبيرة من الجزع والحزن ليدرك بعد ذلك بصــواب فكــره أن كل شيء إلى زوال "وتبدو إصابة المعنى في الخروج من التفجع إلى التعزي برد الفجيعة إلى الأصل الثابت والقاعدة الكلية إلى الناموس العام والسنة الماضية في الحياة _ بزوال كل مملــوك وفــناء كل مالك – فيزول عنها – بذلك العجب والنكر" [١] وكل هذا من صواب الرؤية لدى الشاعر مما يجعله يقول :

إن يــك حــول مــنها أهلــها فــلا بــدئ ولا عجــيب
أو يــك أقفــر مــنها جــوها وعادهــا المحــل والجــدوب
فكــل ذي نعمــة مخلــوس وكــل ذي أمــل مكــذوب
وكــل ذي إبــل مــوروث وكــل ذي ســلب مســلوب
وكــل ذي غيبــة يــؤوب وغــائب الــموت لا يــؤوب

يقــول : إن تكن الديار قد خلت من أهلها وأصابها القحط والجدب فلا غرابة في ذلك لأن كــل صــاحب نعمــة يسلبها في يوم من الأيام ، ولأن كل صاحب أمل في شيء قد لا يناله وكل صــاحب إبل يرثه غيره كما ورثها من غيره وكل من سلب غيره شيئًا يسلبه غيره إياه ، ولم يدم له ذلــك ، وذلــك بإتيان الموت عليه ، كما أن كل من غاب عن أهله يرجع في يوم من الأيام أما من مات فغيبته لا رجعة لها .

ولعل في معاني الأبيات السابقة ما يقوي ما ذهب إليه الدكتور حسين نصار حول مناسبة نظم المعلقة إذ نجد في هذه الأبيات روح التصبر والعزاء لما يحدث للإنسان من مصائب فلعل هذا التعزي مــن الشــاعر يــرجع إلى ما وقع في قبيلته من هزيمة أو خسارة أو تشريد محتمل ، وعمومًا ما سيعقب هذا المظهر من مظاهر أخرى سوف يجلي لنا الحقائق إن شاء الله تعالى .

٣ – الحــكمة :

بعــد أن أدرك عبيد بن الأبرص بطول تجربته ، وإصابة رؤيته ، وتبصر بعقله الذي اهتدى بسنن الله من حوله خرج شاعرنا بهذه الحكم الرائعة :

---

(١) د. أحمد عبد الواحد – عبيد بن الأبرص حياته وشعره – ص : ١٢٥ .

مـــن يســأل النــاس يحــرموه ... وســائل الله لا يخــيب
بــالله يــدرك كــل خــير ... والقــول في بعضــه تلغــيب
والله ليــس لــه شــريــك ... عــلام مــا أخفــت القلــوب

فمن يطلب من الناس حوائجه يملوا طلبه ، ولم يعطوه سؤله ، وأما من يسأل الله فلن يخيب لأن الله لا يــرد سؤال عبده بل يعطيه ، وبالرجوع إليه ينال الإنسان كل خير يطلبه ويرغب فيه ، لأنــه تعــالى لــيس له شريك في ملكه وهو عالم بما تخفي الضمائر والقلوب .لكن الدارسين للأدب الجاهلي قد حملوا على هذه الأبيات وقالوا إنها منحولة لكونها تحمل في نظــرهم الطابع الإسلامي ورأوا في قول عبيد في الأبيات السابقة التي سبقت في صواب الرؤية ، والأبيــات اللاحقة لها في الحكمة تهوينًا من أمر الدنيا وتزهيدًا في العيش الذي لا يتأتى إلا بيقين ديني .

يقول الدكتور طه حسين :"ويكفي أن تقرأ هذه القصيدة التي قدمنا مطلعها –يعني المعلقة– لتجزم بأنها منحولة لا أصل لها وحسبك أنه يثبت فيها وحدانية الله وعلمه على نحو ما يثبتهما القرآن فيقول "[١] :

والله ليــس لــه شــريــك ... عــلام مــا أخفــت القلــوب

ويــبدو أن طــه حسين وغيره أطلقوا هذا الحكم الجائر على المعلقة بوجه عام ، والأبيات السابقة على وجه الخصوص دون أن يفكروا في جملة أمور هي :

١ – أن الجاهلــيين لم يكونوا كلهم مشركين يعبدون الأوثان بل كان منهم من يعبد الله وحــده ومنهم الأحناف و النصارى مثلاً .

٢ – أن العــرب الجاهليين كانوا يؤمنون بالله تعالى ويعتبرون أن ما اتخذوه من أصنام ما هي إلا وســائط تقــربهم إلى الله ، وقد ذكر الله في كتابه هذه الحقيقة فقال :"... ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى " [٢].

ومــن هنا نستبعد أيضًا أن يكون عبيد بن الأبرص نصرانيًا كما عدّه لويس شيخو[٣] لأنه لم يرد في أخباره أو أشعاره ما يدل على نصرانيته .

---

(١) د . طه حسين – في الأدب الجاهلي – ص : ٢١٠ .
(٢) الزمر / ٣ .
(٣) لويس شيخو – شعراء النصرانية – القسم الرابع – ص : ٥٩٦ .

٣ – إن في طبيعة الإنسان أنه حتى وإن كان مشركًا بالله فيصاب بفاجعة كبيرة فإنه في ساعة العسرة يرد الأمر كله لله تعالى وحده ، وقد بين الله تعالى في كتابه أيضا هذه الحقيقة فقال:" فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ "(١) قال المفسرون في تفسير هذه الآية :" أي لا يدعون معه غيره لأنهم في شدة لا يكشفها إلا هو"(٢) ولا أعتقد أن ما أصاب عبيد بن الأبرص من فواجع مع كبر سنه بالشيء اليسير فليس ببعيد أن يكون ممن ينطبق عليهم معنى الآية السابقة . وبهذا يكون التشكيك في المعلقة أو الأبيات السابقة شيئًا مستبعدًا.

٤ – كما أن هناك من المصادر الموثوق بها ما يثبت نسبة هذه الأبيات إلى عبيد بن الأبرص فهذا الحطيئة عندما سئل : من أشعر الناس ؟ قال : الذي يقول :

من يسأل الناس يحرموه	وسائل الله لا يخيب

يريد عبيد بن الأبرص (٣) .

٤ – التفطن لدقائق الأعمال وخفايا آفات النفوس :

ويبدو هذا المظهر الخلقي العقلي في معلقة عبيد ونحن نقرأ قوله :

فأصبحت في غداة قرة	يسقط عن ريشها الضريب
فأبصرت ثعلبا عن ساعة	ودونه سبسب جديب
فنفضت ريشها وانتفضت	وهي من نهضة قريب
فاشتال وارتاع من حسيسها	وفعله يفعل المذؤوب
فنهضت نحوه حثيثة	وحردت حردة تسيب
فدب من رأيها دبيبا	والعين حملاقها مقلوب
فأدركته فطرحته	والصيد من تحتها مكروب

إن عبيد بن الأبرص وهو ينقل لنا هذه الصورة الرائعة للصراع بين العقاب والثعلب يكشف لنا عن مظهر خلقي عقلي رائع يتمثل في قدرة الشاعر على التفطن لدقائق الأعمال التي تخفى على كثير من الناس إضافة إلى أنه ينقل لنا صورة نفسية للطرفين المتصارعين في هذه اللوحة التي قدمها

(١) العنكبوت / آية : ٦٥ .

(٢) تفسير الجلالين – ص : ٥٢٩ .

(٣) انظر : ابن عبد ربه الأندلسي – العقد الفريد – ج٦ / ١٠٥ ، والمعري – رسالة الغفران – ص : ٦٩ .

حيث نراه يصور لنا حال العقاب التي استجمعت قوتها لتطير نحو الثعلب مسرعة لتقتله ، وكيف أن الثعلب لما سمع صوت العقاب فزع ورفع ذنبه من شدة الفزع ، وكيف أن العقاب أخذته فألقته على الأرض صريعًا وبركت فوقه فهو مغموم تحتها لما لقي من المشقة والعناء ، وأخذت تعاود عليه الهجوم تلو الهجوم ثم ألقته على الأرض وهو حزين مكروب ، وأظافرها في جنبه ناشبة .

ونحن مع عدم مصادرة الصورة المباشرة والمعنى المباشر لهذه الأبيات إلا أننا نعتقد أن الشاعر اتخذ من صورة الصراع تلك وسيلة صالحة جدًا لينقل لنا صورة الصراع بين قبيلته بني أسد وما دار بينها وبين الغسانيين الذين كانوا يغيرون عليها بين الحين والآخر ، ولعل حرص النعمان بن المنذر على استنشاد عبيد بن الأبرص للمعلقة في يوم بؤسه يرجع إلى ما تحفل به هذه الأبيات من صور توضح إخفاق الغسانيين وانكسارهم أمام قبيلة الشاعر ، وهو هنا يفخر بما حققه قومه من انتصارات وردع للعدوان رغم الغارات المتكررة عليهم من الغسانيين وغيرهم مما جعل المستشرق بروكلمان يقول عنه :" وشعر عبيد من أصدق الشعر الجاهلي الحافل بصورة الفخر الجريء ، مع جد في تناول الحياة ، وإشراق في الوصف والعتاب "[1] .

ولك أن تقرأ بقية الأبيات المكملة لصورة ذلك الصراع المرير بين العقاب والثعلب لترى مدى مقدرة عبيد بن الأبرص على التفطن لدقائق الأعمال وخفايا آفات النفوس التي تمر على كثير من الناس ولا يعيرها اهتمامًا :

فرنحته ووضعته	فكدحت وجهه الجبوب
فعاودته فرفعته	فأرسلته وهو مكروب
يضغو ومخلبها في دفه	لا بد حيزومه منقوب

(أ) الشجاعة :

إن من ينظر في معلقة عبيد بن الأبرص بمنظار الأصل الخلقي (الشجاعة) يجد أنها تحوي مظاهر شجاعة متنوعة بين حميد وذميم وربما يعود ذلك إلى الاضطراب النفسي الذي كان يعيشه عبيد ما بين وجود وفناء وشباب وشيخوخة وتلك المظاهر هي :

١- الوفاء :

إن وفاء عبيد بن الأبرص لقبيلته وأحبابه جعلته يقف في تلك الأماكن الموحشة المقفرة ليمثل بوفائه الشجاع الوجود الإنساني فيها ، بل إن الأرض الخالية والقفر المجدب يتحول

---

(١) بروكلمان – تاريخ الأدب العربي – في ترجمة عبيد بن الأبرص . .

عـــند عبـــيد إلى رمز للوجـــود الإنساني " رمز للعلاقة الحميمة بين الإنسان والمكان...فالأرض بلا إنسان قفر وموت جمـــــاد وعـــدم والإنسان بلا أرض غربة وضياع، وجودٌ ولا هوية "[١] .

إن الأرض ممـــثلة في تلـــك الأماكن التي ذكرها عبيد قد فقدت الإنسان فتحولت إلى قفر تسكنه الوحوش :

أقفـــر مـــن أهلـــه ملحـــوب	فالقطبـــــــيات فالذنـــــــوب
فـــــــراكس فثعيلـــــــبات	فـــــذات فـــــرقين فالقلـــــيب
فعـــــــردة فقفـــــا حـــــبر	لـــــيس بهـــــا مـــــنهم عـــريب
وبدلـــــت مـــن أهلهـــا وحوشـــا	وغـــــيرت حـــالـــها الخطـــــوب

إن وقـــوف عبـــيد بـــن الأبرص وفاءً للمكان و لأهل المكان في ملحوب وجبل القطبيات والذنوب وراكس وثعيلبات وذات فرقين وغيرها رغم وحشتها ما كان في حسبانه أن تخلو من أهلها يومًا من الأيام وتمتلئ بالوحوش وتغير معالمها المصائب العظيمة .

إن تلك اللوحة المخيفة للديار التي أقفرت بعد خصبها ، وأوحشت بعد أنسها ترك في نفس الشاعر مظهرًا خلقيًا ذميمًا صدر من التفريط في فضيلة الشجاعة وذلك المظهر هو :

٢ - الجـــزع واليـأس :

ويتمثل هذا المظهر الذميم من خلال قول عبيد بن الأبرص :

أرض تـــــــوارثها شـــــــعوب	فكـــــل مـــــن حلـــــها محـــــروب
إمـــــا قتـــــيلا وإمـــــا هالكـــــا	والشـــــيب شـــين لمـــن يشـــيب
عيـــــناك دمعهمـــــا ســـــروب	كـــــأن شـــــأنيهما شـــــعيب
واهـــــية أو معـــــين ممعـــــن	مـــــن هضـــــبة دونهـــــا لهـــــوب
أو فلـــــج مـــــا بـــــبطن واد	للمـــــاء مـــــن تحـــــته قســـــيب
أو جـــــدول في ظـــــلال نخـــــل	للمـــــاء مـــــن تحـــــته ســـــكوب
تصبـــــو وأنـــى لـــك التصـــــابي	أنـــــى وقـــــد راعـــــك المشيـــب ؟!

إن عبـــيد بن الأبرص جزع فلم يصبر على ما رآه من حال تلك الديار التي تعاقبت عليها المـــنايا فأصبح كل من يترل بها مسلوبًا قتلاً أو هلكة بكبر سن أو جور فاقة أو نزول كارثة مما جعله يتحول عنوة من شجاع وفيّ رابط الجأش قوي العزيمة إلى جزعٍ باكٍ يائس .

---

(١) د. مفيد قميحة – شرح المعلقات العشر – ص : ٤٣٩-٤٤٠ .

" إن عبـــيدًا يبكي على قومه ، وينكر هذا على نفسه ، فهو لا يختلف عنهم في شيء لأنه أصبح كبيرًا أصبح مثلهم واقعًا تحت وطأة الزمن (الشيب) وإنكار البكاء عند الكبر عند الشعراء معـــروف، ويمثل انحيازًا من الشاعر إلى اليأس وعدوله عن الأمل أو لنقل غلبة اليأس على الأمل في نفسه "(١).

٣ – ورود المياه الآجنة وتعسف السبل المخيفة :

وهذا مظهر شجاع يتغنى به الشاعر الجاهلي ليشهد له متلقو شعره بالشجاعة والإقدام وعلو الهمة حيث نراه " يصف المنهل بأنه ناءٍ نازح متوغل في أعماق مفازة تيهاء يهماء مخوفة لا يجتازها إلا ذو قلب قوي ونفس متوطنة على تجشم الصعاب ، والصبر على المهام الشداد ، لا تعوقه عن بغيتها العوائـــق ... ويـــرد عبيد بن الأبرص موردا آجنًا، الطريق إليه مجدب موحش ، وليس يرى حوله سوى الريش ، وأرضه مرهبة للقلب القوي " (٢) .

يقول :

فـــــرب مـــــاء وردت آجـــــن ... ســـــبيله خائـــــف جـــــديب
ريـــــش الحمـــــام علـــــى أرجائـــــه ... للقلـــــب مـــــن خـــــوفه وجـــــيب
قطـــعتــــه غــــــدوة مشيحـــــا ... وصـــاحـــبي بـــادن خبـــوب

يقول المستشرق (جرونباوم) :" الشاعر القديم لا يشق له غبار في الإشادة بنفسه ، تلك هي غـــايته إذا تحدث عن جودة حصانه ومساهمته في مغامرات الصيد ، وحضوره مجالس اللهو .. فكل همـــه إبـــراز مكانته الاجتماعية الرفيعة .. وإذا ذكر الصحراء المخوفة يجتازها وحيدًا ، ومنبع الماء المهجـــور الـــذي لا يقـــوى على بلوغه إلا أوابد الوحوش – فإنما ذلك لكي نشهد له جميعًا بفرط إقدامـــه"(٣).

وهكـــذا نجد أن ورود المياه الآجنة وتعسف السبل المخيفة يمثل مظهرًا شجاعًا لدى الشاعر الجاهلـــي وصورة " مثالاً " رأينا الشعراء الجاهليين ممثلين في شعراء المعلقات " يتنافسون في الإلحاح والتأكـــيد علـــى مكونـــاتها ولا يكاد يحيد عنها حائد ، وكل يبتغي الفخر بشدة البأس ، وصلابة العـــود ، ومضاء العزم ، بل بالرجولة التامة المتحلية بالإقدام والاقتحام والمغامرة ، والتميز العضلي

---

(١) د. عبد العزيز محمد شحادة – الزمن في الشعر الجاهلي – ص : ٢٢٩ .

(٢) د. محمـــد بـــن سليمان السديس – بحوث كلية اللغة العربية – جامعة أم القرى – عدد (٤) – ص : ٢٠٠، ٢٠٦ .

(٣) انظر : د. أحمد عبد الواحد – عبيد بن الأبرص حياته وشعره – ص : ١٤٣ .

والخلقـــي ، كل يصدح بأقوى ما يطيقه فـــوه بأنه خاض حنادس الدياجي شاقًّا الفيافي المتيِّهة فريدًا وحـــيدًا – في الغالب – فأمكنه ورود المنهل الخفـــي النائي الآجن الذي مكث سود الليالي وبيض الأيام دون أن تمس أرضه قدم أو يدلى إلى مائه مُـــدْلٍ"(١).

٤ – كسر النفس والاحتمال :

وكسر النفس والاحتمال مظهر خلقي شجاع محمود يصدر من اعتدال قوة الشجاعة ، وقد برز هذا المظهر في معلقة عبيد من خلال قوله :

قطعــــــته غـــــــدوة مشـــــيحا ... وصـــــاحبي بـــــادن خـــــبوب

عيرانـــــة مـــــوجد فقارهـــــا ... كـــــأن حاركهـــــا كثـــــيب

أخلـــف مـــا بـــازلا سديســـها ... لا حقـــــة هـــــي ولا نـــــيوب

كأنهـــا مـــن حمـــير غـــاب ... جـــون بصـــفحته نـــدوب

أو شـــبب يحتفـــر الرخـــامى ... تلفـــه شمـــأل هبـــوب

هـــا هو عبيد بن الأبرص يشيد بصحبة ناقته التي رأى فيها الأداة الصالحة لإخبارنا بقوة قلبه وشـــدة عـــزمه لقد بلغت تلك الناقة سن العنفوان من القوة ألا تراه يشبهها بحمار الوحش الذي تظهـــر آثار العض في جنبه من كثرة العراك ؟! كما أكده بوصف الثور الذي أعقبه في التشبيـــه بـــه – بأنه تم سنه وشبابه وصار لقوته واشتداده وصبره وقوة تحمله يرتعي متفردًا لا يلزم القطيع (تلفه شمأل هبوب) إنني لا أرى هـــذه الأوصاف للناقة إلا المعادل الموضوعي لصورة عبيد بن الأبـــرص نفسه وقد طال عمره واشتد عوده ثم عاش طويلاً في عراك مع الحياة ، ولا أحسب آثار ذلـــك العـــض وتلك الندبات في حمار الوحـــش إلا صورة صادقة ودقيقة لآثار تطاول الزمان والشيخوخة على الشاعر نفسه وهو يحاول الوقوف بكل جـــرأة وحزم أمام جميع التحديات .

يقـــول المستشرق الألماني (فالتر براونه) :" لقد ملأ التفكير في الوجود والمصير على الشاعر الجاهلي حياته غير أنه لم يكن تعبيرًا صادرًا عن تشاؤم ، وإنما كان حـــافزًا يحفزه على الإقبال على الحياة .. فإنه بعـــدما نظر إلى تهديد الوجود ـــ بجرأة أكيدة ـــ اكتسب نشاطًا جديدًا وعزمًا قويًا.. إن العزم على الحيـــاة والعمل ليس ممكنًا إلا إذا أدرك الإنسان أن وجوده محدود ومتناهٍ ،. إن كل إمكانات العمل تقع في هـــذه الحدود ، والإنسان ملزم بتحقيق هذه الإمكانات .." (٢).

---

(١) د. محمد بن سليمان السديس – المرجع السابق – ص: ٢١١ .

(٢) فالتـــر بـــراونه – مقالـــة بعنوان (الوجودية في الجاهلية) – في مجلة (المعرفة) السورية – عدد حزيران سنة (١٩٦٣م) .

٥ - الفخر بركوب العتاق من الخيل :

لقد كان ركوب الخيل عند الإنسان الجاهلي دليلاً قويًا على فرط شجاعته ، وعلو همته .

إضـــافة إلى أنه كان يرى في تلك الخيل القناة الصالحة في تجسيد المظاهر المعنوية الشجاعة إلى كـــونها تمـــثل صـــورة إنسانية تنقل إلينا بكل صدق جرأة الإنسان وإقدامه ، وما قد يعتري ذلك الإقدام أحيانًا من يأس وانقباض عن تناول الحق والواجب كما سيأتي ذكره .

يقول عبيد :

فـــــذاك عصـــــر وقـــــد أراني	تحملـــــــني نهــــدة ســـــرحوب
مضـــــبر خلقهـــــا تضـــــبيرا	ينشـــق عـــن وجههـــا الســــبيب
زيتيـــــة ناعـــــم عـــــروقهـــــا	ولـــــين أســــرهـــــا رحــــيب

إن عبـــيدًا في الأبـــيات السابقة يقدم لنا من خلال فرسه مثالاً حيًّا للفتوة العربية التي ألقت بظلالهـــا على تلك الفرس القوية السريعة ، الموثقة الخلق القوية البصر لا يغطي عينيها شعر ناصيتها ولـــونها كلـــون الـــزيت وهي ساكنة وادعة ليس بها مرض يقلقها فيخرجها من هدوئها ووداعتها وليســـت بناتـــئة العـــروق بل ملســـاء لينة كأنها العقاب التي تصيد الطيور فيتساقطن في وكرها . وكأني بعبيد بن الأبرص يقدم لنا لوحة صادقة عن فتوته وشبابه وقوة بدنه وصلابة عوده الذي كان خالـــيًا من الأمراض وأعراض الشيخوخة ، ولهذا نـــــراه يقول : " فذاك عصر وقد أراني تحملني نهـــدة ... " ولم يشد بمزية صحبتها مثل الناقة "وصاحبي بادن ... " وما ذلك إلا لأنه في حديثه عن الفـــرس يتكلم عن شبابه الذي أصبح مفقودًا ، وقد رمز لنفسه الشابه تلك بالفرس ثم ألقى عليها بظلال حيوته وشبابه المفقود .

٦ - اليأس والانقباض عن تناول الحقوق والواجبات :

وهذا مظهر خلقي مذموم صادر من الإفراط في الشجاعة إلى درجة التهور ، ويبرز لنا هذا المظـــــهر من خلال قول عبيد :

كأنهـــــا لقـــــوة طلــــــوب	تحـــــن في وكـــــرها القلــــــوب
باتـــــت علـــــى إرم رابـــــئة	كأنهـــــا شـــــيخة رقـــــوب
فأصبحـــــت فــــي غـــــداة قـــــرة	يسقـــط عـــن ريشهـــا الضـــريـــب

إن عبـــيدًا في هـــذه الأبيات يصف لنا تلك العقاب التي باتت على جبل لا تأكل ولا تشرب كالعجوز الثكلى يمنعها الثكل من الطعام والشراب ، وهو إذ يقدم لنا هذه الصورة البائسة للعقاب إنمـــا يرمـــي علـــيها بظـــلال نفسه وقد بلغ من الكبر عتيا فأصبح يائسًا منقبضًا عن تناول حقوقه وواجباته ، وقد كان قبل ذلك الحال الفارس المغوار الذي لا يشق له غبار .

إنهـــا الحـــياة تـــتغير بالإنســـان من حال إلى حال " ولعل عبيدًا بن الأبرص اقترب أيضًا إلى لبـــيـــد والخنســـاء في صورة شبه وجدانية رسمها للعقاب التي جعلت تنظر إلى الحياة بعين واجفة ممتنعة عن الأكل والسعي لأنها افتقدت وليدها ولبثت يائسة ، لا أمل لها بإنجاب أولاد آخرين ولقد قضـــت الليل ساهدة ثم طـــلع عليها صباح كثير القر غشي ريشها منه جليد يتساقط تساقطًا "[1]

لقد وجد عبيد بن الأبـــرص في صورة العقاب تلك المعادل الموضوعي لحاله حيث أصبح طاعنًا في الســـن ضعيفًا لا أمل له في إنجاب عمر جديد فيئس من الحياة التي أصبحت تلقي عليه عناقيد البلاء يومًا بعد يوم .

٧ – استجماع القوى لمجابهة المصاعب :

ومصـــاعب الحـــياة كثيرة جدًا ، وتزداد صعوبة على من هو مريض أو طاعن في السن أو فاقـــد للنصير والعضيد ـ كعبيد بن الأبرص ـ فلا يبقى أمامه إلا العودة إلى النفس والبحث عما بقـــي فـــيها من قوة ونشاط لعل في استجماعها معونة على مجابهة مصاعب الحياة ونوائبها . وفي هذا الشأن يقول عبيد :

فأبصـــرت ثعلـــبا عـــن ســـاعة ودونـــه سبســـب جـــديب
فنفضـــت ريشهـــا وانتفضـــت وهـــي مـــن نهضـــة قـــريـــب

هـــا هـــي اللّقـــوة – ممـــثلة فيها شخصية عبيد بن الأبرص الإنسانية وقومه – بعد يأسها وانقباضـــها في المظهـــر السابق لم يعد أمامها إلا محاولة استجماع ما بقي من قوتها رغم يأسها وكبر ســـنها (كأنها شيخة رقوب) فما أن تبصر الثعلب – الصيد والعدو على حد سواء – حتى تنفض ريشـــها وتستجمع قوتها فتنقض طائرة على فريستها لتضمن بذلك استمرار حياتها في صراع رهيب مع نوائب الدهر ومصائبه . وفي الصـــورة السابقة تأكيد لما ذهب إليه الدكتور حسين نصّار محقق الديوان فيما ذكرناه سابقًا من أن المعلقة قيلت بعد إحدى غارات الحارث الأعرج ملك غسّان على

---

(١) د . إيليّا الحاوي – فن الوصف وتطوره في الشعر العربي – ص : ٣٣ .

بـــني أســـد ، ولعل عبيد بن الأبرص يقدم صورة هذه اللقوة إلى قومه أيضا لحثهم على الصمود في وجـــه العدو مهما كان مكره مؤكدًا لهم أن النصر لا يكـــــون إلا باستجماع القوى والصبر على نوائب الدهر .

إن عبـــيدًا بن الأبرص يقدم صورة حية للصراع الشديد بين اللقوة ممثلة في قبيلة الشاعر التي كانـــت تتـــرقب لمجابهة العدو ، والثعلب الذي يرمز للعدو وحيلته الماكرة التي جرته إلى التضعضع والانكســـار والمهانـــة عـــندما تهور في سرعته وأخطأ في حسبته فأدركته اللقوة فأخذته وألقته على الأرض وإنه وإن كان لاذ بالهرب فلا بد وأن تكون اللقوة قد أدركته فوقع مغمومًا تحتها لما لقي من المشـــقة والعـــناء ، ونتيجة لتلك المعـــاودة في الهجوم عليه أخذ يصرخ ويصيح وأظافـــر اللقوة في جنـــبه ناشبة فلا شك أن صدره قد شُقّ و" أغلب الظن أن إحساسه العميق بالفقد هو الذي هداه إلى هـــذه الصـــورة . وممـــا يقوي هذا الظن أن مشاعر الفقد تتغلغل في ثنايا القصيدة من أولها إلى آخـــرها ، ويكفـــي أن ننظر إلى هذه القصيدة نظرة عجلى لنرى صـــدق ذلك فنغمة الفقد عالية طاغـــية فيها ، فهي في حديث الأطلال ، وفي حديث الهلاك والموت ، وفي اختلاس النعم والآمال الكاذبـــة ، والإبل الموروثة ، والسالب والمسلوب،وغيبة الميت وفي حكـــاية العقاب وصورة هـــذه العجـــوز "[1] ثم يكمـــل عبـــيد بن الأبرص لوحة الصراع تلك بمظهر خلقي ذميم وسم به الشاعر أعـــداءه وهـــو صادر عن التهور في الشجاعة وذلك المظهر هو :

٨ – ذم المهانة والذلة والخساسة :

فاشـــتال وارتـــاع مـــن حسيســـها ... وفعلـــــه يفعـــــل المـــــذؤوب

فنهـــضـــــت نحـــوه حـــثيثـــــة ... وحـــــردت حـــــــردة تســــــيب

والمظهـــر السابق يتضح في المظهر المهين والذليل الذي أصبح فيه الثعلب بعد أن استجمعت اللقـــوة قواها رغم ظروفها القاسية ونهضت نحو الثعلب لتلقنه درسا لا ينساه ، وإنني لأرى في حال اللقـــوة مع الثعلب حال عبيد وقومه مع أعدائهم ، وما هذه الصورة العدائية بين اللقوة والثعلب في مقامها الأول إلا رمز لتلك الحال العدائية القائمة بين القبيلتين .

ولعـــل طلـــب الـــنعمان بن المنذر منه أن ينشد عليه هذه المعلقة يرجع إلى ما تحمله الأبيات السابقة من تعريض بالغسّانيين المنافس الوحيد للمناذرة .

---

(١) د. وهب أحمد رومية – شعرنا القديم والنقد الجديد – ص : ٣١٩ .

(جـ) العـــدل :

أما فضيلة العدل فنجدها في معلقة عبيد بن الأبرص تبرز من خلال المظاهر التالية :

١ - المساعدة بالنصح والتبصير :

وإنما عُدّ هذا المظهر الخلقي من مظاهر العدل لأنه من باب التبرع بالنائل الذي ذكره قدامة بن جعفر في أقسام العدل وذلك باعتبار النصح والتبصير من أجلّ ما يمكن أن يقدمه الإنسان لأخيه الإنسان وخـاصة من إنسان مجرب قد عركته الحياة ،وفي هذا يقول عبيد بن الأبرص :

أعاقـــر مـــثل ذات رحـــم ... أو غـــانم مـــثل مـــن يخـــيب

افلـــح بمـــا شـــئت فقـــد يـــدرك ... بالضـــعف وقـــد يخـــدع الأريـــب

لا يعـــظ الـــناس مـــن لا يعـــظ ... الدهـــر ولا يـــنفع التلبـــيب

لا يـــنفع اللـــب عـــن تعلـــم ... إلا الســـجيات والقلـــوب

فقـــد يعـــودن حبيبـا شانـــئ ... ويـــرجعـــن شانئـًـا حبيـب

يقدم عبيد بن الأبرص نصحه في ثوب التبصير بعقد المقارنات بين المرأة التي لا تلد وبين المرأة الولـود فلا تستوي التي تلد والتي لا تلد ، ولا يستوي من خرج فغنم ، ومن خرج فرجع خائبًا ، وربمـا استطـــاع الضعيف بضعفه أن يدرك ما لا يدركه القوي ، ومن لم يتعظ بالدهر فإن الناس لا يقـدرون على عظـته ولا ينفع أحدًا أن يتكلف العقل من دون طباع ولا سجية ، وكثيرًا ما يتحول العدو صديقًا والصـــديق يتحول إلى عدو .

٢ - إنصاف القريب والبعيد :

مظهر خلقي عدل يظهر عند عبيد بن الأبرص من خلال قوله :

ســـاعد بـــأرض إذا كـــنت بهـــا ... ولا تقـــل : إنـــني غـــريب

قد يوصل النازح النائـــي وقـــد ... يقطـــع ذو السهمـــة القريـــب

يقول عبيد : من كان في دار غربة فعليه أن يمد يد المساعدة إلى من حوله ولا يحجم عن ذلك مـتذرعًا بالغربة فقد يعق الناسُ ذا قرابتهم ، ويصلون الأباعد . وهذا أمر لا يليق بذوي العقول، بل الخـير أن ينصف القريب والبعيد .

٣ - الجـور :

وهـذا المظهـر الخلقـي الذميم يعد الطرف المرذول لفضيلة العدل ويبرز عند عبيد بن

الأبرص في معلقته من خلال قوله :

والمـــرء مـــا عـــاش في تكـــذيب　　　طـــول الحـــياة لـــه تعـــذيب
بـــل إن تكـــن قد علتـــني كـــبرة　　　والشيـــب شـــين لمـــن يشيـــب

حـــيث نرى عبيدًا في الأبيات السابقة يتبرم من الدنيا ويتأفف منها وذلك السأم عنده"متولد عن الموت الذي يطحن الناس ويحول الحياة إلى مصدر للعذاب والشقاء والألم ، كما يحولها إلى خرافة وكـــذب وخداع إلى سراب مضل وومض سرعان ما يتلاشى ويزول"[1] ولم يعد الشيب الذي ظهر في رأســـه وذقنه دليلاً للوقار والزهد في ملذات الدنيا بل أصبح أمرًا مفزعًا " وقوله والشيب شين لمن يشيب يقـــــول إن لم يقتل وعمر حتى يشيب فشيبه شين له وكانوا يستحبون أن يموت الرجل وفيه بقية قبل أن يفرط به الكبر[2] .

(د) العـــفة :

وعندما ننظر إلى معلقة عبيد بن الأبرص بمنظار فضيلة العفة فإننا نخرج منها بمظهرين خلقيين هما:

١- اللطـــافة والمساعدة :

يقول عبيد بن الأبرص مبرزًا هذا المظهر الخلقي الحميد :

ساعـــــد بـــــارض إذا كنـــت بها　　　ولا تقـــل : إنـــــي غـــريـــب

واللطافـــة والمساعدة مظهر خلقي يصدر من اعتدال العفة لدى عبيد حيث نراه يدعو إلى تقـــديم المســـــاعدة إلى جميع الناس وقد عفّ وتحرر من القيود الاجتماعية المتمثلة بالرابطة القبلية ليوحد الناس على اختلافهم تحت راية الإنسانية التي يجمعها مصير واحد وهو الشعور بالفناء الذي ولّد عند عبيد مظـــهرًا جديدًا من مظاهر العفة ألا وهو :

٢ - القنـــاعة :

وهـــذا المظهر الخلقي من أقسام العفة عند قدامة بن جعفر ، ونراه في معلقة عبيد بن الأبرص يبرز من أول بيت فيها حيث يقول :

أقفـــر مـــن أهلـــه ملحـــوب　　　فالقطبيـــــــات فالذنــــــوب

---

(١) د. مفيد قميحة – الســـــــابق – ص : ٤٤٣ .

(٢) التبريزي – شرح القصائد العشر – ص : ٣٢٤.

إن إقفـــار هذه الأماكن التي لم يكن في حسبان الشاعر أن تخلو من أهلها في يـــوم من الأيام قـــد ورثـــت في نفســـه قناعة تامة بأن كل شيء إلى زوال مما جعله ينكـــر على نفسه التصابي والعشق وقد أفزعه الشيب الذي ينذر بنهاية الحياة حيث يقول :

تصبـــــو وأنى لك التصـــــابي أنـــى وقـــد راعـــك المشـــيب

وقـــد أراد عبـــيد أن يقـــنع نفسه ومن يسمع شعره عن طريق التمثيل المستوحى من وجود الإنســـان الذاتي المتبدل عبر الزمن ، "ذلك الوجود الذي يتغير وفق مسار تصاعدي ينتهي إلى نتيجة حتمـــية لا تقبل الجدال والمناقشة ... فالحياة ليست دائمة بل هي كأي وجود آخر سوف يختلسها الموت كما يختلس المحل الجدب رونق المكان وبهجته ونعماءه "[1].

إن يـــك حـــول مـــنها أهلـــها فـــلا بـــديٌّ ولا عجـــيب
أو يـــك أقفـــر منهـــا جـــوهـــا وعـــــادهـــا الـــمحل والجـــدوب

(١) د . مفيد قميحة – السابق – ص : ٤٤١ .

وبعـــد أن انتهينا بحمد الله تعالى وعونه من تحديد الإطار الخلقي لكل معلقة من المعلقات العشـــر آن لـــنا الآن أن نقارن بين فضائل ورذائل كل شاعر من الشعراء العشرة لنرى أيها يغلب علـــى الآخر عند كل واحد منهم ؟ وهل تغتال رذائل شاعر المعلقة فضائله وتزري بها ؟ وهل يصح مـــا يدعيه بعض شعراء المعلقات لنفسه من الحكمة والعقل والنظر في العواقب مع إقباله على اللهو وتعلقه بالملذات ؟

(استبانة توضح فضائل ورذائل الشعراء العشرة في معلقاتهم حسب أصول الأخلاق الأربعة)

	أصول الأخلاق / الشعراء	أ- العقل		ب- الشجاعة		ج- العدل		د- العفة		المجموع	
		فضائل	رذائل	فضائل	رذائل	فضائل	رذائل	فضائل	رذائل	فضائل	رذائل
١	امرؤ القيس	٨	٦	٦	٣	٠	١	١	٣	١٥	١٣
٢	طرفة بن العبد	٤	١	١٥	٢	٢	١	٢	٠	٢٣	٤
٣	زهير بن أبي سلمى	٨	٠	٨	٠	٢	١	٤	٠	٢٢	١
٤	لبيد بن ربيعة	٧	٠	١١	١	٧	٠	٦	٠	٣١	١
٥	عمرو بن كلثوم	٩	٠	١٣	١	٢	٠	٣	٠	٢٧	١
٦	الحارث بن حلّزة	٨	٠	٩	٠	٤	٠	٤	٠	٢٥	٠
٧	عنترة بن شداد	٤	٠	١٢	٠	١٠	٠	٥	٠	٣١	٠
٨	الأعشى	٥	٢	٥	٢	٣	٠	٢	٣	١٥	٧
٩	النابغة الذبياني	١٠	٠	٩	٠	٤	٠	٢	٠	٢٥	٠
١٠	عبيد بن الأبرص	٤	٠	٦	٢	٢	١	٢	٠	١٤	٣
مجمـــوع كل من الفضائل والرذائل لدى الشعراء العشرة في معلقاتهم										٢٢٨	٣٠

في الاستبانة السابقة تبدو الفضائل لدى الشعراء العشرة في معلقاتهم هي الأكثر عددا رغم وجـــود بعـــض الرذائل التي كادت أن تخنق صور ومظاهر الفضيلة خاصة عند امرئ القيس وطرفة والأعشى وعبيد بن الأبرص على أن امرأ القيس أكثر المذكورين في عدد مظاهر وصور الرذائل ومع

ذلـــك كلـــه يؤكد لنا الاستبيان السابق أن جانب الفضيلة هو الجانب الأقوى لدى شعراء المعلقات العشـــر جميعهم وأن جذوة الفضيلة بقيت حية لدى أولئك الشعراء تشعلها بين فينة وأخرى العودة إلى الفطـــرة الإنسانية بين الحين والآخر مما يؤكد لنا أن كفة الفضيلة التي فطر عليها العربي ممثلاً في الشـــعراء العشرة هي الكفة الأرجح مما يؤكد أيضًا أن الأصل في البشر حب الفضـــيلة والميـــل إلى الأخـــــلاق المحمودة { فطرة الله التي فطر الناس عليها } [١] .

إلا أن الفطـــرة الســـوية التي فطر الله الناس عليها تعصف بها أحيانًا أعاصير النفس الأمارة بالسوء خاصة في عصر كالعصر الجاهلي .

وبمعـــاودة النظـــر إلى الاستبيان السابق يمكننا أن نستنتج الأسباب التي كانت وراء وجود بعض مظاهر وصور الرذيلة عند شعراء المعلقات العشر والتي تتمحور في أربعة أسباب هي :

١ - الترف مدعاة إلى الفسق والرذيلة :

إن زيـــادة التـــرف لدى الإنسان مدعاة إلى الفسق والرذيلة خاصة في غياب الوازع الديني الـــذي كان العربي الجاهلي يعاني من غيابه كثيراً مما جعله يعب من جميع مناهل الترف والتلذذ بجميع أصـــناف اللهـــو والـــمجون دون رادع يردعه وإنما يرجع ذلك الانغماس في مظاهر الترف واللهو والمجون إلى سببين رئيسين هما :

أ - كـــون الشـــاعر من طبقة مترفة وغنية كما هو الحال لدى امرئ القيس مثلا فهو ملك ابن ملـــك مـــا كان همه وهذا وضعه الاجتماعي إلا الازدياد من شرب الخمر والتلذذ بالنساء والخروج إلى الصيد والجلوس الطويل على منابع المياه ومزاولة اللهو والمجون .

ب - وجـــود قنوات تجر إلى الرذيلة وعدم وجود رادع قوي يمنعه من التمادي في تلك الرذائل ومـــزاولة أماكنها كما نجد ذلك عند طرفة بن العبد الذي كشف لنا من خلال بيت واحد في معلقـــته أن أبـــواب الفضـــيلة مفتوحة وأبواب الرذيلة أيضًا مفتوحة أمام كل من يريد الولوج فيها حيث يقول :

وإن تبغـــني في حلقـــة القـــوم تلقـــني   وإن تقتنصـــني في الحـــوانيـــت تصطـــــد

فوجـــوده في حلقـــة القوم فضيلة بيد أن وجوده في حوانيت الخمارين رذيلة جعلت قومه ينفرون منه ويفردونه إفراد البعير الأجرب كما عرفنا .

---

(١) سورة الروم / آية ٣٠ .

٢ – الخواء الروحي :

فالشـــاعر الجاهلي لم يكن يجد لنفسه متنفسا روحيا يحفظ له فضائله مما جعله يدير نظره في الأفق ، ويكثر من الوقوف على الأطلال ، ويفكر في مصير من سبق إلى الموت فلا يجد تفسيرا مقنعًا للتســـاؤلات التي كانت تمليها عليه نفسه كالحكمة من وجوده في الحياة ومعرفة ما بعد الموت ولماذا تـــتقلب الأحوال بالإنسان ؟ ومـــا ذا يفعل أمام تلك المواجهات الصعبة مع الحياة ؟ كل هذا ولّد عنده مظاهر وصور مرذولة فالأعشى مثلاً لم يكن لديه ما يشغله سوى التنقل بين القبائل والتكسب بشعـــره و صرفه في مختلف صنوف اللهو والمجون والملذات .

كمـــا أنـــه ونتيجة لذلك الخواء الروحي أيضًا نجد أن الشاعر الجاهلي بفكره المحدود يضع لنفسه مبادئ يعيش بها ومن أجلها كما يتضح ذلك جليا في قول طرفة بن العبد :

فلـــولا ثـــلاث هـــن مـــن عيشة الفتى	وجـــدك لم أحفـــل مـــتى قـــام عـــودي
فمـــنهن ســـبق العـــذلات بشـــربة	كمـــيت مـــتى مـــا تعـــل بالمـــاء تـــزبد
وكـــري إذا نـــادى المضـــاف محنـــبا	كســـيد الغضـــا نبهـــته المـــتورد
وتقصير يوم الدجـــن والدجـــن معجـــب	ببهكنـــة تـــحـــت الطـــــراف المعمـــد

وبفكـــره المحدود ذلك قد يرى في الرذيلة فضيلة ومبدأ كما هو حال طرفه في نظرته للحياة وقصـــرها على الأمور الثلاثة – شرب الخمر ، وإجابة الصريخ ، والتمتع بالمرأة – لكن هذا لا يمنع من وجود من وصل به عقله إلى أن هناك يوما آخر فيه يحاسب الناس بعد مماتهم كما هو الحال عند زهير القائـــــــل :

فـــلا تكـــتمن الله مـــا في نفوســـكم	ليخفـــى ومهمـــا يكـــتم الله يعلـــم
يؤخـــر فيوضع فـــي كتـــاب فيـــدخـــر	ليـــوم الحســـاب أو يعجـــل فينقـــم

٣ – المرحلة العـــمـــرية :

سبب قوي أيضا له دوره في الإخلال بفضائل الإنسان خاصة مرحلة المراهقة التي عانى منها طـــرفة بـــن العبد كثيرًا فإذا ما هدت عاصفة تلك المرحلة الصعبة نراه يضع نفسه في مصاف كبار القوم وأسيادهم وفضلائهم وحكمائهم أيضًا حتى إذا هاجت فيه ريح الشباب والمراهقة نجده ينساق وراء أوهام نفسه الشابة المراهقة التي لا تؤمن إلا باغتنام فرص اللهو والملذات .

وقـــد يبلغ الإنسان مرحلة عمرية طويلة يرى نفسه فيها قد بلغ أرذل العمر مما يجعله يسأم مـــن الحياة خاصة إذا كانت تلك الحياة مشوبة بالمصاعب والنوائب كالحروب والمرض والفقر وغير ذلك .

يقول زهير بن أبي سلمى الذي عاش عمرًا طويلاً في ظروف الحرب بين عبس وذبيان :

سئمت تكاليف الحيـــاة ومـــن يعـش ثمانـين حـــولاً لا أبا لك يســـأم

ويقول عبيد بن الأبرص الذى عانى من ظروف الحرب والمرض وكبر السن الشيء الكثير :

والمـــرء مـــا عـــاش في تكـــذيب طـــول الحـــياة لـــه تعـــذيب

بل إن تكـــن قد علتـــني كـــبرة والشيـــب شـــين لـــمن يشيـــب

٤ - العنصرية والظلم :

إن العنصرية والظلم من الأسباب التي جعلت الإنسان الجاهلي يقع في الرذيلة حينًا ويطالب بالعدل والمساواة حينًا آخر فطرفة بن العبد تعرض من ظلم أقاربه إلى ما جعله ينفر منهم فيقول :

وظلـــم ذوي القـــربى أشـــد مـــرارة علـــى المـــرء مـــن وقـــع الحســـام المهند

فـــذرني وخلقـــي إنـــــني لك شاكـــر ولـــو حـــل بيـــتي نائيـــا عنـــد ضـــرغد

وعنتـــرة بـــن شداد كان يعاني من إنكار أبيه له بسبب سواده مما جعله في كثير من أبيات معلقـــته ينادي إلى العدل المفقود ، ويحرص أن يجعله شغله الشاغل وهو يخاطب ضمير الإنسانية من خلال خطابه لابنة عمه عبلة ، وقد سبق أن رأينا فضيلة العدل عنده جاءت في عشرة مظـــــاهر كلـــها تحمـــل الدعوة إلى العدل والمساواة الذي افتقر إليه الإنسان الجاهلي عمومًا وعنترة بن شداد على وجه الخصوص .

هـــذه الأسباب الأربعة التي أدت إلى تورط بعض شعراء المعلقات العشر في صور من صور الـــرذيلة إلا أن تلك المظاهر والصور المرذولة كما هو واضح في الاستبيانة السابقة لم تؤد إلى اغتيال الفضـــيلة لـــديهم كما أن ما ادعاه شاعر المعلقة (وخاصة شاعر صغير السن كطرفة) من الحكمة والنظـــر في العواقب وغيرها من الصور العقلية رغم لهوه ومجونة أمر نؤمن بصحته خاصة إذا ما كنا نـــؤمن بالمقـــولة التي تقول (ما الشاعر إلا مجموعة خراف مهضومة) فطرفة بن العبد - على وجه الخصـــوص - رغم صغر سنه إلا أنه كان شاعرا مقتدرا يصيغ الحكم والفضائل العقلية التي تتطلب التجـــربة العميقة في الحياة في أسلوب شعري جميل ولكن ليس لزومًا أن تكون تلك الحكم من تجربته الخاصـــة وإنمـــا هـــناك حكـــم كثيرة صاغها العرب بتجاربهم نثرًا وعاها عقل طرفة وحفظها قلبه واختزنتها ذاكرته ليخرجها بدوره في ثوب جديد من خلال شعره .

كما " إن السلوك الإنساني والعواطف البشرية ، والحب والكراهية ، والحــرب والسلام ، والـــنقمة والرضـــى ، كل هذه المظاهر الإنسانية هي التي دفعت الشاعر العربي لصنع هذه السبيكة الذهبية الغالية التي نسميها الحكمة"[1] والشعراء الجاهليون مارسوا ذلك السلوك كبيرهم وصغيرهم فـــلا غـــرابة أن يصـــدر منهم مثل هذه الحكم ، على أننا نؤمن إيمانًا تامًا بأن طول العمر وممارسة السـلوك الإنســاني بمختلف مظاهره يجعل من الإنسان ذا خبرة عميقة في الحياة كما هو الحال عند زهير بن أبي سلمى وبقية شعراء المعلقات .

---

(١) محمـــد إبراهيم أبو سنة – الحكمة في الشعر العربي – مجلة الفيصل – العدد (١١٤) ذو الحجة ١٤٠٦هـ – ص : ١٠٥.



الفصل الثالث

التعبير الفني عن الأخلاق في المعلقات العشـــــــر

" القيم والقضايا الأخلاقية وأثرها في التشكيل"

أولاً : عناصر الصورة الأدبية من خلال نصوص المعلقات العشر .

ثانيًا : الشـــــكل :

أ – مفهومه . ب – عناصره .

ثالثًا : الصورة الفنية للأخلاق في المعلقات العشر :

أ – مفهوم الصورة الفنية وأثرها في الشعر .

ب– مصادر الصورة الفنية لأصول الأخلاق ومظاهرها عند شعراء المعلقات :

١ – المصدر الطبيعي .

٢ – المصدر الحيواني.

٣ – المصدر البشري .

رابعًا : أ – أنماط الصورة الفنية للأخلاق في المعلقات العشر :

١ – التشبيه .

٢ – المجــاز.

٣ – الكنايـــة.

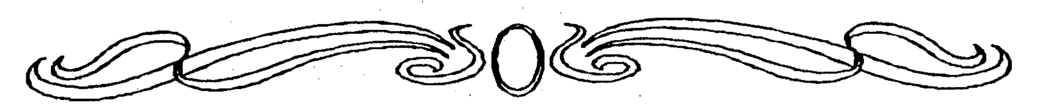
٤ – الرمـــزية .

ب – أنواع البناء الفني لصورة الأخلاق في المعلقات العشر :

١ – البنــــــــاء التتــابعي .

٢ – البنــــــــاء المتــد .

٣ – البنــــــــاء التقــابلي .



أولاً :عناصر الصورة الأدبية من خلال نصوص المعلقات :

"مـــادة الأدب توجد في أي صورة من صور الحياة وانتقال هذه المادة إلينا يحدث في نفوسنا المتعة وقد يشكل حياتنا "[١] والأخلاق ما بين محمودها ومذمومها تتدخل في كل نشاط إنساني كما عـــرفنا ســـابقًا. معـــنى هذا أن الأخلاق صورة من صور الحياة الإنسانية ومن ثم هي مادة من مواد الأدب يمكـــن أن تنتقل إلينا وتحدث في نفوسنا المتعة وقد تشكل حياتنا أيضًا خاصة ونحن نعرف أن أصول الأخلاق الأربعة بمظاهرها المختلفة فطرية كانت أو مكتسبة رغم معنويتها إلا أنها تتجسد في الســـلوك الإنساني الذي يمكن الإحساس به ومشاهدته واكتسابه لأن" نفي اكتساب الأخلاق ونفي الجهد الإنساني في تحصيلها يعني نفي الأثر الأخلاقي للشعر "[٢].

إن الأخـــلاق بمثابة التيار الكهربائي الذي لا نحسه بحواسنا مطلقًا وإنما نحس تأثيراته المختلفة ما بين ضوء وحركة وغير ذلك .

وإذا نظرنا إلى المعلقات العشر باعتبارها عملاً أدبيًا فلا بد أن نبحث عن العناصر المشتركة في تكـــوين ذلـــك العمل فنحن " أولاً نجد بطبيعة الحال العناصر التي تقدمها الحياة ذاتها ، تلك التي تمـــثل المادة الأولية لأي عمل أدبي سواء أكان قصيدة أم مقالة أم مسرحية أم قصة ثم هناك العناصر الـــتي يضيفها المؤلف في عملية نقله هذه المادة الأولية إلى هذه الصورة أو تلك من صور الفن الأدبي وهذه العناصر يمكن أن تقسم تقسيمًا تقريبيًا إلى أربعة أقسام :

أولاً : هناك العنصر "العقلي" ويتمثل في الفكرة التي يأتي بها الكاتب ليبني منها موضوعه ، والتي يعبر عنها في عمله الفني .

ثانـــيًا: هـــناك العنصر "العاطفي" وهو الشعور (كائنًا ما كان نوعه) الذي يثيره الموضوع في نفسه والذي يود هو بدوره أن يثيره فينا .

ثالثًا : هناك عنصر " الخيال " (ويشمل النوع الخفيف الذي نسميه الوهم ، وهو في الحقيقة القدرة على التأمل القوي العميق ، وبعمله سرعان ما ينقل إلينا الكاتب قدرة مماثلة على التأمل وهذه العناصـــر تجتمع لتقدم للأدب المادة والحياة . ولكن مهما تبلغ المواد التي قدمتها التجربة من

---

(١) د. عز الدين إسماعيل – الأدب وفنونه – ص : ١٨ .

(١) د. جابر عصفور – مفهوم الشعر – ص : ٢٧٠.

الغنى ومهما يبلغ فكر الكاتب وشعوره وخياله من الجدة ، فإن عنصرًا آخر يلزم الكاتب عند الاهتمام بهذه العناصر قبل أن يتمكن من إتمام عمله ، فهذه المادة يجب أن تشكل وتهذب وفق مبادئ النظام والتناسق والجمال والتأثير ، ومن ثم نجد عنصرًا رابعًا في الأدب هو العنصر "الفني" أو عنصر " التأليف والأسلوب .

هذا معناه أن الأدب يقوم على عناصر بعضها بمثابة " المادة " (الحياة والفكر والخيال والعاطفة) وبعضها يتحقق في عملية "التكوين" أي في بناء العمل الأدبي من هذه المادة وهذا في الواقع تعبير آخر – ولكنه ربما كان أكثر دقة – عما يقسم إليه العمل الأدبي من" محتوى"وصورة"[١].

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو : أين نجد تأثير الأخلاق في العمل الأدبي (والذي يمثله في دراستنا هذه القصائد العشر) هل نجده في عناصر تكوين "المحتوى"أو في عناصر تكوين " الشكل" ؟

إننا عندما ندقق النظر في عناصر تكوين العمل الأدبي السابقة نجد أنها تمثل نشاطًا إنسانيًا تتدخل الأخلاق فيه وتؤثر في تكوينه فالفكرة التي يأتي بها الكاتب ليبني منها موضوعه ثم يعبر عنها في عمله الفني ما هي إلا مظهر من مظاهر الأصول الأخلاقية الأربعة كفكرة التأمل في الحياة والموت أو الحرب و السلام أو الغنى والفقر وغيرها من موضوعات الحياة التي شغلت الشاعر الجاهلي على وجه الخصوص فكانت نظرة الشعراء لتلك الأفكار والموضوعات لا تخلو من التفاعل الذي لا يدير عجلته في ضمير الإنسان ويثير عاطفته وخياله إلا الأخلاق وبقدر الأخلاق يكون التفاعل والنظرة لكل موضوعات الأدب وسأورد على هذه الرؤية مثالاً من أمثلة كثيرة في أدبنا العربي تؤكد على أن الخلق حميدًا كان أو ذميمًا هو التيار الوحيد الذي يدفع بالإنسان إلى ممارسة السلوك الإنساني ومن ثم تكون الأخلاق بتدخلها في جميع النشاطات الإنسانية تمثل الحامل والمحمول في آن واحد ومن خلال المثال التالي نحاول أن نوضح القصد من العبارة السابقة .

ورد في العمدة ما نصه[٢] ((كتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري :" مر مَن قِبَلَك بتعلم الشعر فإنه يدل على معالي الأخلاق ، وصواب الرأي ، ومعرفة الأنساب " وقال معاوية :

(١) د. عز الدين إسماعيل – المرجع السابق – ص : ١٩.

(١) ابن رشيق – العمدة في محاسن الشعر وآدابه – ج١ / ٨٨.

اجعلــوا الشعر أكبر همكم ، وأكثر آدابكم ولقد رأيتني ليلة الهرير بصفين وقد أتيت بفرس أغر محجل بعيد البطن من الأرض، وأنا أريد الهرب لشدة البلوى فما حملني على الإقامة إلا أبيات عمرو بن الإطنابة :

أبـــت لي همـــتي ، وأبى بـــلائـــي	وأخـــذي الحمـــد بالـــثمن الـــربيح
وإقحامـــي علـــى المكـــروه نفســـي	وضـــربي هامـــة الـــبطل المشـــيح
وقـــولي كلمـــا جشـــأت وجاشـــت	مكانـــك تحمـــدي أو تســـتريحي
لأدفـــع عـــن مآثـــر صـــالـحات	وأحمـــي بعـــد عـــن عـــرض صـــحيح

إنك وأنت تقرأ الأبيات السابقة لا بد وأن تدرك كيف تمثلت الأخلاق في الحامل والمحمول كمـــا ذكرنا . ألا ترى كيف أن العمل الأدبي – ممثلاً في الأبيات السابقة – حمل إلينا أخلاقًا حميدة تمـــثلت في علو الهمة والإقدام والسعي إلى كسب المحامد والصبر على المكروه والنكاية في الأعداء وتـــوطين النفس عند الهلع دفاعًا عن المآثر والعرض . ومن جانب آخر نرى الأخلاق نفسها حملت الشـــاعر ومن ثم المتلقي (معاوية) على الإقامة والصمود بعدما حدثته النفس بالهرب لشدة البلوى ؟ ثم ألا تـــراه صـــور مظاهر تلك الأخلاق الشجاعة وشخصها فجعلها في صورة الإنسان الذي يأبى بإصرار شديد ؟

من الأبيات السابقة وأمثالها يتبين لنا أن الأخلاق تتدخل في تشكيل العمل الأدبي مادة وتكوينًا .

وبـــناءً على ما تقدم ذكره يتبين لنا أن الأخلاق والطبع تشكل الشعر و أن اختلاف الشعر عـــند الشـــعراء إنما يكون مرده إلى اختلاف الطبائع والأخلاق . ومن هنا يمكننا أن نتبين أيضًا أن وحـــدة التصور عند شعراء المعلقات العشر مرده إلى وحدة التصور الخلقي التي منها ينهلون وعنها يُصـــدرون. وإن اختلفت طبائع أولئك الشعراء وأخلاقهم فإن ذلك الاختلاف إنما يكون في مظاهر الأخلاق لا في أصولها الأربعة .

وقـــد عرضـــنا في الفصل الثاني من دراستنا هذه إلى تأطير الأخلاق باعتبارها المادة الخصبة للشـــعر العربي ممثلاً في المعلقات العشر فكانت النتيجة مبهرة حيث توصلنا إلى إطار محدد للمضامين والمظاهـــر الخلقـــية ، وفي هـــذا الفصل إن شاء الله تعالى سوف نعرض للأخلاق من حيث أثرها في تشكيل وبناء المعلقات العشر " التكوين "، ويمكن أن نزيد الأمر وضوحًا بوضع سؤال مفاده : هل الأخلاق تساهم في تشكيل العمل الأدبي ؟ .

ثانيًا : الشـــــكل :

أ - مفهومه .   ب - عناصره .

للإجابـة عـن السـؤال السابق يجب أن ندرك أن العمل الأدبي " بناء لغوي يستغل كل إمكانـات اللغـة الموسيقية والتصويرية والإيحائية والدالة في أن ينقل إلى المتلقي خبرة جديدة منفعلة بالحـياة "(١) والمعلقات العشر تمثل عملاً أدبيًا ضخمًا يعد من أروع وأنضج ما وصل إلينا من العصر الجاهلـي ، وما يزال هذا العمل الأدبي قائمًا ملموسًا يتناوله الدارسون بالدرس والتحليل مرة بعد مرة فلا يبلى ولا يضمحل وإنما يزداد شموخًا وحيوية كلما كشف الدارس فيه سرًا جديدًا ومن هنا كُـتب لهـذا العمل الأدبي الرائع البقاء إلى أن يشاء الله .وعندما حاولت في الفصل الثاني من هذه الدراسـة وضع إطار خلقي للمعلقات العشر فإن ذلك العمل مني يُعدُّ بدهيًا إذ أن العمل الأدبي – أي عمـل – لا يمكن له أن يقوم إلا على عنصرين مهمين هما المضمون والشكل ولقد عملت على اسـتنباط المضامين الخلقية التي احتوهما نصوص المعلقات العشر وبذلك أكون قد وصلت إلى تحقيق عنصر المضمون الأخلاقي في المعلقات ، والآن وجب عليَّ أن أتناول العنصر الثاني – الشكل – لأنه لا يمكن أن يقوم نص أدبي على عنصر المضمون دون عنصر الشكل .

ومـا دام الأمـر على هذه الحال فلا بد من الوقوف عند عنصر الشكل لمعرفة المراد به ثم التعرف على عناصره وأهميتها في تشكيل النص الأدبي ممثلاً في المعلقات العشر .

أ - مفهوم الشـــــكل :

الشـكل يقابـل المضمون ، وقد شاع منذ القدم أن اللفظ جسم روحه المعنى وارتباطه به كارتـباط الروح بالجسم ، ومن المعروف أن الأسلوب (الإطار) والأفكار والمعاني (المضمون) هما العنصران الأساسيان اللذان يقوم بهما وعليهما العمل الأدبي رغم اختلاف النقاد قديمًا وحديثًا حول هـذين العنصرين وانقسامهم إزاءهما إلى فئتين : فئة تناصر اللفظ (الشكل) وبلاغته وتقدمه على المعـنى كـأبي عثمان الجاحظ وأبي هلال العسكري . وفئة تناصر المضمون (المعنى) وتقدمه وتجعل اللفـظ تابعًـا لـه كما عند ابن قتيبة ، وعبد القاهر الجرجاني . إلا أن الحقيقة " أنه لا انفصال بين الإطار والمضمون ، بل هما مترابطان أشد ما يكون الترابط ، وممتزجان في كل تعبير مقصود أقوى ما يكون الامتزاج"(٢).

---

(١) د. عز الدين إسماعيل – الأدب وفنونه – ص : ٢٥ .

(١) د. بدوي طبانة – قضايا النقد الأدبي – ص : ١٧٢ .

وفي رأيـي أن الـنقاد القدماء عندما وقفوا على الشعر القديم وأرادوا أن يؤسسوا نظرية شعرية رأوا أن الشعر يقوم على المعرفة والتشكيل اللغوي ، ولذلك جعل قدامة بن جعفر قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه في شعر زهير بن أبي سلمى مدخلاً لبنية الشعر المعرفية حينما قال :" إنه لم يكـن يمـدح الـرجل إلا بما يكون للرجال ... فكذا يجب ألا يمدح شيء غيرهم إلا بما يكون له وفيه"[١].

وعـندما يؤكد قدامة على الصنعة فإنما يؤكد على المضمون الفضائلي في الشعر وإلا لما افتتح بقـول عمـر وجعـل المدح بالفضائل التي ذكرها . ومن هنا يتضح لنا أن اهتمام قدامة بالتشكيل اللغوي هو اهتمام بالمعرفة أو الفضيلة .

وقـد علمنا من قبل أن غاية الشعر العربي – الجاهلي على وجه الخصوص – أخلاقية – أو " لـنقل إن الشـعر ينطوي على قيمة أخلاقية تمثلها الفضائل الأربع باعتبارها وسطًا ذهبيًا يؤدي إلى تـوازن القوى النفسية ، ولكن القيمة الأخلاقية لا تتبدى في الشعر إلا من خلال طريقة خاصة في الـتقديم وكيفـية متميزة في التوصيل . أي أنه إذا كان الشعر – بهذا المعنى – يحتوي عنصر القيمة الأخلاقية الذي يسميه قدامة بالفضائل ، فهناك عنصر التوصيل أو القيمة الجمالية التي تنطوي عليها الصـورة والشكل وإذا كنا نفصل بين هذين العنصرين على سبيل التوضيح فمن المؤكد أن القيمة الأخلاقـية التي ينطوي عليها الشعر لا تحدث أثرها في المتلقي إلا بالتوصيل ، أي أنها تظل مادة غير مفارقة للصورة بكيفية لا تكتسب أي بعد من أبعادها الجمالية إلا بالتوصيل ...إن قدامة يسلم بأن الشعر يوصل القيم توصيلاً متميزًا بمعنى أن الشعر لا يقدم الفضائل تقديمًا حرفيًا وإنما يقدمها تقديمًا شعريًا "[٢].

والـذي نحن بصدد الحديث عنه الآن هو الشكل (الأسلوب) بعد أن قمنا في الفصل الثاني من دراستنا هذه بتحديد المضامين الأخلاقية في نصوص المعلقات العشر .

إن الشـكل (الأسلوب) منذ القدم " كان يلحظ في معناه ناحية شكلية هي طريقة الأداء أو طـريقة التعـبير التي يسلكها الأديب لتصوير ما في نفسه أو لنقله إلى سواه بهذه العبارة اللغوية ولا يـزال هذا هو تعريف الأسلوب إلى اليوم ، فهو طريقة الكتابة أو طريقة الإنشاء ، أو طريقة اختيار

---

(٢) قدامة بن جعفر – نقد الشعر – ص : ٦٥ .

(٢) د. جابر عصفور – مفهوم الشعر – ص : ١٦٠ .

الألفـــاظ وتألـــيفها للتعـــبير بها عن المعاني قصد الإيضاح والتأثير ، أو الضرب من النظم والطريقة فيه"[١].

وعـــندما ننظر إلى نصوص المعلقات العشر نجد أنماطًا شتى وأساليب متباينة تجعل لكل فرد من أصحاب تلك المعلقات طابعًا خاصًا ، ومن هنا وجب علينا أن نختار تعريفًا للشكل (الأسلوب) " يتـــناول عناصـــره كلها ويقوم على أساس الصلة بينها وإن كان العنصر اللفظي مظهر الفكـــر والصـــورة لأن الجانب الحسي لهما زيادة عما يتوافر له من جمال خاص "[٢] وذلك التعـــــريف ينص على أن "الأسلوب هو طريقة التفكير والتصوير والتعبير "[٣].

ولقد كان شعراء العرب في الجاهلية يتنافسون في الإبداع الفني في الشعر ، ونحن لا ننسى أن ســـبب نظـــم عنترة بن شداد لمعلقته يعود إلى ما دار بينه وبين أحد مبغضيه من مفاخرات " فذكر ســـواده وســـواد أمـــه وغير ذلك وأنه لا يقول الشعر "[٤] ومن خلال هذه الحادثة يظهر لنا أن " الإبداع هو الرابط بين حدي هذه القضية (اللفظ والمعنى) فالمعنى غرض أو مقصد أو هدف يستثير الحالـــة المبدعة واللفظ نطق أو إلقاء يتم به الإبداع "[٥] وعندما نقرأ نصوص المعلقات العشر يتضح لـــنا أن الشاعر الجاهلي كان حريصًا على الإبداع الفني المتمثل في " إتيان الشاعر بالمعنى المستطرف والذي لم تجر العادة بمثله في لفظ بديع "[٦]وهذا ما كان من عنترة (مثلاً) في وصف الذباب .

والإبـــداع الفني " نسيج يحتاج إلى أنواع معينة من الخيوط يختلف باختلافها ...ويعتمد على الفكرة والصورة والكلمة الموسيقية في الإبداع الشعري خاصة "[٧].

والشكل بعناصره كلها هو أداة التوصيل إلى المتلقي ومن ثم كان لزامًا علينا أن نتتبع عناصره في نصوص المعلقات العشر واضعين في أذهاننا وجوب إفراد الصورة الفنية بالدراسة من بين عناصر الشكل السابقة باعتبارها جماع عناصر الشكل كلها .

---

(١) د. أحمد الشايب – الأسلوب – ص : ٤٤

(٢) نفسه – ص : ٤٦

(٣) نفسه – ص : ٤٥ .

(٤) ابن قتيبة – طبقات الشعر والشعراء – ص : ٤٢.

(٥) مجدي أحمد توفيق – مفهوم الإبداع الفني في النقد العربي القديم – ص : ٣١٩ .

(٦) كمال أحمد غنيم – عناصر الإبداع الفني في شعر أحمد مطر – ص : ١١.

(٧) نفســــــه – ص : ١٢

ب – عناصر الشكل:يمكننا أن نجمل عناصر الشكل في عنصرين هما[١] :

١- اللغة الشعرية. ٢ – موسيقى الشعر

قبل النظر في عناصر الشكل المتمثلة في العنصرين السابقين والتي تلعب دورًا كبيرًا في تشكيل وبناء العمل الأدبي – المتمثل عندنا في نصوص المعلقات العشر – لابد من النظر في كل معلقة منها على أساس أنها تمثل عملاً أدبيًا له "وحدة متكاملة في الشعور والمواقف المتنوعة التي ارتدت أزياء عديدة وألوانا متغايرة "[٢] تبدو لأول وهلة أنها مقطوعات أو جزئيات مستقلة عن بعضها البعض والحقيقة ليست كذلك، و من يمعن النظر والفكر في نصوص المعلقات العشر سيجدها صفائح فنية تقف إلى جانب بعضها بعض في تلاحم وتلاؤم منقطع النظير لتشكل في النهاية عملاً أدبيًا رائعًا له عناصره الموضوعية والفنية التي تأخذ برقاب بعضها مضمونًا وشكلاً لتكوّن في مجملها عملاً أدبيًا رائعًا لا يزال العرب يقفون منه موقف الإعجاب ومحاولة تقليده ومحاكاته .

ونحن عندما نتذكر أن " الغاية النهائية للشعر عند قدامة هي غاية أخلاقية "[٣] ندرك أن الدوافع الأخلاقية هي الدوافع الحقيقية وراء تشكيل تلك الجزئيات المرتبطة فيما بينها بمظاهر أصول الأخلاق المختلفة ، ومن ثم ندرك أن وحدة التصور والوحدة العضوية أيضًا في المعلقات العشر مرده إلى وحدة التصور الأخلاقي لا غير .

أولاً: اللغة الشعرية :

أما إذا نظرنا إلى اللغة الشعرية عند الشعراء العشرة من خلال معلقاتهم فإننا سنجد أن لأولئك الشعراء "لغة خاصة ارتفعت في بنائها وتكوينها وهيكلها العام عن مستوى اللهجات المحلية الخاصة التي كانت سائدة في أنحاء الجزيرة العربية "[٤] "ويمتاز الشعر الجاهلي بلغة خاصة توافرت لها قيم فنية وصوتية عالية ... وقد كانت هذه اللغة الشعرية لصفائها واكتمالها الفني مصدرًا للقواعد النحوية والصرفية والبلاغية التي فرضت نفسها على لغة الشعر في عصوره العربية المختلفة "[٥].

---

(١) د. حسن الأمراني – الشكل في القصيدة – مجلة الأدب الإسلامي – المجلد الخامس – ١٤١٩هـ ص : ١٠.

(٢) د. أحمد موسى الجاسم – دراسات في الشعر الجاهلي –ص: ٨٨ .

(٣) د. جابر عصفور – مفهوم الشعر – ص : ١٥٩.

(٤) سعد أحمد محمد الحاوي – الصورة الفنية في شعر امرئ القيس – ص : ١٥ .

(٥) د. إبراهيم محمد عبد الرحمن – قضايا الشعر – ص : ٩٧

والآن لنأخذ نماذج مختارة ومتفرقة من نصوص المعلقات العشر ولنتتبع تلك البراعة الواضحة لدى أولئك الشعراء ابتداءً باللفظ وانتهاءً بالصورة الفنية الكاملة لتلك الأعمال الخالدة .

لقـــد برع أولئك الشعراء في استخدام الألفاظ التي توحي بالمعنى وتشعر بالحركة فاستخدموا الألفاظ التي تعبر عن القدم والخراب والتحول والفناء والحزن على فراق الأهل والعشيرة والأحباب ومن الشواهد على ذلك قول امرئ القيس :

وإن شـفـــائي عـــبرة مهراقة   فهــل عـــند رســم دارس مـــن معوّل

ففاضــت دمــوع العين مني صـبابــةً   علــى النحـــر حـــتى بل دمعي محملي

وهـــذا طرفة بن العبد يستخدم الألفاظ التي تعبر عن عاطفة البين والشوق حتى كاد يهلك أسى :

وقـــوفًا بهـــا صـــحبي علـــيَّ مطـــيهم   يقولـــون : لا تهلـــك أســـى وتجلـــدِ

كما قد يرق اللفظ في وصف نعمة المرأة وحليتها وزينتها كما في قول الأعشى :

كـــأن مشـــيتها من بيت جـــــارتها   مـــــر السحابة ، لا ريث ولا عجل

تســمع للحلـــي وسواسًا إذا انصرفت   كمـــا اســـتعان بـــريحٍ عشرق زجل

ويقع في الغزل ألفاظ متهتكة خاصة عند امرئ القيس والأعشى ومن ذلك قول امرئ القيس :

فمـــثلك حبلـــى قـــد طرقت ومرضع   فـــألهيـــتها عـــــن ذي تمـــائم محول

إذا مـــا بكـــى مـــن حولها انصرفت له   بشـــــق وتحـــتي شـــقها لم يـــحول

ويقول الأعشى :

نعـــم الضـــجيع غداة الدجن يصرعها   للـــذة المـــــرء ، لا جـــاف ولا تفل

أما الوصف فتتفاوت ألفاظه قوة ولينًا فعند وصف الأطلال تشتد وتقسو في تسمية المواضع لكنها تلين عند التعبير عن العاطفة الذاتية ، ومن ذلك قول الحارث بن حلزة :

بعـــد عهـــد لهـــا بـــبرقة شمـــــا ء   فـــــأدنى ديارهـــــا الخلصـــــاء

فمحـــــياة فالصـــــفاح فأعلـــــى   ذي فـــــتاق فعـــــاذب فالـــــوفاء

فـــرياض القطـــا فأوديـــة الشـــر   بـــب فالشـــعبتان فـــالأبـــلاء

ثم تلين الألفاظ عند قوله :

لا أرى مـن عهـدت فيها فأبكي الـ ـيوم دلهًا ومـا يـرد البكـاء

وعـندما يصف شاعر المعلقات البرق والسحاب والمطر والسيل فإنه يختار الألفاظ التي تمثل الحـركة والاضـطراب كما في لوحة المطر عند امرئ القيس . أو كما في وصف نهر الفرات لدى النابغة حيث يقـول :

فمـا الفرات إذا هب الريـاح ترمـي أواذيـه العـبرين بالـزبـدِ
يمـده كـل وادٍ متـرع لجـب فـيـه ركـام من الينبوت والخضدِ
يظـل مـن خـوفه المـلاح معتصـمًا بـالخيـزرانة بعـد الأيـن والـنجدِ

وقـد يـرق اللفظ في الوصف كما هو الحال عند الأعشى في وصف الروضة .ويستخدم شـاعر المعلقة اللفظ الجزل في وصف الناقة والفرس خاصة في مواطن الشجاعة والفروسية كما في قول عبيد بن الأبرص :

قطـعـته غـدوة مشـيحا وصـاحبي بـادن خـبوب
عـيرانـة مـوجد فقارهـا كـأن حاركهـا كثـيب
أخلـف مـا بـازلاً سديسـها لا حقـة هـي ولا نـيوب
كأنهـا مـن حمـير غـاب جـون بصـفحته نـدوب

إلا أن مظهـر الـرأفة بالحيوان وهو مظهر خلقي محمود قد يجعل الشاعر يستخدم الألفاظ الرقيقة التي تقطر بعاطفة التودد والشفقة كما في قول عنترة :

فـازور مـن وقـع القنا بلبانه وشـكا إلي بعـبرة وتحمحـم
لـو كان يدري مـا المحاورة اشتكى ولكـان لو علـم الكـلام مكلمـي

وألفـاظ المدح أقل جزالة من ألفاظ الفخر والحماسة فبينما نرى زهيرًا يمدح هرم بن سنان بالألفـاظ الملائمـة لغرضه نجد أن النابغة يستخدم الألفاظ الملائمة للمدح المشوب بالاعتذار حيث يقول :

أنبـئت أن أبـا قابـوس أوعـدني ولا قـرار علـى زأر مـن الأسـد

مهـلاً ، فـداء لـك الأقـوام كلهم ... ومـا أثمـر مـن مـال ومـن ولد

لا تقـذفني بـركن لا كفـاء لـه ... وإن تـأثفـك الأعـداء بالـرفد

وفي مـواطن الحكمـة نجد أن الألفاظ تتفاوت جزالة وسهولة فبينما نجدها جزلة لدى زهير وطرفة نجدها سهلة لدى عبيد .

وهكـذا ونحن نتتبع ألفاظ نصوص المعلقات نجد أنها تتفاوت بحسب الغرض الذي وضعت مـن أجلـه. أو بمعنى أدق نقول : لقد أدت المظاهر الخلقية المتنوعة في نصوص المعلقات إلى تنوع الألفـاظ واختلافها ما بين الجزالة والسهولة بحسب ما تقتضيه هيئة المظهر الخلقي الذي يتحدث فيه شاعر المعلقة .

ويـزداد الأمـر وضوحًا ونحن نعرج إلى دراسة الجمل والتراكيب التي تتكون من ضم كل لفظـة من ألفاظ نصوص المعلقات إلى أختها لتكون معنى طبقًا للبناء النحوي الذي أطلق عليه عبد القاهر الجرجاني النظم [1] وبالنظر إلى الجمل والتراكيب في المعلقات العشر نجد أن سلامة التراكيب تؤدي إلى أن كل بيت في المعلقة أو كل مقطوعة فيها تحمل معنى مستقلاً في ظل المعنى العام للقصيدة ولا يفهـم من هذا أن البيت يبدو في صورة متناقضة لمعنى البيت الذي بعده أو الذي قبله وإنما يبقى البيت أو المقطوعة في المعلقة في افتقار إلى الآخر لإتمام معناه .

ومن الأمثلة على ذلك قول عبيد بن الأبرص في وصف المواجهة والعراك بين العقاب والثعلب :

فعـاودتـه فـرفّعته ... فأرسـلته وهـو مكـروب

يضـغو ومخلـبها في دفـه ... لا بـد حيـزومه مـنقوب

فالبيت الثاني تمم معنى البيت الأول .

ومن ذلك أيضا قول لبيد :

فاقطـع لبانة من تعرض وصـله ... ولشـر واصـل خلـة صـرّامها

واحـب المجامـل بالجـزيل وصـرمه ... بـاق إذا ظلعـت وزاغ قـوامها

بطلـيح أسـفـار تـركـن بقـية ... مـنها فأحـنق صـلبها وسـنامها

و السـرد القصصي في المعلقة – كما يبدو ذلك جليًا لدى النابغة وعبيد وامرئ القيس–

---

(١) انظر : عبد القاهر الجرجاني – دلائل الإعجاز – ص : ٨١ .

يستوجب ذلك الإتمام والترابط بين الجمل لأنها تكون بمثابة " العبارة التي تفهم معنى متكاملاً في إطار مضمون القطعة النثرية "[1] ونختار مثالاً لذلك أبيات النابغة ذات الطابع القصصي التالي:

كأن رحلي وقد زال النهار بنا ... يوم الجليل على مستأنس وحد

من وحش وجرة موشي أكارعه ... طاوي المصير كسيف الصيقل الفرد

سرت عليه من الجوزاء سارية ... تزجي الشمال عليه جامد البرد

فارتاع من صوت كلاب فبات له ... طوع الشوامت من خوف ومن صرد

فبثهن عليه واستمر به ... صمع الكعوب بريئات من الحرد

وكان ضمران منه حيث يوزعه ... طعن المعارك عند المحجر النجد

شك الفريصة بالمدرى فأنفذها ... طعن المبيطر ، إذ يشفي من العضد

كأنه خارجًا من جنب صفحته ... سفود شرب نسوه عند مفتأدِ

فظل يعجم أعلى الروق ، منقبضًا ... في حالك اللون صدق غير ذي أود

لما رأى واشق إقعاص صاحبه ... ولا سبيل إلى عقل ، ولا قود

قالت له النفس : إني لا أرى طمعًا ... وإن مولاك لم يسلم ، ولم يصدِ

والمراوحة بين الأساليب الخبرية والإنشائية سمة بارزة في تراكيب وجمل الشعراء العشرة في معلقاتهم . فمن الأساليب الإنشائية التي يقصد بها إنشاء المعنى لذاته :

١ - الاستفهام على اختلاف أغراضه كما في قو ل امرئ القيس :

أغرك مني أن حبك قاتلي ... وأنك مهما تأمري القلب يفعل ؟

وقول طرفة :

ألا أيهذا اللائمي أحضر الوغى ... وأن اشهد اللذات ، هل أنت مخلدي؟

وقول زهير :

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم ... بحومانة الدراج فالمتثلمِ؟

٢ - الأمر على اختلاف أغراضه كما في قول الأعشى :

ودع هريرة إن الركب مرتحل ... وهل تطيق وداعًا أيها الرجل ؟

---

(١) د. حمد بن ناصر الدخيِّل – يحيى بن طالب الحنفي حياته وشعره – ص : ٩١.

ويقول عنترة بن شداد :

أثني علي بما علمت فإنني سهل مخالقتي إذا لم أظلم

٣ - النهي على اختلاف أغراضه كما في قول النابغة :

لا تقذفني بركن لا كفاء له وإن تأثفك الأعداء بالرفد

ويقول عمرو بن كلثوم :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

٤ - النداء وقد راوح عمرو بن كلثوم بينه وبين الأمر والنهي بقوله :

أبا هند فلا تعجل علينا وأنظرنا نخبرك اليقينا

وقول امرئ القيس :

أفاطم مهلاً بعض هذا التدلل وإن كنت قد أزمعت صرمي فأجملي

٥ - التمني كما في قول النابغة :

قالت : ألا ليتما هذا الحمام لنا إلى حمامتنا ونصفه فقد

ولو وقفنا على الأساليب الخبرية لأخذ ذلك منا وقتًا طويلاً ، ولكن يكفي من القلادة ما أحاط بالعنق حيث سنورد لكل شاعر من شعراء المعلقات العشر أسلوبا خبريًا واحدًا من أساليب خبرية كثيرة " يكون القصد منها إفادة أن محتواها سواء أكان إثباتًا أو نفيًا له واقع خارج العبارة يطابق هذا المحتوى فنصف الكلام بالصدق أو لا يطابقه فنصف الكلام بالكذب "(١) ومعنى ذلك أن النسبة الكلامية للجملة الخبرية لها نسبة في الخارج ومن ذلك قول امرئ القيس :

وقفت بها حتى إذا ما ترددت عماية محزون بشوق موكل

فقوله "وقفت بها ..." جملة خبرية لها نسبة في الخارج أي أنه حدث الوقوف من امرئ القيس على ديار أحبابه أو لم يقف .

ومثله قول طرفة :

وإني لأمضي الهم عند احتضاره بعوجاء مرقال تروح وتغتدي

فقد يدفع عن نفسه الهم بركوب الناقة وقد لا يفعل .

---

(١) د. محمد محمد أبو موسى – دلالات التراكيب دراسة بلاغية – ص : ١٨٥.

وقال زهير :

بها العين والآرام يمشين خلفة وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم

فقد تكون بتلك المواضع بقر وحشية واسعة العيون وأولادها تنهض من كل جهة فيه وقد لا يكون .

ومثل هذه الجمل الخبرية – من وجهة نظري – إنما تشكلها عاطفة الحنين والشوق لاستعادة الحياة إلى مكان موحش بعد فراق أهله حتى ولو كانت بالنقيض ، ومن مثل هذه الشواهد يتضح لنا مدى تأثير الحنين والشوق الذي أصبح خلقًا في الشاعر في تشكيل بنية الجملة الخبرية ومن قبل ذلك الجمل الإنشائية كما مر بنا إلا أننا سنؤجل التفصيل في أثر هذه الأخلاق في تشكيل نصوص المعلقات العشر إلى حين الحديث عن الصورة الفنية باعتبارها تحوي جميع عناصر تكوين العمل الأدبي.

" ولو تأملت الكلام من غير أن تستحضر الفروق التي وضعها العلماء بين الخبر والإنشاء لأحسست باختلاف طبع الكلام في البابين ، اقرأ قول النابغة :

نبئت أن أبا قابوس أوعدني ولا قرار على زأر من الأسد

مهلاً فداء لك الأقوام كلهم وما أثمر من مال ومن ولد

فلا لعمر الذي مسحت كعبته وما أريق على الأنصاب من جسد

ما إن بدأت بشيء أنت تكرهه إذًا فلا رفعت سوطي إلي يدي

البيت الأول يخبر عن نبئه بإيعاد أبي قابوس وأنه لا يقر مع هذا الإيعاد ، والبيت الثاني له طبع آخر هو الدعاء له وتفديته بأهله وماله ، والبيت الثالث مثله لا يحكي قسمًا وإنما يعبر عنه "[١].

إن اللغة بجميع خصائصها وأساليبها المختلفة ما هي إلا " شكل لمضمون أخلاقي ، وبما أن هذا المضمون هو تفسير للعالم ، وإحاطة به ، فإنه يشمل كل ما هو قابل للتشكّل "[٢] والأخلاق بمظاهرها المختلفة أسماء لمعان عامة وعارية ، والشاعر " يخرج المعنى الموجود إخراجًا خاصًا ... والمعنى مكشوف أو عار ، والصورة المنمقة هي حسن التأليف أو براعة الألفاظ "[٣] ولا يخفى أن

---

(١) د. محمد محمد أبو موسى – السابق – ص : ١٨٧–١٨٨ .

(٢) جودت فخر الدين – شكل القصيدة العربية في النقد العربي حتى القرن الثامن الهجري – ص : ١٠٢

(٣) د. مصطفى ناصف – نظرية المعنى في النقد العربي – ص : ٤٠–٤٢.

الأخلاق بجميع مظاهرها معان قابلة للتشكّل ، وقد برع شعراء المعلقات العشر في إخراجها إخراجًا فنيا رائعا .

والآن بقي لنا قبل أن ننتقل إلى الصورة الفنية أن نقف عند العنصر الثاني من عناصر الشكل ألا وهو موسيقى الشعر .

ثانيا : موسيقى الشعر :

الموسيقى هي العنصر الثاني الذي لا يقوم الشعر إلا به " بل لعل صعوبة ترجمة الشعر ، وربما استحالة ذلك مردها إلى هذا العنصر المعجز "(١) ولذلك قال الجاحظ :" والشعر لا يستطاع أن يترجم ، ولا يجوز عليه النقل ، ومتى حوِّل تقطع نظمه ، وبطل وزنه ،وذهب حسنه،وسقط موضع التعجب منه"(٢).

وعندما ننظر إلى المعلقات العشر نجد أنها حوت موسيقى دقيقة رائعة وزنًا وقافية إلى جانب قوالب أخرى اشتملت عليها المعلقات العشر ، وقد كان للجانب الخلقي في المعلقات نصيب الأسد في تشكيل تلك الموسيقى الشعرية الرائعة ، ولهذا رأيت أن أقسم عنصر موسيقى الشعر في المعلقات العشر إلى النوعين التاليين :

أ – الأوزان والقوافي . **ب – صيغ وقوالب شعرية أخرى .**

ثم أتناول كلاًّ منهما بالشرح والشواهد الواردة في نصوص المعلقات العشر مشيرًا إلى مظاهر خلقية متنوعة شكلت هذه الأوزان والقوافي والصيغ والقوالب الشعرية ومن ثم كان لها الأثر الواضح في تشكيل نصوص المعلقات بوجه عام .

أ – الأوزان والقوافي :

الشكل في العمل الأدبي يعادل اللوحة الفنية للرسام والتمثال للنحات فمن خلاله يؤثر الأدب في النفوس وينتزع الإعجاب من القراء والسامعين .

والأوزان والقوافي من أهم عناصر الشكل حتى لقد كان مفهوم الشعر عند القدماء هو " الكلام الموزون المقفى الذي يدل على معنى ، والكلام الموزون ذو النغم الموسيقي يثير فينا انتباهًا

---

(١) د. حسن الأمراني – مجلة الأدب الإسلامي – المجلد الخامس – ١٤١٩هـ – ص : ١٢.

(٢) الجاحظ – الحيوان – ١/ ٧٥

عجيبًا ، وذلك لما فيه من توقع لمقاطع خاصة تنسجم مع ما نسمع من مقاطع لتتكون منها جميعًا تلك السلسلة المتصلة الحلقات التي لا تنبو إحدى حلقاها عن مقاييس الأخرى ، والتي تنتهي بعد عدد معين من المقاطع بأصوات بعينها نسميها "القافية" . فهو كالعقد المنظوم تتخذ الخرزة من خرزاته في موضع ما شكلاً خاصًا ، ولونًا خاصًا ، فإذا اختلفت في شيء من هذا أصبحت نابية غير منسجمة مع نظام هذا العقد ، فنحن نسمع بعض مقاطع الشطر ، ونتوقع البعض الآخر ، وذلك حين نمرن المران الكافي على سماع هذا النظام الخاص في مقاطع الوزن ... فعملية التوقع مستمرة حين سماع الإنشاد تسترعي منا الانتباه وتنشطه .

وقد يمهر الشاعر فيخالف ما يتوقعه السامع وذلك بأن يتبع وجهًا من وجوه تجوزها قوانين النظم كأن ينوع في القافية ،أو يصرِّع حين لا يجب التصريع وكل هذا مما يثير الانتباه ، أو يبعث على الإعجاب والاهتمام . فإذا سيطر النغم الشعري على السامع وجدنا له انفعالاً في صورة الحزن حينًا والبهجة حينًا آخر ، والحماس أحيانًا وصحب هذا الانفعال النفسي هزات جسمانية معبرة ومنتظمة نلحظها في المنشد وسامعيه معًا "[1] وربما يسأل سائل فيقول : وما علاقة القيم والقضايا الأخلاقية بمثل هذا ؟

وللإجابة عن السؤال السابق لا بد أن نوضح أولاً أن مناقشة عناصر التشكيل الشعري والتي منها الأوزان والقوافي لا تتم حبًا في الشكل ذاته ، ولا تأتي كمحاولة لتفتيت العمل الأدبي أو رغبة في الفصل بين الشكل ومحتواه بل تنطلق مثل هذه المحاولات من الحرص على ضرورة فهم العمل الأدبي بأبعاده المختلفة ومن ثم التمكن من امتلاك العمل الأدبي وفهمه ، ورغم أن الأخلاق بمظاهرها وقيمها المختلفة تعد في مضمون العمل الأدبي ومحتواه إلا أنها تؤثر في تشكيل العمل الشعري بشكل مباشر حيث إن عناصر التشكيل على اختلافها ما هي إلا أوعية للمضمون – العنصر الآخر – الذي لا يقوم العمل الأدبي إلا به .

إن الأخلاق والقيم باعتبارها أحد المضامين الشعرية التي يحتويها العمل الأدبي تفرض على الشاعر أن يختار لها ما يناسبها من ألفاظ وتراكيب وأوزان وقوافي وصور فنية ليضمن بها تأدية مهمته الشعرية إلى متلقيه فكانت بمثابة العروس المصونة في خدرها التي تملي شروطها على من يتقدم لخطبتها فيتعلق وصولها إلى بيته ومعاشرتها له بمدى تحقيق تلك الشروط فإذا تحققت وصلت إلى بيته فرآها فعاشرها فأنبتت له نباتًا حسنًا يتشكل حسنه من خلال الأولاد والذرية ، ومن ثم تتشكل

---

(١) د . بدوي طبانة – التيارات المعاصرة في النقد الأدبي – ص : ٢٩٤-٢٩٥ .

الأسـرة في بـيت مـن السعادة والحبور ." ولا شك أن الشعر في تخير ألفاظه وتنسيقها ، ومراعاة موسـيقى الألفـاظ وموسيقى القافية كان خير مظهر للصناعة الأدبية والتأنق الفني في التعبير "(١) ليضمن الشاعر بتلك الصناعة الأدبية وصول ما تحمله من مضامين – أخلاقية على وجه الخصوص– وبـذلك تكـون الأخلاق والقيم عند الشاعر الجاهلي وراء كل شكل يرتضيه لقصيدته لأن تلك الأخـلاق منبعها العاطفة التي لها أثرها الكبير و"مصدر الوزن (الموسيقى) عند الشاعر هو العاطفة فحـين ينفعل الشاعر بموضوعه وتثور نفسه الجياشة ، ويستبد به الإحساس ويسيطر عليه الانفعال يلجأ إلى الموسيقى لأنها أقرب الفنون تعبيرا عن الأحاسيس "(٢).

يقـول قدامـة بن جعفر :" ومما يزيد في حسن الشعر ويمكّن له حلاوة في الصدور حسن الإنشاء وحلاوة النغمة ، وأن يكون قد عمد إلى معاني شعره فجعلها فيما يشاكلها من اللفظ ، فلا يكسـو المعاني الجديدة ألفاظا هزلية فيسخفها ، ولا يكسو المعاني الهزلية ألفاظًا جديدة فيستوضحها سامعها ، ولكن يعطي كل شيء من ذلك حقه ويضعه موضعه "(٣).

ومـا الأخـلاق والقيم إلا صورة من الصور التي تنقلها تلك الألفاظ والتراكيب والأوزان والقـوافي ، وأنه بمدى أهمية مظاهر تلك الأخلاق والقيم في نفس الشاعر وحرصه على تأديتها إلى المتلقـي يكـون اختيار الشكل المناسب لها و" الوزن والقافية ركنان أساسيان من أركان القصيدة العربية ، أو قاعدتان لا يمكن أن يقوم بناؤها إلا عليهما(٤). والوزن أعظم أركان حد الشعر وأولاها به خصوصية وهو مشتمل على القافية وجالب لها ضرورة "(٥) وما هو إلا خاصة من خواص اللفظ في جرسه في ذاته وإيقاعه في نظمه ، والقافية التي يجلبها الوزن بالضرورة لها هي أيضًا سحر وجاذبية ووقع لدى السمع ، إذًا فمظاهر التعبير الشعري " هي تلك الموسيقى التي عرفناها في الوزن والقافية وهـي التي تهيئ الجو النفسي للألفاظ والمعاني وهي التي تعطي الجوانب والظلال للألفاظ أو التعبير اللفظـي"(٦) ومن هنا يمكننا أن نقول : إن حرص الشاعر الجاهلي على الوزن والقافية وتمرسه فيها يعـد ذلـك منه خلقًا أيضا .وبذلك تكون الأخلاق قاسمًا مشتركًا بين المضمون والشكل في العمل الشعري عند الشاعر الجاهلي على وجه الخصوص .

---

(١) د. بدوي طبانة – معلقات العرب – ص : ٣٧٦ .

(٢) د. عباس بيومي عجلان – عناصر الإبداع الفني في شعر الأعشى – ص : ٢٩٧ .

(٣) قدامة بن جعفر – نقد النثر – ص : ٨٠ .

(٤) د. يوسف خليف – مقدمة ديوان نداء القمم – ص : ١٨٤ .

(٥) ابن رشيق – العمدة – ج١ – ص : ٢٦٨ .

(٦) محمد زغلول سلام – النقد العربي الحديث – أصوله – قضاياه ومناهجه – ص : ٦٠.

ولن تكون دراستنا للأوزان والقوافي بمعزل عن الصورة الفنية وذلك لأن الأوزان والقوافي هـذه من أهم عناصر الصورة الفنية وذلك لما يحملانه من الجانب الصوتي الذي يعد عاملاً مهمًا في البنية العامة للقصيدة " وكل عمل فني هو – قبل كل شيء – سلسلة من الأصوات ينبعث عنها المعنى ، ففي العديد من الأعمال الفنية – بما فيها الشعر طبعًا – تلفت طبيعة الصوت الانتباه ، وتؤلف بذلك جزءًا لا يتجزأ من التأثير الجمالي ، يصدق هذا على كل الشعر الذي هو بالتعريف تنظيم لنسق من أصوات اللغة "[١].

وإنما نود أن نشير هنا إلى الموسيقى الخارجية الممثلة في الوزن والقافية وأهمية اتحادها مع الموسيقى الداخلية الممثلة في الرقة والعذوبة والإيقاع النغمي للفظ والأسلوب .

وأثناء حديثنا هنا عن موسيقى الشعر المتمثلة في الأوزان والموسيقى سوف يتناول الحديث أيضا اللفظ باعتباره المادة التي يتكون منها الوزن والقافية " ومن له أدنى بصيرة يعلم أن للألفاظ في الأذن نغمة لذيذة كنغمة أوتار وصوتًا كصوت حمار ، وأن لها في الفم أيضًا حلاوة كحلاوة العسل ومرارة كمرارة الحنظل ، وهي على ذلك تجري مجرى النغمات والطبول "[٢] وإننا عندما نبحث في أسرار هذه النغمات والإيقاعات في المعلقات العشر فإننا سنخرج بالنماذج التالية :

١ – معلقة امرئ القيس : جاء وزنها على بحر (الطويل) وقافيتها (اللام) .

٢ – معلقة طرفة : من بحر (الطويل) ، وقافيتها (الدال) .

٣ – معلقة زهير : من بحر (الطويل) ، وقافيتها (الميم) .

٤ – معلقة لبيد : من بحر (الكامل) ، وقافيتها (الميم) .

٥ – معلقة عمرو بن كلثوم : من بحر (الوافر) وقافيتها (النون) .

٦ – معلقة عنترة : من بحر (الكامل) وقافيتها (الميم) .

٧ – معلقة الحارث بن حلزة : من بحر (الخفيف) وقافيتها (الهمزة) .

٨ – معلقة الأعشى : من (البسيط) وقافيتها (النون) .

٩ – معلقة النابغة : من (البسيط) أيضا ، وقافيتها (الدّال) .

١٠– معلقة عبيد بن الأبرص – من (مخلع البحر البسيط) وقافيتها (الباء) ومخلع البحر البسيط هو " قطع (مستفعلن) في العروض والضرب جميعًا فينقلان إلى (مفعولن) "[٣].

---

(١) د. عبد القادر رباعي – الصورة الفنية عند أبي تمام – ص : ٨٠– رسالة دكتوراة مخطوطة بجامعة القاهرة .

(٢) ابن الأثير – المثل السائر – ص : ١٥٠ .

(٣) الجوهري – عروض الورقة – تحقيق وتقديم د. صالح جمال بدوي – ص : ٦٥ .

وعـــندما ندقق النظر في أوزان المعلقات العشر وألفاظها نجد من حيث الأوزان أنها جاءت علـــى الـــبحور الطويلة التي عادة ما تكون " هادئة رزينة تتلاءم مع مواقف النفس وذلك لما تحتويه موســيقاها مـــن طول وكثرة في المقاطع وخفاء في الجرس "[١]وقد ورد ثلاث من المعلقات على بحر (الطويل) الذي يرى فيه بعض الباحثين أنه " أخذ حلاوة الوافر ورقة الرمل وترسل المتقارب وتخلص من جلبة الكامل فهو بحر فيه كثير من صفات البحور الأخرى[٢] أما بحر الوافر " فيمتاز بحركة وقوة وســرعة ســريع النغمات ، متلاحق النبرات فيه يسر وسهولة ، وتدفق وعذوبة تستريح له الأذن وتطمئن عنده النفس "[٣] ومنه معلقة عمرو بن كلثوم ، أما بحر (الكامل) ومنه معلقة لبيد " فيمتاز بالجـــد وفـــيه موسيقى صاخبة تتفق وروح المعارك والحروب "[٤] وهذا البحر "ينسجم مع العاطفة القوية النشاط والحركة سواء أكانت فرحة قوية الاهتزاز أم كانت حزنًا شديد الجلجلة[٥].

أمـــا القوافي فلعل أهم ما يميزها عند شعراء المعلقات التصريع الذي يعد من محاسن القوافي وهـــو ينبـــئ علـــى اقتدار الشاعر كما يذكر قدامة بن جعفر[٦] كما يدل على أن الشاعر قد حدد القافية التي سيبني عليها قصيدته وهذه خاصية نجدها عند شعراء المعلقة جميعًا :

يقول امرؤ القيس :

قفـــا نـــبك مـــن ذكرى حبيب ومنزل　　　بســـقط اللـــوى بـــين الدخول فحومل

ويقول طرفة :

لخـــــــــولة أطـــــلال ببرقة ثهمد　　　تلـــوح كباقـــي الوشـــم في ظاهر اليد

ويقول زهير :

أمـــــن أم أوفى دمـــــنة لم تكلـــــم　　　بحـــــومانة الـــــدراج فالمتـــــثلم

ويقول لبيد :

عفـــت الـــديار محلـــها فمقامهـــا　　　بمـــنى تأبـــد غـــولها فـــرجـــامها

ويقول عمرو بن كلثوم :

---

(١) سعد أحمد الحاوي – الصورة الفنية في شعر امرئ القيس – ص : ١٩.

(٢) د. إبراهيم أنيس – موسيقى الشعر – ص : ٩٥

(٣) المرجع السابق – ص : ٧٦ .

(٤) المرجع السابق – ص : ٧٧ .

(٥) د. محمد النويهي – الشعر الجاهلي – ص : ٦١ .

(٦) قدامة بن جعفر – نقد الشعر – ص : ٥١

ألا هــبي بصــحنك فاصــبحينا ولا تبقــي خمــور الأندريــنا

ويقول عنترة :

هــل غــادر الشعــراء مــن متردم أم هــل عــرفت الــدار بعــد توهم

ويقول الحارث بن حلزة :

آذنتــنا ببيــنها أسمــاء رب ثــاو يمــل مــنه الــثواءُ

وقال الأعشى :

ودع هريــرة إن الــركب مــرتحل وهــل تطــيق وداعًــا أيهــا الــرجلُ

وقال النابغة :

يــا دار مــية بالعلياء فالسند أقــوت وطــال عليها سالف الأمد

وأخيرًا عبيد بن الأبرص حيث يقول :

أقفــر مــن أهلــه ملحــوبُ فالقطَّــيات فالــذنــوبُ

وكلما كانت القافية عذبة سلسة المخرج كان أفضل كما أن اختيار القافية المناسبة للحركة النفسـية لـدى الشـاعر يعطيه موسيقى اللفظ الملازم لإيقاع الحركة النفسية من أول المعلقة إلى آخـرها. " إن القافـية هي " ذلك الرِّتم الرتيب ، أو النغم المتكرر في القصيدة الكلاسيكية ، وهو عنصـر موسيقي صارخ أدهش العرب في مرحلة من المراحل فأرادوا أن ينقلوه إلى النثر لكي يخلقوا فيه قدرًا من الطرب أو الموسيقى الخارجية"[١].

ب - صيغ وقوالب شعرية أخرى :

إنــنا نجد في شعر المعلقات صيغ وقوالب أخرى تدخل وتساهم في جمال إيقاع الشعر ومن ذلك :

١ - **مخاطبة الاثنين** :كمــا في معلقة امرئ القيس (قفا نبك ...) أو مخاطبة المفرد كما في قول الأعشى :

ودع هريــرة إن الــركب مــرتحل وهــل تطــيق وداعًــا أيهــا الــرجلُ

" وفي مخاطــبة الاثــنين "من التأكيد ما لا تجده إذا عبرنا عنه بلفظ المفرد . وإما أن يكون

(١) د. عبد العزيز المقالح – الشعر بين الرؤيا والتشكيل – ص : ٢٣٢ .

بمـــثابة تكرار الفعل ، ثم امتزاج الفعلين وصار حضور أحدهما حضورًا للآخر "[١] فكأن امرأ القيس قال : قف قف والتكرار يعطي المعنى قوة وتأكيدًا ويزيده فضلاً وتأثيرًا .

٢ - **الالتفات من الغيبة إلى الخطاب :** كما في قول طرفة :

كـــريم يـــروِّي نفســـه في حـــياته　　　ســـتعلم إن متـــنا غـــدًا أيـــنا الصدي

وقول عنترة :

خلـــت بـــأرض الزائـــرين فأصـــبحت　　　عســـرًا علـــيَّ طلابـــك ابـــنة مخـــرمِ

ويـــأتي الالـــتفات " لدفـــع السآمة من الاستمرار على ضمير متكلم ، أو ضمير مخاطب ، فينتقلون من الخطاب إلى الغيبة ، من المتكلم إلى الخطاب أو الغيبة ، فيحسن الانتقال من بعضها إلى بعض ؛ لأن الكلام المتوالي على ضمير واحد لا يستطاب فالنفوس تسأم التمادي على حال واحدة ، وتؤثـــر الانـــتقال من حال إلى حال والنفوس تنفر من الشيء إذا أخذ أخذًا واحدًا ، وتستريح إلى إحـــداث الأمر بعد الأمر فنجدها تسكن إلى الشيء إذا أخذ من ألوان شتى فيتجدد نشاطها ؛ لما في الكـــلام من تغيير وتلوين وقد سبق للزمخشري أن ردد هذا المغزى حين رأى أن الالتفات في الكلام إنمـــا يكون إيقاظًا للسامع عن الغفلة وتطريبًا له بنقله من خطاب إلى آخر ، فإن السامع ربما ملّ من أسلوب فينقله إلى أسلوب آخر تنشيطًا له في الاستماع واستمالة له في الإصغاء "[٢].

٣ - **التكـرار :**

قـــال عـــنه ابن فارس :" ومن سنن العرب التكرار والإعادة إرادة الإبلاغ بحسب العناية بالأمـــــر " [٣].

ووظيفـــته " التركيـــز على أمر يسعى الشاعر إلى استجلابه من خلال تأكيد المعنى وتقويته فضـــلاً عـــن أنه بأنواعه المختلفة يشكل قيمة موسيقية مهمة ووسيلة من وسائل التنويع النغمي في الشـــعر ... وغالبًا ما يكشف التكرار عن التصعيد النفسي من جراء شدة التأثر بالموضوع "[٤] وفي

---

(١) د. عبد القادر حسين – فن البلاغة – ص : ٣٠٣ .

(٢) د. عبد القادر حسين – فن البلاغة – ص : ٢٨٢ .

(٣) ابن فارس – الصاحبي في فقه اللغة – مطبعة المؤيد – ١٤١٠هـ – ص : ١٧٧ .

(٤) د . جـبار عباس اللامي – قراءة جديدة في مراثي الخنساء – كتاب الرياض (العدد ٧٨ – مايو ٢٠٠٠م) – ص : ٥٨ .

التكرار توكيد للقيم الأخلاقية فالشاعر زهير بن أبي سلمى يفرض عليه وفاءه تكرار دار الأحبة لأنها دار تستحق أن يتكرر اسمها في نظره :

وقفت بها من بعد عشرين حجة فلأيًا عرفت الدار بعد توهم

فلما عرفت الدار قلت لربعها ألا انعم صباحًا أيها الربع واسلم

لقد ذكر زهير ديار أحبته نكرة أول معلقته (دمنة لم تكلم) وعندما تجلاها بعد صعوبة من غيابة الوهم عرفها بلام العهد (الدار) ثم " تتكرر معرفة الدار وفاء بحق الفرحة "[1] وفي قوله :

جعلن القنان عن يمين وحزنه وكم بالقنان من محل ومحرمِ

ظهرن من السوبان ثم جزعنه على كل قيني قشيب ومفأم

ووركن في السوبان يعلون متنه عليهن دل الناعم المتنعم

بكرن بكورًا واستحرن بسحرة فهن ووادي الرس كاليد للفمِ

ولم ينس زهير أن يتكئ إلى جبل (القنان) الذي سارت الظعائن يمينه من محل ومحرم " لأن في تكراره تركيزًا على استحضار الصورة في عين ذاكرته ...ثم السوبان يصاحب منهن كل ما ذكر زهير من أعمال ؛ ليس أقل تلبثًا بخياله ، ولا إمتاعا باستطالة الذكرى فهو يشغل به صدر بيتين متتاليين (ظهرن من السوبان) و (ووركن بالسوبان) وما أحلى ما تراه من تكرار المادة مرة بمصدرها في (بكرن بكورًا) وأخرى بظرفها في (واستحرن بسحرة) مع إمكان الاستغناء عن التكرار ، لولا أن فيه مدًّا للظلال ، وتضافرًا في النسق القائم على هذه الظاهرة ، يشعر بانسجام الصورة الكلية مع كل صورها الجزئية ، تحت هيمنة واحدة للصدق الساري في جوانب النص "[2].

أما عنترة بن شداد فقد اتخذ من اسم عبلة ودار عبلة مروحة لقلبه ومتكأً لوجدانه فيكون لهما من التكرار بقدر ما لهما من الحب حيث يقول :

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم

أعياك رسم الدار لم يتكلم حتى تكلم كالأصم الأعجم

يادار عبلة بالجواء تكلمي وعمي صباحًا دار عبلة واسلمي

وامرؤ القيس يعتمد على التكرار في المضعف الرباعي لكونه "ألصق بموسيقا الطبيعة

---

(١) د. عز الدين علي السيد – التكرير بين المثير والتأثير – ص : ١٣٩ .

(٢) السابق – ص : ١٤٠ .

وبالنفس من الثلاثي "(١) فيقول :

فقلـــت لـــه لمـــا تمطـــى بصـــلبه وأردف أعجـــازًا ونـــاء بكلكـــل

وعـــند الحـــارث بن حلزة نجد تكرار التحسر والتحزن وفيه يجد الشاعر في تكرار اللفظ الراحة التي تحل مكان وخزة من وخزات الهم حيث نجده يكرر لفظ الفعل (آذن) فيقول :

آذنتـــنا ببيـــنهـــا أسمــــــــــاء رب ثـــــــــاو يمل منه الثـــواء

آذنتـــنـــــــا ببينـــها ثم ولـــــت لـــيت شـــعري مـــتى يكـــــون

ولو تتبعنا التكرار وأسراره في نصوص المعلقات العشر لطال بنا الحديث إلا أننا سنقف عند بـــيت لعمرو بن كلثوم اعتبره الدكتور طه حسين كما أوردنا في الفصل الثاني من هذه الدراسة " لا يمـــثل الطـــبع البدوي وإعراضه عن تكرار الحروف إلى هذا الحد الممل ... "(٢) إلى آخر ما قال ، وذلك البيت هو قول عمرو بن كلثوم :

ألا لا يجهلـــن أحـــــــــد علينـــا فـــنجهل فـــوق جهـــــل الجاهليـــنا

إلا أننا نرى أن طه حسين جانب الصواب فيما ذهب .

إن الشاعر في البيت السابق قد بلغ قمة الثورة الوجدانية والإثارة العاطفية فأراد أن يمهد لهـــا بتكـــرار حرف التنبيه (ألا) كجرس يدق للهجوم مرتين " وما أجمل أن يجعل مجازاة الجاهلين عليهم جهلاً إنه لا يكرر هذه المادة لتحصيل المجانسة اللفظية والمشاكلة المحضة فليس ذلك مقتضى انفعاله العارم وإنما يريد التفزيع والترهيب باستيفاء الصاع صاعين إن لم يزد فلا يكتفي بالجزاء على المســـاواة "(٣) إن معلقـــة عمـــرو بـــن كلثوم بالذات مليئة بالتكرار وإن تلك النونات والراءات والـــدالات والـــباءات والهاءات لم تأتِ عبثًا من الشاعر إنما أملتها عليه تداعيات النفس والموقف والغـــرض الشعري وإنك لو نظرت في آخر كل بيت من معلقة عمرو لهزتك تلك المدود الواقعة في مواقـــع الفخامـــة والإطلاق ، ثم إن الشاعر يحذر الآخرين من العدوان عليهم لأنهم في هذه الحالة ســـيواجهون جهلـــهم أي سفههم بجهل أعظم ، وسمى جزاء الجهل جهلاً لمزاوجة الكلام ومشاكلته وحسن تجانس الألفاظ "(٤).

---

(١) د . عز الدين علي السيد – المرجع السابق – ص : ٣٢ .

(٢) د. طه حسين – في الأدب الجاهلي – ص : ٢٢٠ .

(٣) د . عز الدين علي السيد – السابق – ص : ١٧١.

(٤) د . عفت الشرقاوي – قضايا الأدب الجاهلي – ص : ٣٢٦ .

٤ – ألـوان بديعية متفرقة تعتمد على إعادة اللفظ أو مجانسته إبرازًا لدوره الصوتي في التركيب النغمي للبيت ومن ذلك :

المطابقة كما في قول امرئ القيس :

تسلت عمايات الرجال عن الصبا   وليس فؤادي عن هواك بمنسل

وهو طباق سلب بين حالتين من حالات النفس .

وقد أفاد الطباق سرعة الحركة لدى فرسه في قوله :

مكر مفر مقبل مدبر معًا   كجلمود صخر حطه السيل من علِ

ويطابق طرفة بن العبد بين لونين من حياته أثناء قوله :

وإن تبغني في حلقة القوم تلقني   وإن تقتنصني في الحوانيت تصطدِ

كما يظهر الطباق في قول زهير :

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب   تمته ومن تخطئ يعمَّر فيهرم

كما يظهر الطباق لدى لبيد في وصله وقطعه حيث يقول :

أولم تكن تدري نوار بأنني   وصَّال عقد حبائل جذَّامها

وعمرو بن كلثوم يستخدم الطباق وهو يصف بأس قومه فيقول :

أبا هند فلا تعجل علينا   وأنظرنا نخبرك اليقينا

بأنا نورد الرايات بيضًا   ونصدرهن حمرًا قد روينا

ومن ألوان البديع الجناس كجناس الاشتقاق وهو " أخذ لفظ من آخر لمناسبة بينهما في المعنى[1] كما في قول امرئ القيس :

ويضحي فتيت المسك فوق فراشها   نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضلِ

ويقول طرفة :

وما زال تشرابي الخمور ولذتي   وبيعي وإنفاقي طريفي ومتلدي

إلى أن تحامتني العشيرة كلها   وأفردت إفراد البعير المعبدِ

---

(١) عبد المتعال الصعيدي – بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة – ص : ٨٥ .

ويصور عبيد بن الأبرص الموت مقيمًا في الديار فيقول :

أرض تـــــوارثها شـــــعوبُ　　　وكـــل مـــن حلّهـــا محـــروب

إمـــا قتـــيل وإمـــا هـــالـــك　　　والشـــيب شـــين لمـــن يشـــيبُ

ومـــن ألـــوان البديع المعنوي مراعاة النظير وهو " أن يجمع في الكلام بين أمر وما يناسبه لا بالتضـــاد"[1] كما في قول امرئ القيس :

أصـــــاح ترى برقًا أريك وميضه　　　كلمـــع الـــيدين في حـــبي مكلـــل

يضـــيء ســـناه أو مصـــابيح راهـــب　　　أمـــان الســـليط بالـــذبال المفـــتل

فيورد البرق والوميض والضياء والسناء كما يورد المصابيح والسليط والذبال المفتل .

وكـــذلك الجمع مع التقسيم وهو " جمع متعدد تحت حكم ثم تقسيمه أو تقسيمه ثم جمعه[2] ومن ذلك قول طرفة بن العبد :

فلولا ثلاث هن مـــن عيشة الفتى　　　وجدك لم أحفل متى قام عودي

فمنهن سبق العـــاذلات بشـــربة　　　كميت متى ما تعل بالماء تزبـــدِ

وكري إذا نادى المضـــاف محنبًـــا　　　كسيد الغضـــــا نبهته المتوردِ

وتقصير يوم الدجن والدجن معجب　　　ببهكنة تحت الطـــــراف المعمدِ

فلذاته ثلاث : الخمر ونجدة الضعيف واللهو بالمرأة ، وقد أجملها في البيت الأول وفصلها في الأبيات التالية .

ومن رد العجز على الصدر قول زهير :

عظـــيمين في علـــيا معـــد هديـــتما　　　ومـــن يســـتبح كـــنزًا مـــن المجد يعظمِ

ورد العجـــز على الصدر في الشعر " أن يكون أحد اللفظين في آخر البيت والآخر في صدر المصراع الأول أو آخره أو الثاني "[3] ونحن عندما تحدثنا عن بعض عناصر الشكل فيما سبق فليس معـــنى هذا أننا نظرنا إليها منفصلة عن الصورة الفنية التي سيأتي الحديث فيها لاحقًا وإنما فعلنا ذلك لإعطـــاء نبذة عن بعض عناصر التشكيل ومدى أثر القيم والأخلاق في صناعتها واختيارها وهانحن

---

(١) عبد المتعال الصعيدي – السابق – ج٤ / ١٦ .

(٢) نفس المرجع – ص : ٣٩ .

(٣) نفس المرجع – ص : ٨٧ .

سندخل الآن إلى الصورة الفنية التي هي جماع كل عناصر الشكل في العمل الأدبي لنتناول بالتفصيل أثـر القـيم والأخـلاق في تشكيل المعلقات العشر حسب الفضائل الأخلاقية التي تحملها الصورة الأخلاقية (الهيئة أو الإطار أو الموضوع) كما مر معنا في الفصل الثاني من هذه الدراسة .

ثالثًا : الصورة الفنية للأخلاق في المعلقات العشر :

قبل الدخول في بحث الصورة الفنية أو التعبير الفني عن الأخلاق في المعلقات العشر لابد من تعـريف المعلقة التعريف الذي يساعدنا في بحث هذا الجانب وقد وقع اختيارنا على التعريف الذي وضـعه أدونيس وأورده جودت فخر الدين في كتابه (الإيقاع والزمان) وقد صيغ تعريف المعلقة علـى الشكل الآتي :" المعلقة إطار أو وسط تتحرك فيه الأشياء ، وهي تتحرك في زمن يشبه نسيجًا هـائلاً مـن الأسنان الحادة الناعمة التي تقرض ببطء كل شيء . هذه الأشياء هي الطلل ، الناقة ، الـرمل الريح ، المرأة ... أشياء تنبثق منها علامات (المعنى) الذي تنطوي عليه المعلقة "[1] " في كل معلقـة من معلقات الشعر الجاهلي معنى واحد أساسي يشكل خيطًا ينتظم جميع أجزائها ، والمعنى في كـل معلقـة يختلف عن المعاني في المعلقات الأخرى وقد يكون في ذلك سبب التقدير الكبير الذي أولاه العـرب لمعلقـاتهم السـبع أو العشر فهي تعبر مجتمعة عن معانٍ أساسية ليست سوى وجوه لشخصـية العرب الجماعية ومن الطريف أن الشعراء كان لهم فضل التعبير عن هذه الشخصية من خلال شعر غنائي يحتفي بما هو ذاتي أو شخصي "[2].

وإن القيم الأخلاقية – في رأيي – هي ما يمثل شخصية العرب الجماعية ومن ثم فقد امتلأت نصوص المعلقات العشر بمظاهر تلك القيم والأخلاق كما رأينا في دراستنا الموضوعية خلال الفصل الـثاني مـن هـذه الدراسة ومن ثم كان لزامًا علينا أن نتمم دراستنا هذه بمدى تأثير تلك القيم والأخـلاق في تشكيل نصوص المعلقات العشر باعتبار أن تلك القيم والأخلاق معان معتملة داخل الـنفس تنتظمها التجربة الإنسانية العميقة أو الرؤيا الداخلية للمبدع ومن ثم تكون "الصورة الفنية هي الأداة التي تتوسط دائما بين الروح والمعرفة أو بين الداخل والخارج "[3] .

ولكـن يجب أن نضع في أذهاننا أن الاكتفاء لدى أدونيس " بالكلام عن صور شعرية مفرقًا بين الصورة والتشبيه "[4] لا يكفي وذلك لأن الصورة الشعرية يجب أن تشمل كل عناصر التشكيل كما سيأتي توضيحه .

---

(١) جودت فخر الدين – الإيقاع والزمان – ص : ٥٣ .

(٢) المرجع السابق – ص : ٥٣ .

(٣) د. عبد القادر الرباعي – الصورة الفنية في شعر زهير بن أبي سلمى – ص : ١٥٠ .

(٤) جودت فخر الدين – المرجع السابق – ص : ٥٤ .

أ – مفهوم الصورة الفنية وأثرها في الشعر :

جاء في تاج العروس للزبيدي مادة " صور" الصورة ، بالضم : الشكل ، والهيئة ، والحقيقة، والصفة .

وعند البحث في دلالات استعمال كلمة صورة فإننا نجدها تستعمل " للدلالة على كل ما له صلة بالتعبير الحسي وتطلق أحيانًا مرادفة للاستعمال الاستعاري للكلمات "[١].

والشـــاعر والأديب لا غنى له عن الصورة فهي الوسيلة المعينة له في " نقل فكرته وعاطفته معًـــا إلى قرّائه أو سامعيه "[٢] " وقال الفلاسفة الماديون : " الصورة الفنية : منهج معين يستخدم في الفـــن لترديد الواقع الموضوعي في شكل حي ، ومتعين وحسي يمكن إدراكه بطريقة مباشرة في إطار مـــثل أعلى جمالي محدد . وتختلف الصورة الفنية في عدد من الفروق عن المفاهيم العلمية أو الأفكار السياســـية ، أو المـــبادئ الأخلاقية فهي تمثل وحدة متداخلة بين الحسي والمنطقي ، المتعين والمجرد ، المباشـــر وغير المباشر الجزئي والكلي ، العرضي والضروري ، الخارجي والداخلي ، الجزء والكل ، المظهر والجوهر ، الشكل والمضمون"[٣].

والصـــورة هـــي :" الصـــيغة اللفظية التي يقدم فيها الأديب فكرته ويصور تجربته ويتضمن اصطلاح الصورة الشعرية جميع الطرق الممكنة لصناعة نوع التعبير الذي يرى عليه الشيء متشابهًا أو متفقًا مع آخـــر. ويمكن أن يتركز ذلك في ثلاثة أصناف هي التشبيه والمجاز والرمز "[٤] ويتوقف نجاح الصورة الأدبية على مدى ما تحققه من تناسب بين ما يعتلج في نفس الشاعر وبين ما يصوره في الخـــارج ، وقد تنبه نقاد العرب قديمًا لهذا السر المتضمن ذلك التشابه والقرابة بين مكنونات النفس والمـــواد الخارجية فقالوا إن أشعر الناس :"من أنت في شعره حتى تفرغ منه "[٥] وفي قول ابن قتيبة هـــذا إشارة إلى أهمية العلاقة بين الذات المعبرة والموضوع المعبر عنه " بحيث يعيش الشاعر موضوعه بكل أحاسيسه وانفعالاته ، ويعكس ما أحس به ليجعلنا نعيش نحن في شعره فنحس بما أحس وننفعل بما انفعل به"[٦].

---

(١) د . مصطفى ناصف – الصورة الأدبية – ص ٣ .

(٢) د. أحمد الشايب – أصول النقد الأدبي – ص : ١٤٢.

(٣) محمود السيد الدغيم – مجلة الأدب الإسلامي – العدد (١٣) – ١٤١٧هـ – ص : ٤١ .

(٤) د. عبد الفتاح صالح نافع – الصورة في شعر بشار بن برد – ص : ٧٨ .

(٥) ابن قتيبة – الشعر والشعراء – ج١/٢٠.

(٦) د. عبد الفتاح صالح نافع – الصورة في شعر بشار – ص : ٥١-٥٢ .

ومـــن هنا جاء تعريف الصورة الفنية للشعر على أنها " الصورة التي يتوافر فيها عنصر الخيال والتعبير الأدبي المؤثر الذي يحمل القارئ على الإعجاب "[١].

ومـــن هـــنا يكون عنصر الخيال أهم عنصر في الصورة الفنية في الشعر ، وقد اعترف العرب بقوته حتى أنهم " قد قرنوها منذ القديم بالشيطان وتصوروها نوعًا من الإلهام ، وفي اتهامهم النبي بأنه شـــاعر ما يصور مدى فهمهم لطبيعة الوحي وطبيعة الشعر . وتحدث بعضهم عن آثار هذه القوة في نفســـه ، وكـــيف أنها تغيب وترجع ، فإذا غابت أصبح قلع الضرس أهون من قول بيت واحد من الشـــعر ، وقرنوها أحيانا بأزمنة وأوقات صالحة للتلقي والإبداع وتحدث بعضهم عن الرئيّ والتابع الذي ينفث على لسانه شعرًا"[٢].

ومـــن كـــل ما تقدم نرى أن الصورة الفنية لها أهميتها الكبرى في الشعر وهي على اختلاف أنواعها "ليست زخرفًا أو عناصر مضافة إلى الصورة المنطقية العارية وإنما هي صورة تلقائية من صور التعبير "[٣].

وقـــد يتناول الشعراء مادة أو مواد متشابهة يعبرون من خلالها عما يختلج في نفوسهم وتمليه علـــيهم عـــواطفهم " ولكـــن اخـــتلاف الصور التي تعرض فيها المادة هي التي تعطيها قيمة جمالية مختلفـــــة" [٤].

والشـــعر " يكتســـب أهميته ودوره وغناه من الصورة الشعرية لأنها هي التي تعطي الألفاظ المـــؤلفة للغـــة قدرتها الإيحائية في الدلالة فتظهر القصيدة تتألف من كلمات لا تثير إلا معنى واحدًا مســـطحة ، ولا تؤثـــر كقصـــيدة ، بيـــنما الكلمـــات التي مستها الصورة تغدو ينبوعًا لا ينضب للإمكانيات الدلالية والصوتية"[٥] على أننا لا نصادر بهذا القول أهمية الوزن والقافية فهما عنصران "ضـــروريان لبلوغ الصورة كمالها وذلك من خلال خلقهما نغمًا هو موسيقى الصور ولكنهما ليسا كافيين وباجتماع هذه العناصر كلها الإيقاع والقافية والصورة نضمن خلود الشعر "[٦].

---

(١) د. حمد بن ناصر الدخيل – يحيى بن طالب الحنفي حياته وشعره – ص : ٩٥.

(٢) د . إحسان عباس – فن الشعر – ص : ١٢١ .

(٣) كروتشة – المجمل في فلسفة الفن – ترجمة الدكتور / سامي الدروبي – ص : ١٤٨ .

(٤) د. عز الدين إسماعيل – الأسس الجمالية في النقد العربي – ص : ٢١٤.

(٥) د. صبحي البستاني – الصورة الشعرية في الكتابة الفنية – ص : ٣٣ .

(٦) نفس المرجع – ص : ٣٤ .

والمعلقــات العشــر بمــا تحمله من مضامين خلقية ما هي إلا انعكاسات للتجارب الشعرية لأولئك الشعراء العشرة "ومن المعروف أن التجربة الشعرية لا تكتمل ولا يتحقق لها التأثير المأمول في نفــس متلقيها إلا عن طريق الصورة الشعرية ذلك أن الشاعر بواسطة الصورة يشكل أحاسيسه وأفكاره وخواطره في شكل فني محسوس وبواسطتها يصور رؤيته الخاصة للوجود وللعلاقات الخفية بين عناصره"(١).

وخلاصة القول : أن الصــورة هي " الوسيلة الفنية الجوهرية لنقل التجربة "(٢)"ويقوم الشــاعر فيها ببعث ما في اللغة بكلماتها وعباراتها من قدرة تصويرية ورثتها عن عهودها الأولى يوم كــان الإنســان يعبر عما يريد عن طريق الرسم وهي وسيلة نقل الأحاسيس والمشاعر من منطقة التجـريد إلى منطقة التجسيد " (٣) وعلى هذا "فالصورة الشعرية هي جوهر التجربة والأداة الفذة للتشــكيل الجمــالي والحل الوحيد لأزمة اللغة التي تواجه الشاعر حين يحاول تصوير رؤيته الخاصة وإدراكــه الخــاص لــواقعه " (٤) وإذا كانت الصياغة الموسيقية في الشعر العربي لها أثرها المهم مع الصــورة الفنــية في نقــل الأحاســيس والمشــاعر لأن " الموســيقى في البــيت ليست إلا تابعة للمعنى"(٥)والمعنى يتغير بين قصيدة وأخرى فإن لوجود القافية وتنوعها في القصائد العشر أشد الأثر في مساندة الصور الفنية في كل قصيدة ، ولقد علمنا أن الوزن هو الجالب للقافية ، وإن كان بعض الباحــثين ربط بين القافية والوزن وعاطفة الشاعر كما مر معنا فإن " الحق أن القدماء من العرب لم يــتخذوا لكــل موضوع من هذه الموضوعات وزنًا خاصًا أو بحرًا خاصًا من بحور الشعر القديمة . فكانوا يمدحون ويفاخرون ويتغزلون في كل بحور الشعر . وتكاد تتفق المعلقات في موضوعها ، وقد نظمت من الطويل والبسيط والخفيف والوافر والكامل ... والأمر بعد ذلك للشاعر فقد يقع على البحــر ذي التفاعيل الكثيرة في حالات الحزن لاتساع مقاطعه وكلماته لأناته وشكواه ، محبًا كان أو راثيًا، أو لملاءمة موسيقاه لأغراضه الجدية الرزينة من فخر وحماسة ودعوة إلى قتال وما إليها ولهذا كانــت الــبحور الغالبة في الأغراض القديمة هي الطويل والكامل والبسيط والوافر ...وليس من قاعــدة تــربط حــروف القوافي بموضوع الشعر ، والأمر في ذلك يشبه علاقة البحور بموضوعات القصــائد غــير أنــه لحظ أن القاف قد تجود في الشدة والحرب والدال في الفجر والحماسة .والميم

---

(١) مفرح إدريس أحمد سيد – الاتجاه الإسلامي في شعر محمد بن علي السنوسي – ص : ٣٥٢

(٢) د. محمد غنيمي هلال – النقد الأدبي الحديث – ص : ٤١٧ .

(٣) سعد أحمد محمد الحاوي – الصورة الفنية في شعر امرئ القيس – ص : ٣٣٧ .

(٤) نفس المرجع – ص : ٣٣٧ – ٣٣٨ .

(٥) د. محمد غنيمي هلال – السابق – ص : ٤٣٧ ..

والـــلام في الوصف والخبر والباء والراء في الغزل والنسيب في الغزل وإنما هو قول إجمالي إذا صح مـــن باب التغليب فلا يصح من باب الإطلاق ... وللقافية قيمة موسيقية في مقطع البيت وتكرارها يزيد في وحدة النغم ، ولدراستها في دلالتها أهمية عظيمة. فكلماتها – في الشعر الجيد – ذات معان متصلة بموضوع القصيدة بحيث لا يشعر المرء أن البيت مجلوب من أجل القافية بل تكون هي المجلوبة من أجله "[1] ومن هنا نتبين أن دراسة القافية مهمة من ناحيتها الدلالية والموسيقية معًا .

وهـــذا يؤكد أن الأوزان والقوافي من عناصر الشكل المدعمة للصورة الفنية والمعينة لها في نقـــل التجربة الشعورية لدى الشاعر وليس نقل الموضوعات في ذاتها ، ومن هنا أحببت أن أفرد لها الحديث فيما سبق حتى نتمكن لاحقًا من دراسة وظيفتها متحدة مع الصورة الفنية في إبراز التجربة الشـــعورية لـــدى كل شاعر من شعراء المعلقات العشر للخروج بصورة متكاملة للتعبير الفني عن الأخلاق في المعلقات العشر وأثر ذلك في التشكيل .

والآن نـــرى لـــزامًا علينـــا أن نبحث في مصادر التعبير الفني لأصول الأخلاق ومظاهرها المخـــتلفة عند شعراء المعلقات العشر ومن ثم الوصول إلى البحث في أنماط الصورة الفنية للأخلاق لدى أولئك الشعراء ثم الخروج بعد ذلك بالبناء الفني الذي تشكله الصورة الفنية للأخلاق ليكون بـــدوره البناء أو الشكل الفني لصورة الأخلاق في المعلقات العشر وبالوصول إلى ذلك نكون أثبتنا بالأدلـــة والـــبراهين أثـــر القيم والقضايا الأخلاقية في تشكيل القصيدة الجاهلية المتمثلة في نصوص المعلقات العشر .

ولكن قبل الشروع في بحث الأمور السابقة الذكر أود أن أشير إلى شيء مهم جدًّا ذكرناه هـــو أنه ما دامت غاية الشعر أخـــــــلاقية " فالشكل هو الذي يؤثر في المتلقي ويجعله يتقبل تقبلاً متميـــزًا ما ينطوي عليه الشعر من قيم ... " [2] يعرضها الشاعر من خلال وسيط حسي أو " تقديم الفضائل المجردة من خلال تمثيل محسوس ، وعندما يقول طرفة :

لعمرك إن الـــموت ما أخطـــأ الفـــتى　　　لكالطِّـــول المـــرخـــى وثـــنـــياه بالـــيد

تتبدى حقيقة الموت المجردة في تعقبه الأزلي للإنسان ، من خلال المثل الملموس ، وهو الطول المرخـــى في ثنيه باليد "[3] ومن خلال دراستنا للإطار الخلقي في الفصل الثاني من هذه الدراسة تبين

---

(١) د. محمد غنيمي هلال – السابق – ص : ٤٤١، ٤٤٣ .

(٢) د . جابر عصفور – مفهوم الشعر – ص : ١٦٠ .

(٣) الســـابق – ص : ١٦٣.

لـــنا أن جمـــيع المظاهر الخلقية للفضائل قد حاول شعراء المعلقات تأديتها وتقديمها من خلال صور ملموسة كصورة الطلل وصورة الناقة والفرس وغير ذلك .

" لـــذلك فنحن لا نبحث عن الأبعاد الحرفية لهذه الفضائل وإنما نبحث عن بعدها الرمزي الـــذي يتـــبدى من خلال الإرداف والإشارة والتمثيل فضلاً عن التشبيه "(١) وما دمنا نبحث عن الـــتقديم الشـــعري في الدلالة الضمنية والتمثيل لا الحقيقة والتقديم الرمزي لا الحرفي لتقديم المحتوى الأخلاقـــي فلـــيس وقفًا على الشاعر أن يقدم لنا صورة الفضيلة الخلقية فقط ولكنه كما يقدم لنا صورة الفضيلة ليدعو الناس إليها فهو يقدم لنا صورة الرذيلة وعواقبها ليجتنبها الناس أو يقصد من ورائها مقارعة الخصم وتعداد مثالبه كما مر بنا .

ب – مصادر الصورة الفنية لأصول الأخلاق ومظاهرها في المعلقات:

ترجع مصادر الصورة الفنية لأصول الأخلاق ومظاهرها في المعلقات العشر إلى ثلاثة مصادر رئيسة هي :

١ – المصدر الطبيعي .

٢ – المصدر الحيواني .

٣ – المصدر البشري .

وســـنتناول كل مصدر من المصادر الثلاثة السابقة بالبحث ونورد الشـــواهد له من نصوص المعلقات العشر .

أولاً : المصدر الطبيعي :

اتخذ شعراء المعلقات العشر من مظاهر الطبيعة محورًا يرتكزون عليه في التعبير عن مشاعرهم وطاقة يفجرون منها مكنوناتهم الإنسانية متجاوبين مع عناصرها المختلفة ففلسفوا الطبيعة وصوروها وســـكبوا مـــن خلالهـــا أفكارهم مستخدمين في ذلك وسائل الفن البياني أدق استخدام حتى بدت أخلاقهم و عواطفهم مجسمة في الأفكار والمعاني .

ولو استعرضنا الأصول الأخلاقية ومظاهرها المختلفة لوجدنا أنها أفكار يعيها الذهن متجردة عـــن شكلها المادي ، وقد انتزعت انتزاعًا من التصرف إثر التجارب والاختبارات وأصبحت تُفهم

---

(١) الســـابق – ص : ١٦٤.

فهمًــا أكثر مما ترى بالبصر فبعد أن كانت ملتصقة بصورة مادية بإنسان معين يتصف بها ارتقى بها التجــريد عــن هذا الإنسان وذاك وأصبحت أفكارًا عامة فالشجاعة والعقل والعفة والعدل أو أي مظهــر من مظاهرها المختلفة هو معنى نفهمه بخلاف ساقي الفرس والنعامة الذين يشخصان في العين ونحن نقرأ قول امرئ القيس :

له أيطــلا ظبي وساقا نعــــامة　　　وإرخــاء ســرحان وتقــريب تــتفل

ولعــل تشــبيه الكرم كفكرة معنوية يحوله من فكرة إلى مشهد أي ينتقل به من المعنوية إلى الماديــة ، وبالطــبع تلك الصورة المادية هي من الطبيعة بنوعيها صامتة كانت أو متحركة والنابغة عندما صور لنا كرم النعمان فإنما قدمه في صورة حسية مادية فقد قدمه في صورة الفرات الذي يمثل بفيضــانه معنى الكرم "لأن البدائي يفهم الأشياء من خلال مظاهرها أكثر مما يعيها من خلال معانيها وشاع ذلك في الشعر الجاهلي حتى أنه يكاد أن يقتصر عليه ، من دون سواه "[١].

<u>لقد نقل لنا الشاعر العربي الجاهلي وصفًا للطبيعة جامدة ومتحركة على وجهين :</u>

١ – إمــا وصفًا نقليًا لا مقارنة فيه ولا تشبيه بين مشهد وآخر وإنما يقف الشاعر خلاله " بحدقته يراقب الأشياء ويقرر ما يبصره من شكلها وأوصافها تقريرًا شائعًا علميًا "[٢] وتكون فضيلة الوصف النقلي "هي في دقته وصحة تشابيهه "[٣] وإنما كان حرص الجاهلي على تلك الدقة وصحة التشبيه لأن مثل هذا النوع من الوصف يمثل متممًا حسيًا لمظهر من مظاهر الأخلاق أو أنــه يعكــس ما يتمتع به الشاعر من أخلاق معنوية كالتفطن لدقائق الأعمال مما يحيط بالشاعر ، ولو أخذنا على سبيل المثال قول عنترة بن شداد في وصف الروضة :

إذ تستبيك بذي غروب واضحٍ　　　عذب مقبله لذيذ المطعــمِ

وكأنما نظرت بعيني شــادن　　　رشأٍ من الغزلان ليس بتــوأم

وكأن فارة تــاجر بقسيمة　　　سبقت عوارضها إليك من الفمِ

أو روضة أنفًا تضمن نبتــها　　　غيث قليل الدمن ليس بمعــلمِ

---

(١) إيليا الحاوي – فن الوصف وتطوره في الشعر العربي – ص : ١٠ .

(٢) السابق – ص : ١٦ .

(٣) السابق – ص : ١٦ .

جادت عليها كل عـــين ثرةٍ   فتركن كل حديقة كالدرهمِ

سحًا وتسكابًا فكـــل عشية   يجري عليها الماء لم يتصـــرم

وخلا الذباب بها فليس ببـــارحٍ   غردًا كفعـــل الشارب المترنمِ

هزجًـــا يـــحك ذراعه بذراعه   قدح المكب على الزناد الأجذمِ

لوجدنا أن قول عنترة السابق لا يتعدى أن يكون وصفًا واقعيًا تقريريًا دقيقًا دون أن يعتريه بعاطفـــة أو يـــتولاه بخيال إلا أنه متمم حسي يستطرد فيه وصف عبلة يبيح له العذر – في نظره– الـــتعلق بها دون أن يهز صورة الإباء والبطولة فيه كما أنه يحمل إلينا خلقًا يحب الشاعر أن يوصف به ألا وهو التفطن لدقائق الأعمال كما مر معنا . ويدخل تحت هذا النوع الوقوف على الأطـــلال " لمـــا له من علاقة مباشرة بوجدان الشاعر ، وتنازعه مع ميوله وعواطفه ، ولما يستثيره في نفسه من الذكريات التي توافق طبيعة التجربة الشعرية ... فالطلل يمثل له تجربة البراح والحنين والندم "[1].

٢ – وصـــف الطبـــيعة وصـــفًا وجدانيًا : وهو " ذلك النوع الذي يتخطى فيه الشاعر حدود الظاهـــــرة ... وينيط بها مفهومًا شعريًا جديدًا "[2] وفيه يقارن الشاعر بين فكرة أو حالة نفســـية من جهة ومشهد حسي أو صورة مادية من جهة أخرى ، ومن الأمثلة على ذلك في دراســـتنا هذه مظهر الكرم الذي يمثل فكرة عامة إلا أن تشبيهه بمظهر من مظاهر الطبيعة لـــدى الـــنابغة انتقل به من المعنوية إلى المادية ونحن ننظر إلى تصوير ذلك المشهد الطبيعي (الفرات) بمنظار الشجاعة ممثلة في مظهر الكرم حيث يقول :

فما الفرات إذا هـــب الريـــــاح له   ترمـــي أواذيـــه العـــبرين بالـــزبـــد

يمـــده كـــــل واد مترع لجـــب   فـــيه ركـــام مـــن الينبوت والخضد

يظـــل مـــن خـــوفه المـــلاح معتصـــمًا   بالخيـــزرانة بعـــد الأيـــن والـــنجـــد

يـــومًا بأجـــود مـــنه ســـيب نافلـــة   ولا يحـــول عطـــاء الـــيوم دون غـــد

إن النابغة عندما أراد أن يقدم لنا فكرة الكرم اتخذ من الفرات مصدرًا حسيًا ليمثل بفيضانه معـــنى الكرم من خلال مده وهيجانه وزبده وكثرة مرافده ليقدم لنا صورة الكرم في صورة حسية نرى فيها كرم النعمان بن المنذر يفيض من خزائنه العظيمة التي لا تنضب روافدها .

---

(١) الســـــابق – ص : ٢١ .

(٢) السابق – ص : ١١ .

إن الطبـيعة بمظاهـرها المختلفة صامتة ومتحركة مثلت مصدرًا غنيًا لدى الشاعر الجاهلي استطاع من خلاله أن يصور لنا الأخلاق بمظاهرها المختلفة في صورة محسوسة ورموز ماثلة .

وسـنبدأ الآن بالطبـيعة الصامتة من "سماء وأفلاك ونجوم وكواكب وسحاب ومطر وسيل وبـرد ورعـد وبـرق ونهار وليل وصحارى وقفار وجبال ووديان ، ونجاد ووهاد وأغوار ونسائم ورياح، ونخيل ونبات ، ودوح وآكام ، وأوتاد وأمراس ، وبعر وصخر "[١].

بـل أن " هناك فنًا آخر يعتبر من شعر الطبيعة في الطليعة ذلك هو بكاء الديار والأطلال ، والـديار هـنا لا تعني المنازل الخاصة ، وإنما تعني الموطن أو البيئة "[٢] وبالنظر إلى نصوص المعلقات العشـر وجدنا أن مظاهر الطبيعة الصامتة تتمثل في مظاهر كثيرة تتداخل فيما بينها أحيانًا وتتباين حينًا آخر ويرجع ذلك إلى كون الشاعر الجاهلي كان بمثابة الرسام الماهر الذي يجول نظره في الكون فيلتقط من صوره الكثيرة ما يتناسب مع حاجات نفسه ونقل ما بها من أحاسيس إلى الآخرين .

ولقـد وقف الشاعر الجاهلي أمام كل المظاهر الطبيعية يصفها وصفًا نقليًا ووجدانيًا فيختار مـن تلك المظاهر ما يناسب لنقل مشاعره ، وبهذا يكون حتى الوصف النقلي لبعض تلك المظاهر لا يأتي من فراغ وإنما رأى الشاعر الجاهلي في نقله إلينا متممًا حسيًا لفكرة معنوية وبذلك يكون وصفه النقلي والوجداني لمظاهر الطبيعة صامتة ومتحركة يعملان جنبًا إلى جنب في سبيل نقل قيمه وأخلاقه إلى متلقيه .

وإن مما تزخر به المعلقات العشر من مظاهر الطبيعة الديار والأطلال وما يتعلق بها من مظاهر طبيعـية لهـا علاقة بمن كان يقطن الديار أو ترك فيها أثرًا يكون سببًا في تداعيات الذكريات لدى الشـاعر ومـن ثم تذكي الخيال الشعري لديه وتمده بالصور الخلابة وتهبه قوة التصوير والامتزاج الكامـل فيها يقف عندها الشاعر الجاهلي باكيًا متأملاً خائفًا يستعيد الذكريات التي طواها الزمان يقوده إلى ذلك الوقوف وفاؤه لأهله وعشيرته وأحبابه .

فهـذا امرؤ القيس حين يبكي المنازل يحددها بما بين الدخول فحومل فتوضح فالمقراة ذاكرًا دمنها وسهولها حيث يقول :

---

(١) سعد أحمد محمد الحاوي – الصورة الفنية في شعر امرئ القيس – ص : ٢٠٤.

(٢) سيد نوفل – شعر الطبيعة في الأدب العربي – ص : ٤١ .

قفــا نــبك مــن ذكرى حبيب ومترل ... بســقط اللــوى بــين الدخول فحومل

فتوضح فالمقــراة لم يعــف رسمــــها ... لما نسجتهــا مــن جنــوب وشــمأل

فالمكـــان لم يفقد أنسه بالكامل بل ظلت ريحا الجنوب والشمال تختلفان عليه فلم يمحّ أثره وتلامس عرصاته مسًّا خفيفًا وتحمل إليه ريا الشذى من الأزهار البرية .

ومحبوبته إذا التفتت نحوه تضوع ريحها فكأنما نسيم الصبا حملت إليه عبق القرنفل :

إذا التفــتت نحــوي تضــوع ريحهــا ... نســيم الصــبا جــاءت بــريا القرنفل

ويقــف طــرفة بــن العبد أيضًا على ديار خولة في ذلك المكان الذي اختلط ترابه بحجارة وحصى فبدا يلمع كغرز الوشم الظاهرة في اليد :

لخــــولة أطــــلال ببرقــــة ثهمد ... تلــوح كباقــي الوشــم في ظاهر اليد

بروضة دعمي ، فأكــــناف حــــائل ... ظللــت بهــا أبكــي ، وأبكي إلى الغدِ

ويــرى زهــير بن أبي سلمى في ديار أم أوفى التي علاها سواد البعر والرماد فغدت كبقايا الوشم في موضع السوار من اليد :

أمــــن أم أوفى دمــــنة لم تكلــــم ... بحــــومانة الــــدراج فــالمتــثلم

ودار لــهـــا بالــــرقمتين كــأنهــــا ... مــراجيع وشــم في نواشــر معصــم

أمـــا لبيد فقد امحت ديار أحبابه وتوحشت وتتابعت عليها مسايل المياه حتى أصبحت كبقايا كـــتابة قديمة نظرًا لتوالي أنواء الربيع عليها بين شديدة وخفيفة حتى أطلع في أرضها الجرجير البري وســكنتها الوحــوش وقد كشفت السيول تلك الطلول كما جددت الأقلام حروف الكتابة ، أو ترديد الوشم وإعلاله على الجسم ، فلم يبق منها إلا الصلاب البواقي التي لا تظهر كلامًا ولا تجيب عن سؤال رغم أنها تحمل ذكريات ومعاني كثيرة تكاد هيئتها تفصح بها ولكن أنى لها ذلك وهي صم خوالد ؟!

لقد ذهب أهل المكان وترك ذلك النهير الذي يحفر حول البيت لينصب إليه الماء فلا يدخل إليه ، كما ترك الثمام وهو نوع من الشجر يسد به ما في البيوت من خلل فيقول :

عفت الديــــــار محلها فمقــــامها ... بمــــــنى تأبــــــد غولها فرجــــامها

فمــــــدافع الريــــــان عري رسمها ... خــــلقًا كمــــــا ضمن الوحــــي سلامها

دمـــن تـــجرم بعد عهد أنيسها حجـــج خلـــون حـــلالها وحرامها

رزقت مـــرابيع النجـــوم وصابها ودق الـــرواعـــد جـــودها ورهـــامها

مـــن كـــل ســـارية وغادٍ مدجن وعشـــية مـــتجـــاوب إرزامـــها

فعـــلا فـــروع الأيهقان وأطفلت بالجـــلهـــتين ظـــبـــاؤها ونعـــامها

والعـــــين عـــاكفة على أطلائها عـــــوذًا تأجـــل بالفضـــاء بهامها

وجـــلا السيول عـــن الطلول كأنها زبـــــــر تجـــــد متـــونها أقلامها

أو رجـــــــع واشمة أســـف نؤورها كففًـــا تعـــرض فـــوقهن وشـــامها

فـــوقفت أســـألها وكيف ســـؤالنا صـــمًا خـــــوالد مـــا يبـــين

عـــريت وكـــان بها الجميع فأبكروا مـــنها وغـــودر نـــؤيها وثـمامـــها

أمـــا عمرو بن كلثوم فقد حالت موجة الغضب العارمة دونه ودون الوقوف على الأطلال رغم "أن هذه المطالع الطللية لم تكن تتخلف عن القصيدة الجاهلية إلا حيث تكون مناسبة تستدعي انشغال الشاعر بانفعال نفسي مباشر وخاص "[1] فنراه يبدأ بوصف الخمرة الممزوجة بالزعفران أو الورس في الماء الساخن في أيام الشتاء ، وعمرو بن كلثوم في وصفه للخمرة هنا استعان بذكر بعض النـــباتات الـــتي تجعـــل الخمرة في صورة تناسب انفعاله وغضبه وفي مثل هذا تكون مظاهر الطبيعة الصامتة ساهمت في تصوير انفعال الشاعر.

يقول :

ألا هـــبي بصـــحنك فـــاصـــبحينا ولا تبقـــي خمـــور الأنـــدريـــنا

مشعشـــعة كـــأن الـــحص فيها إذا مـــا المـــاء خـــالطهـــا ســـخينا

ومـــع ذلك نراه قد ذكر الوقوف على الطلل بعد ثمانية أبيات فيستوقف الهوادج التي تحمل فـــيها النســـاء يسألها عن سر الفراق ، ثم يسرح به الخيال فيتذكر أيام الصبا عندما رأى الإبل التي عليها الهوادج وقت الأصيل وقد حداها الحادي مؤذنًا بالرحيل وفي التعبير بالمظهر الطبيعي الصامت (وقـــت الأصـــيل : وهو الوقت حين تصفر الشمس لمغربها) ما يغذي فكرة صورة غروب وجوه الأحـــبة عنه ومن ثم بيان شدة الجزع والحزن لفراق الأحبة وتذكر أيام الصبا ، وهاهي قرى اليمامة تظهر مرتفعة كسيوف مسلولة والمعنى " أن اليمامة ظهرت فتبينتها كما تتبين السيوف إذا شهرت ،

---

(١) د. عفت الشرقاوي – دروس ونصوص في قضايا الأدب الجاهلي – ص : ٢٤٠.

فاشتقت لذلك لما رأيت موضعها الذي تصير إليه ، وكان ذلك أشد لولهي "[١] :

قفي قبل التفرق يا ظعينا نخبرك اليقين وتخبرينا

قفي نسألك هل أحدثت صرمًا لوشك البين أم خنت الأمينا

تذكرت الصبا واشتقت لما رأيت حمولها أصلاً حدينا

وأعرضت اليمامة واشمخرت كأسياف بأيدي مصلتينا

فما وجدت كوجدي أم سقب أضلته فرجعت الحنينا

وعنترة بن شداد يقف في الجواء والحزن والصمان والمثلم – المواضع الطبيعية التي نزل به القوم والأحباب على ناقة فخمة كالقصر فيصعب عليه فهم الديار التي تحمل آثارها وبقاياها ذكريات الأهل والعشيرة والأحبة فلم يجد إلا أحجار الأثافي لاصقة بالأرض فلا يبقى أمامه إلا تحية الديار والدعاء لها بالسلامة :

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم

أعياك رسم الدار لم يتكلم حتى تكلم كالأصم الأعجم

ولقد حبست بها طويلاً ناقتي أشكو إلى سفع رواكد جثم

يا دار عبلة بالجواء تكلمي وعمي صباحًا دار عبلة واسلمي

والحارث بن حلزة يخبر بأن أسماء أعلمته بيوم الفراق ثم ذهبت وبقي هو يتمنى عودة تلك الأيام التي جمعت بينهما بتلك الهضبة ورابية فيها رمل أو طين وحجارة مختلطان ثم يستمر في تعداد الأماكن التي جمعته بأسماء فلا يرى ما عهده فيها فينكر على نفسه البكاء الشديد الذي لا يرد حبيبًا ولا يغني شيئًا ، ثم يعود ليتذكر ويسترجع آخر صور اللقاء والعهد بالأحبة حيث ترفع هند النار بالعلياء وقد أوقدتها بين العقيق وشخصان بعود يتبخر به فينظر إلى سناها في الليل وقد بعدت عنه النار وصاحبة النار وهو لا يزال يستلهم عبق الذكريات فيقول :

آذنتنا ببينها أسماء رب ثاوٍ يمل منه الثواء

آذنتنا ببينها ثم ولت ليت شعري متى يكون اللقاء ؟

---

(١) التبريزي – شرح القصائد العشر – ص : ٢٢٣.

بعـد عهــد لـها ببرقة شماء فـأدنى ديـارها الخلصـاء

فالمحيـاة فالصفـاح فأعنـا ق فتـاق فعـاذب فالوفـاء

فريـاض القطـا فأوديـة الشر بب فالشـعبتان فـالأبـلاء

لا أرى من عهدت فيها فأبكي الـ يـوم ومـا يـرد البكـاء

وبعـينيـك أوقـدت هند النـا ر أخـيرًا تلوي بـها العليـاء

أوقـدها بين العقيق فشخصيـ ـن بعـود كما يلـوح الضياء

أمـا الأعشـى فلم يقف على الأطلال وإنما يقدم صورة حية لهريرة وهي تمشي من بيت جارتها تمر مر السحابة فيسمع لحليها وسواسًا أشبه ما يكون بصوت شجيرات العشرق عندما تمر به الرياح :

كـأن مشـيتها مـن بيت جـارتها مـر السحابة لا ريث ولا عجـل

تسـمع للحلـي وسواسًا إذا انصرفت كمـا استعـان بريـح عشرق زجل

وأمـا النابغة فيخاطب دار مية متوجعًا على ما كان من أمره معها فيحزن على ما يرى من تغيرها وتذكر ما عهده منها ، لقد وقف على تلك الديار وقد تحولت إلى طبيعة موحشة فيقف عليها وقتًا قصيرًا يضطره إلى ذلك الوفاء ومساءلة الديار فلا يجد بها من يكلمه إلا معالم القوم المندثرة التي تحمـل في هيئتها ذكريات الماضي دون أن تستطيع جواب السائل مما جعل الشاعر يسرح بخياله في اسـترجاع بعـض الذكريات التي أثارتها طبيعة المكان وما خلفه الأحباب فيه من رسوم إنها صورة تلـك الشـابة وقد هيأت تلك النؤى بمجرفة من حديد في موضع رطب لتمنع الماء من الدخول إلى الخيمة :

يـا دار ميـة بالعليـاء فالسـند أقـوت وطـال عليها سالف الأبـد

وقفـت فيهـا أُصـيلانًا أسـائلهـا عـيت جـوابًا ومـا بالربع من أحد

إلا الأواري لأيًّـا مـا أبينهـا والنـؤي كالحـوض بالمظلومة الجلد

ردت علـيه أقـاصـيه ولبـده ضـرب الوليـدة بالمسـحاة في الثأد

خـلـت سـبيـل أتي كـان يحبسـه ورفـعته إلى السجـفين فـالنضـد

أمـا عبيد بن الأبرص فلا يختلف عن سابقيه حيث يقف على أطلال وديار الأهل والعشيرة وقـد أقفـرت مـن أهلها فيذكرها واحدًا إثر الآخر وكيف أنها بدلت من أهلها وحوشًا وغيرها

الخطـــوب فيقف باكيًا وعيناه تذرف الدمع الغزير كقربة خلق أو ماء جار في شق بين جبلين أو نهر ببطن واد يسمع لجريان مائه صوتٌ أو جدول يسكب ماؤه في ظلال النخل فيقول :

أقفـــر مـــن أهلـــه ملحـــوب	فـــالقطبيـــات فالذنـــوب
فـــراكس فثعيلبـــات	فـــذات فـــرقين فـــالقـــليب
فعـــردة فقفـــا حـبّـــر	ليـــس بـــها منـــهم عـــريب
وبـــدلـــت مـــن أهلهـــا وحوشًا	وغـــيرت حـــالهـــا الخطـــوب
عيـــنـــاك دمعهمـــا ســـروب	كـــأن شـــأنيهما شـــعيب
واهـــية أو معـــين ممعن	مـــن هضـــبة دونهـــا لهـــوب
أو فـــلج مـــا ببطـــن وادٍ	للمـــاء مـــن تحته قســـيب
أو جـــدول في ظـــلال نـــخل	للمـــاء مـــن تحته ســـكوب

وهكذا " سار شعراء المعلقات على افتتاح قصائدهم بالوقوف على طلل المحبوبات والبكاء علـيهن لأنهن من قوم ألفوا الرحلات والأسفار والانتقال من دار إلى دار فيرى الشاعر منهم رسوم المـنازل بعـد نزوحهم عنها فتهيج أشواقه وتثير أطلالها بقايا ذكريات الحب في نفسه ، فيقف على الآثار باكيًا ومسلمًا ومسائلاً ، ثم يصف ما حظي به في عهد الصبا والشباب من لهو ومتاع "[١] كل هذا والطبيعة تمدهم بموادها الخصبة ومظاهرها المختلفة التي نجدها لدى هؤلاء الشعراء خير معين لهم لتقديم أفكارهم وأحاسيسهم إلى الناس من خلال تلك الطبيعة .

ها هو ليل الهموم الطويل لدى امرئ القيس لا يمر فيه الوقت وتظهر النجوم كأنها مربوطة في حبل شديد الفتل :

فيـــالك مـــن ليـــل كـــأن نجـــومه   بكـــل مغـــار الفتـــل شـــدت بيـــذبل

ويحس المكروب أن الليل عليه ثقيل الوطأة حتى كأنه بحر متلاطم الأمواج :

ولـــيل كمـــوج البحـــر أرخى سدوله   علـــيَّ بـــأنـــواع الهمـــوم ليبتلي

وعندما تتصوب الجوزاء للمغيب تظهر بعرضها فتبدو كأنها ثنيات وشاح بين كل خرزتين فيه لؤلؤة:

إذ مـــا الثـــريـــا في السماء تعرضت   تعـــرض أثـــناء الوشـــاح المفصـــل

---

(١) محمـــد العمراني بدر معبدي – المعلقات ومكانتها في الشعر الجاهلي – رسالة دكتوراه مخطوطة – الأزهر – ص : ٤٧٧ .

وإذا ما تلبدت السماء بالغيوم وتراكم السحاب تنطلق شرارة البرق في سرعة كحركة اليدين الخاطفة:

أصاح ترى برقًا أريك وميضه كلمع اليدين في حبي مكلل ؟

ويرسل ضوءًا قويًا كمصابيح راهب شديدة الإضاءة :

يضيء سناه أو مصابيح راهب أمال السليط بالذبال المفتل

ويجتاح السيل السباع ويغرقها فتُرى كأنها أنابيش عنصل :

كأن السباع فيه غرقى عشية بأرجائه القصوى أنابيش عنصل

ويتراكم غثاء السيل حول الجبال في كثرة وضخامة فيتراءى كأنه فلكة المغزل :

كأن ذرى رأس المجيمر غدوة من السيل والأغثاء فلكة معزل

ويستمر تصوير الطبيعة الصامتة لدى شعراء المعلقات العشر " لا لمجرد أنها صور فحسب وإنما كانوا يحاولون أن يتخذوا منها وسيلة – في بعض الأحيان – يبسطون فيها رغبتهم ويفسرون في إطارها ما يدور في أذهانهم من الفكر مستخدمين في ذلك أحوال هذه الصور وأشكالها للتدليل على الغاية التي يهدفون إليها "[١].

فهذا لبيد في مجال حديثه عن سرعة ناقته وقت تحرك الآل واضطرابه في وقت الضحى ، ووقت تغطية السراب الجبال الصغار الذي هو شبيه بالأردية وهي حركة وهمية خداعة أبرزها لنا لبيد ومنحها هذا التشخيص المحسوس وقد اقترنت هذه الصور عند شعراء المعلقات بصورة الشجاعة والبطولة .

فبتلك إذ رقص اللوامع بالضحى واجتاب أردية السراب إكامها

ويبدو أن لمعان البرق لقي في نفوس شعراء المعلقات هوى فأكثروا من ذكره في مواضع التأمل والجد أو الاشتياق للأحبة وفي هذا يقول الأعشى :

بل هل يرى عارضًا قد بت أرمقه كأنما البرق في حافاته شعل

له رداف وجوز مفأم عمل منطق بسجال الماء متصل

---

(١) د . نوري حمودي القيسي – الطبيعة في الشعر الجاهلي – ص: ٢٤٧ .

وعـــند طرفة يأخذ البحر والماء والشمس والصخور والجبال والأشجار والنبات مكانًا واسعًا فمـــراكب النســـاء كأنها السفن العظيمة تمخر عباب الماء ، ووجه خولة كأنه الشمس لم يتجعد ، وكأنها ظبية في خميلة منبتة ، وناقته ترعى ما غلظ من الأرض وارتفع ، وفي بساتين بطون الأودية :

كـــأن حـــدوج الـــمالكية غـــدوة ... خـــلايـــا ســـفين بالنواصـــف من دد
عـــدولـــية أو مـــــن سفين ابن يامن ... يجـــور بهـــا الـــملاح طـــورًا ويهتدي
يشـــق حـــبـــاب الماء حيزومها بها ... كمـــا قســـم الترب المفـــايل باليد
وفي الحـــي أحـــوى ينفض المرد شادن ... مظـــاهـــر سمـــطي لـــؤلـــؤ وزبرجـــد
خـــذول تراعي ربـــربًا بخميـــلة ... تـــنـــاول أطـــراف البرير وترتـــدي
وتبســـم عـــن ألمى كأن منـــورًا ... تـــخـــلـــل حـــر الرمل دعص له ندي
ســـقته إيـــاة الشمس إلا لثـــاته ... أســـف ولم تكـــدم عليه بإثـــمـــد
ووجـــه كـــأن الشمس ألقت رداءها ... علـــيـــه نقي اللـــون لم يتخـــــدد

وعـــند زهـــير تأخذ الأودية والمياه والروض والشجر مكانًا وهو يصور ظعائن الأحبة منذ أن رحلـــوا من العلياء وماء جرثم وعلوا بأنطاكية إلى أن ظهروا من السوبان واستحروا بوادي الرس وأقاموا على ماء صاف في منظر أنيق :

تبصـــر خليلي هـــل ترى مـــن ظـــعائن ... تـــحمـــلـــن بالعلـــيـــاء مـــن فـــوق جرثم
جعـــلن القنـــــان عـــن يمـــين وحزنه ... وكـــم بالقـــنـــان مـــن محـــل ومحرم
علـــون بـــإنطـــاكية فـــوق عقمة ... ورادًا حـــواشـــيها مشـــاكهة الـــدم
ظهـــرن مـــن الســـوبـــان ثم جـــزعنه ... علـــى كـــل قـــيني قشـــيب ومفـــأم
ووركـــن في الســـوبـــان يعلـــون متنه ... علـــيـــهن دل الـــنـــاعم المتـــنعـــم
بكـــرن بكـــورًا واستحرن بسحرة ... فهـــن ووادي الـــرس كالـــيـــد للفـــم
وفـــيهـــن مـــلهى للصـــديق ومنظـــر ... أنـــيـــق لعـــين الناظـــر المتـــوسم
كـــأن فتـــات العـــهن في كـــل منزل ... نـــزلن بـــه حـــب الفنـــا لم يحطـــم
فلمـــا وردن الـــماء زرقًا جـــمـــامه ... وضـــعـــن عصـــي الـــحـــاضـــر المتخيم

أما لبيد فإن المطر والسيول والنبات والشجر والآكام والريح قد توالت على ديار أحبته كما رأيـــنا وأما الإبل التي ضربت لتقل الظعن وتجد في السير فقد فارقها السراب ولمعانه فظهرت كأنها

منعطفات وادي بيشة فهي شبيهة بشجر الأثل والصخور العظام ضخامة وعظمًا :

شاقتك ظعن الحي حين تحملوا فتكنسوا قطنًا تصر خيامها

من كل محفوف يظل عصيه زوج عليه كلة وقرامها

زجلاً كأن نعاج توضح فوقها وظباء وجرة عطفًا أرآمها

حفزت وزيلها السراب كأنها أجزاع بيشة أثلها ورضامها

وعمرو بن كلثوم يملي عليه غضبه وسرعة انفعاله صورة عجيبة حيث ملأت كثرة قومه البر والبحر على وسعهما فما عسى أن يكون أمر ذلك الجيش ؟! :

ملأنا البر حتى ضاق عنا وظهر البحر نملؤه سفينا

وجزع عنترة وفزعه يزيد عندما رأى الإبل تحمل الأمتعة على وشك الرحيل مما اضطرها إلى سف حب الخمخم :

ما راعني إلا حمولة أهلها وسط الديار تسف حب الخمخم

وكانوا يستخلصون من التمر عصيره (الدبس) وبه شبه عنترة العرق السائل من رأس فرسه وعنقها فقال :

وكأن ربًّا أو كحيلاً معقدًا حش الوقود به جوانب قمقم

والحارث بن حلزة وقومه لا يجزعون وهم تحت غبار الحرب الذي تثيره الخيل بسنابكها وحمي بهم الوطيس :

ما جزعنا تحت العجاجة إذ ولـ ـت بأقفائها وحر الصلاءُ

وعبيد بن الأبرص تحتم عليه شجاعته ورود المياه الآجنة دون خوف :

فرب ماء قد وردت آجن سبيله خائف جديب

وهكذا نجد شعراء المعلقات العشر قد اتخذوا من مظاهر الطبيعة الصامتة صورهم المختلفة للتعبير من خلالها عن أفكارهم وعواطفهم وأخلاقهم ، هذا بعض ما كان منهم مع الطبيعة الصامتة فما عسى أن يكون تفاعلهم مع الطبيعة الحية ؟ أو ما سنسميه المصدر الحيواني ؟!

ثانيًا : المصدر الحيواني :

مما لا شك فيه أن المصدر الحيواني هو الجزء المكمل للمصدر الطبيعي ، فإذا كان المصدر الطبيعي اختص بالحديث عن مظاهر الطبيعة الصامتة فإن المصدر الحيواني يختص بالحديث عن مظاهر

الطبـــيعة الحية والمتحركة ، وفي المعلقات العشر نجد الصور التي جاءت مصادرها عن طريق الحيوان متنوعة ما بين أليف ومتوحش يمكن إجمالها في الآتي :

١- الناقة : وترتبط بصور حيوانات أخرى (الثور الوحشي – حمار الوحش – النعام – الظباء)

٢- الفرس : ويرتبط بصورة (العقاب – الثعلب – الذئب – النعام –)

٣- الظباء : وترتبط بصورة المرأة .

٤- الســـباع والطير : وترتبط السباع بصورة الرجل أما الطير فهو مصدر مغذ لصور متنوعة لدى شاعر المعلقة .

لقـــد كانـــت تلـــك الحيوانات تملأ محيط الحياة الجاهلية ومن ثم استمد الشعراء صورهم وتشـــبيهاتهم منها وحاولوا أن يبرزوا قيمهم وأخلاقهم من خلالها في صورة جمالية تؤكد القيم النبيلة التي كانت موضع إعزاز في نفوس العرب ، ومن جانب آخر تنفر من الرذائل وذميم الأخلاق .

والســـؤال الآن الـــذي سوف ندخل من خلاله في بحث هذا الموضوع هو : كيف استمد شعراء المعلقات صورهم وتشبيهاتهم تلك من المصدر الحيواني ؟

١ – النـــاقة :

تحظى الناقة بأكبر قدر من صور الحيوان في الشعر الجاهلي ، ونرى لها ثلاث صور رئيسة : صورة ناقة الأسفار ، وناقة القرى ، والناقة السانية "[١].

وقد وردت الناقة في شعر المعلقات بصورها الثلاث ، فناقة الأسفار لها صورها الخاصة فمما يـــدل علـــى شـــكلها :عقيم وضخمة وعلى إقدامها جسرة ، وعلى حركتها : خطارة وخبوب ومـــرقال وزفوف وزيافة ، وعلى حدة طبعها: عجرفية وهوجاء وذات لوث ، وعلى لونها : كميت وأدماء وعلى امتلائها وضمورها : بادن وكناز ، ومضبرة ، وضامر ، وعلى سنها : بازل وسديس ، وعلـــى صـــوتها : رغاء وبغام ، وعلى التفاؤل : أمون وناجية . وقد تتغير هذه الصور عند نهاية الأسفار فتصبح ذات سنام مبري ، وصلب ناحل ، وخدام متقطع ، وأضلاع كألواح الإران .

ولك أن تجد هذه الصور وغيرها وأنت تقرأ أبيات طرفة بن العبد كاملة في وصف ناقته .

---

(١) د . نصرت عبد الرحمن – الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث – ص : ٧٧ .

ويقول لبيد واصفًا ناقته ومشبهًا نشاطها بسحابة حمراء أسرع مطرها من الجنوب :

بطليح أسفار تركن بقية | منها فأحنق صلبها وسنامها
فإذا تغالى لحمها وتحسرت | وتقطعت بعد الكلال خدامها
فلها هباب في الزمام كأنها | صهباء خف مع الجنوب جهامها

وعمرو بن كلثوم يستهويه لون الناقة الأدماء (البيضاء) فيلبس ذلك الوصف حبيبته أم عمرو :

ذراعي عيطل أدماء بكر | تربعت الأجارع والمتونا

ويقول عنترة بن شداد :

هل تبلغني دارها شدنية | لعنت بمحروم الشراب مصرم

وقوله :

ينباع من ذفري غضوب جسرة | زيافة مثل الفنيق المفدم

ويقول الأعشى :

وبلدة مثل ظهر الترس موحشة | للجن في الليل في حافاتها زجل
لا يتنمى لها بالقيظ يركبها | إلا الذين لهم فيما أتوا مهل
جاوزتها بطليح جسرة سرح | في مرفقيها إذا استعرضتها فتل

ويقول الحارث بن حلزة :

غير أني قد استعين على الهم | م إذا خف بالثويّ النجاء
بزفوف كأنها هقلة أم | م رئال دوية سقفاء

ويقول عبيد بن الأبرص :

قطعته غدوة مشيحًا | وصاحبي بادن خبوب
عيرانة موجد فقارها | كأن حاركها كثيب
أخلف ما بازلاً سديسها | لا حقة هيْ ولا نيوب
كأنها من حمير غاب | جون بصفحته ندوب

أما ناقة القرى فنراها معدة للذبح بضربة سيف يخطم أسوقها كما في قول طرفة بن العبد :

وبرك هجود قد أثارت مخافتي | نواديها أمشي بعضب مجرد

فمـــرت كهـــاة ذات خـــيف جـــلالة   عـــقـــيلة شـــيـــخ كالوبيـــــل يلندد
يقـــول وقـــد تر الوظيف وســـــاقها   ألســـت ترى أن قـــــد أتيت بمؤيد ؟

وقـــد تغلـــب نزوة الشهوات على الجاهلي فلا يفرق بين ناقة سفر وناقة قرى فهذا امرؤ القيس يعقر مطيته للعذارى متبذلاً فلا ينتبه إلا بعد فوات الأوان فيتعجب من فعلته تلك :

ويــــوم عقــــرت للعـــذارى مطيتي   فــيـــا عجــــبا من كــــورها المتحمل
ويـــا عجـــبا من حلها بعـــــد رحلها   ويـــــا عجـــــبا للجــــازر المتبذل
فظـــل العــــــــذارى يرتمين بلحمها   وشـــحــــــم كهداب الدمقس المفتل
تـــــدار علينا بالســـديف صحـــــافنا   ويـــؤتى إلينـــا بالعبيـــــط المثمـــل

"أمـــا الســـانية فصورها – غالبًا – مرتبطة بالبكاء على الطلول ونشاهدها دهماء قد حزم ظهرها بالقتب وابيضّ خدها ولحياها من اللغام وهي قوية ، ضخم سنامها "[١].

ومن هذا النوع ناقة النابغة التي يقول فيها واصفًا :

فعـــد عمـــــا ترى إذ لا ارتجاع له   وانم القـــتـــود علـــى عيرانـــة أجـــد
مقذوفـــة بدخـــيس الـــنحض بازلهـــا   لـــه صـــريف صـــريف القعـــو بالمسد

وناقة الحارث بن حلزة التي يصفها بقوله :

غـــير أني قـــد استعـــين على الهـــم   م إذا خـــف بالثـــويّ النجـــاء
بـــزفـــوف كـــأنهـــا هقـــلـــة أمـــ   ـــم رئـــال دويـــــة سقفـــــاء
أنســـت نـــبـــأة أفـــزعها القنــ   ـــناص عصـــرًا وقـــــد دنا الإمساء
فتـــــرى خلفها من الرجـــع والوقـــ   ـــع منينًا كـــأنـــه إهبـــــاء
وطـــراقًا مـــن خـــلفهن طـــراق   ســـاقطـــات تلـــوي بها الصحـــراء
أتلهـــى بها الهواجـــــر إذ كـــ   ـــل ابـــن هـــم بلية عميــــاء

وتـــرتبط بصـــورة الناقة صور حيوانات أخرى رأى من خلالها شاعر المعلقة صور الكفاح والنضـــال في مـــواجهة قـــوى الطبيعة الجاهلية القاسية كما رأى فيها الوسيلة الصالحة لنقل قيمه وأخلاقـــه في صور محسوسة رائعة حتى كأنه أراد " أن يصنع كل ما حوله بصفة البطولة والفروسية

---

(١) د. نصرت عبد الرحمن – الصورة الفنية في الشعر الجاهلي – ص : ٨٠ .

والقـوة نافضًـا عـنه الركون إلى الواقع المر "[1] آخذًا من قيمه وأخلاقه السلاح الذي لا يُكْلَم ، والدرع الذي لا يهتك.

وعـندما كانـت الناقة من أهم الحيوانات عند الجاهلي وأقربها إلى قلبه حاول أن يتخذها وسـيلة ومصـدرًا لصـور شعره وأتبع صورها صورًا لحيوانات أخرى مرتبطة بها بصورة مباشرة ومرتبطة بموضوع الشاعر ومقاصده الأخلاقية من جهة أخرى .

إنـنا مـثلاً نرى لبيدًا "يصور ناقته بحمار الوحش المعروف بالغيرة على أنثاه ، والذي يتخذ زوجًـا لا يفارقهـا ولا يتركها تمشي مع غيره ، وقد تدعوه غيرته إلى أن يعلو بها قمم الجبال خوفًا عليها، ويزداد شكه وغيرته عندما يرى زوجه تعصيه ويظل خائفًا يترقب الفحول والصيادين إلى أن يتغلب على جميع الظروف ويأوي بها إلى مكان آمن :

حـتى إذا سـلخـا جـمادى سـتة	جـزأ فطـال صـيامه وصيامها
رجعـا بأمـرهما إلى ذي مـرة	حصـد ونـجـع صـريمة إبرامها
ورمـى دوابـرها السفـا وتهيجت	ريـح المصـايف سومها وسهامها
فتـنازعا سبطًـا يطـير ظـلاله	كـدخـان مشعلة يشـب ضرامها
مشمولة غلثت بنـابت عـرفج	كـدخـان نـار سـاطع أسنامها
فمضـى وقدمها وكـانت عـادة	مـنه إذا هـي عـردت إقـدامها
فتوسـطا عرض السـري وصـدعا	مسـجـورة متجـاورًا قلاّمها
محفـوفة وسـط اليراع يظلها	مـنه مصـرع غابة وقيامها

ولك أن تقرأ الأبيات التي يصور فيها ناقته ببقرة مسبوعة ضيعت ولدها فتناوشته الذئاب في لـيلة ممطرة ثم تعرضت لكلاب الصيادين فما كان أمامها إلا الصمود أو الاستسلام والموت وكيف أنها صبرت وصمدت حتى انتصرت على أعدائها .

ومـا كـل تلك الصور – في نظري – للحيوان عند شعراء المعلقات العشر إلا إبراز للقيم والأخـلاق ولعلك توافقني في الرأي أن تلك البقرة المسبوعة – على سبيل المثال – ما هي إلا نفس النابغة التي تناوشتها الأعداء ووشت بها للملك فما كان من تلك النفس إلا الصمود لتبرئة ساحتها لأنها تعلم أن في إثبات الوشاية عليها نهاية لها .

---

(١) د. أحمد موسى الجاسم – دراسات في الشعر الجاهلي – ص : ٨٣ .

ولـــو رجعنا إلى ناقة عنترة بن شداد لوجدناها الناقة القوية النشيطة التي ترفع ذنبها في سيرها مـــرحًا ونشاطًا بعدما سارت الليل كله تضرب الإكام بخفها الشديد وتعدو عدوًا يشبه عدو ظليم (ذكـــر الـــنعام) قرب ما بين منسميه ولا أذن له فإذا نقنق اجتمعت إليه جماعات النعام كما تجتمع الإبـــل اليمانية إلى راعيها الأعجمي عندما يناديها ، وقد جعلت جماعات النعام رأس الظليم نصب أعيـــنها وذلك الظليم لضخامة جسمه شبيه رأسه بمركب للنساء كالخيمة جعل فوق مكان مرتفع ، وهـــو صغير الرأس دقيق العنق يتعهد بيضه في المكان المسمى بذي العشيرة وهو شبيه بعبد أسود قد لبس فروة ، وقد قطعت أذناه :

خطّـــــارة غب الســرى مـــوارة	تطـــس الإكـــام بذات خـــف ميثم
فكـــأنما أقـــص الإكـــــــام عشية	بقـــــريب بـــين المنسمين مصـــلم
تـــأوي له قلـــص النعام كمـــا أوت	حـــزق يمـــانية لأعـــــجم طمطم
يتـــبعـــــن قـــلة رأســـه وكـــأنما	حـــرج على نعـــش لهن مخـــيم
صعل يعـــــــود بذي العشيرة بيضه	كالعبـــد ذي الفـــرو الطويل الأصلم

ولا يســـتبعد أن يكون عنترة أراد من وراء هذا التصوير لذكر النعام وللناقة في مزيج محكم ورائـــع تقـــديم صورة حسية لنفسه المتمثلة في نشاط تلك الناقة وشكل وسلوك ذلك الظليم الذي أصـــبح في صورته النهائية كالعبد ، وقد توفرت في الصورة السابقة جملة من الأخلاق والقيم التي أراد عنترة إبرازها لنفسه من خلالها كالنشاط والشجاعة وصون الحرمات وتعهد المخصوصات .

أمـــا ناقة عمرو بن كلثوم فناقة حزينة أضلت ولدها الذكر فباتت تردد الحنين ، ولا يخفى على ذي بصيرة أن عمرًا غذى صورة الجزع والحزن الشديد لفراق الأحبة بصورة هذه الناقة :

فمـــا وجـــدت كـــوجدي أم ســـقب	أضــــلته فـــــرجعت الحـــنينـــا

٢ - الخـــــيل :

تدور صور الخيل في شعر المعلقات حول قطبين رئيسين : خيل الغارات ، وخيل الصيد .

ويســـبغ الشعراء على خيل الغارة القوة والصلابة كطول القامة وصلابة البنية كما اهتموا بصورة حركتها فهي سابحة كما ذكر عنترة :

إذ لا أزال علـــى رحـــالة ســـابح	نـــهـــــد تعـــاوره الكمـــاة مكلم

وفرس الحارث بن حلزة نهدة سرحوب مضبرة الخلق ناعمة الملمس ملساء :

فـــــذاك عصـــــر وقـــــد أراني	تحملـــــني نهــــدة ســـــرحوب

مضــــــبر خلقهـــــا تضـــــبيرًا ولـــــين أســــرها رحـــيب

أما خيل القنص فنراه جوادًا يتحسسه صاحبه بحنان ، ويرمقه باختيال ، وكأنه يقول : كل ما فيك نبيل وأنت كنز نفيس أنا صاحبه ، ونرى ذلك عند امرئ القيس وهو يقول :

فــرحنا يكـــــاد الطرف يقصر دونه مــتى مــا تــرق العــين فــيه تسهل

فــبات علــيه ســرجه ولجــامــه وبــات بعــيني قائمًــا غــير مرســل

وترتبط صورة الخيل عند شاعر المعلقة بصورة العقاب كما نرى ذلك عند الحارث بن حلزة حيث يقول :

كــأنهـــا لقــــوة طــلــــوب تـــحن في وكــــرها القلـــوب

أما عنترة فقد خلع على فرسه صفة إنسانية شاخصة للعيان وهي (البكاء) حيث نحس ما يقوم بينه وبين فرسه من مودة وتراحم يمحي جدار العجمة بينهما أو يكاد :

فــــازور مـــن وقـــع القنا بلبانه وشــــــكا إلي بعــبرة وتحمحــم

لـــو كــان يدري مـــا المحاورة ولكـــان لــو عــلم الكلام مكلمي

ولـــو عدنا إلى فرس امرئ القيس لوجدناه نعم المصدر الذي اتخذ الشاعر وغذى به شعره ، وأبـــرز من خلاله قيمه وأخلاقه المتنوعة كما عرفنا ولو استعرضنا بعض تلك الصور لذلك الفرس لوجدناه الفرس الضخم الذي يتناسب مع فروسية امرئ القيس ولا يركبه – في نظره – غيره :

فظهره كالصخرة الملساء :

كمــيت يــزل اللــبد عــن حال متنه كمـــا زلــت الصـــــفواء بالمــتنزل

وخصره نحيل كخصر الظبي ، وساقاه كساقي نعامة ، وعدوه كعدو الذئب ، وتقريبه أثناء العدو كتقريب ولد الثعلب :

لــه أيطـــــلا ظــبي وســاقا نعامة وإرخـــاء ســـرحان وتقـــريب تـــتفل

وكتفاه يلمعان كحجر يسحق عليه الطيب أو صلاية حنظل :

كأن على المتنين منــــــه إذا انتحى مـــداك عـــروس أو صـــلاية حـــنظل

وشـــبه ســـرعته وصلابته بجلمود صخر حطه السيل من عل ، كما أنه يجيش في جريه كما تجيش القدر على النار :

مكـــر مفـــر مقبـــل مـــدبر معًا كجلمـــود صـــخر حطه السيل من عل

علــى الذبل جياش كــأن اهـــتزامه إذا جـــاش فــيه حميه غلي مرجـــل

٣ - الظـــــــــباء :

تـــرتبط الظـــباء في الشعر الجاهلي بالمرأة " وقد أسبغ شعراء الجاهلية على الظباء كثيرًا من صــور الحســن والرقة : الحسن في عيونها الكحيلات ، وأجيادها التُّلع ، وأفواهها الحو ، وترائبها المتــربة ، وخـــدودها الأسيلة والرقة في التماسها فروع الأراك الغضة ،وفي ذاك الحنو المفرط على أطفالهــا ...وقــد يكــون من المرتضى أن أربط بين الظباء المرشقات وصورة بنات عمها (المها) فكلتاهما ترتبط بالمرأة وكلتاهما قد فتنت الشعراء بحسنها "[١].

وشعراء المعلقات من الشعراء الجاهلين الذين غذوا صور شعرهم بما وقعت عليه أعينهم من أســرار الطبــيعة فاستحسنوا أن يبرزوا من خلالها ما يرتضونه أو ينفرون منه من أخلاق ، وكانت الظباء والمها مما استحسنوه فخلعوا صوره على جميلات النساء .

فهــذا امرؤ القيس تعرض عنه محبو بته في استحياء فتظهر عند إعراضها خدا طويلا ناعما وتلقـاه بعد الإعراض بعيون مثل عيون ظباء وجرة اللواتي لهن أطفال ينظرن إليهم بعطف وشفقة ، كما أن عنقها كعنق الظبي الأبيض خالص البياض :

تصــد وتــبدي عــن أسيـــل وتتقي ... بناظــرة مــن وحــش وجــرة مطفل

وجــيد كجــيد الــريم لــيس بفاحش ... إذا هـــي نصـــته ولا بمعطـــــل

ويقول طرفة :

وفي الحي أحـــوى ينفض المرد شادن ... مظـاهــر سمطــي لؤلــؤ وزبــرجــد

خـــذول تراعــي ربـــربا بخميلة ... تــنــاول أطــراف البريــر وتــرتدي

أما زهير فقد حلت لوحة الذكريات للأحبة في ذاكرته متمثلة في ما رآه بديلاً مشابها حيث يقول :

بهـــا العــين والأرآم يمشــين خلفــة ... وأطلاؤهـــا ينهضــن مــن كــل مجثم

ولبــيد يرى لوحة الظباء المطفلة بالجلهتين طيف الأحبة ولو لم تكن تلك حاله لما استجلى تلك اللوحة الجميلة بعين الوفاء فقال :

فعـــلا فـــروع الأيهقـــان وأطفلت ... بالجـــلهـــتين ظـــباؤها ونعامهـــا

والعِـــين عـــاكفـــة على أطـــلائها ... عـــوذًا تأجـــل بالفضـــاء بهامهـــا

---

(١) د. نصرت عبد الرحمن – الصورة الفنية في الشعر الجاهلي – ص : ٨٧ .

وعبلة تنظر إلى عنترة بعينين كعيني ولد الظبية الذي ليس بتوأم وفي ذلك كناية على حسن اكتماله وانفراده بعطف أمِّه ودلالها :

وكأنما نظرت بعيني شادن رشأٍ من الغزلان ليس بتوأم

٤ - السباع والطير :

" والشعراء تفننوا في وصف الطير والسباع وهي تتبع الوحوش أو تلغ في الدماء أو تحمل الأشلاء أو تنهش اللحم ولم يتركوا صورة من صور دور الطير فيما تتركه الجيوش إلا رسموه في صورة مبتكرة "(١) ومن أشهر الأبيات التي تطرقت إلى دور السباع والنسور في تتبع المعارك ، ونهش جثث القتلى أبيات عنترة :

ومدجج كره الكماة نزاله لا ممعن هربًا ولا مستسلم

جادت يداي له بعاجل طعنة بمثقف صدق الكعوب مقوم

برحيبة الفرعين يهدي جرسها بالليل معتس الذئاب الضرم

فشككت بالرمح الأصم ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرم

فتركته جزر السباع ينشنه ما بين قلة رأسه والمعصم

ثم يقول فيما بعد :

إن يفعلا فلقد تركت أباهما جزر السباع وكل نسر قشعم

" ومن المؤكد أن أبا المشار إليهما قتله عنترة في المعركة ، ولم يتمكن ولداه من حفر قبر له ودفنه لأن الوقت لا يسمح بمثل ذلك ، فكلٌّ نفسه نفسه ، لا يلتفت أحد لأحد ، خاصة لقتيل ميؤوس منه ؛ هذا إذا كانا معه ، فمن باب أولى إذا كان غيرهما هو الحاضر معه ؛ وكلمة (جزر) تتكرر ، وكأنها الكلمة المعبرة عن هذه الصورة في ميدان القتال "(٢) وامرؤ القيس يمر واديًا قفرًا يعوي فيه الذئب لوحشته كل ذلك ليصور من خلال صورة ذلك المكان المسبع شجاعته وقدرته على تعسف السبل المخيفة :

وواد كجوف العير قفرًا قطعته به الذئب يعوي كالخليع المعيل

أما كريم عطاياه وبحر سجاياه العظيمة فيغرق فيها من يبغضه ويحسده من الناس مهما

(١) د. عبد العزيز عبد الله الخويطر – إطلالة على التراث – الجزء : السادس عشر – ص : ٣٥ .

(٢) السابق – ص : ٣٦ .

عظموا فهم مثل السباع التي أغرقها السيل العظيم فباتت فيه غرقى ميتة في نواحيه كأصول البصل البري .

وناقــة طــرفة ترجع إلى صوت الراعي إذا دعاها وتدفع فحل الإبل وتحمي نفسها منه إذا كانت حاملاً بذنب ذي حزمة من الشعر على جانبيه كأنهما جناحي نسر عظيم أبيض :

تــريع إلى صــوت المهيب وتتقي   بــذي خصــل روعات أكلف ملبد
كــأن جنــاحــي مضــرحي تكنفا   حــفافــيه شــكا في العسيب بمســرد

والرجل التام السلاح والشجاع عند زهير كأسد تلبد شعره على منكبيه لم تقلم أظفاره :

لــدى أســد شــاكي السلاح مقذّف   لــه لــبــد أظــفــاره لم تقــلّم

أمّا لبيد فيتباهى بكرمه الذي بلغ حد الإسراف واللهو فيتعاطى شرب الخمر قبل أن يصدع الديك صباحًا ليشرب منها مرة بعد أخرى فهو ليس ببخيل على نفسه :

بــادرت حاجــتها الــدجاج بسحرة   لأعــل مــنها حــين هــب نيــامها

والحــارث بن حلزة يرى الملك حجر ابن أم قطام كثير السلاح شجاعًا كالأسد في اللقاء يضرب لونه إلى الحمرة كما أنه خفي الوطء مثله أيضًا :

ثم حــجــرًا أعــني ابــن أم قطــام   ولـــه فـــارسية خضـــراء
أســـد في اللقـــاء ورد همــوس   وربـــيـــع إن شـــنعت غـــبراء

والنابغة يصور الخيل التي يهبها الملك النعمان في سرعتها بالطير التي تخاف أذى البرد والمطر فهي شديدة الطيران :

والخـــيل تمــزع غــربًا في أعنتها   كــالطير تنجو من الشؤبوب ذي البرد

وعبيد بن الأبرص يمتطي صهوة فرس يشبه العقاب :

كــأنهــا لقـــوة طلـــوب   تـــحن في وكـــرها القلـــوب

والمــاء الآجن الذي تعسف عبيد طريقه مخيف وموحش وبعيد عن المارة من الناس وموضع لافتراس الأقوياء للضعفاء فهذا ريش الحمام على مائه يوحي بأن الحمام وقع فريسة لطير جارح أو وحش ضارٍ فيقول :

فــرب مـــاء وردت آجـــن   ســـبيله خـــائف جـــديب
ريـــش الحمـــام علـــى أرجائـــه   للقـــلـــب مـــن خـــوفه وجـــيب

إن الشـــاعر الجاهلـــي قد أدرك ما تحركه هذه الصور في نفسه من مشاعر ، وما تثيره من نوازع ولهذا كانت انفعالاته وأخلاقياته وسلوكه تلوح من الصور الطبيعية التي غذّى بها فنه الشعري مستمدًا من صور الطبيعة المختلفة ما يبرز تلك الانفعالات وتلك القيم والأخلاق وغيرها في صورة محسوسة .

ثالثًا : المصدر البشـــــــري :

يعتـــبر المصـــدر البشري من أهم مصادر الصورة لدى الشاعر الجاهلي فمنه تنتزع الصورة وإلـــيه تقـــدم ولذلك اهتم شعراء المعلقات العشر بالصور المنتزعة من الحالات النفسية والوجدانية والاجتماعـــية الخاصـــة بالإنسان فجعلوه ماثلاً أمامهم يخاطبون من خلاله المواد التي ينتزعونها منه ، وذلك بعد إحيائها أو إنطاقها أو تحريكها ، وقد تمثلت صورة الإنسان عند شعراء المعلقات العشر في ارتباطه بأمور كثيرة أبرزها :

١- صورة الإنسان والدين :

رســـم شـــعراء المعلقات العشر صورًا تدل على تعدد الأديان في ذلك العصر ما بين وثنية ونصـــرانية ويهودية فهذا امرؤ القيس يشبه وجه حبيبته بمصباح الراهب الأشيب المتبتل في جوف الليل فيقول:

تضـــيء الظـلام بالعشـــي كأنها   مـــنـارة ممســـي راهـــب متبـــتل

وزهير بن أبي سلمى يذكر يوم الحساب في قوله :

فلا تكتمـــن الله مـــا في صـــدوركم   ليخفـــى ، ومهمـــا يكـــتم الله يعلـــم

يؤخر فيوضع في كتـــــاب فيدخـــر   لـــيـــوم الحســـاب أو يعجـــل فيـــنقم

والأعشـــى يقسم بالذي تسير إليه الإبل سيرًا حثيثًا وذلك لقصد الكعبة المعظمة والحج بها حيث يساق إليه البقر الكثير لينحر في يوم النحر فيقول :

إني لعمـــر الـــذي حطـــت مـــناسمها   تخـــدي وســـيق إلـــيه الباقـــر الغـــيل

وهذا لبيد يذكر نبي الله سليمان الحكيم فيقول مادحًا الملك النعمان :

ولا أرى فـــاعلاً في الـــناس يشـــبهه   ولا أحـــاشـــي مـــن الأقـــوام من أحد

إلا ســـليمـــان إذ قـــال الإلـــه له   قـــم في الـــبرية فاحددها عن الفند

وخـــيس الجـــن أني قـــد أذنت لهم   يبـــنـــون تدمـــر بالصـــفاح والعمد

وعبيد بن الأبرص شاعر موحد موقن بأن الله يعلم ما تخفي القلوب حيث يقول :

والله لـــيس لـــه شـــريك   عـــلاّم مـــا أخفـــت القلـــوب

٢ - الإنسان والكتابة :

وردت صورة الكتابة في المعلقات العشر بوضوح عند لبيد وهو يشبه السيل وقد مر فوق الطلـــول فكشـــف عن بياض وسواد فهي شبيهة بكتاب قديم قد محيت كتابته فأعيدت كتابة بعضه وترك ما يبين منه فكتابته مختلفة حيث يقول :

وجـــلا السـيول عـــن الطلــول كأنها زبـــر تجـــد مـــتونها أقلامهـــا

وزهـــير بـــن أبي سلمى يبلغ الطرفين المتحاربين بأن كل ما يخفيه الإنسان يرقم في كتاب فيؤخر ليوم الحساب أو يعجل الله على صاحبه العقاب في الدنيا :

يؤخـــر فيوضـــع في كـــتاب فيدخـــر لـــيوم حســـاب أو يعجـــل فيـــنقم

٣ - الإنسان ومجالس اللهو والفنون الموسيقية والغناء :

صـــور شاعر المعلقة مجالس الموسيقى والغناء فذكر أسماء آلات الموسيقى كالكران والصنج وغير ذلك فهذا لبيد بن ربيعة يصف عزف الكران بالإبهام فيقول :

بصبوح صافية وجذب كرينـــــة بموتـــــر تأتالـــه إبهامهـــــــا

أما طرفـــة بن العبد فيصف لنا مجلس الشـــراب والغنـــاء بقـــوله :

نـــداماي بـــيض كالـــنجوم وقيـــنة تـــروح علينـــا بـــين بـــرد ومجســـد

رحـــيب قطـــاب الجيب منها رفيقة بجـــس الندامـــى بضـــة المتجـــرد

إذا نحـــن قلـــنا: أسمعيـــنا انبرت لنا علـــى رســـلها مطـــروفة لم تشـــدد

إذا رجعت في صوتها خلت صوتهـــا تـــجاوب أظـــآر على ربـــع رد

وطرفة يشبه الذباب صوت الذباب وهو يغرد بالمخمور المتغني انشراحًا فيقول :

وخلا الذباب بـــها فليس ببـــارح غـــردًا كفعـــل الشـــارب المتـــرنمِ

والأعشى رأس شعراء المعلقات في وصف مجالس الشراب والغناء وآلاته حتى أنه يقدم لك صورة حية لكل ما يدور في تلك المجالس فكأنك تراها راي العين فيقول :

وقـــد غـــدوت إلى الحانـــوت يتـــبعني شـــاوٍ مشـــل شـــلول شلشـــل شـــول

في فتـــية كســـيوف الهـــند قـــد علموا أن هالـــك كـــل مـــن يحفـــى وينـــتعل

نازعـــتهم قضـــب الـــريحان متكـــئًا وقهـــوة مـــزة راووقهـــا خضـــل

لا يستفيقون منها وهي راهنة	إلا بـ (هاتِ) وإن علوا وإن نهلوا
يسعى بها ذو زجاجات له نطف	مقلص أسفل السروال معتمل
ومستجيب تخال الصنج يسمعه	إذا ترجع فيه القينة الفضل
والساحبات ذيول الريط آونة	والرافلات على أعجازها العجل
من كل ذلك يوم قد لهوت به	وفي التجارب طول اللهو والغزل

٤ - الإنسان والصيد :

صور شاعر المعلقات الإنسان وارتباطه بالصيد فقدم لنا صورًا متعددة لذلك من أبرزها صورة الإنسان المترف وهو خارج للصيد قبل الشروق على جواده ومعه غلمانه ونفر من أخدانه ، فيقتنص الصيد المسمن بعد عراك مرير ثم يظل طهاة اللحم يعملون منه ما لذ وطاب في أنواع من الطهو متعددة ولعل أبرز صورة في ذلك تظهر عند امرئ القيس وهو يقول :

وقد أغتدي والطير في وكناتها	بمنجرد قيد الأوابد هيكل

إلى أن يقول :

فعن لنا سرب كأن نعاجه	عذارى دوار في ملاء مذيل
فأدبرن كالجزع المفصل بينه	بجيد معم في العشيرة مخول
فألحقنا بالهاديات ودونه	جواحرها في صرة لم تزيل
فعادى عداء بين ثور ونعجة	دراكًا ولم ينضح بماء فيغسل
فظل طهاة اللحم ما بين منضج	صفيف شواء أو قدير معجل

وقد يستقصي وصف الصيد إلى الحد الذي تحس معه أن ذلك الوصف تعدى وصف الصيد لذاته إلى وصف حالة شعورية إنسانية يريد الشاعر نقلها من خلال لوحة الصيد تلك وذلك ما نراه واضحًا لدى لبيد في قوله :

فتوجست رز الأنيس فراعها	عن ظهر غيب والأنيس سقامها
فغدت كلا الفرجين تحسب أنه	مولى المخافة خلفها وأمامها
حتى إذا يئس الرماة وأرسلوا	غضفًا دواجن قافلاً أعصامها
فلحقن واعتكرت لها مدرية	كالسمهرية حدها وتمامها

لــــتذودهن وأيقـــنت إن لم تـــذد | أن قـــد أحـــم مـــن الحـــتوف حمامها
فتقصـــدت منهـــا كـــاب فضـــرجت | بدم وغـــودر في المكـــر سخامهـــا

وأظهـــر مـــن ذلـــك قول النابغة وهو يلبس أحاسيس النفس الإنسانية رحله الذي يشبهه بـــوحش وجرة وما حدث له مع كلاب الصيد في صورة ماثلة تحس أثناء قراءتها أن الهدف يتعدى وصف الصيد وعراكه مع كلاب الصياد إلى أبعد مما نتصور لأول وهلة :

يقول النابغة :

كـــأن رحلـــي وقـــد زال الـــنهار بنا | يـــوم الجلـــيل علـــى مســـتأنس وحد
مـــــن وحـــش وجرة موشي أكارعه | طـــاوي المصـــير كسيف الصيقل الفرد
ســـــرت عليه مـــن الجوزاء سـارية | تزجـــي الشـــمال علـــيه جامـــد البرد
فارتـــاع مـــن صـــوت كلاب فبات له | طـــوع الشوامت من خوف ومن صرد
فبـــــثهن علــــيه واســـتمر بـــــه | صـــمع الكعـــوب بـــريئات من الحرد
وكـــان ضـــمران مـــنه حـــيث يوزعه | طعـــن المعـــارك عـــند المحجـــر النجد
شـــك الفريصـــة بالمـــدري فأنفـــذها | طعـــن المبيطـــر إذ يشـــفي من العضد
كأنـــه خارجًـــا مـــن جـــنب صـــفحته | ســـفود شـــرب نســـوه عـــند مفتأد
فظـــل يعجـــم أعلـــى الـــروق منقبضًا | في حالـــك اللـــون صدق غير ذي أود
لمـــا رأى واشـــق إقعـــاص صـــاحبه | ولا ســـــبيل إلى عقـــــل ولا قـــــود
قالت له النفس : إني لا أرى طمعًـــــا | وإن مـــولاك لم يسلـــــم ولم يصـــــد

٥ - الرجـــل والمـــرأة :

" الرجل في الشعر الجاهلي معنى والمرأة صفة : فهو الكريم ذو النار المشبوبة التي يهتدي بها الضيفان والطرّاق فينحر لهم الكوم السمان ، وهو الذي لا تنطفئ ناره ولا تبيض قدوره لأنها دائمًا علـــى النار وهو غيّاث أرامل قبيلته ويتاماها في السنة الشهباء ... وهو يشارك في الميسر ولا يبرم ، ويعد الشعراء الجاهليون هذا الميسر وسيلة لإطعام الفقراء والمعوزين ، وهو شجاع لا يخاف الموت ، ولا يقعـــد علـــى الضيم ، ولا يرهبه التسيار في غبش الليل ... أما المرأة فبيضاء البشرة أو بيضاء مشـــربة بالصفرة ، وليست سوداء ، وهي بادن القد ... وقامتها نياف ،... وهي مصقولة الترائب

ممتلئة الذراعين ريانة الساقين والقدمين لها خصر دقيق وكشح هضيم أملس ... "[١] إلى آخر تلك الصفات الأنثوية الكثيرة التي وصف بها الشاعر الجاهلي المرأة .

وعـندما ننظـر إلى نصوص المعلقات العشر على وجه الخصوص نجد أن الشعراء العشرة قدموا صورًا كثيرة للإنسان (الرجل) وصورة للإنسان (المرأة) رفدوا بها معينهم الشعري وغذوه بها إلى جانب ما رأوه في الإنسان من صلاح في إبراز قيمهم وأخلاقهم من خلال ذلك الإنسان ومن أجله .

فامرؤ القيس يضع نفسه موضع ذلك الرجل الذي بلغ به كرمه أن يذبح رحله للعذارى فيقول :

ويـوم عقـرت للعـذارى مطـيتي ... فـيا عجـبًا مـن كـورها المـتحمل
ويـا عجـبًا مـن حلـها بعد رحلها ... ويـا عجـبًا للجـازر المتـبذل
فظـل العـذارى يـرتمين بلحمهـا ... وشـحم كهـداب الـدمقس المفـتل
تدار علينـا بالسديف صحافنـا ... ويؤتـى إليـنا بالعبيـط المثمـل

وخصم عنترة بن شداد رجل شجاع مدجج بالسلاح لكن عنترة أشد بأسًا وشجاعة حيث يعاجله بطعنة نجلاء :

ومـدجج كـره الكمـاة نـزاله ... لا ممعـن هـربا ولا مستسـلم
جـادت يـداي لـه بعاجـل طعـنة ... بمـثقف صـدق الكعـوب مقـوم
برحيبة الفرعين يهدي جرسهـا ... باللـيـل معتس الذئاب الضُرَّم

والرجل الشجاع عند زهير أسد تام السلاح فهو بتلك الصورة أسد تلبد شعره على منكبيه لم تقلم أظفاره يقذف به مرات كثير إلى الوقائع فلا يهاب :

لدى أسد شاكي السلاح مقـذف ... له لبد ، أظفـاره لم تقلـم

وفـتيان عمـرو بن كلثوم يرون القتل مجدًا وشرفًا لهم وكبار السن مجربون في الحرب فهو يتحدى بهم جميع الناس :

بفتـيان يـرون القـتل مجـدًا ... وشـيب في الحـروب مجـربينا
حديا الناس كلهـم جميعـاً ... مقارعـة بنيهم عـن بنينـا

---

(١) د. نصرت عبد الرحمن – الصورة الفنية في الشعر الجاهلي – ص : ٥٢-٥٣ .

وعمرو بن هند في نظر الحارث بن حلزة ملك عادل وأكرم الناس عقلاً ورأيًا ، كما أنه من دهاة الناس وأبطالهم :

إن عمـــرًا لـــنا لديــه خـــلال ... غـــير شـــك في كلـــهن الـــبلاء

ملـك مقسـط وأكمـل مـن يمشـي ... ومـــن دون مـــا لديـــه الثـــناء

إرمـــــي بمثلـــه جالت الجـــن ... فآبت لخصمهـــــا الإجـــــلاء

أما النابغة فلا يشبه النعمان بن المنذر عنده إلا سليمان الحكيم :

ولا أرى فـــاعلاً في الـــناس يشـــبهه ... ولا أحاشـــي مـــن الأقـــوام مـــن أحد

إلا سليمـــــــــان إذ قال الإله له ... قم في البرية فاحددهـــا عن الفنـــد

ومـــــاذا عن المـــــرأة ؟

أمـــا المـــرأة فقـــد حظيت بنصيب كبير عند شعراء العصر الجاهلي حيث راحوا يستمدون صورهم منها شابة وعجوزًا كما عنوا بتصويرها من ناحية الجمال خلقًا ومظهرًا .

" والمـــرأة ولوع بالزينة ، شغوف بالألوان والحلي والأصباغ وكثير مما في عالم المرأة من هذه المظاهر مستمد من الطبيعة وأفانينها "[1].

فالمرأة عند امرؤ القيس بيضاء البشرة رقيقة ناعمة كالدرة التي لم تثقب :

كبكـــر مقانـــاة البيـــاض بصفـــرة ... غـــذاها نمـــير المـــاء غـــير الـــمحلل

وشبهها بالبيضة لبياضها ورقتها فقال :

وبيضـــة خـــدر لا يـــرام خـــباؤها ... تمـــتعت مـــن لهـــو بهـــا غـــير معجل

وهي كالسراج المضيء لحسنها وبياضها :

تضـــيء الظـــلام بالعشـــاء كأنهـــا ... مـــنارة ممســـى راهـــب متبـــتل

وشبه عينها بناظرة البقر الوحشي فقال :

تصـــد وتـــبدي عـــن أســـيل وتتقـــي ... بناظـــرة مـــن وحـــش وجـــرة مطفـــل

وجـــــيدها كجـــــيد الـــــرئم :

وجـــيد كجـــيد الـــرئم لـــيس بفـــاحش ... إذا هـــي نصـــته ولا بمعطـــل

---

(١) د. نعمات أحمد فؤاد – المرأة في شعر البحتري – ص : ٤٤ .

وهي عند طرفة ناعمة تامة الخلق عظيمة :

وتقصـير يـوم الدجن والدجن معجب ... ببهكـنة تحـت الطـراف المعمـد

والنساء عند لبيد كبقر الوحش وظباء وجرة وهن على هوادجهن :

زجـلا كـأن نعـاج توضـح فوقها ... وظـباء وجـرة عطفًـا أرآمهـا

والمرأة عند عنترة غضيضة الطرف محياء :

دار لآنسـة غضـيض طـرفها ... طـوع العـناق لذيـذة المتبسـم

وإذ ا نظرت فكأنما تنظر بعين ولد الظبية :

وكأنمـا نظـرت بعـيني شـادن ... رشـأ مـن الغـزلان لـيس بـتوأم

وفمها أبيض الأسنان عذب الريق :

إذ تسـتبيك بـذي غـروب واضـح ... عـذب مقـبله لذيـذ المطعـم

وهي طيبة رائحة الفم كطيب المسك :

وكـأن فـارة تاجـر بقسـيمة ... سـبقت عوارضـها إلـيك مـن الفم

واسمع لصفات المرأة عند عمرو بن كلثوم:

تـريك إذا دخلـت علـى خـلاء ... وقـد أمـنت عـيون الكاشـحينا
ذراعـي عـيطل أدمـاء بكـر ... تـربعت الأجـارع والمـتونا
وثـديًا مـثل حـق العـاج رخصًـا ... حصـانًا مـن أكـف اللامسـينا
ومـتني لدنـة طالـت ولانـت ... روادفهـا تـنوء بمـا يليـنا

وأعجب عمرو بصورة أخلاقية في النساء :

علـى آثارنـا بـيض كـرام ... نحـاذر أن تفـارق أو تهـونا
ظعـائن مـن بـني جشـم بـن بكـر ... خلطـن بميسـم حسـبًا وديـنا
أخـذن علـى بعولـتهن عهـدًا ... إذا لاقـوا كـتائب معلميـنا
ليسـتلبن أبـدانًا وبيضًـا ... وأسـرى في الحديـد مقـرنينا
إذا مـا رحن يمشـين الهويـنا ... كمـا اضطـربت متون الشاربينا

تلـك الصـورة الأخلاقية تتمثل فيما تقوم بها النساء من بث الحماس في نفوس الرجال في الحـروب كمـا أنهـن كريمات الحسب والأخلاق ، ثم نراه يرمق فيهن صورة حسية جميلة حيث يشـبههن في مشـيتهن باضطراب متون شاربي الخمر نشوة وتلك صفة في المشي يحبها الرجال في النساء .

أما الحارث بن حلزة فيقدم المرأة في معلقته في صورة تقريرية ماثلة للعيان فيقول :

وبعينيـك أوقـدت هـند النـار	أخـيرا تلـوي بهـا العلـياء
أوقـدتها بـين العقـيق فشخصـين	بعـود كمـا يلـوح الضـياء
فتنـورت نارهـا من بعيـد	بـخزاز هيهـات منـك الصلاء

أما الأعشى فيقدم لنا مزيجًا من صور المرأة الجسمية والخلقية في جزء كبير في معلقته فيقول :

غـراء فـرعاء مصـقول عوارضـها	تمشـي الهوينى كما يمشي الوجي الوحل
كـأن مشـيتها مـن بـيت جارتهـا	مـر السـحابة لا ريـث ولا عجـل
تسـمع للحلـي وسواسًـا إذا انصرفت	كمـا اسـتعان بـريح عشـرق زجل
ليسـت كمـن يكـره الجـيران طلعتها	ولا تـراها لسـر الجـار تختـتل
يكـاد يصـرعها لـولا تشـددها	إذا تقـوم إلى جاراتهـا الكسـل
إذ تلاعـب قـرنًا سـاعة فتـرت	وارتـج مـنها ذنـوب المـتن والكفل
صـفر الوشـاح ومـلء الـدرع بهكنة	إذا تأتـى يكـاد الخصـر ينخـزل
هـر كـولة فـنق درم مـرافقها	كـأن أخمصـها بالشـوك منـتعل
إذا تقـوم يضـوع المسـك أصـورة	والـزنبق الـورد مـن أردانهـا شمـل
مـا روضـة مـن ريـاض الحزن معشبة	خضـراء جـاد علـيها مسـبل هطل
يضـاحك الشـمس منها كوكب شرق	مـؤزر بعمـيم النـبت مكـتهل
يومًا بأطيب منها نشـر رائحـة	ولا بأحسـن منهـا إذ دنا الأصـل

وعند المرأة نرى أن " حب الزينة أصل من أصول الرياء يشاركها فيه الرجل في ظاهر الأمر ولكـنه يخصها من جانب غير مشترك بينها وبين زينة الرجل ... فإن الرجل يتزين ليعزز إرادته في طلـب المـرأة وإنمـا تتزين المرأة لتعزز إرادة غيرها في طلبها ... وليست الزينة التي تراد للإغراء بالقبول كالزينة التي يراد للإغراء بالطلب ، فإن الفرق بينهما هو الفرق بين الإرادة والانقياد وبين من يريد ومن ينتظر أن يراد "[1].

---

(١) عباس العقاد – المرأة في القرآن – ص : ١٨ .

وهذا زهير يستحضر خروج النساء الرواحل وهن في كامل زينتهن فيقول :

علـــون بأنطاكـــية فـــوق عقمـــة ... وراد حواشـــيها مشـــاكهة الـــدم
ظهـــرن مـــن الســـوبان ثم جـــزعنه ... علـــى كـــل قـــيني قشـــيب ومفـــأم
ووركـــن في الســـوبان يعلـــون متـــنه ... علـــيهن دل الـــناعم المتـــنعم
بكـــرن بكـــورًا واســـتحرن بســـحرة ... فهـــن ووادي الـــرس كالـــيد للفـــم
وفـــيهن ملهـــى للصـــديق ومنظـــر ... أنـــيق لعـــين الناظـــر المتوســـم
كأن فتات العهن في كـــل مـــنزل ... نزلـــن به حـــب الفنـــا لم يحطـــم

وخـــروج النساء في حليهن في هوادجهن ليس – في رأيي – رمزًا دينيًا [1] وإنما هو حرص مـــركب في طـــبع العرب إكرام النساء والاهتمام بزينتهن وإجلالهن خاصة في مثل هذه الأحوال – أعني أحوال الرحيل والانتقال من مكان إلى آخر – حتى لا يُظَن في عدم زينتهن وإجلالهن وصونهن ضعف القوم أو القبيلة النازحة أمام القبائل الأخرى ، كما أن مفارقة النساء للمكان وعدم بكائهن علـيه ، وتـزينهن في خروجهن لا يعني سوى أن الجزيرة العربية كلها موطن العرب فهم يستقرون علـى المكـان الـذي يكثر فيه الماء والكلأ فيرون فيه موطنهم ومجمع ذكرياتهم حتى إذا ما أجدب انتقلوا إلى غيره .

وأخـيرًا أقـول أن استقصاء المصدر البشري – خاصة – ومدى أثره في شاعر المعلقة أمر يطول موضوعه ويحتاج منا إلى بحث مستقل وما أوردته هنا ليس إلا النزر اليسير جدًا كشاهد ماثل لأثر المصدر البشري في شعر أولئك الشعراء وتغذية صورهم الفنية .

٦ – الإنسان والزمن :

أحـس الإنسان الجاهلي بالزمن وتحولاته المتمثلة في الأطلال والشيب والحياة والموت فلم يقـف مكـتوف اليدين وإنما حاول التعبير عن ذلك الزمن والخروج من وطأته القاسية وقد " كان للشـاعر العربي القديم موقفه من الزمان الذي يتجسد عنده بالدهر أو هكذا كان يرمز للزمن بهذه الكلمة . وكانت تعني لديه الخطر الذي يهدد الإنسان ، بوصف الزمان عاملاً مهددًا للبقاء والحياة معًا "[2].

ونتـيجة لكـل ما تقدم نرى للشاعر الجاهلي – شعراء المعلقات – ردود فعل من كل ما

---

(١) انظر : د. نصرت عبد الرحمن – الصورة الفنية في الشعر الجاهلي – ص : ١٣١ وما بعدها .

(٢) د. محمد زكي العشماوي .موقف الشعر من الفن والحياة في العصر العباسي – ص : ١٩٤.

يربط الإنسان بالزمن من وقوف على الأطلال وانتهاب للملذات والحرب والسلام والحياة والموت، وإن الوقــوف علــى هذه الأمور كلها أمر يطول الحديث فيه ، كما وقد تناوله كثير من الباحثين وأشــبعوه بالدراسة والتحليل إلا أننا سنورد هنا أمثلة مختارة من نصوص المعلقات لصورة الإنسان وارتباطه بالزمن ومدى ما استمده شاعر المعلقة من الصور في ذلك الجانب .

لقــد وقف شعراء المعلقات على الأطلال فكان وقوفهم وفاء لمن يحبون واعتبارًا وتفكرًا في الحــياة والكون لأنهـــم رأوا في جدب المكان وقفره جدب أعمارهم وانقطاع آمالهم ولعل إجابة عبيد بن الأبرص عندما استنشده النعمان قصيدة أقفر من أهله ملحوب بقوله :
(أقفر من أهله عبيد) ما يؤكد ما ذهبت إليه .

لذلك تنوعت نفسيات شعراء المعلقات بتنوع درجة وطأة ذلك الزمن عليهم فمنهم من رأى فيه السآمة كزهير بن أبي سلمى الذي يقول :

سـئمت تكالـيف الحياة ومن يعش ... ثمـانين حـولاً – لا أبـا لك – يسأم

أما طرفة فيرى الموت في هذه الصورة :

لعمــرك إن المــوت مــا أخطــأ الفتى ... لكالطِّــوَل المرخــى وثنــياه بالــيد

ويرى الدهر كنزًا ناقصًا :

أرى الدهــر كــنزًا ناقصًــا كــل ليلة ... ومــا تــنقص الأيــام والدهــر يــنفد

وبهــذه الــرؤية القاصرة حدد هدفه في ثلاث:

فلــولا ثــلاث هــن مــن عيشة الفتى ... وجــدك لم أحفــل مــتى قــام عــودي

فمــنهن ســبق العــاذلات بشــربة ... كمــيت مــتى مــا تعــل بالمــاء تزبد

وكــري إذا نــادى المضــاف مجنــبًا ... كســيد الغضــا نبهــته المــتورد

وتقصــير يــوم الدجن والدجن معجب ... ببهكــنة تحــت الطــراف المعمــد

وعبيد يخيفه الشيب المنذر بدنو الأجل :

تصــبو وأنى لــك التصــابي ... أنى وقــد راعــك المشــيب

وزهير يرى بعثًا جديدًا للحياة في الطلل :

ودار لهــا بالــرقمتين كأنهــا ... مــراجيع وشــم في نواشــر معصــم

بــها العــين والآرام يمشــين خلفة ... وأطلاؤهــا ينهضــن من كــل مجثــم

" هذا بعث جديد للحياة يتمثل في حياة الظباء وبقر الوحش تتعاقب على المكان ، وأبناؤها ينهضـــن مـــن كل مكان ، لقد انتشرت الحياة في الطلل ، وشاع الأمن وانتشرت الطمأنينة ، وفي مقابـــل الإحســـاس الشديد بالزمن الذي يتمثل في الأبيات السابقة نجد حياة تملأ المكان (إذ تنتشر الأطـــلاء في كل الأمكنة) كما نرى التتابع الزمني في خلق هذه الحياة (يمشين خلفة) يأتي بعضها وراء بعض .

إن هـــذه الكـــثافة العددية وازدحامها بالمكان تكشف عن رغبة الشاعر في بعث الحياة في الأطـــلال ، وهـــو الأمل الذي يراود الشاعر ، فقد يأتي يومًا فإذا الأطلال كما كانت قبل عشرين حجـــة "[١] وفي تضـــاد عمل الرياح في أطلال امرئ القيس ما يوحي برغبة الشاعر الخفية في نشر الحياة في الأطلال عندمـــا يقول :

قفـــا نـــبك مـــن ذكـــرى حبـــيب ومنزل ... بســـقط اللـــوى بـــين الدخـــول فحـــومل

فتوضـــح فالمقـــراة لم يعف رسمهـــا ... لما نسجتهـــا من جنـــوب وشـــمأل

وهكـــذا نتبين أن الإنسان وصلته بالزمن قد أمدت شاعر المعلقة بصور شتى عبر من خلالها عن إحساسه بالزمن ، وبرزت من خلال تلك التعبيرات والصور قيم وأخلاق ذلك الإنسان ما بين خلق محمود وآخر مذموم .

ولـــو استعرضـــنا نظرة كل شاعر من شعراء المعلقات للزمن على وجه الخصوص لطال بنا الحديث ، ولكن حسبنا من القلادة ما أحاط بالعنق .

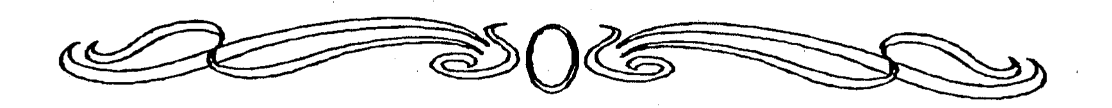
وتجـــدر الإشـــارة وقد تحدثنا عن المصدر البشري إلى أن نبحث في مصدر بعض المعلومات التاريخـــية التي وردت عند بعض شعراء المعلقات كزرقاء اليمامة والنبي سليمان عليه السلام وطسم وجـــديس وغيرهم باعتبار مصدرها البشري فنقول : إن اتصالات العرب المتنوعة بغيرهم جعلتهم يعـــرفون كـــثيرًا مـــن أخبار الأمم السابقين من العرب وغيرهم بما كانوا يروون من القصص وما يتناقلونه من أحاديث ومن ذلك يقول الهمداني [٢] : " ليس يوصل إلى خبر من أخبار العجم والعرب إلا بالعرب وبينهم وذلك أن من سكن من العمالقة وجرهم وخزاعة بمكة أحاطوا بأخبار أمم مختلفة مـــن العرب البائدة والفراعين العاتية وأخبار أهل الكتاب . وكانوا يدخلون البلاد للتجارة فيعرفون

---

(١) د. عبد العزيز شحادة – الزمن في الشعر الجاهلي – ص : ١٠٤– ١٠٥

(٢) محمد فخر الدين – تاريخ العرب القدامى عن كتاب الوشي المرقوم للهمداني – ص : ١٠٨.

أخــبار الــناس . وكذلك من سكن الحيرة وجاور العجم قد حووا علم الأعاجم وأخبارهم وعنهم صــار أكثــر ما رواه محمد بن السائب الكلبي والهيثم بن عدي من رواة الأخبار وكذلك من وقع بالشــام من مشايخ غسان خبير بأخبار الروم وبني إسرائيل واليونان ، ومن وقع بالبحرين من تنوخ وغيرهــم فعنهم أتت أخبار طسم وجديس . ومن وقع بعمان من ولد نصر بن الأزد فعنه أتى كثير مــن أخبار السند والهند وشيء من أخبــار فارس . ومن وقع باليمن أتته أخبار الأمم جميعًا، لأنه كــان في ظــل الملــوك السيارة " وبهذا لا نستغرب ذكر شاعر المعلقة لمثل هذه الأسماء والأحداث التاريخية كما هو الحال عند زهير بن أبي سلمى و النابغة والحارث بن حلزة وغيرهم .



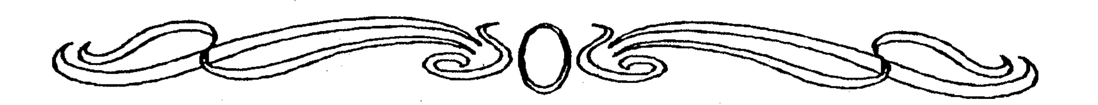
أنماط الصورة الفنية للأخلاق في المعلقات العشـــــــر

١- التشـــــبيه

٢- المجـــــاز

٣- الكنـــــاية

٤- الرمـــــزية



أُغرم العربي الجاهلي بقيمه ومثله الأخلاقية التي استثارت عواطفه معجبًا أو محبًا أو متحمسًا وفي المقابل نفر من الأخلاق المرذولة فاستثارت عواطفه أيضًا مبغضًا أو كارهًا أو نافرًا .

عـــند ذلك أخذ العربي الجاهلي يبحث عن إجابة سؤال طالما حاك في نفسه فحواه : كيف يـــثير في نفـــس المتلقي روعة الإعجاب أو لوعة الحب أو لهيب الحماسة لخلق يرتضيه ؟ ومن جانب آخر كيف يستثير غضب عاطفة المتلقي وكرهها ونفورها من خلق لا يرتضيه ؟

لـــذلك كلـــه رأى أن الشعر بما فيه من خيال– على وجه الخصوص – خير معين له على تـــرجمة تلك العواطف واستثارة عواطف الآخرين للمشاركـــة له في تلك العواطف والأحاسيس ، والتخييل الشعري " عملية إيهام تفضي إلى تحسين أو تقبيـــــح . وكل تحسين أو تقبيح يفضـــــي – بـــدوره– إلى اتخاذ المتلقي وقفة سلوكية محددة ، يمكن معرفتها سلفًا ويمكن السيطرة عليها ، أو توجيهها بقوة التخييل الشعري . وما دام الأمر كذلك فيمكن أن يكون الشعر ذا أثر إيجابي في حياة الفـــرد والجماعـــة وذلـــك بـــربط عملـــية التخييل بمخطط أخلاقي يقوم الشعر بتوصيل قيمه إلى المتلقي "[١].

لم يكـــن الشاعر العربي يتجه إلى الوسيلة المباشرة في التعبير ليهيج بها المشاعر وإنما باعتباره صـــاحب فـــن " كـــان مضطرًا أن يلجأ إلى وسائل أخرى غير مباشرة ليوقظ بها النفوس ، ويهيج العواطف ، وهذه الوسائل التي يحاول بها الأديب نقل فكرته وعاطفته معًا إلى قرّائه أو سامعيه تدعى الصورة الأدبية ...

والعاطفـــة لا يمكن إثارتها بدراستها أو تحليلها أو التفكير فيها ، بل لا بد من عرض بواعثها التي جعلت الأديب محبًا أو متحمسًا أو رحيمًا ، وهذا العرض إنما يكون بالخيال "[٢].

نحـــن نعلم أن العاطفة تختلف باختلاف الشعراء والأدباء ، ويتبع ذلك اختلاف في الصورة الأدبـــية التي تؤدي تلك العواطف ، ومن هنا يجب أن نعلم أن اللغة (في الشعر) ليست هي مجرد الألفـــاظ والعـــبارات ولكنّها الصور (المتناغمة والمتضادة) والمجازات (القريبة والغريبة) والرموز (الغائمـــة والشـــفافة) والأساطير (الخاصة والعامة) والأقنعة (التاريخية والأسطورية) والتضمين (الإنساني والموضوعي) والوحدة (العضوية والشعورية) وغير أولئك من الأدوات التي يستخدمها

---

(١) د . جابر عصفور – مفهوم الشعر – ص : ٢٥١

(٢) د. محمد أحمد العزب – التعبير بالصور .. في الشعر الحديث – مجلة الفيصل – عدد (٧٧) ص : ٦٨ .

الشـــاعر في بـــناء عملـــه الفـــني حتى يستوي له تشكيل جمالي متفرِّد ..والشعر لا يمكن أن يكون وليد(التحدث)" لأنه أساسًا وليد (المعاناة) و(التشكيل) و (الإبداع) ... أحيانًا نخطئ فنتصور أن الصـــورة الشـــعرية حلية جمالية ، ولو أنها كانت كذلك لما تجاوزت أن تكون بلاغة جوفاء ... تشبيهًا أو مجـــازًا أو كناية ... وإنما هي معادل موضوعي للعالم الداخلي الذي يموج بتيارات الرضا والعنفوان "[1].

لقـــد أدرك شعراء المعلقات العشر ذلك المعادل الموضوعي وأحسوا بما فيه من مدى استثارة عواطف المتلقين وجذب انتباههم إلى ما في رسائلهم الشعرية من مضامين ومظاهر أخلاقية قد تختلف العواطف وقد تتفق في قبولها أو رفضها إلا أن العرب الجاهليين كانت تجمعهم قيم وأخلاق إنسانية وحـــدت تصورهم رغم ظهور بعض الشواذ الفردية ذات الظروف الخاصة التي اتخذت لها منهجًا أخلاقـــيًا خاصًا ، ولكن رغم ذلك كله نجد أن جذوة الفضيلة والأصول الأخلاقية الإنسانية لم تمت عند أولئك وإن تنوعت مظاهرها الأخلاقية .

ويرجع ذلك إلى أن ثقافة العرب الجاهليين وغذاءهم العقلي وبيئتهم ومناخهم الثقافي واحد ، ومـــا دامـــت المادة الثقافية الأساسية أو المادة الخام التي يصنع منها الشاعر عمله الأدبي ، ما دامت المـــادة واحـــدة والتربة الثقافية والغذاء العقلي والبيئة والمناخ الثقافي يتفق فيه اغلب الشعراء فإننا واجدون تلاقيًا وتأثيرًا وتواردًا واشتراكًا لا يقف عند اللفظ والمعنى والتشبيه ولكن ربما تعدى ذلك إلى القصـــيدة ومضـــمونها وأوزانها وقافيتها ، وخيالها . بل يتحتم ذلك إذا كان الشعراء " من قبيلة واحدة ، فإن خيالهم وخواطرهم تقع متقاربة ، كما أن أخلاقهم وشمائلهم تكون متضارعة "[2] ونحن عـــندما نـــدرس الصـــورة الفنية في التعبير عن الأخلاق في نصوص المعلقات العشر فإنما يجب علينا دراســـتها مجـــتمعة لنتمكن من كشف معنى أعمق من المعنى الظاهري "ذلك لأن الصورة وهي جميع الأشـــكال المجازيـــة إنمـــا تكون من عمل القوة الخالقة ، فالاتجاه إلى دراستها يعني الاتجاه إلى روح الشعـــــر "[3].

وإذا مـــا نحـــن قســـمنا – في دراستنا هذه – الصورة الفنية إلى أنماط فإنما ذلك على سبيل تسهيل الدراسة ومحاولة البحث الدقيق .

---

(١) نفســـــــــه – ص : ٦٨

(٢) الآمدي – الموازنة – ج ١ / ٨

(٣) د. إحسان عباس – فن الشعر – ص : ٢٠٠.

١ــ التشـبيه

كــان التشبيه الوسيلة الصورية واللون البياني الذي جاء كثيرًا في أشعار الجاهليين وكلامهم حتى لو قال قائل : " هو أكثر كلامهم لم يبعد "[١] ويبدو أن شعراء المعلقات العشر لمسوا فيه القدرة على توفير الومضة الجمالية السريعة التي أرادوا من خلالها إخراج الأغمض إلى الأوضح .

والتشــبيه " علاقة مقارنة تجمع بين طرفين ، لاتحادهما أو اشتراكهما في صفة أو حالة ، أو مجموعة من الصفات والأحوال "[٢].

ولســنا الآن بصــدد الحــديث لبحث التشبيه بحثًا بلاغيًا وإنما نحن بصدد دراسة التشبيه كوسيلة أو نمط من أنماط الصورة الفنية استخدمه أصحاب المعلقات العشر كثيرًا في معلقاتهم .

ولعــل من أبرز ما يميز التشبيهات عند شعراء المعلقات العشر وضوحها حيث يقوم أكثرها علــى أساس ملاحظة صلة مادية أو معنوية بين المشبه والمشبه به فالخط الأبيض في ظهر الناقة كأنه الأخــدود في الصخرة ورأسها المرتفع كأنه قصر ضخم وقائمتاها كأنهما عمودان في قصر رومي ، وبقــدر عظــم هذه الناقة التي تحمل هذه الصفات يكون عظم شجاعة طرفة بن العبد ونشاطه حتى كأنها خصصت له دون غيره وهو يقول :

كــأن علــوب النســع في دأياهــا ... مــوارد مــن خلقــاء في ظهــر قــردد

وجمجمـــة مـــثل العـــلاة كأنمـــا ... وعــى الملتقــى مــنها إلى حــرف مبرد

لهـــا مـــرفقان أفـــتلان كأنهـــا ... تمـــر بســـلمي دالج متشـــدد

كقنطـــرة الرومـــي أقســـم ربهـــا ... لتكتـــنفن حـــتى تشـــاد بقـــرمد

ويشبه عنترة سنام الناقة بالبناء من الآجر وقــوائمها بأعمــدة الخــيام فــيقول :

أبقى لها طـــول السفار مقرمـــداً ... سنـــدا ومثـــل دعائـــم المتخيـــم

لقد أراد عنترة بهذا التشبيه لناقته أن يبين شجاعته المتمثلة في صبره وعلو همته وقوة تحمله مــن خلال تلك الصورة التشبيهية لناقته ، ومن ثم يسرح بخيال المتلقي في كنه شجاعة ذلك الفارس الذي أضنى ناقته وهي من أقوى الحيوانات في نظر العربي القديم.

---

(١) المبرد – الكامل في اللغة والأدب – تحقيق : أحمد محمد شاكر وزكي مبارك – ٨١٨/٣ .

(٢) د. جابر عصفور – الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب – ص: ١٧٢ .

أمـــا شـــجاعة امـــرئ القيس ونشاطه وفروسيته فتظهر من خلال وصفه لفرسه بجملة من التشـــبيهات الرائعة التي تجعل من ذلك الجواد العظيم معادلاً موضوعيًا يبرز لنا كنه تلك الشجاعة ففرســـه أحمـــر أملس الظهر يزل عنه اللبد كما يزل الماء المنحدر على صخرة ملساء ؛ أما حيويته ونشاطه فيجعلان أنفاسه تتردد في صدره كأنها المياه الغالية في القدر الضخمة . وهو سريع الدوران كخذروف الوليد الذي تتابعت كفاه على فتله ، ويستعمل امرؤ القيس أخيرا التشبيه الإضافي فيشبه خاصرتي الجواد بخاصرتي ظبي ضامر ، وساقيه بساقي نعامة منتصبة ، وعدوه كعدو الذئب ، وتقريبه كتقـــريب ولـــد الثعلب وبذلك الوصف باستعمال التشبيهات يقدم لنا امرؤ القيس صورة خيالية لفـــرس قـــوي نشيط لا يركبه إلا من استطاع أن يصفه بتلك الصفات ، ومن خلال ذلك الوصف يقدم لنا الشاعر صورة حسية لشجاعته وفروسيته .

أمـــا لبـــيد بن ربيعة فإنه يقيم معادلة بين الغبار الذي أثاره حمار الوحش وأتانه فيما بينهما ودخـــان نار أوقد فيها الحطب فتأججت ثم خلط حطبها بالغض الطري من شجر العرفج ، وهبت عليها ريح الشمال فحملت دخانها وفرقته ، بينما سطعت أعاليه بالشرر :

فتـــنازعا ســـبطًا يطـــير ظلالـــه	كـــدخان مشـــعلة يشـــب ضـــرامها
مشمـــولة غلثـــت بنـــابت عـــرفج	كـــدخان نـــار ســـاطع أسنـــامها

ولبـــيد من خلال استعماله للتشبيه فيما سبق إنما يقدم لنا تجسيدًا لصورة مظهر أخلاقي من مظاهر فضيلة العقل يتمثل ذلك المظهر في العمل من أجل الحياة مهما صعبت الظروف ، ومهما كثر الواشون والحاقدون فإن نور الأمل لا بد أن يعلو دخان اليأس .

أمـــا حزم لبيد وتأجج النشاط في نفسه فإنهما يمليان عليه هذه التشبيهات لناقته التي أتعبها الســـفر وأضمرها حتى تعالى لحمها إلى رؤوس عظامها وتقطعت سيور الجلد التي تشد قوائمها حتى غدت كسحابة حمراء أفرغت ماءها فخفت وأسرعت تدفعها ريح الجنوب :

وإذا تعـــالى لحمهـــا وتحســـرت	وتقطعـــت بعـــد الكـــلال جـــذامها
فلهـــا هباب في الزمـــام كأنها	صهبـــاء خف مع الجنوب جهامها

ونعود إلى امرئ القيس الذي يبرز لنا جزعه لفراق أحبته بهذا التشبيه الذي يصور فيه حالته تلك ضحوة فراق ورحيل الأحبة وما ذرفه من دمع بمن يشق الحنظل فتدمع عيناه بغزارة بسببه :

كـــأني غـــداة البين يوم تحملوا	لدى سمـــرات الحـــي ناقف حنظل

ويقدم لنا امرؤ القيس تشابيه كثيرة لمظاهر حسن من يتعلق بها من النساء وكأنه يعتبر تلك الصور والتشبيهات مبررًا كافيًا لأعماله المشينة فالترائب كالسجنجل والجيد كجيد الرئم ، والفرع كقـــنو النخلة ، والكشح كالجديل ، والساق كالأنبوب المذلل ، والأنامل كأساريع ظبي ، والوجه المشـــرق كأنه منارة ممسى راهب . كل هذه الجماليات الأنثوية في نظره تجيز له الإغراق في التلذذ بالنساء حتى أنه يصرح بعدم البعد عن تلك الملذات والصيرورة عليها بقوله :

تسلت عمـــــايات الرجال عن الصبا ولـــيس فـــؤادي عن هواك بمنسلِ

كمـــا اســـتعمل امرؤ القيس التشبيهات التي تحمل وراء معناها الظاهر معنى عميقًا يجعلنا من خلالهـــا نبحر معه فيما يريد إبرازه لنا من معاني تمثل مظاهر أخلاقية يريد أن يحوز عليها ، ومن ذلك قـــوله وهو يصور لنا مدى شجاعته وعزمه وصبره وهو يتعسف السبل المخيف فها هو يقطع واديًا قفرًا خاليًا من النبات والأنيس كأنه جوف العير :

ووادٍ كجـــــوف العير قفر قطعتـــه به الـــذئب يعـــوي كالخليـــع المعيـــل

ولو تتبعنا كل التشبيهات عند امرئ القيس أو غيره من شعراء المعلقات العشر وبحثنا ما وراء معانـــيها الظاهـــرة مـــن معاني عميقة ، ومحاولة من أولئك الشعراء إبراز قيمهم وأخلاقهم لطال بنا الـــبحث ولكـــن حسبنا أخذ أمثلة لبعض التشبيهات التي تبرز تلك القيم والمظاهر الأخلاقية أو ما يضادها من مساوئ الأخلاق .

والعقل فضيلة أخلاقية تلوح مظاهرها في نصوص المعلقات العشر وترد مظاهرها المتنوعة من خـــلال التصـــوير الفني على طريق التشبيه ، وهذا طرفة بن العبد تقوده حكمته العقلية في فلسفة الحـــياة والمـــوت إلى الدرجة التي يكاد أن يصل فيها إلى الحقيقة في ذلك حيث يقدم" صورة دقيقة معـــبرة تـــبين ملاحقة الموت للناس وعدم انفلاهم من قبضته شأن النوق التي يحكم أصحابها القبضة علـــى أزمتها ... فهم يطيلون لها كما يشاءون ويسحبونها وقت ما يشاءون ... وما مثل الموت إلا كمـــثل الأزمـــة في أيدي الرعاء، أو اللجم في أيدي الفرسان يطيلونها ويثنونها كما يريدون وحينما يريدون "[1] فيقول :

لعمرك إن الموت ما أخطـأ الفـــــتى لكالطـــــول المرخـــــى وثنياه باليدِ

---

(١) محمد الشيخ محمود صيام – المعتقدات والقيم في الشعر الجاهلي – رسالة دكتوراة – جامعة أم القرى (١٤٠٢ هـــ) ص: ٦٣٨.

وزهـير بـن أبي سلمى كان أمامه مهمة صعبة تمثلت في مظهر عقلي محمود ألا وهو إقناع المتخاصمين بالتفكير في عواقب الحرب ونتيجة لتمتع زهير بذلك المظهر استطاع أن يقدم صورًا تشبيهية منفرة للحرب محسوسة متعددة أراد " أن تشكل لسامعها هزة نفسية عقلية عنيفة حتى يراجع حسابه مع الخسارة والربح ليعدل من مساره الضال المضلل "[١].

إن الحرب كالنار لا ترحم فإذا أضرمت أصبح من الصعب احتواؤها ، وكالرحى التي تطحن الحب فإذا كانت الرحى المعروفة لطحن الحب فإنما الحرب معمل كبير لطحن البشر ، والحرب كالمرأة الولود لكنها لا تلد إلا غلام الشؤم ، كما أنها أرض منتجة كأرض العراق المشهورة بغلتها لكن الحرب على غزارة إنتاجها لا تنتج إلا السوء :

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتمُ	وما هو عنها بالحديث المرجم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة	وتضر إذا ضريتموها فتضرم
فتعرككم عرك الرحى بثفالها	فتلقح كشافًا ثم تنتج فتتئم
فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم	كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم
فتغلل لكم ما لا تغل لأهلها	قرًى بالعراق من قفيز ودرهم

ومن هنا تتضح لنا فائدة التشبيه التي أخبر عنها ابن الأثير بقوله :" وأما فائدة التشبيه من الكلام فهي أنك إذا مثلت الشيء بالشيء فإنما تقصد به إثبات الخيال في النفس بصورة المشبه به ، أو بمعناه وذلك أوكد في طرفي الترغيب فيه أو التنفير منه "[٢].

لقد أخرج زهير بن أبي سلمى في تصوير الحرب في الأبيات السابقة ما لا تقع عليه الحاسة بما تقع عليه الحاسة فاستطاع أن ينفر الطرفين المتحاربين من الحرب وذلك عن طريق التشبيه .

وعنترة بن شداد حليم سهل المخالطة إذا لم يهضم حقه لكنه إذا ظلم يعاقب من ظلمه ظلمًا مرًا مثل مرارة العلقم ، ولك أن تتصور مدى إباءه للظلم من خلال هذا التشبيه وهو يقول :

فإذا ظلمت فإن ظلمي باسل	مرٌّ مذاقته كطعم العلقمِ

أما عمرو بن كلثوم فإنه يرى في شرب الخمر فروسية وشجاعة ولذلك هو يقدم لها عن

---

(١) د. عبد القادر الرباعي – الصورة الفنية في النقد الشعري – ص : ٢٥٤.

(٢) ابن الأثير – المثل السائر – ج٢/١٣٠.

طريق التشبيه ما يشبه الدعاية التجارية التي نعرفها في عصرنا الحاضر فيقول :

ألا هـــبي بصـــحنك فاصـــبحينا　　ولا تبقـــي خمـــور الأندريـــنا
مشعشـــعة كـــأن الحـــص فـــيها　　إذا مـــا المـــاء خالطهـــا ســـخينا
كـــأن الشـــهب في الآذان منهـــا　　إذا قـــرعـــوا بحافتهـــا الجبينـــا

أما جزعه وحزنه لفراق أحبته فيبرزه لنا من خلال قوله :

تذكـــرت الصـــبا واشـــتقت لمـــا　　رأيـــت حمـــولها أصـــلاً حديـــنا
وأعرضـــت الـــيمامة واشمخـــرت　　كأســـياف بأيـــدي مصـــلتينا
فمـــا وجـــدت كـــوجدي أم ســـقب　　أضـــلته فـــرجعت الحنيـــنا
ولا شمطـــاء لم يتـــرك شقـــاهـــا　　لهـــا مـــن تسعـــة إلا جنينـــا

فقـــد تذكر أيام الصبا واشتاق إليه حينما رأى ظعائن الأحباب راحلة ، وقد ظهرت اليمامة في عينيه كالسيوف إذا شهرت ولهًا منه على أحبابه فحزن حزنًا يفوق حزن الناقة على ولدها الذي ضل منها أو العجوز التي طالت على أولادها يد الشؤم .

كمـــا أن الإنصـــاف مظهر من مظاهر العدل ، وقد أبرز لنا عمرو بن كلثوم ذلك المظهر الخلقـــي لديه وهو يقدم لنا صورة فنية حسية نرى من خلالها ندية الخصم ومن ثم إنصافه بالاعتراف بتلك الندية هاهو يشبه حركة السيوف التي تعمل في رقاب الخصمين المتحاربين كأنها مخاريق بأيدي اللاعبين وهاهي ثياب الخصمين تبتل بالدماء حتى كأنها خضبت بأرجوان :

كـــأن ســـيوفنا فيـــنا وفـــيهم　　مخاريـــق بأيـــدي لاعبيـــنا
كـــأن ثيابنـــا منـــا ومنهـــم　　خضـــبن بأرجـــوان أو طلينـــا

أما الخلق العفيف المتمثل في ميله الفطري للمرأة العفيفة فيبرز لنا من خلال قوله :

وثديًا مثل حق العـــاج رخصـــاً　　حصـــانًا مـــن أكـــف اللامسيـــنا

أما الحارث بن حلزة فنراه يستخدم التشبيه ليبرز لنا من خلاله صورة من صور الوفاء تتمثل في زيادة الحرقة والجوى برحيل الأحبة عندما أوقدت هند النار بعود البخور فظهرت من بعيد كما يظهر الضوء فلما رآها ازداد حرقة لفراق أحبته :

أوقـــدتها بين العقيـــق فشخصـــين　　بعـــود كمـــا يلـــوح الضيـــاء

كما يصور لنا عزمه وعدم استرساله مع الهم من خلال تلك الناقة التي تشبه النعامة ذات الفراخ وذات الحناء في رجلها وقد أحست صوتًا غريبًا وأخافها القنّاص قرب حلول المساء فأفزعها فأخذت تسرع في سيرها بنشاط وخفة فأثارت بقوائمها الغبار الذي كأنه دخان وقد تركت تلك الناقة آثار أرجلها التي طرقت مرة بعد مرة تفني بها الصحراء :

غير أني قد استعين على الهم	م إذا خف بالثوي النجاءُ
بزفوف كأنها هقلة أم	رئال دوية سقفاء
آنست نبأة وأفزعها القنّاص	عصرًا وقد دنا الإمساء
فترى خلفها من الرجع والوقع	منينًا كأنه إهباءُ
وطراقاً من خلفهن طراق	ساقطات تلوي بها الصحراءُ

ويستثير إعجابنا وعواطفنا أيما استثارة وفاء ذلك الفارس المغوار عنترة بن شداد ونحن نعاود النظر إلى معلقته فنجده يبرز لنا مظهر الوفاء لحبيبته عبلة وإخلاصه لها إلى الدرجة التي يود فيها أن يقبل السيوف في ساحة القتال لأنها لمعت مثل التماع البرق المضيء ، لا في السماء الزرقاء بل على وجه محبوبته عبلة ذات الثغر المشرق :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل	مني وبيض الهند تقطر من دمي
فوددت تقبيل السيوف لأنها	لمعت كبارق ثغرك المتبسمِ

وعبيد بن الأبرص يشبه فرسه في سرعة عدوها بعقاب خفيفة سريعة التلقي لما تطلب تمامها الطيور وتتغير رائحة قلوبها عند وكرها لكثرة صيدها لها ولك أن تستقصي حال المشبه به بنفسك لتصل إلى المظاهر الأخلاقية التي احتواها التشبيه .

ونظرًا أننا أوردنا نماذج كثيرة من التشبيهات في المعلقات العشر فإننا سنكتفي أخيرًا بالوقوف عند أبيات لامرئ القيس يصف البرق وفي ثنايا وصفه يبرز لنا مظهر خلقي عقلي يتمثل في التأمل في محيط الوجود حيث يقول :

أصاح ترى برقًا أريك وميضه	كلمع اليدين في حبي مكلل
يضيء سناه أو مصابيح راهب	أمال السليط بالذبال المفتل

" شبه في البيت الأول وميض البرق في السحاب المتراكم والذي صار لتراكمه كأنه سحاب

مكلل بسحاب بلمع اليدين السريعة المتقلبة ... والحسن في هذا التشبيه فيما بين الطرفين من تباعد والشاعر حين يخفق خياله فيقتنص الأشباه والعلاقات بين الأمور المتباعدة يستحق الفضل كما يقول البلاغيون والتشبيه في البيت الثاني هو الذي أقصده فقد شبه البرق بمصابيح الراهب الذي يرعى زيت فتيله فيظل سناه لامعًا وهذا التشبيه كما قلت يفتح بابًا أو يميله قليلاً لننفذ من خلاله إلى رؤية أبعد ، فهناك مناسبة بين الرهبنة وهي عبادة وتأمل في محيط الوجود ...وبين البرق والسحاب وسوقه فكلها آيات ساطعة يحدق فيها الراهب ، ونفس امرئ القيس في هذين البيتين تشبه نفوس الحنفاء"[1].

ولك أن تقف على تشبيه طرفة بن العبد وهو يبرز لنا نشاطه الجم وذكاءه المتوثب عندما يشبهه برأس الحية في قوله :

أنا الرجل الضرب الذي تعرفونه ... خشاش كرأس الحية المتوقد

ولك أن تسرح بخيالك كما شئت في المشبه به (رأس الحية المتوقد) لتحس من خلاله بمدى نشاط الفتى طرفة بن العبد وذكائه المتوثب .

وقد تجتمع صورتان في البيت الواحد كما نجد ذلك عند طرفة في قوله :

أمون كألواح الإران نسأتها ... على لاحب كأنه ظهر برجد

فالصورة الأولى : صورة الإران التي تشبه ألواح التابوت .

والصورة الثانية : صورة الدروب المتوازية المتقاربة في الصحراء شبهها بالصورة الثانية وهي الرداء المخطط. وفي الصورتين الحسيتين إبراز لمظهر خلقي أراده الشاعر يتمثل في إبراز عزمه ومغامرته في الترحال في أمن وقوة وممارسة . وهناك نوع من الصورة بالتشبيه يستقصي فيه الشاعر صفات كثيرة في المشبه به ، وكل ذلك يكون المراد منه الكشف والإيضاح لصورة المشبه ومن ثم إبراز مظهر خلقي يريد الشاعر إبرازه وقد وجد هذا النوع من التشبيه لدى امرئ القيس والنابغة ولبيد وعبيد بن الأبرص كما سيأتي إيضاحه أثناء حديثنا عن أنواع البناء الفني للصورة عند أولئك الشعراء .

وقد أوردنا كثيرًا من التشبيهات لدى شعراء المعلقات العشر في حديثنا عن مصادر الصورة عندهم ولك أن تعود إلى تلك التشبيهات جميعها لتكشف بنفسك ما وراءها من مظاهر أخلاقية متنوعة .

---

(١) د. محمد محمد أبو موسى – التصوير البياني – ص : ٤٧ .

والـذي نخـرج به من كل ما ورد من كثرة تشبيهات في نصوص المعلقات العشر أنه يجب علينـا ألا نظلم الشعراء فنقتصر في تحليلنا لتلك الصور على القول أن هناك تشبيهًا مؤلفًا من مشبه ومشـبه به وأداة تشبيه ووجه شبه ثم نقف لأننا بذلك نسلب الشعر العربي روحه ، بل يجب علينا أن ننظر إلى ما وراء السطور وما وراء التشبيه ، وكما رأينا فقد استنتجنا من وراء تشبيهات شعراء المعلقـات العشر معاني ومظاهر أخلاقية كثيرة ولا تزال نصوص المعلقات – بالذات – أرضًا خصبة لهذا النوع من الدراسة والتحليل لكننا اكتفينا بإيراد نماذج منها يسيرة لئلا يطول بنا البحث .

٢ – المجـاز

المجـاز اللغوي طريق من طرق البيان العربي وهو " نقل اللفظ من معنى وضع ليدل عليه في الأصـل إلى معنى آخر "[١] إما لعلاقة المشابهة كما في (الاستعارة) وإما لعلاقة غير المشابهة كما في (المجاز المرسل) و" للمجاز خطره في البيان ، فعن طريقه يكتسب التعبير قوة ، والبيان جلاء ، وتظهر الأمـور المعنوية في هيئات الأشياء المحسوسة والجمادات في حركات الأحياء وتصرفاتها "[٢] ناهيك عما يتضمنه المجاز من توكيد للمعنى ، وإثراء للصورة ، وإيجاز للعبارة .

"فلـيس المجـاز إذن مظهـر ترف في الأسلوب ، وإنما هو شعبة من شعب البيان المحكم ، والتصوير المبدع وليس هو حلية لفظية أو عجزًا عن التعبير بالحقيقة ، بل هو قسيم الحقيقة له خطره وشـأنه في البـيان كمـا أن للحقيقة خطرها وشأنها ولكل منهما موضعه الذي لا يسد مسده فيه غـيره"[٣].

إن المجـاز يمـثل استجابة ملحة لموقف الخطاب الذي يحكم التعبير بمقتضياته كما أن القيم والقضايا الأخلاقية من المواقف والموضوعات التي تستوجب ذلك النوع من أنواع الخطاب إذ " إن الموقـف حينما يستدعي اللجوء إلى المجاز فإن هذا المجاز يصبح ضرورة في التعبير ويؤدي في الوقت ذاته القصد من دون تكلف أو تصنع "[٤].

وعندما ننظر إلى نصوص المعلقات العشر فإننا نجد أن شعراءها قد تباينوا في استخدام المجاز

---

(١) د. أحمد بسام ساعي – الصورة بين البلاغة والنقد – ص : ٨٣

(٢) علي سرحان القرشي – الصورة الفنية في شعر بشر بن أبي خازم – ص : ٢٧٢ .

(٣) د. عبد العظيم المطعني – المجاز في اللغة وفي القرآن الكريم بين مجوزيه ومانعيه : ٨٤٩/٢.

(٤) د. عبد الواحد علاّم – قضايا ومواقف في التراث البلاغي – ص : ١٢٠.

بأنــواعه الــثلاثة : الاستعارة ــ المجاز المرسل ــ المجاز العقلي . وإنما يرجع ذلك التباين إلى ما فطر علــيه أولئك الشعراء من قدرة على توظيف كل نوع بما يقوم به من وظائف في التعبير لا يقوم بها سواه ، ومن ثم خرجت أشعارهم مزيجًا من أنواع المجاز .

١ - الاستعارة :

كثــرت الاستعارات في نصوص المعلقات العشر إلى الدرجة التي لا يمكننا الوقوف عند كل معلقة وحصر ما بها من أنواع الاستعارات وذلك لأن " الاستعارة عنصر أصيل من عناصر الشعر ، بــل هي روح الشعر ، لأن الشاعر بفضلها يستطيع أن يقيم علاقات بين الأشياء ، وهذه العلاقات تــزيد جمــال الشــعر بمــا فيها من إيحاء في التصوير ، ودقة في التعبير ، وجدة وطرافة في وسائله وصياغتــــه"[١].

وفي الاســـتعارة تتحول الكلمات عن معانيها المألوفة إلى معانٍ جديدة ، مما يدل على تدرج العقــول المــبدعة والأذواق المتلقية إذ هي " ليست حركة في ألفاظ فارغة من معانيها ، ولا تلاعبًا بكلمات ، وإنما هي إحساس وجداني عميق ، ورؤية قلبية لهذه المشبهات التي تشكلت في الكلمات المستعارة .

الاســـتعارة إدراك مغاير للأشياء يمنحها أوصافًا وأشكالاً وأحوالاً مغايرة ويحدث فيها ضربًا من التأويل الشعري "[٢].

ولسنا الآن بصدد دراسة الاستعارة أو غيرها من أنواع المجاز دراسة بلاغية وإنما نحن بصدد البحث في التعبير الفني عن القيم والأخلاق في نصوص المعلقات العشر من خلال هذه الطرق البيانية باعتبارها من أنماط الصورة الفنية التي وظفها شاعر المعلقة للتعبير عن قيمه وأخلاقه .

فهــذا امــرؤ القيس يوظف الاستعارة في معلقته ليبرز من خلالها ما يريد إبرازه وتصويره تصويرًا حسيًّا من قيمه وأخلاقه .

هــا هــو يســتعير لليل سدولاً يرخيها وهي الستور ، وصلبًا يتمطى به ،و أعجازًا يردفها وكلكلاً ينوء به في قوله :

---

(١) د. أحمد بسام ساعي – الســابق – ص : ٨٥ .

(٢) د. محمد محمد أبو موسى – التصوير البياني – ص : ١٩٦.

وليل كموج البحر أرخى سدوله علـيّ بأنـواع الهمـوم ليبتلـي

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازاً ونـاء بكلكلِ

وامرؤ القيس في تصويره السابق عن طريق الاستعارة يبرز لنا مظهرًا خلقيًا شجاعًا قد يغيب عن أذهان بعض الناس فيذهب إلى أن الشاعر أراد من ذلك التصوير تفاقم الهموم عليه في الليل وهذا وارد لكنه ليس ما يريد الشاعر لأن كل البشر يعلمون أن الليل يكون ثقيلاً على المهموم ولكن الشاعر هنا أراد أن يبرز لنا صورة خفية تتمثل في عزمه الذي تفجر في داخله فلم يعد يطيق الانتظار ، ودليل ذلك أن الشاعر يرى أن الليل عنده مساوٍ للنهار فلو كان غرضه بيان ما يعانيه من الهموم لما قال :

ألا أيها الليـل الطويـل ألا انجل بصبح وما الإصبـاح منك بأمثل

والتمثيل–كما يذكر ابن رشيق[1]– من ضروب الاستعارة في مثل قول امرئ القيس أيضًا :

وما ذرفت عينـاك إلا لتضربي بسهميك في أعشار قلب مقتـل

"فمثل عينيها بسهمي الميسر يعني المعلى وله سبعة أنصباء ، والرقيب وله ثلاثة أنصباء فصار جميع أعشار قلبه للسهمين الذين مثل بهما عينيها ومثل قلبه بأعشار الجزور فتمت له الاستعارة والتمثيل"[2] وإنما أراد من وراء تلك الاستعارة أن يبرز لنا خلقًا شجاعًا يتمثل في اتخاذ القرار الصعب في الموقف الصعب ومفاد صورة الاستعارة في البيت السابق أن تلك الألحاظ من الحبيبة كانت تخاطب نواحي الوفاء في قلبه الذي قد توزع بين عواطف الاحتفاظ بمودتها وعواطف الدوس على هذه العاطفة لصالح القرار الصعب ولذلك نجده بعد ذلك يخوض تجربة مغامرة جديدة مع امرأة أخرى .

وعندما ننظر إلى البناء اللغوي للاستعارة عند شاعر المعلقة نجد أن الصور الاستعارية بنوعيها المكنية والتصريحية ترد على ضروب مختلفة فمنها ما ورد جملة فعلية فعلها ماض كقول امرئ القيس :

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمهـا لما نسجتها من جنـوب وشمـأل

---

(١) ابن رشيق – العمدة ٢٧٧/١ .

(٢) سعد أحمد محمد الحاوي – الصورة الفنية في شعر امرئ القيس – ص : ١٤٣.

أرأيــت كيف جعل الشاعر من تعاقب الرياح على الطلل جنوبًا وشمالاً روح المرأة النساجة التي تجدد ما بلي من نسجها حينًا بعد حين ؟! وفي ذلك انعكاس لتجدد الوفاء الذي يدعيه لمن يحب.

وهــو عندما يحاول أن يبرر لنا شدة مداومته على التلذذ بالمرأة فإنه يقدمها لنا على طريق الاســتعارة في جملــة فعلــية فعلها مضارع بصورة جسدية مغرية حيث بشرها البيضاء التي تضيء الظـــــلام :

تضيء الظلام بالعشــاء كأنهــــا   منـــــارة ممســى راهــب متبتل

وقــد اجتمعت في البيت السابق الاستعارة والتشبيه فوضحت بها الصورة وتجلت .وسأترك لــك الحــرية في معــرفة أسرار بقية الاستعارات في معلقة امرئ القيس – على وجه الخصوص – لتتعرف من خلالها على مقاصد الشاعر الأخلاقية وما أراد أن يبرزه من قيم ومن تلك الأبيات قوله في وصف السيل :

وألقــى بصــحراء الغبــيط بَعَاعَــهُ   نــزول الــيماني ذي العــياب المحمــل

وقوله في وصف الخيل :

على الذبل جيــــاش كــأن اهتزامه   إذا جـــاش فيـــه حميـه غلي مرجل

ومــن الملاحــظ أن الاســتعارات عند امرئ القيس في معلقته أكثر من شعراء المعلقات الآخــرين ولــذلك يقــول مصطفى صادق الرافعي :"ليس يخفى أن العربي الذي يجيء بالاستعارة المتمكــنة إنما كان ينظر فيها ويديرها إدارة بحيث لا تتفق اتفاقًا ولا تجيء عفوًا إلا في النادر ولذلك قــل الجيد منها في كلامهم حتى نزل القرآن ، فتكون من هذه الجهة اختراعًا يدل على قوة غير قوة الفطــرة وهي في امرئ القيس أكثر منها في المأثور من شعر غيره من الجاهلية وأصفى ماءً وأعذب رواءً "[1].

وهــذا القول من الرافعي لا يمنع من وجود الاستعارات عند شعراء المعلقات الآخرين فهذا طرفة بن العبد شخص الشمس بالاستعارة فجعلها في صورة امرأة تلقي رداءها على حبيبته فيقول :

ووجه كأن الشمس ألقت رداءهــــا   عليــه نقــي اللـــون لم يتخــــدد

---

(١)   مصطفى صادق الرافعي – تاريخ آداب العرب – طبعة : دار الكتاب العربي – بيروت – ص : ٣٦ .

ونفســه تجيش إلى صاحبه فيخلصه مما حلّ به من مأزق ، والجيشان صفة يعرفها العرب في غليان الماء في القدر فصور بها طرفة نفسه الجياشة شجاعةً إلى تخليص الصديق بقوله :

وجاشت إليه النفس خــوفًا وخـــاله   مصابًا ولو أمسى على غير مرصـــــــد

وعنتــرة بــن شــداد يستقي استعاراته من قاموسه وبيئته كبقية الشعراء الجاهليين فهاهو يستعرض بطولاته أمام عبلة فيصور قوة فرسه وشجاعة فارسه بقوله :

طورًا يجرد للطعان وتـــــــــارة   يأوي إلى حصد القســي عرمـــرم

فقوله :"حصد القسي" استعارة مكنية جعل من خلالها الأقواس سهلة التكسير للتأكيد على قوة الفرس وشجاعة الفارس .

وقــبل البيت السابق يشخص عنترة بطريق الاستعارة المكنية فرسه فيجعله يسبح مسرعًا في سهولة وانسياب فيقول :

إذ لا أزال على رحــالة سابـــــح   نهـــــــد تعاوره الكمـــاة مكلـّم

وفي قوله :

يخبرك من شهد الوقيعـــة أنـــــني   أغشى الوغى وأعف عنـــد المغنـــم

فقوله :" أغشى الوغى "استعارة مكنية عبر فيها بأصوات أهل الحرب بدلاً من الحرب ، ولا ننسى أنه ألبس فرسه صفة الإنسانية في قوله " يخبرك " .

وبالاستعارة أيضًا نرى عنترة يستعير مد اليد بالعطاء لمد اليد بالضرب وهو يقول :

جـــــادت يداي له بعاجل طعنة   بمثقف صـــــدق الكعـــــوب مقـــوم

ولك أن تتصور صورة الحرب وعنترة يقدمها لك على طريق الاستعارة المكنية في صورة آلة تدور على الإنسان حيث يقول :

ولقد خشيـــت بأن أموت ولم تـــدر   للحـــــرب دائرة على ابني ضمضـــم

وزهير بن أبي سلمى داعية سلام ولذلك جعل بطريق الاستعارة مئات الإبل التي دُفعت دية في القتلى من القبيلتين المتناحرتين علاجًا شافيًا تمحى به الجروح حيث يقول :

تعفـــى الكلـــوم بالمـــئين فأصـــبحت يـــنجمها مـــن لـــيس فـــيها بمجـــرم

وفي قوله :

فأصبح يــجري فيهــم مــن تلادكــم معــانم شــتى مــن إفــال مــزنــم

فما قدمه الرجلان الكريمان من ديات أخذت صفة الجريان الدائم النفع على الطرفين .

ويحــذر زهــير من الحرب فيصورها على طريق الاستعارة (فتنتج ...) والتشبيه في صورة امرأة ولود لكنها لا تلد إلا شؤمًا :

فتنــتج لكــم غلمــان أشـــأم كلهم كأحمـــر عـــاد ثم ترضـــع فـــتفطم

وقوله :

لدى أسد شاكي الســـلاح مقــذف له لبـــد أظفـــاره لم تقلـــم

صورة على طريق الاستعارة (أسد) يبرز فيها زهير إقدام الجيش المدجج بالسلاح .

وفي قوله :

رعوا ظمـــأهم حـــتى إذا تم أوردوا غمارًا تسيـــل بالســـلاح وبالـــــدم

فقوله " رعوا ظمأهم .. أوردوا غمارًا " استعارة لا تخفى حيث أراد هنا (الحرب)

ولبيد يستعير (القطع) ليبرز لنا حزمه وعدم انسياقه وراء العواطف فيقول :

فاقطع لبانـــة من تعرض وصـــــله ولشـــر واصـــــل خلة صرّامها

كمـــا يصور لنا لبيد كرمه في أحلك الظروف حيث لا يبقى على الكرم إلا من كانت تلك الظاهرة الخلقية الشجاعة طبعًا فيه فيستعير لريح الشمال ذات البرد القارس يدًا على سبيل التشبيه البعيد حيث استعار للشيء ما ليس له على سبيل الاستعارة التخييلية[1] فيقول :

وغداة ريح قد وزعـــت وقـــــرة قد أصبحت بيد الشمـــــال زمامهـــا

أما النابغة فتتوالى عنده الاستعارات "يا دار مية " و" أسائلها ... عيت جوابًا " وفي كل هذا

(١) عبد المتعال الصعيدي – بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة – ص : ١٣٨.

إحياء منه الوفاء للأحبة وشدة التعلق بهم حيث يقول :

يـــا دار مـــية بالعلـــياء فالســـند أقوت وطال عليهـــا ســـالف الأبد
وقفت فيهـــا أُصيـــلانًا أسائلهـــــا عيت جوابًا ، وما بالربع مـــن أحـــد

" أمـــا الاستعارة المبتكرة ففي جعله صعوبة الحفر في الأرض ظلمًا لها ، حتى قيل إن النابغة أول من أعطى هذا الاسم أو الوصف للأرض "[1] حيث يقول :

إلا الأواري لأيًا مـــا أبينهـــــــا والنـــــؤي كالحوض بالمظلومة الجلدِ

والأعشى يبرز لنا على طريق الاستعارة جملة من جوانب جمال هريرة فكسلها يكاد يصرعها والروضة التي ليست بأطيب من هريرة يضاحك زهرها شمسها وكل هذا واضح في قوله :

يكـــاد يصـــرعها لـــولا تشـــددها إذا تقـــوم إلى جاراتهـــا الكســـل
يضـــاحك الشمس منها كوكب شرق مـــؤزر بعمـــيم النـــبت مكـــتهل

كما جعل من الشوق والفتوة (الصبا) ملازمًا له لا يفارقه على طريق الاستعارة أيضًا ليبرز لنا من خلالها جرأته الممقوتة وجريه وراء فتوته وشبابه فيقول :

وقـــد أقـــود الصـــبا يـــومًا فيتـــبعني وقـــد يصـــاحبني ذو الشـــرة الغـــزل

أمـــا عمـــرو بن كلثوم فنراه يبرز لنا إقدامه وقومه في الحرب وهو يصور بالاستعارة المكنية الرايات بالإبل وأيام العزة والنصر بالخيل فيقول :

بأنـــا نـــورد الـــرايات بيضًـــا ونصـــدرهن حمـــرًا قـــد رويـــنا
وأيـــام لـــنا غـــر طـــوال عصـــينا الملـــك فـــيها أن نديـــنا

كما استعار الرحى للحرب (استعارة تصريحية) والطحين للقتلى والثفال للمعركة واللهوة للقتلى وكلها صور مستوحاة من بيئة الشاعر وظفها لإبراز قيم القوم وأخلاقهم من إقدام وشجاعة ونكاية في الأعداء وغير ذلك حيث يقول :

مـــتى نـــنقل إلى قـــوم رحانـــا يكونـــوا في اللقـــاء لهـــا طحيـــنا
يكـــون ثفـــالـــها شـــرقـــي نـــجد ولهـــوتهـــا قضـــاعـــة أجمعيـــنا

---

(١) د. السيد محمد الديب – دراسات في الأدب الجاهلي – ص : ٦٨ .

وقـــد تضافرت الاستعارات السابقة مع غيرها من الصور الخيالية مع الألفاظ الموحية لدى عمرو بن كلثوم وغيره من شعراء المعلقات العشر فبرزت من خلالها قيمهم وأخلاقهم شاخصة أمام عين المتفكر في تلك الأشعار الرائعة .

فهـــذا الحارث بن حلزة وهو يبوح بألم فراق أحبابه يصور على طريق الاستعارة (الثواء) بصورة إنسان تُمل إقامته فيقول :

آذنتنـــــــا ببينهـــــا أســــــماء رب ثـــــاوٍ يُمـــــل منـــه الثـــواءُ

كما أن عزة الحارث وقومه ترفعهم عن البغضاء :

فبقينـــــا علـــــى الشنـــاءة تنمينـــا حصـــــون وعــــــزة قعســـــاء

وأخيرًا نقف مع عبيد بن الأبرص الذي غلبت التشبيهات في معلقته على الاستعارات لكنه لما كانـــت "الاســـتعارة أمعـــن في الخـــيال من التشبيه"[١] "لأنها تطمس الأشياء طمسًا وتستبدل بها أشباههــــا" [٢].

"وقد جاءت في شعره مطبوعة بلغ بها المعنى غايته ، فقد دل على تمام الخراب وتأبده في الديار وذهـــاب أهلها إلى غير رجعة – بالاستعارة الغريبة في قوله : (بدلت من أهلها وحوشًا) – فطروء الوحـــوش في الخربات لا يقطع بتأبد خرابها ، ولكنه دل عليه بقوله (بدلت) حيث يقضي التبديل بزوال المبدل والتعوض منه بالبدل "[٣].

وفي رأيـــي أن عبـــيدًا قد نجح في استخدام مثل هذا النوع من الاستعارات ليبرز للمتلقي من خلالـــه مظهـــرًا خلقيًا يتمثل في الوفاء من الشاعر لأحبابه إلى الدرجة التي يرى فيها المكان بدونهم وجـــودا بـــلا هوية وقفرًا لا يسكنه إلا الوحوش الرامزة إلى خلو المكان ووحشته ، وما تعكسه لنا صورة ذلك المكان الموحش من اضطراب نفسي عاشه عبيد ما بين وجود وفناء وشباب وشيخوخة.

٢ – المجـــاز المرسل :

كـــثيرًا ما كان يحتاج إليه الشاعر العربي الجاهلي عندما يريد التوسع في اللغة ، والقوة في البيان ، والإيجاز في العبارة أو عندما يريد المبالغة أو التنويع في أساليبه . كما يتمثل أثر المجاز المرسل في إبراز حقيقة معينة ، والكشف عن رؤية الشاعر الخاصة .

---

(١) د. أحمد عبد الواحد – عبيد بن الأبرص حياته وشعره – ص : ١٤٩.

(٢) تشارلتن – فنون الأدب – ترجمة الدكتور / زكي نجيب محمود – ص : ٨٢ .

(٣) د. أحمد عبد الواحد – الســـــابق – ص : ١٥٠.

وإنما سمي مرسلاً لأنه غير مقيد بعلاقة واحدة كما هو الحال في الاستعارة المقيدة بعلاقة التشبيه .

ونظرًا لتعدد العلاقات فيه نجد " أن أغلب نماذج المجاز المرسل لا يكاد القارئ يفطن إلى مجازيتها بسبب شدة الألفة لها والاعتياد عليها أو للارتباط الوثيق الذي يبلغ حد التلاحم في بعضها، ولذا يبدو التعبير بهذا المجاز في أكثر الأحيان تعبيرًا طبيعيًا على الألسنة دون أن يجد السامع حاجة إلى التأويل ، بل إن تأويلاتهم لا تتفق ودلالة اللفظ ، وقد أصاب بعض اللغويين والبلاغيين العرب حين وصفوه بأنه توسع في اللغة مما يعني أنه في حقيقة أمره عملية لغوية "(١).

ونحن عندما ننظر إلى نصوص المعلقات العشر نجد أن شاعر المعلقة وظف هذا النوع من المجاز اللغوي وهو يعبر عن قيمه وقضاياه الأخلاقية ، فهذا امرؤ القيس يبرز لنا تعلق الفارس بفرسه كمظهر من مظاهر النبل والشجاعة ففرسه يبات بحيث يراه فهو غير مرسل إلى المرعى حيث يقول :

فبات عليه سرجه ولجامه — وبات بعيني قائمًا غير مرسلِ

فقوله : (بات بعيني) مجاز مرسل علاقته (الآلية) حيث عبر بالعين آلة البصر عن الرؤية ، و ما ذاك إلا إبراز منه لمظهر خلقي يحبه وهو إعزاز الفرس والتعلق به أشد التعلق .

وعندما يريد امرؤ القيس أن يبرز لنا شجاعته وضمان انتصاره فإنه يلقي بظلال شعوره ذلك على منظر طبيعي محسوس يعرفه جميع الناس وذلك المنظر هو (السيل) الجارف لكل ما يصادفه أمامه وعن طريق المجاز المرسل وعلاقته (الكلية) يبرز لنا الشاعر ذلك المظهر الشجاع فيقول :

وألقى بصحراء الغبيط بعاعه — نزول اليماني ذي العياب المحمل

فقوله (ألقى بصحراء) مجاز مرسل علاقته الكلية ومن خلال هذه العلاقة تدرك مدى قوة السيل الذي ألقى بكل ثقله على كل صحراء الغبيط ، ثم أراد أن يبرز مظهرًا خلقيا آخر ذا علاقة بضمان الانتصار (وذلك المظهر هو الأمل والبشر) عن طريق تشبيه نزول المطر بنزول التاجر اليماني صاحب الأعدال المملوءة ثيابًا وبزًا الذي يلقي بها دفعة واحدة على الأرض ثم يأخذ في عرضها على المشترين وهي مختلفة الألوان .

---

(١) د. شفيع السيديري – التعبير البياني – ص : ٩٤.

أمـــا طرفة بن العبد فيظهر لنا على ناقته الضخمة التي تربعت القفين ورعت حدائقهما ، ومن المعلـــوم أن الناقة مهما كانت ضخامتها فلن تتربع على كلا القفين ولن ترعى كل حدائقه ، ولكن طـــرفة عبر بالكل عن الجزء هنا ليبرز لنا عظم ناقته ومن ثم عظم وشجاعة وعزم من يمتطي ظهرها فكان له ما أراد عن طريق استخدامه المجاز المرسل بعلاقته الكلية .

تربعت القفين في الشول ترتعـــــــي حدائق مولي الأسرة أغيـــــــد

وها هو عنترة بن شداد يبرز لنا مظهرًا خلقيًا شجاعًا يتمثل في نكايته بعدوه محاولاً إبراز تلك الـــنكاية في صورة محسوسة على طريق المجاز المرسل بعلاقته المحلية في قوله "ثيابه " وأراد ما يحل في ثيابه ، أي جسمه ، وعلاقة المجاورة في قوله " فشككت بالرمح " وكل هذا في بيت واحد :

فشككـــــت بالرمـــــح الأصم ثيابه لـــــيس الكـــــريم على القنا بمحرم

وزهـــير بـــن أبي ســـلمى يفرض عليه خلقه النبيل المتمثل في حب السلام أن يقدم للطرفين المتخاصـــمين عـــبس وذبـــيان مساوئ الحرب المستقبلية وانعكاساتها على أبناء القبيلتين المتحاربتين فيوظف لذلك المجاز المرسل بعلاقته (اعتبار ما سيكون) بقوله :

فتنتـــج لكـــم غلمـــان أشـــأم كلهم كأحـــمر عـــــاد ثم ترضـــــع فتفطـــم

وهذا لا يخفى عليك في قوله " غلمان " .

أمـــا لبيد بن ربيعة فيستعمل المجاز المرسل بعلاقته " المحلية " ليبرز لنا شجاعته وعزمه وقدرته على حماية قبيلته وأهل حيه حيث عبر بالحي عن أهل الحي فقال :

ولقد حميت الحي تحمـــــل شكـــــتي فرط وشاحـــي إذ غـــدوت لجـــامهـــا

وعندما نأتي إلى عمرو بن كلثوم في معلقته نجده يعبر بالمجاز المرسل بعلاقته " السببية " وهو في قمة ثورته وانفعاله مفتخرًا ومهددًا حيث يقول :

ألا لا يجـهـــلـــــن أحــــد علينـــــا فنجهـــل فـتـــوق جهـــــل الجاهـــلينـــا

فعمرو بن كلثوم "عبر بقوله " فنجهل " عن جزاء الجهل عليهم لأنه سببه ، وفي هذا التعبير إشارة حاسمة من الشاعر إلى أن الجهل عليهم إنما هو جهل على جهل ، لأن الجزاء لا يتخلف بل إنه سيجد عندهم جهلاً فوق الجهل والشاعر هنا يتخطى حدود العدل "[1].

---

(١) د. محمد محمد أبو موسى – التصوير البياني – ص : ٣٥٨ .

والـــنابغة يبرز لنا خلقه العقلي المتمثل في القيام بالحجة وكبت الحساد بشتى الصور التي كان منها اللجوء للقسم كسبيل إقناع مهم لرفع التهم عنه أمام الملك النعمان بقوله :

فــلا لعمـــرو الـــذي مســـحتُ كعبته ومـــا هـــريق علـــى الأنصاب من جسد
ما قلت مـــن ســـيئ ممـــا أُتيـــت بـــه إذًا فلا رفعـــت سوطـــي إليّ يـــدي

ومعلوم أن المسح لا يكون لعموم الكعبة وإنما لأركانها ولكن الشاعر هنا عبر بالمجاز المرسل وعلاقته "الكلية" .

٣ - المجـــــاز العقلي :

والعقلي من المجاز هو " إسناد الفعل أو معناه إلى غير ما هو له عند المتكلم في الظاهر لعلاقة مع قرينة صارفة عن أن يكون الإسناد إلى ما هو له "[١] و" الأصل في تسميته يعود إلى أن المجاز هنا لـــيس في اللفظ نفسه كالاستعارة والمجاز المرسل ، بل في الإسناد أ ي في العلاقة بين المسند والمسند إلـــيه وهي تدرك بالعقل "[٢] ومن بعض نماذج هذا النوع من المجاز في نصوص المعلقات العشر قول طرفة بن العبد :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهـــلاً ويأتيـــك بالأخبـــار من لم تـــزود

مجاز عقلي علاقته الزمانية حيث أسند الإبداء إلى الأيام بينما هو في الحقيقة لما في الأيام من أحداث .

والحارث بن حلزة يعبر بالمجاز العقلي في قوله :

وأتانـــا عـــــن الأراقـــم أنبـــا ءٌ وخطـــــب نعـــنى بها ونســـاء

فأســـند الفعل " أتى " إلى " أنباء " ليبرز لنا من خلال ذلك الإسناد مدى خطورة تلك الأنباء وتفشـــيها بـــين الـــناس وحذف " حامل النبأ " ليظهر من خلال ذلك الإسناد العقلي مدى جهل خصومه وتجنيهم.

وعبيد بن الأبرص يبرز لنا خلقه العقلي المتمثل في التسليم بحتمية الفناء والموت بالمجاز العقلي حيث يجعل من (شعوب : اسم للمنية) وارثًا لأرض أهله وأحبابه فيقول :

أرض توارثهـــــا شعـــوب فكـــل من حـــلها مـــــحروب

---

(١) د. بدوي طبانة – معجم البلاغة العربية – المجلد الثاني – ص : ٥٦٢.

(٢) د. أحمد بسام ساعي – الصورة بين البلاغة والنقد – ص : ١٠٤-١٠٥.

وفي قول الحارث بن حلزة :

فبقينا على الشنـــــــــاءة تنميـــ ـــنا حصـــــــون وعزة قعســـــاء

فالشـــاعر عندما أسند الفعل " تنمي بمعنى : ترفعنا " إلى الحصون والعزة القعساء أسند الفعل إلى غـــير ما هو له في أصل اللغة على سبيل المجاز العقلي لإبراز مظهر خلقي يتمثل في صبره وقومه على البغضاء لعلو همتهم وإبائهم وشممهم .

وهو عندما أراد أن يظهر النصح والإخلاص لعمرو بن هند ليكسب وده ذكره بتلك القرابة الـــتي تربطه بالبكريين وتوجب عليهم النصح والإخلاص له فأسند الفعل " يخرج " إليها على سبيل المجاز العقلي أيضًا فقال :

وولـــدنا عمـــرو بـــن أم أنـــاس مـــن قـــريب لمـــا أتانـــا الحـــباء

مثلهـــا يـــخرج النصيحـــة للقـــو مِ فـــلاة مـــن دونهـــا أفـــلاءُ

وواضـــح مـــن خـــلال ما تقدم من أمثلة أن المجاز العقلي إنما يكون في الجملة لاعتماده على الإسناد .

يقـــول عـــبد القاهـــر الجرجاني :"ومتى وصفنا بالمجاز الجملة من الكلام كان مجازًا من طريق المعقـــول دون اللغـــة ، وذلك أن الأوصاف اللاحقة للجمل من حيث هي جمل لا يصح ردها إلى اللغـــــة"[١] فالقرابة في بيت الحارث السابق لا تخرج النصيحة وإنما القوم هم الذين يخرجونها فيما تحتم عليهم صلة القرابة بالملك .

"وإنمـــا سمـــي المجـــاز العقلي مجازًا لالتقائه بالمجاز اللغوي حول مبدأ الانحراف ، واللاملاءمة الإسنادية التي هي ميزة كل مجاز"[٢].

يقول امرؤ القيس مبرزًا لنا شجاعته في طرفها المرذول المتمثل في الاستحلال والتهور :

فلما أجزنا ساحة الحـــي وانتحـــى بنـــا بطـــن خـــبت ذي قفاف عقنقـــل

فقوله " انتحى " فعل أسند إلى ما ليس له " بطن خبت " مجاز عقلي لا يخفى .

---

(١) الجرجاني – أسرار البلاغة – ص : ٣٥٥ .

(٢) د.صبحي البستاني – الصورة الشعرية في الكتابة الفنية – ص : ١٤٧.

وطرفة بن العبد يسند لبس الثوب والجواهر إلى الغزال رامزًا به لحبيبته خولة فيقول :

وفي الحي أحوى ينفض المـــرد شـــادن مظـــاهر سمطـــي لـــؤلـــؤ وزبرجـــــد

كما أن شجاعته وجرأته وصدقه وعراقة أصله كلها محامد أبعدت عنه الأعادي :

ولكن نفى عـــني الأعـــادي جـــرأتي عليهـــم وإقدامي وصدقي ومحتـــــدي

أما عنترة فيصل به وفاءه لأحبابه وولهه على فراقهم إلى درجة استنطاق الديار حيث يقول :

يـــا دار عبلـــة بالـــجواء تكلمـــــي وعمـــي صباحًا دار عبـــلة واسلمـــــي

ولا يخفى على ذي لب ما للمجاز العقلي من أثر وبلاغة في التعبير حيث الإيجاز في العبارة ، والمهـــارة والتركيز في اختيار العلاقة أيًا كان نوعها مما يؤكد أن هذا "الضرب من المجاز على حدته كـــز من كنوز البلاغة ومادة الشاعر المفلق والكاتب البليغ في الإبداع والإحسان ، والاتساع في طرق البيان وأن يجيء بالكلام مطبوعًا مصنوعًا ، وأن يضعه بعيد المرام ، قريبًا من الأفهام "[1].

فأنـــت عندما تقرأ قول لبيد الذي حتم عليه شعوره بالانتماء (مظهر عقلي) الوقوف على أطلال الأحباب والدعاء لها تجده يستعمل المجاز العقلي في نقل صورة حية للمطر الذي أصاب به اللهُ تلـــك الديار فأسند الإصابة للمطر وجعل من المطر والسحاب الآتي به الله غُدُوًّا يلبس آفاق السماء بكثافـــته وتراكم ظلامه ، أما مطر السحابة التي تأتي عشية فكأن أصوات رعودها تتجاوب ، وبهذا يكون لبيد نقل لنا لوحة حية للمطر وآثاره رائعة :

رزقـــت مـــرابيع الـــنجوم وصـــابها ودق الـــرواعد جـــودها فـــرهامها

مـــن كـــل ســـارية وغـــادٍ مـــدجنٍ وعشـــــية مـــــتجاوب إرزامهـــــا

فعـــلا فـــروع الأيهقـــان وأطفلـــت بالجلهـــــتين ظـــــباؤها ونعامهـــــا

وجلا السيـــول عن الطلـــــول كأنهـــا زبـــر تجـــد متـــونهـــــا أقلامهـــا

ولا يخفى عليك أيضًا ما لاستعمال المجاز العقلي في قوله :" تجد متونها أقلامها " وما في إسناد الفعـــل "تجد" إلى " أقلامها " من إيجاز في العبارة ومهارة في التركيز وبعث للحركة في الأقلام بحذف فاعل الكتابة الحقيقي إذ أصل العبارة (زبر تجدد الكتبةُ بالأقلام متونها) .

---

(١) الجرجاني – دلائل الإعجاز – ص : ٢٩٥ .

وبمـــا أن المجـــاز العقلـــي إسناد الفعل إلى ما ليس له في أصل اللغة كما مر معنا فإننا نرى أن شعراء المعلقات العشر استعملوه كثيرًا لإبراز قيمهم وأخلاقهم ولذلك فإن الوقوف على كل مجاز عقلي في نصوص المعلقات العشر يوجب علينا بحثًا خاصًا .

٣ - الكنـــاية

أنعـــم الله علـــى الإنســـان العربي منذ العصر الجاهلي بطرق تعبير مختلفة يعبر بها عن المعنى الـــواحد حـــيث تعددت لديه طرق التعبير ما بين التعبير بالحقيقة أو المجاز أو التعبير بما نحن بصدد الحـــديث عـــنه الآن وأعنى بذلك الكناية والتي قال عنها ابن الأثير :" واعلم بأن الكناية مشتقة من الســـتر ، يقـــال : كنـــيت الشيء إذا سترته ، وأُجري هذا الحكم في الألفاظ التي يستر فيها المجاز بالحقـــيقة ، فـــتكون دالة على الساتر وعلى المستور معًا ... وإذا كان الأمر كذلك فحد الكناية الجامع لها هو أنها كل لفظة دلت على معنى يجوز حمله على جانبي الحقيقة والمجاز . والدليل على ذلك أن الكـــناية في أصل الوضع أن تتكلم بشيء وتريد غيره – يقال : كنيت بكذا وكذا – فهي تدل على ما تكلمت به وعلى ما أوردته في غيره "[١].

ونخـــرج مـــن كلام ابن الأثير السابق بأن الكناية لفظ اُستعمل في غير معناه الأصلي الذي وضع له مع جواز إرادة المعنى الأصلي .

وتـــبرز القيمة الفنية للكناية في كونها تصور لنا المعاني في صور محسوسة ملموسة ، كما أنها طـــريق مـــن طرق الإيجاز والاختصار ، وكذلك هي وسيلة للإقناع حيث تقدم لنا المعاني مؤكدة بدليلها والكناية أسلوب مهذب يزيد على المجاز بخاصتين أخريين هما [٢] :

أ – ســـتر المعنى : " وكل تستر هو ميزة فنية طالما كل تصريح أو وضوح هو ميزة علمية وبهذا المعـــنى يقـــول مللرميه : أن نسمي الشيء باسمه ، يعني ذلك حذف ثلاثة أرباع من نشوة القصيدة ، هذه النشوة التي تقوم على غبطة الاكتشاف شيئًا فشيئًا والإيحاء وهذا هو الحلم كله "[٣].

ب – التعـــبير مـــن خلال الصورة : " إن شكل الجملة الذي تتخذه الكناية في التعبير يجعل المعنى الـــثاني المكـــنى عـــنه مختفيًا وراء صورة لا تصل إليه إلا من خلالها ، وكل تعبير من خلال

---

(١) ابن الأثير – المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر – ج٣/ ٥٢-٥٣ .

(٢) د. صبحي البستاني – الصورة الشعرية في الكتابة الفنية – ص : ١٦٨.

(٣) السابق – ص : ١٦٨ .

الصـــورة هو بحد ذاته أبلغ وأجمل من التعبير المباشر "[١] وهذه الخاصية للكناية هي ما أطلق عليه عبد القاهر الجرجاني وهو يحلل عملية إدراك المعنى المقصود من صورة الكناية " معنى المعـــنى " حيث يقول :" وإذا عرفت هذه الجملة فههنا عبارة مختصرة وهي أن تقول المعنى ومعـــنى المعنى ، تعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة ، ومعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر "[٢].

والكـــناية عـــند الجـــاحظ أسلوب تقتضيه الضرورة فهو عنده أبلغ من التصريح إذا كان التصريح لا يحسن أو كان متعذرًا ، والتصريح أبلغ إذا كانت الكناية لا تفي بالغرض حيث يقول : "وقـــال بعض أهل الهند ... ومن البصر بالحجة ، والمعرفة بمواضع الفرصة أن تدع الإفصاح بها إلى الكـــناية عـــنها ، إذا كان الإفصاح أوعر طريقة "[٣] وقول الجاحظ السابق يؤكد ما ذهبنا إليه في دراســـتنا الموضـــوعية عندما قلنا : إن الشاعر قد يكني لاسم حبيبته الصريح باسم يأتي به من عنده مخافة أهل أو قبيلة تلك المرأة لأنه يعرف مدى غيرة العربي على عرضه ، وحرص المرأة العربية على الستر والحياء وعدم الفضيحة ، ويؤكد ذلك قول محمد بن نمير الثقفي :

وقد أرسلت في السر أن قد فضحتـــني ... وقد بحتَ باسمي في النسيب وما تكني[٤]

وقول النابغة الجعدي [٥] :

أكني بغير اسمهـــا وقـــد علـــم ... الله خفيـــات كـــل مكتتـــم

ونحـــن عـــندما ندرس الكناية من خلال نصوص المعلقات العشر لا ندرسها دراسة بلاغية بتقسيماها وأغراضها وإنما ندرسها كنمط من أنماط التعبير الفني عن القيم والأخلاق وبهذا تكون " الكـــناية شـــأنها شأن الرمزية من حيث الوضوح والغموض ، ومرجع ذلك ما تنطوي عليه الرموز اللغـــوية مـــن المعاني ومدى ما هناك من صلة بين الرمز ومدلوله وهي على كل حال لون من ألوان التعـــبير يجمـــل في موضـــعه ويبعث على التفكير وإعمال الذهن ، وقد تكون وسيلة للابتعاد عن التصريح بما ينبغي ستره "[٦].

---

(١) السابق – ص : ١٦٩ .

(٢) عبد القاهر الجرجاني – دلائل الإعجاز – ص : ١٧١ .

(٣) الجاحظ – البيان والتبيين : ج١/٢٦٣ .

(٤) المبرد – الكامل في اللغة والأدب : ج٢/٥ .

(٥) الســـــابق : ج٢/٥ .

(٦) محمد الحسن علي الأمين أحمد – الكناية . أساليبها ومواقعها في الشعر الجاهلي – ص : ٥٧.

وقد مال شعراء المعلقات العشر إلى التعبير الذي يحمل الصورة التي يريدونها ودلالتها اللزومية لا معناها الظاهر مما يشير إلى أنهم حين جمعوا مواد هذه الصورة ووصلوا بينها في علاقات معهودة للمتلقي إنما أرادوا بذلك انتقال الذهن من هذه الحال المحسوسة والمشاهدة إلى دلالتها على ما تتضمنه من معانٍ مما يؤدي إلى تيقظ فكر المتلقي وقدرته على التحليل .

وسنعرض فيما يلي نماذج لأسلوب الكناية لدى شعراء المعلقات العشر في معلقاتهم لنرى مدى تعبيراتهم الفنية بأسلوب الكناية عن قيمهم وأخلاقهم .

هذا امرؤ القيس يبرز لنا مظهرًا عقليًا (ثقابة المعرفة) وهو يصف فرسه بالسرعة فيقول :

وقد أغتدي والطير في وكناتها　　　بمنجرد قيد الأوابد هيكلِ

فلم يتكلم باللفظ بعينه وإنما قدم ذلك الوصف بأسلوب الكناية فسرعة الفرس يتبعها أن تكون الأوابد وهي الوحوش كالمقيدة له إذا نحا في طلبها ، وبأسلوب الكناية أيضًا يبرز لنا الشاعر أن من ثقابة معرفته التبكير في الخروج إلى الصيد فيكني عن تلك الصورة الخلقية العقلية لديه بقوله " وقد أغتدي والطير في وكناتها " كناية عن التبكير ، واجتمع له مع ما سبق إبراز مظهر شجاع آخر هو العزم وفرط النشاط عند الخروج إلى الصيد .

وهو عندما تدفعه نفسه إلى مزاولة عشق النساء والتلذذ بهن يحاول عن طريق الكناية أن يقدم مبررات عقلية (في نظره) تجوِّز له الدوام على مزاولة ذلك المظهر الذميم فيقول :

ويضحي فتيت المسك فوق فراشها　　　نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضلِ

والكناية هنا لا تفيد فقط صفة الترف ، وأنها مخدومة ، وإنما تفيد أيضًا " دقة البشرة ، واقتبال الشباب ، وكثرة الحظوة .. وعظم الثروة .. وأنها غير شظفة ولا ممتهنة ويستشف من قوله " وتضحي فتيت المسك فوق فراشها " أنها حظية عند الرجال المثرين ، وأنهم في غاية الميل إليها ، ومع القدرة بالثروة على الاستكثار من حرائر النساء ، ومن الإماء إما لإفراط جمالها ، أو لسعد جدها ، وأنه مما يسمح له بأغلى الطيب وأعلاه بما يبقى فتيته في صبيحة كل ليلة على فراشها بعدما يتصعد منه ويلصق بجسمها ، وما يعلق بشعرها وبشرتها .. وينتقل إلى أفق ثانٍ يلتقط فيه دلالات حول التعبير ، فيرى أن فيها غير ما ذكر دلالة على كثرة النوم الذي لا يكون إلا من غلبة الدم الطبيعي في سن النمو وطبيعة الدم حارة رطبة ، وهي طبع الحياة ومادتها ، فيكون اللون به مشرقًا ،

والمـاء في الوجه كثيرًا ، والأخلاق حسنة ، لأجل اعتدال المزاج ولو ترك لفظ الإرداف ،وعبر عما قصده باللفظ الخاص ، وهو قوله : إنها مخدومة لم تحصل هذه المعاني التي حصلت بلفظ الإرداف"[1].

وعــندما أراد أن يـبرز لنا خلقه – الذي يراه قمةً في الشجاعة – و المتمثل في (الاستحلال والـتهور) حيث الدخول على امرأة بيضاء مكنونة لا تبرز للشمس ولا تظهر للناس ولا يصل إليها أحد لعزها وصيانتها إلا شجاع كامرئ القيس (في نظره) نجده يستعمل أسلوب الكناية فيقول :

وبيضـــة خـــدر لا يـــرام خـــباؤها ... تمـتعت مـن لهـو بهـا غـير معجـل
تجاوزت أحــراســاً إليهـــا ومعشرًا ... عليَّ حراصـاً لـو يسـرّون مقتلـي

أما طرفة فيكني عن (إجابة الصريخ) كمظهر شجاع لديه بقوله :

إذا القوم قالوا : من فتى ؟ خلت أنـني ... عنيـت فلـم أجـزع ولـم أتبـلد

ويكني لمد يد العون لكل محتاج بقوله :

ولســت بحلال التــلاع مــخافــة ... ولكن مـتى يستـرفـد القوم أرفـدِ

" ومــن أبنية الكناية ما جاء في صفة الذكاء ، وخفة الحركة ، وذلك لأن مجتمع العرب كان مجـتمعًا يـتطلب حـركة دائمـة دون استقرار ولهذا كانت صفات الخفة والنشاط من الصفات الممدوحة، وهي من معالم الذكاء ، وتوقد الذهن ولهذا وجدنا (طرفة) يشير إلى هذا بقوله :

أنا الرجـل الضرب الذي تعرفونـه ... خشـــاش كــرأس الحيـــة المتوقد

هــنا يكني (طرفة) عن خفته وذكائه ونشاطه (أنا الرجل الضرب) الخفيف اللحم والحاد الذكاء (خشاش) أي خفيف الحركة نشط ، ثم لم يكتف بهذه الكناية ولكنه استعان بالتشبيه لتأكيد الصــورة وترسيخها (كرأس الحية المتوقد) فإن سرعة رأس الحية وخفته ويقضته جعل منها تشبيهًا لحاله "[2].

ونســتنتج من هذا أن شاعر المعلقة قد يجمع بين أكثر من أسلوب فني ويكون هدفه من وراء ذلك تأكيد الصورة وترسيخها وإبرازها في المحسوسات .

---

(١) د. محمد أبو موسى – التصوير البياني .. – ص : ٣٨٣-٣٨٤ .

(٢) محمد الحسن الأمين – الكناية أساليبها ومواقعها في الشعر الجاهلي – ص: ١٧١.

أما عنترة بن شداد فنجده حين يفتخر بعنفه وشجاعته وقناعة نفسه ورفعه من شأن خصمه يستعين بالكناية ليبرز لنا من خلالها تلك المظاهر الأخلاقية الرائعة فخصمه شجاع مقدام (كره الكماة نزاله لا ممعنًا هربًا ولا مستسلم) كما أنه (حليل غانية) لا مجرد غلام مارق ، أما الجيش الذي يخوض عنترة غماره فهو (حصد القسي عرمرم) أي قوي وكثير ، وكل هذا تجده في قوله :

ومدجج كره الكماة نزاله ... لا ممعنٍ هربًا ولا مستسلمِ

وقوله :

وحليل غانية تركت مجدلاً ... تمكو فريصته كشدق الأعلم

وقوله :

طورًا يجرد للطعان وتارة ... يأوي إلى حد القسي عرمرمِ

ويحب عنترة في عبلة عفتها وحياءها ، ولطافتها واستجابتها فيعرض ذلك على طريق الكناية فيقول :

دار لآنسة غضيض طرفها ... طوع العناق لذيذة المتبسم

وتمنعه عفته من التصريح باسم المرأة فيكني عنها بالشاة حيث يقول :

يا شاة ما قنص لمن حلت له ... حرمت عليّ وليتها لم تحرمِ

أما زهير بن أبي سلمى فقد أحب الخير والتضحية في سبيل الأمن والسلام لذلك نجده يشيد بما قام به الحارث بن عوف وهرم بن سنان من صلح وتحمل لديات القتلى في أحلك الظروف القائمة بين الطرفين المتحاربين التي كنى عنها بقوله (تبزل ما بين العشيرة بالدم) ليبرز مدى الانشقاق والفرقة بينهما :

سعى ساعيا غيظ بن مرة بعدما ... تبزل ما بين العشيرة بالدم

وهو عندما يبرز لنا مكر ودهاء حصين بن ضمضم وكظمه للغيظ يعبر عن ذلك بأسلوب الكناية فيقول :

لعمري لنعم الحي جر عليهم ... بما لا يواتيهم حصين بن ضمضم

وكان طوى كشحًا على مستكنة ... فلا هو أبداها ولم يتقدم

ثم يبرز لنا إقدام ذلك الرجل الذي أعقب مكره ودهاءه وكظم غيظه وثقته بنفسه في الحرب الـتي كنى عنها بقوله (أم قشعم) لتتآزر الكناية والاستعارة في تصوير هذا الإقدام الشجاع الذي يقدمه لنا بقوله :

فشـــد ولم يفـــزع بـــيوتًا كـــثيرة   لـــدى حـــيث ألقـــت رحلـــها أم قشعم
لـــدى أســـد شاكي الســـلاح مقـــذف   لـــــه لـــــبد أظفـــــاره لم تقلــــم
جريء متى يظلم يعاقب بظلمـــــــــه   سريعًـــــا وإلا يبد بالظلم يظلـــم

ولعلـــك تلاحظ أن زهير في البيت الأخير كوّن من التشكيل اللغوي للبيت المتمثل في التقابل ظلالاً وألوانًا تتآزر أيضًا مع الكناية والاستعارة ليؤكد أن التشكيل اللغوي المباشر له ظلاله وألوانه التي لا يستغنى عنها في التصوير الفني .

فالرجل جريء شجاع يعاقب من ظلمه وإذا بدئ بالظلم من أحد أبى أن يرضخ لظلمه .

والســـماحة التي تعني : البذل والعطاء في العسر واليسر عن كرم وسخاء تستهوي زهيرًا في ممدوحيه خاصة إذا كانت في أعسر الظروف (التقاتل بين عبس وذبيان) التي كنى عنها زهير بقوله " دقوا بينهم عطر منشم " والعرب تتطير به حيث يقول :

تداركتمـــا عبسًـــا وذبيـــان بعدمـــا   تفانـــوا ، ودقـــوا بينهـــم عطـــر منشم

ولبـــيد عـــندما يـــريد إبراز حزمه في مناظرة خصمه يكني عن دار الملوك التي يغشاها الناس والوفود الذين لا يعرفون بعضهم بعضًا بقوله :

وكثيـــــرة غراؤهـــــــا مجهـــولة   ترجـــــــــى نوافلها ويخشى ذامهـــــا

والعسر هو الاختبار الحقيقي لكرم الإنسان ولذا نجد لبيدًا اجتهد في تصوير هذا العسر وقدمه لنا مصورًا على طريق الكناية بقوله :

تـــأوي إلى الأطـــناب كـــل رذيـــة   مـــثل البلـــية قـــالص أهـــدامها
ويكللـــــــون إذا الريـــــاح تناوحت   خلجًا تمـــد شـــوارعًا أيتامهـــــا

أما النابغة فإن عفته ترفعه عما يسيء من الأقوال والأفعال فهو يدعو على نفسه بأن تشل يده فلا يستطيع بها حراكًا إن قال قولاً سيئًا ، ويكني عن هذا بقوله " لا رفعت سوطي إلي يدي " فتتآزر

الكناية مع أسلوب النفي و الدعاء لتقديم صورة محسوسة لذلك العجز :

ما قـلت مـن سيـئٍ مما أُتيتَ بـه　　　إذًا فلا رفعت سـوطي إلـي يـدي

ويقدم لنا النابغة أيضًا صورة رائعة تبرز مدى تعقله وفكرته في العواقب حيث أحسن في دعوة الملـك إلى التثبت في الأمر والتأني في الحكم قبل اتهامه بأمر عظيم عبر عن شدته وقوته بالركن على طريق الكناية فقال :

لا تقذفـني بـركـن لا كفـاء لـه　　　وإن تأثفـك الأعـداء بالـرفـد

والأعشـى يكـني عـن مظهر خلقي شجاع يتمثل في هزيمة خصمه ووقوعه موقع الضعف والهوان بقوله:

حتى يظل عميـد القـوم مرتفقـًا　　　يدفـع بالـراح عنـه نسـوة عجـل

وقـد تم لـه أيضًا من خلال الكناية مظهر خلقي عفيف وقع في البيت ضمنًا وهو الترفع عن مهاجمة النساء واقتحام صفوفهن في الحرب .

ويلتقـي الأعشى مع امرئ القيس في تصوير ترف حبيبته وما يترتب عليه بطريق الكناية فيقول :

إذا تقوم يضوع المسـك أصـورة　　　والزنبـق الـورد مـن أردانهـا شمـل

كما يبرر الأعشى لتعلقه بتلك المرأة والتلذذ بها على طريق الكناية بقوله :

صفر الوشاح وملء الـدرع بهكنة　　　إذا تأتـى يكـاد الخصـر ينخـزل

أمـا عمرو بن كلثوم فأيامه غر (بيضاء) كناية عن العزة والمجد والحرية وإباء الضيم حيث يقول :

وأيـام لنـا غـر طـوال　　　عصينـا الملك فيهـا أن ندينـا

ويكني عن النكاية في الأعداء وما حل بسيدهم من هزيمة وذلة بقوله :

تركنـا الخيـل عاكفـة عليـه　　　مقلـدة أعنتهـا صفـونـا

ويكني عن سيادته وقومه بقوله :

إذا بلــغ الفطـــام لنــا صـــبي   تــخــرله الجــبابــر ســاجــدينــا

ويكـــني النساء بالبيض الكرام فيقدم صورة رائعة لغيرة العربي على حريمه وصونها ، ودفع حياته ثمنًا لصون نسائه فيقول :

علــى آثارنــا بيـــض كـــرام   نـــحاذر أن تفـــارق أو تهونـــا

أما عبيد بن الأبرص فإن " الكناية في شعره تتميز بالدقة والإصابة فقد دل بأجن الماء على أنــه غــير مورود ، وبريش الحمام على جنبات السبيل على أنه غير مطروق "[١] وهو بهذا يبرز لنا مظهرًا خلقيًا شجاعًا يتمثل في ورود المياه الآجنة وتعسف السبل المخيفة فيقول :

فـــرب مـــاء وردت آجـــن   ســـبيله خائـــف جـــديب

ريـــش الحمـــام علـــى أرجائـــه   للقلـــب مـــن خـــوفه وجـــيب

قطعتـــــه غـــدوة مشيحـــًا   وصـــاحـــبي بـــادن خبـــوب

والحـــارث بـــن حلـــزة يحقر خصمه ويسخر منه سخرية لاذعة ويكني بقوله " غبراء " عن اللصوص والصعاليك فيقول :

أم علينـــا جرى حنيفـــة أو مـــا   جمعـــت مـــن محـــارب غـــبراء

ونخـــرج مـــن كـــل ما سبق بأن " الصورة تشكيل لغوي ، يكونها خيال الفنان من معطيات مـــتعددة ، يقـــف العـــالم المحســـوس في مقدمتها ، إلى جانب ما لا يمكن إغفاله من الصور النفسية والعقلية، وإن كانت لا تأتي بكثرة الصور الحسية ، أو يقدمها الشاعر أحيانا كثيرة في صور حسية ، ويدخل في تكوين الصورة بهذا الفهم ما يعرف بالصور البلاغية من تشبيه ومجاز ، إلى جانب التقابل، والظلال والألوان ، وهذا التشكيل يستغرق اللحظة الشعرية والمشهد الخارجي "[٢].

والشـــاعر يخضـــع صوره لتشكيله فتأتي صورة لفكرته هو وليست صورة لذاتها ، ولذلك ، ولأن الصـــورة ليست تسجيلاً فوتوغرافيًا للأشياء ، فإننا نجد الصورة ربطًا بين عوالم الحس المختلفة

---

(١) د. أحمد عبد الواحد – عبيد بن الأبرص حياته وشعره – ص : ١٥٠.

(٢) د. علي البطل – الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري دراسة في أصولها وتطورها – ص : ٣٠

"فليس صحيحًا أن كل حاسة من حواسنا قد ذهبت بطائفة من المدركات ، ولا أدل على ذلك من أننا نستطيع أن ندرك الفجر وأن نحس نداه بطرق شتى من حواسنا "[١].

ولـــذلك فمثل هذه الصورة السمعية لدى الحارث بن حلزة تقدم المشهد تقديمًا بصريًا وهو يحاول أن يبرز لنا من خلالها خلق الغدر الذميم الذي يصم به خصمه حيث يقول :

أجمعـــوا أمـــرهم عشـــاء فلمـــا　　أصـــبحوا أصـــبحت لهـــم ضوضـــاء

من منـــــاد ، ومن مجيب ، ومن تصـــ　　ــهال خيـــل خـــــلال ذاك رغـــاء

حـــتى لنوشك أن نراها " بمخيلة آذاننا " كما يقول ريتشاردز ، وهذا مصداق قوله :" إن الصور التي تختلف في صفاتها الحسية قد تكون لها نفس الآثار في النفس "[٢].

٤ - الرمـــزية

نظـــر النقاد وعلماء البلاغة العرب إلى الرمز على أنه نوع خاص من الكناية ، وحددوه من خلال نوعية العلاقة التي تربطها بالمكنى عنه فإذا كان ابن رشيق قد رأى فيه " الكلام الخفي الذي لا يكـــاد يفهم"[٣] فإن القزويني يعتبره حلقة من حلقات الكناية خاصة عندما تكون المسافة بين الكناية أو المعـــنى الظاهر وبين المكنى عنه (المعنى الخفي المقصود) قريبة . يقول :" فإن كان فيها نوع خفاء فالمناســـب أن تســـمى رمـــزًا لأن الرمـــز هو أن تشير إلى قريب منك على سبيل الخفية "[٤] ونحن نستشف من كلام القزويني " أن الرمز هو في قلة الوسائط التي تربط الدلالة الأولى بالدلالة الثانية . وعـــندما تقـــل هذه الوسائط تضعف القدرة العقلية المبذولة من أجل إدراك المعنى المقصود فهو إذًا درجـــة في ســـلم الوســـائط داخل الكناية ، وهي تتدرج من التعريض إلى التلويح ثم الرمز والإيماء والإشارة دون أن تحدد فوارق علمية مقنعة بين هذه الأنواع ."[٥].

وعـــندما نظـــرت إلى نصوص المعلقات العشر في الأدب الجاهلي (على وجه الخصوص)

---

(١) د. محمد مندور – في الميزان الجديد – ص : ٣٣ .

(٢) ريتشاردز – مبادئ النقد الأدبي – ترجمة د. مصطفى بدوي – طبعة : المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة – ص :١٧٦.

(٣) ابن رشيق – العمدة في محاسن الشعر وآدابه – ص : ٣٠٦.

(٤) القزويني – الإيضاح في علوم البلاغة – ص : ٤٦٦.

(٥) د. صبحي البستاني – الصورة الشعرية في الكتابة الفنية – ص : ١٧٢.

وجدت أن في تلك النصوص الحكاية الرمزية التي " لا تكون بلفظة واحدة ، وإنما تقوم ، كما يدل اسمها ، على إحياء عالم معين مؤلف من عدة عناصر متداخلة ومتكاملة ، ولهذا العالم جانبان : جانب مباشر وحرفي ، وجانب آخر هو جانب الدلالة الأخلاقية أو النفسية أو الدينية "[١] ومن تلك الحكايات الرمزية " المعركة التي حدثت بين ثور النابغة وكلاب الصيد المدربة ، ... أن الثور الوحشي يرمز به إلى حالة الشاعر النفسية ... وأن النابغة هنا أسقط صفاته على ذلك الثور المنتصر في عراكه وصراعه في الدفاع عن نفسه وحمل الصورة مضامين داخلية كان يحسها ، فلجأ إلى معالجتها بطريقة فنية ألفناها عند كثير من الجاهليين في قصة الثور الوحشي والحمر الوحشية حيث عبر هؤلاء الشعراء عن مكنونات نفسية معينة ... فالصياد المتربص هو النعمان نفسه ـــ على ما نظن ـــ وأما الكلاب فهي الوشاة والعيون التي تلاحق الشاعر في كل مكان يذهب إليه بغية الإمساك به ، ... فالمظنون أن هذا الانتصار كان يعكس الغربة الجامحة المستكنة في أعماق النابغة في الانتصار على هؤلاء الوشاة والمفسدين الذين أوقعوا بينه وبين النعمان ؛ ولذا فأغلب الظن أنها حالة وهمية من النابغة "[٢].

يقول النابغة :

كأن رحلي وقد زال النهار بنا ... يوم الجليل على مستأنس وحد

من وحش وجرة موشي أكارعه ... طاوي المصير كسيف الصيقل الفرد

سرت عليه من الجوزاء سارية ... تزجي الشمال عليه جامد البرد

فارتاع من صوت كلاب فبات له ... طوع الشوامت من خوف ومن صرد

فبثهن عليه واستمر به ... صمع الكعوب بريئات من الحرد

وكان ضمران منه حيث يوزعه ... طعن المعارك عند المحجر النجد

شك الفريصة بالمدرى فأنفذها ... طعن المبيطر إذ يشفي من العضد

كأنه خارجًا من جنب صفحته ... سفود شرب نسوه عند مفتأد

فظل يعجم أعلى الروق منقبضًا ... في حالك اللون صدق غير ذي أود

لما رأى واشق إقعاص صاحبه ... ولا سبيل إلى عقل ولا قود

قالت : له النفس إني لا أرى طمعًا ... وإن مولاك لم يسلم ولم يصد

---

(١) السابق – ص : ١٧٤.

(٢) د. أحمد موسى الجاسم – دراسات في الشعر الجاهلي – ص : ٢٨٤– ٢٨٥.

ولو عدنا إلى المقدمة الطللية في معلقة النابغة لوجدناها "رمزًا للقطيعة التي حدثت بينه وبين ممدوحـــه في زمن مضى حيث جاءت الصورة الطللية دالة على الخواء والاندثار وفي ظاهرها البكاء علـــى الحبيـــبة الـــراحلة الـــتي عـــيت جوابًا ، وخافيها قلق الشاعر وعجزه عن المواجهة ومحادثة النعمان"[1] فلا يبقى أمامه إلا مخاطبة صور الوفاء التي تربطه به ومناجاة ما سلم منها قبل أن تدمرها أحقاد الحاقدين :

يـــا دار مـــية بالعلـــياء فالســـند	أقـــوت وطـــال علـــيها ســـالف الأبـــد
وقفـــت فـــيها أصـــيلانًا أســـائلها	عـــيت جـــوابًا ومـــا بالـــربع مـــن أحد
إلا الأواري لأيـــا مـــا أبيـــنها	والـــنؤي كالحـــوض بالمظلـــومة الجلـــد
ردت علـــيه أقاصـــيه ولـــبده	ضـــرب الولـــيدة بالمســـحاة في الـــثأد
خلـــت ســـبيل أتي كـــان يحبســـه	ورفعـــته إلى الســـجفين فالنضـــد
أمســـت خـــلاء وأمســـى أهلها احتملوا	أخـــنى عليهـــا الـــذي أخـــنى على لـــبد

وبالإضافة إلى الحكاية الرمزية التي أوردت مثالها السابق هناك رمز يتعلق بالكلمة (الرمز) "التي تجتمع كل العناصر المؤلفة لمدلولها المعياري الأول ، لتشكل الصورة العقلية التي تنطبع في ذهن القـــارئ ثم من خلال هذه الصورة بكاملها يتم الانتقال إلى صورة أخرى أو مفهوم آخر هو المرموز إليه "[2].

ويتضـــح هذا النوع من الرمز في نصوص المعلقات العشر ونحن نقرأ أبيات امرئ القيس في وصـــف المطر ذي البرق وما نتج عنه من سيل عرم " يكب على الأذقان دوح الكنهبل " حيث نجد أن هـــذه اللـــوحة الرائعة بناها الشاعر من أصل كلمة واحدة (برق) التي يرمز بها (فيما أظن) إلى نفســـه وهـــو ابـــن الملك صاحب الصيت المضيء الذي يضع نصب عينيه الأمل والبشر وضمان الانتصار على الأعداء .

هاهـــو البرق يعلو الجبل ثم يسقط مطره الغزير بسيل جارف (عزم الشاعر) فيلقي رأسا على عقب كل ما يصادفه أمامه قويًا كان أو ضعيفًا شجرًا كان أو صخرًا طيرًا كان أو سبعًا (وكل هذه رموز لأعداء الشاعر) الذين انتصر عليهم وألقاهم في شر أعمالهم .

---

(١) د . أحمد موسى الجاسم – المرجع السابق – ص : ٢٨١.

(٢) د . صبحي البستاني – المرجع السابق – ص ١٨٣.

وما أظن أن قصد الشاعر سيقف عند مجرد عرض لوحة طبيعية للمطر ، وإن كان الأمر كذلك فلا أظن أن هناك منظرًا طبيعيًا في الوجود يحمل هذه الأوصاف المرعبة إلا إذا ألقى الشاعر على لوحته تلك بظلال نفسه ، وبإمكانك أن تقرأ الأبيات مرة ومرة وتتخيل ما وراء تلك اللوحة الفنية من مقاصد نفسية وأخلاق مضمرة أراد الشاعر إبرازها من خلال لوحة المطر تلك :

أصاح ترى برقًا أريك وميضه	كلمع اليدين في حبي مكلل
يضيء سناه أو مصابيح راهب	أمال السليط بالذبال المفتل
فعدت له وصحبتي بين ضارج	وبين العذيب بعدما متأملي
علا قطنًا بالشيم أيمن صوبه	وأيسره على الستار فيذبل
فأضحى يسح الماء حول كتيفة	يكب على الأذقان دوح الكنهبل
ومر على القنان من نفيانه	فأنزل منه العصم من كل منزل
وتيماء لم يترك بها جذع نخلة	ولا أجمًا إلا مشيدًا بجندل
كأن ثبيرًا في عرانين وبله	كبير أناس في بجاد مزمل
كأن ذرى رأس المجيمر غدوة	من السيل والأغثاء فلكة مغزل
وألقى بصحراء الغبيط بعاعه	نزول اليماني ذي العياب المحمل
كأن مكاكي الجواء غدية	صبحن سلافًا من رحيق مفلفل
كأن السباع فيه غرقى عشية	بأرجائه القصوى أنابيش عنصل

وربما يسأل سائل فيقول : وما ذا عن الرمزية للجانب الخلقي (موضوع الدراسة) ؟ فنقول : إن ما سبق ذكره في الرمز بنوعيه (الحكاية الرمزية ، أو الرمز بالكلمة الواحدة) يحمل في طياته من رموز القيم والأخلاق أمورًا كثيرة سنورد نماذج لها فيما يلي وإنما ما سبق كان توطئة لتحقيق وجود الرمز في أدبنا العربي القديم .

لكن يجب أن يوضع في الحسبان أن الرمز الذي أقصده هنا ليس تلك الرمزية بصورتها الحديثة والتي تقوم على " إذابة الحواجز بين الحواس فيصبح ما يرى مسموعًا وما يشم ملموسًا وهي مذهب توغل فيه بعض منهم لدرجة يصعب إدراكها على العقل البشري فبعضها يصبح طلاسم دون حد يحدها أو ضابط يضبطها "[1] ولكنها الرمزية العربية التي فطر عليها الإنسان العربي

---

(١) محمد الحسن علي الأمين – الكناية أساليبها ومواقعها في الشعر العربي – ص : ٩٧.

والــتي لا تقف عند حدود الكناية بقيودها ولوازمها ، ولا تصل إلى الطلاسم التي لا يحدها حد ولا يضبطها ضابط .

إن الوقوف على الأطلال (مثلاً) يمثل " رمزًا بمعناه الواسع ، فالوقوف على الأطلال يرمز إلى موقــف إنســاني عــام من الموت والحياة "[١] ليس الموت والحياة في ذاهّا فقط وإنما موت القيم والأخلاق أو حيويتها في نفس إنسان دون آخر " ... فالأطلال والمرأة يرمزان إلى الماضي والشاعر لا يبكي الأطلال والمرأة فقط بل يبكي تلك الإمكانات غير الممكنة التي ذهبت مع الزمن ولم يبق له مــنها غير الأطلال "[٢]ومن تلك الإمكانات المفقودة الأخلاق والقيم ــ وما أشبه الليلة بالبارحة ! ـــ حــيث نســمع مــن كبار السن اليوم الحنين إلى الوفاء والأمانة والشجاعة وغيرها من القيم والأخــلاق الــتي يروهّا فقدت مع فقدان شباهم فلا يبقى أمامهم إلا استرجاع شريط الذكريات الذي طواه الزمن فيما طواه .

هــذا زهــير بن أبي سلمى يصطنع لنفسه لوحة فنية يرتشف من خلالها سلسبيل الذكريات الحلــوة ، ويقدم من خلالها أيضًا صورة رائعة للأمن والسلام الذي يحلم به بين قبيلتي عبس وذبيان فيقدم لهم هذه اللوحة الفنية الآمنة لعل القلوب تهدأ بهدوئها وتمتثل برموزها فيقول :

ودار لهــــا بالــــرقمتين كأنهــــا ... مــــراجيع وشــــم في نواشــــر معصــــم

بهــــا العــــين والأرآم يمشــــين خلفــــة ... وأطلاؤهـــا ينهضـــن مـــن كـــل مجـــثم

وقفــت بهــا مــن بعــد عشــرين حجة ... فلأيًــا عــرفت الــدار بعــد تــوهم

أثــافي ســفعًا في معــرس مــرجل ... ونــؤيًا كجــذم الحــوض لم يتــثلم

فلمــا عــرفت الــدار قلــت لــربعها ... ألا انعــم صــباحًا أيهــا الــربع واسلم

تبصــر خليلــي هــل تــرى من ظعائن ... تحملــن بالعلــياء مــن فــوق جــرثم

جعلــن القنــان عــن يــمين وحــزنه ... وكــم بالقنــان مــن محــل ومــحرم

علــون بأنطاكــية فــوق عقمــة ... وراد حواشــيها مشــاكهة الــدم

ظهــرن مــن الســوبان ثم جــزعنه ... علــى كــل قــيني قشــيب ومفــأم

ووركــن في الســوبان يعلــون متــنه ... علــيهن دل الــناعم المتــنعم

---

(١) د. حسني عبد الجليل يوسف – التصوير البياني بين القدماء والمحدثين – ص : ٩٣ .

(٢) المرجع السابق – ص : ٩٤ .

بكــــرن بكـــورًا واســـتحرن بســـحرة فهـــن ووادي الـــرس كالـــيد للفـــم
وفـــيهن ملهـــى للصـــديق ومنظـــر أنـــيق لعـــين الناظـــر المتوســـم
كـــأن فـــتات العهـــن في كـــل مـــترل نـــزلن بـــه حـــب الفـــنا لم يحطـــم
فلمـــا وردن الـــماء زرقـــا جمـــامـــه وضعـــن عصـــي الحاضـــر المتخيـــم

إنهـــا لـــوحة الطلل الآمن الذي يقدمه زهير بن أبي سلمى رمزًا للحب والسلام والعيش في طمأنينة ليذكر من خلاله أن هناك نواشر معصم تنقل الدم باستمرار وهي التي تضمن ملامسة هذا الـــدم لهذا الوشم الرمزي الذي أصبح جزءًا من الجسد الآدمي وفي سلامه لربع الدار وليس للدار تمن من الشاعر أن يعم الأمن والسلام جميع أفراد القبيلتين بل لماذا لا تكون أم أوفى التي ذكرها أول المعلقة هي القبيلة الأم للفئتين المتحاربتين في عصره والتي كانت قوية متحدة بتآلف القبيلتين ؟

وعـــندما ننظر إلى لوحة الظعائن يجب أن ندرك المعاني الخلفية لكلماتها (الظعائن ، علياء ، خليلـــي تبصـــر ، جـــرثم ، تحملن ،...) إن لكل كلمة من كلمات البيت مهمة في الدلالة على السمات المميزة للمجتمع المستقبلي المثالي الجديد . فمن صفات هذا المجتمع الجمال والصفاء وهي صـــفات تحملها كلمة (الظعائن) لأنها توحي بالمرأة المشتهاة أو المرأة المأمولة ، والمرأة تكون كذلك تحوي صفات الجمال الشكلي والصفاء النفسي ، فهذه سمات ترتاح لها كل نفس . والمجتمع الجديد حركة نحو السمو (العلياء) وليس من شأنه التدني أو الانحطاط شأن الواقع الذي يشهده الشاعر .

وهـــو مجـــتمع التعاون والتآلف والمشاركة الروحية في تلقي الحياة الباسمة أو الحياة العابسة وهـــذا ما توحي به كلمة (خليلي) فهي كلمة أبعد ارتباطًا من كلمة (الصديق) أو (الصاحب) مـــثلاً وهـــي توحـــي هنا بمعان جذرية فالذي أفسد الماضي ويفسد الحاضر هم الأفراد بعداواتهم الجاهلية لذا لابد أن تتغير سمة العلاقة بين الأفراد في المجتمع المتخيل وذلك بأن ترتفع نفوسهم ارتفاع المجـــتمع ليواصـــل هذا المجتمع همّ مسيرته (العلوية والمثالية) ولك أن تستمر مع لوحة زهير الآمنة المطمئنة تلك لترى نموذجًا رائعًا للمجتمع الذي يريد أن يرى زهيرٌ قبيلتي عبس وذبيان فيه .

وهكـــذا لا نكاد نقف عند معنى مباشر لبيت أو مقطوعة في المعلقات العشر إلا ويرمي إلى معنى خفي هو فوق الكناية المقيدة ، وتحت الرمزية الحديثة الموغلة . ولقد تناولنا الكشف عن القيم و الجـــوانب الخلقية وراء كل معنى مباشر في المعلقات العشر (موضوع الدراسة) خلال دراستنا الموضـــوعية في الفصـــل الثاني من هذه الدراسة ، وما تلك المظاهر الأخلاقية المتنوعة إلا ثمرة جهد طويلة في البحث وراء المعاني المباشرة لنصوص المعلقات العشر .

فإذا كان الطلل (مثلاً) " مصدر وحي وإلهام فإن قيمته ليست في جزئيا ته البسيطة ، إنما فـيه ككل ارتبطت به حياة الشاعر في فترة ماضية وتركت في كل ناحية منه ذكرى لا تتبدد يبحث عـنها الـبدوي في حنايا الدار ويجدها خلف كل حجر وتحت كل خيمة متهالكة وفي ثنيات الرمال المتلبدة . فهو ينصرف عن تأمل التفاصيل ويكف عن وصفها إذ يصبح الطلل بالنسبة إليه رمزًا يقرأ مضـمونه ولا يهتم بحدوده "(١) ولقد رأينا أن وصف شاعر المعلقة لفرسه أو ناقته أو رحلته الشاقة بـل حتى نقله التقريري لواقعة من الوقائع أو حدث من الحوادث ، وكذلك نقله لكل ما تقع عليه عيـنه من مشاهد طبيعية نادرة إنما يريد إضافة إلى معناها المباشر معاني بعيدة غالبًا ما تكون مظاهر خلقـية حميدة أو مذمومة يسعى إلى إبرازها للمتلقي شعره من خلال لوحات تعبيرية جميلة يعرضها ، ومـا ذلك العمل منه (في رأيي) إلا محاولة للبعد بالمتلقي عن الأسلوب الوعظي الجاف ، وإبراز ما يـريد إبـرازه من قيم وأخلاق في ظلال تلك الصور الطبيعية الحية التي لا تخلو هي أيضا من ظلال نفس الشاعر الفرحة أو الحزينة فتتلقى النفوس تلك الصور في تفاعل منقطع النظير .

ولـربما سـأل سائل فقال : وما بال من يقول من الدارسين إن المجتمع العربي مجتمع بدائي وصاف وواضح فلا وجود للرمزية فيه ؟!

أقـول : نعـم إن المجتمع العربي الجاهلي كان صافيًا وواضحًا لكن هذا لا يعني اضمحلال الرمزية فيه وإنما يؤمن بذلك من عرف طبيعة العرب وغيرتهم وحفظهم للأسرار ومدى فطنتهم وقوة فراسـتهم وحـبهم للأحاجي والألغاز وستر المعنى المراد في قلب المعنى المباشر ، بل وما تحتم عليهم ظـروفهم الصعبة التي تسوقهم إلى الرمزية سوقًا في أوقات كثيرة ومن ذلك ما أورده الجاحظ حيث يقول :

" ... أخـبرني شيخ من بني العنبر قال : أسر بنو شيبان رجلاً من بني العنبر . قال : دعوني حـتى أرسل إلى أهلي ليفدوني قالوا: على ألا تكلم الرسول إلا بين أيدينا ، قال : نعم ، قال : فقال للرسول : ائت أهلي فقل لهم : إن الشجر قد أورق ، وقل : إن النساء قد اشتكت وخرزت القرب ... ثم قـال له : اذهب إلى أهلي فقل لهم : عروا جملي الأصهب ، واركبوا ناقتي الحمراء ، وسلوا جارنـا عـن أمري – وكان حارث صديقًا له – فذهب الرسول فأخبرهم فدعوا حارثًا فقص عليه الرسـول القصة فقال : أما قوله : إن الشجر قد أورق فقد تسلح القوم ، وأما قوله : إن النساء قد

(١) د. سعدي ضناوي – أثر الصحراء في الشعر الجاهلي – ص : ٢٤٢.

اشـــتكت وخرزت القرب ، فيقول : قد اتخذت الشِكا وخرزت القرب للغزو ، وأما قوله : عروا جملـــي الأصـــهب فـــيقول : ارتحلوا عن الصمان ، وأما قوله اركبوا ناقتي الحمراء ، فيقول: انزلوا الدهـــناء وكـــان القوم قد تهيئوا لغزوهم فخافوا أن ينذرهم فأنذرهم وهم لا يشعرون فجاء القوم يطلبونهم فلم يجدوهم "[١].

ونســـتنتج مـــن قول الجاحظ السابق : أن الإنسان العربي القديم صادف في حياته الفكرية والعقلية والاجتماعية وجميع شؤونه الحيوية حالات توجب عليه الستر وعدم الكشف عنها وإلا وقع في خطـــر وضيم فلجأ إلى رمزية وضع خططها وحاول عن طريقها تصوير المعاني والحقائق لذلك ســـلك نهجًا في التعبير يوافق ما اصطلح عليه الناس وما تدل عليه الرموز من المعاني المتعارفة واتخذ مـــنها طريقًا خاصًا رمى فيه بهذه الرموز اللغوية إلى معانٍ يقصدها ولا يشاركه في فهمها إلا من أوتيَ عقـــلاً راجحًـــا وذكـــاءً بيّنًا ، وحسًّا مرهفًا ، أو من تربطهم معه علاقة تحوِّم حولها رموزه ومعانيه البعيدة .

وحـــتى نكون عادلين فقد درسنا الرمزية في نصوص المعلقات العشر باتجاهها اللغوي فقط مســـتبعدين الاتجاه الغيبي والاتجاه الباطني [٢] لأن نصوص المعلقات تنتمي إلى عالم الأدب الذي يقوم على اللغة وتركيبها ونظمها وما تعطيه من تشكيلات رائعة في تصوير معاناة الشاعر الذي يلجأ إلى الاســـتعانة بالصور الأدبية والفنية التي تعينه في إخراج مكنون نفسه حينما تعجز اللغة الاصطلاحية عن ذلك .

---

(١) الجاحظ – كتاب الحيوان : ج٣/١٢٤

(٢) د. محمد مندور – الأدب ومذاهبه – ص : ١٢٠.



أنواع البناء الفني لصورة القيم والأخلاق في المعلقات العشر

١ - البنـاء التتابعـــي

٢ - البنـاء الممتـــد

٣ - البنـاء التقابلـي



تعد الوحدة في الشعر الجاهلي من أخطر القضايا في النقد الحديث لكن الذي يجب أن نعرفه أن الشاعر يستطيع " أن ينظم انفعالاته ويقوم من أجل التوصل إلى هذا التنظيم بتناقضات تنتهي في نهاية العمل الفني ، وإذا كان اللاوعي هو الذي ينظم فهذا يعني أن العمل الفني يتحد في الجو النفسي ، فما بين السفينة المحطمة ـ مثلاً ـ والخريف والجنازة وغروب الشمس وحدة ظاهرة ، ولكن جو المأساة يوحد بينها "[1] وما دام الأمر كذلك فإننا نستطيع أن نتحدث عن الوحدة الموضوعية في القصيدة الجاهلية وقد مر معنا في الفصل الثاني من هذه الدراسة كيف أننا استطعنا أن نحدد وحدة الموضوع للمعلقة من خلال الجو النفسي الذي يسيطر على أجزائها ويوحد بينها .

أما الوحدة العضوية في القصيدة الجاهلية ـ من وجهة نظري ـ فتحتاج إلى معرفة نظرة الإنسان الجاهلي إلى القيم والأخلاق وعوامل الوحدة فيها باعتبارها الجامع الإنساني الوحيد الذي يعود إليه تصور الإنسان في العصر الجاهلي ـ على وجه الخصوص ـ ولذلك فإن الفكر الجاهلي لا يؤدي إلى وحدة موضوعية على المنهج الغربي الحديث إذ أن العلاقة فيه ليست بين ذات وموضوع فقط بل تكون بين ثلاثة محاور هي :

١-الشاعر (الذات)　　٢- الموضوع (العيان)　　٣-الأخلاق (المثال)

فالشاعر العربي الجاهلي إنما ينظر إلى ما حوله بمنظار الخلق ، وما تلك الصور الفنية التي قدمها إلا محاولة لتقديم الجانب الأخلاقي الإنساني ـ الذي يعد ضمن الصفات المعنوية ـ في صور فنية محسوسة ماثلة للعيان ، مما يرجح بقوة أن كل ظاهرة فنية (كظاهرة الوقوف على الأطلال ووصف الراحلة وغيرها) تحمل وراء المعاني المباشرة لها مظاهر وصورًا أخلاقية كما أثبتنا ذلك أثناء دراستنا الموضوعية.

وعند النظر في نصوص المعلقات العشر والوقوف على بناء الصور الفنية للتعبير عن القيم والأخلاق فيها رأينا أن بناء تلك الصور اتخذ ثلاثة مظاهر بنائية هي :

١ - البناء التتابعي (الصور الفنية المتتابعة) .

٢ - البناء الممتد (الصور الفنية الممتدة).

٣ - البناء التقابلي (الصور الفنية المتقابلة) .

---

(١) د. نصرت عبد الرحمن – الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث – ص : ١٩٦.

وفـيما يلـي سوف نقوم بدراسة هذه المظاهر البنائية الثلاثة للوصول إلى معرفة أثر الصور الفنية في التعبير عن القيم والقضايا الأخلاقية في تشكيل نصوص المعلقات العشر .

أولاً : البنـــاء التتابعي :

وهـو " الصـور التي يأتي بعضها إثر بعض لتكوين مشهد معين "[1] مثل مشهد الناقة عند طرفة بن العبد ، ومشهد تقارع الأبطال عند عنترة وعمرو بن كلثوم ومشهد المناظرة بين الخصوم عـند الحـارث بن حلزة وعمرو بن كلثوم ، ومشهد اللهو وشرب الخمر عند الأعشى وطرفة بن العبد ومشهد الطلل ...الخ

تـأتي هذه الصور في إيقاع فيه تأنٍ يتيح امتدادًا للصورة الجزئية على نحو ما نرى في صورة تقارع الأبطال في معلقة عنترة بن شداد وهو يقول :

ومـدجج كـره الكمـاة نـزاله ... لا ممعـن هـربًا ولا مستسـلم

جـادت يـداي لـه بعاجـل طعـنة ... بمـثقف صـدق الكعـوب مقـوم

بـرحيبة الفـرعين يهـدي جرسـها ... باللـيل معـتس الـذئاب الضـرم

فشـككت بالـرمح الأصـم ثـيابه ... لـيس الكـريم علـى القـنا بمحـرم

فتـركته جـزر السـباع ينشـنه ... مـا بـين قلـة رأسـه والمعصـم

ومشـك سـابغة هـتكت فـروجها ... بالسـيف عـن حامـي الحقـيقة معلـم

ربـذ يـداه بالقـداح إذا شـتا ... هـتاك غايـات الـتجار ملـوم

لمـا رآني قـد نـزلت أريـده ... أبـدى نـواجذه لغـير تبسـم

فطعنـته بالـرمح ثم علـوته ... بمهـند صـافي الحديـد مخـذم

عهـدي بـه مـد الـنهار كأنما ... خضـب البـنان ورأسـه بـالعظلم

بطل كـأن ثيابـه في سرحـة ... يحـذى نعـال السـبت ليس بتوأم

فانظـر كيف بدأ عنترة بتصوير المشهد السابق بتقديم صورة مهيبة لخصمه المدجج بالسلاح والـذي يقف في ساحة القتال دون هرب ولا استسلام ثم يصور لنا عنترة تلك الطعنة العاجلة التي بـادر بها خصمه والتي لها صوت يدل الذئاب الساهرة ليلاً طلبًا للفريسة ثم ما يلبث عنترة أن يتبع

---

(١) عـالي سرحان القرشي – الصورة الفنية في شعر بشر بن أبي خازم – رسالة دكتوراه مخطوطة – جامعة أم القرى – ص : ١٥٨.

تلـك الطعـنة الواسعة بطعنة أخرى نفذت في جسم الخصم رغم علو مكانته في قومه فيبقى ذلك الخصـم غنـيمة للسباع تنهش ما بين رأسه ومعصمه .ثم يتبع عنترة تلك الصورة البطولية بصورة بطولية أخرى فهاهو يشق بسيفه درع خصمه البطل الكريم والشهير في قومه الذي ما إن رأى عنترة حـتى كشـر عن أضراسه كأسد غضوب فيبادره عنترة بطعنة بالرمح ثم يعلوه بسيفه البتار فيتركه على مدى النهار مخضبًا بدمائه رغم بطولته وطول قامته ووجاهته .

لقـد اسـتطاع عنترة أن يبني صوره السابقة بأساليب التصوير المختلفة لينتقل الذهن بين جـزئياتها في مساحة زمانية ومكانية أقامها الشاعر على مسرح البطولة حيث بدأها بتصوير الخصم الكـفء والنظير له ، ثم أخذ يصف لنا المقارعة بينه وبين خصمه والتي بدا فيها عنترة مسيطرًا على خصـمه ، وقد جاءت الصور التالية في الأبيات السابقة معززة لهذه السيطرة حيث سردها في صور مـتلاحقة جـاء تعاقبها شاهدًا على شجاعة عنترة وإقدامه وسلبية المواجهة عند خصمه رغم قوته وعتاده ، ثم جاء الانتقال من مشهد بطولي إلى مشهد آخر قدم فيه عنترة صورًا لشجاعته الفذة التي عبر عنها بمثل قوله : (ومشك سابغة هتكت فروجها بالسيف ... ، طعنته بالرمح ثم علوته بمهند) وأخيرًا يقدم لنا تلك الصورة الحية لخصمه وهو يغرق في دمائه على مدى النهار وكأنما خضب كفه ورأسه بالعظلم الأحمر .

ومـن الصـور المتـتابعة ما نجد فيه سرعة على نحو ما نرى في مشهد الخيل في معلقة امرئ القـيس والـذي يحفل بألوان من الصور السمعية والبصرية والحركية يتتابع بعضها إثر بعض وهو يقول :

وقـد أغـتدي والطـير في وكـناتها	بمنجـرد قـيد الأوابـد هـيكل
مكـر مفـر مقـبل مدبـر معًـا	كجلمـود صـخر حطـه السيل من عل
كمـيت يـزل اللـبد عـن حـال متنه	كمـا زلـت الصـفواء بالمـتنزل
علـى الـذبل جـياش كـأن اهتـزامه	إذا جـاش فـيه حمـيه غلـي مـرجل
مسـح إذا مـا السـابحات علـى الونى	أثـرن الغـبار بالكديـد المـركل
يـزل الغـلام الخـف عـن صـهواته	ويلـوي بأثـواب العنـيف المـثقل
دريـر كخـذروف الولـيد أمـره	تـتابع كفـيه بخـيط موصـل
لـه أيطـلا ظـبي وسـاقا نعامـة	وإرخـاء سـرحان وتقـريب تـتفل

ضـليع إذا اسـتدبرته سـد فـرجه ... بضـاف فويـق الأرض لـيس بأعـزل
كـأن علـى المتـنين مـنه إذا انتحـى ... مـداك عـروس أو صـلاية حـنظل
كـأن دمـاء الهاديـات بنحـره ... عصـارة حـناء بشـيب مـرجل
فعـن لـنا سـرب كـأن نعاجـه ... عـذارى دوار في مـلاء مـذيل
فأدبـرن كالجـزع المفصـل بيـنه ... بجـيد معـم في العشـيرة مخـول
فألحقـنا بالهاديـات ودونـه ... جواحـرها في صـرة لم تـزيل
فعـادى عـداء بـين ثـور ونعجـة ... دراكًـا ولم ينضـح بمـاء فيغسـل
فظـل طهـاة اللحـم مـن بين منضج ... صـفيف شـواء أو قديـر معجـل
ورحـنا يكـاد الطـرف يقصـر دونـه ... مـتى مـا تـرق العـين فـيه تسـهل
فبـات عليـه سرجتـه ولجامـه ... وبـات بعيـتني قائمـًا غـير مرسـل

وواضـح أن امرأ القيس كان متأنيًا حين رسم صورة الفرس في الأبيات السابقة مما أحدث في صوره تخصيصًا يجعل الذهن يستغرق في تأمل حركة الصورة حين يمتد بها الخيال فهو يجعل التشبيه والموقف في صور تتنامى في صور أخرى فهو يقف عند الفرس ويشبهه في كره وفره وإقباله وإدباره في آن واحـد بالحجر الصلب الذي يلقيه السيل من علو إلى أسفل بشكل غير منتظم ، ثم ينتقل إلى تشـبيه صـوته الشديد وحمحمته بصوت غليان المرجل ، ثم يحاول أن يعطي صورة محسوسة لفرسه الجموح الذي يزلق الشاب الخفيف الحاذق بالركوب عن صهوته ، وكذلك العنيف الذي لا يرفق في قـياده إلى أن يبرز لنا جريه الكثير السريع من خلال صورة خذروف الوليد الذي يسرع دورانه في اليد وقد حاول الشاعر أن يقدم لنا صورة خيالية لذلك الفرس الذي لا يمتطي صهوته إلا فارس خيالي مثله واستمر في وصفه كما رأيت مفصلاً في التصوير ومظهرًا صفات فرسه في حماسه ونشاطه وعتقه وكرمه .

كما أن في صورة المطر عنده أيضًا المثال الحي للصور المتتابعة والتي يرمي الشاعر من خلالها إلى إبراز مظاهر أخلاقية متعددة كما مر معنا في الدراسة الموضوعية .

وقـد يضطر الشاعر في هذا النوع من الصور أن يورد الوقائع الدالة على إثبات البطولة له ولقومه على نحو ما نراه في معلقة عمرو بن كلثوم ومناظره الحارث بن حلزة حيث لا نراهما يتعمقان في الصـور البطولـية الـتي يقدمانها إذ أن رغبتهما تكون منصبة على إثبات البطولة والرقص على

الإيقاع السريع للشاعر ولهزيمة أعدائه أو نهايتهم .

يقول عمرو بن كلثوم :

وقــد علــم القــبائل مــن معــد	إذا قـــبب بأبطحهـــا بنيـــنا
بأنـــا العاصـــمون بكـــل كحـــل	وأنـــا الـــباذلون لمجتديـــنا
وأنـــا المانعـــون لمـــا يليـــنا	إذا مـــا البـــيض زايلـــت الجفـــونا
وأنـــا المـــنعمون إذا قـــدرنا	وأنـــا المهلكـــون إذا أتيـــنا
وأنا الشاربـــون المـــاء صفـــوا	ويشـــرب غيرنا كـــدرًا وطينا

ومما قال الحارث بن حلزة :

هـــل علمـــتم أيـــام ينـــتهب الـــنا	س غـــوارًا لكـــل حـــي عـــواء
إذ رفعـــنا الجمـــال مـــن ســـعف البحـــ	ـــرين ســـيرًا حـــتى نهاهـــا الحســـاء
ثم ملنـــا علـى تميـــم فأحرمـــ	ـــنا وفينـــا بنـــات مر إماء

ففـــي قـــول عمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة لا نكاد نرى صورًا جديدة كصورة الذلة لنســـاء الخصم في قول الحارث (... وفينا بنات مر إماء) وقول عمرو : (... إذا قبب بأطحها بنيـــنا) لكـــن تلـــك الصـــور تبرز حين نرى الرغبة من الشاعر في إثبات البطولة والحط من شأن الخصوم.

ونخرج من هذين النمطين للصور المتتابعة بأن الصور في البناء التتابعي المتأني فيها فسحة من الخـــيال وبالتالي يتسع إيحاؤها أما النمط الثاني (السريع) فتكون صوره عامة وتفتقد فسحة الخيال وضيق الإيحاء حتى كأنها أخبار تقريرية خاصة عند الحارث بن حلزة .

٢ - البنـــــاء الممتـــد :

والمقصـــود به تلك " الصورة التي تتسع لتشمل مجالاً واسعًا من المشهد الذي تنقلنا الصورة إلى طبيعـــته حـــيث لا يكتفى في كثير من الأحيان بالإجمال ، بل يستغرق في التفاصيل حتى يصبح الطرف الثاني للصورة موضوعًا رئيسًا في اهتمام الشاعر يتتبع عالمه ويرصد حركته "[١].

وهـــذا الـــنوع من الصور نجده بجلاء تام لدى شاعر المعلقة وهو يستقصي صورة المشبه به

---

(١) السابق – ص : ١٦٧.

ويفصلها تفصيلاً دقيقًا على النحو الذي نراه عند النابغة الذبياني في وصفه لناقته أو عنترة في تشبيهه طـيب رائحة فم عبلة بفأرة المسك والروضة وكذلك لبيد بن ربيعة في تشبيهه ناقته بوحش وجرة ومـا كـان منه من استقصاء عجيب للمشبه به ولا ننسى أيضًا عبيد بن الأبرص وهو يشبه فرسه باللقوة .

كمـا أنـنا قد نجد امتدادا لصورة الظعائن حيث الاستغراق في تفاصيل سيرها كما يتضح ذلك لدى زهير بن أبي سلمى وهو يسترجع طيف الأحبة الظاعنين ونزولهم في الموطن الذي يريدونه في طمأنينة وأمن وسلام .

إلا أنـنا هـنا سـنعرض لنموذجين لهذا النوع من الصورة أولهما للنابغة الذبياني وثانيهما للأعشى ميمون.

يقول النابغة الذبياني :

كـأن رحلـي وقـد زال الـنهار بـنا ... يـوم الجليـل علـى مسـتأنس وحـد
مـن وحـش وجـرة موشـي أكارعـه ... طـاوي المصـير كسـيف الصيقل الفرد
سـرت علـيه مـن الجـوزاء سـارية ... تزجـي الشـمال علـيه جامـد الـبرد
فارتـاع مـن صـوت كـلاب فبات له ... طـوع الشـوامت من خوف ومن صرد
فبـثهن علـيه واسـتمر بـه ... صـمع الكعـوب بـريئات مـن الحرد
وكـان ضـمران مـنه حـيث يـوزعه ... طعـن المعـارك عـند المحجـر الـنجد
شـك الفريصـة بالمـدرى فأنفـذها ... طعـن المبيطـر إذ يشـفي مـن العضـد
كأنـه خارجًـا مـن جـنب صـفحته ... سـفود شـرب نسـوه عـند مفـتأد
فظـل يعجـم أعلـى الـروق منقبضًـا ... في حالـك اللـون صـدق غير ذي أود
لمـا رأى واشـق إقعـاص صـاحبه ... ولا سـبيل إلى عقـل ولا قـود
قالـت لـه الـنفس : إني لا أرى طمعًا ... وإن مـولاك لم يسـلم ولم يصـد
فتلك تبلغني النعمـان أن له ... فضلاً على الناس في الأدنى وفي البعـد

جـاء هـذا الامتداد للصورة في إطار المشبه به حيث نرى النابغة يشبه رحله بوحش وجرة فيستغرق في تفصيل المشبه به حتى كأنه موضوع رئيس في اهتمام الشاعر يتتبع عالمه ويرصد حركته بـل وقد تعدى به الأمر إلى إبراز الأحاسيس النفسية والصفات الإنسانية لذلك الوحش الذي قدمه النابغة لنا منفردًا ينظر بعينه لأنه أحس إنسيًا ، وهو واقف ضامر البطن مختلف ألوان الأكارع يلمع

كسـيف مجلـو لا مثيل له ، وقد هطلت على المستأنس المذكور سحابة من برج الجوزاء في الحال الـذي كانت فيه ريح الشمال تسوق عليه هي أيضًا البرد الشديد ، وفجأة يفزع من صوت صياد فيـبات خاضعًا ذليلاً بسبب شدة الخوف والبرد وفي ذلك ما يسر من يشمت به ، وما يلبث ذلك الـثور الوحشـي أن يرسـل الصياد كلابه عليه من جميع الجهات تراوغه وتلاحقه فيخاف الكلب ضـمران من الثور الوحشي أن يطعنه بقرنه في مقتل من مقاتله فيرديه قتيلاً قرب المكان الذي كان يـأوي إليه المستأنس ، وبالفعل يشك الثور الوحشي فريصة الكلب بقرنه القوي كما يشك البيطار حديدتـه في عضد الدابة المصابة بداء العضد فيخرج القرن من جنب الكلب كحديدة الشواء التي تركت في مكان شوي اللحم زمنًا فيظل الكلب يعض القرن النافذ من صفحته منقبضًا متألمًا والقرن مستقيم غير معوج ، وحينما رأى الكلب واشق ما نزل بصاحبه ضمران من الموت السريع وذهاب دمه هدرًا دون أن يوجد من يقتص له من ثور الوحش حدثته نفسه فقالت له : إني لا أرى طمع بهذا الـثـور ، ولا سـبيل عليه وأن صديقك لم يسلم من بطشه ولم يقدر على صيده والكف عن ذلك أسلم.

وبعـد ذلك أخذ يعيد الذهن إلى راحلته بقوله : (فتلك تبلغني النعمان ...) ولك أن ترى امتداد الصورة لدى الشاعر نفسه وهو يشبه الملك النعمان بسليمان الحكيم .

وربما يسأل سائل فيقول : وما سر هذا الاستقصاء العجيب والتفصيل الدقيق للمشبه به ؟

في رأيـي أن هذا التفصيل والاستقصاء إنما يعود سببه إلى كون الشاعر رأى في تلك الصورة الممتدة فرصـة لإبـراز كثير من قيمه وأخلاقه إلى جانب إبراز أخلاق خصومه لم يكن ليجدها في التشبيه المجمل ولذلك عطف إلى التفصيل فوق أنه قد وجد في ذلك المشهد الطبيعي المادة الخصبة التي ألقى عليها بظلال نفسه ورمز بأبطالها إلى نفسه وهو يعطي لها حرية الدفاع أمام الملك النعمان مما رماه به الواشون والحاقدون .

ومـن الصورة الممتدة ما جاءت في وجه من وجوه التفريع وهو عبارة عن "إتيانك بقاعدة تكون أصلاً ومقدمة لما تريده من المدح أو الذم ثم تأتي بعد ذلك بتفصيل المديح وتعينه بعد إجمـالك له أولاً "[١].

ومن الأمثلة على ذلك قول الأعشى الذي جاء على هيئة (ما ... بأفعل) حيث يقول بعد

(١) يحيى بن حمزة بن علي العلوي – الطراز : ١٣٢/٣ .

أن أراد إبراز جرأته المقوتة على الدخول إلى معشوقته والتلذذ بجمالها الحسي :

مـــا روضـــة من رياض الحزن معشبة	خضـــراء جـــاد علـــيها مســـبل هطـــل
يضـــاحك الشمس منها كوكب شرق	مـــؤزر بعمـــيم النـــبت مكـــتهل
يومًـــا بـــأطيب منهـــا نشر رائحة	ولا بأحســـن منهـــا إذ دنـــا الأصل

ففي هذه الصورة التي تمتد بين حرف النفي وأفعل التفضيل تقف على أحوال المشبـــــه به (الروضـــة الموجـــودة في أرض مرتفعة ذات الأعشاب الكثيرة الخضراء بسبب سقوط المطر الغزير علـــيها وذات الزهور التي تدور مع الشمس حيثما دارت) ولا يخفى ما في الصورة من إبراز لجمال تلك المرأة وحصانتها التي لم يصل إليها إلا الأعشى ومن ثم إبراز الجرأة والشجاعة المقوتة في نظرنا وقمة الشجاعة في نظر الشاعر .

وشـــاعر المعلقـــة عندما يوظف هذا النوع من الصورة يحاول أن يحمل تلك التفصيلات قدرًا كـــبيرًا من الصفات والقيم والأخلاق الإنسانية التي يريد إيصالها إلى متلقيه في صورة رائعة يتعلق بها ذهـــن المتلقي حتى النهاية ومن ثم يكون الشاعر قد ضمن وصول رسالته الإنسانية والأخلاقية ، ولا يشـــترط أن يكـــون ذلـــك التفصيل في أحد طرفي التشبيه فقد يكون عند الشاعر تشبيهات عدة تتواصل صورها مع امتداد أحداث اللوحة الفنية جامدة ومتحركة تمتد أحداثها وصورها إلى النهاية المحـــددة لهـــا محملة بالقيم والأخلاق التي يريد الشاعر بثها إلى متلقيه ، ومن تلك اللوحات الفنية الـــرائعة ذات الصورة الممتدة لوحة الظعائن لدى زهير بن أبي سلمى في معلقته حيث يقدم للطرفين المـــتحاربين صـــورة رائعة يحاول أن يبث من خلالها ما يخدم غرضه الأخلاقي من المعلقة كلها وهو الدعوة إلى الأمن والسلام والمحبة والوئام بعيدًا عن أشباح الحرب .

ولك أن تقف مع أبيات تلك الصورة الرائعة التي تبرز الحالة الآمنة الهانئة لتلك الظعائن التي عملت بمقتضى كل ما يوفر سبل الراحة والسلام والطمأنينة والأمن وكأن الشاعر يقدم صورة حية للحياة الآمنة من خلال صورة الظعائن تلك إلى الطرفين المتحاربين ليتفكروا ويتذكروا أن الحرب لا تجلـــب علـــيهم إلا الـــدمار وأن الخير كل الخير في الالتزام من الفريقين بالقيام بما يوفر لهم الأمن والطمأنينة والسلام الذي أصبح تحقيقه حلمًا لكل فرد من أفراد الطرفين المتحاربين بعد أن أنهكتهم ويلات الحروب .

يقول زهير بن أبي سلمى :

تبصـــر خليلـــي هـــل تـــرى من ظعائن — تحملـــن بالعلـــياء مـــن فـــوق جـــرثم
جعلـــن القـــنان عـــن يمـــين وحـــزنه — وكـــم بالقـــنان مـــن محـــل ومحـــرم
وعـــالين أنماطًـــا عـــتاقًا وكلـــة — وراد الحواشـــي لـــونها لـــون عـــندم
ظهـــرن مـــن الســـوبان ثم جـــزعنه — علـــى كـــل قـــيني قشـــيب ومفـــأم
ووركـــن في الســـوبان يعلـــون متـــنه — علـــيهن دل الـــناعم المتـــنعم
كـــأن فـــتات العهـــن في كـــل مـــنزل — نـــزلن بـــه حـــب الفـــنا لم يحطـــم
بكـــرن بكـــورًا واســـتحرن بســـحرة — فهـــن ووادي الـــرس كالـــيد في الفـــم
فلمـــا وردن المـــاء زرقًـــا جمامـــه — وضـــعن عصـــي الحاضـــر المتخـــيم
تذكـــرني الأحـــلام ليلـــى ومـــن تطف — علـــيه خـــيالات الأحـــبة يحلـــم
وفيهـــــــن ملهى للطيف ومنظـــــر — أنيق لعين النـــــــاظر المتوســـــــم

ولـــك أن تعود إلى ما كتبناه في شرح هذه الأبيات في الفصل الثاني من هذه الدراسة لتتعرف إلى مرامي الشاعر الأخلاقية والإنسانية وراء تقديم هذه الصورة الجميلة .

وأخيرًا ، أود أن أشير إلى أن وجود مثل هذا النوع من الامتداد في نصوص المعلقات وغيرها مـــن نصـــوص الشـــعر العربي الجاهلي يعد " إبطالاً لمقولة أن القصيدة العربية تعتمد على وحدة البيـــت "[١].

٣ - البنـــاء التقابلي :

البـــناء التقابلي أو الصور المتقابلة " ما يظهر من مقابلة بين صورة وأخرى عن طريق مباينة إحـــدى الصـــورتين للأخـــرى نحو السلب أو الإيجاب "[٢] وهذا النوع مهم جدا في إبراز صورة الأخـــلاق في المعلقات العشر خاصة إذا أدركنا أن شاعر المعلقة يهدف في أغلب الحالات إلى إبراز الفضـــائل الخلقية وإثباتها لنفسه ولمن ينتمي إليه بشتى صور الانتماء ، ونفي الرذائل عنه وعمن يحب وإثباتها على أعدائه أو مناظره .

(١) عالي سرحان القرشي – المرجع السابق – ص : ١٧٩ .

(٢) عالي سرحان القرشي – السابق – ص : ١٨١.

ولنا أن نقف مع نماذج مختارة من شعر المعلقات العشر جاءت على هذا النوع من البناء التقابلي لنرى من خلاله أثر القيم والقضايا الأخلاقية في تشكيل قصائد المعلقات العشر .

ففي معلقة امرئ القيس نرى صورة تقابلية في قوله :

تصد وتبدي عن أسيل وتتقي   بناظرة من وحش وجرة مطفل

فصورة الصدود تقابل الظهور فالمحبوبة تتمتع بخلق الحياء الذي يحبه الرجال في النساء فتعرض عنه استحياء وتظهر في إعراضها خدا طويلا ناعما كما أنها تتقي النظر إليه أحيانا وتسارقه النظرات بعيون كعيون الظباء أحيانا أخرى .

وقد يقابل الشاعر بين صورتين بطريق النفي والإثبات كما في قول امرئ القيس أيضًا وهو يكشف عن مظهر خلقي لديه حيث المداومة على التعلق بالنساء والإصرار على ذلك وهو يقول :

تسلت عمايات الرجال عن الصبا   وليس فؤادي عن هواك بمنسل

فبينما عشق العشاق قد بطل وزال فإن عشقه باق وثابت لا يزول ولا يبطل .

وتأتي المقابلة في نصوص المعلقات العشر على ثلاثة أوجه :

١ – <u>تقابل في الصورة الواحدة ذات البيت الواحد أو البيتين :</u>

وهذا النوع من التقابل في الصورة يعتمد على الطباق بنوعيه الموجب والسالب كما رأينا في بيتي امرئ القيس السابقين .

ومن الأمثلة لذلك الوجه من البناء التقابلي قول طرفة بن العبد وهو يجلي لنا عن مظهر خلقي عقلي لديه يتمثل في صواب الرؤية :

لعمرك ما أدري وإني لواجل   أفي اليوم إقدام المنية أم غد؟
فإن تك خلفي لا يفتها سواديا   وإن تك قدامي أجدها بمرصد

ولا يخفى عليك ما بين اليوم والغد وخلف وقدّام من تقابل .

ثم استمع إليه وهو يؤكد لنفسه ويثبت لها إنجاز الوعد بينما لا يحب أن يكون غادرًا مخلاف الموعدة :

وإني وإن أوعـــدته أو وعـــدته لمخلـــف إيعادي ومنجز موعـــدي

كما أن طرفة ذو عفة فهو سريع إلى المكارم مقلع عن الفحشاء وليس ممن يكون :

بطيء عن الجلـــى سريع إلى الخنـــا ذلـــول بأجماع الرجـــال ملهد

وفي معلقـــة زهير الكثير من هذا البناء التقابلي خاصة في حكمه التي منها قوله موضحًا أن المرء لا عز له إلا بقومه :

ومـــن يغترب يحسب عدوًّا صديقه ومـــن لا يكرم نفسه لا يكرم

وهـــذا لبيد بن ربيعة يقدم لنا صورة من صور حزمه وعدم انسياقه مع العواطف فهو يوجه بقطـــع الحاجة ممن تعرض وصله للانتقاض وهذه صورة يقابلها عدم معاجلة الصديق بقطع المودة ما ثبت عليها فإن تغير وجبت مقاطعته .

يقول :

فاقطـــع لـــبانة مـــن تعـــرض وصـــله ولشـــر واصـــل خلـــة صـــرّامها

واحب المجامـــل بالجزيـــل وصرمه بـــاق إذا ضلعـــت وزاغ قوامها

وهذا عنترة بن شداد يبرز لنا صبره الشجاع من خلال قوله :

تمسي وتصبح فوق ظهـــر حشيـــة وأبيـــت فـــوق سراة أدهم ملجم

والشـــواهد على هذا الوجه كثيرة عند شعراء المعلقات في معلقاتهم لكننا رأينا أن نكتفي بالنماذج السابقة .

٢ – تقابل داخل مجموعة الصورة الواحدة :

وهـــذا الـــوجه من التقابل نجده عند شاعر المعلقة في مثل قول لبيد بن ربيعة وهو يقدم لنا صورة أخرى من صور حزمه المتمثلة في مناظرة الخصوم ومعرفة مواطن القوة والضعف عنده فها هو في دار الملـــوك التي يغشاها الوفود ويجهل غرباؤها بعضهم بعضا وترجى فيها عطايا الملوك وتخشى فيها معايب تلحق بالرجال وها هو ينكر الباطل ويقر بما كان حقًّا وهو يقول :

وكـــثيرة غـــرباؤها مجهـــولة ترجـــى نـــوافلها ويخشـــى ذامهـــا

غلـب تشـذر بالذحـول كأنها   جـن البدي رواسيا أقدامها
أنكـرت باطلها وبؤت بحقها   يوما ، ولم يفخر علي كرامها

فهـذه الصـورة للبيد بن ربيعة تظهر تميزه على خصومه ، كما يتجلى فيه لبيد قوي القلب صادق العزم لا يخشى أحدا .

وهـذا عنترة بن شداد أمام عبلة يبرز كثيرًا من شمائله ما بين صبر وشجاعة وإقدام في الحرب وعفة عند المغنم بل إنه ليقدم صورة عجيبة للمحب الصادق في حبه وهو يذكر محبوبته عبلة منتشيا مـع تلـك الذكرى في أحلك الظروف (في الحرب) فيود تقبيل السيوف التي تقطر من دمه لأنها لمعت كثغر عبلة الباسم الجميل :

يقول :

هـلا سـألت الخيل يـا ابـنة مالـك   إن كـنت جاهلـة بمـا لم تعلمـي
إذ لا أزال علـى رحالـة سـابح   نهـد تعـاوره الكمـاة مكلـم
طـورًا يجـرد للطعـان وتـارة   يـأوي إلى حصـد القسـي عرمـرم
يخـبرك مـن شـهد الوقـيعة أنـني   أغشـى الوغـى وأعـف عـند المغـنم
ولقـد ذكـرتك والـرماح نـواهل   مـني وبـيض الهـند تقطـر مـن دمـي
فوددت تقبيل السيـوف لأنـها   لمعـت كبـارق ثغـرك المتبسـم

وهـذا عمـرو بن كلثوم يقدم لنا نوعًا آخر من صور الأخلاق في معلقته يتمثل في التقابل داخـل البـناء التتابعي الذي مر بنا ليتآزر البناءان في تقديم صورة حية لمجموعة مظاهر أخلاقية مما يقـوي القـول بوجـود الوحدة العضوية في القصيدة العربية القديمة فها هو عمرو يقابل بين المنع والـبذل الإحسـان والإهلاك ، وشربه وقومه الماء صفوا بينما يشرب غيرهم الكدر والطين حيث يقول :

بأنـا العاصـمون بكـل كحـل   وأنـا الـباذلون لمجتديـنا
وأنـا المانعـون لمـا يليـنا   إذا مـا البـيض زايلـت الجفـونا
وأنـا المعمـون إذا قـدرنا   وأنـا المهلكـون إذا أتيـنا
وأنا الشـاربون الـماء صفـوا   ويشـرب غيرنـا كـدرًا وطينـا

وفي مظهر الصدع بالحجة لدى الحارث بن حلزة نرى لونًا آخر من البناء التقابلي حيث نرى تفصيلاً لصورة الجهل المطبق على الخصم يبدأ بأنباء مجملة يفصلها الحارث تفصيلاً يقوم على التقابل بين البريء وذي الذنب والعشاء والصبح والمنادي والمجيب وهذا ما نراه من خلال قوله :

وأتانا عن الأراقم أنبا	ء وخطب نعنى به ونساء
إن إخواننا الأراقم يغلو	ن علينا في قولهم إحفاء
يخلطون البريء منا بذي الذنـ	ـب ولا ينفع الخلي الخلاء
زعموا أن كل من ضرب العيـ	ـر موال لنا وأنا الولاء
أجمعوا أمرهم عشاء فلما	أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء
من مناد ومن مجيب ومن تصـ	ـهال خيل خلال ذاك رغاء

وقد يتآزر البناء التقابلي أيضًا مع البناء الممتد لتمتد الصورة مفصلة من خلال التقابل الذي يؤدي إلى تفصيل الصورة الممتدة كما نرى في معلقة النابغة الذبياني وهو يشبه الملك النعمان بسليمان الحكيم ثم يتفرع بذلك الأصل ويفصله تفصيلاً يعتمد على البناء التقابلي حيث يقابل بين الطاعة والمعصية والنفع والعقاب والقوة في النهي عن الظلم وعدم الذل والغيظ فيقول :

ولا أرى فاعلا في الناس يشبهه	ولا أحاشي من الأقوام من أحد
إلا سليمان إذ قال الإله له :	قم في البرية فاحددها عن الفند
وخيس الجن أني قد أذنت لهم	يبنون تدمر بالصفاح والعمد
فمن أطاعك فانفعه بطاعته	كما أطاعك وادلله على الرشد
ومن عصاك فعاقبه معاقبة	تنهى الظلوم ولا تقعد على ضمد

أما عبيد بن الأبرص فإنه يقدم لنا مظهر العدل المتمثل في صورة المساعدة بالنصح والتبصير عن طريق البناء التقابلي المعتمد على تجلية الصورة وضدها فليس العاقر مثل ذات الرحم وليس الغانم كمن يخيب ولا يعظ الناس من لا يعظ الدهر ، وربما يعود الشانئ حبيبًا والحبيب شانئًا .

يقول عبيد :

أعاقر مثل ذات رحم	أو غانم مثل من يخيب
أفلح بما شئت فقد يدرك بالضعـ	ـف وقد يخدع الأريب

لا يعظ الناس من لا يعظ الدهـ ر ولا ينفع التلبيب

لا ينفع اللب عن تعلم إلا السجيات والقلوب

فقد يعودن حبيبًا شانئ ويرجعن شانئا حبيب

٣ – أما ثالث وجوه البناء التقابلي في شعر المعلقات فهو" المقابلة التي تأتي عن طريق المقارنة بين الصورتين"[1] وقد جاء هذا الوجه من البناء على ثلاثة أنواع :

الأول : صورة العدو الذليلة والصورة الغالبة للشاعر وقومه : كما في قول عمرو بن كلثوم وهو يقارن بين حاله وقومه الشجعان وبين حال عدوه الذليلة حيث يقول :

وأيام لنا غر طوال عصينا الملك فيها أن ندينا

وسيد معشر قد توجوه بتاج الملك يحمي المحجرينا

تركنا الخيل عاكفة عليه مقلدة أعنتها صفونا

وقد هرت كلاب الحي منا وشذبنا قتادة من يلينا

متى ننقل إلى قوم رحانا يكونوا في اللقاء لها طحينا

يكون ثفالها شرقي نجد ولهوتها قضاعة أجمعينا

الثاني : التقابل بالتماثل بين الصورتين : وفيه يتجلى مظهر الخلق العدلي (إنصاف الخصم) ومثل هذا قول الأعشى الذي يصرح بكلمة (أمثالكم ، يا قومنا) حيث يقول :

كلا زعمتم بأنا لا نقاتلكم إنا لأمثالكم يا قومنا قتل

نحن الفوارس يوم الحنو ضاحية جنبي فطيمة لا ميل ولا عزل

قالوا : الطراد فقلنا : تلك عادتنا أو تنزلون فإنا معشر نزل

ولا يخفى ما بين لا نقاتل وقتل ، والطراد أي : المحاربة على ظهور الخيل وبين النزال والمحاربة على الأرجل من تقابل .

الثالث : التقابل بين الصورتين ضمنًا لغرض تحقير الخصم والسخرية اللاذعة منه : ويتضح هذا الوجه الأخير من وجوه البناء التقابلي عندما يريد الشاعر أن يحقر خصومه ويسخر منهم كما فعل الحارث بن حلزة الذي وظف إلى جانب الاستفهام الساخر هذا النوع من البناء

---

(١) عالي القرشي – المرجع السابق – ص : ١٨٧ .

ليكون جامع التقابل (ليس علينا بل عليكم !) وهو يقول :

أم علينا جناح كندة أن يغـ ـنم غازيهم ومنا الجزاء ؟

أم علينا جرى حنيفة أو ما جمعت من محارب غبراء ؟

أم جنايا بني عتيق ؟ فمن يغـ ـدر فإنا من حربهم برآء

أم علينا جرى العباد كما نيـ ـط بجوز المحمل الأعباء

أم علينا جرى قضاعة أم ليـ ـس علينا فيما جنوا أنداء

أم علينا جرى إياد كما قيـ ـل لطسم : أخوكم الأبّاء

وهكذا رأينا فيما سبق جليا أنواع البناء الفني لصورة القيم والقضايا الأخلاقية على مختلف مظاهرها وصورها في نصوص المعلقات العشر ، وبان لنا ما للقيم والقضايا الأخلاقية من أثر في تشكيل نصوص المعلقات العشر حيث إن شاعر المعلقة كما رأينا لم يقدم لنا المظاهر والصور الأخلاقية بشكل تقريري بحت وإنما أبرزها لنا في تعبير فني شعري جميل وظف فيه عناصر الصورة الشعرية الفنية جميعها حتى نسج لنا هذا البناء الشعري الجميل الذي لا يزال مثار إعجاب الشعراء والنقاد ودارسي الأدب العربي .

الخـــاتمة

إن الجانـــب الخلقي جانب مهم جدا خاصة بعد أن عرفنا من خلال دراستنا هذه أن القيم والقضايا الأخلاقية هي الرسالة التي وجد من أجلها الشعر العربي على وجه الخصوص حيث كانت الأخـــلاق عـــند العرب في الجاهلية المنبع الوحيد الذي منه ينهلون وعنه يصدرون مما أوجد عندهم وحـــدة في التصـــور وتماثلاً في التصوير ، ولا أدري كيف أغفل بعض الباحثين هذا الجانب المهم في تشكيل القصيدة العربية القديمة ؟ لذلك اتجهت في صفحات رسالتي هذه إلى رسم خط بياني يرصد مظاهـــر وصور أصول الأخلاق الإنسانية الأربعة (العقل ـــ الشجاعة ـــ العدل ـــ العفة) متخذا من نصوص المعلقات العشر أرضًا خصبة وصالحة لهذا النوع من البحث فوجدت أن الجانب الخلقي بمظاهـــره وصوره المختلفة قد أخذ مكانًا واسعًا في تلك النصوص وأن ما من بيت في تلك النصوص إلا وينطوي على مظهر أخلاقي معين ، كما وجدت أن الالتزام الأدبي عند الشعراء الجاهليين اتخذ مناحٍ ثلاثة :

١ – المنحى الخلقي . ٢ – المنحى القبلي . ٣ – المنحى الاختلاقي .

شكلتها بواعث الأخلاق ومصادرها في نفس الشاعر العربي الجاهلي .

وبالـــبحث في تحديد إطار خلقي لكل معلقة من المعلقات العشر وجدت أن أبيات كل معلقة تـــنطوي علـــى أهـــداف خلقية ومظاهر وصور أخلاقية متنوعة لم تخرج عن الانتماء إلى واحدة من أمهـــات الفضائل الأربع مما أكد لي أن وحدة التصور لدى الشعراء الجاهليين مردها إلى الوحدة في التصـــور الخلقـــي ليس غير. إلا أنني لم أكتفِ بهذه النتيجة بل قمت بوضع استبيانة توضح فضائل ورذائل الشعراء العشرة في معلقاتهم حسب أصول الأخلاق فتـــأكد لي أن مظاهر الفضيلة عند كل شاعر هي الأغلب مما يؤكد أن الأصل في الإنسان حب الفضيلة ومكارم الأخلاق وأنه مهما ختقت رذائل الشاعر فضائله فإن جذوة الفضيلة باقية ومتأصلة فيه فهي الأبقى والأقوى .

بعـــد ذلـــك اتجهت إلى البحث في عناصر الصورة الأدبية ، وكذلك مصادر الصورة الفنية لأصول الأخلاق عند شعراء المعلقات العشر فوجدتها لا تخرج عن ثلاثة مصادر (طبيعي ـــ حيواني ـــ بشري) استمد شاعر المعلقة منها صوره الفنية بأنماطها الأربعة (التشبيه ـــ المجاز ـــ الكناية ـــ الرمـــزية) ولعـــل أهم ما وصلت إليه في هذا المجال أن من الخطأ الفادح أن ننظر إلى الشعر العربي القـــديم والجاهلـــي مـــنه خاصة بنظريات أدبية غربية لها ظروفها المتنوعة التي نشأت عليها ، وإنما

الـــواجب أن نـــبدأ مما انتهى إليه علماؤنا ونقادنا القدماء خاصة وأن ظروف نشأة الشعر الجاهلي وطبيعـــته لا تخضـــع لنظريات الغرب الأدبية خاصة الرمزية . وقد توصلت من خلال قراءة متأنية لعلمـــاء البلاغة والنقد واللغة القدماء من العرب والمسلمين إلى أن الرمزية في الشعر العربي الجاهلي خاصـــة هـــي : محاولة من الشاعر إغراء المتلقي بالإشارة والإيماء له بصور تعبيرية فنية يكون وراء معناها المباشر معنى آخر يقصده الشاعر ويرمي إليه . وقد رأيت في هذا التعريف التخفيف من وطأة الرمزية بمفهومها الغربي .

وأخـــيرا وجهـــت وجهي إلى أمر مهم آخر كان ختاما لدراستي هذه وذلك الأمر هو أنواع البناء الفني لصورة الأخلاق في المعلقات العشر فوجدت أن ذلك البناء يتمثل في :

١- البناء التتابعي . ٢ - البناء الممتد . ٣ - البناء التقابلي .

ورأيـــت أن هذا النوع من البناء الفني ينطبق على نصوص المعلقات العشر جميعها بل وعلى نـــص أي قصـــيدة جاهلية أخرى . بل لقد أثبت هذا النوع من البناء الفني صدق القول بالوحدة الموضوعية للقصيدة الجاهلية وأبطل مقـــولة : (إن القصيدة العربية تعتمد على وحدة البيت)[١].

هذا وقد كان الطريق أمامي شائكًا جدًا نظرا لما حظيت به المعلقات العشر من دراسات كثيرة مـــن قبل الباحثين إلا أن الجانب الخلقي لم يجد منهم اهتمامًا لذا أهيب بطلبة العلم وزملائي طلاب الدراسات العليا بأن يتجهوا إلى البحث في هذا الكنز العظيم في النصوص العربية الأخرى ليكشفوا الحجـــب عـــن كـــثير مـــن أســـرار النصوص الشعرية والنثرية التي تزخر بمظاهر وصور الفضائل والأخلاق.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

محمد بن عبد الله بن حسين الغامدي

١- عالي سرحان القرشي – الصورة الفنية في شعر بشر بن أبي خازم – ص : ١٧٩.

المصادر والمراجع

١- القرآن الكـــــــريم .

٢- أبـــو العـــلاء المعري . رسالة الغفران . تحقيق الدكتورة : عائشة عبد الرحمن . طبعة : دار المعارف بمصر (١٩٥٠م) .

٣- أبو الفرج الأصفهاني . الأغاني . الطبعة : الأولى . دار الفكر (١٤٠٧هـ -١٩٨٦م)

٤- أبو زيد محمد بن الخطاب القرشي . جمهرة أشعار العرب . تحقيق : خليل شرف الدين. طبعة : دار مكتبة الهلال . بيروت (١٩٩٩م) .

٥- أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي . الأمالي . طبعة : دار الكتب العلمية . بيروت (د.ت) .

٦- أبـــو هـــلال العسكري . كتاب الصناعتين . طبعـــة : دار الكتب العلمية . بيروت (١٩٨٤م).

٧- أبـــو يحـــيى محمـــد بن صمادح التجيبي . من مختصر تفسير الإمام الطبري . طبعة دار الفجر الإسلامي . الطبعة : الثامنة (١٤١٦هـ - ١٩٩٥م) .

٨- أحمـــــــد بن حنبل . المسند .شرح وتحقيق :أحمد محمد شاكر .دار المعـــارف المصرية (١٩٨٥م).

٩- أحمـــد بن خالد الناصري السلاوي . كتاب قطوف الريحان من زهر الأفنان شرح حديقة ابن الونان . بقلم : أحمد بن محمد الأمين الجكني . الناشر : عبد الله محمد مصطفى بابا الشنقيطي الطبعة : الأولى . دار السلام للطباعة والنشر . القاهرة (١٤١٣هـ - ١٩٩٣م) .

١٠- أرسطو طاليس . علم الأخلاق . ترجمة : أحمد لطفي السيد . دار صادر (١٣٤٣ -١٩٢٤) .

١١- الأعشى . الديوان . دار صادر . بيروت (١٤١٤هـ - ١٩٩٤م) .

١٢- الأعلـــم الشنتمـــــري . أشعار الشعراء الستة الجاهليين . الطبعة : الأولى . دار الفكر (١٩٨٢م) .

١٣- الآمدي . المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء وكناهم . تصحيح : كرنكو . مكتبة القدسي (١٣٥٤هـ) .

١٤- الآمـــدي . المـــوازنة بين شعري أبي تمام والبحتري . تحقيق : السيد أحمد صقر . طبعة : دار المعارف . القاهرة (د.ت) .

١٥- الأنباري . شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات . تحقيق : عبد السلام هارون . الطبعة : الثالثة . دار المعارف بمصر (د. ت) .

١٦- ابن الأثير . النهاية في غريب الحديث والأثر . طبعة : القاهرة (١٣١١هـ) .

١٧- ابـن الأثير ، ضيـاء الدين . المثل السائر في أدب الكاتب والشـاعر . القاهرة (١٩٦٠م) .

١٨- ابـن الـنحاس . شرح القصائد التسع المشهورات الموسومة بالمعلقات . طبعة : دار الكتب العلمية . بيروت (د. ت).

١٩- ابن تيميـة . مجموع الفتاوى . نشر : عبد الرحمن بن محمد بن قاسـم . المغرب (١٤٠١هـ) .

٢٠- ابن حبيب . المحبر . تحقيق : إيلزة شتيتر . المكتب التجاري . بيروت (د.ت) .

٢١- ابن خلدون . مقدمة ابن خلدون . طبعة : دار الجيل . بيروت (د. ت)

٢٢- ابـن رشـد . تلخيـص كـتاب أرسـطو طالـيس . نشر وترجمة د/ شكري عياد . مصـر (١٣٨٦)

٢٣- ابـن رشـيق . العمدة في محاسن الشعر وآدابه . تحقيق : د/محمد قرقزان . الطبعة : الأولى. طبعة : دار المعرفة . بيروت (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م) .

٢٤- ابـن سلام . كتاب الأمثال . تحقيق : د / عبد المجيد قطامش . الطبعة : الأولى . دار المأمون للتراث . دمشق (١٤٠٠هـ) .

٢٥- ابـن سـلام الجمحي . طبقات فحول الشعراء . تحقيق : محمود محمد شاكر . مطبعة المدني. القاهرة (د.ت) .

٢٦- ابن سنان الخفاجي . سر الفصاحة . طبعة : القاهرة (١٩٣٢م) .

٢٧- ابـن سـيده . المخصص . قدم له الدكتور / خليل إبراهيم جفال . الطبعة : الأولى . دار إحياء التراث العربي . بيروت (١٤١٧هـ - ١٩٩٦م) .

٢٨- ابـن شـرف القيرواني . مسائل الانتقاد . تحقيق وتقديم : د/ حسن ذكري حسن . طبعة : مكتبة الأزهر . القاهرة (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م) .

٢٩- ابـن طباطبا . عيار الشعر . تحقيق : د/ عبد العزيز بن ناصر المانع . مكتبة الخانجي . القاهرة (د.ت) .

٣٠- ابن عبد ربه الأندلسي . العقد الفريد . تحقيق : محمـــد سعيد العريان . طبعة : دار الفكـــر (د.ت) .

٣١- ابن فارس . أحمد بن فارس . معجم مقاييس اللغة . تحقيق : عبد السلام هـــــــارون دار الفكر بيروت (١٩٧٩م) .

٣٢- ابن فارس . الصاحبي في فقه اللغة . مطبعة المؤيد (١٤١٠هـ) .

٣٣- ابـــن قتيـــبة . الشعر والشعراء . تحقيق وشرح : أحمد شاكر . الطبعة : الثالثة . دار التراث العربي للطباعة (١٩٧٧م) .

٣٤- ابن قتيبة . طبقات الشعر والشعراء . الطبعة : الأولى . عالم الكتب . بيروت (د.ت).

٣٥- ابن منظور . لسان العرب . دار صادر . بيروت .

٣٦- ابن هشام .السيرة النبوية . طبعة : مصطفى البابي الحلبي . القاهرة (١٩٠٥م) .

٣٧- امرؤ القيس . الديوان . طبعة : دار صادر (د. ت) .

٣٨- البخاري . صحيح البخاري . دار القلم . بيروت (١٩٨٧م)

٣٩- بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي .ترجمة : عبد الحليم النجار .دار المعـــارف. مصـــــــر (١٩٥٩م)

٤٠- الـــبغدادي . خـــزانة الأدب ولب لباب لسان العرب . تحقيق : عبد السلام محمد هارون . مطبعة : الهيئة المصرية العامة للكتاب (د. ت) .

٤١- بلاشير . تاريخ الأدب العربي . ترجمة : د/ إبراهيم الكيلاني . الطبعة : الثانية . دار الفكر. دمشق (١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م).

٤٢- البيهقي . السنن الكبرى . طبعة بيروت (د. ت) .

٤٣- التبريزي . شرح القصائد العشر . طبعة : دار الجيل . بيروت (د.ت) .

٤٤- الجـــاحظ . البـــيان والتبيين . تحقيق وشرح :عبد السلام محمد هارون . طبعة : دار الجيل . بيروت (د.ت) .

٤٥- الجـــاحظ . كتاب الحيوان . تحقيق وشرح : عبد السلام هارون . طبعة : دار إحياء التراث العربي . بيروت (د.ت)

٤٦- جـــلال الـــدين الســـيوطي . المزهر في علوم اللغة وأنواعها . تحقيق : محمد أحمد جاد المولى وآخران . القاهرة . الحلبي (١٩٥٨م) .

٤٧- جلال الدين السيوطي ، وجلال الدين أحمد المحلي . تفسير الجلالين . الطبعة : الخامسة . دار المعرفة . بيروت (١٤١٢هـ - ١٩٩٢م) .

٤٨- الجوهري ، أبو نصر إسماعيل بن حماد . عروض الورقة . تحقيق وتقديم الدكتور : صالح جمال بدوي . مطبوعات نادي مكة الثقافي الأدبي (١٤٠٦هـ -١٩٨٥م)

٤٩- الحارث بن حلزة . الديوان . إعداد وتقديم : طلال حرب . طبعة : دار صادر . بيروت (١٩٩٦م).

٥٠- الخطيب التبريزي . شرح ديوان عنترة . قدم له ووضع هوامشه : مجيد طراد . الطبعة : الثالثة دار الكتاب العربي . بيروت (١٤١٨هـ - ١٩٩٨م) .

٥١- الخليل بن أحمد الفراهيدي . كتاب العين . تحقيق : د. عبد الله درويش . مطبعة العاني . بغداد (١٩٦٧م) .

٥٢- الزمخشري . أساس البلاغة . طبعة : دار الفكر . (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م).

٥٣- زهير بن أبي سلمى . الديوان . طبعة : دار صادر . بيروت (د. ت).

٥٤- الزوزني . شرح المعلقات السبع . طبعة : مكتبة دار البيان . بيروت (د. ت) .

٥٥- الشنفرى . الديوان . تحقيق : إميل بديع يعقوب. الطبعة : الأولى . دار الكتاب العربي بيروت (١٤١١هـ - ١٩٩١م) .

٥٦- طرفة بن العبد . الديوان . الطبعة : الأولى . دار القلم العربي بحلب سوريا (١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م) .

٥٧- طرفة بن العبد . الديوان . تقديم وشرح : عبد القادر محمد مايو . الطبعة : الأولى . دار القلم العربي بحلب . سوريا (١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م).

٥٨- طه حسين . حديث الأربعاء . الطبعة : الثانية عشرة . دار المعارف بمصر (د.ت) .

٥٩- طه حسين . في الأدب الجاهلي . الطبعة : السادسة عشرة . دار المعارف . القاهرة (د. ت) .

٦٠- عباس العقاد . المرأة في القرآن . طبعة : دار نهضة مصر (١٩٨٠م).

٦١- عباس محمود العقاد . مطالعات في الكتب والحياة . طبعة : المكتبة العصرية . صيدا . بيروت (د. ت).

٦٢- عبد السلام هارون . تهذيب سيرة ابن هشام . الطبعة : السادسة . القاهرة . مكتبة السنة (١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م).

٦٣- عبد القاهر الجرجاني . أسرار البلاغة . طبعة : دار المعرفة . بيروت (١٩٧٨م) .

٦٤- عبد القاهر الجرجاني . دلائل الإعجاز . تحقيق : محمود محمد شاكر . مكتبة الخانجي . القاهرة (د.ت) .

٦٥- عبد القاهر الجرجاني . دلائل الإعجاز . تصحيح الشيخ محمد عبده رضا . طبعة : محمد رشيد رضا (د.ت) .

٦٦- عبيد بن الأبرص . الديوان . تحقيق وشرح : حسين نصار . مطبعة : مصطفى البابي الحلبي . مصر (١٩٧٥م) .

٦٧- عبيد بن الأبرص . الديوان . طبعة : دار صادر . (د.ت) .

٦٨- العزيز عبد الله الخويطر . إطلالة على التراث . الطبعة : الأولى . الرياض (١٤١٨هـ) .

٦٩- العزيز محمد شحادة . الزمن في الشعر الجاهلي . مؤسسة حمادة للخدمات والدراسات الجامعية (١٩٩٥م).

٧٠- علي بن محمد الجرجاني . التعريفات . طبعة : مكتبة لبنان . بيروت (١٩٨٥م).

٧١- عمرو بن كلثوم . الديوان . جمع وتحقيق : د / إميل بديع يعقوب . الطبعة : الأولى . دار الكتاب العربي . بيروت (١٤١١هـ - ١٩٩١م).

٧٢- عمرو بن كلثوم . الديوان . دار صادر . الطبعة : الأولى . بيروت (١٩٩٦م).

٧٣- عنترة بن شداد . الديوان . الطبعة : الأولى . دار القلم العربي . حلب (١٩٩٩م).

٧٤- الفيروز أبادي ، مجد الدين محمد يعقوب . القاموس المحيط . طبعة : دار الفكر . بيروت (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م) .

٧٥- قدامة بن جعفر . نقد الشعر . تحقيق : كمال مصطفى . الطبعة : الثالثة . مكتبة الخانجي بالقاهرة (د. ت) .

٧٦- القزويني . الإيضاح في علوم البلاغة . طبعة : دار الكتاب اللبناني (١٩٨٠م).

٧٧- لبيد بن ربيعة العامري . الديوان . طبعة : دار صادر . بيروت (د. ت) .

٧٨- لويس شيخو . شعراء النصرانية قبل الإسلام . المطبعة الكاثوليكية . بيروت (١٩٢٢م)

٧٩- مالك بن أنس . الموطأ . صححه ورقمه وخرج أحاديثه وعلق عليه : محمد فؤاد عبد الباقي . طبعة : كتاب الشعب . القاهرة (د.ت) .

٨٠- المبرد . الكامل في اللغة والأدب . تحقيق : أحمد محمد شاكر وزكي مبارك . طبعة : البابي الحلبي . القاهرة (١٩٣٩م) .

٨١- محمود شكري الألوسي البغدادي . بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب . شرحه وصححه : محمد بهجة الأثري . طبعة دار الكتب العلمية . بيروت (د.ت) .

٨٢- المسعودي . مروج الذهب ومعادن الجوهر . تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد . طبعة : دار الفكر (١٤٠٩هـ) .

٨٣- معجم الوسيط . طبعة : دار الفكر . (د.ت) .

٨٤- المفضل بن محمد الضبي . المفضليات . شرح الأنباري . تحقيق : كارولوس يعقوب لايل. طبعة : مكتبة المثنى ببغداد (د.ت).

٨٥- الميداني . مجمع الأمثال . طبعة : دار المعرفة . بيروت (د.ت) .

٨٦- النابغة الذبياني . الديوان . مكتبة دار الهلال . الطبعة : الأولى . بيروت (١٩٩١م) .

٨٧- النابغة الذبياني . الديوان . تحقيق وشرح : كرم البستاني . دار بيروت للطباعة والنشر . بيروت (١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م) .

٨٨- النابغة الذبياني . الديوان . شرح :د/ عمر فاروق الطباع .طبعة : دار القلم . بيروت (د.ت).

٨٩- ياقوت الحموي . معجم البلدان . طبعة : دار إحياء التراث العربي . بيروت (د. ت).

٩٠- يحيى بن عدي . تهذيب الأخلاق . تحقيق : جاد حاتم . دار المشرق . بيروت (١٩٨٥م) .

٩١- إبراهيم أنيس . موسيقى الشعر . الطبعة : الثالثة . مكتبة الإنجلو المصرية (١٩٧٥م).

٩٢- إبراهيم محمد عبد الرحمن . قضايا الشعر في النقد العربي القديم . طبعة : مكتبة الشباب (١٩٧٥م).

٩٣- إحسان عباس . فن الشعر . الطبعة : الأولى . دار الشروق . عمّان (١٩٩٦م) .

٩٤- أحمد أبو حاقة . الالتزام في الشعر العربي . الطبعة : الأولى . دار العلم للملايين (١٩٧٩م) .

٩٥- أحمد أمين . فجر الإسلام . الطبعة : الحادية عشرة . دار الكتاب العربي . بيروت (١٩٧٥م) .

٩٦- أحمد أمين . كتاب الأخلاق . طبعة : دار الكتاب العربي . بيروت (١٩٧٤م) .

٩٧- أحمد الإسكندري وآخرون . المفصل في تاريخ الأدب العربي . الطبعة : الأولى . دار إحياء العلوم . بيروت (١٤١٤هـ - ١٩٩٤م) .

٩٨- أحمد الشايب . أصول النقد الأدبي . الطبعة : العاشرة . مكتبة النهضة المصرية . القا هرة (١٩٩٤م) .

٩٩- أحمد الشايب . الأسلوب . الطبعة : الثامنة . مكتبة النهضة المصرية . القاهرة (١٩٨٨م) .

١٠٠- أحمد بسام ساعي . الصورة بين البلاغة والنقد . الطبعة : الأولى . دار المنارة (١٤٠٤هـ)

١٠١- أحمد بن الأمين الشنقيطي . شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها . طبعة : دار الكتب العلمية . بيروت (د. ت) .

١٠٢- أحمد بن الأمين الشنقيطي . طهارة العرب . (د. ت) .

١٠٣- أحمد عبد الله فرهود ومصطفى اليازجي . المعلقات العشر . الطبعة : الأولى . منشورات: دار القلم العربي بحلب (١٤١٩هـ - ١٩٩٨م) .

١٠٤- أحمد عبد الواحد . عبيد بن الأبرص حياته وشعره . الطبعة : الأولى . مطبوعات : نادي مكة الثقافي الأدبي (١٤١٥هـ - ١٩٩٥م) .

١٠٥- أحمد محمد الحوفي . الحياة العربية من الشعر الجاهلي . الطبعة الخامسة . دار القلم . بيروت. لبنان (١٣٩٢هـ) .

١٠٦- أحمد محمد الحوفي . الغزل في العصر الجاهلي . الطبعة : الأولى . مطبعة: نهضة مصر (د.ت) .

١٠٦- أحمد موسى الجاسم . دراسات في الشعر الجاهلي . الطبعة : الأولى . لينة للنشر والتوزيع . دمنهور (د. ت)

١٠٧- أحمد موسى سالم . لماذا ظهر الإسلام في جزيرة العرب . الطبعة الثالثة . دار الجيل . بيروت (١٤١١هـ - ١٩٩١م)

١٠٨- إيليا حاوي . فن الوصف وتطوره في الشعر العربي . الطبعة : الثانية . دار الكتاب اللبناني . بيروت (د. ت) .

١٠٩- أيـوب صبري باشا . مرآة جزيرة العرب . الطبعة : الأولى . دار الآفاق العربية . القاهرة (١٤١٩هـ - ١٩٩٩م) .

١١٠- بـدوي طبـانة . التيارات المعاصرة في النقد الأدبي . طبعة : دار الثقافة . بيروت (١٩٨٥م) .

١١١- بـدوي طـبانة . قضـايا النقد الأدبي . معهد البحوث والدراسات العربية . المطبعة الفنية الحديثة (١٩٧١م) .

١١٢-بـدوي طـبانة . معجـم الـبلاغة العربية . طبعة : دار العلوم للطباعة والنشر . الرياض (١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م) .

١١٣- بدوي طبانة . معلقات العرب . الطبعة : الثانية . مكتبة الإنجلو المصرية (د.ت).

١١٤- بكري الشيخ أمين . المعلقات السبع . طبعة : دار الإنسان الجديد (د. ت)

١١٥- تشـارلتن . فـنون الأدب . ترجمة : د. زكي نجيب محمود . طبعة : لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة (د . ت) .

١١٦- جابـر أحمـد عصفور . مفهوم الشعر ، دراسة في التراث النقدي . طبعة : دار الإصلاح . الدمام (د.ت) .

١١٧- جابـر عصـفور . الصـورة الفنـية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب . الطبعة : الثالثـة . المركز الثقافي العربي . بيروت (١٩٩٢م)

١١٨- جـبور عبد النور . المعجم الأدبي . طبعة : دار العلم للملايين . الطبعـة : الأولى . (١٩٧٩م) .

١١٩-جـودت فخـر الـدين . الإيقـاع والـزمان . الطـبعة : الأولى . دار الحرف العربي . بيروت (١٩٩٥م) .

١٢٠-جـودت فخـر الدين . شكل القصيدة العربية في النقد العربي حتى القرن الثامن الهجري . الطبعة : الثانية . دار الحرف العربي . بيروت (١٤١٥هـ - ١٩٩٥م).

١٢١- حسـني عـبد الجلـيل يوسف . التصوير البياني بين القدماء والمحدثين . طبعة : دار الآفاق العربية القاهرة (د.ت) .

١٢٢- حسـني عبد الجليل يوسف . عالم المرأة في الشعر الجاهلي . الطبعة : الأولى . الدار الثقافية للنشر . القاهرة (١٤١٨هـ - ١٩٩٨م) .

١٢٣- حسين عطوان . مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي . طبعة : دار المعارف بمصر (د.ت) .

١٢٤- حمد بن ناصر الدخيل . يحيى بن طالب الحنفي ، حياته وشعره . طبعة : الإدارة العامة للثقافة والنشر . جامعة الملك محمد بن سعود الإسلامية (١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م).

١٢٥- حنا نصر الحتي . شرح ديوان زهير بن أبي سلمى . صنعة أبي العباس ثعلب . الطبعة : الثانية دار الكتاب العربي . بيروت (١٤١٦هـ - ١٩٩٥م) .

١٢٦- خليل شرف الدين . ديوان عنترة ومعلقته . طبعة : دار مكتبة الهلال . بيروت(١٩٩٧م).

١٢٧- رشدي علي حسن . شعراء الطبيعة في العصر العباسي الثاني . الطبعة : الأولى . دار عمار . عمان . الأردن (١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م).

١٢٨- ريتشاردز . مبادئ في النقد الأدبي . ترجمة الدكتور : مصطفى بدوي . طبعة : المؤسسة العامة للتأليف والترجمة (د.ت).

١٢٩- سامح غرايبة ويحيى الفرحان . المدخل إلى علوم البيئة . الطبعة : الثالثة . دار الشروق . عمّان الأردن (١٩٩١م) .

١٣٠- سعد أحمد محمد الحاوي . الصورة الفنية في شعر امرئ القيس . الطبعة : الأولى . دار العلوم الرياض (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).

١٣١- سعدي ضناوي . أثر الصحراء في الشعر الجاهلي . الطبعة : الأولى . دار الفكر اللبناني. بيروت (١٩٩٣م) .

١٣٢- سوزان بنكني ستيتكيفيتش . أدب السياسة وسياسة الأدب التفسير الطقوسي لقصيدة المدح في الشعر العربي القديم . ترجمة وتقديم : د / حسن البنا عز الدين . طبعة : الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٩٩٨م).

١٣٣- سيد نوفل . شعر الطبيعة في الأدب العربي . مطبعة : مصر ، القاهرة (١٩٤٥م).

١٣٤- سيف الدين الكاتب وأحمد عصام الكاتب . شرح ديوان النابغة الذبياني . منشورات : دار مكتبة الحياة . بيروت (١٩٨٩م) .

١٣٥- شفيع السيديري . التعبير البياني . طبعة : بدون . (د . ت) .

١٣٦- شكري فيصل . تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام . دار العلم للملايين . الطبعة : الرابعة . دار العلم للملايين (١٩٥٩م).

١٣٧-شـــــوقي ضـيف . العصـر الجاهلــي . الطـبعة : السابعة عشرة . دار المعارف . القاهـــرة (د.ت) .

١٣٨-صالح آدم بيلو . تيارات عقدية وثقافية في الأدب الجاهلي . مطابع الصفا . المملكة العربية السعودية . مكة المكرمة (١٤٠٨هـ) .

١٣٩-صبحي البستاني . الصورة الشعرية في الكتابة الفنية . الطبعة : الأولى . دار الفكر اللبناني . بيروت (١٩٨٦م) .

١٤٠-عالي سرحان القرشي . الصورة الفنية في شعر بشر بن أبي خازم . رسالة دكتوراه مخطوطة . كلية اللغة العربية . جامعة أم القرى .

١٤١-عـباس بيومـي عجــلان . عناصر الإبداع الفني في شعر الأعشى . طبعة : مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية (١٩٨٥م) .

١٤٢-عـبد العزيـز المقــالح . الشـعر بـين الرؤيا والتشكيل . الطبعة : الثانية . دار طلاس . دمشق (١٩٨٥م).

١٤٣- عبد العظيم المطعني . المجاز في اللغة وفي القرآن الكريم بين مجوزيه ومانعيه . الطبعة : الأولى. القاهرة (١٤٠٥هـ).

١٤٤- عبد الفتاح البركاوي . دلالة السياق . طبعة : دار المنار . القاهرة (١٩٩١م).

١٤٥-عـبد الفـتاح صـالح نافع . الصورة في شعر بشار بن برد . طبعة : دار الفكر . عمّان . الأردن (١٩٨٣م) .

١٤٦-عـبد القــادر الرباعي . الصورة الفنية في النقد الشعري . الطبعة : الأولى . دار العلوم . الرياض (١٤٠٥هـ).

١٤٧-عـبد القــادر الرباعي . الصورة الفنية في شعر زهير بن أبي سلمى . الطبعة : الأولى . دار العلوم الرياض (١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م).

١٤٨-عبد القادر حسين . فن البلاغة . الطبعة : الثانية . عالم الكتب . بيروت (١٩٨٤م).

١٤٩-عبد القادر رباعي . الصورة الفنية عند أبي تمام . رسالة دكتوراه مخطوطة . جامعة القاهرة .

١٥٠-عبد الكــريم اليـــــافي . دراسات فنية في الأدب العربي . الطبعة : الأولى . بيروت (١٤١٦هـ) .

١٥١-عبد الكريم زيدان . المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية . الطبعة : الثامنة . مؤسسة الرسالة. بيروت (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م).

١٥٢– عبد الله التطاوي . أشكال الصراع في القصيدة العربية . طبعة : مكتبة الأنجلو المصرية (١٩٩١م).

١٥٣– عبد الله خلف . شعراء المعلقات دراسة تحليلية نقدية . الطبعة : الأولى . المكتب العربي للطباعة .الإسكندرية (د.ت) .

١٥٤– عبد المتعال الصعيدي . بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة . طبعة : دار الشيخة مكة المكرمة (د.ت) .

١٥٥– عبد الملك مرتاض . السبع معلقات . طبعة : اتحاد الكتاب العرب . دمشق (١٩٩٨م).

١٥٦– عبد الواحد علاّم . قضايا ومواقف في التراث البلاغي . مكتبة الشباب . القاهرة (د.ت).

١٥٧– عبده بدوي وآخران . الأدب وروح العصر . منشورات : ذات السلاسل . الكويت (د.ت).

١٥٨– عز الدين إسماعيل . الأدب وفنونه . طبعة : دار الفكر العربي . القاهرة (د.ت).

١٥٩– عز الدين إسماعيل . الأسس الجمالية في النقد العربي . طبعة دار الفكر العربي . القاهرة (١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م) .

١٦٠– عز الدين إسماعيل . التفسير النفسي للأدب . طبعة : دار العودة . بيروت (١٩٦٣م)

١٦١– عز الدين علي السيد . التكرير بين المثير والتأثير . الطبعة : الثانية . عالم الكتب . بيروت (١٤٠٧هـ – ١٩٨٦م) .

١٦٢– عصام السويفي . المرأة في الأدب الجاهلي . الطبعة : الأولى . دار الفكر اللبناني . بيروت (١٩٩١م).

١٦٣– عفت الشرقاوي . دروس ونصوص في قضايا الأدب الجاهلي . طبعة : دار النهضة العربية . بيروت (١٩٧٩م).

١٦٤– عفت الشرقاوي . قضايا الأدب الجاهلي . طبعة : دار النهضة العربية . بيروت (١٩٧٩م).

١٦٥– عفيف طبارة . روح الدين الإسلامي . الطبعة : التاسعة عشرة . دار العلم للملايين . بيروت (١٩٧٩م)

١٦٦– عفيف عبد الرحمن . الأدب الجاهلي في آداب الدارسين قديما وحديثا . الطبعة : الأولى. دار الفكر . عمّان (١٩٨٧م).

١٦٧- عفيف عبد الرحمن . معجم الشعراء . الطبعة : الأولى . دار المناهل . بيروت (١٤١٧هـ).

١٦٨- علي البطل . الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري ، دراسة في أصولها وتطورها . الطبعة : الثالثة . دار الأندلس . بيروت (١٩٨٣م) .

١٦٩- علي الجندي . في تاريخ الأدب الجاهلي . طبعة : دار التراث . المدينة المنورة (١٤١٢هـ) .

١٧٠- علي عبد الحليم محمود . التربية الخلقية . طبعة : دار النشر والتوزيع الإسلامية . القاهرة (١٤١٨هـ) .

١٧١- عمر فروخ .تاريخ الأدب العربي . الطبعة : الخامسة . دار العلم للملايين . بيروت (١٩٨٤) .

١٧٢- غازي طليمات وعرفان الأشقر . الأدب الجاهلي قضاياه . أغراضه . أعلامه . فنونه . الطبعة : الأولى . دمشق . دار الإرشاد بحمص (د.ت) .

١٧٣- غسان إسماعيل عبد الخالق . الأخلاق في النقد العربي من القرن الثالث حتى القرن السادس الهجري . الطبعة : الأولى . المؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت (١٩٩٩م) .

١٧٤- غيروغي غاتشيف . الوعي والفن . ترجمة : نيوف نوفل ومراجعة : سعد مصلوح . سلسلة عالم المعرفة (١٩٩٠م) .

١٧٥- كروتشه . المجمل في فلسفة الفن . ترجمة الدكتور : سامي الدروبي . طبعة : دار الفكر العربي (د. ت).

١٧٦- كمال أحمد غنيم . عناصر الإبداع الفني في شعر أحمد مطر . الطبعة : الأولى . مكتبة : مدبولي (١٩٩٨م) .

١٧٧-لويس عوض . الاشتراكية والأدب ومقالات أخرى . منشورات الآداب . بيروت . الطبعة : الأولى (١٩٦٣م) .

١٧٨- مانع بن حماد الجهني . الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة .الرياض (١٤٠٩هـ).

١٧٩- مجدي أحمد توفيق . مفهوم الإبداع الفني في النقد العربي القديم . طبعة : الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٩٩٣م) .

١٨٠- مجدي وهبة . معجم مصطلحات الأدب . بيروت (١٩٧٤م) .

١٨١- محمد أديب عبد الرحمن جمران . المعجم في الأساليب الإسلامية والعربية . الطبعة : الأولى . الرياض (١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م).

١٨٢- محمد الحسن علي الأمين . الكناية أساليبها ومواقعها في الشعر الجاهلي . مكتبة الفيصلية . مكة المكرمة (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م) .

١٨٣- محمد السيد الديب . دراسات في الأدب الجاهلي . الطبعة : الأولى . آيات . الزقازيق (١٤١٩هـ - ١٩٩٨م) .

١٨٤- محمد الشيخ محمود صيام . المعتقدات والقيم في الشعر الجاهلي . رسالة دكتوراه .كلية اللغة العربية . جامعة أم القرى (١٤٠٢هـ) .

١٨٥- محمد العمراني بدر معبدي . المعلقات ومكانتها في الشعر الجاهلي . رسالة دكتوراه مخطوطة. مصر ، جامعة الأزهر .

١٨٦- محمد الناصر . الجاهلية في الشعر الجاهلي أخلاق العرب بين الجاهلية والإسلام دراسة مقارنة على ضوء الإسلام . الطبعة : الأولى . دار الرسالة . مكة المكرمة . (١٤١٣هـ - ١٩٩٢م).

١٨٧- محمد النويهي .الشعر الجاهلي، منهج في دراسته وتقويمه.الدار القومية للطباعة والنشر (د.ت).

١٨٨- محمد زغلول سلاّم . النقد العربي الحديث ، أصوله ، قضاياه ومناهجه . طبعة : دار المعارف بمصر (د.ت) .

١٨٩- محمد زكي العشماوي . النابغة الذبياني مع دراسة للقصيدة العربية في الجاهلية . طبعة : دار الشروق . الأولى (١٤١٥هـ - ١٩٩٤م) .

١٩٠- محمد زكي العشماوي . موقف الشعر من الفن والحياة في العصر العباسي . طبعة : دار النهضة العربية . بيروت (١٩٨١م) .

١٩١- محمد صادق حسن عبد الله . المعاني المتجددة في الشعر الجاهلي . طبعة : مكتبة النهضة المصرية . القاهرة (١٤١٥هـ - ١٩٩٤م) .

١٩٢- محمد صالح الشنطي . في الأدب العربي القديم . طبعة : دار الأندلس . المملكة العربية السعودية . (١٤١٥هـ) .

١٩٣- محمد عبد السلام كفافي . في الأدب المقارن . دار النهضة العربية للطباعة والنشر . بيروت (١٩٧٢م).

١٩٤- محمد عبد العزيز الكفراوي . الشعر العربي بين الجمود والتطور . طبعة : دار نهضة مصر الفجالة . القاهرة (د. ت).

١٩٥- محمد عبد القادر أحمد . دراسات في أدب ونصوص العصر الجاهلي . طبعة : مكتبة النهضة المصرية . القاهرة (١٩٨٣م) .

١٩٦- محمد عبد الله دراز . دستور الأخلاق في القرآن . الطبعة : الرابعة . مؤسسة الرسالة . بيروت (١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م) .

١٩٧- محمد عبد المنعم خفاجي . الحياة الأدبية في العصر الجاهلي . الطبعة : الأولى . دار الجيل . بيروت (١٤١٢هـ - ١٩٩٢م) .

١٩٨- محمد علي أبو حمدة . في التذوق الجمالي لمعلقة امرئ القيس . الطبعة : الأولى . مكتبة الأقصى . عمان . الأردن (١٤٠٨هـ) .

٢٠٠- محمد علي طه الدرة . فتح الكبير المتعال إعراب المعلقات العشر الطوال . الطبعة : الثانية . مكتبة السوادي . جدة (١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م) .

٢٠١- محمد غنيمي هلال . النقد الأدبي الحديث . دار نهضة مصر للطبع والنشر . الفجالة . القاهرة (د.ت) .

٢٠٢- محمد فخر الدين . تاريخ العرب القدامى عن كتاب الوشي المرقوم للهمداني . القاهرة (١٩٣٣م) .

٢٠٣- محمد قطب . منهج الفن الإسلامي . الطبعة : الثامنة . دار الشروق . القاهرة (١٩٩٣م) .

٢٠٤- محمد محمد أبو موسى . التصوير البياني . الطبعة : الرابعة . مكتبة وهبة ، القاهرة (١٩٩٧م) .

٢٠٥- محمد محمد أبو موسى . دلالات التراكيب ، دراسة بلاغية . الطبعة : الثانية . مكتبة وهبة (١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م).

٢٠٦- محمد محمد أبو موسى . قراءة في الأدب القديم . الطبعة : الثانية . مكتبة وهبة . القاهرة (١٤١٩هـ - ١٩٩٨م) .

٢٠٧- محمد مريسي الحارثي . الاتجاه الأخلاقي في النقد العربي حتى نهاية القرن السابع الهجري . مطبوعات: نادي مكة الثقافي الأدبي (١٤٠٩هـ ــ ١٩٨٩م).

٢٠٨- محمد مندور . الأدب ومذاهبه . طبعة : دار نهضة مصر (د.ت) .

٢٠٩- محمد مندور . في الميزان الجديد . الطبعة : الثالثة . مكتبة نهضة مصر (د.ت).

٢١٠- مصطفى صادق الرافعي . تاريخ آداب العرب . طبعة : دار الكتاب العربي . بيروت (١٩٧٤م).

٢١١- مصطفى صميدة . الإسلام دين العقل والفطرة . الدار التوفيقية للطبع والنشر .القاهرة (د.ت).

٢١٢- مصطفى عبد الواحد . دراسة في الحب والأدب . طبعة : دار المعارف بمصر (د.ت) .

٢١٣- مصطفى ناصف . الصورة الأدبية . طبعة : مكتبة مصر . القاهرة (د.ت) .

٢١٤- مصطفى ناصف . قراءة ثانية لشعرنا القديم . الطبعة : الثانية . دار الأندلس (١٤٠١هـ).

٢١٥- مصطفى ناصف . نظرية المعنى في النقد العربي . الطبعة : الثانية . دار الأندلس . بيروت (١٩٨١م) .

٢١٦- مفرح إدريس أحمد سيد . الاتجاه الإسلامي في شعر محمد بن علي السنوسي . مطابع جامعة أم القرى (١٤١٨هـ - ١٩٩٧م).

٢١٧- مفيد قميحة . شرح المعلقات العشر . طبعة : دار الهلال . بيروت (١٩٩٧م).

٢١٨- المنجد في اللغة والأعلام . الطبعة : الحادية والعشرون . دار المشرق . بيروت (١٩٨٦م) .

٢١٩- ميخائيل نعيمة . الغربال . الطبعة : الثانية عشرة . مؤسسة نوفل . بيروت (د.ت).

٢٢٠- ناصر عبد الرحمن الخنين . الالتزام الإسلامي في الشعر . الطبعة : الأولى . دار الأصالة . الرياض (١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م) .

٢٢١- نجيب محمد البهبيتي .تاريخ الشعر العربي . الطبعة : الثالثة .مكتبة الخانجي . القاهرة (١٩٦٧م).

٢٢٢- ندى الشايع . معجم لغة دواوين شعراء المعلقات العشر تأصيلا ودلالة وصرفًا . الطبعة: الأولى . مكتبة : لبنان . بيروت (١٩٩٣م) .

٢٢٣- نصـــرت عبد الرحمن . الصورة الفنية في الشعر الجاهلي . الطبعة : الثانية . مكتبة الأقصى. عمّان (١٩٨٢م) .

٢٢٤- نعمات أحمد فؤاد . المرأة في شعر البحتري . طبعة : دار المعارف بمصر (١٩٦٢م).

٢٢٥- نـــوري حمـــودي القيســـي . الطبيعة في الشعر الجاهلي . الطبعة : الثانية . مكتبة النهضة العربية. بيروت (١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م).

٢٢٦- وهب روميـــة . الرحلة في القصيدة الجاهلية . الطبعة : الثالثة . مؤسسة الرسالة . بيروت (١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م) .

٢٢٧- ياســـين الأيوبي . مذاهب الأدب معالم وانعكاسات . الطبعة : الثانية . دار العلم للملايين. بيروت (١٩٨٤م).

٢٢٨- يحـــيى الجـــبوري . الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه . الطبعة : السابعة . مؤسسة الرسالة . بيروت (١٤١٥هـ - ١٩٩٤م).

٢٢٩- يحـــيى الشامي . زهير بن أبي سلمى الشاعر الحكيم . الطبعة : الأولى . دار الفكر العربي . بيروت (١٩٩٧م) .

٢٣٠- يحـــيى بن حمزة بن علي العلـــوي . الطـــراز . طبعـــة : دار الكتـــب العلميـــة . بيروت (١٤٠٠هـ) .

٢٣١- يوسف العظم . لو أسلمت المعلقـــــات . الطبعـــــة : الأولى . دار القلـــــم . دمشـــق (١٤٢١هـ)

٢٣٢- يوســـف خليف . دراسات في الشعر الجاهلي . دار غريب للطباعة والنشر . القاهـــــرة (د. ت)

٢٣٣- يوسف خليف . مقدمة ديوان نداء القمم . (د . ت).

الدوريات والصحف :

٢٢٤- الروائع . منشورات الآداب الشرقية . العدد (٢٦) . بيروت (١٩٥١م) .

٢٢٥- العقيق ، ملف ثقافي أدبي فصلي . إصدار : نادي المدينة المنورة الأدبي . العدد الخامس والعشرون . جمادى الأولى (١٤٢٠هـ) .

٢٢٦- الموسم الثقافي لكلية اللغة العربية . جامعة أم القرى (١٤٠٢هـ - ١٤٠٣هـ) .

٢٢٧- بحوث كلية اللغة العربية . جامعة أم القرى . العدد : الرابع (١٤٠٧هـ - ١٤٠٩هـ) .

٢٢٨- جريدة المدينة . ملحق الأربعاء الصادر في (١٤رجب ١٤٢١هـ) .

٢٢٩- عالم المعرفة ، سلسلة كتب ثقافية شهرية . إصدار : المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب . الكويت (شوال ١٤١٦هـ - مارس / آذار ١٩٩٦م) .

٢٣٠- كتاب الرياض . العدد : ٧٨ الصادر في (مايو ٢٠٠٠م) .

٢٣١- مجلة الأدب الإسلامي . المجلد الخامس (١٤١٩هـ) .

٢٣٢- مجلة الأدب الإسلامي . العدد : ١٣ (١٤١٧هـ) .

٢٣٣- مجلة الفيصل . العدد (٧٧) .

٢٣٤- مجلة الفيصل العدد (١١٤) ذو الحجة (١٤٠٦هـ) .

٢٣٥- مجلة المعرفة السورية . عدد حزيران (١٩٦٣م) .

٢٣٦- محاضرات النادي الأدبي الثقافي بجدة . المجموعة : الثالثة . (١٤٠٧هـ) .

****

قائمة المحتويات

الفهرس